موقفنا من التراث

تمهيد

لم يختلف المثقفون في الوطن العربي في الوقت الحاضر حول شيء قدر اختلافهم حول أهمية التراث بالنسبة لحياتنا الثقافية والدور الذي يمكن أن يؤديه في حركة الفكر ، ان كان له فيها دور على الاطلاق ، وقد أثيرت بذلك تساؤلات عديدة تتناول ماهية التراث وجدوى الاشتغال أو الانشغال به ، واذا ما كان يستحق كل ذلك العناء الذي يبذله المتخصصون في التنقيب عنه وتنقيحه وتحقيقه ونشره ودراسته ومدى الفائدة التي يمكن أن تعود علينا من كل هذه الجهود ، والمحكات والمعايير التي يمكن الاسترشاد بها في اختيار وانتقاء الأعمال التي تنشرها وتقدمها لجمهرة القراء . ولقد كان من الطبيعي أن تختلف وجهات النظر وتتعدد الآراء نتيجة لظروفنا الثقافية الراهنة والوضع الذي يجد فيه المثقفون أنفسهم ، والذي يكاد يصل الى حد التمزق النفسي الرهيب بين الرغبة في المحافظة على الهوية الثقافية العربية ، والدفاع عن مقومات الثقافة العربية والاسلامية ضد الغزو الثقافي ، أو ما يطلق عليه أحياناً اسم الامبريالية الثقافية والاستعمار الثقافي الوافد من الغرب من ناحية ، والرغبة في متابعة التطورات الثقافية والتيارات الفكرية التي يموج بها العالم في الخارج وما يرتبط بذلك من الاعتقاد بأن التراث القديم يمثل عبئاً ثقيلاً يعوق حركة الانطلاق في مجالات الفكر الحديث من الناحية الأخرى . وواضح أن هذه الأمور كلها تندرج تحت القضية الأساسية التي تعرف في الوقت الحالي بقضية الأصالة والمعاصرة . وهي قضية عامة تشترك فيها كل مجتمعات العالم الثالث ، أو المجتمعات التقليدية ، التي تخضع لعمليات التغير الاجتماعي والثقافي ، نتيجة لاتصالها المتزايد بالعالم الخارجي ، وقد تجاوزت القضية بذلك حدود الثقافة بالمعنى الضيق

للكلمة ، الى مجال الثقافة بالمعنى الانثربولوجي الواسع . ومن هنا كانت مشكلة التراث تنتمي الى دائرة أوسع وأعم وأشمل هي مشكلة العلاقة بين القديم والجديد التي نصادفها في كل المجتمعات التي تتعرض للتغير السريع الناجم عن احتكاك الثقافة التقليدية بثقافات أخرى غريبة أكثر تقدماً وتطوراً ، ووقوع الثقافة التقليدية الأصيلة تحت وطأة وتأثير الثقافة الوافدة ، وشعور تلك المجتمعات بالأخطار التي تتهدد ثقافتها ، والتي قد تصل الى حد طمس معالمها وهدم مقوماتها الأساسية ، ثم رد الفعل الطبيعي والمنطقي الذي يترتب على ذلك الشعور والذي يتمثل في أبسط صوره في الالتجاء الى التراث التقليدي للاحتماء به من هذا الخطر الثقافي الزاحف . فالوضع هنا يشبه الى حد كبير الوضع الذي سبق أن عالجته بقدرة وبراعة وعمق عالمة الانثربولوجيا البريطانية الأستاذة مونيكا هنتر Monica Hunter منذ حوالي نصف قرن في كتاب لها يحمل عنواناً له مغزاه هو « رد الفعل ضد الغزو Reaction to Conquest » ، وقد درست في هذا الكتاب الضخم العميق موضوعاً محدداً هو وطأة الحضارة الأوروبية على بعض الجماعات القبلية في جنوب أفريقيا . وكان لا بد لها أن تتناول بالوصف والتحليل نظمهم الاجتماعية الأصلية وعاداتهم وأنماط سلوكهم وقيمهم وثقافتهم التقليدية قبل الهجمة الثقافية الوافدة من الخارج ، ونوع الخلل الذي طرأ على هذه الحياة التقليدية ورد الفعل الذي تولد في المجتمع ازاء هذا الغزو الثقافي والصراع الذي نشب بين أنصار الجديد الذين يهتفون بتقبل الحضارة الغربية ومسايرتها على اعتبار أنها هي حضارة العصر التي سوف تتيح لهم اللحاق بأحداث العالم وتطوراته ، والخروج من حالة التقوقع الثقافي والفكري والاجتماعي التي يعيشون فيها ، وبين أنصار القديم الذين لا يرون في هذه الحضارة الجديدة الوافدة سوى التفكك الأسري والاجتماعي ، والأمراض الاجتماعية من دعارة وادمان للخمور ، وأمراض سرية وتناسلية وضياع للقيم والتقاليد ، بل وضياع للانسان ذاته نتيجة لازدياد النزعة الفردية ، وقتل روح الجماعة ، وهدم التماسك الاجتماعي ، وان من الخير الرجوع الى التراث القديم بكل ما يحمله من تقاليد وآداب غير مكتوبة ، ولكنها تتناقل شفاهة عبر الأجيال ، حاملة في ثناياها كل قيم المجتمع وأخلاقياته . فالموضوع كما عالجته مونيكا هنتر له اذن جانبه الانساني العام الذي يتعدى حدود تلك القبائل الافريقية المتخلفة ، ويتجاوزها الى كافة المجتمعات والثقافات التقليدية التي تتعرض للغزو الثقافي الأجنبي ومنها المجتمع العربي .

وعلى الرغم من الفوارق الجوهرية بين العالم العربي وتلك الجماعات الأفريقية القبلية ، فالموقف واحد في جوهره . والأمر لا يخرج في النهاية عن أن يكون عملية هجوم أو غزو ثقافي من الغرب وحضارته على الثقافة العربية الاسلامية وتهديد لها ، مما أثار لدى بعض الأوساط إحساساً عميقاً بالقلق ، تمثل في المناداة بضرورة العودة الى التراث والعمل على احيائه كنوع من الملاذ الأخير الذي يمكن أن نحتمي به من ضياع شخصيتنا الثقافية ، وان كانت هناك فئات أخرى ترحب بهذا الاحتكاك الثقافي وتقبله بدون مناقشة أو مع بعض التحفظات . فكأن الاهتمام بموضوع التراث واثارة مشكلة جدوى الاشتغال به ، واختلاف الآراء حول ذلك ، كل هذا نجم - الى حد كبير - من الشعور العام بالضعف والتخلف ازاء الثقافة الحديثة الوافدة من الغرب والرغبة الطبيعية لدى البعض على الأقل في الدفاع عن « الهوية الثقافية » ، والالتجاء في ذلك الى سلاح التراث ، على الرغم من كل ما قد يحمله ذلك من مخاطر العودة الى الماضي ، والتقوقع على الذات ، والانفصال عن الحاضر ، والابتعاد - الى حد كبير - عن التيارات الثقافية والفكرية المعاصرة .

ولست أقصد هنا الى التعرض للآراء المختلفة والأفكار المتضاربة حول قضية التراث . ولكنني أرجو أن أعرض

الموضوع من وجهة نظر محددة بالذات ، تقوم على التسليم منذ البداية بأهمية التراث وضرورة العمل على احيائه ـ أو احياء بعضه على الأقل ـ والتعريف به وتقريبه الى ذهن الرجل العادي فضلاً عن خاصة المثقفين ، على أمل أن يصبح ذلك التراث جزءاً أساسياً في تكويننا الفكري والثقافي .

ونقطة الانطلاق في هذه المعالجة هي اعتبار الثقافة وحدة كلية متكاملة وعملية مستمرة تتعدى في وجودها كل اللحظات الزمنية الآنية وتتصل حلقاتها بعضها ببعض ، بغير انقطاع على مر العصور ، على الرغم مما قد يطرأ على بعض مظاهرها من تغير واختلاف ، وما تتعرض له أثناء ذلك من إضافات واستعارات من الثقافات الأخرى التي تحتك بها . وهذا معناه أن الثقافة تنمو وتتطور وتكتسب قدرات جديدة باستمرار ، وأن العقبات التي قد تعترض سبيلها وتعوق نموها انما هي في آخر الأمر تجارب وخبرات جديدة ، من شأنها أن تزيد هذه الثقافة عمقاً وثراء اذا أحسن الاستفادة منها . وعلى ذلك فليس ثمة ما يدعو الى التنكر للجذور أو الأصول الثقافية القديمة أو قطع الصلة بها ، رغم أن ذلك سوف يساعد على تطوير واقعنا الثقافي ، وربطه بالحركات الفكرية السائدة في الخارج ، واضفاء طابع المعاصرة على هذا الواقع . وأي محاولة لقطع الصلة بين حاضر الثقافة وماضيها في أي مجتمع من المجتمعات لن يؤدي الا الى ظهور مسوخ ثقافية شوهاء لا تمت الى ذلك المجتمع بصلة .

ومن الناحية الأخرى ، فان استعارة عناصر ثقافية من مجتمعات وثقافات أخرى وتمثلها لن تؤدي بالضرورة الى ضياع المقومات الثقافية الأصيلة واختفائها تماماً ، بل قد يكون ذلك عامل قوة ونمو وثراء . واذا كنا نقول ان الثقافة كائن حي وعملية مستمرة ومتصلة الحلقات ، فان بقاء هذه الثقافة واستمرارها في الوجود ، وتطورها مع الاحتفاظ بأصالتها ومقوماتها الأساسية ، تستدعي ربط الماضي المتمثل في التراث الثقافي بالحاضر والعمل على تحديثه « وعصرنته » ـ ان صح هذا التعبير ـ عن طريق تقريبه الى الأفهام ، وتقديمه بصورة تتلاءم وتتفق مع ظروف وأوضاع ومتطلبات الحياة الفكرية في الوقت الحالي ، بحيث يصبح عنصراً متكاملاً في الثقافة المعاصرة . فالمسألة فيما يتعلق بالثقافة العربية والتراث العربي الاسلامي تنحصر في كيف نضمن الاحتفاظ بذلك التراث العريق ونضمن في الوقت ذاته عدم تخلفنا ثقافياً عن التيارات والحركات الفكرية الحديثة المتلاحقة .

والذي يدعو الى الاستغراب ، ويستحق الملاحظة ، هو أن التراث الثقافي لم يؤلف في الحضارة الغربية مشكلة عويصة تستنزف قوى المثقفين هناك ، وترهق عقولهم وتدفعهم الى ذلك الانقسام الخطير حول أهمية وجدوى الاهتمام به ، مثلما حدث في العالم العربي منذ أواخر القرن الماضي وحتى الآن . فعلى الرغم من كل ما أحرزه الغرب من تقدم في العلم والتكنولوجيا ، ومختلف مظاهر الحياة ، وأوجه النشاط العقلي والفكري فانه لم يتشكك قط في أهمية التراث ، أو على الأقل لم يعتبر ذلك مشكلة عويصة تستحق الوقوف أمامها طويلاً ، وتنقسم حولها الآراء ، وتتباين وجهات النظر ، بل على العكس من ذلك ، كان دائماً يعتبر الاهتمام بالدراسات التراثية مسألة مسلماً بها ، وليس علامة على التخلف أو عاملاً من عوامله ، وانه ليس ثمة تناقض على الاطلاق بين ذلك التراث سواء أكان هو التراث اليوناني الروماني ، أو تراث العصور الوسطى ، وحتى عصر النهضة ، وبين ما أحرزته حضارتهم وحققته من تقدم . فثمة اذن نوع من الاتصال والاستمرار ابتداء من الثقافة الهيلينية حتى الحضارة العلمية المعاصرة .

ولقد كانت هناك دائماً جهود طويلة مضنية ومتصلة لدراسة التراث الثقافي في الغرب وتحليله ومحاولة فهمه وتطويعه لمتطلبات العصر وتقريبه الى أذهان الأجيال التالية حتى يؤلف جزءاً من ثقافتهم الخاصة وتكوينهم الذهني . وهو الأمر الذي نفتقر اليه نحن هنا بالنسبة لتراثنا العربي والاسلامي العريق . ولسنا نقصد بذلك تلك الجهود المثمرة التي تبذل في الغرب لنقل التراث اليوناني الروماني ، وترجمته من لغته الأصلية الى اللغات الأوروبية الحديثة فحسب ، بحيث نجد أن العمل الواحد يترجم أكثر من مرة في اللغة الواحدة ، ويتوفر على هذه الترجمات كبار المتخصصين من الأساتذة ، وانما نقصد أيضاً (ترجمة) التراث داخل اللغة الواحدة من (اللغة) التي كانت سائدة في عصر من العصور الى (اللغة) السائدة الآن . والمثال الفذ في ذلك هو نقل ملحمة بيوولف Beowulf الشهيرة من اللغة الانجليزية القديمة الى الانجليزية الحديثة ، لتيسير قراءتها للرجل العادي . وذلك فضلاً عن الشروح والتعليقات والتفسيرات والدراسات المختلفة ، التي تتناول مختلف جوانب هذه الأعمال ، وتلقى الضوء عليها ، وتقربها الى ذهن الرجل الحديث ، وتساعد بالتالي على (عصرنة) ذلك التراث وتحديثه . بل لقد أخضع هذا التراث القديم للدراسة والتحليل في ضوء النظريات العلمية الحديثة بقصد التعمق في أغواره . فلم تهمل الأساطير اليونانية القديمة ، على زعم أنها خرافات تتعارض مع نظريات العلم الحديث ، وانما خضعت لتفسيرات التحليل النفسي وللتأويلات الانثربولوجية ، بل وكانت هي ذاتها مصدراً لقيام نظريات جديدة ، تحتل مكاناً مرموقاً في تاريخ العلم . والمثال الواضح لذلك هو نظرية فرويد عن عقدة أوديب التي تقوم وترتكز على أسطورة أوديبوس المشهورة . والدراسات التاريخية والاركيولوجية والانثربولوجية والاجتماعية والسيكولوجية وغيرها حول تلك الأساطير تفوق الحصر وليس ثمة ما يدعو الى الدخول هنا في تفاصيل هذا الموضوع . لأن كل ما يهدف اليه هو الاشارة الى موقف الحضارة الأوروبية العلمية العقلانية المعاصرة من التراث القديم ، وكيف أن هذا الموقف لم يسمح بوجود فجوة واسعة سحيقة ، تفصل بين الفكر القديم والفكر الحديث ، وذلك بعكس ما هو عليه الحال في الثقافة العربية ، حيث أدى الاهمال والتنكر الطويلان للتراث من ناحية ، والجري غير الواعي وراء الحضارة والفكر الغربي من ناحية أخرى ، الى قيام هذه الفجوة الرهيبة بين القديم الأصيل ، والجديد المعاصر ، وهي فجوة تعبر عن نفسها بوضوح في ذلك التساؤل الذي يثور الآن حول جدوى التراث ، وهل نهمله على اعتبار أنه من مخلفات الماضي ، أم نعمل على احيائه كوسيلة للمحافظة على الهوية الثقافية بصرف النظر عن قيمته في ذاته .

وتحمل هذه النظرة الضيقة - وهذا أقل ما يمكن أن يقال عنها - كثيراً من الخطر لأنها انما تهتم بالتراث حتى تهرب من الحاضر الواقع بشروره ومتاعبه ، وتعيش في الماضي الذي يمثل المرحلة الزاهرة السعيدة في تاريخ الفكر العربي والأصالة العربية . ولذا فان أصحاب هذه النظرة لا يأبهون كثيراً بمسألة (تحديث) التراث ، أو العمل على تقريبه للأذهان والأفهام ، وتحليله في ضوء النظريات العلمية الحديثة بقدر ما يهتمون بمجرد التحقيق والنشر والشرح اللغوي ، والدعوة الى التمثل بالتراث ، وإحياء القيم التي كانت تلازمه ، والعودة الى أنماط الحياة المرتبطة به . ولست أعتقد أن ذلك هو خير أسلوب لخدمة التراث وتطويره . . فهو موقف يؤدي في آخر الأمر الى جمود ذلك التراث ذاته ، وبقائه على ما كان عليه ، وزيادة النفور منه ولن يؤدي بحال الى أن يصبح ذلك التراث جزءاً من الحياة الثقافية والفكرية المعاصرة .

ولسنا ننكر أو نهون من شأن الجهود التي يبذلها المتخصصون في تنقيح التراث ونشره ، ولكن هذه كلها عمليات تتم في

نطاق ضيق محصور ، ويقوم بها متخصصون لخدمة غيرهم من المتخصصين ، ولا يكاد أثرها يتجاوز حدود المهتمين بالدراسات التراثية ، دون أن تمس في ذلك القارىء العادي ، أو من يمكن تسميته بالمثقف العام . وصحيح أن هناك بعض الجهود التي تبذل لاعادة كتابة التراث وتبسيطه ، وتقديمه في أسلوب عصري حديث بقصد تقريبه الى أذهان وأذواق وأفهام النشء ، وقد حققت هذه المحاولات - أو بعضها على الأقل - كثيراً من النجاح ، ولكنها مع ذلك جهود فردية وقليلة وينقصها عنصر الاستمرار . والطريف في الأمر هو أننا كنا الى عهد غير بعيد نعطي مسألة تقريب التراث من أذهان النشء أهمية وعناية أكبر مما نعطيه لها الآن ، وكانت كتب التراث المبسطة أو (المهذبة) توزع على طلاب المدارس في مرحلة التعليم الثانوي . وأفضل الأمثلة على ذلك كتابان كان لهما بغير شك شأن في تعريف الطلاب ببعض التراث العربي ، وكانا بداية لاثارة اهتمام الكثيرين بمتابعة الكتابات التراثية ، وأعني بهما كتاب (مهذب رحلة ابن بطوطة) بعد تنقية الكتاب الأصلي من كثير من الشوائب والاطناب والتطويل الممل ، بحيث أصبحت قراءته متعة للكثيرين ، وكتاب (كليلة ودمنة) . بل الأكثر من ذلك أن بعض كتب التراث كانت تقرر على الطلاب في صورتها الأصلية بغير حذف أو تبسيط أو تعديل الا في أضيق الحدود ، ان كانت تنالها يد التغيير على الاطلاق .

والمثال الذي يحضرني الآن هو كتاب قدامة بن جعفر (نقد النثر) الذي كان يقرأه طلاب السنوات الأخيرة من المرحلة الثانوية رغم صعوبته وعمقه . وما أظن أن الكثيرين من خريجي الجامعات العربية الآن ، بما في ذلك خريجو كليات الآداب ، قرأوا هذا الكتاب أو حتى سمعوا به وباسم صاحبه . وليس السبب في هذا الوضع هو عيب الأجيال الناشئة ، بقدر ما هو عيب نظام التعليم وفلسفته في الوقت الحالي ، والميل الغالب الى التبسيط والتسطيح . ولكن هذه مسألة أخرى ليس هنا مجال التعرض لها

والمهم هنا هو أن الذي نفتقر اليه بحق هو العمل على نقل أو (ترجمة) التراث الى اللغة الحديثة السائدة بين أوساط المتعلمين كوسيلة أولى لتقريب التراث وادخاله الى حياتنا الفكرية كي يصبح جزءاً عضوياً من تفكيرنا ، وحتى يلتحم مع بقية مكونات الثقافة العربية المعاصرة بنفس المعنى الذي التحمت به الأعمال التراثية في الغرب بالثقافة العلمية الحديثة المتطورة .

وسوف يساعد ذلك بطريقة فعالة ومجدية على إحياء الأعمال التراثية الأصيلة ذاتها . ولست أقصد بالأحياء هنا عملية النشر بعد تحقيق النص بالأسلوب التقليدي المتبع الآن ، وانما المقصود بالاحياء هنا نفخ الحياة من جديد في هذا التراث ، وبعثه من رقدته عن طريق تحديثه واعادة النظر فيه ، في ضوء النظريات العلمية الحديثة ، سواء أكانت نظريات لغوية أم سيكولوجية أو اجتماعية أو انثربولوجية أو غير ذلك . وكما سبق أن ذكرنا فان الأسلوب المتبع حتى الآن في تحقيق التراث ونشره ، يترك هذا التراث في آخر الأمر مادة ميتة خالية من الحياة بالنسبة لعامة المثقفين ، أو حتى خاصتهم من غير المتخصصين في شئون التراث ، لأنها تقنع بتقديمه في ضوء العصر الذي ظهر فيه فحسب ، وبذلك يبدو جزءاً من ذلك الماضي الذي راح وانقضى ، ويظل بعيداً وغريباً عن الثقافة المعاصرة ، بل ومتعارضاً معها في كثير من الأحيان . واذا كنا قد أشرنا الى بعض الجهود التي بذلت لتبسيط التراث ، وتقديمه لطلاب المدارس الثانوية في فترة

معينة من تاريخنا المعاصر ، فان ثمة جهداً ينبغي الاشارة اليه والاشادة به لانه كان يحاول تقريب هذا التراث للقارىء المثقف في العالم العربي ، ولكنه توقف هو أيضاً رغم ما حققه من نجاح . وأنا أعني بذلك الجهد المضني الذي بذل في اصدار مجلة (تراث الانسانية) التي كانت تنشر في مصر ، واستمرت في الصدور تسع سنوات ، وكان لي حظ الاشراف على تحريرها لفترة قصيرة ، قبل أن تعصف بها القرارات غير المدروسة والمتسرعة ، فتوقفت عن الصدور ، رغم ما كانت تؤديه من خدمات ممتازة في مجال التعريف بالتراث . فقد كانت المجلة تعنى بتقديم أمهات الكتب التراثية العالمية (وليس فقط كتب التراث العربي الاسلامي) ، وتعرّف بهذه الكتب وتقدم ملخصات وافية لمحتواها ، والعصر الذي ظهرت فيه ، وحياة أصحابها ، ومقتطفات منها ، والأثر الذي تركته . وربما كان أهم نقطة عرضت لها بعض الكتابات التي ظهرت في هذه المجلة ، هو الاهتمام بابراز المنهج الذي اتبع في تلك الأعمال ، والموقف المنهجي والنظري لأصحابها . فهذه ناحية هامة وجوهرية بغير شك ، كما أنها هي الناحية التي تتعدى وتتخطى كل حدود الزمان والمكان . واذا كان هناك من يرفض الاهتمام بأعمال التراث ، على أساس أن المادة التراثية تنتمي الى عصور غير عصرنا ، فليس هناك من يستطيع أن يرفض المشكلات والمواقف المنهجية ، التي تكشف عن التوجه العقلي ، أو الموقف الذهني الذي يصدر عنه الكاتب في كتاباته .

فكأن الذي يهم في المحل الأول في دراسة التراث ومحاولة احيائه والاهتمام به ، ليس هو المادة التي تضمها الأعمال التراثية وانما المبادىء العقلية وقوانين الفكر التي كانت تحكم تفكير المفكرين والكتاب والعلماء والأدباء الذين تركوا لنا هذا التراث الضخم ، والأسلوب الذي كانوا يتبعونه في التأليف والدراسة والتحليل ، والمناهج التي كانوا يصدرون عنها ، والتي كانت توجه دراساتهم وبحوثهم ، على اعتبار أن المنهج هو في جوهره موقف عقلي يقفه الباحث ، ويتمسك به في نظرته الى الأشياء . فالذي يبقى من كل النتاج الفكري بعد أن تزول أهمية وجدّة المادة ، هو المنهج والطرائق والمعايير التي كان يتمسك بها أصحاب تلك الكتابات ، وربما كان ذلك أوضح في الأعمال التراثية العلمية منه في الكتابات التي تدور حول الموضوعات الانسانية ، من أدبية وفلسفية واجتماعية . فالمادة العلمية في كتب التراث لم تعد تتلاءم بغير شك مع العصر الحديث ، بعد كل ما أحرزه العلم من تقدم ، ومع ذلك فان هذه الكتابات العلمية ذاتها تكشف لنا بغير شك عن نوع التفكير الذي كان يسود في العصر الذي تنتمي اليه ، والاهتمامات التي كانت تشغل بال العلماء وتستقطب جهودهم ، كما أنها تكشف لنا عن مدى ما تحقق من تقدم علمي في عصر معين من العصور . والأهم من هذا كله هو أنها تكشف لنا عن القيود والضوابط والمبادىء والمعايير التي كانت تحكم عملية التفكير والبحث العلمي . وهذه أمور أكثر بقاء واستمراراً ويمكن أن تكون جزءاً من موقفنا نحن الآن في نظرتنا الى الأشياء ، وذلك لو أمكن لنا دراسة هذه الأعمال التراثية من هذه الزاوية بالذات . فمسألة المنهج في الكتابات التراثية اذن مسألة محورية وتستحق أن تعطى ما هي جديرة به من عناية واهتمام .

وثمة ناحية أخرى قلما نلتفت اليها في دراستنا للأعمال التراثية ، وان لم تغب عن أذهان بعض المستشرقين والمهتمين بالتراث العربي والاسلامي من الأجانب ، وأعني بذلك اخضاع بعض القضايا والأحكام الواردة في كتب التراث للفحص والاختبار ، ليس في ضوء الظروف التي أنتجتها ، ولكن في ضوء المعطيات والأوضاع الراهنة التي تسود الآن في

المجتمع العربي ، أو حتى في غيره من المجتمعات التقليدية ، بحيث تعتبر هذه القضايا والأحكام بمثابة الفروض التي يراد اختبار مدى صحتها ، بالرجوع إلى ملابسات وشروط جديدة . والمثال الذي أحب أن أشير إليه هنا لتوضيح ما أريد أن أقول ، هو مبدأ « العصبية » كما عرضه ابن خلدون في « المقدمة » فنحن نعرف أن كثيراً من علمائنا ومفكرينا درسوا « المقدمة » وظهرت حولها كتابات عديدة ، تتفاوت فيما بينها تفاوتاً شديداً في درجة العمق ، والقدرة على التحليل ، وإلقاء الضوء على آراء ابن خلدون ، أو مجرد العرض السريع الضحل والتلخيص الميسر وترديد آراء ابن خلدون بعد صياغتها في عبارات أخرى كثيراً ما تكون أقل دقة وإحكاماً من عبارات ابن خلدون نفسه . وهذا لا ينفي بطبيعة الحال وجود عدد قليل من الكتابات الممتازة عن ابن خلدون ، ومقدمته وآرائه ونظرياته ، كما لا ينكر وجود دراسات أخرى تناقش هذه الآراء بالإشارة إلى بعض النظريات الاجتماعية الجديدة . فهذه كلها إسهامات تستحق الاحترام والإعجاب . ولكن ما أقصده هنا هو أن مبدأ العصبية عند ابن خلدون يستحق أن يعرض له بعض الباحثين العرب بالمناقشة ، في ضوء المادة الاثنوجرافية التي يتم جمعها من المجتمعات القبلية القائمة الآن في الوطن العربي ، فمثل هذا العمل خليق بأن يبين لنا في آخر الأمر مدى دقة نظرية ابن خلدون ، ومطابقتها للواقع ، وصلاحيتها لفهم وتفسير أحد أشكال التنظيم الاجتماعي في المجتمع العربي المعاصر . والمعروف أن نظرية ابن خلدون قد أثارت مخيلة عالم اللاهوت ، المستشرق الشهير « وليام روبرتسون سميث » وأنه استرشد بها في دراسته لنظام القرابة في بلاد العرب القديمة ، وهو كتاب أثر بدوره في مخيلة عالم الانثربولوجيا البريطاني الشهير « إيفانز بريتشارد » فاستعان بهذه النظرية ذاتها في دراسته لنظام القرابة لدى قبائل النوير في جنوب السودان ، وعلى حد أقل في دراسته الرائعة العميقة عن التنظيم الاجتماعي والقبلي في برقة (ليبيا) ، وذلك في كتابه الشهير عن (The Sanusi of Cyrenaica) وقد أوحت هذه النظرية لإيفانز بريتشارد بالخروج علينا بمبدأ هام ، يفسر في ضوئه نسق القرابة والنسق السياسي في هذين المجتمعين ، وهو المبدأ الذي يعرف الآن في كل الكتابات الانثربولوجية المعاصرة باسم « الانشقاق والالتحام » . فهذا مجال طيب إذن لما يمكن أن نفعله في مجال الاهتمام بالتراث العربي الضخم ، والعمل على إحيائه ، وتطويعه لمتطلبات العصر والظروف القائمة الآن ، بدلاً من الاكتفاء بتحقيقه ونشره وتلخيصه وربطه طيلة الوقت بالعصر الذي أنتجه ، وبالتالي تقييده وتكبيله بقيود الماضي ومنعه من الانطلاق والتحليق (*) .

●●●

ولقد كانت الفلسفة التي تكمن وراء هذا العدد الذي بأيدي القراء هي أن يقوم الأساتذة الباحثون بمحاولات رائدة في مجال إعادة النظر في بعض الكتابات التراثية ، وقراءة هذه الأعمال قراءة جديدة لا تقنع بالتلخيص ، والتي ترمي في المحل الأول إلى تقديم هذه الأعمال في ضوء العصر الذي نعيش فيه ، مع الاهتمام بوجه خاص بالنواحي المنهجية .

(*) سبق لي أن طرحت هذا الموضوع على بعض الزملاء من أساتذة الانثروبولوجيا في بعض الجامعات العربية ، على أمل أن يقوم واحد منهم أو أكثر ليس فقط بدراسة مبدأ العصبية ، وإسهام كل من روبرتسون سميث ، وإيفانز بريتشارد وتلاميذه في فهم ابن خلدون ، وإنما القيام بمثل هذه الدراسات من وجهة نظر عربية من ناحية ، ومحاولة البحث عن بعض المبادئ النظرية في كتب التراث الأخرى ، التي تصلح الآن لتكون فروضاً موجهة لبحوث أصلية جديدة ، مما يؤدي إلى ارتباط الماضي بالحاضر ، وبالتالي استمرار التراث في الكتابات المعاصرة . ولعله مما يشير إلى استجابة البعض لذلك ، وقرب ظهور عدد من الدراسات في هذا المجال الخصب .

ولقد ركزنا في طلبنا اليهم جميعاً على ضرورة ابراز هذه النواحي ، باعتبارها الجانب الاكثر رسوخاً واستمراراً ، والتي يمكن أن توجه البحوث التراثية في المستقبل . وهذه على أية حال بداية لجهود طويلة ، نرجو أن نستمر فيها ، على أمل أن يؤدي ذلك الى الوصول الى نظرة متكاملة الى مناهج البحث في الأعمال التراثية ، والمبادىء العقلية التي كانت تحكم هذه الأعمال ، ومدى امكان الاستعانة بهذه المناهج والمبادىء في إقامة فكر عربي جديد ، يسترشد بجهود المفكرين السابقين مثلما يسترشد بالفكر الغربي المعاصر .

د. أحمد أبو زيد

❊❊❊

ابن خلدون مؤرخاً
تاريخ العرب والبربر في كتاب العبر

سعد زغلول عبد الحميد
قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة الكويت

التمهيد :

حول المقدمة والتاريخ :

قد يظهر لأول وهلة أن اختيار ابن خلدون كمؤرخ ، والتعرض لكتابه العبر ، أمر مستغرب . فابن خلدون أشهر من أن يعرف ، وكتابه غلب على غيره من كتب التاريخ الاسلامي في المشرق وفي المغرب .

واذا كان من المعروف ان الباحثين المحدثين كرسوا لدراسة ابن خلدون وكتاب العبر العديد من الأبحاث ، مما لم يحظ بمثله غيره من علماء العرب ومفكري الاسلام ، فانه من المعروف ايضا أن الجزء الأول من العبر ، الذي اشتهر باسم « مقدمة ابن خلدون » هو الذي أذاع صيت المؤرخ المغربي الكبير ، ورفعه ، كما أراد الكثيرون بحق ، الى مصاف الفلاسفة وكبار المفكرين .

والحقيقة ان الكتاب الأوروبيين بدأوا الاهتمام جديا بدراسة ابن خلدون منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بعد أن قام دسلان (De Slane) ، الذي كان قد شغل منصب المترجم الرسمي للجيش الفرنسي في الجزائر قبل ان يصبح عضوا بالمجمع الفرنسي ، بترجمة الاقسام الخاصة بتاريخ البربر من كتاب العبر الى الفرنسية ، ثم بترجمة الجزء الأول من الكتاب الى الفرنسية تحت عنوان « مقدمات ابن خلدون » Les Prolegomenes . فكأن الأوروبيين هم الذين أطلقوا اسم المقدمة أو المقدمات على الجزء الأول من تاريخ العبر ، اذ أن ابن خلدون يسمى هذا الجزء من كتابه بـ : « الكتاب الأول في : « طبيعة العمران في

الخليقة ، وما يعرض من البدو والحضر ، والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما يشبهه من العلل والأسباب »[١] .

والصحيح ان لتاريخ ابن خلدون مقدمتين : أولاهما لا تحمل عنوانا ، وهي خطبة الكتاب في ٤ صفحات (١ - ٧) ، وتبدأ بالحمدلة والتصلية . أما البعدية فهي في التعريف بفن التاريخ ، موضوع الكتاب ، الذي يسميه « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » ، ثم رتب الكتاب على :

- مقدمة : في فضل علم التاريخ
- ثم ثلاثة كتب : - الأول في العمران
- الثاني في اخبار العرب
- الثالث في اخبار البربر

وهو يشير بعد ذلك الى انه انتهز فرصة الرحلة الى المشرق من اجل تكملة الكتاب فيما يتعلق بتاريخ المشرق ودول العجم هنالك . ويختم ابن خلدون خطبة الكتاب هذه بالاشارة الى عنايته بأولية الأجيال والدول ، وأسباب التصرف والحول ، وما يعرض في العمران من بدو وحضر مع ايضاح البراهين والعلل . وهو يعرف قيمة كتابه بفضل علومه الغريبة ، ويهدي نسخته الى السلطان ابي فارس عبدالعزيز (ابن السلطان ابي الحسن) المريني ، ليوقف على خزانة طلبة العلم المرينية بجامع القرويين بفاس .

أما مقدمة الكتاب كما ألفها ابن خلدون فتقع في حوالي٢٢ صفحة من طبعة بولاق (٧ - ٢٨) وهي تحمل عنوان : « فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها » . وهي مع الخطبة الأولى تكونان موضوعا واحدا في علم التاريخ ، وتعتبران جميعا مقدمة الكتاب . وهكذا لا يخرج ابن خلدون في كتابة مقدمة كتابه التاريخي على ما كان متعارفا عليه ، عند من سبقه من كتاب العرب والمسلمين ، من مؤرخين وغيرهم . فهو يكتب مقدمة في عدد قليل من الصفحات بغرض بيان اهداف الكتاب ، من : التعريف بالعلم الذي يعالجه ، والمنهج الذي يتبعه في التأليف والمظان التي يرجع اليها ، الى جانب ما يرجى من انتهاج سبيل الحق والعدل ، غرض كل بحث علمي .

المقدمة في التاريخ :

يعرف ابن خلدون التاريخ في المقدمة بأنه « فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية (ج١ ص٧) ، وهو ينص قبل ذلك في الخطبة (ج١ ص٣) ، على انه علم من النوع السهل الممتنع ، كما نقول الآن ، اذ : « يتساوى في

(١) انظر طبعة بولاق ١٨٥٧ ، وهي المصورة في ط . بيروت باسم منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ١٣٩١ - ١٩٧١م . والنص في ٦٣٤ ص يضاف اليها الفهرسة في ١١ ص

فهمه العلماء والجهال ، فهو علم له « ظاهر » و« باطن » . والظاهر هو الشكل الخارجي المتمثل في الأحداث او الاخبار التاريخية في تسلسلها الزمني المعروف . اما الباطن فهو يعني كنه العملية التاريخية من حيث النظر في اسباب الوقائع وتحقيق عللها وبيان العلاقة بين المقدمات والنتائج في مسار الحوادث . ولكل ذلك فالتاريخ ، كما يراه : « اصيل في الحكمة عريق ، وجدير بأن يعد في علومها وخليق » . بمعنى ان التاريخ علم عقلي بدلا من تصنيفه بين العلوم النقلية .

ومجرد النقل ، دونما تحقيق وتدقيق ، مرفوض في التاريخ ، فهو السبب الأول لما يقع فيه الناقلون من المغالط . والتاريخ محتاج الى معارف مساندة متنوعة ، من : « قواعد السياسة وطبيعة العمران ، والأحوال في الاجتماع الانساني » الى جانب قياس الحاضر بالماضي وعكس ذلك من قياس الماضي بالحاضر (ج١ ص٧ ، ص٢٣) .

وهو يفرق بين « فحول المؤرخين » في الاسلام وبين الأدعياء المتطفلين ، ويضع في طبقة الكبار : ابن اسحق ، والطبري وابن الكلبي والواقدي ، والمسعودي (ج١ ص٣) ، وهؤلاء هم اصحاب التاريخ العام . اما اصحاب التواريخ المحلية من الكبار ، فمنهم ابن حيان مؤرخ الاندلس والدولة الاموية بها ، والرقيق مؤرخ افريقية والدول التي كانت بالقيروان[٢] .

ويأتي بعد الطبقة الأولى من المؤرخين ، طبقة ثانية من المقلدين الذين يوصفون ببلادة الطبع والعقل ، فيكتفون باحتذاء المثال ، ويكررون في موضوعاتهم الأخبار المتداولة بأعيانها لا يذكرون اسباب نشوء الدول وتطورها ، ولا يعرفون علة الوقوف عند غايتها (ج ١ ص٤) .

ويصنف ابن خلدون طبقة ثالثة من صغار المؤرخين الذين افرطوا في الاختصار ، فاكتفوا في تقليدهم بأسماء الملوك ، وعدد ايام ملكهم ، دونما اشارة الى الانساب (ج١ ص٤) والأنساب كانت مهمة في القديم من اجل معرفة العائلات المالكة ، والاسر الوزارية واصول اصحاب الوظائف العامة (ج١ ص٢٦) . وهو يعطي نموذجا لهذا النوع من التاريخ هو كتاب ابن رشيق القيرواني ، الموسوم بـ « ميزان العمل » (ج١ ص٤) .

وهو يضيف بعد هؤلاء طبقة رابعة فمن يسميهم بالعوام ، ومن لا رسوخ لهم في المعارف وهم الذين استخفوا مطالعة التاريخ وحمله ، والخوض فيه والتطفل عليه ، فاختلط اللباب بالقشر ، والصادق بالكاذب (ج١ ص٢٣) .

نقد طبقة الكبار من الفحول :

ولكن تصنيف مؤرخي الاسلام في طبقات اشبه بطبقات الخاصة والعوام والجماهير في المجتمع لا يعني وجود فواصل دقيقة بينهم ، أو ان طبقة الخاصة منهم كانت فوق مستوى نقد مؤرخنا الذي جعل التاريخ في مصاف العلوم الحكمية اي العقلانية الراقية .

---

(٢) العبر ، ج ١ ص ٤ . في الأصل « أبو حيان » و « ابن الرقيق » .

فالمسعودي الذي وضعه في قمة الكبار من الفحول ، وجعله النموذج الذي احتذاه في موسوعيته من الى يعده فنحا منحاه (ج١ ص٤) ، وكذلك الواقدي لا تسلم كتبها (من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الاثبات ، ومشهور بين الحفظة الثقات » ورغم ذلك « فان الكافة اختصتهم بقبول اخبارهم ، واقتفاء سننهم في التصنيف واتباع آثارهم » . وهنا ينص على أن « الناقد البصير قسطاس نفسه ، في تزييفهم فيما ينقلون او اعتبارهم . فللعمران طبائع في احواله ترجع اليها الأخبار ، وتحمل عليها الروايات والآثار » (ج١ ص٣) .

وهو عندما ينتقل في مجال النقد التاريخي من التعميم الى التخصيص ، ينكر على المسعودي اكثر من رواية وهمية ومغلوطة ، مما يتعلق بالتاريخ القديم او تاريخ الرسل وما يختص بتاريخ الخلفاء . وفي الرواية الأولى ينتقد الوهم في احصاء اعداد العساكر حيث اخذ المسعودي بالرواية التي تقول ان جيوش بني اسرائيل التي أحصاها موسى (عم) بلغت ٦٠٠ الف رجل او اكثر [٣] والثانية متعلقة بالروايات الاسطورية التي تريد ان يكون ملوك اليمن القدامى (التبابعة) قد غزوا افريقية وبلاد المغرب ، وان ملكهم افريقش هو الذي سمى اهل المغرب باسم البربر ، وان قبائل صنهاجة وكتامة حفدة الحميريين من اليمنية . وهي الرواية التي اخذ بها كل من الطبري والجرجاني وابن الكلبي ـ الامر الذي يأباه بحق نسابة البربر[٤] .

وابن خلدون ينكر ايضا ان تكون قصة زواج العباسة اخت الرشيد بجعفر بن يحيى هي السبب في نكبة البرامكة ، ويأبى على العباسة ان « تدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم » كما يتساءل : « وكيف يسوغ من الرشيد ان يصهر الى موالي الاعاجم على بعد همته وعظم آبائه » . وهنا يطبق ابن خلدون نظريته في قياس الماضي بالحاضر او الغائب بالشاهد فيقول :

« ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها . وفي سلطان قومها ، واستنكره ولج في تكذيبه » . وهو يقدم اثر ذلك الاسباب المنطقية للنكبة ، مما يتمثل في استبداد البرامكة بالدولة (ج ١ ص١٣) ، وهو ما اخذ به ابن عبد ربه (ج١ ص١٤) .

أما ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد للخمر ، فمردود عليه بما يشهد به الطبري له من الدين والعدالة ، وصحابة العلماء والعبادة (ج١ ص١٤) والمعروف ان الرشيد كان يجتنب الخمر ، وان كان يشرب النبيذ (نبيذ التمر) على مذهب اهل العراق (ج١ ص١٥) .

وقصة ابن عبد ربه التي تحكي عن زواج الخليفة المأمون ببوران ابنة الحسن بن سهل اثر مغامرة قصصية مثيرة ، صعد فيها الخليفة الى سطوح بعض الدور العالية في زنبيل مدلى بمعالق وجدائل من الحرير ، مرفوضة هي الاخرى بالنسبة للخليفة الذي عرف بدينه وعلمه وكذلك بالنسبة لمنصب ابنة الحسن بن سهل وشرفها (ج١ ص١٧) .

---

(٣) وهو يفند صحة الرقم عن طريق عدم امكانية ادارة مثل العدد في صفوف منتظمة في ميدان القتال ، وكذلك عن طريق المقارنة بجيوش الفرس في القديم وعند الفتح العربي حيث لم يزيدوا في القادسية عن ٦٠ الفا أو ١٢٠ الفا عند المكثرين (انظر لا ج ١ ص٨ مثلا ، كما ثبت في الاسرائيليات أن جنود سليمان كانت ١٢ الفا (الفرع ١ ص ٩) .

(٤) ج ١ ص ٩ ، وانظر كذلك ص ١٠ حيث الاشارة الى أن ملوك اليمن غزوا المغرب وكذلك المشرق حتى بلاد الصين والروم حتى القسطنطينية ، وحيث يقول : وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة ، عريقة في الوهم والغلط ، وأشبه بأحاديث القصص الموضوع .

وابن خلدون يعارض بعد ذلك من ينفي نسب الفاطميين ، ويستدل على صحة النسب بنجاح الدعوة . فكأنه يأخذ بالمبدأ القانوني الذي يقول ببطلان كل ما بني على باطل . ويدلل على صحة هذه المقالة بما حدث للقرامطة الذين تلاشت دعوتهم بعد ظهورها بصفتهم ادعياء في النسب الشريف (ج١ ص١٨) أما عن موقف العباسيين من الفاطميين وانكارهم لنسبهم ، فأسبابه الأحقاد السياسية .

وهنا يشير ابن خلدون الى واحدة من نظرياته في السياسة فيقول « ان الدولة والسلطان سوق للعالم تجلب اليه بضائع العلوم والصنائع . . . وتهدي اليه ركائب الروايات والاخبار وما نفق فيه نفق عند الكافة . فان تنزهت الدولة عن التعسف والميل والأفن . . . ولم تجر عن قصد السبيل نفق في سوقها الابريز الخالص واللجين المصفى وان ذهبت مع الاغراض والحقود ، وماجت بسماسرة البغي والباطل نفق البهرج والزائف » وهو يتبع ذلك بمبدئه النقدي الذي يقول : والناقد البصير قسطاس نظره ، وميزان بحثه وملتمسه » (ج١ ص١٩) .

وابن خلدون عندما يدافع بعد ذلك عن صحة نسب الادارسة الشرفاء ، يجنح بعض الشيء عن قواعد النقد التي يقررها فالى جانب ما يدلل به على صحة النسب ، من ظهور احوال البادية ، وعداء الدولة العباسية ، يقف بقوة الى جانب تنزيه اهل البيت ، وان فراش ادريس طاهر من الدنس ومنزه عن الرجس بحكم القرآن ، ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء بإثمه وولج الكفر من بابه .

وهو يفسر اطنابه في الدفاع عن الادارسة بسبب ما سمعه بنفسه من بعض القادحين في نسبهم افتراء ، على زعم انه ينقله عن بعض مؤرخي المغرب ممن انحرف عن اهل البيت . ويختم ذلك قائلا : « ونفي العيب حيث يستحيل العيب عيب ، لكني جادلت عنهم في الحياة الدنيا ، وارجو ان يجادلوا عني يوم القيامة » (ج١ ص٢١) . وهنا يخرج ابن خلدون عن موضوعيته وعقلانيته في سبيل التشيع للادارسة ـ ملوك المغرب ـ وحب آل البيت .

وهو بعد ذلك يدافع عن صحة نسب المهدي محمد بن تومرت صاحب الدعوة الموحدية ضد خصومه من ضعفة الرأي من فقهاء المغرب وقتئذ ، ويستند في تأييد صحة نسبه الى نجاح دعوته ، فكأنه يقرر مبدأ في طبيعة الاشياء من حيث ضرورة : كون النتائج من جنس المقدمات . هذا ، وان عاد وأكد ان سبب نجاح ابن تومرت هو الاستناد الى العصبية في قبائل مصمودة لأن النسب الفاطمي كان خفيا قد درس عند الناس ، وبقي عنده وعند عشيرته ، يتناقلونه فيما بينهم . فان ابن تومرت انسلخ من نسبه الأول (الفاطمي) « ولبس جلدة هؤلاء (المصامدة) وظهر فيها ، فلا يضره الانتساب الأول في عصبيته اذ هو مجهول عند اهل العصابة » ، وهو الأمر الذي له نظائر عند العرب (ج١ ص٢٣) .

نظرية التطور « تبدل الأحوال » :

وبعد ايراد تلك الامثلة من مغالط المؤرخين يعود ابن خلدون مرة اخرى الى اسباب الغلط عندهم ، والعلوم التي يحتاج اليها المؤرخ ، واصول النقد التاريخي مما سبقت الاشارة اليه ، وكل ذلك كتمهيد لأهم نظرياته التاريخية ، وهي نظرية التطور التي يسميها بـ « تبدل الاحوال » .

والحقيقة ان ملاحظة التطور في المجتمع هي اهم اهداف المؤرخ ، فهي التي تميز بين التاريخ في شكله التقليدي القديم الذي يعني تسجيل الاحداث ، كما وقعت ، بمعنى الاخبار وبين التاريخ كعلم يعني بشرح اسباب الاحداث وبيان اوليائها . فكأن التاريخ له وجهان كما يقال عن العملة وهما : الظاهر والباطن عند ابن خلدون . والظاهر هو القشر او الزبد الطافي على السطح ، والباطن هو اللب او القاع من البحر حيث الجوهر .

وفي التطور يقول ، ان احوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف على الايام والازمنة ، وانتقال من حال الى حال ، وكما يكون ذلك في الاشخاص والأوقات والأمصار ، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عباده » (ج١ ص٢٤) ويلاحظ ابن خلدون ان هذا التطور يكون بطيئا فلا تظهر علاماته بشكل واضح الا على المدى الطويل ، وهكذا لا يتفطن الى تلك الحركة الخفية الا « آحاد من اهل الخليقة » اي الموهوبين من اهل البصر والبصيرة ، كما نرى .

وهو يجعل هذا التبدل في الأحوال السبب الحقيقي في تقلب الأمم والدول على مر العصور ، من : الفرس والسريانيين والنبط والتبابعة وبني اسرائيل والقبط من العصور القديمة المبكرة ، ثم تبدلت الاحوال فجاء الفرس ثانية والروم والعرب في العصور القديمة المتأخرة ، الى ان جاء الاسلام بدولة العرب (مضر) ، فانقلبت تلك الأحوال اجمع انقلابة اخرى ، وصارت الى ما اكثره متعارف لهذا العهد ، يأخذه الخلف عن السالف ، ثم درست دولة العرب . . . وصار الأمر في ايدي سواهم من العجم ، مثل : الترك بالمشرق والبربر بالمغرب ، والفرنجة بالشمال ، فذهبت بذهابهم امم ، وانقلبت احوال وعوائد نسي شأنها وأغفل امرها » (ج١ ص٢٤) .

والرأي في المسار الحقي الذي يسلكه التطور ، والذي يؤدي ما بين دهر وآخر الى ذلك الانقلاب الذي يودي بأمم ودول ويحيي امما ودولا غيرها ، انه يسير في دوائر يرتفع من اسفل الى اعلى في دور الرقي الذي يكون بطيئا ، لينتهي من اعلى الى اسفل في شكل نقلة سريعة ، هي : ذلك الانقلاب الذي يمثل تمام التبدل . ويمكن لنا ان نتصور مسار التطور في نظرية ابن خلدون تلك ، بمسار سلك حلزوني الشكل ، مشدود افقيا بين قطبين فكأن الاحداث التاريخية تسير اماما وفي شكل دوائر مترابطة فيما بينها ، تعلو وتهبط عبر الزمن ، حسبما تقتضي الاحوال .

أما عن أسباب التبدل الرئيسية فتتمثل بشكل اساسي فيما يطرأ على اصحاب الدول الجديدة من التغير ، عندما يأخذون في التحول عن اسلوب حياتهم المعتادة ، عن طريق النقل عمن كان قبلهم من اهل الدول السابقة ، فتقلدهم رعيتهم وذلك حسبما هو معروف في الامثال الحكمية ، من ان الناس على دين ملوكهم . فمن طريق التقليد والمحاكاة يتم التبدل والتغير ، ويتحول مسار الأحوال الى غير طريقها المرسوم اولا ، وغالبا ما يغفل الناس عن مراقبة هذا التحول ، فلا يلاحظه الا اللماح الفطن .

ومن هذا المدخل يعرف ابن خلدون بما طرأ من التبدل على بعض الوظائف العامة في دولة الاسلام ، مما يعالجه بالتفصيل في الكتاب الأول الخاص بالعمران ، مثل : التعليم والقضاء .

والذي دعاه الى ضرب المثل بالتعليم ، هوما كان يقال من ان والد الحجاج كان معلما بينما كان التعليم على ايامه هو ، في القرن الثامن الهجري ، من حرف المستضعفين من الناس الذين لا يحق لهم التطلع الى الرتب الرئاسية العليا التي ليسوا اهلا لها ، خشية وقوعهم في المهالك ، لانقطاع الجذم او العصبية ، اما التعليم في صدر الاسلام فكان من مسئوليات العرب ، اصحاب الدولة من اهل الانساب والعصبية ، الذين كانوا يقومون بنشر تعاليم الاسلام على سبيل « التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي » (ج١ ص٢٥) كما آل اليه الحال فيما بعد .

والذي لم يقله ابن خلدون هنا ، هو : ان عددا من كبار الثوار في دولة الاسلام اتخذوا مهنة التعليم ستارا لهم ، ونجحوا بفضلها في جمع الانصار حولهم ، وتأليف جماهير الناس ضد حكامهم . واهم الأمثلة على ذلك ثلاثة عرفتهم الدولة الفاطمية ، أولهم : ابو عبدالله الشيعي ، الذي وقع على عاتقه اقامة الدولة الفاطمية في المغرب (سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م ، وثانيها : الثائر الزناتي أبويزيد المعروف بصاحب الحمار الذي ثار على القائم في المهدية (سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٤م) ، وثالثهم : أبوركوة الاموي الذي ثار في برقة على أيام الخليفة الحاكم ، والذي هدد القوات الفاطمية في مصر (سنة ٣٩٧هـ /١٠٠٧م) . كل هؤلاء اتخذوا مهنة التعليم مع قيامهم بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر سُتارا لثوراتهم . والظن ان هذه الأمثلة - الى جانب مثال المهدي ابن تومرت ، صاحب دولة الموحدين - هي التي كانت تشجع بعض ممتهني التعليم الى التطلع الى العمل السياسي الذي حذرهم ابن خلدون من مغبة الطمع فيه لعدم الاهلية .

ومثل هذا ما يقوله من وظيفة القضاء قديما حيث كانت الرياسة لبعض القضاة ، بل وقيادة الجيوش ايضا ، وان احال بيان ذلك الى فصل القضاة من الكتاب الأول » (ج١ ص٢٥) مع النص على انّ القضاء في القديم كان « لأهل العصبية من قبيل الدولة ومواليها » كما هي الوزارة بالمغرب على ايامه في اواخر القرن الثامن الهجري (ج١ ص٢٦) .

انقلاب اواخر القرن الثامن الهجري (١٤ م):

ويختم صاحب العبر مقدمته التاريخية بالعودة الى تعريف التاريخ ، في معناه الضيق بانه الاخبار المتعلقة بعصر او بجيل في رقعة مكانية محددة ، فكأنه تسجيل للأحداث وذلك في مقابل التاريخ بمعناه الواسع الذي يعني بالتعرف على الاحوال العامة مما يتعلق بالاقاليم العريضة على طول الحقب الزمنية الممتدة . فذلك هو الأصل الذي يحتمه المؤرخ في شرح اخباره والغرض النهائي الذي يهدف اليه في التأليف (انظر العبرج١ ص٢٧) .

المسعودي إماما للمؤرخين :

وأهم من حقق مثل هذا هو المسعودي في كتابه مروج الذهب الذي ألفه حوالي سنة ٣٣٠هـ / ٩١٢م . فلقد شرح فيه أحوال الأمم والأقاليم شرقا وغربا ، « فذكر نحلهم وعوائدهم ووصف البلدان والجبال والممالك والدول ، وفرق بين شعوب العرب والعجم ، فصار اماما للمؤرخين يرجعون اليه ، وأصلا يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه (العبرج ١ ص٢٧) .

فكأن ابداع المسعودي الذي جعل منه اماما للمؤرخين في نظر ابن خلدون يتلخص في امرين اولهما : رؤية واسعة (بانورامية) الى التاريخ ، تخرج به من دائرة الأخبار المروية في سير الرجال الى تتبع احوال الشعوب والامم ، في مجالاتها الرحبة ، مما يتناول الاجتماع والعقائد والاقتصاد وغيرها . أما ثانيهما : فيتمثل في رؤيته الثاقبة في التفرقة بين الشعوب الاسلامية في المشرق ، ما بين عرب وعجم ، بمعنى ختام حلقة جديدة في دور التطور . ففي ذلك الوقت ـ عندما كان يكتب المسعودي حوالي منتصف القرن الرابع الهجري ـ كانت الخلافة العباسية قد اضمحلت بعد ظهور وظيفة امير الامراء التركي ، كما كانت دولة العرب قد دالت تماما في المشرق ، بقيام دول اعجمية ، من : فارسية وتركية . فكأن المسعودي هو صاحب الفضل في تسجيل عملية التجدد التي تمت على ايامه ، والتي تغيرت فيها الاحوال فكأنها خلقت خلقا جديدا .

والذي لم يقله ابن خلدون هنا ، هو : ان اول من فطن حقيقة الى عملية تطور الاسلام في المشرق من دولة عربية الى دولة تركية اعجمية ، هو الجاحظ اديب العربية في كل عصر وزمان . فلقد سجل الجاحظ ملاحظات غريبة في شأن هذا التبدل ، في رسالته التي بعث بها الى الفتح بن خاقان ـ نديم المتوكل والمقتول معه سنة ٢٤٧هـ / ١١ ديسمبر ٨٦١م ـ في فضائل الترك . فلقد لاحظ الجاحظ ـ دون غيره من المعاصرين ـ ما كان يطرأ على بنية الدولة الاسلامية من التغيير عند مقارنته بين العناصر التي تكونت منها جيوش الخلافة على ايامه ، من : الخراسانية والترك والعرب ، وغيرهم من عناصر المحاربين الذين عرفوا بالموالي والأبناء . وكان تركيزه على الترك منهم بصفة خاصة ، وعلى صفاتهم القتالية(٣) .

أما عمن اقتدى بالمسعودي في منهجه التاريخي الجامع ، فهو البكري الاندلسي (ت ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م) وخاصة في كتاب المسالك والممالك ، دون غيره (العبر ، ج١ ص٢٧) فكأن ـ تجربة البكري ، لم تنجح الا في مجال الجغرافية الوصفية ، وذلك انه لم تكن قد حدثت تطورات ذات بال مما سجله في كتبه التاريخية .

والمهم من كل ذلك هو ما يستشعره ابن خلدون من انه يعيش في المغرب فترة انقلاب تختم دورة من دورات التجدد في تاريخ الدول ، مما يعني انهيار نظام قديم ايذانا بقيام نظام جديد ، وذلك على ايامه في أواخر القرن الثامن الهجري (١٤م) . « فقد انقلبت احوال المغرب الذي نحن شاهدوه ، وتبدلت بالجملة . واعتاض من اجيال البربر ، اهله على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة ، من اجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان ، وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم . هذا ، الى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة ، من الطاعون الجارف الذي تحيف الامم وذهب بأهل الجيل ، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها ، وجاء للدول على حين هرمها ، وبلغ الغاية من مداها ، فقلص من ظلالها ، وفل من حدها ، وأوهن من سلطانها ، وتداعت الى التلاشي والاضمحلال احوالها . وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر ، فخربت الامصار والمصانع ودرست السبل والمعالم ، وخلت الديار والمنازل ، وضعفت الدول والقبائل ، وتبدل الساكن وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل

---

(٣) انظر بحثنا في « المرأة والاسلام في العصر الوسيط » مجلة عالم الفكر ، المجلد ١٠ ، العدد ٢ ، ١٩٧٩ ، وخاصة ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦ .

بالمغرب ، لكن على نسبته ومقدار عمرانه . وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالاجابة ـ والله وارث الارض ومن عليها » .

واذا تبدلت الأحوال جملة ، فكأنما تبدل الخلق من أصله ، وتحول العالم بأسره ، وكأنه خلق جديد ، ونشأة مستأنفة ، وعالم محدث » (ج١ ص٢٧) .

فابن خلدون يسجل انه شاهد عيان لعملية تغيير جذرية في تاريخ المغرب ، اعتبارا من منتصف القرن الـ ٨هـ / ١٤م . وأن هذه العملية تمثلت في فقدان دول البربر لما كان لها من السلطان بسبب القبائل العربية البدوية القاطنة في كل آفاق المغرب ، من بواديه وحواضره .

أما عن بدء مسار دورة التبدل هذه فيرجع الى منتصف القرن الخامس الهجري (١١م) حينما بدأت مسيرة قبائل بني هلال من صعيد مصر نحو بلاد القيروان على عهد المستنصر الفاطمي ووزيره اليازوري . فكانت الهجرة الهلالية العامل المحرك للعملية التاريخية التي أثارت الاضطراب السياسي وأودت بالازدهار الاقتصادي ، وقلبت عناصر البنية الاجتماعية رأسا على عقب ، فأدت الى التغير التام الذي عاشه ابن خلدون في منتصف القرن الـ ٨هـ/١٤م .

فكأن دورة التطور المغربية استغرقت ثلاثة قرون . وهي نفس المدة تقريبا التي استغرقتها دورة التبدل المشرقية الأولى التي لاحظها الجاحظ حوالي منتصف القرن الثالث الهجري (٩م) والتي سجل اكتمالها المسعودي في مروج الذهب ، بعد ذلك بقرن ، حوالي منتصف القرن الرابع الهجري (١٠م) .

وذروة التبدل التي شاهدها ابن خلدون تمثلت في الطاعون الجارف الذي اكتسح البلاد في وقت كان الاضمحلال قد بلغ غايته ، فقضى على الناس ومحى معالم العمران ، وعلى الجملة قضى على كل مكونات البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلاد .

وهو يرى أن موجة التغيير هذه قد مرت ببلاد المشرق هي الأخرى ، وان كان تأثيرها يظهر بشكل نسبي اقل وضوحا بسبب كثافة العمران هناك .

انه يرى ان ما أصاب العالم اشبه ما يكون بنوبة الجمود والانكماش التي تعرف في علم الحياة بمرحلة البيات الشتوي عند الحيوان ، والتي تنتهي بتحسن الأحوال الطبيعية وتجدد الحياة بشكل يوحي بميلاد جديد .

أما عن نعيه البلاد والعباد ، فانه يذكرنا بمقالة ابن الاثير ـ الذي نقل ابن خلدون الكثير عنه ، فيما يتعلق بتاريخ المشرق ودوله ـ عندما بدأ في تسجيل غزوة جنكيز خان للمشرق الاسلامي على ايامه حيث اعلن انه يتردد كثيرا في

تسجيل الحادثة العظمى التي اخترمها نعيا للاسلام والمسلمين ، فقال « فيا ليت امي لم تلدني ، ويا ليتني مت قبل حدوثها ، وكنت نسيا منسيا »[٦] ولقد اثبتت الأحداث ان الغزوة المغولية لم تكن شرا مطلقا ، اذا انها امدت الاسلام في المشرق بدماء تركية جديدة ، اعادت اليه الشباب والحيوية ، وتفتقت عن عصر جديد من النهضة على المستويات السياسية والحضارية والثقافية ، ما زالت آثارها باقية .

ومثل هذا ما لاحظه ابن خلدون حوالي منتصف القرن الـ ٨هـ / ١٤م ، من امكانية تجدد بلاد المغرب وعودة الوحدة السياسية اليها والحيوية العمرانية بفضل اعمال بعض كبار الرجال من مثال السلطان ابي الحسن المريني .

ابن خلدون خليفة المسعودي في امامة التاريخ والنموذج لمن يأتي بعده من المؤرخين :

ويختم ابن خلدون المقدمة في علم التاريخ بأن العهد الذي يعيشه في حاجة الى من « يدون احوال الخليقة والآفاق واجيالها ، والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها ، ويقفو مسلك المسعودي لعصره ، ليكون اصلا يقتدى به من يأتي من المؤرخين من بعده » .

هذا ، ولو انه يستدرك قائلا انه لن يعالج في كتابه الا تاريخ القطر الغربي ، « لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب واحوال اجياله وامه ، وذكر ممالكه ودوله ، دون ما سواه من الاقطار لعدم اطلاعي على احوال المشرق وامه ، وان الأخبار المتناقلة لا توفي كنه ما اريده منه » .

وهو هنا رغم الحاجة الى الاقتداء بالمسعودي في كتابة تاريخ شامل لفترة زمنية عريضة وبشكل متكامل حتى يمكنه ملاحظة عملية التطور التاريخية التي عرفها بـ (التبدل) يرجع الى قاعدة منهجية مضادة تتمثل في مبدأ التخصص ، اي الدراسة في العمق بدلا من الاستعراض الافقي ، وخاصة في الموضوعات المألوفة مما يتعلق بالتاريخ الوطني الذي تتوفر مصادره المباشرة وممن نبه على هذا الامر بالنسبة لتاريخ المغرب ، ابن الاثير في تاريخه الكامل ، حيث يقرن ما يكتبه من المختصين في تاريخ المغرب مثل الرقيق القيرواني ، او ابن رشيق او البكري بقوله : فهم اعلم ببلادهم او : ورب البيت ادرى بما فيه[٧] .

وهو يحتج للمسعودي بأنه تمكن من استيفاء كتابه في التاريخ العام بفضل ما قام به من الرحلات البعيدة وتعرفه بنفسه على احوال البلاد التي ذكرها في كتابه ، وان كان قد قصر في استيفاء احوال المغرب (الذي لم يره) .

---

(٦) انظر الكامل لابن الأثير ، أحداث سنة ٦١٧ هـ ، ج ١٢ ص ٣٥٨ (ط . تورنبرج - الصياد بيروت ١٩٧٩)

(٧) انظر الكامل لابن الأثير ، أحداث سنة ٩٢ ، ج ٤ ص ٥٥٦ (من فتح الاندلس)

وخلاصة القول في مقدمة كتاب العبر « في علم التاريخ » ، ان ابن خلدون عرض فيها بايجاز كل نظرياته في علم التاريخ ، من : التعريف به وبفوائده ، ومناهج البحث فيه عن طريق النقد واطراح النقل ، ومعرفة العلل والاسباب ، والالمام بالنواميس الطبيعية من اجل قياس الحاضر بالماضي والماضي بالحاضر ، وذلك في عملية تجعل من الماضي والحاضر والمستقبل نسيجا واحدا ، كما تجعل من التطور أس العملية التاريخية ، ومن ادراك كنهه : الغرض النهائي الذي يقصد اليه المؤرخ من تأليفه .

هذا ، كما عرض بسرعة في ثنايا علم التاريخ عددا من نظرياته في العمران واشار الى بعض موضوعاته ، مثل : العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات ، والعصبية ، والتعليم والقضاء مما عالجه بتفصيل في الكتاب الأول ، فاكتفى بالاحالة اليه .

واخيرا فرغم ما وجهه ابن خلدون من النقد الى المسعودي من حيث انه اكتفى بالنقل في عدد من القصص التاريخية التي لا سند لها من الصحة ، مما سبق عرضه ، فانه ظل يضع المسعودي في طبقة الكبار من الفحول ، لكي يجعله في آخر الأمر اماما للمؤرخين ، ويجعل من نفسه خليفة له او مجددا لتراثه التاريخي ـ الأمر الذي يتطلب النظر في مروج الذهب .

ما بين كتاب العبر ومروج الذهب :

ان اشادة ابن خلدون بالمسعودي بصفته اماما للمؤرخين المسلمين التي لا تعادلها الا اشادة المحدثين من الأوروبيين بابن خلدون ، بصفته رائد المؤرخين المجددين واول علماء الاجتماع المحققين ، تفرض علينا امعان النظر في مروج الذهب ، بهدف ملاحظة مدى التزام مؤرخنا باقتفاء منهج المسعودي ، ابتداء من المقدمة .

والمسعودي يجعل من مقدمته لمروج الذهب بابا من ابواب الكتاب ، يسميه : « باب ذكر جوامع أغراض الكتاب »[٨] . فهو يجعل المقدمة اذن في اغراض الكتاب الذي يجعله ثالث كتبه المعتبرة ، وهي :

ـ أخبار الزمان : وهو مطول يعالج الاحداث الى سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م على عهد المتقي لله (٣٢٩ ـ ٣٣٣هـ) .

ـ الكتاب الأوسط : وهو وسط بين المطول والمختصر ، ويتناول موضوعات اخبار الزمان ملخصة ، مع اضافة ما جد من الأحداث المعاصرة بعد سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م .

ـ مروج الذهب : موجز للكتاب الأول ومختصر للكتاب الثاني ، ويركز فيه معلوماتها ، اضافة الى ما جد من الأحداث على عهد كل من المستكفي بالله (٣٣٣ ـ ٣٣٤هـ) ثم المطيع لله (٣٣٤ ـ ٣٦٣هـ) بعده ، وهو آخر خلفاء بغداد من معاصريه ، وان كان المسعودي يختم كتابه في فسطاط مصر سنة ٣٣٦هـ ـ على عهد انوجور الاخشيدي ، تحت وصاية كافور ـ اي قبل عشر سنوات من وفاته (سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)[٩] .

---

(٨) انظر مروج الذهب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط . دار المعرفة ، بيروت ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣ ، ج ١ ص ٩ ـ ١٨ .

(٩) عن تأليفه للكتب الثلاثة ، انظر مروج الذهب ، ج ١ ص ٩ ـ ١٠ وعن المستكفي الفرج ٤ ص ٣٥٥ ، وعن المطيع ص ٣٧٦ ، وعن الانتهاء من تأليف الكتاب ص ٣٨٨ .

الأخبار أم العلوم :

والمسعودي يبين ان الباعث له على التأليف « في التاريخ واخبار العالم » هو محبة العلم ، واقتفاء اثر الحكماء ، حتى « يبقى للعالم ذكرا محمودا ، وعلما منظوما عتيدا » (مروج ، ج ص١٢) . وهو في متن الكتاب يبين ايضا فوائد التأليف ، اذ : « لولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر لبطل اول العلم ، وضاع آخره » . فالاخبار (اي علم التاريخ) هي ام العلوم : اذ يستخرج منها كل علم ، كما يبتني عليها الفقه ، ويتم القياس ، كما توجد فيها امثال الحكماء وتقتبس منها مكارم الاخلاق وتلتمس فيها آداب سياسة الملك .

وبفضل هذه الشمولية اصبح التاريخ علما « يستمتع بسماعه العالم والجاهل ، ويستعذب موقعه الأحمق الغافل ، ويأنس بمكانه وينزع اليه الخاصي والعامي ، ويميل الى رواياته العربي والعجمي (مروج ، ج٢ ص٦٧) وواضح ان ابن خلدون تأثر بهذه التعاريف المسعودية ، عندما قال : « ان التاريخ علم تسمو الى معرفته السوقة والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والاقيال ، وتتساوى في فهمه العلماء والجهال ، اذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول . . . وفي باطنه نظر وتحقيق . . . » (العبر ، ج١ ص٣) .

منهج المسعودي :

أما عن منهج دراسة المسعودي فهو يعتمد على معلوماته الشخصية كشاهد عيان عبر اسفاره في الصحراء والبحر والبر ، من الصين في اقصى المشرق الى الشام ومصر والمغرب ، وذلك كما قال الشاعر :

تيمم أقطار البلاد فتارة لدى شرقها الاقصى وطورا الى الغرب
سرى الشمس ، لا تنفك تقذفه النوى الى أفق ناء يقصّر بالركب

فهو يستعلم بدائع الأمم بالمشاهدة ، ويعرف خواص الاقاليم بالمعاينة ، ويفاوض الملوك على تغاير اخلاقهم وتباعد ديارهم ، ويعرف كيف يفرق بين مواقف كل منهم (مروج ، ج١ ص١١) وهو يلح على انه « ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى اليه من الأخبار عن اقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ، ووزع ايامه بين تقاذف الأسفار ، واستخراج كل دقيق من معدنه وأثارة كل نفيس من مكمنه » (مروج ، ج١ ص١٢) .

ورغم اهتمام المسعودي بطرائف الأخبار ، فانه يعرف أصول المنهج العلمي المبني على النقد والذي يهدف الى الوصول الى الحقيقة . فهو يشير الى كثرة العناء في العلم ، وقلة الذين يفهمون معانيه « فلا تعاين الا مموها جاهلا ، ومتعاطيا ناقصا قد قنع بالظنون ، وعمي عن اليقين » .

وهو يسجل أنه لم يبدأ في تأليف كتبه ـ الآنفة الذكر ـ الا بعد أن عانى صناعة التأليف في ضروب من فنون العلم والآداب ، مثل : أصول الديانات ، واصول الفتوى وقوانين الاحكام ، وموضوع الامامة وما يدور حولها من : النص والاختيار ، وعلم الظاهر والباطن ، الى جانب ما كتبه في السياسة والسياسة المدنية ، واجزاء المدينة ، وكيفية تركيب العوالم ، والأجسام السماوية وغيرها (مروج ، ج ١ ص ١٢) .

مصادر المسعودي :

وفيها يتعلق بمظانه التاريخية ، يبدأ بإشارة عامة في النقد التاريخي ، يذكر فيها اصابة بعض المؤلفين وخطأ البعض ، رغم اجتهاد كل منهم على قدر طاقته ، وامكان فطنته ، ثم يأخذ في تسجيل اسمائهم مع اسماء بعض كتبهم ، فممن ذكرهم من مشاهير الاخباريين والمؤرخين واصحاب السير والآثار :

وهب بن منبه ، وأبو مخنف ، وابن اسحق ، والواقدي ، وابن الكلبي ، وأبو عبيدة ، وابن المقفع ، وابن سلام ، والمدائني ، والجاحظ ، والنوفلي (علي بن محمد بن سليمان) وابن لهيعة المصري ، وابن عبد الحكم المصري ، واسحق ابن ابراهيم الموصلي (صاحب كتاب الاغاني) والبلاذري ، واحمد بن ابي طاهر ، (صاحب اخبار بغداد) ، وعلي بن مجاهد (صاحب كتاب اخبار الامويين) وابن قتيبة الدينوري ، والطبري (فقيه عصره وناسك دهره) وابن الماشطة (وله كتاب الوزراء) ثم الجوزجاني .
ومن المذكورين من اصحاب الوظائف الديوانية :

ابن أبي الدنيا (مؤدب المكتفي بالله) واحمد بن محمد خالد البرقي (الكاتب صاحب البيان) ، وابن خرداذبه (صاحب البريد ، وله : كتاب الكبير في التاريخ ، وكتابه النفيس في (المسالك والممالك) والقاضي ابو البشر الدولابي ، وابن زكريا الرازي (الطبيب وله كتاب سير الخلفاء) والصولي (وله كتاب الاوراق في اخبار الخلفاء) وقدامة بن جعفر (الكاتب وله : زهر الربيع في الاخبار ، وكتاب الخراج) وابراهيم بن موسى الواسطي (الكاتب وله اخبار الوزراء) وعلي بن الفتح المعروف بالمطوق (الكاتب ، وله : اخبار وزراء المقتدر بالله) وعبدالله بن الحسين بن سعد (الكاتب ، وله كتاب التاريخ في اخبار الخلفاء من بني العباس وغيرهم) وسنان بن ثابت بن قرة (نديم المعتضد بالله) .

هذا ، الى جانب من كتبوا في فنون تاريخية جانبية مثل : الخليل بن الهيثم الهرثمي (صاحب الحيل والمكايد في الحروب) ومحمد بن زكريا الغلابي المصري (صاحب كتاب الاجواد) ويوسف بن ابراهيم (صاحب اخبار ابراهيم بن المهدي) ومحمد بن الحارث الثعلبي (صاحب كتاب اخلاق الملوك ، المؤلف للفتح بن خاقان) ، وابي سعيد السكري (صاحب كتاب ابيات العرب) ومحمد بن الأزهر (وله كتاب الهرج والاحداث) .

والمسعودي يقرر انه لم يذكر الا كتب المشاهير من المصنفين والمعروفين من المؤلفين ، وهو يحتذر عن عدم ذكر كتب « تواريخ اصحاب الاحاديث في معرفة اسماء الرجال واعصارهم وطبقاتهم » ، مشيرا الى انه اتى على ذكر طبقات اهل العلم على اختلاف انواعهم وتنازعهم في آرائهم ، وذلك الى سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م) ، في كتابيه الأولين : اخبار الزمان ـ والكتاب الأوسط .

وهو يشيد من بين من ذكرهم ، بابن خرداذبه الذي « كان اماما في التأليف ، متبرعا في ملاحة التصنيف ، اتبعه من يحتمد واخذ منه ، ووطيء على عقبه ، وقفا اثره » . وهو لا يعلم احسن من كتاب فتوح البلدان للبلاذري في بابه .

أما الطبري فهويكثر من الثناء على تاريخه : الزاهي على المؤلفات بما جمع من الاخبار وما اشتمل من صنوف العلم ، وهو كتاب تكثر فائدته وتنفع عائدته « ويكفي ان مؤلفه : فقيه عصره وناسك دهره الذي انتهت اليه علوم فقهاء الامصار ، وحملة السنن والآثار » .

وهو يشيد ايضا بكتاب الأوراق للصولي ، من حيث انه « ذكر غرائب لم تقع لغيره ، واشياء تفرد بها لأنه شاهدها بنفسه » كما كان محظوظا من العلم ، ممدودا من المعرفة ، مرزوقا من التصنيف ، وحسن التأليف .

ومثل هذا يقال عن قدامة بن جعفر الذي « كان حسن التأليف ، بارع التصنيف ، موجزا للالفاظ ، مقربا للمعاني » في كل من : زهر الربيع ، والخراج ، حيث يكفي النظر فيهما للتأكد من حقيقة ما يذكره وصدق ما يصفه (مروج ، ج ١ ص١٤ - ١٦) .

النقد لعدم الاختصاص

والغريب في هذا الباب الخاص بتقويم المصادر ، هو ان المسعودي يخص بالنقد سنان بن ثابت ابن قرة الحراني ، وهو الفيلسوف ، دون غيره من أصحاب التأليف على اختلاف صناعاتهم : فلقد ألف سنان كتابا جمع فيه أخبارا « زعم أنها صحت عنده ولم يشاهدها (وصل ذلك بأخبار المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ - ٩٠١ م) وذكر صحبته اياه ، وأيامه السالفة معه ثم ترقى الى خلفاء عظيمة في التصنيف » .

والذي يأخذه المسعودي على سنان بن قرة ، انه انتحل - وهو الفيلسوف - ما ليس من صناعته واستنهج ما ليس من طريقته ، فلقد استفتح الكتاب بجوامع من الكلام في أخلاق النفس وأقسامها من : الناطقة والغضبية والشهوانية ، وذكر لمعا من السياسات المدنية ، مما ذكره أفلاطون في كتاب السياسة المدنية ، ولمعا مما يجب على الملوك والوزراء . ورغم ما يقرره من أن سنان « أحسن في كتابه ، ولم يخرجه عن معانيه » فانه لم يغفر له أنه « خرج على مركز صناعته وتكلف ما ليس من مهنته » (مروج ، ج ١ ص ١٦ - ١٧) .

فكأن المسعودي يدعو الى احترام التخصص العلمي ، وينادي بمراعاة تصنيف العلوم وتحديد الفواصل فيما بينها . وهو هنا لا يأخذ على الفيلسوف اشتغاله بعلم التاريخ، بقدر ما يعيب عليه الخلط بين المقدمات الفلسفية العقلية وبين الموضوعات الاخبارية النقلية ، مما يعني اخضاع عناصر علمية متنافرة الى نظام علمي موحد ، وهو الأمر الذي لا يتفق مع منهج الدراسات التاريخية ، والذي يخالف ما تعارف عليه المختصون في التأليف التاريخي .

وهو ينص في متن الكتاب على فضيلة علم الأخبار على كل علم ، وان شرف منزلته صحيح في كل فهم ، وانه لا يصبر على فهمه ويتقن ما فيه وايراده واصداره الا انسان قد تجرد له وفهم معناه ، وذاق ثمرته ، واستشعر من غرره ، ونال من سروره - مما يؤكد اصراره على مبدأ التخصص في التاريخ ودفع للتطفل عليه (انظر مروج الذهب ، ج ٢ ص ٦٧) .

والمسعودي يشعر بنفاسة كتابه ، ويحس تثمين ما فيه من الفوائد فيسميه : « مروج الذهب ومعادن الجوهر » وهو لذلك يحذر من أن يعرض له أحد بالتحريف أو التبديل والتغيير ويستنزل غضب الله ونقمته على من يفعل ذلك ـ أيا كانت ملته ، وأيا كان رأيه (مروج ، ج ١ ص ١٨) .

ويجمل القول في مقدمة المسعودي أنها عرضت لأصول التأليف ، كما عرفت ببعض قواعد النقد التاريخي ، وأهم مصادر التاريخ الاسلامي في قرونه الأولى . فمحبة العلم هي الباعث الأول على التأليف والمؤلفات المعتبرة لا تكون الا بعد ممارسة الكتابة ومعاناة التصنيف ، بدءا بالعلوم المساندة مما يتعلق بالسياسة ونظم الحكم أو علم الظاهر والباطن . ونظن أنه كان للمسعودي تأثيره على ابن خلدون عندما عرف التاريخ بأنه علم له ظاهر يهتم بالأخبار الشكلية ، وباطن يعتني بالمضمون والفهم والتعليل .

وتتلخص قواعد النقد التاريخي عنده في ضرورة أن تكون المعلومات أصيلة بمعنى أن يكون المؤلف نفسه شاهد عيان . وهذا يعني بالتالي كشف الجهال من المؤلفين الذين يأخذون بالظنون ويتهاونون في التحقق من صحة الأخبار .

ورغم ذلك فالمسعودي يعرف أن الأخبار تنقسم الى قسمين ، أولها : ما يجب علمه والعمل به ، وهو ما شاع بين الجمهور ، ورواه الكافة عن الكافة ويسمى أخبار التواتر . والأخر ما تقله آحاد الرواة وقبوله أي الاعتقاد في صحته غير واجب ، اذ هو من النوع الممكن اي الذي ليس بواجب ولا ممتنع ، ومثلها في ذلك مثل : الاسرائيليات من الأخبار ، والأخبار عن عجائب البحار (مروج ، ج ٢ ص ٢٢٨) .

ومصادر المسعودي متنوعة تتراوح ما بين كتب في التاريخ وأخرى في العلوم المساندة . وهو يوجه المديح الى كل من : ابن خرداذبه ، والبلاذري ، والصولي ، وقدامة بن جعفر ، ويخص الطبري وتاريخه بالمزيد من الثناء . أما عن نقده لمؤلف سنان بن قرة بن ثابت فهو التزام باحترام التخصص ، ورفض لتدخل غير المختصين في علم التاريخ ، حتى لو كانوا فلاسفة . وكل ذلك مما يمكن ان يكون مصدر الهام لابن خلدون في مقدمته في علم التاريخ .

وأخيرا نلاحظ أنه رغم أن المسعودي سار في كتابته على نهج قدامى المؤرخين الذين اتبعوا طريقة الحوليات ، الا أنه مزج بين هذه الطريقة ، وبين الترتيب الموضوعي الذي يحفظ للواقعة التاريخية وحدتها . فهو يفرد بابا أو « كتابا » لكل دولة ، ويخصص فصلا لكل أمير أو حادثة فلا يفقد الموضوع وحدته .

في مقدمة ابن الأثير في علم التاريخ

وهنا نستحسن الاشارة الى مقدمة ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ /) في تاريخه « الكامل » وهو من مصادر ابن خلدون الأساسية فيما يتعلق بدول الأعاجم في المشرق ، من الفرس والترك . والحقيقة أن ابن الأثير يجمع ما بين صفة العالم

المدقق والمؤرخ الموهوب . ولقد تنبه المحدثون الى أهمية كتابه فبدأوا نشره في أوربا اعتبارا من سنة ١٨٥١ بمعرفة تورنبرج الذي قام بترجمته الى اللاتينية أيضا . ولم تقتصر أهمية الكامل على تاريخ المشرق فقط بل انه زاحم كتب المغاربة ـ ويضمنها عبر ابن خلدون ـ بصفته مرجعا لا غنى عنه بالنسبة لتاريخ المغرب والأندلس ، حتى استلت منه الحوليات الخاصة بأخبار المغرب والأندلس وترجمت الى الفرنسية بمعرفة فانيان (Fagnan) وهو الأمر الذي أكدت صحته مكتشفات بروفنسال من الوثائق الخاصة بتاريخ المرابطين والموحدين [١٠] .

وابن الأثير يشير في بدء خطبة الكتاب الى أهداف مطالعة التاريخ ، ومعرفة الحوادث ، ويذكر تباين المؤرخين في تحصيل الغرض من حيث الاسهاب المستقصي والاختصار المخل ، ويلفت النظر الى ما تؤدي اليه هذه المناهج من القصور ، مما يتلخص في ترك عظيم الحادثات والاهتمام بصغائر الأمور ، أو اهتمام كل مؤرخ بأخبار بلده ، والتقصير فيما سواه ، فالشرقي يخل بذكر أخبار المغرب ، والغربي يهمل أحوال المشرق (الكامل ، ج ١ ص ٢ ـ ط تورنبرج) . وهو بعد ذلك ينتقد أدعياء المعرفة ممن يحتقر التواريخ ويزدريها ، ظنا ان غاية فائدتها انما هو القصص والأخبار (الكامل ، ج ١ ص ٦) .

وابن الأثير خلال ذلك يفلسف التاريخ فيتكلم في « الجلي » من الحوادث و « الخفي » منها ، كما يتكلم في « العرض » و « جوهر المعرفة » وكذلك عن « القشر » و « اللباب » وهي المصطلحات التي تذكر بعلم الظاهر والباطن عند المسعودي ، وبتعريف ابن خلدون التاريخ بأنه علم له ظاهر وباطن ، كما سبقت الاشارة اليه .

أما عن المنهج الذي اتبعه ابن الأثير في التأليف فيختلف عن منهج الطبري وأقرانه من أصحاب الحوليات . فلقد تنبه الى سلبيات منهج الحوليات حيث تذكر الحادثة الواحدة في سنين ، فتأتي مقطعة ، فعمد ـ عندما لخص الطبري وأكمل ما في روايته من النقص ـ الى جمع الحادثة في موضع واحد بشكل متناسق ، « فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقا واحدا » (الكامل ، ج ١ ص٣ ـ ٤) كما خص كل حادثة كبيرة مشهورة بترجمة خاصة بها ، ووضع الحوادث الصغار في آخر السنة ، تحت عنوان « عدة حوادث » .

والذي نراه أن هذه التعديلات التي ادخلها ابن الأثير في منهج الحوليين في الكتابة التاريخية لا تجعل منه مؤرخا موهوبا فقط ، بل ترفعه الى درجة المجددين أصحاب الطرق المبتكرة في التأليف .

وابن الأثير ينحي التاريخ عن مكانه بين العلوم الأدبية عندما يرتفع به عن مستوى القصص والحكايات ، ويصنفه بين العلوم النقعية ، حيث يعدد فوائده الدنيوية والأخروية . وهو هنا يشبه القراءة بالرؤية ، فمن يطالع أخبار قوم كأنه

(١٠) انظر Fagnan, annales du Maghreb et de I, Espagne, Alger, 1901 وروسائل موحدية ، تحقيق ودراسة بروفنسال ، النص العربي الرباط ، ١٩٣٤ .

يعاصرهم وهكذا يمد التاريخ في العمر على طول امتداد العصور التاريخية ، ومن هذا الطريق تتكثر تجارب الانسان ـ وان كانت نظرية ـ بفضل المعرفة بالحوادث ـ « ويزداد بذلك عقلا »[١١] .

أما فوائد التاريخ الأخروية فتتأتى بمشاهدة تقلب الدنيا بأهلها وتتابع نكباتها التي لم يسلم من نكدها غني ولا فقير ، مما يؤدي الى الزهد فيها والاعراض عنها ، عن طريق التزود للآخرة بمحاسن الأخلاق ، من : الصبر والتأسي ـ رغم ما هو معروف من طلب الناس اليسير من حطام الدنيا ، وولعهم بحب العاجل[١٢] .

ونظرية مواجهة المصاعب الدنيوية ـ بصفتها موضوع علم التاريخ ـ بالرجوع الى الله تذكرنا بمقالات اوروسيوس ، مؤرخ القرن الخامس الميلادي ، وصاحب « تاريخ العالم » الذي ترجم الى العربية في الأندلس في أواخر القرن الرابع الهجري (١٠ م) ، والذي عرف عند الكتاب العرب باسم تاريخ « هيروشيش » هذا ، وان كان اوروسيوس قد تأثر في مقالاته الدينية هذه بمعاصره أسقف مدينة بونة (عنابة الحالية) وهو القديس أغسطين . وهنا لا بأس من الاشارة الى أن كتاب أوروسيوس كان من المراجع الأثيرة لدى ابن خلدون الذي أخذ عنه كثيرا من النقول فيما يتعلق بالتاريخ القديم ولقد عني الدكتور عبد الرحمن بدوي بهذا الموضوع في ثنايا اهتمامه بتاريخ أوروسيوس الذي انتهى مؤخرا من تحقيقه ونشره ، مما يعتبر اضافة هامة الى المكتبة العربية الحديثة[١٣] .

وهنا لا بأس من الاشارة الى أن المسعودي يعتبر من أوائل المؤرخين المسلمين الذين اخذوا الكثير من النقول عن قدامى الكتاب من أصحاب تاريخ عصور ما قبل الاسلام وهذا ما يتضح في الأقسام من تاريخه التي يعالج فيها أخبار الهند والفرس واليونان والرومان . ومما يؤسف له أن المسعودي لا يذكر أسماء مصادره ، مكتفيا بنسبة الأخبار الى « الموثوق بهم من العلماء » مما يوحي بأنه لجأ الى السماع وليس الى القراءة . وهكذا يظل الكشف عن مصادر المسعودي القديمة من : يونانية ولاتينية ، من الموضوعات التي يرجى أن تنال ما تستحقه من عناية الباحثين .

وابن الأثير أيضا يرجع ـ بصفته مؤرخا موسوعيا ـ هو الآخر الى النقل من كتب التاريخ الأوروبي القديم ، وهو الأمر الذي يظهر بشكل واضح فيما يتعلق بتاريخ الأندلس قبل الفتح الاسلامي . وهو اذا لم يكن قد ذكر تاريخ أوروسيوس ،

---

(١١) الكامل ، ج ١ ، ص ٧ . ولا بأس هنا من مقارنة كلام ابن الأثير بكلام اوروسيوس الذي يفرق بين المشاهدة والسماع ، فيقول : ان الأمور السالفة كلما كانت أصعب ممن شاهدها كانت أظرف عند من سمعها . . . (كما يقول) ان القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخبر . وان مقاساة الأسير من الشدة أشق على النفس من تذكر الكثير مما فرط منها . . . فليعلم اذا رأى تلك أن الذي أغلب فيه من الشكاية بزمانه ليس لافراط شدة الزمان ، لكنه لضعف صبره ولؤم طباعه .

وأنا واصف من الحال السالفة ما اوضح به انها كانت أشد وأصعب من الحال الحاضرة ، وان كانت هذه مشاهدة ، وتلك خبرا ، انظر اوروسيوس ، تاريخ العالم ، نشر عبد الرحمن بدوي ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

(١٢) ولا بأس هنا من الاشارة الى مقالة اوروسيوس في خطبة « تاريخ العالم » (من أن كل بلاء وعلة ، يكون لسببين : اما لتزكية الأخيار واما لعقوبة الأشرار (أوروسيوس ، تاريخ العالم نشر عبد الرحمن بدوي ، ص ٥٣) أو مايقوله بعد ذلك من انه لم يتم السلم في الدنيا ولا هدوء البال في أهلها الا بعد مجيء المسيح . ذاهبا في أن أهلها كانوا يعانون من محاربة الاجناس والنكبات في الحرب (تاريخ العالم ، ص ٣١٧) .

(١٣) انظر عبد الرحمن بدوي ، ابن خلدون ومصادره اللاتينية ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط ، أعمال ندوة ابن خلدون ، مطابع النجاح الجديدة ، الرباط ١٩٧٩ (ص ١٣٥ ـ ١٥٩) وانظر عبد الرحمن بدوي ، أوروسيوس ، تاريخ العالم ، الترجمة العربية القديمة ، بيروت (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) ١٩٨٢ .

جريا على عادته في اهمال ذكر مصادره في بعض الأحيان ، واذا كانت أخبار ملوك القوط الى أيام لذريق التي يذكرها مما يعتبر متأخرا عن عصر أوروسيوس ، فلا بأس أن يكون ابن الأثير قد نقل معلومات تلك الفترة المتأخرة عن اضافة أو ذيل لتاريخ هيروشيش ألحق به فيما بعد - وهو الأمر المقبول [١٤] .

وأخيرا فان ابن الاثير يدرك قدر نفسه ، ويعرف أهمية تاريخه ، كما فعل المسعودي من قبل وابن خلدون من بعد . فهو رغم اشارته - تواضعا - الى ان من « بالموصل لابد أن يشذ عنه ما هو بأقصى الشرق والغرب يشعر بقيمة كتابه ، فيقول : « ولكني جمعت فيه ما لم يجتمع في كتاب واحد » (الكامل ، ج ١ ص ٣) وهو الأمر الذي يؤكده محمد النسوي ، صاحب كتاب سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي عندما يقول بمناسبة أخبار الغزوة المغولية في « الكامل » : لله در مقيم ببلاد الشام لا يخفى عليه ما يدور في أطراف بلاد الهند وأعماق بلاد الصين [١٥] .

التاريخ بمعناه الحضاري عند كل من المسعودي وابن خلدون :

والمهم من كل ما تقدم هو وجود نوع من المشاركة أو أوجه الشبه بين المقدمات التاريخية لكل من المسعودي وابن الأثير وابن خلدون ، وان كان ابن الأثير قد انفرد بأنه لم يجعل لمقدمته عنوانا خاصا ، بل تركها مجرد خطبة أو افتتاحية لكتابه « الكامل » الذي التزم في تأليفه ايام بأن يكون مؤرخا متخصصا ، بمعنى الالتزام بالحدود المتعارف عليها للتاريخ ، من حيث كونه تاريخا سياسيا أولا وقبل كل شيء ، دون التاريخ الحضاري . وهو ما يفرق بينه وبين المسعودي وابن خلدون في فهمها للتاريخ .

والحقيقة انه رغم أن ابن خلدون اقتدى بالمسعودي في فهم التاريخ بمعناه الحضاري الشامل فمن الواضح أنه يوجد ثمة خلاف ظاهر بين كل من كتاب العبر ومروج الذهب من حيث الشكل والمضمون . ولكي تسهل المقارنة فلا بأس من عرض سريع لمحتويات كل من الكتابين ، بعد أن عرضنا لمقدمتيها .

مروج الذهب :

ومروج الذهب كتاب في التاريخ العام ، يعالج قصة الانسانية منذ بدء الخليقة الى وقت الانتهاء من تدوين الكتاب في جمادي الأولى سنة ٣٣٦ هـ / ٢١ نوفمبر ٩٤٧ م ، بفسطاط مصر (مروج ، ج ٤ ص ٣٨٥) . والكتاب الذي بين أيدينا يقع في ٤ مجلدات تحوي ١٦٥١ صفحة ، تبدأ بالمقدمة التاريخية التي سبقت الاشارة اليها ، والتي أعطاها المؤلف اسم الباب الأول ثم التعريف بمحتويات الكتاب التي سماها بالباب الثاني ، وهما في ٢٧ صفحة . أما الخاتمة فيشير فيها

(١٤) يقارن دراسة عبد الرحمن بدوي (اوروسيوس ، تاريخ العالم ، ص ٣٧) حيث الاشارة الى تقول ابن خلدون أخبارا من عهد لذريق منسوبة الى اوروسيوس ، والفرض أن يكون النقل من قصر لأوروسيوس تصرف فيه مصنفه في الترجمة العربية .

(١٥) انظر محمد النسوي ، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ط . القاهرة ص ٣٥ .

المسعودي الى طريقته في التأليف ، من حيث الاتيان على أخبار أهل كل عصر ، وما حدث من الأحداث ، وما كان من الكوائن الى جانب ما أسلفه في كتابه هذا من ذكر البر والبحر والعامر والغامر ، كما يعد بتأليف كتاب جديد يضمنه فنوناً من الأخبار وأنواعاً من طرائف الآثار . . ويسميه بـ « كتاب وصل المجالس بجوامع الأخبار ومختلط الآثار » (مروج ، ج ٤ ص٣٨٥) .

واخيرا ينتهي الكتاب بـ « ذكر جامع التواريخ الثاني ، من الهجرة الى هذا الوقت (سنة ٣٣٦) (مروج ، ج ٤ ص ٣٨٧) ثم « ذكر تسمية من حج بالناس من أول الاسلام الى سنة ٣٣٥ هـ (مروج ، ج ٤ ص ٣٩٦) فكأنها تلخيص تاريخي أشبه بفهرست للكتاب وبالنظر في متن الكتاب دون المقدمات والخواتيم يتضح لنا أنه ينقسم الى كتابين أولهما في التاريخ القديم ويبدأ بعنوان : « ذكر المبدأ وشأن الخليقة » (ج ١ ص ٢٨) ويستغرق ٦٢٣ صفحة ، تنتهي بصفحة ٢٧١ من الجزء (المجلد) الثاني ، حيث يبدأ الكتاب الثاني في التاريخ الاسلامي (ص ٢٧٢) ويستغرق ١٠٠٨ص ، ويبدأ بعنوان : « ذكر مولد النبي (صلعم) ونسبه ، وغير ذلك مما لحق بهذا الباب » الى أن ينتهي بالخاتمة (ج ٤ ص ٣٨٥) فيكون في ٩٨٥ صفحة دون الملحقات .

في التاريخ القديم ، وطريقة التجميع

والكتاب الأول يتناول الأنبياء ، وأخبار الأمم والملوك في العصور القديمة ، من : الهند والصين والترك والأكراد والسريان والفرس بطوائفهم ، والروم واليونان والقبط والنبط ، والسودان ـ ومنهم : البجة والحبش ـ والصقالبة والفرنجة والجلالقة ، والعرب البائدة ، من : عاد وثمود وطسم وجديس ، والعرب الباقية من : قريش وقحطان .

وطريقة المسعودي هي ألا يلتزم بموضوع في سرد الأخبار والسير ، بل يستطرد دائماً الى موضوعات جانبية حسبما تؤدي اليه مصادفات الكلام ، دون التزام بحدود الموضوع وهو الأمر الذي يدركه بنفسه . فهو يحتلر عن الاستطراد في بعض الاحيان وان كان يلتمس العذر بطريقته هذه في التأليف ، حيث يبين مزاياها التي تتلخص في الشمول الذي يربط بين مختلف الأحداث على تباين طبائعها ، ويجعلها تأخذ بعضها برقاب بعض ، فكأنها الفسيفساء البديعة التي لا يمل الانسان من النظر اليها بسبب تنوع ألوانها الأصيلة .[١٦]

وهو يعتز بأصالة معلوماته وينتقد الجاحظ عندما يستدل على أن منبع كل من النيل ونهر مهران (السند) واحد بسبب وجود التماسيح في كل منها ، ويأخذ عليه انه لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار . . . وانما كان حاطب ليل ، ينقل من كتب الوراقين .

---

(١٦) المروج ٢ ص ٢٣٥ ، حيث يقول : ولولا أن الكاتب يرد من حق أغراض مختلفة من الناس (...) من اختلاف الطبائع والتباين في الارادة لذكرنا بعض ما كوره فيه من أنواع العلوم وفنون الاخبار . ولكن يلحق الانسان الملل لقراءته ... فيتنقل منه الى غيره ، فيجمعنا فيه من سائر ... الناس من ذوي المعرفة الى علمه . . وربما تغلغل بنا الكلام في نظمه وتشعيبه ، واتصاله بغيره من المعاني مما لم يتقدم ذكره . . . »

المعلومات الجغرافية

والمسعودي - الى جانب الأخبار والسير - يعرف بالارض والبحار ومبادىء الأنهار والجبال ، فيتكلم عن الأقاليم السبعة ورأي بطليموس في صفة الأرض ، ويذكر البحر الحبشي وبحر الروم ونيطش (الأسود) وبحر الصين وفارس والهند ، ويخبر عن الأنهار ، من : النيل وجيحون والفرات ودجلة . ويصف البلدان من : الشام ومصر واليمن والمغرب والعراق والحجاز ، الى جانب ما يعرف به من الأمم والممالك المجهولة في منطقة الأبواب (منطقة جبال ما بين قزوين والأسود) ، مثل : جيدان وصميق ، واللان ، وكشك وغيرها .

تأثير البيئة

ومن المعلومات المفيدة التي يشير اليها في هذا المجال تأثير البيئة على الانسان : فسحب الشام ومرتفعاته ورياحه تحسن الجسم ، وتصفي اللون ، وان كانت تبلد العقل وتجفي الطبع (ج ٢ ص ٦١) . أما حرارة مصر وركود هوائها فتكدر الألوان وتجب الفطن . والمغرب يقسي القلب ويوحش الطبع ، ويذهب بالرحمة (ج ٢ ص٦٢) والجبال (همدان أو عراق العجم) تخشن الأجسام وتبلد الأفهام لغلظ التربة وتكاثف الهواء . أما العراق ، سرة الأرض وقلبها ، حيث وقف الاعتدال ، فصفت أمزجة أهله ، ولطفت أذهانهم ، واحتدت خواطرهم ، فهو مفتاح الشرق ومناره (ج ٢ ص ٦٣) .

أصل « العمران » البدوي عند المسعودي

وتأثير البيئة على النامي من النبات والحيوان والانسان من الموضوعات التي اهتم بها ابن خلدون في المقدمة ، وجعلها من النواميس الطبيعية التي تفسر أحوال العمران وطبائعه ، وخاصة العمران البدوي وهو - على وجه الخصوص - العمران العربي الذي أطنب في وصفه وتفسيره .

ونظرية العمران البدوي واضحة محددة المعالم عند المسعودي ، وان كان يستخدم مصطلح « البوادي » بمعنى سكان البادية . وهو ان خص به العرب في المقام الأول ، فانه يشرك غيرهم في هذا اللون من الحياة البدوية ، مثل : الترك والكرد والبجة والبربر ، وهي الأمم التي يصفها بـ « المتوحشة » (انظر مروج الذهب ، ج ٢ ص ١١١ ، ١١٧ ، ١١٨) .

والمهم هنا أن المسعودي يعلل سكنى البدو بأنه يمثل طريقة الحياة على السجية كما عرفها الجيل الاول من سكان الأرض ، وهي تعني سكنى البيوت والأظلال (السقائف وانتجاع الأماكن الرفهة الخصبة (شتاء وربيعا) والانتقال عنها

اذا اجدبت (صيفا) فهو نهج الأقدمين (مروج ، ج ٢ ص ١١٨) . فالبداوة عنده هي النجعة ، وهي رحلة الشتاء والصيف سعيا وراء الكلأ ورعي للماشية . وهو التعريف الذي خالف على أساسه ابن خلدون المفسرين الذين قالوا بأن رحلة الشتاء والصيف عند قريش كانت من أجل التجارة : شتاء الى اليمن وصيفا الى الشام ، فقال : ان ايلاف قريش كان من أجل رحلة الانتجاع الطبيعية ، كما هو الحال عند غيرهم من قبائل البدو [١٧] بل وأهل الجبال أيضا [١٨] .

وفي حياة البادية يقول المسعودي ان العرب فضلوا حياة الأرض والسكنى حيث شاءوا ـ وهي ما عبر عنه قبل ذلك بالنجعة ـ لأنها تحقق الشعور بالعزة والأنفة ، من حيث الاستقلال وعدم الخضوع لغيرهم من ذوي السلطان أو أصحاب الدول [١٩] .

وهناك علة تضاف الى تلك ، وهي أن التقيد بسكنى الأبنية (في المدن) يحدد الحركة وينتقص من الحرية ، بينما يسمح سكنى البادية بتخير البقاع الصحيحة الهواء التي تصون الأجسام ، وتحفظ صفاء الألوان وقوة العقول واعتدال الأمزجة ، وهي الأمور التي ميزت العرب على غيرهم من بوادي الأمم المتفرقة ، مثل : الكرد (مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٠ ـ ١٢١) .

وهكذا « تخيرت العرب في أنزالها ، فمنها مشات ، ومنها مصايف » و « لجميع العرب مياه يجتمعون عليها ، وملكية يرجعون اليها . . . » ، ولست تكاد ترى قبيلا من العرب توغل من الأماكن المعروفة لهم والمياه المشهورة بهم (ج ٢ ص ١٢٢) وبناء على وجه الشبه بين أسلوب حياة كل من العرب والكرد ، قيل إن الأكراد عرب أصلا ، من قبائل ربيعة ، وان كانوا قد انحازوا الى الجبال (ج ٢ ص ١٢٢) وقريب من هذا ما قيل من نسبة أهل التبت من الترك الى اليمنية من عرب حمير (مروج ، ج ٢ ص ١٢٣ ـ ١٢٤) .

ولقد أخذ ابن خلدون نظرية المسعودي هذه في البداوة ، وجعل منها العامل المحرك في تاريخ العرب ، وعلى أساسها فسر تاريخ المغرب الاسلامي ـ بصفة خاصة ـ من حيث انه صراع بين ممالك المغرب ودوله وبين قبائل البدو فيه من : العرب والبربر .

والمسعودي يعدد ـ هنا ـ من بوادي البربر في المغرب ، عددا كبيرا من القبائل مثل : هوارة وزناتة وضريسة ومغيلة وورفجومة ونفزة وكتامة ولواتة ومزاتة ونفوسة ونفطة وصدينة ومصمودة و (زناتة) وغمارة و (قالة) . . . الخ (مروج

---

(١٧) انظر العبر ، ج ٢ ص ٣٣٦ ـ حيث يقول : « ويقال انه هاشم بن عبد المطلب أول من سن الرحلتين في الشتاء والصيف للعرب ، وذكره ابن اسحق ، وهو غير صحيح لأن الرحلتين من عوائد العرب في كل جيل لما في ابلهم ومصالحها لأن معاشهم فيها ، وهذا معنى العرب . . . وهو معنى العروبية . . . » .

(١٨) انظر مروج الذهب ، ج ٢ ص ٦٥ ـ حيث النص على أن أهل بابل كانوا يشتون بالعراق ويصيفون بالجبال . وانظر أيضا ص ٥٩ ـ عن الايلاف والقريش بمعنى أمن الطريق وجمع القبائل .

(١٩) انظر مروج الذهب ، ج ٢ ص ١١٩ . وأيضا ص ١٢١ ـ حيث قال خطيبهم لكسرى انهم ملكوا الأرض ولم تملكهم ، وانهم أمنوا من التحصن بالأسوار ، واعتمدوا على السيوف .

ج ٢ ص ١١٩) . وكما تنسب الأكراد والأتراك الى العرب بسبب طبيعة حياتهم البدوية ، كذلك كان الأمر بالنسبة لقبائل البربر التي تنسب بعضها مثل : صنهاجة الى قبائل اليمن (القحطانية أو الحميرية) ، كما تنسب البعض الآخر ، مثل : زناتة الى قبائل قيس (مروج ، ج ٢ ص ١٤٤) .

المعلومات الحضارية في مروج الذهب

ويضمن المعلومات الجغرافية يقدم المسعودي في القسم الأول من مروج الذهب معلومات طريفة عن نخب مختارة من الحيوانات والطيور ، مثل : الكركدن (وحيد القرن) الموجود في السند والهند ، والبازي الأبيض والشاهين وأنواع من القردة ، والطاووس ، والزرافة ، والفيلة والزبرقان ثم السمك الرعاد ، وفرس البحر والتمساح في النيل .

وهو يظهر فطنة علمية عندما يرفض ما يقوله الجاحظ من أن مدة حمل الكركدن تصل الى سبع سنوات وأنه يخرج رأسه من بطن أمه فيرعى ثم يدخل رأسه في بطنها (وكأنه صغير الكانغو) وهو يسأل أهل الخبرة ممن زار بلاد الهند ، ويعرف ان الكركدن نوع من الجواميس والبقر ويتساءل عما اذا كان الجاحظ قد قرأ ذلك في كتاب أم سمعه من بعض الرواة (مروج ، ج ١ ص ١٧١ ـ ١٧٢) .

وهو يذكر أنواعا من الأحجار الكريمة مثل : الدر واليشب والزمرد ، ويعرف بمعادنها (مناجمها) وكيفية استخلاصها . كما يعرف بوسائل التسلية ، مثل النرد والشطرنج والعادات الغريبة عند الشعوب ، مثل : عادة الهنود في الاحتفال بموت الملوك وعادة حرق الموتى عند الصقالبة والروس ، وعادة تعذيب أهل الهند أنفسهم .

أما عن الديانات والمذاهب ، فمروج الذهب مرجع من الطراز الأول ، لا يضاهيه في ذلك غيره من كتب المتقدمين والمتأخرين . فهو يخبرنا عن حكمة الهنود ورأيهم في بدء العالم وخالقه ، ويتكلم عن المراتب الدينية لرجال النصرانية ، ومبدأ النصرانية في مصر ، ومذهب الصابئة وعبادة الكواكب ، وزرادشت (نبي المجوس) والزندقة ومذهب ماني ومذهب يوداسف متنبي الهند ، والبرمك سادن معبد النوبهار ، والمجوسية (عبادة النيران) وعبادة الأصنام في بلاد العرب ، ومذاهب العرب القدماء في الاعتقاد في : النفوس والهام والغيلان والهواتف والجان والنسناس والعنقاء .

أما أهم بيوت العبادة منذ القديم ، فهي : البيت الحرام ، ومعابد البوذيين واشهرها النوبهار (قرب بلخ وكان سادنه يعرف بالبرمك ، واليه ينسب البرامكة) ، البيوت المعظمة عند اليونانيين (ويضمنها الأهرام بمصر) وعند الصابئة ثم بيوت النيران المجوسية التي كانت منتشرة في خراسان وفارس ، والتي وصف المسعودي واحدا منها زاره بنفسه في مدينة اصطخر (مروج ، ج ٢ ص ٢٥٤) .

وترد أيضا في سياق الأخبار ، آراء الفلاسفة من حكماء اليونان ، من : بطليموس الى جالينوس وبليناس ، الى جانب أهل التحصيل بمصر وغيرها من البلاد ، وذلك بمناسبة تقسيم العالم الى الأقاليم السبع وصفة الأرض ، والقول

بأن الهواء مسكون ، والقول في الاسطقسات ، من : الارض والماء (الثقيلين) الى الهواء والنار (الخفيفين) (مروج ج ١ ص ٨٨ ، ص ١٧٨ ـ ١٨٨) .

هذا الى جانب ما يتخلل كل ذلك من ملاحظات النقد التاريخي ، من الخروج على أصول التأليف أو الالتزام بالمنهج العلمي في انتقاء الأخبار . أو تقييم للكتاب التاريخي الذي « يجمع لك الأول والآخر ، والغائب والحاضر ، والناقص والوافر ، والشاهد والغائب والبادي والحاضر . . » (مروج ، ج ٢ ص ٦٧) .

من هذا العرض لموضوعات القسم الأول من مروج الذهب ، في التاريخ القديم وما تخلله من الجغرافيا وعجائب البلدان ، والديانات والمعتقدات ، وعلم التاريخ قد يخيل الينا لأول وهلة ، أن هذا القسم يمثل مقدمة للموضوع الأساسي الثاني وهو تاريخ الاسلام . ولكن الأمر ليس كذلك اذ أن المسعودي سار في تأليفه للقسم الاسلامي على نفس التاريخ القديم ، من : تقديم المادة التاريخية في مزيج من أنواع المعرفة الأخرى . وهو يضع الأحداث الصغيرة الى جانب العظيمة ، ويخلط ما هو جاد صارم بما هو هزلي ساخر ، وكل ذلك في شكل فسيفساء مبرقشة الألوان ـ يمكن ان ترضى سائر الأذواق ـ كما سبقت الاشارة .

في النظم والرسوم

فهو في ثنايا الرواية التاريخية يتكلم عن جهود الدولة في اقامة نظمها مثل : نظام تعبئة الجيوش على عهد علي ، وترتيب حلبة الخيل ايام الوليد بن يزيد ، والتفريق في الطواف حول الكعبة بين الرجال والنساء أيام ولاية خالد القسري ، وآثار الرسول التي كان يتداولها الخلفاء ، وتعليم أبناء الخلفاء أولياء العهد أيام الرشيد والمتوكل ، والبناء المسمى بالحيرى الذي أحدثه المتوكل ، وتطوير الملابس الرسمية على عهد المعتز والمستعين ، وهدم مطامير العذاب على عهد المكتفى ، في الوقت الذي كان المسعودي يؤلف كتابه سنة ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م .

اخلاق الناس

وهو يتكلم في أخلاق الخلفاء من معاوية وحلمه الى سليمان وشرهه ، وعمر بن عبد العزيز وزهده ، ويزيد بن عبد الملك وعشقه ، وهشام وبخله ، والوليد (بن يزيد) وفسقه والسفاح وكرمه ، والمنصور وحزمه ، وابراهيم بن المهدي واسرافه ، والمأمون وعلمه ، والمتوكل وطربه الى أخلاق رجال الدولة ، من : الحجاج الى البرامكة . وربما كان أهم من ذلك كلامه في أخلاق العامة (ج ١ ص ٤٣) وتأثير العادة ، ومدح الصمت ، وبيان شر الرجال والنساء ، وسر كراهية الناس للموت ، وطبائع الخصيان وأخبار المحتالين .

الديانات والمذاهب

وفيها يتعلق بالديانات والمذاهب يعرف بالشيعة الكيسانية ، والخوارج وفرقهم وعلمائهم ، والمعتزلة وبيان أصولهم الخمسة ، والامامة واختلاف أهل النحل ، والراوندية ورأيهم في الامامة ، واعتقاد العباسيين في انتقال الخلافة اليهم

بمقتضى كتاب عندهم ، والخرمية والباطنية ، ويمين الله الذى يعاقب من حلف كاذبا ، والزنادقة من المانوية وبعض الفرق المهدية ، والقول بخلق القرآن .

والمسعودى يرجع كثيرا فى هذا الباب الى كتابه الموسوم : ب « المقالات فى أصول الديانات » كما يشير الى بعض كتب الجاحظ مثل : كتابه فى العثمانية ، وكتابه فى الراوندية فى الامامة .

الطب وغيره من العلوم

وفى العلوم الطبية يذكر خبرة الطبيب أجبريل إبن بختيشوع فى تدبير الطعام ، وفى الحوار بين الخليفة الواثق وبين جلسائه من الأطباء من : ابن بختيشوع الى ابن ما سويه وميخائيل ، وربما حنين بن إسحق يعرض للطب النظرى والتطبيب ، والغذاء ، وتفصيل الاسنان ، وتأليف حنين بن اسحق فى الطب للواثق ، كما يذكر خصائص الحجر المعروف باليشب ، والقول فى الكيمياء وعجائب البلدان ، وفى علم الحيوان هناك وصف الخيل . وفى الشعر ينص على مازاده علماء العروض على ما استنبطه الخليل بن احمد من أوزان الشعر ، وكذلك فى الغناء والتلحين والرقص .

الطبيخ والأطعمة

وفى الطبيخ والطعام يورد حديث وصف الأطعمة للمستكفى ، من : السكباج والكوامخ والسلحم ، ومن البوادر والنوادر كالجونة والطيهوج ، والشطيرات والمجبنات ، الى جانب ما قيل من الشعر فى : السنبوسج والمليون والأرزية والهريسة والمضيرة والجواذبة والقطائف . هذا ، الى جانب أطعمة العامة من الناس ، مثل طعام الفلاح الذى أطعم المهدى اياه ، من : البقل والكرات وخبز الشعير والزيت ، أو سكباج الملاحين الذى أثار فوحه شهية المتوكل .

وفى وسائل التسلية هناك مجالس الشراب ، ومجالس الغناء والسمر ، واستماع حديث الملوك ، والمناظرات بين العلماء ، والغرام بالخيل والكلام فى الشطرنج .

طرائف الأخبار

أما طرائف الأخبار التى يقصد بها الترويح عن النفس وان دخلت فى مجال الادب ، فمنها طرف أخبار الحجاج : كزواج والده بأمه وسبب ولوعه بسفك الدماء ، وأخبار ليلى الأخيلية معه ، وبعض أخبار عمر بن عبد العزيز مثل : قصته مع قاضى الحجاز الذى هام بجارية مغنية ، وعشق يزيد بن عبد الملك ، ووصف أنواع الشراب للوليد بن يزيد ، وسعى الرشيد فى زواج الشاعر أبي العتاهية ، وحديث جلساء البرامكة فى العشق وأسبابه ، وقصة زواج العباسة أخت الرشيد من جعفر البرمكي ، وزواج المأمون ببوران ، وزواج الحسين بن الأفشين بأترجه بنت أشناس بمعرفة المعتصم ، وزواج المعتضد ببنت خمارويه .

أخبار الخلفاء

أما أخبار الخلفاء فمنها ما يؤخذ منه العبرة والموعظة في ادارة دفة الحكم ، مثل : سواس بني أمية وهم : معاوية وعبد الملك وهشام ، ومنها ما يتعلق بعصر النهضة من أخبار خلفاء العباسيين كما رواها محمد العبدي الخراساني للخليفة القاهر الذي كان مسمولا مخلوعا وقت تدوين مروج الذهب . فالمنصور هو أول خليفة ترجمت له كتب الحكمة والمنطق والهيئة والهندسة والحساب من اليونانية والرومية (اللاتينية) والفهلوية (الفارسية الوسطى) والفارسية ، والسريانية وأخرجت الى الناس فنظروا فيها وتعلقوا الى علمها ، كما كان أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه في أعماله وصرفهم في مهماته ، وقدمهم على العرب فامتثل ذلك الخلفاء من بعده من ولده ، فسقطت وبادت العرب .

وهكذا يظهر المأمون الى جانب المنصور كمغرم بأحكام النجوم ، سائر على سنن آل ساسان ، مجتهد في قراءة الكتب القديمة ، ممعن في درسها ، مواظب على قراءتها الى ان ينتهي الأمر بأن افتن في فهمها ، وبلغ درايتها ، بمعنى أنه أصبح حكيماً فيلسوفا . فكان عصر المأمون يمثل مرحلة ثالثة لعصر الترجمة هي عصر النهضة العلمي الذي يمثله الخليفة بشخصه . وهو الذي أظهر القول بالتوحيد وقرب اليه الجدليين والمناظرين ، والزم مجلسه الفقهاء ، وأهل المعرفة من الأدباء وأجرى عليهم الأرزاق .

وعلى عهد المهدي ظهر الملحدون لما انتشر من كتب ماني وابن ديصان ، ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره ، وترجمت من الفارسية والفهلوية الى العربية ، وما صنفه في ذلك ابن أبي العرجاء وحماد عجرد وغيرهم ، من : تأييد المذاهب المانية والديصانية والمرقيونية ، فكثر بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس . وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب للرد على الملحدين .

أما الرشيد فأيامه كانت تسمى « أيام العروس » لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها . ولقد شاركت زوجته زبيدة (أم جعفر) في أيام السعادة تلك فهي التي اتخذت الجواري المقدودات الحسان الوجوه ، وعممت رؤوسهن . وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية ، وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق ، فما ست قدودهن وبرزت أردافهن ، وذلك من أجل خدمة ابنها الخليفة الأمين ، الذي أبرزهن للناس من الخاصة والعامة ، فشاع استخدام الجواري الغلاميات على هذا النسق عند العامة والخاصة (مروج ، ج ٤ ص ٣١٨) .

أما المتوكل فقد خالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد فنهى عن الجدل والمناظرة في الآراء وعاقب عليه ، وأمر بالتقليد ، وأظهر الرواية للحديث .

أما الأخبار المأساوية في تاريخ الخلافة ، وهي التي تشد الانتباه بما تثيره من شجون حزنية ، فمنها مقاتل الطالبيين ، وحصار مكة ، ونبش القبور ، ورفع رأس الأمين على خشبة في صحن دار أخيه الخليفة الفيلسوف ، وجلد أحمد بن حنبل ، وقتل الخلفاء وتعذيب الوزراء (مروج ، ج ٤ ص ٢٢٩) .

مقتل المتوكل

والمنظر يتمثل في مدينة سامرا ليلة الاربعاء ٣ شوال سنة ٢٤٧ هـ / ١١ ديسمبر ٨٦١ م ، في قاعة الشراب الفسيحة في القصر الخلافي . وهن توزيع الأشخاص : فالمتوكل على سريره تحيط به بطانته من الندماء وعلى رأسهم الفتح بن خاقان ، أقربهم الى قلب الخليفة . وعلى بعد قليل جلست جوقة المغنين والموسيقيين ، والخدم وقوف حول رؤوس الحاضرين يديرون الكؤوس .

وعن الأدوار ، فعندما يعمل الشراب في الخليفة ، ويغني المغنون يقبل على البكاء وبعد مضي ثلاث ساعات من الليل كان المتوكل يتمايل على سريره من شدة السكر ، والخدم عند رأسه يحاولون اقامته ، وهنا يقبل القائد التركي باغر ومعه عشرة نفر من الأتراك ملثمين يقتحمون المجلس والسيوف تبرق في أيديهم في ضوء الشموع . وعندما صعد باغر الى سرير الخليفة صاح الفتح بن خاقان : ويلكم ، وهنا يفر الحضور من الجلساء والندماء ، ولم يبق في المجلس غير الفتح ابن خاقان الذي أخذ يدافع عن سيده ببطولة الشجعان .

« قال البحتري : فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف . . . على جانبه الأيمن فقده الى خاصرته . ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك ، وأقبل الفتح يمانعهم عنه فبعجه واحد منهم بالسيف الذي كان معه في بطنه فأخرجه من متنه ، وهو صابر لا يتنحى ولا يزول . . . ثم طرح بنفسه على المتوكل فماتا جميعا . . . » (انظر مروج الذهب ، ج ٤ ص ١٢٠ ـ ١٢١) .

مقتل المهتدى

والمهتدى في ورعه كان يريد أن يجدد عهد عمر بن عبد العزيز في بني هاشم : فلقد قلل الرجل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب ، وكسر آنية الذهب والفضة وأمر بها فضربت دنانير ودراهم ، كما عمد الى الصور التي كانت تزين حيطان المجالس الخلافية فمحيت ، وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين يدي الخلفاء ، والديوك ، وقتل السباع المحبوسة . . . وخفض نفقته الى ١٠٠ (مائة) درهم ، بعد ان كانت نفقة موائد الخلفاء ١٠ (عشرة) آلاف درهم .

وما هو أغرب من ذلك ما يقال من أنه : كان يصوم الدهر ويقوم الليل وهو في جبة صوف ، والغل (القيد) في يديه (مروج ، ج ٤ ص ١٨٩ ـ ١٩٠) فكأنه واحد من متصوفة الملامتية .

أما عن مقتله ، فالمنظر يتمثل أولا في شوارع مدينة سامرا ، يوم الثلاثاء ١٥ رجب سنة ٢٥٥ هـ / ١٠ يونية ٨٦٩ م ، بعد محاولة فاشلة من جانب الخليفة في مواجهة خصومه من قواد الترك وعلى رأسهم القائد بايكال . فالمهتدى يجري صائحا في الأسواق مستغيثا بالعامة ، قبل أن يختفي في احدى الدور ، ويحمل منها الى دار القائد التركي يارجوج ويدور جدل بين الخليفة وحرسه التركي حول مدى ما يصح من سيرة الخليفة في رجاله الذين يتراوح ما بين تركي وخزري وفرغاني ، من أنواع الاعاجم .

وينتهي الأمر بأن يأتي الأتراك بالخناجر ويقتلوا المهتدي على طريقتهم الخاصة « وكـان أول من جرحـه ابن عم لبايكال ، جرحه بخنجر في أوداجه ، وانكب عليه فالتقم الجرح والدم يفور منه ، وأقبل يمص الدم حتى روى منه ، والتركي سكران . فلما روى من دم المهتدي قام قائما وقد مات المهتدي ، فقال : يا أصحابنا قد رويت من دم المهتدي كما رويت في هذا اليوم من الخمر[٢٠] .

هذه المآسي التي عرفها المشرق اعتبارا من منتصف القرن الثالث الهجري (٩ م) هي التي تمثل دورة التطور التي اكتملت على أيام المسعودي ، حسبما رآها ابن خلدون في المقدمة ، وعرفها بأنها حالة التبدل الطبيعية ، وشبهها بما كان يطرأ على بلاد المغرب من التغير على عهده ، في منتصف القرن الثامن الهجري (١٤ م) حيث كانت قبائل العرب من السلالة الهلالية تقوم بدور أشبه ما يكون بدور الأتراك في المشرق ، من حيث التسلط على الدول المغربية ، وان كان بطريقة مخالفة .

أما ما تعرض له من الأخبار المتنوعة ، مما يعالج نظم الحكم والسياسة أو الأخلاق والعادات والمذاهب والديانات والعلوم وطرائف الأخبار وخصائص عهود الخلفاء فهي تجعل من المسعودي وكأنه مؤرخ حضارة . ومروج الذهب من هذا الوجه أشبه ما يكون بمقدمة ابن خلدون التي اعتبرها البعض تأليفا في فلسفة التاريخ بينما رأى البعض أن موضوعها ((هو التاريخ كما ينبغي أن يكون ، بمعناه الشمولي الجامع ، وهو ما ينسجم مع رأي ابن خلدون في كتاب مروج الذهب .

وهكذا نجد أنه من المناسب أن نعرض بإيجاز لمحتويات المقدمة في محاولة لبيان مدى تأثر ابن خلدون بطريقة المسعودي في التأليف التاريخي .

مقدمة ابن خلدون : المحتوى

والكتاب الأول من عبر ابن خلدون المعروف بالمقدمة ، وهو المجلد الأول من طبعة بولاق سنة ١٨٨٢ ، يقع في ٥٠٦ صفحة دون المقدمة « في فضل علم التاريخ » والفهرسة التي تقع في ١١ صفحة . وهـو يحمل عنوان : « الكتاب الاول : في طبيعة العمران في الخليقة ، وما يعرض من البدو والحضر والتغلب ، والكسب والمعاش ، والصنائع والعلوم ونحوها ، وما لذلك من العلل والأسباب » .

والمقدمة مقسمة الى ٦ فصول ، على الوجه الآتي :

ـ فصل ١ (٦٧ ص) : في العمران البشري على الجملة ، وفيه ٦ مقدمات في : ضرورة الاجتماع الانساني والجغرافيا ـ وخاصة أثر البيئة في الانسان ـ وفي أصناف المدركين للغيب ، وحقيقة النبوة والكهانة .

(٢٠) مروج الذهب ، ج ٤ ص ١٨٦ ـ هذا وان كانت هناك روايات أخرى عن قتله ، منه القول أنه عصرت مذاكيره حتى مات ، أو أنه جعل بين لوحين عظيمين وشد بالحبال ، أو أنه قتل خنقا ـ وهي الروايات التي تتفق مع عادات الترك القديمة التي لاتسمح بإراقة دم النبلاء .

ـ فصل ٢ (٢٨ ص) : في العمران البدوي والامم الوحشية والقبائل . ومن عناصره فصول في : البدو والحضر والعصبية والأنساب والملك ، واحوال العرب ، من : التغلب على البسائط وبعدهم عن سياسة الملك .

ـ فصل ٣ (١٥٧ ص) : في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية . وفيه فصول في العلاقة بين الدولة والعصبية ، وبين الدعوة الدينية والعصبية ، ونظريات في عمر الدولة وانتقالها من البداوة الى الحضارة ، وتعريفات بالخلافة والامامة ونظم الحكم ، وما يلحق بذلك من العمران والمجاعات ، والمذاهب الفاطمية ، وعلم الحدثان .

ـ فصل ٤ (٣٢ ص) في البلدان والأمصار وسائر العمران . وفيه فصول في : الدول وأحوال المدن ، وتفاضل الأمصار في العمران رأسعار المدن ، والحضارة بصفتها غاية العمران ونهاية لعمره ، وفي لغات أهل الأمصار .

ـ فصل ٥ (٤١ ص) : في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع ، وفيه نظريات في : الكسب ووجوه المعاش ، والفلاحة والتجارة والصنائع ثم تعريف بأهم الحرف والصناعات .

ـ فصل ٦ (٦١ ص) : في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه . وفيه فصول في العلاقة بين العلم والعمران ثم عرض لمختلف العلوم من نقلية وعقلية ، ومنها السحر والطلسمات وأسرار الحروف ، والطب الروحاني ، واستخراج أجوبة المسائل من زايرجة العالم . وآخرها فصل في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد ـ وفيه أشعار الهلالية والزناتية ـ ثم الموشحات والأزجال الأندلسية .

أوجه الشبه والاختلاف ما بين مقدمة العبر ومروج الذهب

وبالمقارنة بين محتويات كل من مروج الذهب ومقدمة العبر نجد نوعا من التشابه بينهما ، يظهر بصورة خاصة في المقدمات الجغرافية ، وأجيال البدو من العرب والبربر (والاكراد والترك) ، وفي نظم الحكم وما يتعلق منها بالامامة والخلافة والمهدية الفاطمية ، والأديان والمذاهب ، والعلوم ومنها : الفلسفة والطب والسحر والتنجيم وقبل كل ذلك الاهتمام بأخبار العامة من الناس ، من : السوقة والخدم واصحاب الحرف والصناعات .

والحقيقة أن تأثر ابن خلدون بالمسعودي لا تحتاج الى دليل ، فابن خلدون يرى في كتاب مروج الذهب النموذج الذي يجب أن يقتدى به ، وان طريقة المسعودي في تدوين التاريخ بشكل شمولي جامع هو المنهج الذي يخرج بالتاريخ من حدوده السياسية الضيقة الى آفاقه الحضارية الرحبة ، التي تجعل منه تاريخا للامم والشعوب بعد أن كان أخبارا عن الأمراء والملوك .

ولكن رغم ما يشير اليه من أوجه الشبه هذه ، فان المقدمة الخلدونية تمتاز على مروج الذهب للمسعودي بوحدة الموضوع . فالمعلومات المتنوعة التي يعرضها المسعودي في شكل استطرادات أشبه ما تكون بفسيفساء مبرقشة ، تظهر في

المقدمة عند ابن خلدون ، في شكل موضوعات متماسكة ، حسنة السبك جيدة الحبك . بل انها تتبلور في آخر الأمر في شكل نظريات عامة في العمران بمعنى الاجتماع الانساني ، وهي التي عرفت بفلسفة التاريخ ، هي التي رفعت ابن خلدون الى مصاف كبار المفكرين العالميين .

تقييم المقدمة :

وهكذا رفع جوتيه في كتابه المعنون بـ « ماضي افريقية الشمالية : القرون المعتمة » ابن خلدون الى مرتبة القديس أغسطين ، وقال : ان القارة الافريقية فقيرة في الرجال من طراز أغسطين وابن خلدون[٢١] أما أرنولد توينبي ، مؤرخ الحضارات المعاصرة فقد وصف مقدمة ابن خلدون بأنها : عمل لم يقم بمثله انسان في أي زمان ولا مكان[٢٢] هذا ، ولو ان توينبي يقارن في نفس هذا البحث بين ابن خلدون وكل من ثيوديد ومكيافللي وغيرهما من المؤرخين العالميين ، مثل يوسيفوس وبوليبيوس . وهنا نشير الى ان ايف لاكوست في كتابه عن ابن خلدون الذي عنونه ، بـ « مولد التاريخ في العالم الثالث »[٢٣] ، لا يجب أن يقارن مؤرخنا الا بثيوديد . وفي تلك المقارنة يرى : ان اكتشاف المقدمة في القرن الـ ١٩ م ، وترجمتها في أوربا ، وافق تطور علم التاريخ والاجتماع ، حيث أصبح التفكير التاريخي عقليا ماديا بشكل لا يتفق مع التفكير الديني (ص ١٦٩ ، ص ١٧٢) وانه على عكس هيرودوت الذي ظل يهدف الى الحفاظ على القصص المدهش من النسيان ، كما ظلت فكرته ضعيفة عن الزمنية والسببية ، ظهر عند ثيوديد لأول مرة البحث الواعي لمعقولية الأفعال البشرية (ص ١٧٣) وبالمقارنة يصبح أن كتاب القديس أغسطين وهو « مدينة الله » أثر لاهوتي وتبريري ذو برهنة تاريخية (ص ١٧٥) . أما ابن خلدون فانه بفضل نظرياته في النقد التاريخي ، الذي يتمثل في : غياب الشرح والتعليل وقبول الأحكام الاعتباطية ، ونقل الأخبار التقليدية والروايات المنقبية والأسطورية ، واهمال الوقائع الاقتصادية والاجتماعية ، مع الاهتمام بالبلاغة ووفرة الوقائع دون الربط بينها ، كل ذلك جعل منه (ابن خلدون) المؤرخ الوحيد الذي تجاوز ثوسيديد قبل القرن التاسع عشر الميلادي وبناء على ذلك ، فاذا كان ثوسيديد هو مخترع التاريخ فان ابن خلدون هو الذي جعل من التاريخ علما (ص ١٧٧) .

ما بين المقدمة والتاريخ في كتاب العبر :

ولكنه اذا كانت المقدمة في نظر ايف لاكوست ، مؤلفا موسوعي الطابع ، يحوي عرضا منهجيا وتحليلا للبنى الاجتماعية والسياسية (ص ٨١) ، فان تاريخ ابن خلدون أشبه ما يكون بتواريخ سابقيه من المسلمين . فطريقته في تاريخ البربر تتمثل في تبويب الوقائع في فصول تتعلق بمختلف السلالات الحاكمة ، واهتمامه الأكبر ينصب على الأحداث العسكرية (ص ٧٩) .

---

(٢١) E.F. Gautier, Le Passe de l, A frique du nord, les Siecles Obscurs, Paris, 1942, P. 80
وانظر كتابنا في : تاريخ المغرب العربي الاسكندرية ١٩٧٩ ج ١ ص٣٦ .

(٢٢)انظر محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون ، القاهرة ط ٣٠ ، ١٩٦٥ص ١٩١ ، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ (حيث ترجمة بحث توينبي الى العربية)

(٢٣) انظر الترجمة العربية بمعرفة ميشال سليمان ، نشر دار ابن خلدون ، بيروت ، ط ٢ ١٩٧٨ .

والحقيقة أن النقد الحديث يكاد يكون قد استقر على أن ابن خلدون أهمل قواعد النقد التاريخي التي أسر عليها في المقدمة ، فلم يطبقها في تاريخه الذي جاء تقليديا ، مثل بقية كتب التاريخ الاسلامي من العصور السابقة . فهو يكتفي بالنقل ، ويهمل ذكر مصادره في كثير من الأحيان ، وهو لا يطبق نظرياته في قيام الدول وتطور العمران ، فيكتفي برواية الأخبار دونما سببية أو تعليل[٢٤] .

وإذا صح ذلك تكون المقدمة وحدها ، كتاب تفكير وجهد ، وهي في جزء واحد من سبعة أجزاء يتكون منها كتاب العبر ، ويكون التاريخ عملا تقليديا عاديا ، وهو في الستة الباقية من الأجزاء .

وهنا نصل الى تحديد هدفنا من تلك المحاولة في دراسة ابن خلدون ، وهو هدف مزدوج يتلخص أولا في : النظر الى المقدمة التي رفعت من شأن المؤرخ المغربي الكبير على أنها عمل تركيبي قائم على تجميع عناصر التراث الاسلامي المختلفة ، في فترة كان هذا التراث قد فقد كثيرا من بريقه ، واستيعاب تلك العناصر في أطرها التاريخية ثم تمثلها في شكل نظريات عامة يمكن أن تفسر كيفية مسار المجتمع في حياته اليومية المعتادة ، عبر الزمن ، وبذلك يصبح التاريخ أبا للعلوم ، كما يقول المسعودي ويمكن لنا أن نعرض هذه الفكرة بطريقة موجزة ، فنقول : ان المقدمة تستمد قيمتها من حيث هي تلخيص عبقري لتاريخ التراث الاسلامي . وهذا يعني : أن التقدير للتراث وأصحابه من متقدمين ومتأخرين ، بينما العبقرية للمؤرخ المجدد الذي ظهر وكأنه في غير وقته ، وهو ما حاولنا بيانه ، مقتصرين بشكل عام على عمل المسعودي ، قدوة ابن خلدون .

وثانيا ، في النظر الى التاريخ في كتاب العبر على أنه عمل ينسجم مع عبقرية صاحبه ، وهو الأمر الطبيعي ، رغم ما تواتر من انه تاريخ تقليدي ، وذلك لا يتأتى الا بالنظر الموضوعي في محتوى الكتاب ومضمونه ، وما يتعلق بذلك من ظروف تأليفه .

موضوعات التاريخ في كتاب العبر

بعد المقدمة وهي الكتاب الأول ، يحتوي التاريخ في كتاب العبر على كتابين في ٦ أجزاء (مجلدات) ، وهما : الكتاب الثاني : « في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة الى هذا العهد » ، ويقع في ٤ أجزاء (أي مجلدات ، من طبعة بولاق) هي : الثاني في (٥٣٤ ص بدون الفهارس) [٢٥] ، والثالث (في ٥٤٢ ص) ، والرابع (في ٥٢١ ص) والخامس (في ٥٦٣ ص) - بالاضافة الى ٨٨ صفحة من المجلد السادس [٢٦] ، فيكون مجموع صفحات الكتاب الثاني ٢٢٤٨ بدون الفهارس .

---

(٢٤) انظر على عبد الواحد وافي ، مقدمة ابن خلدون ، الفصل الخاص بالنقد الموجهة الى بحوث ابن خلدون في التاريخ ، ج ١ ص ١٥٠ .

(٢٥) الجزء الثاني من طبعة بولاق يحتوي على قسمين : الأول من ص ٢ الى ٣٢٨ ، وآخرها في ترقيم وبها فهرست خاص في آخرها ، والثانية تبدأ في نفس المجلد بالفهرست الخاص بها في ص ٣٤٢ ، ثم تأخذ ترقيما جديدا من ص ٢ الى ص ١٩٠ (حيث بهذه الحسن وتسليمه لمعاوية) .

(٢٦) القسم الخاص بالعرب في أول الجزء السادس يبدأ بالترقيم المعتاد وهو ص ٢ . وسبب وضعه في المجلد السادس الخاص بالبربر هو أنه في أخبار الطبقة الرابعة من العرب المعاصرين لابن خلدون من بني هلال ، فهو اذا وثيق الصلة بتاريخ البربر .

وهكذا يبدأ الكتاب الثالث ، في الصفحة ٨٩ من الجزء (المجلد) السادس (في ٣٣٦ ص) وهو : « في أخبار البربر والأمة الثانية من أهل المغرب ، وذكر أوليتهم وأجيالهم ودولتهم منذ بدء الخليقة لهذا العهد ، ونقل الخلاف الواقع بين الناس في أنسابهم » ويستغرق الجزء السابع (في ٤٦٤ ص) ، ويكون عدد صفحاته (٨٠٠ ص) بدون الفهارس . .

وبذلك يكون القسم التاريخي من كتاب العبر في ٣٠٤٨ صفحة ، بدون الفهارس ، وهو مع المقدمة (٥٣٤ ص) يكون عملا ضخما ، يقدره المقري ويصفه بالتاريخ الكبير ، بمناسبة ما ينقله من الترجمة التي ألفها ابن الخطيب في الاحاطة لابن خلدون ، والتي ذكر فيها من تواليفه : شرح البردة ، وتلخيص كتب ابن رشد ، وتأليف كتاب في الحساب ، الى جانب ما نظمه من أشعار ، فيقول: « قلت هذا كلام لسان الدين في حق المذكور في مبادىء أمره وأواسطه ، فكيف لو رأى تاريخه الكبير . . « ديوان العبر . . » وقد عرف في آخره بنفسه »[٣٢] .

وابن خلدون في تأليفه التاريخي ملتزم بعمل المقدمات ، فهو يخص الكتاب الثاني : في أخبار العرب ، بمقدمتين وبرنامج ، وأولى المقدمتين ، في : أمم العالم واختلاف أجيالهم والكلام على الجملة في أنسابهم (ج ٢ ص ٢ وما بعدها) وثانيتهما في : كيفية وضع الأنساب في الكتاب (كتابنا) لأهل الدول وغيرهم : كالأغصان للشجرة (ص ١٤) . . وهنا يحسن الاسراع بالاشارة الى أن ابن خلدون مغرم بالأنساب ، محب لتوضيح أخباره أوعلى الأصح تلخيصها في رسوم في شكل شجرة النسب من جذورها الى أغصانها ، وهو يعرف بعلم الأنساب ويبين أهميته التاريخية وفوائده العملية مما يتعلق بالمواريث وعلم الفرائض . أما البرنامج فيبين به محتويات الكتاب من الدول العربية على ترتيبها ، والدول المعاصرة لها من العجم .

وهو مولع بالتقسيم والتصنيف ، مثل معظم الفلاسفة ، فهو يقسم العرب الذين يعرف بأخبارهم الى أربع طبقات :

١ ـ العرب العاربة : عاد وثمود ، ومعاصروهم

٢ ـ العرب المستعربة : اليمانية والسبائية ومعاصروهم من ملوك بابل ونينوى والقبط ، وبنو اسرائيل والفرس على طبقاتهم ، واليونان والروم . . . . الخ .

٣ ـ العرب التابعة : من العدنانية والقحطانية ، وممالكهم في الحيرة والشام الى قريش وظهور الاسلام ، وقيام دولة الخلافة حيث ينتهي الجزء الثاني بتسليم الحسن الأمر لمعاوية .

ويستغرق الجزء الثالث تاريخ الدولتين : الأموية والعباسية ، وقيام الدويلات المستقلة في عرض عام في ثنايا دولة الخلافة ، من : الصفارية والسامانية وثورات الزنج والقرامطة والدولة الطولونية والفاطمية ، والدول المتغلبة على بغداد ، من : الديلمية والسلجوقية حتى ظهور التتر وسقوط بغداد ، وانتقال الخلافة الى مصر .

---

(٣٢) انظر المقري ، نفح الطيب ج ٦ ص ١٨٠ ـ ١٩٠ .

وهو يعود في الجزء الرابع الى دراسة تاريخ الدويلات المستقلة في شكل كيانات ذاتية يبدأها بالثورات العلوية والدول التي قامت على أساس التشيع ، من : الزيدية والأدارسة والزنج ، والعبيديين بالقيروان والقاهرة ، والقرمطية بالبحرين ، والاسماعيلية بالموت ، وبني الحسن بمكة ثم الهواشم ، وأخيرا دولة بني الرسي أئمة الزيدية بصعدة .

بعد ذلك تأتي أخبار المعارضين للدولة العباسية من الأمويين في الأندلس ،وفيها يشير الى أخبار ثوار اشبيلية ويضمنهم آله من بني خلدون (ج ٤ ص ١٥ ـ ١٣٦) ، ثم من أتى بعدهم ، مثل : دولة بني حمود (الأدارسة) بقرطبة ، وملوك الطوائف ثم دولة بني الأحمر المعاصرة حيث لا يزيد ما بين المسلمين على أيامه على ما بين رندة من الغرب وألبيرة من شرق الأندلس ، وهي مسافة حوالي ١٠ (عشر) مراحل طولا ، في مرحلة أو أقل من مرحلة عرضا : ما بين البحر والشمال (الجوف) (العبر ، ج ٤ ص ١٧١) وأخيرا دول بني ادفونش من الجلالقة .

ثم تأتي دول العرب المتغلبين التابعة للدولة العباسية في المغرب من : الدولة الأغلبية وما يلحق بها ، ودول الاسلام في اليمن من تابعين لبغداد أو شيعة ، وبني حمدان ، وبني عقيل بالموصل ، وبني مزيد بالحلة .

ثم دول العجم التابعين للدولة العباسية ، من : الطولونية ،والاخشيدية والصفارية وآل سبكتين وبني سامان ، والغورية والقراخانية والخطائية .

أما موضوعات الجزء الخامس فأولها دولة السلجوقية من الترك ، وتبدأ بمقدمات في أنسابهم وجغرافية بلادهم ، وفي طبيعة حياتهم البدوية التي يستنجعون فيها مساقط الغيث ومن الواضح أن هذه القطعة أضيفت كمقدمة دون ترتيب ، وربما وضعت في غير موضعها اذ تأتي بعدها معلومات عن ألب ارسلان ثم عنوان عن غزاته الى خلاط وأسر ملك الروم .

وبعد سلاطين السلاجقة يأتي ملوك الغور ثم خروج التتر وفرار خوارزم شاه ، ثم سلاجقة الشام وآل زنكي ، وأخبار الفرنج في سواحل الشام ، والفرنج (الصقليين) في سواحل أفريقية والدولة الأيوبية والحروب مع الفرنج بالشام .

وأخيرا تأتي أخبار دولة الترك القائمين بالدولة العباسية بمصر والشام من بعد بني أيوب لهذا العهد (المماليك) وتبدأ بمقدمات في أنساب الترك ، ودخولهم في خدمة الخلفاء ، وجلب التجار لهم بمصر ، لكثرة رقيقهم نتيجة لغلبة التتر على شعوب الترك من القفجاق والروس والجركس وان الغرض من جلبهم الى مصر ليس للاستعباد بل لتكثيف العصبية وتغليظ الشوكة وبذلك تنتهي أخبار الطبقة الثالثة من العرب .

ويبدأ الجزء السادس بالطبقة الرابعة من العرب المستعجمة أهل الجيل الناشىء لهذا العهد (عهد المؤلف) وفيه أخبار دخول بني هلال وسليم المغرب في منتصف القرن الخامس الهجري (١١ م) والتي تستغرق ٨٨ صفحة .

ولما كان الكتاب الثالث الخاص بالبربر يأتي بعد ذلك ويستغرق بقية الجزءين السادس والسابع فكأن ابن خلدون قصد أن تكون قصة دخول الهلالية الى المغرب مقدمة لتاريخ البربر ، بمعنى أن تاريخ البربر في المغرب ليس الا تاريخ العرب في أفريقيا الشمالية ، وهو الأمر الذي لم يغب عن فطنة مدير مطبعة بولاق . والا لكان بدأ الجزء السادس مع بداية الكتاب الثالث في أخبار البربر ، والأمة الثانية من أهل المغرب من صفحة ٨٩ .

ويبدأ أخبار البربر بالتعريف بمواطنهم ، وفضائلهم ، وأخبارهم على الجملة من الفتح الاسلامي الى ولاية بني الأغلب ، وهو ما سبق أن تحدث فيه في الجزء الرابع (ص ١٨٥) ثم يستعرض قبائل البتر ودولة بني واسول ملوك سجلماسة ، ثم قبائل البرانس ودولة آل زيري ، وآل حماد بالقلعة .

ويأتي الطبقة الثانية من صنهاجة ، ويستعرض قبائلها ، من : المصامدة وبرغواطة وغمارة ، ويدخل في ثناياها أخبار الأدارسة للمرة الثانية (أنظر ج ٤ ص ١٢) وبني عبد المؤمن وبني حفص ، والصراع بينهم وبين بني مرين وبني عبد الواد ، وهي الفترة التي عاصرها ابن خلدون حيث ولاية الامير أبي عبدالله البجاية ، واستيلاء أبي الحسن على أفريقية وواقعة العرب مع السلطان أبي الحسن بالقيروان (سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) ، وولاية السلطان أبي العباس ثم ابنه أبي فارس ، ورياسة بني يملول بتوزر .

والجزء السابع والأخير يستوعب عن قبائل زناتة الذين كانوا يجارون العرب في سكنى الخيام واتخاذ الابل وركوب الخيل وايلاف الرحلتين بمن تتبع القطر والكلأ في الانتجاع صيفاً وشتاء .

وأسلوب الحياة البدوية هذا يسميه ابن خلدون « العربية » (ص ٤) .
وهنا يظهر ابن خلدون دراية بأحوال البربر ، فيتكلم عن أنساب بعض القبائل المجهولة النسب ، من زناتة ، كما يكشف عن دراية بشيء من فقه لغتهم وصوتياتها . ثم هو يقسم زناتة الى طبقات كما سبق له أن قسم العرب وصنهاجة ، تبعاً لأجيالهم .

والطبقة الأولى هم بنو يفرن ، ومنهم أبو يزيد الثائر على الفاطميين بالمهدية ، كما كانت لهم وقتئذ دولة بوهران وتاهرت . ومنهم مغراوة الذين دخلوا في خدمة الأدارسة ثم ظاهروا دعوة المروانية بالأندلس ، وملكوا فاس الى عهد لمتونة المرابطين .

والطبقة الثانية هم بنو واسين ، ومنهم بنو مرين وبنو عبد الواد ، حيث العودة الى الدولة الحفصية والفترة التي عاصرها ابن خلدون ، وهزيمة السلطان أبي الحسن ، واستيلاء أبي عنان ثم أبي سالم ثم أبي العباس على تلمسان ، ومحنة أخيه يحيى بن خلدون على يدي أبي تاشفين ثم يأتي بنو سلامة أصحاب قلعة تاوغزوت (تازروت) ، ويسترسل أخبارهم الى سنة ٧٨٣ هـ/ ١٣٨١ م .

وفي الدولة المرينية تأتي أخبار يعقوب بن عبد الحق وجهاده في الأندلس حيث أجاز ٤ مرات ، وانتقاض ابن الأحمر (صاحب غرناطة) ومظاهرته للطاغية على طريف ، وانعقاد السلم مع الطاغية ثانية . وتأتي أخبار السلطان أبي الحسن مرة أخرى ، وقضائه على دولة بني عبد الواد في تلمسان ، وهزيمته المؤلمة في طريف سنة ٧٤٠ هـ/ ١٣٤٠ م وواقعة العرب مع السلطان بالقيروان سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ .

وينتهي الجزء السابع بملحق في التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب تستغرق ٨٣ صفحة (من ص ٣٧٩ الى ص ٤٦١) [٢٨] .

ما بين الكاتب والكتاب : ابن خلدون والعبر

والحقيقة ان تعريف ابن خلدون بنفسه كخاتمة لكتابه يعتبر مرشدا هاما لمن يرغب في دراسة كتاب العبر . فتأليف الكتاب الكبير بمقدمته العجيبة يمثل في حقيقة الأمر خلاصة تجارب صاحبه على المستويين النظري والعملي . والذي نقصده بالتجارب النظرية هو تكوين ابن خلدون العلمي الذي يظهر بشكل فذ في الكتاب الأول في المقدمة ، أما التجارب العملية التي تمس اشتغاله بالوظائف الديوانية وممارساته السياسية فتظهر بجلاء في الأجزاء المعاصرة من تاريخه ، وهي التي مكنته من بلورة كثير من نظرياته في التاريخ والاجتماع والسياسة .

فابن خلدون عاش زهاء ٧٦ سنة (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ/ ١٣٣٢ - ١٤٠٦) قضى معظمها في خدمة ملوك المغرب والأندلس المعاصرين ، متجولا ما بين : تونس وقسنطينة وبجاية وتلمسان وغرناطة وفاس ومراكش ، وغيرها من حواضر البادية في بسكرة وقلعة بني سلامة قبل أن ينتهي به المطاف الى مصر (كما فعل المسعودي) . هذا ، ومن المهم الاشارة الى أنه بدأ العمل في الوظائف الديوانية مبكرا قبل أن يبلغ العشرين من عمره ، وأنه كثيرا ما استقل الوظيفة من أجل الدراسة والتحصيل العلمي ، وهو الأمر الذي كانت تسمح به ظروف العمل في بطانة الحكام الذين كانوا يتجملون بصحبة العلماء . هذا ، الى جانب أنه كان يسمح لنفسه بترك الوظيفة ما بين الحين والآخر ليأخذ قسطا من الراحة . . يقضيه وحده في التأمل والقراءة والكتابة .

ومن المهم الاشارة قبل ذلك أو بعده ، الى أن مؤرخنا كان شخصا موهوبا ، وأنه سليل أسرة كبيرة كان لها نشاطها السياسي والعلمي منذ قرون طويلة ، في كل من الأندلس والعدوة الافريقية (سبتة) وتونس ، وكل ذلك له أثره في تكوينه العلمي وبنيته الشخصية .

---

(٢٨) وهذا التعريف نشر مستقلا بعد أن وجدت منه نسخ مزيدة ومنقحة بمعرفة ابن خلدون بعد انتقاله الى مصر ، وذلك بإشراف محمد بن تاويت الطنجي ، وأسمت عنوانه « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » ، القاهرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ، ١٩٥١ .

ولما كنا نعتقد هذا الجزء المستقل من الكتاب ، فإننا سوف نرجع الى التعريف كما هو في ختام الجزء السابع من العبر ، وهو يفي بالغرض الذي يهدف اليه من هذه الدراسة ، الله ، مع الاشارة الى من يرجع اليه لما ظهرت الحاجة الى ذلك .

بنو خلدون : ما بين اشبيلية وتونس

تنتسب أسرة ابن خلدون الى جدها خالد الحضرمي أصلا ، الذي دخل الأندلس منذ وقت مبكر ، ونزل اشبيلية ، حيث عرف ـ على الطريقة الأندلسية ـ باسم خلدون ، في شكل صيغة الجمع من أجل التعظيم والتفخيم . وشاركت الأسرة في العمل السياسي على أيام الأمويين [٣٩] ، واستمر لها شأنها في اشبيلية حتى أيام بني عباد اذ شاركوا في موقعة الزلاقة (٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م) ومع اضمحلال دولة الموحدين في الأندلس وانكشاف بسائط اشبيلية أمام العدو رأت الأسرة الانتقال الى العدوة المغربية ، فاستقرت في سبتة في كنف بني العز من سادة المدينة ، وذلك قبل أن يرحلوا الى أفريقية في رعاية أميرها أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد الحفصي الذي استقل عن الموحدين سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨ م وعلى عهد الأمير أبي اسحق (ابن أبي زكريا يحيى ، وهو الرابع من أمراء الحفصيين) عين جد أبيه أبو بكر محمد في وظيفة كاتب الأشغال ، المختص بالاشراف على الشؤون المالية في الدولة (التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٣٨٣) ، ثم انتقل جده محمد (ابن محمد) الى بجاية حيث ولي حجابة أبي فارس (ابن أبي اسحق) الذي كان مبعدا من قبل أبيه هناك ، ولكنه لم يلبث أن استعفى من تلك الوظيفة ، ورجع الى الحضرة تونس .

ولما قامت ثورة ابن أبي عمارة المعروف بالدعي في تونس ، راح ضحيتها جده أبو بكر محمد اذ لم يكتف الدعي باعتقاله ومصادرته ، بل انه دبر التخلص منه خنقا في محبسه . وعندما انتقل جده محمد مع السلطان أبي اسحق الى بجاية حيث كان يعمل من قبل حاجبا لدى الأمير أبي فارس بن أبي اسحق ، قبض عليهم أبو فارس ، وأخرجهم معه عندما قاتل الدعي ابن عمارة قرب مرماجنة .

وعندما استعاد أبو اسحق ملكه صار محمد بن خلدون حاجبا له بعد الفازازي ، كما استمر في الحجابة على عهد الأمير أبي عصيدة (حفيد المستنصر) وان كان رديفا للحاجب محمد بن الدباغ (أي حاجبا ثانيا) . وعلى عهد الأمير خالد ظل محمد بن خلدون محتفظا بما كان له من الامتيازات دون منصب رسمي ، ولكنه عاد الى الخدمة على عهد الأمير أبي يحيى اللحياني ، ولكن في شكل وال أو قائد لمنطقة الجزيرة ، عندما ظهر للأمير خطر بعض بطون قبائل سليم في تلك الناحية .

وعندما انتهت امارة اللحياني ترك محمد بن خلدون الخدمة ، وفي سنة ٧١٨ هـ/١٣١٨ م خرج لأداء فريضة الحج . والظاهر أنه كان قد قرر عدم العودة الى الاشتغال بالوظائف الديوانية ، اذ يقول مؤرخنا انه « أظهر التوبة » بعد الحج ، وانه عاود الحج مرة أخرى سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م ثم لزم كسر بيته . وهكذا عندما عرضت عليه الحجابة سنة ٧٢٧ هـ/١٣٢٧ م ، عقب وفاة محمد بن عبد العزيز المعروف بالمزوار ، « أبى واستعفى ، فأعفاه (السلطان) » ولكنه

(٣٩) فيما يتصل بوصول خلدون الى الاندلس يكاد مؤرخنا يشكك في أن يكون ذلك قد حدث لأول الفتح ، منذ ٧٠٠ سنة من عهده ، فلم يعرف من أجداده الا عشرة فقط ، ومن المحتمل أن يكون عشرة منهم قد سقطت أسماؤهم (العبر ج ٧ ص ٣٧٩) ردا منه على ابن عبد الواحد [illegible] يكون دخول خلدون على [illegible] الى الأندلس في القرن الثالث الهجري ، أي عندما شاركت الأسرة في العمل السياسي والثورة على محمد بن الأمير عبد الله (انظر المقدمة ، دراسة علي عبد الواحد ١٨ ص ٤٢ .

أخذ بنصيحته في تعيين محمد بن سيد الناس حاجبا . وهكذا يكون محمد ، جد مؤرخنا قد قضى حوالي ٢٠ (عشرين) سنة ، زاهدا في الوظائف والخدمة عاكفا على صلاته وصيامه ، حسبما نظن ، الى أن توفي وهو ملازم لداره سنة ٧٣٧ هـ/١٣٣٦ م (العبر ، ج ٧ ص ٣٨٣ - ٣٨٤) .

ولم يكن من الغريب اذن أن ينزع محمد بن أبي بكر ، والد المؤرخ وسمي جده الأقرب وجد أبيه ، عن طريقة السيف والخدمة الى طريقة العلم والرباط ، فلقد قرأ والد ابن خلدون وتفقه ، « وكان مقدما في صناعة العربية - وله بصر بالشعر وفنونه » ولم يكن من الغريب أن يحنى الوالد بتنشئة ابنه (مؤرخنا) تنشئة مناسبة لمركزه العلمي ، وان لم يمهله القضاء طويلا ، اذ توفي في الطاعون الجارف سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٨ م ، تاركا اياه ولم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره .

ولم تتمثل كارثة الطاعون في فقد مؤرخنا لوالده وسنده في مطلع شبابه ، بل في القضاء على المشيخة من أهل العلم والتحصيل ، وبذلك تم الاستئصال ماديا ومعنويا في البلاد التونسية .

عبد الرحمن بن خلدون وتكوينه العلمي :

المدرسة التونسية :

ولد عبد الرحمن بن خلدون ، صاحب العبر ، في مدينة تونس ، أول رمضان سنة ٧٣٢ هـ/ ٢٦ مايو ١٣٣٢ م في وقت ازدهرت فيه العاصمة الحفصية كمركز للثقافة والعلوم ، بفضل مشاركة علماء الأندلس الذين كانوا قد نزحوا عن الاندلس الى المغرب وتونس اثر استفحال حرب الاسترداد بعد فشل الموحدين في مكافحة القشتاليين ، في مطلع القرن السابع الهجري ، (١٣ م) ، وانكشاف أهم مراكز الاسلام في قرطبة واشبيلية ، أي منذ حوالي مائة سنة حينما غادر بنو خلدون اشبيلية الى سبتة .

وأول من يذكر ابن خلدون من أساتذته ، هو :

- أبو عبدالله بن نزال الأنصاري ، وهو أصلا من جالية الأندلس ، من أعمال بلنسية ، أخذ عن مشيخة بلنسية وأعمالها . ولقد قرأ عليه القرآن - بعد أن حفظه - بالقراءات السبع المشهورة كما عرض عليه قصيدة الشاطبي في القراءات ، وكتاب التقسير لأحاديث الموطأ لأبن عبد البر ، كما درس عليه كتبا أخرى ، مثل : كتاب التسهيل لابن مالك ، ومختصر ابن الحطيب في الفقه (العبر ، ج ٧ ص ٣٨٤) .

وفي اللغة العربية كان والده أول أساتذته ، الى جانب : الشيخ أبي عبدالله محمد الحصايري ، وله شرح على كتاب التسهيل ، وأبي العباس أحمد بن القصار ، المتخصص في النحو ، وله شرح على قصيدة البردة المشهورة في مدح الرسول ، وكان بتونس حيا وقت تأليف الكتاب (ما بين ٧٧٦ هـ و ٧٨٣ هـ) وأمام العربية والأدب بتونس في ذلك الوقت هو : أبو عبدالله محمد بن بحر ، الذي وجهه الى حفظ الشعر . ولقد حفظ مؤرخنا كتب الأشعار الستة ، والحماسة للاعلم ، وطائفة من شعر المتنبي ، وبعض أشعار كتاب الأغاني .

أما امام المحدثين وقتئذ بتونس ، فهو أبو عبدالله محمد بن جابر ، الملقب بشمس الدين ، ولقد سمع عليه كتاب مسلم بن الحجاج (الصحيح) ، وكتاب الموطأ جميعه ، الى جانب بعض من الأمهات الخمس . ولقد حرص ابن خلدون على أن يأخذ منه اجازة عامة . والاجازة العامة تعتبر بمثابة الشهادة التي تعطي حاملها الحق في تدريس كل مؤلفات من أعطاها وما قام بتدريس من كتب الآخرين .

وفي الفقه أخذ ابن خلدون عن أبي عبدالله محمد الجياني ، وأبي القاسم محمد القصير فدرس عليهما : كتب التهذيب لأبي سعيد البردعي ، ومختصر المدونة ، وكتاب المالكية ، كما حصل منهما على الاجازة .

هؤلاء الأساتذة السبعة ـ وبضمنهم والده ـ الذين كانوا مدرسته الأولى في تونس ببرنامجها التقليدي في علوم القراءات والعربية والحديث والفقه ، درجوا كلهم في الطاعون الجارف .

مدرسة مغربية بتونس

ومن حسن حظ مؤرخنا أن الأحوال السياسية المضطربة في بلاد المغرب ، في عصر التبدل والتغير ، في القرن الثاني الهجري (١٤ م) أدت الى أن تصبح العاصمة الحفصية ، تونس لفترة من الوقت ، مركزا لمدرسة علمية أخرى ، هي المدرسة المغربية ، ممثلة في بطانة السلطان أبي الحسن المريني ، من العلماء المعينين في مجلس علمه الذي كان يتجمل به ، وذلك عندما ملك أفريقية سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م (العبر ، ج ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥) .

وممن أخذ ابن خلدون عنهم من علماء المغرب هؤلاء ، حسبما يعرف بهم في التعريف بنفسه : ـ شيخ الفتيا بالمغرب وأمام مذهب مالك : أبو عبدالله محمد بن سليمان السطي ، الذي تردد على مجلسه وأفاد منه [٣٠] .

وأمام المحدثين كاتب السلطان أبي الحسن ، و « صاحب علامته التي توضع أسفل مكتوباته ـ أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي أصلا (٦٧٥ ـ ٧٤٩ هـ / ١٢٧٦ ـ ١٣٤٨ م) [٣١] . ولقد لازمه ابن خلدون وأخذ عنه « سماعا واجازة » : الأمهات (الخمس) ، وكتاب الموطأ ، والسير لابن اسحق ، وكتاب ابن الصلاح في الحديث ، الى غير ذلك من الكتب التي سقطت من ذاكرته .

---

(٣٠) أنظر التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٣٨٨ ، وأيضا ص ٣٨٩ ، حيث الاشارة الى أن ابنه سطا من بطون أوربة بنواحي فاس ، وأنه أخذ العلم في فاس عن الشيخ أبي الحسن الصغير امام المالكية بالمغرب وقاط . وكان ممن قرأ عليه موسى بن خلدون اخو مؤرخنا . ولقد حضر واقعة القيروان مع السلطان أبي الحسن ، وخلص معه الى تونس وأقام بها نحوا من سنتين .

(٣١) العبر ، ج ٧ ص ٣٨٨ ـ ص ١٩١ ـ ١٩٢ ، حيث الاشارة الى أنه أخذ العلم في بلده سبتة ثم استكمل دراسته في غرناطة بعد أن استولى على سبتة الرئيس أبو سعيد صاحب الأندلس واشتغل كاتبا في خدمة الوزير أبي عبد الله بن الحكيم بغرناطة وعندما استعاد بنو مرين سبتة شغل وظيفة الكاتب سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م على عهد أبي سعيد ثم انه ترقى الى وظيفة رئيس الكتاب ، وصاحب العلامة سنة ٧١٨هـ / ١٣١٨م ، وظل كذلك على عهد السلطان أبي الحسن وإن كان قد تخلف عن واقعة القيروان . وعندما اضطربت تونس توارى عبد المهيمن في بيت بني خلدون ، ثم أسخط السلطان عليه ، ولو أنه عاد ورضي عنه . وتوفي عبد المهيمن في الطاعون الجارف سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م .

وابن خلدون يشير هنا الى أن عبد المهيمن لم يكن أستاذا في الحديث واللغة العربية والأدب فقط بل كان خبيرا في العلوم العقلية أيضا . وهو يصر على دقة عبد المهيمن العلمية ، فكتبه مضبوطة كلها مقابلة ، ولا يخلو ديوان منها عن ضبط بخط بعض شيوخه المعروفين في سنده الى مؤلفه ، حتى الفقه والعربية الغريبة الاسناد الى مؤلفها في هذه العصور ، (العبر ، ج ٧ ص ٣٨٥) . ولا بأس أن يكون لعبد المهيمن تأثيره على ابن خلدون فيما أخذ به نفسه في التأليف التاريخي من التحقيق والتدقيق .

ـ أما ابن رضوان المالقي (أبو القاسم عبدالله بن يوسف بن رضوان) ، كاتب السلطان ، ومساعد أبي محمد عبد المهيمن صاحب العلامة ورئيس الكتاب [٣٢] فهو من مفاخر المغرب في براعة الخط وكثرة العلم ، واجادة فقه الوثائق ، والبلاغة في الترسيل ، وجودة الشعر والخطابة على المنابر ـ لأنه كان كثيرا ما يصلي بالسلطان . وينص ابن خلدون على أنه أفاد منه وان لم يتخذه أستاذا لمقاربة السن بينهما [٣٣] .

وأمام المغرب في القراءات : الشيخ أبو العباس أحمد الزواوي ، الذي قرأ عليه القرآن بالجمع بين القراءات السبع من طريق أبي عمرو الداني وابن شريح (وان لم يكملها) وحصل منه على اجازة عامة [٣٤] .

والى جانب من سبق ذكرهم ممن ينص ابن خلدون في التعريف على أنه أخذ منهم العلم يذكر آخرين من علماء المغرب ممن كانوا في جملة مجلس أبي الحسن ، مثل : ابني الامام عبد الرحمن وعيسى [٣٥] ومحمد ابن الصباغ المكناسي ، تلميذ الأبلي ، وكان اماما في معرفة الموطأ ، مبرزا في المعقول والمنقول ، ومحمد بن عبد النور الندرومي ، وكان مبرزا في الفقه المالكي ، وأخوه علي بن عبد النور الذي هاجر الى مصر واشتغل هناك بالكيمياء ، الأمر الذي ورطه مع الناس (ج ص ٣٩٣ ـ ٣٩٥) .

ومن هؤلاء : محمد بن النجار ، تلميذ كل من امام التعاليم محمد بن هلال شارح المجسطي في الهيئة (في سبتة) ،

---

(٣٢) العبر ، ج ٧ ص ٣٨٥ ، وص ٣٩٢ حيث الاشارة الى أنه غادر مالقة بعد وقعة طريف ونزل سبتة حيث قرب من السلطان أبي الحسن الذي نظمه في جملة الكتاب ، واختص بخدمة عبد المهيمن رئيس الكتاب .

(٣٣) العبر ، ج ٧ ص ٣٨١ ، ص ٣٩٢ ـ ٣٩٤ ، حيث الاشارة الى أنه بعد رحيل السلطان أبي الحسن بقي بتونس وعمل كاتبا لابنه أبي الفضل الى أن استعاد المنصورة تونس على بني الفضل بن أبي يحيى . كما عمل كاتبا لدى السلطان أبي عنان ، وأصبح كاتب العلامة من سنة ٧٥٤هـ / ١٣٥٣م الى سنة ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م وولي دولة السلطان أبي سالم صارت العلامة الى علي بن محمد بن مسعود (الى جانب ديوان العساكر والاشغال) بينما صار الترفيع والسر لمزوجها عبد الرحمن بن خلدون . وبعد وفاة أبي سالم سنة ٧٦٢هـ / ١٣٦١م عاد ابن رضوان الى وظيفته كصاحب العلامة على عهد كل من الوزير عمر بن عبد الله ، والوزير عبد العزيز بن أبي الحسن . وعندما آلت السلطة بعد ذلك الى السعيد في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي بن الكاس ثم الى السلطان احمد ، ظل ابن رضوان على حاله الى أن هلك بأزمور ، في حملة (حركة) السلطان احمد الى مراكش لحصار عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بن السلطان أبي علي .

(٣٤) العبر ، ج ٧ ص ٣٨٥ ، وص ٣٩٤ حيث الاشارة الى أنه أخذ العلم والعربية عن مشيخة فاس ، وروى عن الرحالة ابن رشيد ، وانه كان له صوت جهير ، من مزامير آل داود .

(٣٥) أبو زيد عبد الرحمن وأخوه أبو موسى عيسى الشقاق عرفا بهما ، ابنا الامام ، لأن والدهما كان اماما لبعض المساجد في عمل البلد . وقد قربهما أبو حمو ويبني لهما مدرسة ، قبل ذلك . وقد قربهما أبو الحسن بعد أن دخل تلمسان سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م ، وصحبهما في وقعة طريف بالأندلس التي توفي بعدها أبو زيد ، بينما بقي أبو موسى في صحبته في حملة افريقية سنة ٧٤٨هـ / ١٩٤٨ م ، قبل وفاته بتلمسان في الطاعون الجارف (العبر ، ج ٧ ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩) .

وابن البنا (في مراكش) الذي هلك في الطاعون (ج ص ٣٩٥) وأحمد بن شعيب (من فاس) الذي برع في الأدب واللغة والعلوم العقلية والطب ، وهلك في الطاعون (ج ٧ ص ٣٩٥) .

وآخرهم صديق ابن خلدون : محمد بن مرزوق (المولود في تلمسان ٧١٠ هـ/ ١٣١٠ م والمتوفى في القاهرة ٧٨٠ هـ/١٣٧٨ م) ، تلميذ ابن الامام ، وأسرته خدمة (سدنة) تربة الشيخ أبي مدين بالعباد بتلمسان ، ويذكر له أنه ساعد السلطان أبا سالم في الوصول الى العرش ، وانه جعل ابن خلدون يشاركه في ذلك (التعريف ، العبر ، ج ٧ ، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٨) .

شيخ العلوم العقلية في المدرسة المغربية الآبلي (٦٨١ ـ ٧٥٧ هـ/ ١٢٨٢ ـ ١٣٥٦ م

أما مفخرة المدرسة المغربية حقيقة ، فهو : أبو عبدالله محمد بن ابراهيم الآبلي أصلا نسبة الى بلد آبلة (AVILA) من شمال الأندلس (الجوف) قرب مدريد[٣٦] التلمساني منشأ حيث دخل أبوه وعمه كجند في خدمة بني عبد الواد ، شيخ العلوم العقلية . والحقيقة أن المدرسة المغربية كانت معروفة بأنها مدرسة تقليدية ، تأخذ الفقه المالكي ولا تنحرف الى غيره من المذاهب ، وهو الأمر الذي بلغ الذروة على عهد المرابطين الذين ينسب اليهم احراق أو تمزيق كتاب الاحياء للغزالي ، بناء على نصح فقهاء المالكية . وكان فقهاء المالكية هؤلاء لا يعرفون شيئا من الكلام أو الجدل المنطقي حتى أنهم لم يحيروا جوابا عندما تقدموا لمناظرة محمد بن تومرت صاحب دعوة الموحدين ، الرعودته من المشرق وتعلمه تلك الفنون العقلية . والحقيقة ان الحال كان على ذلك المنوال أواخر القرن السابع الهجري (١٣) وأوائل الثامن (١٤ م) .

فالآبلي نفسه ، أستاذ ابن خلدون ، وشيخ العلوم العقلية كما يصفه مؤرخنا لم يكن يعرف شيئا عن تلك العلوم ، الأمر الذي سبب له نوعا من الصدمة النفسية ، عندما استمع الى أساتذة هذه الفنون العقلية لأول مرة في مصر ، فلم يدرك شيئا مما يتكلمون فيه .

وقصة الآبلي تبدأ في تلمسان عاصمة بني عبد الواد ، عندما تعرضت للحصار في شعبان سنة ٦٩٨ هـ/مايه ١٢٩٩ م) من قبل يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني الذي ضرب حولها سياجا من الأسوار ، واختط الى جانبها مدينة نزل بها ، سماها المنصورة : فلقد استمر ذلك الحصار أكثر من ثماني سنوات ، توفي أثناءها أمير تلمسان : عثمان بن يغمراسن العبد وادي سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٣ م ، وهي السنة الخامسة من الحصار ، وولي بعده ابنه أبو زيان محمد . وجهد بنو عبد الواد من الحصار حتى أكلوا الجيف والفيران وخربوا أسقف منازلهم من أجل الوقود . ويمدنا ابن خلدون بمعلومات عجيبة في طرافتها عن الأسعار في المدينة وهي تعاني الجوع أثناء الحصار . فقد بلغ ثمن البقرة ٦٠ مثقالا ، والشاه ٢/١ ٧ مثقال . أما لحم الجيف ، فبلغ رطل لحم البغال والحمر منه ١/٨ مثقال، ورطل لحم الخيل ١٠ دراهم صغار وبلغ ثمن الرطل من الجلد البقري ميتة أو مذكى ٣٠ درهما .

(٣٦) انظر التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٣٧٩ ، وانظر علي عبد الواحد وافي ، مقدمة ابن خلدون ، الدراسة ، ج ١ ص ٥١ .

أما أسعار الخضر والفاكهة فكانت كالآتي : الأصل الواحد من الكرنب ٣/٨ المثقال ومن الخس ٢٠ درهما ومن اللفت ، ١٥ درهما ، والواحدة من القثاء والفقوس ٤٠ درهما والخيار ٣/٨ الدينار ، والبطيخ ٣٠ درهما ، والحبة من التين والأجاص درهمان .

أما الأدم ، فقد بلغ سعر الأوقية من الزيت ١٢ درهما ، ومن السمن ١٢ درهما ، ومن الشحم ٢٠ درهما ، وبلغت الأوقية من الفول ٢٠ درهما ومن الملح ١٠ دراهم ومن الحطب ١٠ دراهم . ولم ينقذ أهل تلمسان من الحصار المميت سوى مقتل يوسف بن يعقوب . فجأة على يدي أحد خصيانه ، واستنصار حفيده أبي ثابت بأبي زيان ، فكان ذلك اليوم الفرج بالنسبة لهم (أنظر العبر ٢ ج ٦ ص ٩٥ - ٩٦) .

في هذا الوقت كان الأبلي الشاب ، الذي يناهز الخامسة والعشرين من عمره ، يشغل وظيفة القهرمان في دار بني يغمراسن ملوك تلمسان ، وهو واحد من مصادر ابن خلدون ، شهود العيان عن هذه الفترة (ج ٦ ص ٩٦ - ٩٧) . وعقب الحصار عرف الأبلي أن والده ابراهيم كان قد أخذ رهينة بمعرفة يوسف بن يعقوب المريني عندما استولى على مرسى هنين أثناء الحصار وقرر الذهاب لرؤيته ، ولكن الشاب الذي كان قد نشأ له ميل الى العلم صدم نفسيا عندما وجد أباه في خدمة المرينيين قائدا لجماعة الجند الأندلسيين بتاوريرت ، فنزع عن طوره وكره المقام في المنطقة ، فارتدى ملابس الزهاد ، وسار الى رباط العباد حيث ضريح سيدي أبي مدين ، وهو يزمع المسير الى الحج ، مختفيا في صحبة الفقراء .

وكان من حسن حظ الأبلي أن التقى بداعية علوي من أهل كربلاء كان قد جاء الى رباط العباد بقصد اقامة دعوته هناك ، ولكنه لما رأى كثرة العسكر المريني يئس من تحقيق قصده ، واعتزم العودة الى العراق ، فسار في صحبته . وعلى طول الطريق الى تونس انكشفت للأبلي حقيقة أمر العلوي ، ومن تونس ركبت الجماعة البحر الى الاسكندرية ، ومنها سارت الى مدينة مصر .

وحضر الأبلي مجالس علماء مصر ، مثل : تقي الدين بن دقيق ، وابن الرفعة ، وصفي الدين الهندي والتبريزي ، وغيرهم فرسان المعقول والمنقول ، فلم يكن قصاراه الا تمييز أشخاصهم اذا ذكرهم ، وهو الأمر الطبيعي بالنسبة لعالم ناشىء ، وافد من المغرب حيث لا تروج كثيرا علوم المعقول [٣٧] .

والظاهر أن الأبلي عندما عاد من رحلته المشرقية الى تلمسان أراد أن يعوض ما أصابه من خيبة الأمل في سماع العلوم

(٣٧) هذا وإن الرواية التي ينقلها ابن خلدون تقول : إنه كان قد أصيب باختلاط في عقله نتيجة لشربه الكافور لتفادي من علمه أصابه في الشبيبة ، وهو الأمر الذي يشك في صحته ، إذ لو كان الأبلي قد تعرض للإصابة في عقله فإن ذلك يكون قد حدث عندما رأى والده في الخدمة العسكرية التي كان يكرهها ، وهو الأمر الذي أدى به الى أن « نزع عن طوره ، ولبس المسوح » قبل أن يسير مع الداعي العلوي نحو تونس (التعريف ، العبر ٦ ، ج٧ ص ٣٩٠ ، وعن الداعية العلوي انظر أيضا المقدمة ، تحقيق عبد الواحد ، ج ٢ ص ٩٢٧) وعن العلماء المصريين المذكورين ، من ابن دقيق العيد وغيره ، انظر للمؤلف « الأثر المغربي والأندلسي في المجتمع السكندري في العصور الاسلامية الوسيطة » ، بحث في كتاب « مجتمع الاسكندرية عبر العصور » طبعة جامعة الاسكندرية ١٩٧٥ ، ص ٣٤٧ - ٣٤٩ (حيث الاشارة الى أن مدرسة الاسكندرية كانت وقت الأبلي الفقهية متأثرة بالوافدين عليها من علماء المغرب والأندلس ، بينما القاهرة كانت منفتحة على العلوم العقلية بتأثير علماء المشرق .

العقلية بمصر ، فهجم عليها عند من يعرفها في تلمسان ووجد ضالته في الشيخ أبي موسى عيسى بن الامام ، الذي كان تعلم المنقول والمعقول في تونس وجاء الى تلمسان بعلم كثير منها ، فبدأ بقراءة المنطق والأصلين . ومن الواضح أن تعلمه الحساب بين ما كان قد تعلمه من العقليات جعل سلطان تلمسان وقتئذ ، وهو أبو حمو بن يغمراسن بن زيان ، يستخدمه في الاشراف على الادارة المالية وجباية الأموال ، وهو الأمر الذي لم يرحب به الآبلي ، صاحب النفس الشفافة والميول العلمية العقلية ، فترك تلمسان وسار نحو المغرب (التعريف ، العبر ٢ ج ٧ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ ، ص ٣٩٠) .

هذا ، ولا بأس أن تكون الرغبة في استكمال دراسة العلوم العقلية ، هي السبب في هربه الى فاس ثم الى مراكش سنة ٧١٠ هـ/ ١٣١٠ م . ففي فاس أقام متواريا على عهد السلطان أبي الربيع ، لكي يأخذ التعاليم على أستاذها اليهودي : خليفة المغيلي . وعندما استوفى فنونها عليه غادر فاس الى مراكش ، حيث الامام أبو العباس بن البنا ، المبرز في التصوف علما وحالا ، وشيخ المعقول والمنقول في بلاد المغرب وقتئذ (التعريف ، العبر ٢ج ٧ ص ٣٨٦ ص ٣٩٠) .

فلقد نزل الآبلي على الشيخ أبي العباس ابن البنا ، ولازمه وأخذ عنه ، وتضلع في علم المعقول والتعاليم والحكمة ، حتى أصبح خليفة ابن البنا دون منازع في تلك العلوم . وهكذا استدعاه شيخ الهساكرة ، علي بن محمد بن تروميت ، الذي كان في طاعة السلطان ، ليقرأ عليه . فصعد جبل هسكورة وبقي عدة سنوات يفيدهم ويعلمهم الى أن استنزله السلطان أبو سعيد مع شيخ الجبل ابن تروميت ، وأسكنه معه بالبلد الجديد من فاس . وعندما آل ملك المغرب الى السلطان أبي الحسن ، وفتح تلمسان ، استدعاه من فاس ونظمه في جملة العلماء بمجلسه .

وظل الآبلي ، وهو في بطانة السلطان ، يحضر مجالسه ، ويشهد وقائعه ، كما حدث في طريف والقيروان ، يقوم بتعليم العلوم العقلية : « ويبثها بين أهل المغرب حتى حذق فيها الكثير منهم من سائر أمصاره » ، وبذلك أصبح أستاذ الجيل في هذا الفن في كل بلاد المغرب .

وهكذا فعندما قدم الآبلي على تونس في جملة السلطان أبي الحسن ، لازمه ابن خلدون ، وأخذ عنه العلوم العقلية والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية ، وأثبت جدارته حتى شهد له الأستاذ الآبلي بالتبريز في ذلك (التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٣٨٦ ، ص ٣٩١) ، فكان صاحب الفضل في تكوينه العلمي المميز ، واتجاهاته العقلانية التي جعلت منه مؤرخا فيلسوفا [٣٨] .

---

(٣٨) ولا بأس من الاشارة رمنا الى أن العلاقة القوية التي كانت بين والد ابن خلدون وبين الآبلي كانت من الأسباب التي ساعدت على تأثر مؤرخنا بأستاذه الفيلسوف ، كما كان لابن خلدون تأثيره على الآبلي ، فهو الذي أنقذه من مصاحبة السلطان عندما غادر تونس في أسطوله والذي غرق في الطريق الى المغرب . ولقد بقي الآبلي في تونس الى أن خلف السلطان أبو عنان والده أبا الحسن في ملك المغرب ، وفتح تلمسان فكتب في طلبه من سلطان تونس أبي اسحق ابراهيم بن يحيى الذي كان في كفالة شيخ الموحدين ابن تافراكين ، الذي أسلمه الى سفيره ، وبذلك عاد الآبلي الى بطانة سلطان المغرب ، منتظما في طبقة أشياخه من العلماء ، وظل كذلك الى أن توفي سنة ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م (التعريف ، والعبر ج ٧ ص ٣٩١) وعن أهمية الآبلي في تكوين شخصية ابن خلدون العلمية تجب الاشارة الى كتاب الأستاذ محمد طه الحاجري : ابن خلدون بين حياة العلم ودنيا السياسة ، حيث يخص الآبلي بفصل يسميه : القسم الثاني من الكتاب ، ويحمل عنوان « أبو عبد الله الآبلي ، صفحة مطوية من الحياة العلمية في المغرب العربي » (من ص ١٤٧ الى ص ١٧٦) .

ابن خلدون ما بين الوظائف الديوانية والتجارب السياسية والدراسة العلمية :

هذا التكوين العلمي المتين كان يهيء ابن خلدون ، من غير شك ، الى تولي الوظائف الديوانية التي يشغلها أعوان الأمراء والسلاطين في الحكم . فاذا ما عرفنا ما كان يتمتع به مؤرخنا من شخصية طموحة وذكاء فذ ، لم نعجب اذ نراه يرتقي في سلم الوظائف العالية وهو لم يبلغ العشرين من عمره .

أودى الطاعون الجارف سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٨ بوالدي ابن خلدون ومعظم المشيخة وكان الآبلي من القلائل ممن نجوا منه ، فاستمر ابن خلدون في ملازمته والقراءة عليه الى أن استدعاه السلطان أبو عنان الى المغرب فارتحل اليه ، فكانت تلمذته على الآبلي ثلاث سنين .

وبعد رحيل الآبلي الى فاس ، دخل ابن خلدون ، في خدمة السلطان أبي اسحق صاحب تونس ووزيره المستبد به أبي محمد بن تافراكين ، كصاحب العلامة ، خلفا لصاحبها المعزول محمد بن علي بن عمر ، وذلك في وقت حرج ، انشقت فيه الأسرة الحفصية على نفسها ، فبدأ الصراع مع صاحب قسنطينة الأمير أبي زيد عبد الرحمن ، حفيد السلطان أبي يحيى (٣٩) .

وفي أول سنة ٧٥٣ هـ/فبراير ١٣٥٢ م ، خرج ابن خلدون مع سلطانه والوزير والعساكر ومن انضم اليهم من عرب أبي الليل للقاء الخصوم ، ولكنه ما أن شعر بالهزيمة حتى ترك معسكره ناجيا بنفسه نحو قفصة من بلاد الجريد في الجنوب التونسي ، وفي هذا الوقت أتت الأخبار بأن السلطان أبا عنان ، صاحب المغرب ملك تلمسان عنوة ، وقتل سلطانها عثمان بن عبد الرحمن ، كما ملك بجاية من صاحبها الأمير أبي عبدالله ، حفيد السلطان أبي يحيى وعهد بولايتها الى عمر بن علي ، شيخ بني وطاس ، فأجفل صاحب قسنطينة الأمير أبو زيد عبد الرحمن الذي كان يحاصر تونس ، ومرّ بقفصة . فكانت فرصة انتهزها ابن خلدون للخروج في صحبة بعض قواده الى مدينة بسكره ، ومنها سار الى تلمسان ، وافدا على السلطان أبي عنان وفي الطريق التقى بحاجب السلطان محمد بن أبي عمرو الذي صحبه معه الى بجاية التي اضطربت أمورها اثر مقتل واليها الوطاسي ، بتدبير أعوان أميرها السابق ، وبعد وفوده على السلطان في تلمسان رجع الى بجاية حيث قضى شتاء سنة ٧٥٤ هـ/١٣٥٣ م مع ابن أبي عمرو الحاجب . وفي السنة التالية ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م كان الحاجب يستدعيه الى فاس ، وينظمه في أهل مجلس السلطان العلمي ، ويلزمه شهود الصلوات معه ، ويستعمله في كتابته والتوقيع بين يديه (ج ٧ ص ٣٩٩ - ٤٠٠) .

والغريب في الأمر أن ابن خلدون الذي فسر هربه من معسكر سلطان بجاية - حيث كان صاحب العلامة - بأنه كان يشعر بالوحشة لموت المشيخة ولعدم استكماله الدراسة على بقية العلماء الذين رحلوا الى المغرب ، وانه كان يزمع اللحاق

(٣٩) التعريف ، العبر ج ٧ ص ٣٩٨ - ٣٩٩ - حيث يعرف ابن خلدون بأن العلامة التي كتبها عن السلطان ، والتي تحرر بجانب الترقيع في الخطابات الرسمية ، هي : « الحمد لله والشكر لله » بالقلم الغليظ ، ماين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم .

يهم لولا اعتراض أخيه الأكبر محمد (ج ٧ ص ٣٩٩) ، يعود هنا فيقرر أنه قبل وظيفة الكتابة على كره منه ، استصغارا لشأنها « اذ كنت لم أعهد مثله لسلفي » ـ رغم ما قاله قبل ذلك من أنه تلقى من السلطان في العام الماضي ـ: « ما لم احتسبه ، اذ كنت شابا لم يطر شاربي » (ج ٧ ص ٤٠٠) .

والمهم أنه يعود ويتسجم مع نفسه عندما يقرر أنه عكف على النظر والقراءة ، ولقاء المشيخة من أهل المغرب ومن أهل الأندلس ، مثل الأستاذ محمد بن الصفار ، امام القراءات لوقته ، وشيخ المحدثين ، الرحالة : محمد بن رشيد الفهري ، وصديقه قاضي الجماعة بفاس محمد المقري (الذي عزل سنة ٧٥٦ هـ/١٣٥٥ م) وتوفي آخر سنة ٧٥٨ هـ/١٣٥٧ م والامام محمد بن أحمد الشريف الحسني (٧١٠ هـ/٧٧١ هـ/١٣١٠ م /١٣٦٩ م) ، فارس المعقول والمنقول وصاحب الفروع والأصول ، تلميذ أولاد الامام والآبلي في تلمسان ، وأستاذ القاضي ابن عبد السلام في تونس ، « والذي انتصب لتدريس العلم وبثه ، فملأ المغرب معارف وتلاميذ (العبر ، ج ٧ ص ٤٠١ ـ ٤٠٢) ومحمد بن يحيى البرجي (من برجة الأندلس) ، الذي كتب للأمير أبي زكريا ابن السلطان أبي يحيى صاحب بجاية ثم ابنه محمد ثم السلطان أبي عنان ، قبل أن يموت قاضيا للعسكر في عهد أبي سالم ، ومحمد بن عبد الرزاق ، الذي كان قاضيا لفاس قبل محمد المقري ، الى غير أولئك وهؤلاء من أهل المغرب والأندلس حسبما يقول ابن خلدون ، « وكلهم لقيت وذاكرت وأفدت منه ، وأجازني بالاجازة العامة » (ج ٧ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣) .

المحنة في فاس (٧٥٨ ـ ٧٦٠ هـ/ ١٣٥٦ م ـ ١٣٥٨م)

كانت مدة سنتين من دخوله في حاشية السلطان العلمية ، وكتابته بين يدي الحاجب محمد بن أبي عمرو ، كافية لكي يوثق ابن خلدون صلته بالسلطان أبي عنان ، ويصبح كاتبه المقرب الأمر الذي كثر المنافسين وأثارهم . ففي أواخر سنة ٧٥٧ هـ/١٣٥٦ م ، وبينما كان أبو عنان قد بدأ يعاني من مرضه الذي مات فيه ، نمى اليه أن الأمير محمد صاحب بجاية والمحتجزة الآن في فاس تحت أنظار السلطان ، يخطط للعودة سرا الى بلده ، وأن ابن خلدون الذي كان على علاقة متينة بالأمير الحفصي ، يشارك في المؤامرة فقبض عليه هو الآخر وامتحن بالعذاب والسجن (٤٠) .

ومع أن الأمير محمد أطلق سراحه بعد فترة وجيزة ، فان ابن خلدون ظل في الاعتقال حتى اضطر الى مخاطبة السلطان قبل وفاته بقصيدة مديح طويلة في نحو ٢٠٠ (مائتي) بيت ومات السلطان أبو عنان في ٢٤ من ذي الحجة سنة ٧٥٩ هـ/ ٣٠ نوفمبر ١٣٥٨ م ، ومؤرخنا رهن الاعتقال ، ولكن الوزير الحسن بن عمر أفرج عنه ، بل وأعاده الى ما كان عليه (ج ٧ ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤) والمفروض أن يكون ابن خلدون قد عاد كاتبا للسلطان الجديد وهو السعيد بن أبي عنان ، ولكنه يكاد يوقعنا في الخطأ عندما يصرح فجأة بأنه كان يومئذ يكتب عن القائم بأمر بني مرين، منصور بن سليمان . . . . الذي نصبوه للملك .

(٤٠) العبر ، ج ٧ ص ٤٠٣ ـ حيث يعترف ابن خلدون بأنه غفل عن التحفظ ما قد تثيره علاقته بصديقه الأمير الحفصي من غيرة السلطان .

والحقيقة أن أمور الأسرة المرينية الحاكمة كانت قد اضطربت تماما عند وفاة أبي عنان . فبينما كان ابن خلدون يكتب للمنصور بن سليمان ، وكان السعيد محاصرا في قصره بالبلد الجديد من فاس ومعه وزيره الحسن بن عمر ، كانت هناك جماعة أخرى في فاس تدعو لمطالب جديد بالسلطنة ، هو : أبو سالم ، أخو أبي عنان الذي كان منفيا بالأندلس . ومن هؤلاء الخطيب ابن مرزوق الذي استعان بصديقه ابن خلدون الذي كان عليه أن يغير موقفه مرة أخرى فيتخلى عن منصور وينضم الى معسكر أبي سالم . وقام ابن خلدون بدور نشط في نجاح أبي سالم الذي دخل دار ملكه في ١٥ شعبان سنة ٧٦٠ هـ/٢٦ توفمبر ١٣٥٩ م بعد ١٥ يوما فقط من انضمام ابن خلدون الى معسكره . وكانت المكافأة : التعيين « في كتابة السر والترسيل عنه والانشاء لمخاطباته » (ج ٧ ص ٤٠٤ - ٤٠٥) .

وهنا من المهم الاشارة الى ما يقوله ابن خلدون ، من أنه انفرد بأسلوب الكلام المرسل الواضح في الكتابة بدلا عما كان متعارفا عليه عند الكتاب من استعمال الكلام المسجوع الخفي المعاني وان كان قد عوض السجع والايقاع باصطناع الشعر ، الذي « انثالت عليه من بحور توسطت بين الاجادة والقصور » ، ومن أهم ما يعتز به من أشعاره تلك القصيدة التي أنشدها السلطان أبا سالم بمناسبة ليلة المولد النبوي سنة ٧٦٣ هـ/ديسمبر ١٣٦١ م (ج ٧ ص ٤٠٥ - ٤٠٦) .

ومع مرور الوقت غلب ابن مرزوق على السلطان أبي سالم ، وفي سبيل ذلك أخذ في السعاية بأهل الدولة ، من ابن خلدون وأمثاله ، الى أن انتهى الأمر بثورة الوزير عمر بن عبدالله ، وخلع أبي سالم وقتله . وفي عهد الوزير عمر بن عبدالله بقي ابن خلدون على ما كان عليه . وكان آخر ما وليه على عهد أبي سالم خطة المظالم ، ولكنه رغم ما زيد في جرايته ، يصرح بأنه كان يسمو الى أرفع مما كان فيه بسبب طغيان الشباب ، ولمودة سابقة مع الوزير عمر منذ أيام أبي عنان ومؤامرة صاحب بجاية التي كان هو الآخر مشاركا فيها (ج ٧ ص ٤٠٨) .

والمهمّ أن ابن خلدون لم يرض عن وضعه الجديد فطلب العودة الى بلده وسمح له بالرحيل بعد لأي ، ولكن شريطة ألا يمر بطريق تلمسان حتى لا يدخل في خدمة سلطانها أبي حمو العبد وادي . وهنا اختار ابن خلدون الذهاب الى أفريقية عن طريق الأندلس .

الرحلة الى الأندلس

والظاهر أن الذي وجه أنظار ابن خلدون الى الأندلس هو ما سبق له من معرفة سلطانها أبي عبدالله المخلوع عندما وفد على السلطان أبي سالم لفترة من الوقت بفاس ، عن طريق وزيره أبي عبدالله ابن الخطيب ثم ما أداه له من خدمات عقب جوازه الى الأندلس لاستعادة ملكه بمعاونة ملك قشتالة ، أولا ثم مؤازرة الوزير عمر بن عبدالله بعد ذلك (أنظر التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٤٠٩ - ٤١٠) .

وهكذا بعث ابن خلدون في أول سنة ٧٦٤ هـ/أكتوبر ١٣٦٢ م بزوجته وولده الى أخوالهم بقسطينة ، وكتب الى

سلطانها أبي العباس (الحفصي) بأنه يجيز عليه من الأندلس ، ثم سار الى سبتة ، حيث نزل ببيت أبي العباس أحمد بن الشريف الحسني ، ومن سبتة نزل ابن خلدون الى جبل الفتح (طارق) الذي كان يومئذ لصاحب المغرب ، ومنه الى غرناطة حيث رحب به ابن الخطيب والسلطان ، في ٨ ربيع الأول سنة ٧٦٤ هـ/ ٢٧ ديسمبر ١٣٦٢ م (ج ٧ ص ٤١٠ - ٤١١) .

وأهم أعمال ابن خلدون في غرناطة : سفارته الى ملك قشتالة في أشبيلية نيابة عن سلطان غرناطة في السنة التالية (٧٦٥ هـ/١٣٦٣ م) من أجل الصلح . وكانت فرصة عاين فيها آثار أسلافه بأشبيلية ، كما التقى عنده بالطبيب اليهودي : ابراهيم بن زرزور الذي كان في خدمة سلطان غرناطة ، والذي التقى به ابن خلدون في فاس عندما أتى ليعالج السلطان أبا عنان ، قبل أن يلتحق بخدمة الملك القشتالي . وينص ابن خلدون على أن ابن زرزور الطبيب مدحه لدى الملك ، وأن هذا الأخير عرض عليه البقاء عنده على أن يرد عليه تراث آبائه الذي كان بيد زعماء الدولة ، وأن مؤرخنا تفادى من ذلك بما قبله الملك بطره (بترو) (ج ٧ ص ٤١٢) .

والظاهر أن ابن خلدون استحسن الاقامة في غرناطة فأخذ يتقرب من السلطان ، ويدبر أمر استقراره بأهله وولده فأخذ موافقته ، لولا ما ظهر من عدم ارتياح ابن الخطيب الى ذلك وكان من حسن حظ ابن خلدون أن صاحبه الأمير أبا عبدالله صاحب بجاية نجح في استعادتها في رمضان سنة ٧٦٥ هـ/ ١٣٦٤ م ، وأرسل اليه يستدعيه فاستأذن السلطان ابن الأحمر صاحب غرناطة في الرحيل فأذن له ، وأمر له بمرسوم بالتشييع كتبه ابن الخطيب ، وكانت فرصة للحفاظ على ماكان بينه وبين الوزير الغرناطي الصديق [41] .

ولاية الحجابة في بجاية

ركب ابن خلدون البحر من مرسى المرية ، ووصل بجاية في منتصف سنة ٧٦٦ هـ/ مارس ١٣٦٥ ، وأحسن أهل بجاية استقباله فتهافتوا عليه يمسحون أعطافه ويقبلون يده ، واحتفل السلطان صاحب بجاية بمقدمه ، وأسرع بتنفيذ ما كان قد وعده به كتابة في فاس من العهد اليه بخطة الحجابة حتى حصل على سلطانه (ج ٧ ص ٤١٨) . وابن خلدون يعرف الحجابة في المغرب بأنها استبداد بالسلطة دون ولي الأمر ، كما كان الحال مع ابن الخطيب في غرناطة ، وحال من عمل معهم من وزراء بني مرين في فاس . وفي ذلك يقول : « واستقللت بحمل ملكه ، واستفرغت جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه » . وهو يبين كيف أنه أحسن الخدمة خصوصا بعد أن ثار الشقاق بين أميره أبي عبد الله وبين ابن عمه أبي العباس صاحب قسنطينة ، بفضل عرب أوطانهم ، من : الدواودة ، من رياح .

(٤١) انظر التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٤١٢ - ٤١٦ . أما موضوع ظهير (مرسوم) التشييع ، فهو أمر الى القواد أو الاتباع والخدام في البر والبحر بتكريم ابن خلدون ، وتقديم كل مايحتاج اليه من معونة في تنقله ونزوله الى أن يكمل الغرض من سفرته . وهو بتاريخ ١٩ جمادى الأولى سنة ٧٦٦ هـ/ ١٢ فبراير ١٣٦٥م ، وبعد التاريخ : العلامة بخط السلطان ، ونصها : « صح هذا » .

فبعد انهزام أميره الذي كان قد بدد ما كان جمعه له من الأموال الكثيرة ، التي أنفقها في العرب ، خرج ابن خلدون الى قبائل البربر بالجبال ، فاستباح حماهم وأخذ رهنهم على الطاعة حتى استوفى منهم الجباية التي كانوا ممتنعين منها منذ سنين . ولكن الصراع انتهى بمقتل أبي عبد الله على يدي ابن عمه أبي العباس بمداخلته بأهل بجاية ، وجاء الخبر الى مؤرخنا وهو مقيم بقصور السلطان بالقصبة ، وطلب منه البعض أن يبايع لواحد من أبناء صاحبه القتيل ، ولكنه فضل استقبال المنتصر وتمكينه من البلد ، وأخيرا انتهت السعاية فيه بطلب الاذن في ترك الوظيفة ، والخروج من بجاية . وتم له ذلك ، فسار الى منازل العرب ثم انه قصد بسكرة من بلاد الزاب (ج ٧ ص ٤١٨ - ٤١٩) .

في بسكرة

وفي بسكرة وصلته دعوة من السلطان أبي حمو صاحب تلمسان للحاق به ، قبل أن يحاول الثأر لصهره أبي عبد الله ، على أمل ان يساعده في استئلاف قبائل عرب رياح ، مع وعد باعطائه وظيفتي الحجابة وكتابة العلامة ، وكتب له مدرجة بذلك ، أرفقها بالكتاب وتاريخها ١٧ رجب سنة ٧٦٩ هـ/ ١١ مارس ١٣٦٨ م (ج ٧ ص ٤٢٠ - ٤٢١) .

ورغم أن ابن خلدون استمال كبراء عرب رياح الى جانب أبي حمو ، فانه لم يستجب لخدمته بل أرسل أخاه الأصغر يحيى ، الذي كان قد خرج من اعتقال أبي العباس ، الى السلطان أبي حمو كالنائب عنه في الوظيفة . وهو يفسر ذلك بأنه كان قد تخلص من غواية الرتب بسبب اغفاله العلم لمدة طويلة . ومن تلمسان وصلت ابن خلدون رسالة من الوزير ابن الخطيب من غرناطة ، يعبر فيها عن شوقه اليه نثرا وشعرا ، وهي رسالة طويلة استغرقت ٥ (خمس) صفحات ، وتاريخها ١٤ ربيع الثاني سنه ٧٧٠ هـ/ ٢٦ نوفمبر ١٣٦٨ م التعريف بالعبر ، ج ٧ ص ٤٢١ - ٤٢٢) . تبعتها رسالة أخرى بعث بها اليه أخوه يحيى من تلمسان . وتتميز هذه الرسالة بأنها لا تكتفي بالتعبير عن الاشواق ، وما اليها من الأخبار الخاصة ، بل انها تتعرض لأخبار الوطن الأندلسي التي كانت جيدة في ذلك الوقت ، من حيث : الخصب ، والظهور على العدو ، وافتتاح عدد من الحصون ، مثل : آش وبرغة ووبرة ، ودخول بلد الجزيرة (بنت اشبيلية) عنوة ، وافتتاح رندة . وهو يشير أيضا الى وفاة الوزير المغربي عمر بن عبد الله واضطراب الأحوال بعده ، ويعرف باسم شيخ الغزاة الجديد في الأندلس ، ومن استقر بالأندلس من رجال المغرب ، وبعودة السلطان ملك النصارى بطره الى ملكه بأشبيلية ومناهضة أخيه له ، مما كان خيرا على المسلمين حتى ان سلطان الأندلس تلقب بـ « الغني بالله » مما يجعل تلك الرسالة التي تحمل تاريخ ٢ جمادي الأولى سنة ٧٦٩ هـ/ ٢٤ ديسمبر ١٣٦٧ م ، وثيقة تاريخية من الطراز الأول (٤٢) .

ويورد ابن خلدون بعد ذلك اجابته على رسالتي ابن الخطيب فيشيد بانتصارات الخلافة النصرية والوزارة (الخطيبية) ، ويذكر مهلك صاحب بجاية على يد ابن عمه ، واستقرار السلطان أبي اسحق صاحب تونس بعد مهلك

(٤٢) انظر التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٤٢٥ - ٤٢٦ ، ولا بأس من الاشارة أيضا الى ان الكتاب يصل في آخره أخيرا من آخر ما وصل الى غرناطة من مؤلفات المشارقة مع ذكر لآخر مؤلفات ابن الخطيب .

القائم بأمره أبي محمد بن تافراكين الذي كان يستظهر بالعرب على حساب الرعية . الى جانب الاشارة الى أخبار المشرق المتمثلة في اختلال طريق الحاج ، واضطراب أمور السلطنة المملوكية ، وكثرة الهرج في أزقة القاهرة وأسواقها (ج ٧ ص ٤٢٧ ـ ٤٢٩) . كما يورد نص خطاب وصله من ابن الخطيب مع أحد الحجاج وطيه مدرجة فيها توصية بالطبيب أبي عبد الله الشقوري الذي استقر بتلمسان (ج ٧ ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠) .

ما بين سلاطين المغرب وعرب بني هلال

والمهم بعد ذلك ان ابن خلدون خرج من بسكرة مغربا للقاء أبي حمو الذي تحالف مع أبي اسحق ابن أبي بكر صاحب تونس ، والذي كان يطمع في أن يستنفر له ابن خلدون عرب الدواودة ، على أمل العودة معه الى بجاية ، ولكنهم تعرضوا لهجوم عرب زغبة ، الذين فاجأوا بعد ذلك معسكر أبي حمو ففلّوه ، ورجع مهزوما الى تلمسان ، وظل ابن خلدون مستمرا في مشايعته لأبي حمو ، والايلاف بينه وبين عرب الدواودة والسلطان أبي اسحق صاحب تونس وابنه خالد بعده . وفي أواخر سنة ٧٧١ هـ/ اغسطس ١٣٧٠ م ، وفد عليه بطائفة من الدواودة ، الا أن أبا حمو الذي استشعر الخطر من جانب سلطان المغرب الأقصى عبد العزيز ، أخذ يعد العدة للخروج الى الصحراء . ولما كان طريق العودة الى بلاد رياح قد تعذر بسبب الفتنة ، فان ابن خلدون استأذن في الانصراف الى الأندلس ، ولكنه ما ان نزل بمرسي هنين حتى أنفذ السلطان عبد العزيز ـ وكان قد وصل الى تازا ـ سرية قبضت عليه ، وأحضرته أمام السلطان الذي عنفه على مفارقته دارهم ، ولكنه قبل عذره وأطلقه من الغد .

وهنا تعرض ابن خلدون لصدمة نفسية شبيهة بتلك التي كانت قد أصابت شيخه الآبلي بعد حصار تلمسان الشنيع ، فعمد هو الآخر الى رباط الشيخ الولي أبي مدين بالعباد من أطراف تلمسان ، ونزل بجواره « مؤثرا للتخلي والانقطاع للعلم ، لو تركت له » (ج ٧ ص ٤٣١ ـ ٤٣٢) .

بعد أن دخل السلطان عبد العزيز تلمسان انسحب أبو حمو الى بلاد رياح ، فرأى عبد العزيز الاستعانة بابن خلدون من أجل اكتساب عرب رياح الى جانبه ، فاستدعاه من خلوته بالعباد بعد أن كان قد أخذ في تدريس العلم ، ولم يسعه الا اجابته . وودع ابن خلدون السلطان عبد العزيز بعد مكاتبة عدد من زعماء الدواودة من أجل المساعدة في تسهيل المهمة ، وذلك في ١٠ من المحرم سنة ٧٧٢ هـ/ ٥ اغسطس ١٣٧٠ م ، ولحق بمعسكر الوزير أبي بكر بن غازي في أحياء عرب المعقل وزغبة . وعندما وصل ابن خلدون الى المسيلة كان أبو حمو وأحياء عرب رياح معسكرين قريبا منها . (ونجحت المهمة اذ أعلن شيوخ رياح طاعتهم وسمحوا للعسكر المريني بدخول وطنهم ، وفاجأه أبي حمو وهو في طريقه من المسيلة الى الصحراء ، وانتهاب مخيمه ورجاله وأمواله ، فلم ينج الا بنفسه تحت ستار الليل .

وتخلف ابن خلدون أياما عند أهله ببسكرة ثم رحل الى السلطان بتلمسان في وفد عظيم من الدواودة . ولكن الأمور لم تلبث أن ساءت من جديد بعودة بطون من الدواودة الى الخلاف والتحالف مع أبي زيان العبدوادي ، « واشتعل المغرب الأوسط نارا » كما يقول مؤرخنا ، بثورة مغراوة في بلاد شلف ، وانقطع هو ببسكرة ولم يعد يستطيع الاتصال

بالسلطان عبد العزيز الا بالكتب، وذلك في الوقت الذي كان ابن الخطيب قد فر من غرناطة، مغاضبا لسلطانه، ووصل الى تلمسان في كنف السلطان عبد العزيز هو الآخر[٤٣]

وكان على ابن خلدون أن يشارك في تهدئة الأحوال عن طريق الاستمالة بأهل الطاعة من الدواودة في اخضاع العصاة منهم د من عرب حصين بجبل تيطرى، بمنطقة القطفا، فقام بالمهمة التي انتهت بخضوع عرب الدواودة وفرار أبي زيان العبدوادي الى صحراء واركلا ورجع الى أهله ببسكرة من حيث خاطب السلطان بما وقع، منتظرا لأوامره (ج ٧ ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠

العودة الى المغرب الأقصى :

وأتت أوامر السلطان عبد العزيز باستدعاء ابن خلدون فجأة عندما ضاق ذرعا باضطراب العرب، وعزم على مطاردتهم. وخرج ابن خلدون بأهله من بسكرة في ١٢ ربيع الأول سنة ٧٧٤ هـ/ ١٣ سبتمبر ١٣٧٢ م، ولكنه لم يصل مليانة حتى وصله نبأ وفاة عبد العزيز وتنصيب ابنه أبي بكر السعيد بعده، في كفالة الوزير ابن غازي الذي رحل الى فاس وفي الطريق الى المغرب عبر الصحراء، تعرضت قافلة ابن خلدون الى غارة قام بها عرب المعقل بتحريض من أبي حمو الذي كان قد عاد الى ملكه بتلمسان، فتركته عاريا الى أن وصل الى العمران، وفي فاس أكرمه الوزير ابن غازي لسابق صحبتهما منذ ولاية أبي سالم (ج ٧ ص ٤٤٠ ـ ٤٤١).

ولم يمض شتاء سنة ٧٧٤هـ/ ٤٣ ـ ١٣٤٤ م حتى اضطربت أمور المغرب نتيجة لمنافرة بين الوزير أبي بكر والسلطان ابن الأحمر بسبب ابن الخطيب. وانتهى الأمر بأن أطلق سلطان غرناطة أحد المطالبين بالعرش المريني من حبسه، وهو عبد الرحمن بن أبي يفلوسن الذي استولى على تازا، كما أن ابن عم الوزير أبي بكر، وهو محمد بن الكاس الذي كان قد كلف بالدفاع عن جبل طارق انتهى به الأمر الى التفاهم مع ابن الأحمر على أن يترك له الجبل في مقابل أن يؤيد ترشيح مطالب آخر بالعرش، هو : السلطان احمد بن أبي سالم الذي أخرج من محبسه في طنجه. وبفضل العسكر الأندلسي نجح السلطان أبو العباس أحمد في هزيمة الوزير أبي بكر، وبفضل نصائح سلطان غرناطة تم الاتفاق بين السلطان أحمد والأمير عبد الرحمن على أن تكون للأخير إمارة سجلماسة. وعندما عجز الوزير أبو بكر عن مواجهة خصومه، وافق على الصلح، وعزل سلطانه السعيد بن عبد العزيز، ودخل أبو العباس أحمد دار الملك في أول سنة ٧٧٦ هـ/ يونيه ١٣٧٤ م (ج ٧ ص ٤٤١ ـ ٤٤٣).

(٤٣) ج ٧ ص ٤٣٢ ـ ٤٣٠، ولقد كتب ابن الخطيب الى ابن خلدون من تلمسان يعرفه بخبره، ولكن ابن خلدون لا يسجل تلك الخطاب الذي لم يكن يحضره، فاكتفى بتسجيل نص جوابه عليه. ويعرب فيه عن حسن عهده، ويحمد الله على خلاصه من ورطة المحنة في غرناطة، ويؤكد له حسن علاقته بالسلطان عبد العزيز (الباب المولوي) ويسلم على ولده أبي الحسن. وتاريخ الخطاب ١ شوال سنة ٧٦٢ هـ/ ٢٠ ابريل ١٣٧٠م، انظر ص ٤٣٤ ـ ٤٣٦. ويسجل نسخة كتاب ابن الخطيب الى سلطان غرناطة عندما يحمل على الفتح في ابلاغه عن عزمه. وفي ذلك الخطاب يعتذر ابن الخطيب لسلطانه عن فعله وأنه كان مراده أنه فارقه في وقت الأمان والهدنة، ويعرض عليه النصائح من : التقوى لله والاقتصاد في القهر (ج ٧ ص ٤٣٦ ـ ٤٣٩).

أما عن موقف ابن خلدون من تلك الأزمة ، فيقول انه كان مقيما بفاس « في ظل الدولة وعنايتها ، عاكفا على قراءة العلم وتدريسه » ، وانه عندما كان السلطان أبو العباس أحمد والأمير عبد الرحمن يحاصران الوزير أبا بكر ، كان يباكرهما معا ، فكانا يكرمانه ، وان ذلك ادى الى القبض عليه بتحريض وزير أبي العباس أحمد ، وهو محمد بن الكاس ، ولكن الأمير عبد الرحمن أمر وزيره مسعود بن ماسي فأطلقه من الغد . وهكذا عندما خرج الأمير عبد الرحمن نحو مراكش خرج ابن خلدون معه وفي نيته الجواز الى الأندلس مع الوزير مسعود من ساحل أسفى (في الجنوب) ، ولكنه عاد ورجع الى فاس لا ستئذان السلطان بالجواز الى الأندلس ، « بقصد القرار والدعة » ـ هذه المرة (ج ٧ ص ٤٤٣) .

الاندلس محطة عبور بين المغربين : الأقصى والأوسط :

من تجارب ابن خلدون في الرحيل من افريقية الى المغرب الأقصى والعكس ، يتضح لنا أن اضطراب الأحوال السياسية في ذلك القرن الثامن الهجري (١٤ م) ، عصر التبدل والتغير ، كانت قد جعلت من الأندلس وكأنها محطة عبور ، أي « ترانسيت » ما بين طرفي بلاد المغرب : الأقصى والأدنى ، تماما كما كان الحال بالنسبة للصحراوات المغربية الكبرى ، مع فارق الا ما يتهدد المسافر في الصحراء هو التعرض لغارات العرب ، بينما كان قرصان النصارى يهددون المسافرين في البحر ، كما حدث لابن الشريف الحسني رئيس الشورى في سبته ، الذي استضاف ابن خلدون في جوازه الأول الى الأندلس ، فقد أخذه قرصان النصارى الأندلسيين وولده في بحر الزقاق ، ولم يخلصا من الأسر الا بعد سعي من السلطان أبي سعيد الذي دفع فدية مقدارها ٣ (ثلاثة) آلاف دينار (التعريف ، العبرج ٧ ص ١٤٠) .

والحقيقة أن ما يقوله ابن خلدون في سفرته الأخيرة من أنه يجوز الى الأندلس بقصد القرار والدعة ، لم يكن الا أمنية خادعة في نوع من الحياة الناعمة بعيدا عن ميدان السياسة المضطرب ، وهذا ما يتضح له بمجرد نزوله الى الأرض الأندلسية في ربيع سنة ٧٧٦ هـ/ سبتمبر ١٣٧٤ م . فلقد لقى كاتب السلطان ابن الأحمر الذي خلف الوزير ابن الخطيب وهو الفقيه أبو عبد الله بن زمرك ، كان في طريقه الى التهنئة بفاس ، فأوصاه بأن يرسل اليه أسرته بغرناطة . ولكن أصابع الاتهام ما لبثت أن اتجهت نحوه من المغرب خشية ان يحرض ابن الأحمر على الميل الى صنيعته الأمير عبد الرحمن صاحب مراكش وسجلماسة . وعندما امتنع ابن الأحمر من ارجاعه الى المغرب أظهروا له أنه كان يسعى في خلاص ابن الخطيب قبل أن يقتل في محبسه . وهكذا نجحوا في اثارة سلطان غرناطة ضد ابن خلدون ، فرضي باخراجه من بلاده الى المغرب .

النزول في تلمسان

ونزل مؤرخنا في مرسى تلمسان وهو هنين . ولما كان السلطان أبو حمو ساخطا عليه بسبب تأليبه عرب الزاب عليه ، فانه أصدر أوامره بمقامه هناك ، قبل أن يقبل الشفاعة فيه ، ويسمح له بالقدوم الى تلمسان حيث استقر بالعباد ، ولحق به أفراد أسرته في ١٠ شوال ٧٧٦ هـ/ ١٣ مارس ١٣٧٥ م .

والظاهر أن ابن خلدون كان قد تعب فعلا بعد حوالي ربع قرن من الخدمة الديوانية في ذلك الوقت المتقلب ، فما أن عرض عليه السلطان أبو حمو أن يعود الى السعي في استئلاف الزواودة حتى كره تلك المهمة وعافتها نفسه . وهكذا خرج من تلمسان ، وهو يبطن الفرار من الخدمة ، فلحق بأحياء أولاد عريف في قبلة جبل كزول ، الذين رحبوا به وأحضروا أهله من تلمسان ، وأنزلوه بينهم في قلعة أولاد سلامة ، من بلاد بني توجين .

تأليف الكتاب في قلعة بني سلامة (تاوزروت) (٧٧٦ ـ ٧٨٠ هـ/ ١٣٧٥ ـ ١٣٧٨ م)

وفي قلعة بني سلامة قدر لابن خلدون أن يعتزل بعيدا عن شواغل الدنيا لمدة ٤ (أربع) سنوات تقريبا ، وأن يشغل وقته بالتأليف وفي ذلك يقول « فشرعت في تأليف هذا الكتاب وأنا مقيم بها ، وأكملت المقدمة على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت اليه في تلك الخلوة ، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها ، وتألفت نتائجها ، وكانت من بعد ذلك النقلة الى تونس ، كما نذكر ان شاء الله تعالى » (ج ٧ ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥) .

وابن خلدون يوضح أن اشتغاله بالتأليف وحيدا في بادية أولاد عريف كان بسبب استيحاشه من كل من دولتي المغرب في فاس وتلمسان ، وأنه خلال فترة تفرغه تلك انتهى من « مقدمة الكتاب الى أخبار العرب والبربر وزناتة » (ج ٧ ص ٤٤٥) ومن الواضح هنا أنه يقصد بـ [المقدمة] الجزء الأول من الكتاب ، وأنه يقصد بأخبار العرب والبربر وزناتة : الاقسام الأولى الخاصة بالعرب والأجزاء الأخيرة الخاصة بتاريخ البربر ، وذلك أنه كان يخطط للكتابة في تاريخ المغرب ، مجال تخصصه ومعارفه ، حسبما ينص في المقدمة التاريخية .

ويبدو أن أنهى العمل في شكله الأول عن طريق الاملاء من حفظه أو النظر في بعض الأحيان فيما تيسر له من المراجع في القلعة النائية رأى ضرورة الاطلاع على المصادر الأساسية التي لا توجد الا في المدن الكبيرة (الأمصار) ، حتى يتمكن من تنقيح الكتاب وتصحيحه ، حسبما تقتضي أصول المنهج .

ويبدو أن استرد عافيته من مرض طرأ عليه ، ربما بسبب الارهاق في عمل الكتاب ، خاطب السلطان أبا العباس في السماح له بالانتقال الى العاصمة تونس . وفي رجب من سنة ٧٨٠ هـ/ اكتوبر ١٣٧٨ م ، ترك قلعة بني عريف ، وسلك القفر مع جماعة من عرب رياح أثناء نجعتهم ومر على الدوسن بأطراف بلاد الزاب ، لكي ينزل على ضاحية قسنطينة . ولما كان السلطان ابو العباس قد خرج في العساكر لاقرار الأمور في بلاد الجريد وكرشوكة يحيى بن يملول هناك ، فان ابن خلدون سعى الى لقائه ، ولحق به بظاهر سوسة ، فأمره بالعودة الى تونس ، التي وصلها في شهر شعبان .

وعندما عاد السلطان من حملته المظفرة قرّب ابن خلدون منه ، وكان ذلك سببا في سعايات الحاسدين ، مثل : شيخ الفتيا محمد بن عرفه ، الى جانب نجاح دروسه في اجتذاب طلبة العلم . وبفضل تشجيع السلطان أبي العباس انكب مؤرخنا على الكتابة فأكمل منه : أخبار البربر وزناتة ، وكتب من أخبار ما قبل الاسلام ، وأخبار الدولتين : الأموية

والعباسية ما وصل اليه منها . وبذلك تم من الكتاب نسخة أولى ، رفعها الى خزانة كتب السلطان ، مع قصيدة في مدحه حتى لا يتهم بالقعود عن هذا الواجب ، استهلها منشدا :

هل غير بابك للغريب مؤمل   أو عن جنابك للأماني معدل

وذكر فيها فتوحاته في العرب من أولاد أبي الليل ومهلهل والمعقل ، وفي وصف العرب يقول :

عجب الأنام لشأنهم بادون قد   قلقت بحيهم المطيّ الذلل

ومنها ذكر الكتاب المؤلف بخزانته ، من : تسميته ، ومنهجه ، ومضمونه

واليك من سير الزمان وأهله   « عبرا » يدين بفضلها من يعدل
صحفا تترجم عن أحاديث الأولى   درجوا فتجمل عنهم وتفصل
لخصت كتب الأولين بجمعها   وأتيت أولها بما قد أغفلوا
وألنت حوشيّ الكلام كأنما   يبهى الندى به ويزهو المحفل

(ج ٧ ص ٤٤٦ - ٤٤٩) .

ولم يهنأ ابن خلدون بمقامه في تونس بسبب سعاية بطانة السلطان ، وعلى رأسهم ابن عرفه ، حتى ظهر له سوء ظن السلطان به عندما أمر بخروجه معه في حملة الى توزر حيث كان ابن يملول قد عاد اليها سنة ٧٨٣ هـ/ ١٣٨١ م . ومع أن السلطان أمره بالعودة قبله الى تونس ، فانه عندما قرر الرجوع من جديد الى بلاد الزاب سنة ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢ م ، خشي مؤرخنا الذي كان قد جاوز الثانية والخمسين من عمره أن يمر بتجربة العام الماضي الشاقة مرة أخرى ، فانتهز فرصة وجود سفينة مقلعة الى الاسكندرية لكي يتوسل الى السلطان أن يخلي سبيله لقضاء فريضة الحج ، فكان آخر العهد به بتونس وبلاد المغرب والأندلس .

الاقامة في مصر (٧٨٤ - ٨٠٨ هـ/ ١٣٨٢ - ١٤٠٦ م) :

لقي ابن خلدون وداعا حافلا في مرسى تونس في ١٥ شعبان سنة ٧٨٤ هـ/ ٢٦ سبتمبر ١٣٨٢ م ، من قبل أعيان الدولة والبلد ، وطلبة العلم . وهو يقول عندما يركب البحر : « وتفرغت لتجديد ما كان عندي من آثار العلم ، والله ولي الأمور سبحانه » ، فكأنه يرى أن الهدف من رحلته الشرقية هو التفرغ للعلم : قراءة وتدريسا وتأليفا ، وهو ما حققه الى حد كبير في مصر ، وان كان قد اشتغل بالقضاء ، ولقي في سبيل الوظيفة كثيرا من العنت .

وصلت سفينة ابن خلدون الى الاسكندرية بعد أكثر من أربعين يوما ، في أول شوال (يوم الفطر) « وذلك لعشر ليال من جلوس الملك الظاهر على التخت (٣٠ اكتوبر - ١٣٨٢ م) واقتعاد كرسي الملك دون أهله بني قلاوون » كما

يحلو له أن يضع هذا اليوم في موضعه من تاريخ مصر . وهو لا يفوته بالمناسبة - وهو يعرف أنه يكتب التاريخ ليقرأه الملوك قبل العامة - أن يسجل أنه كان يترقب ذلك كي وصول الظاهر برقوق الى سدة الحكم « ، لما كان يؤثر بخاصية البلاد من سموّه لذلك ، تمهيده له » (ج ٧ ص ٤٥١) ، تماما كما فعل مع تيمورلنك ، وان بالغ هناك بعض الشيء ، عندما قال انه كان يعرف من كتب الحدثان ظهوره « لم » قبل أربعين عاما ، ويتحق رؤيته ، الأمر الذي أثار دهشة المترجم الفقيه عبد الجبار بن النعمان (٤٤) .

وبدلا من أداء فريضة الحج اكتفى بالانتقال في أول ذي القعدة (٧ يناير ١٣٨٣ م) الى : « حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وايوان الاسلام ، وكرسي الملك . . . . » ، القاهرة . وهو عندما يجوب شوارع القاهرة يتذكر مقالات الشيوخ والأصحاب فيها . فكبير علماء المغرب أبو عبد الله المقري يقول له عنها : « من لم يرها لم يعرف عز الاسلام » والشيخ أبو العباس ابن ادريس ، يقول : « كأنما انطلق أهلها من السحاب » يشير الى كثرة أممها وأمنهم العواقب ، والفقيه أبو القاسم البرجي ، قاضي العسكر بفاس ، وسفير السلطان أبي عنان الى ملوك مصر ، يقول عنها على سبيل الاختصار : « ان الذي يتخيله الانسان فانما يراه دون الصورة التي تخيلها لا تساع الخيال عن كل محسوس ، الا القاهرة فانها أوسع من كل ما يتخيل فيها » (ج ٧ ص ٤٥١ - ٤٥٢) .

أما عن نشاطه في مصر فقد بدأ بالجلوس للتدريس بالجامع الأزهر ، ثم الاتصال بالسلطان وعن طريقه سمح سلطان تونس لأهله باللحاق به . وبعد التدريس الحر في الأزهر ، تولى وظيفة التدريس بالمدرسة القمحية بمصر - نسبة الى قمح الفيوم الذي كان ينفق عليها منه - قبل أن يصل الى منصب قاضي قضاة المالكية في مصر سنة ٧٨٦ هـ/ ١٣٨٤ م .

وهو في معرض اشادته بالمنصب يسجل ما قد يقال عن قاضي قضاة الشافعية ، من : « أن مباشرة السلطان قديما بالولاية انما كانت تكون له » (ج ٧ ص ٤٥٣) بمعنى أنه الذي كان يقوم باجراءات تنصيب السلطان في رياسة الدولة .

وابن خلدون يسجل ملاحظات قاسية عن خطة القضاء في مصر على أيامه . وربما كان ذلك في معرض دفاعه عن ممارسته للقضاء على طريقة أهل المغرب ، الأمر الذي كان موضع نقد أقرانه من المصريين ، من أهل القضاء والفتيا . فهو يقول انه قام المقام المحمود في ولايته لاتأخذه في الله لومة لائم ، مسويا بين الخصوم ، معرضا عن الشفاعات ، جانحا الى التثبت في سماع البينات ، مع النظر في عدالة الشهود . « فقد كان البر منهم مختلطا بالفاجر ، والطيب ملتبسا بالخبيث ، والحكام ممسكون عن انتقادهم . . . فشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ، ووقفت على بعضها ، فعاقبت منه بموجع العقاب ومؤلم النكال ، وتأدى لعلمي الجرح في طائفة منهم فمنعتهم من تحمل الشهادة ، وكان منهم كتاب الدواوين للقضاة . . . » وهو يشير الى ما كان قد فشا من الضرر في الأوقاف وفيما أصاب الفتاوي من التعارض والتناقض بسبب الخلاف بين المذاهب وغيره (ج ٧ ص ٤٥٣ - ٤٥٤

(٤٤) انظر محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون ، ص ٩٠

وكان من الطبيعي أن تواجه عملية الاصلاح التي يحاولها ابن خلدون معارضة قوية ممن يتضررون منها ، وان تجعل منهم ومن أصحابه القضاة خصوما ألداء له .

والظاهر أنه كان للوافدين على مصر من المغاربة دورهم فيما أصاب مؤسسة القضاء المصرية من الفساد ، فهو يذكر أنه كان بين من كافحهم بهذا الصدد من أهل الهوى ، ملتقطون سقطوا من المغرب يشعوذون بمفترق من اصطلاحات العلوم هنا وهناك ، لا ينتمون الى شيخ معروف مشهور . . . « اتخذوا الناس هزوا ، وعقدوا المجالس مثلبة للأعراض ومأبنة للحرم ، فأرغمهم ذلك مني ، وملأهم حسدا وحقدا علي ، وخلوا الى أهل جلدتهم من سكان الزوايا المنتحلين للعبادة ، ليشتروا بها الجاه ويجتروا به على الله ، وربما اضطر أهل الحقوق الى تحكيمهم فيحكمون بما يلقي الشيطان على ألسنتهم ، يترخصون به الاصلاح . . فقطعت الحبل في أيديهم ، وأمضيت أحكام الله فيمن أجاروه ، فلم يغنوا عنه من الله شيئا ، وأصبحت زواياهم مهجورة . . وانطلقوا يراطنون السفهاء من النيل في عرضي وسوء الأحدوثة عني . . ويدسون الى السلطان التظلم مني . . (ج ٧ ص ٤٥٤ ، محمد طه الحاجري ، ابن خلدون ، ص ٢٥٠)

وكان من الطبيعي أن ينتهي الأمر بعزله من القضاء ، في الوقت الذي أصيب في أهله الوافدين من تونس بحرا بغرقهم على مشارف المرسى بالاسكندرية ، فعكف على تدريس العلم والقراءة والتدوين لمدة ثلاث سنين ثم انه قرر قضاء فريضة الحج المرجأة منذ خمس سنوات ، وذلك في عام ٧٨٩ هـ/١٣٨٧ م .

وفي الينبع ميناء المدينة ، وصلته رسالة من ابن زمرك كاتب سر السلطان بن الأحمر ، صحبة أحد الحجاج وفي طي الكتاب قصيدة في مدح الملك الظاهر برقوق ، وفي فصل منه تعريف بشأن الوزير مسعود بن رحو ، المستبد بأمر المغرب للملك المعهد . وتاريخ الكتاب ٢٠ محرم ٧٨٩ هـ / ١١ فبراير ١٣٨٧ م . هذا ، كما كتب اليه أبو الحسن علي ابن الحسن البني ، قاضي الجماعة بغرناطة بواسيه ـ ردا على خطاب كان قد وصله من ابن خلدون كما يظهر ـ في صرفه عن خطة القضاء ، ويحمد له ثناءه على السلطان الذي أنعم عليه بالاعفاء ، ويعرفه بأن سلطان غرناطة أثنى عليه عندما اطلع على خطابه . وتاريخ هذه الرسالة : صفر سنة ٧٩٠ هـ / فبراير ١٣٨٨ م .

وكان في طي الرسالة مدرجة يعتذر فيها القاضي الغرناطي عن كتابة ، الرسالة بغير خطه ، وفيها يعرف ابن خلدون بأخبار المغرب مما يتعلق بما أصاب البلاد من الهرج بسبب ما حدث من النزاع بين السلطان أبي العباس وعسكر النصارى الذين كانوا في خدمته (ج ٧ ص ٤٦٠ ـ ٤٦٢

نهاية التعريف في العبر ، واستكماله في فترة تالية :

وهنا يختم ابن خلدون التعريف بنفسه في كتاب العبر ، مبررا استطراداته وهو يقول : « انما كتبت هذه الأخبار ، وان كانت خارجة عن غرض هذا الكتاب المؤلف ، لأن فيها تحقيقا لهذه الواقعات ، وهي مذكورة في أماكنها ، فربما يحتاج

الناظر الى تحقيقها من هذا الموضوع وهو يتبع ذلك بذكر رجوعه من الحج الى القاهرة ، ومقابلته للسلطان برقوق ، والنكبة التي لحقت به من خلعه وعوده الى السلطنة ، ولزوم مؤرخنا و كسر البيت متمتعا بالعافية لابسا برد العزلة ، عاكفا على قراءة العلم وتدريسه لهذا العهد فاتح ٧٩٧ هـ / ٢٧ اكتوبر ١٣٩٤ م وكل ذلك في سبعة أسطر (ج ٧ ص ٤٦٢) .

ولما كان قد دخل القاهرة في عودته من الحج في جمادي سنة ٧٩٠ هـ / ٦ يونية ١٣٨٨ م (ج ٧ ص ٤٥٥) ، فكأنه لخص سيرته خلال سبع سنوات في تلك الأسطر السبعة ، وهو مالم نعتده من مؤرخنا المدقق ، الذي لا تفوته شاردة ولا واردة . واذا كان من المقبول أن يكون عدم مشاركته في أحداث الثورة التي بدأت في الشام وأدت الى سجن السلطان برقوق في الكرك ، واستمرت أكثر من عام قبل عودته الى كرسيه بمصر (في غرة ٧٩٢ هـ / ٢٠ ديسمبر ١٣٨٩ م) وهو ما يسجله ابن خلدون بالتفصيل في تاريخه (العبر ، ج ٥ ص ٤٨٣ - ٤٩٣) ، هو ما جعله يمر عليها مرورا عابرا ، فان ما يدعو الى الاستغراب أنه حدثت في الفترة ما بين سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨ م و٧٩٧هـ / ١٣٩٥ م ، أحداث كان يمكن أن يهتم بها ، ولم يشر اليها في التعريف . من ذلك وصول هدية ملك تونس أبي العباس أحمد لبرقوق بعد عودته الى كرسيه ، والتي وصلت القاهرة في أواخر رمضان من سنة ٧٩٢هـ / سبتمبر ١٣٩٠م (ج ٥ ص ٥٠١) . وكذلك الأمر بالنسبة لحج يوسف بن علي بن غانم أمير أولاد حسين من عرب المعقل الذي كان في طاعة السلطان المريني أبي العباس بن أبي سالم ، والذي حج سنة ٧٩٣هـ / ١٣٩١م واتصل بالسلطان برقوق ، فتقدم ابن خلدون الى السلطان وعرفه بمحله من قومه ، « فاكرم تلقيه وحمله بعد قضاء حجه هدية الى صاحب المغرب » واحتفل السلطان أبو العباس بالهدية وعزم على أن يرد عليها بهدية مثلها من طرف المغرب ، مع نفس الأمير العربي يوسف بن غانم ، لولا أن وافاه الأجل قرب تازا سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٤ م (العبر ، ج ٧ ص ٣٦٣) وكذلك وصول ملك بغداد أحمد بن أويس الى القاهرة في ربيع سنة ٧٩٦هـ / يناير ١٣٩٤ م مستصرخا السلطان الظاهر برقوق بعد أن استولى تمر (تيمور لنك) على ملكه وخروج السلطان الى دمشق في جمادى من أجل رصد تحركات تيمور لنك الذي كان يحاصر ماردين ويجوس خلال بلاد الروم وقلاع الاكراد ، والذي يصفه ابن خلدون في تاريخه بالعدو (العبر ، ج ٥ ص ٥٤٠ ، ٥٥٤ - ٥٥٦) .

ولما كان ابن خلدون قد قدر له أن يعيش إلى سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م فالظاهر أنه استدرك مع مرور الوقت هذا النقص الذي ألم بالتعريف نفسه فأكمله الى سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٥ م ، وذلك كما في النسخة التي حققها محمد بن تاويت الطنجي ، والتي نشرت في القاهرة ١٩٥١ م . ففي تلك النسخة المنقحة ذكر لتعيينه مدرسا للحديث بمدرسة صرغتمش سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩ م ، وبالتالي شيخا (ناظرا) لخانقاه بيبرس ، الأمر الذي زاد في رواتبه . أما عن الثورة على برقوق فقد خصها بفصل طويل طبق فيه نظريته في العصبية ، كما لاحظ الأستاذ عنان (٤٥) ، وهو ما يسجله ابن خلدون في التاريخ بصدد كلامه « عن دولة الترك القائمين بالدولة العباسية بمصر والشام من بعد بني أيوب ولهذا العهد » ، اذ يقول ان جلب التجار للماليك الترك بمصر ، وتنافس أهل الملك في شرائهم لم يكن بقصد الأستعباد « انما هو اكتاف للعصبية وتغليظ للشوكة ، ونزوع الى العصبية الحامية » (العبر ج ٥ ص ٣٧١) .

---

(٤٥) انظر محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون ، ص ٨٥

وخلال الفترة من ٨٠٣هـ / ١٤٠٠ م وحتى وفاته سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٦ م ، ولى القضاء خمس مرات وعزل أربع مرات ، اذ أنه توفى في ٢٦ رمضان سنة ٨٠٨هـ / ١٦ مارس ١٤٩٦ ، وعمره ٧٨ سنة ، وهو يشغل منصب قاضى قضاة المالكية (٤٦) .

أما أهم مغامراته طوال حياته المليئة بالمغامرات ، فتتمثل في لقائه لتيمورلنك في الشام سنة ٨٠٣ هـ / ، وهى التى سجلها في التعريف بنفسه عندما نقحه وزاد فيه ، وان لم يسجلها في تاريخه الذى وصل فيه في بعض المواضع الى سنة ٧٩٦هـ / بمناسبة وفاة السلطان المرينى أبى العباس وولاية ابنه ابي فارس (ج ٧ ص ٣٦٣) أو بمناسبة فرار ملك بغداد أحمد بن أويس أمام تيمور لنك الى الشام ثم وصوله الى مصر مستصرخا السلطان برقوق في ربيع سنة ٧٩٦ هـ / يناير ١٣٩٤ م (ج ٥ ص ٥٥٥) ، وذلك ان تسجيله لبداية سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م أتى في نهاية التعريف بمناسبة لزومه البيت عاكفا على القراءة والتدريس (ج ٧ص ٤٦٢) .

فبعد تأزم الأمور اثر عودة السلطان فرج من الشام الى مصر ، أثبت ابن خلدون أنه قوى القلب ثابت الجنان ، اذ قرر لقاء « فاتح العالم الثاني » فتدلى من قلعة دمشق وسار الى معسكر التتر . هذا ، كما أظهر خبرة بالسياسة ومعرفة بكيفية اكتساب قلوب كبار الرجال من أصحاب السلطان . فهو بعد السلام يومىء ايماءة الخضوع ، ويقبل اليد التى تمد اليه . وهو بعد ذلك يفاجىء الترجم عندما يؤكد أنه ـ وهو رجل العلم والتحقيق ـ كان ينتظر لقاء سلطان العالم وملك الدنيا منذ ٤٣ سنة ، وأنه لا يعتقد أنه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد مثله (٤٧) .

وفيما يتعلق بالتأليف النفر اللقاء عن طلب تيمور ـ الذى لفتت انتباهه لباس ابن خلدون المغربي ـ أن يقوم مؤرخنا بكتابة وصف كامل لبلاد المغرب كلها : أقاصيها وأدانيها ، وجباله وأنهاره ، وقراه وأمصاره حتى كأنه يشاهدها . فكتب له رسالة في وصف المغرب بلغت ١٢ (اثنى عشرة) كراسة صغيرة ، يظن أنها تمثل التمهيد الجغرافي للكتاب الثالث في تاريخ البربر (المراجع السابقة) .

وبذلك اكتمل الفصل الختامى من كتاب العبر المعروف بالتعريف ، كما اكتمل الكتاب نفسه ، من المقدمة الى التاريخ تنقيحا وتأليفا خلال ٢٤ سنة قضاها ابن خلدون فى مصر عاكفا على التدريس والقراءة والتدوين والتأليف ، مما لم يخرج في معظمه عن دائرة كتاب العبر . وذلك اننا نرى أن مهنة القضاء التى اشتغل بها وثيقة الصلة بصناعة التاريخ من حيث إنها ترفده بأسباب النقد في سبيل البحث عن الحقيقة ، بما يعرفه القضاء في الاجراءات وتعديل الشهود وتصحيح الوثائق ومعرفة القرائن وتقرير البينات ، وهي الأمور التي تمثل اصول البحث العلمي وقواعد النقد التاريخي ، وهي التى تفسر كيف نشأ التاريخ في كنف علم الحديث مبنيا ـ في سير الرجال ـ على قاعدتى الجرح والتعديل .

---

(٤٦) انظر عنان ، ابن خلدون ، ص٨٥ ، ص ٩٧ ، على عبد الواحد وافى ، مقدمة ابن خلدون ج ١ص ١١٦ ، ص١٢٣ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٤٧) انظر على عبد الواحد ، مقدمة ابن خلدون ، ج ١ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، عنان ، ابن خلدون ٩٠ ، ٩١ ، وفي موضوع ابن خلدون . وتيمورلنك تشير الى دراسة فيشل
W.J. Fischel. Ibn Khaldoun and Tamerlane Barkeley-Los Angeles1952

سيرة المؤلف وملحمة الكتاب :

من ذلك العرض للتعريف بابن خلدون يتضح أن سيرة المؤلف تكاد تلتحم بالكتاب في بنية واحدة . فتكوين ابن خلدون العلمي في مراحله المختلفة ، سواء في المدرسة المغربية الأندلسية بتونس في صباه الباكر ، أو عند مقام السلطان أبي الحسن بالعاصمة الحفصية ، أو في كنف السلطان أبي عنان في فاس ، أو في رحاب المدرسة المصرية بروافدها العلمية المشرقية ، في آخر الأمر ، (كل هذا) يمثل الجانب العلمي أو الثقافي في كتاب العبر ، كما يظهر في المقدمة أي الكتاب الأول ، متوجا ـ بطبيعة الحال ـ بالنظريات الخلدونية في النقد التاريخي والعمران البشري .

أما عن أشغاله الديوانية ونشاطاته الديبلوماسية والسياسية ، لدى الحفصيين بتونس أو بني عبد الواد بتلمسان أو بني مرين بفاس أو بني الأحمر النصريين بغرناطة ، فانها تلتحم بالجزء الأصيل من الكتاب ، متمثلا في تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عصر ابن خلدون أو في ذلك القرن الثامن الهجري (١٤ م) الذي عاشه والذي رآه يختم دورة تاريخية كانت قد بدأت في منتصف القرن الخامس الهجري (١١ م) بهجرة العرب الهلالية ، فهو يعرف الدول والأسر الحاكمة ، ويعمل في تدبير سياساتها وينغمس في بؤرة مؤامراتها . وما هو أهم من هذا ، أنه يعرف الشعوب والقبائل وأحوال معاشها ، وعلاقاتها بحكامها وما توجوه من الدول التي تعيش في كنفها . فهو يعرف عرب هلال وسليم على عهده معرفة جيدة ، وخاصة في الجنوب التونسي وفي بلاد الزاب ، وهو متخصص في أعراب بني رياح من الهلالية وخاصة بطون الدواودة منهم وهم الدواودية أصلا ، وهو يعرف أيضا القبائل البربرية في جبال افريقية والمغرب الاوسط ، ويستطيع أن يجوس خلال ديارها ، ويستبيح حماها ـ كما يحلو له أن يقول ـ وأن يجعلها تدفع الضرائب (المغارم) ، علامة خضوع الفرد للدولة ، الى جانب ضريبة الدم أو الدفاع .

وتاريخ جماعات العرب والبربر في ظل دول المغرب خلال القرن الثامن الهجري (١٤ م) يمثل الجزء الأصيل من تاريخ البربر الذي يرجع فيه ابن خلدون الى الوثائق الرسمية التي عرفها في الدواوين ، والى مشاهداته الخاصة وما يسمعه من شهود العيان ، من : أساتذته أو من أهل الحرب والسياسة ، أو ما ينقله من عامة الناس من روايات شعبية تظهر في شكل قصص بطولي أو في شكل ملاحم شعرية ، مما ينفث الحياة في التاريخ ، وينقله من نطاق الأحداث السياسية الجافة الى وقائع للمجتمع الحية ، وهذا ما تتردد أصداؤه في النصف الثاني من كل من الجزءين السادس والسابع في تواريخ قبائل صنهاجة وزناتة . وهو ما تمثل فيها سماه في المقدمة بعصر التبدل والتغيير ، وهو ما يسميه بعض المحدثين بأزمة القرن الرابع عشر .

أما عن الأندلس : الرقعة من الشواطىء الجنوبية على امتداد ١٠ (عشر) مراحل في عمق مرحلة أو أقل ، فكانت وثيقة الصلة بدولة المغرب الاقصى المرينية التي كان لها بعض الأقاليم الاندلسية ، مثل : جبل طارق ورندة ، وعن هذا

الطريق ارتبط البلدان في بنية تاريخية واحدة . . فالجهاد كان يتطلب تدخل المرينيين في الأندلس ، والعلاقات بين غرناطة وفاس كان تتحسن وتسوء بناء على ذلك ، واللاجئون السياسيون من كل من البلدين يوجدون في البلد الآخر : أبو سالم في الأندلس ثم (الغني بالله) وابن الخطيب في المغرب . . ومثل هذا يقال عن العلاقة بين قشتالة من جهة وكل من غرناطةوفاس من جهة أخرى ، بل ان العلاقات المتدهورة بين الممالك الاسبانية المسيحية هي الأخرى سمحت لغرناطة في بعض الأحيان أن تقف موقف الحكم بينها ، بل وأن تستعيد عددا من القرى والحصون من أحواز أشبيلية ، كما شرح ابن الخطيب في بعض رسائله لابن خلدون .

والى جانب ذلك يبنت رحلات مؤرخنا كيف أن الأندلس كانت في بعض الأحيان أشبه ما تكون بمحطة عبور (ترانسيت) بين كل من طرفي المغرب : الأقصى والأدنى ، عندما يزداد اضطراب الأمور في العدوة المغربية ، وكل هذا من القطع التاريخية النادرة في كتاب العبر ، التي تجعل منه مصدرا أصيلا لتاريخ الفترة المعاصرة للمؤلف والقريبة من عهده .

والحقيقة أن تلك الأصالة لم تتوقف عند تاريخ المغرب ، كما كان يظن ابن خلدون وهو يبدأ الكتابة في المغرب ، ويقول أنه سيكتفي بتاريخ بلاده التي يعرفها دون غيرها من بلاد المشرق . فبفضل رحلته المشرقية واقامته الطويلة في مصر تمكن من تأصيل معلوماته ليس عن مصر والشام ودولة الترك المملوكية فقط ، بل عن كل تاريخ بلاد المشرق ، ولقد أتى تأصيل معلوماته عن المشرق عن طريقين أولهما : تجاربه الشخصية في القاهرة صاحبة العلاقات المتشعبة مع بلدان العالم ، وثانيهما : مدرسة التاريخ المصرية العريقة بمكتباتها العامرة ، حيث كانت القاهرة قد أصبحت بغداد الجديدة بخلافتها العباسية في كنف سلاطين المماليك ، الأمر الذي سمح له باستكمال تاريخ دول المشرق العديدة حتى تاريخ التتر على عهد تيمور لنك ، وتاريخ العثمانيين الى أيام بايزيد (ابو زيد) الذى ولى سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م .

وهكذا اكتمل تاريخ البربر على طول ٢٤ سنة قضاها ابن خلدون في مصر ، وتحول من تاريخ اقليمي محدود الأفق الى تاريخ عالمي متسع المنظور . واذا كان ابن خلدون قد قدم حوالى سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦ م نسخة كاملة من الكتاب بمقدمته وتاريخه الى الملك الظاهر برقوق ، كما بعث نسخة أخرى منه هدية الى السلطان أبي فارس عبد العزيز المريني لتوقف على خزانة الكتب في جامع القرويين بفاس ، فان ملحمة الكتاب لم تنته الا قبل أشهر من وفاته ، بفضل ما أضافه الى التعريف بنفسه (٤٨) .

(٤٨) انظر محمد عابد الجابري ، ابن خلدون بين العلم والسياسة ، ص ١٣٦ ، حيث يقول بهذا كله يمكن القول ان كتاب العبر . انتاج مصري تاثري في معظمه ، بقدر ما هو انتاج مغربي في أصله ومبدئه . وانظر علي عبد الواحد وافي ، مقدمة ابن خلدون ، ج ١ ص ١٣٤ وقارن ، ايف لاكوست ، الترجمة العربية لميشال سليمان ، ص ٧٨ ، حيث يرى ان المقدمة تتألف من ٣ كتب : الأول والثاني منها يوضحان محتوى تاريخ البربر ، أما الكتاب الثالث الخاص بالشرق واللاهوت والفلسفة ، فالغالب الظن انه وضع بعد ذلك في مصر .

الخلاصة

والذى تريد أن نخرج به من هذا العرض لكتاب العبر يتلخص في أن الكتاب بأقسامه الثلاثة ، : من المقدمة الى التاريخ الى خاتمة التعريف تمثل نسيجا واحدا متكاملا سداته حياة المؤلف وتجاربه ، ولحمته تكوينه العلمى ومعارفه . فالمقدمة شرح للتاريخ وان تقدمت عليه ، والتاريخ من حيث هو تاريخ العرب والبربر أو البدو والحضر - هو مصدر وحى ابن خلدون والهامه في عمل المقدمة ، أما التعريف فيأتى في النهاية لكى يبين مراحل العملية الحيوية التى تمخضت عن مولد الكتاب الكبير ، منذ تحصيل العلم ، الى كتابة ملخصات في علوم مساعدة مما ذكره ابن الخطيب في ترجمة ابن خلدون ، حتى البدء في كتابة تاريخ للبربراتتهى بأن صار تاريخا عاما للعرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، وبذلك حقق ابن خلدون ما كان يصبو اليه من أن يصبح اماما للمؤرخين بعد المسعودى .

واذا كنا قد عرضنا لتاريخ مروج الذهب للمسعودى ، في محاولة لبيان كيفية اقتداء ابن خلدون بالمسعودى ، وتأثير مروج الذهب في كتاب العبر ، فان ما قصدنا اليه يرمى الى ما هو أبعد من هذا الهدف . فالمسألة تتعلق بالتراث العربى الاسلامى الذى استوعبه ابن خلدون في المقدمة وتمكن من تلخيصه بطريقة فذة ، بفضل امتلاكه اللغة وتطويعه للعبارة ، قبل أن ينجح في بلورته في نظريات عامة .

والنتيجة التى نريد أن نخلص اليها تتمثل هنا في أن العلوم العربية الاسلامية هى القاعدة التى انصبت عليها المقدمة ، وان النظريات في التاريخ والعمران لاتبدأ من فراغ ، بل هى حصيلة التأمل في أعمال الجهد والفكر التى بدأها قدامى الأساتذة ، من : الجاحظ الى المسعودى والماوردي والطرطوشى ، الى ابن الأثير الذى كان له تأثيره على ابن خلدون من غير شك ، وهذا لا يمنع من الاشادة بذكاء الرجل وعبقريته ، ولكنا نريد أن تكون تلك الاشادة بالسوية بين امام المؤرخين في القرن الثامن (١٤) وأسلافه من الأئمة السابقين .

أما عن التاريخ الذي قيل أنه تقليدي ، لايستجيب لقوانين النقد التاريخي ونظريات العمران كما شرحت في المقدمة ، فهو الذي أوحى بتلك القوانين والنظريات ، كما سبقت الاشارة ، وبهذه المناسبة فابن خلدون لاتغيب عنه نظريات المقدمة تماما في عرضه التاريخي . فهو اذا كان قد أهمل ذكر مصادره في كثير من الأحيان فانه يشير اليها في أحيان أخرى . ففي تاريخ الفاطميين في مصر يذكر ما جمعه ملخصا من كتب ابن الأثير وابن الطوير ، الى جانب المسبحي (ج ٤ ص ٨٢) . وفي تاريخ القرامطة يشير الى الثعالبي والجيهري والبيهقي ، وكذلك ابن سعيد (ج ٤ ص٩٢) وفي

تاريخ الأندلس يذكر ابن حيان وابن حزم والحجازي (ج ٤ ص١٣٦ ـ ١٣٧) وهو لاينقل احتياطا بل يلتزم بالنظر والنقد ، كما فعل مع ابن الأثير فيما يتعلق باستيلاء الخطا على تركستان ، حيث ينص على أنه نقل « الخبر عن اضطراب عنده فيه . . على أن أخبار هذه الدولة الخانية في كتابه ليست جلية ولا منقحة وهو يرجو الله أن يمد في عمره الى أن يحقق أخبارها « بالوقوف عليها في نطاق الصحة » . وأن يلخصها مرتبة لأنه لم يوفها حقها من الترتيب لعدم وضوحها في نقله . . (ج ٤ ص٣٩٥)

وفيما يتعلق بنظريات العمران وقيام الدول ، يشير الى نظرية العصبية وأهميتها في قيام الدولة في أكثر من موضع ، ليس في تاريخ العرب والبربر فقط ، بل وفي تاريخ الترك والمماليك أيضا (ج٥ص٣٧١) .

ومنهج ابن خلدون في تأليف تاريخه العام ، هو التلخيص واستكمال الثغرات أو النقص مع تقريب المعاني باستخدام الاسلوب المرسل ، البعيد عن السجع والصنعة . وهذا ما يتضح من قصيدته التي قدم بها الكتاب لأول مرة الى السلطان أبي العباس الحفصي سنة ٧٨٤ هـ /١٣٨٢ م حيث يقول :

لخصت كتب الأولين بجمعها ... وأتيت أولها بما قد أغفلوا
وألنت حوشي الكلام كأنما ... سرد اللغات بها المنطق ذللوا

فكأن هذين البيتين من الشعر يلخصان أهم مظاهر عبقرية صاحبهما ، من : المقدرة الفائقة على الاستيعاب والتلخيص ، والتعبير عن القصد بأقرب السبل : طريق الكلام المرسل ، وهو السهل الممتنع .

وأخيرا يأتي ما انفرد به ابن خلدون في كتابته للتاريخ ، من المبالغة في التقسيم والتصنيف . . فرغم أن العبر في تاريخ العرب والعجم والبربر وغيرهم من الدول المعاصرة ، فانه يضع كل الأمم والشعوب التي أرخ لها منذ أقدم العصور وحتى القرن الثامن (١٤ م) ، على طول أكثر من ثلاثة آلاف صفحة في اطار واحد ، هو تاريخ العرب وحدهم ، منذ عاد وثمود في جنوب جزيرة العرب الى هلال وسليم في شمال جزيرة المغرب » .

وهكذا توالت وقائع العجم والبربر في المشرق وفي المغرب ، في ثنايا أخبار طبقات العرب الاربعة ، من : العرب البائدة والباقية ثم عرب دولة الاسلام في المشرق والمغرب ، وأخيرا جيل عرب المغرب من الهلالية . والى جانب هذا التقسيم الافقي ، ينقسم التاريخ الاسلامي رأسيا الى أربع شرائح أخرى هي : تاريخ الدولتين (الأموية والعباسية) وتاريخ دول أحزاب المعارضة من : الشيعة والخوارج وغيرهم ، وتاريخ الدول المعاصرة للخلافة ببغداد ، وأخيرا تاريخ

البربر أو دول المغرب في القرن الثامن (١٤م) ويعرضه مندرجا تحت تاريخ العرب الهلالية منذ دخولهم الى المغرب في القرن الخامس (١١ م) .

وهنا نحب أن نشير في الختام الى أن ابن خلدون ، على عكس ما قد يراه البعض من أنه مغربي شعوبي مناهض للعرب - بسبب ما قاله عن العرب في فصل العمران البدوي والأمم الوحشية تظهر في تقسيمه لكتاب العبر الى طبقات أربعة من أجيال العرب ، متعصبا للعروبة والعروبية حتى أن تاريخ البربر الذين يتعصب لهم ، كما يحلو للبعض أن يقول ، يظهر في آخر الأمر وكأنه تاريخ للهلالية ، قبل أن يكون تاريخا لصنهاجة أو الزناتية ، فكأن كتاب العبر ، كما تراءى للمؤلف ، هو فقط في : تاريخ العرب .

❊ ❊ ❊

كتاب الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي

دراسة فنية تحليلية

محمد حسن عبدالله
(كلية الآداب - جامعة الكويت)

(١) صورة عصر : -

كتاب « الفرج بعد الشدة » ألفه القاضي « المحسِّن ابن علي التنوخي » المعروف بالقاضي التنوخي . وهذا الكتاب تقوم مادته الأساسية على الأخبار والنوادر التي تساق في أسلوب قصصي ، ومع أهمية هذا الجانب ، من الفن القصصي في التراث العربي لا يزال قليل الحظ من عناية الباحثين ، وموضع ابهام عند بعض المستشرقين فإن أهمية الفرج بعد الشدة تتجاوز كونه من أحسن المصادر وأقربها الى المنهج العلمي التوثيقي ، والى الشمول أيضا ، الى أمور أخرى لا تقل في درجة الضرورة ، لعلاقته بالسيرة الشخصية لمؤلفه ، وبعلاقاته المتنوعة التي تتشعب الى المستويات الاجتماعية ، والانشطة الانسانية في عصر مؤلفه .

لقد ولد القاضي التنوخي سنة سبع وعشرين وثلثمائة (٣٢٧ هـ) بالبصرة [١] ، وتوفي سنة أربع وثمانين وثلثمائة (٣٨٤ هـ) ببغداد ، واذا فقد عاش في صميم القرن الهجري الرابع في أهم مواطن الحضارة العربية الاسلامية ، وفي أشد مراحلها وأشدها خطرا .

وهذا القرن الرابع الهجري ، له صورتان على قدر من التضاد عظيم ، فهو عصر التقدم العلمي والنشاط التأليفي ، عصر الانفتاح على الحضارات الاجنبية وتميز الحضارة العربية ، عصر الترف الزائد والفقر القاتل . عصر المؤامرات والاضطرابات والاوبئة ، عصر السلطة الضائعة والأمن المفتقد .

في القرن الرابع الهجري ظهرت الثمار العظيمة التي غرسها عصر الرشيد ، وعصر المأمون من بعده . في

(١) انظر : وفيات الأعيان مجلد ٤ ص ١٦٢ ، وتاريخ بغداد جـ ١٣ ص ١٥٦ ، والنجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١١٨ ومفتاح السعادة جـ ١ ص ٢١٩ . وفي معجم الأدباء أنه ولد سنة ٣٢٩ هـ جـ ١٧ ص ٩٢ .

مجالات الحضارة بكل ما تنطوي عليه من توسع في العمران ، واحتفاء بالفنون والآداب ، وتشجيع للعلماء ، وتيسير للحصول على المعرفة من منابعها المتقدمة . توفي المأمون سنة ٢١٨ هـ ، أي قبل ميلاد القاضي التنوخي بقرن كامل يزيد بضع سنوات ، وفي ابان تلك الفترة كانت الخمائر قد عملت عملها ، وتفتحت البراعم العظيمة التي شهد عصر المأمون نفسه بشائرها ، وتألق نورها في عصر المعتصم ، واستمر اشعاعها في عصور خلفائه لتبلغ الذروة في السطوع والابهار أثناء مراحل توصف من الناحية السياسية بأنها عصر ضعف الخلفاء ، واضطراب الأمن ، وانتشار الفساد الاداري . وهذا هو الوجه الآخر القاتم المضاد للوجه المشرق بنور الحضارة العربية .

واذا كنا لا نستطيع أن نستقصي جوانب الصورة على امتداد الارض العربية ، ما بين المشرق والاندلس ، فاننا لا نستطيع - أيضا - أن نخوض في تفاصيلها الدقيقة ، وان تكون في حدود العراق وما حوله ، لان الوفاء بهذه التفاصيل يتجاوز قدرة هذه الصفحات ، ونكتفي بأن نسجل اشارات دالة في حدود الفترة التي عاشها التنوخي ، بذكر بعض أعلام العصر في بعض مجالات المعرفة ، فنجد أمثال أبي الحسن الاشعري ، والاسفراييني ، والقشيري ، وامام الحرمين الجويني ، والباقلاني ، وأبي بكر الجصاص ، وهم من الفقهاء والمتكلمين . ومن علماء اللغة محمد بن دريد الأزدي ، وأبي بكر الانباري ، وأبي الحسن الرماني . ومن المتصوفة ، جماعة اخوان الصفاء ، التي تعتبر من أهم مدارس الاستنارة العقلية في تاريخ الفلسفة الاسلامية . وفي مجال الطب وترجمة كتب الحكمة من اليونانية والسريانية الى العربية نكتفي بأن نقلب صفحات كتاب ابن أبي أصيبعة : « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » لنكتشف أن العمل في ميدان الطب ممارسة وترجمة ، وفي مجال الفلسفة ، اختصت به أسر يتوارثه أفرادها جيلا بعد جيل ، مثل آل بختيشوع بن جورجس ، وآل الطيفوري وآل حنين وحنين بن اسحق هو الذي نقل بعض ما كتب أرسطو بأمر المأمون ، وآل ثابت بن قرة الحراني ، وفي مجال التأليف كان عصر المشافهة قد ولى ، وآن شباب التوثيق في مؤلفات القرنين الثاني والثالث ، ثم طور التأليف كما وكيفا ، فظهرت الدراسات المتخصصة ، كما ظهرت الدراسات الموسوعية المتعددة الاهتمامات ، بأحجامها الهائلة ، وقد ذكرنا من أسماء الفقهاء واللغويين والحكماء من لا يصعب الوقوف على ما كتبوا في حقول نشاطهم الخاص وعلى المستوى الموسوعي ، فيما يخص المرحلة التي نعني بها ، يكفي أن نذكر « تاريخ الرسل والملوك » لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) و « مروج الذهب » للمسعودي (ت ٣٤٦ هـ) و « والاغاني » لابي الفرج الاصبهاني (ت ٣٥٦ هـ) و « الفهرست » لابن النديم (ت ٣٨٥ هـ) وهذه المصادر لا يستغنى عنها طالب المعرفة في أي مجال له علاقة بالحضارة العربية ، منذ أقدم عصورها ، وحتى تاريخ تأليف هذه الكتب الموسوعية ، وسنرى في فقرة تالية كيف أضاف القاضي التنوخي من مؤلفات معاصريه ، فضلا عن سابقيه ، ما أتى به سماعه من جلسائه وأساتذته ، مما يدل - في النهاية - على ازدهار حركة التأليف ، فضلا عن الابداع الفني ، والمتنبي وحده (ت ٣٥٤ هـ) يملء قرنا كاملا ، بل هو مضىء الى اليوم وسيبقى كذلك ما بقيت العربية ، والنقد الادبي ، ويكفي أن نذكر : ابن طباطبا العلوي صاحب « عيار الشعر » (ت ٣٢٢ هـ) وقدامة بن جعفر ، مؤلف « نقد الشعر » (ت ٣٣٧ هـ) والآمدي ، صاحب كتاب « الموازنة » (ت ٣٧٠ هـ والقاضي الجرجاني مؤلف « الوساطة » (ت ٣٩٢ هـ) هذه معالم عصر مزدهر بألوان الثقافة المتنوعة ، يقف أبو بكر الرازي ، الطبيب الفيلسوف - علامة شاهقة على بدايته (توفي سنة ٣١١ هـ) ، ويقف بديع الزمان الهمذاني على نهايته (توفي سنة ٣٩٨ هـ) وقد يكون في الانتقال من الطب والفلسفة في البداية الى المقامات

الادبية وصنعتها اللغوية فى النهاية دلالات مختلفة على تحرك مركز الثقل فى ثقافة العصر ، وتمهيده للطابع الخاص الذى سيميز القرن التالى .

لقد ألف المستشرق آدم متز كتابه تحت عنوان : « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » او : عصر النهضة فى الاسلام » ، وهذا الربط أو هذا الوصف له مسوغاته التى تجد أدلتها فى كل أشكال النشاط الفكرى والفنى والعلمى والعمرانى [٢] ولعل هذه الصياغة لعنوان الكتاب ، كانت وراء اختياره لعنوان كتابه عن المرحلة ذاتها فى سلسلة كتاباته عن التاريخ والحضارة الاسلامية ، اذ سماه « ظهر الاسلام » والظهر عالية النهار ، وليس فيما قبله ، أو بعده ، ما يدانيه فى تمامه . لقد أرجع الشيخ محمد الخضرى رقى العلوم فى عصر المأمون الى سببين : أن المأمون نفسه قد اشتغل بالعلم وأمعن فيه ، وان كثرة من العلماء مختلفى الاتجاهات قد وجدت فى عصره [٣] ولعله كان ينبغى عليه أن يضيف سببا ثالثا هو الحرية الفكرية التى أتيحت للعلماء ، بدرجة سمحت بعقد ندوات ومناظرات حتى فى مجلس الخليفة نفسه ، بغير قيود الا أدب المناظرة ، بل يذكر الشيخ الخضرى أنه تناظر فى مجلس المأمون اثنان فى معنى « الامامة » ينصر أحدهما « الامامية » والآخر « الزيدية » يقول الخضرى « وهذان المذهبان كلاهما ان صحا يذهبان بما فى أيدى آل العباس من الامامة ، ولم يمنعه ذلك من ترك حرية القول لهما [٤] . وقد استمر هذا الاتجاه الصاعد فى عصر المعتصم ، وتراجع بعض الشىء فى عصر المتوكل (قتل سنة ٢٤٧ هـ) وتذبذب صعودا وهبوطا فيما بعد ، ولكن باب الحوار لم يغلق على الرغم من تسلط بعض المذاهب المحافظة كالحنابلة ، ونستطيع أن نجد فى صميم القرن الرابع محاورة مشهودة بين أبى سعيد السيرافى النحوى (ت ٣٦٨ هـ) ومتى بن يونس القنائى ، الذى « انتهت اليه رئاسة أهل المنطق فى عصره » حول المنطق اليونانى والنحو العربى [٥] وهى مؤشر مهم عن طبيعة العصر واتجاه التيارات الفكرية . كما سنجد بعض الخلفاء يقرضون الشعر ، ويلحنون ويغنون ، وكان الوزراء من كبار المثقفين ، وحتى أولئك الذين لم يكونوا عربا فانهم لم يكونوا أقل حماسة للثقافة العربية ، كان عضد الدولة البويهى يقول الشعر ويحاور ندماءه فيه ، وكان القاضى التنوخى من جلسائه ، كما كانت له خزائن كتب نادرة ، أقام لها خازنا خاصا ، هو أحمد بن محمد مسكويه ، الذى اختص من الفلسفة بالناحية الخلقية ، فألف « تهذيب الاخلاق » كما ألف كتاب « تجارب الأمم » جرى فيه على نسق خاص ، وهو الاهتمام بمواضع العبرة فى الأحداث التاريخية ، والتعليق عليها تعليق الحكيم المجرب [٦] .

هذا هو الوجه المشرق للقرن الرابع الهجرى ، أما الوجه الآخر فتمثله أوضاع الخلافة فى ضعفها وضياعها بين المتغلبين من قادة الترك ، والديلم ، والمتسللين الى الى مواقع التأثير فى قصر الخلافة من الجوارى والقهرمانات والخصيان ، والطامعين الى الاستقلال من أصحاب الحركات الانفصالية ، كالقرامطة ، والديلم ، والطولونية ، والحمدانية ، وغيرهم ممن عانت منهم دولة الخلافة العباسية أشد العناء .

---

(٢) نقله الى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة سنة ١٩٤٧ م .
(٣) محاضرات فى تاريخ الامم الاسلامية ص ٢٠٦ .
(٤) المرجع السابق ص ٢١٠ . وقد عابت عليه بعض الطوائف والعامة ذلك .
(٥) أوردها أبو حيان التوحيدى فى كتابيه : المقابسات ص ١٩١ ، والامتاع والمؤانسة جـ ١ ص ١٠٤ وما بعدها .
(٦) ظهر الاسلام جـ ١ ص ٢٣٢ .

ان كتاب « الفرج بعد الشدة » سيقدم لنا من خلال أخباره القصصية صورة ذلك العصر السياسية ، وهي لا تزيد على أن تكون سلسلة لا تنقطع من الحروب الداخلية وحوادث النهب والتصفية والمصادرة ، واخراب المدن وكبس السجون وقطع الطريق على القوافل ، تلك التي تحمل رسائل أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، لقد خلع الخليفة القاهر ، وسمل [٧] سنة ٣٢٢ هـ . وأخذ الخليفة الراضي مكانه ، وقد ولد القاضي التنوخي بعد خمس سنوات مضت من خلافة الراضي ، وهذا يعني أنه عاصر خلافة الراضي ، والمتقي ، والمستكفي ، - والمطيع ، والطائع الذي خلع سنة ٣٨١ هـ ، وأعقبه القادر ، الذي ظل خليفه لأكثر من واحد وأربعين عاما ، وقد مات التنوخي بعد ثلاث سنوات في خلافته ، وهؤلاء الخلفاء الستة لم يكن لهم من الخلافة غير الاسم ، وهم بين مقتول ومعزول ومن لا يدرى من أمره شيئا ، فضلا عن أمر المسلمين . وقد كان منصب الوزارة جزءا من هذه الفوضى وصدى لها ، فكان لمن يتغلب على خصمه ، أو يستولي على اقليم ، أو يجزل الرشوة للخليفة . ويكفي أن نقلب صفحات الجزء الثامن من كتاب ابن الاثير « الكامل في التاريخ » ، الذي يرصد الحوادث المستجدة عاما بعد عام ، لنرى الصورة القلقة ، بل المفزعة ، للحياة السياسية والادارية ، وللنظام المختل في ذلك العصر الذي يزهو بالعلماء والادباء . سنكتفي بمجرد اشارة الى أسباب مبايعة المقتدر بالخلافة بعد وفاة المكتفي . لقد فكر الوزير - وهو العباس بن الحسن - فيمن يصلح للخلافة ، فطلب مشورة أصحابه ، وكان عبد الله بن المعتز أكثر المرشحين شهرة ، ولكن مستشار الوزير رفضه ، وقال معللا : « فليتق الله الوزير ، ولا ينصب الامن قد عرفه ، واطلع على جميع أحواله ، ولا ينصب بخيلا فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ، ولا طماعا فيشره في أموالهم ، فيصادرهم ، ويأخذ أموالهم وأملاكهم ، ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والآثام ، ويرجو الثواب فيما يفعله ، ولا يولي من عرف نعمة هذا ، وبستان هذا ، وضيعة هذا وفرس هذا ، ومن قد لقي الناس ولقوه ، وعاشهم وعاملوه ، ويتخيل ، ويحسب حساب نعم الناس » ويعرف وجوه دخلهم وخرجهم . فقال الوزير : صدقت ونصحت ، فيمن تشير ؟ قال : أصلح الموجود جعفر بن المعتضد . قال : ويحك ، هو صبي قال ابن الفرات (المستشار) الا أنه ابن المعتضد ، ولِمَ تأتي برجل كامل يباشر الأمور بنفسه ، غير محتاج اليها ؟

هكذا بويع للمقتدر بالخلافة ، لانه لا يعرف شيئا ، ولا يستطيع أن يباشر الامور بنفسه ومن ثم سيظل أسير ارادة وزرائه ، فلا يستغرب أن تتسلط أم الخليفة ، وقهرمانة قصره ، وقد صار لها الحكم في كل شئون الدولة ، وصارت أعظم المناصب تنال بالرشوة ، ويدل قلق منصب « الوزارة » على هذا الاضطراب العام ، فقد شغله العباس بن الحسن ، ثم ابن الفرات (ابان فتنة ابن المعتز) ثم ابن خاقان ، ثم علي بن عيسى ، ثم ابن الفرات مرة ثانية ، ثم حامد بن العباس ، ثم عبد الله بن محمد (بن خاقان الوزير الاسبق) ثم أبو العباس الخصيبي ثم ابن مقلة ، ثم سليمان ابن الحسن ، ثم أبو القاسم الكلوذاني ، ثم الحسين بن القاسم ، ثم الفضل ابن حجر ، فهؤلاء اثنا عشر وزيرا في أربعة وعشرين عاما . تولى بعضهم الوزارة أكثر من مرة ، لم ينلها أكثرهم عن جدارة ، بل بما بذل من رشوة لا بد أن يستردها مضاعفة ومهما يكن من أمر فقد قتل المقتدر بعد حكم طويل ، وبدأت المشاورات بين أصحاب النفوذ الحقيقي من القادة والحجاب ، وهنا ظهرت مسوغات جديدة لاختيار الخليفة ، أجملها ابن الاثير في عبارات قاطعة قال : « لما

---

(٧) السمل : فقء العين إحمارها بقريب مسمار أو حديدة محماة .

قتل المقتدر بالله عظم قتله على مؤنس (مؤنس المظفر الخادم من أصحاب القوة طوال عصر المقتدر ، وقد شارك فى تدبير قتله) وقال : الرأى أن ينصب ولده أبو العباس أحمد فى الخلافة ، فانه تربيتى ، وهو صبى عاقل ، وفيه دين وكرم ، ووفاء بما يقول ، فاذا جلس فى الخلافة سمحت نفس جدته ، والدة المقتدر ، واخوته ، وغلمان أبيه ببذل الأموال ، ولم ينتطح فى قتل المقتدر عنزان (مادام ابنه قد أخذ مكانه) ، فاعترض عليه أبو يعقوب اسحاق بن اسماعيل النوبختى ، وقال : بعد الكد والتعب ، استرحنا من خليفة له أم ، وخالة ، وخدم يدبرونه ، فتعود الى تلك الحال والله لا نرضى الا برجل كامل ، يدبر نفسه ، ويدبرنا » .

هكذا اختلت مقاييس اختيار الرجال لأَجَلِّ المناصب ، وافترقت بين قطبين متباعدين : فاذا تأتى برجل كامل يباشر الامور بنفسه ، غير محتاج الينا ؟ - و : والله لا نرضى الا برجل كامل يدبر نفسه ، ويدبرنا ، لقد اختير « القاهر » على هذا الأساس الأخير . ولكنه قتل بعد عام ونصف عام لا تزيد ، لانه لم يكن رجل المنصب ، كما لم يكن رجل جماعة المسلمين ، بل كان رجل الصالح ، ومحاور القوة ، واختلاف الظروف ، لا غير .

سيكون « الفرج بعد الشدة » شاهد صدق على عصر المؤامرات ، والاستنزاف الكبير لأهم مصادر القوة فى الدولة الاسلامية : الانسان .

(٢) صورة شخصية

ليس من شك فى أن كتاب « الفرج بعد الشدة » باستطاعته أن يمنحنا جوانب مهمة من حياة مؤلفه العملية ، وملامحه النفسية ، ترتيبا على أن الكاتب - أى كاتب - يعكس جانبا من نفسه فيما يكتب ، فضلا عن دلالة الاختيار للموضوع الذى يؤثره ، وبخاصة حين يكون الموضوع انسانيا ، له مساس مباشر بالحياة الشخصية لكثير من كبراء العصر ومشاهيره ، ومع هذا فان كتب التراجم قد عنيت بايراد بعض التفاصيل التى سيكون باستطاعتها أن تجلو أمامنا صورة هذا القاضي الأديب ، وأسباب اختياره لموضوع الفرج بعد الشدة دون غيره ، وللتنوخى غير هذا الكتاب ديوان شعر وصف بأنه كبير ، يفوق فى حجمه ديوان والده ، وكتاب « نشوار المحاضرة » وقد طبع مؤخرا فى أجزاء ثمانية [٨] وكتاب « المستجاد من فعلات الاجواد » ولكن يبقى الكتاب الذى نحن بصدده أكثر اقناعا لدى كتاب التراجم . وأقدم عبارة مأثورة أطلقها الثعالبي - صاحب يتيمة الدهر - وقد عاصر التنوخى ، اذ عاش الثعالبي بين عامى ٣٥٠ و ٤٢٩ هـ ، وفيها قال مفتتحا ترجمته : « هلال ذلك القمر ، وغصن هاتيك الشجر ، والشاهد العدل لمجد أبيه وفضله ، والفرع المثيل لاصله ، والنائب عنه فى حياته ، والقائم مقامه بعد وفاته ، وفيه يقول أبو عبد الله بن الحجاج (من الوافر) :

اذا ذكـر الـقـضـاة وهـم شـيـوخ ... تخيرت الشـبـاب عـلى الشـيـوخ
ومـن لم يـرض لم أصـفـعـه الا ... بحضـرة سـيـدى القـاضـى التنوخى

---

(٨) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، حققه ونشره عبود الشالجي سنة ١٩٧١ والنشوار هو ما يظهر من كلام حسن ، وهناك مصادر قليلة وحقيقية سماه « نشواة المحاضرة » والكتاب أقل انسكا - من الوجهة الفنية - من الفرج بعد الشدة .

وله كتاب الفرج بعد الشدة ، وناهيك بحسنه ، وامتاع فنه ، وما جرى من القأل بيمنه ، لا جرم أنه أسير من الأمثال ، وأسرى من الخيال » [٩] . وقد ترددت هذه العبارات فيما كتب عن التنوخي بعد الثعالبي وهي تشير بالحاح الى شخصية والده ، وكيف كان الولد صورة أبيه أو مستفيدا من منزلته ، وارثا لمناصبه في الحقيقة . أما أوفى ترجمة له فنجدها عند ياقوت الحموي [١٠] ، وقد أثبت اسمه ، فهو : المحسِّن ـ بكسر السين ـ بن علي ، بن محمد ، بن داود ، ابن الفهم التنوخي ، وكنيته أبو علي ، وقد كان على هذا قاضيا ـ فيما بعد ـ وكان يُكْنَى أبا القاسم ، وهو نفس اسم جده ـ والد المحسِّن ـ وكنيته ، وقد كان قاضيا أيضا وهناك اختلاف محدود في سلسلة نسبه ، فجاء في بعض المصادر « ابن أبي الفهم » بدلا من « ابن الفهم » [١١] ، كما أضاف ابن العماد الحنبل تفصيلا آخر ، فداود بن ابراهيم بن تميم [١٢] وعنه أخذ محسن الامين ـ فيما نظن ـ وأضاف بعدها : القحطاني التنوخي ، وربما كان العكس ، هو الصحيح [١٣]

ومهما يكن من أمر ، فانه بشخصية هذا الوالد : « القاضي أبو القاسم علي التنوخي » يبدأ تاريخ صاحبنا وتتحدد مكانته الاجتماعية ووجهته في التأليف ، فقد كان من أعلام عصره ، مرموق المنزلة ، وقد روعيت هذه المنزلة في اختيار ابنه المحسن لمنصب القضاء وهو لا يزال في شرخ شبابه ، بل أسبغت عليه حماية الوزير أبي محمد المهلبي ـ وزير معز الدولة البويهي ـ الذي يصفه ابن الاثير بأنه « كان كريما فاضلا ، ذا عقل ومروءة » [١٤] وهذا المشهد الذي اختير فيه المحسن لتولي القضاء جدير بأن يروى ، لما له من معاني التواضع والذكاء والافادة من الفرصة المتاحة . يقول :

« نزل الوزير أبو محمد المهلبي السوس (بلدة بخوزستان) فقصدته للسلام عليه وتجديد العهد بخدمته ، فقال لي : بلغني أنك شهدت عند ابن سيار قاضي الاهواز ؟ قلت : نعم . قال : ومن ابن سيار حتى تشهد عنده ، وأنت ولدي ، وابن أبي القاسم التنوخي أستاذ ابن سيار ؟ قلت : الا ان في الشهادة عنده مع الحداثة جمالا ـ وكانت سني يومئذ عشرين سنة ـ قال : وجب أن تجيء الى الحضرة لأتقدم الى أبي السائب قاضي القضاة بتقليدك عملا تقبل أنت فيه شهودا . قلت : ما فات ذلك اذا أنعم سيدنا الوزير به ، وسبيل اليه الآن مع قبول الشهادة أقرب . فضحك وقال لمن كان بين يديه : انظروا الى ذكائه كيف اقتسمها ؟ ثم قال لي : اخرج معي الى بغداد . فقبلت يده ودعوت له وسار من السوس الى بغداد ، ووردت الى بغداد في سنة تسع وأربعين وثلثمائة [١٥] فتقدم الى أبي السائب في أمري ، بما دعاه الى أن قلدني عملا بسقي الفرات ، وكنت ألازم الوزير أبا محمد ، وأحضر طعامه ومجالس أنسه » [١٦] وهكذا صار المحسن قاضيا وهو لايكاد يجاوز العشرين عاما ، وصار محسوبا من خاصة الوزير المهلبي ، ولم يقف الامر عند حضور طعامه ومجالس

(٩) يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٣٤٦ .
(١٠) معجم الأدباء جـ ١٧ ص ٩٢ .
(١١) تاريخ بغداد ص ١٥٥ ـ والنجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٦٨ .
(١٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب جـ ٣ ص ١١٢ .
(١٣) أعيان الشيعة جـ ١٦ ص ٩١ .
(١٤) الكامل في التاريخ جـ ٨ ص ٥٤٧ .
(١٥) لعل هذا سبب نص ياقوت أن المحسن ولد سنة ٣٢٩ هـ خلافا لجميع من ترجموا له ، واعتمدوا على روايته هو نفسه بأنه ولد سنة ٣٢٧ هـ .
(١٦) معجم الأدباء جـ ١٧ ص ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ، وعن مولده راجع ص ٩٢ .

أنسه ، فقد ذكر حادثة تدل على عمق المحبة التي يكنها الوزير له ، والحماية التي يحرص على بسطها عليه ، فقد كان الوزير في مجلس عام ذات يوم ، وكان المحسن عنده ، ثم جاء الحاجب يستأذن لدخول أبي السائب ـ قاضي القضاة ـ وهنا استدنى الوزير المحسن ، وتظاهر بأنه يخاطبه في أمر خاص على جانب من السرية ، وقال للمحسن همساً ـ بينما قاضي القضاة واقف بالباب يرى المشهد ولا يسمع وينتظر اذن الوزير له بالجلوس ـ : ليس بيننا سر ، وانما أردت أن يدخل أبو السائب فيراك تسارّني في مثل هذا المجلس الحافل فلا يشك أنك معي في أمر من أمور الدولة ، فيرهبك ويحتشمك ويتوفر عليك ويكرمك فانه لا يجيء الا بالرهبة ، وهو يبغضك بزيادة عداوة كانت لأبيك ، ولا يشتهي أن يكون له خلف مثلك » ويسجل المحسن لنا صدى هذه العلاقة الخاصة بينه وبين الوزير وأثرها على سلوك قاضي القضاة تجاهه ، فيقول « وجئت من غد الى أبي السائب فكاد يحملني على رأسه ، وأخذ يجاذبني بضروب من المحادثة والمباسطة وكان ذلك دهرا طويلا »

وهناك جانب آخر من شخصية هذا الأب القاضي ، وأشار اليه ابن خلكان صراحة ، وأغفله المحسن ، لما يحرص عليه الابن عادة من اجلال سيرة أبيه ، وتجنب ذكر ما يمس نزاهته ووقاره ، فقد وصف هذا الاب بأنه كان الى فقهه وقضائه : أديبا وشاعرا ظريفا ، وأنه كان من ندماء الوزير المهلبي وسماره ، وتعيين المحسن في منصب القضاء وهو لا يزال صغير السن ، وارهاب قاضي القضاة من أجله دليل على ما كان بين الوزير والأب ، وعبارة ابن خلكان حاسمة بالنسبة لتقرير بعض الصفات . يقول : « كان الوزير المهلبي وغيره من رؤساء العراق يميلون اليه ، ويتعصبون له ، ويعدونه ريحانة الندماء ، وتاريخ الظرفاء وكان في جملة الفقهاء والقضاة الذين ينادمون الوزير المهلبي ، ويجتمعون عنده في الاسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة »[17].

سنجد « اطراح الحشمة ، والتبسط في القصف والخلاعة » في مجالس الرؤساء ماثلة في حياة المحسن أيضا ، كما سنرى ، مع فقهه وقضائه وجده ، بل سنجد الوصف بالظرف وسرعة الخاطر مما اشتهر به ابنه علي ، وكان قاضيا أيضا ، يقول عنه ابن شاكر الكتبي : « وكان ظريفا نبيلا جيد النادرة ، اجتاز يوما في بعض الدروب ، فسمع امرأة تقول لأخرى : كم عمر بنتك يا أختي ؟ فقالت : رزقتها يوم صفع القاضي وضرب بالسياط . فرفع رأسه اليها وقال : يا بظراء ، صار صفعي تاريخك ، ما وجدت تاريخا غيره .

. . . وكان يوما ثانيا ، فاجتاز واحد غث وأزعجه مما يصيح : شراك النعال شراك النعال ، فقال لغلامه : اجمع كل نعل في البيت وأعطها لهذا يصلحها ويشتغل بها . ثم نام . وأصلحها الاسكافي واشتغل بها الى آخر النهار ، ومضى لشأنه . فلما كان في اليوم الثاني فعل كذلك ولم يدعه ينام ، فقال للغلام : ادخله ، فأدخله فقال له : يا ماص بظر أمه ، أمس أصلحت كل نعل عندنا ، واليوم تصيح على بابنا ، هل بلغك أننا نتصافع بالنعال ونقطعها ؟ فقال . يا سيدي أتوب ولا أعود أدخل الى هذا الدرب أبدا »[18] ومع هذا الظرف ، بل هذه « الخلاعة » في استخدام بعض الألفاظ ـ التي تجنبنا ذكر ما زاد فحشه منها ـ لا يتردد ابن شاكر في وصفه بأنه كان شيعيا معتزليا ، وكان ساكنا وقورا »

(١٧) وفيات الاعيان جـ ١ ص .

(١٨) فوات الوفيات جـ ٣ ص ٦٠ ـ ٦٢ .

هذان شعاعان مسلطان على شخصية صاحبنا المحسن التنوخي ، أحدهما من والده أبي القاسم علي التنوخي ، والآخر من ابنه أبي القاسم علي بن المحسن التنوخي ، ولعلهما أن يكشفا جانبا لم ينص عليه مؤرخو حياة المحسن ، وهو ظرفه وتسامحه ، بل حسه الفني الذي يكاد يخرج به عن تزمت الفقيه وجد القاضي .

لم يقف تأثير الوالد على ولده عند حدود ما استوجب من الرعاية من خاصة أصدقائه ، كما رأينا من حدب الوزير المهلبي على المحسن ، مع أن هذا الوالد - نديم المهلبي - كان قد مات منذ عام ٣٤٢ هـ ، أي قبل أن يتولى ابنه القضاء ، بسبع سنين ، فهناك جانب « الوراثة » التي يمكن أن نلمح آثارها في مزاج الابن ونشأته وميوله ، وحرصه على أن يسير على النمط الذي سارت عليه حياة أبيه ، وهناك جانب ثالث لا يقل أهمية فيما نحن بصدده ، فقد شغل هذا الأب منصب القاضي في أكثر من مكان .

١ - رامهرمز ، وهي مدينة من نواحي خوزستان ، نستنتج هذا من قول المحسن في صدر الخبر رقم (٦٣) : أخبرني أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي ، خليفة أبي علي القضاء بها . . . (١٩) .

٢ - الأهواز ، نستنتج ذلك من وصفه لمحمد بن بكر الخزاعي - صاحب ابن دريد - بقوله : « وكان شيخا من أهل الأدب والحديث ، فقد استوطن الأهواز سنين ، وكان ملازما لأبي رحمه الله ، يتفقده ويبره [٢٠] . . . » .

٣ - الكرخ : وهي من ضواحي بغداد وأكثر أهلها من الشيعة . نستنتج ذلك من قوله في اسناد الخبر رقم (٤٤٩) : وحدثني أبي رضي الله عنه قال ، لما كنت بالكرخ ، أتقلد القضاء بها ، وبالبرج وأعمالها ، كان يواني رجل من أهل الكرخ [٢١] .

٤ - البصرة ، وقد نص عليه ابن خلكان ، ونقله عنه أحمد أمين [٢٢] وليس من شك في أن هذا التنقل بين جهات العراق وفارس كان بمثابة المدد الذي لا ينقطع لذاكرة القصاص بالحوادث المتجددة ، والنماذج البشرية المختلفة ، ومثيرا لتداعيات التاريخ القريب والبعيد ، ولن نعجب اذا ، حين نجد مادة كتابه مستمدة من تاريخ العراق وفارس ، في نسبتها الغالبة ، ومن أخبار مدنها وحكايات شعبيها .

وفضلا عن ذلك ، فقد كان هذا الأب مصدرا لبعض الأخبار التي رواها ابنه المحسن ، مبتدئا بما عاشه هذا الأب من تجارب وما شاهد من رجال وحوادث ، أو ناقلا رواية عن غيره ، كما كان مجلسه يجمع أهم أدباء عصره في البصرة بخاصة ، وفيها سمع المحسن من أبي بكر الصولي ، وهو لم يزل حدثا [٢٣] .

لقد مات القاضي أبو القاسم علي التنوخي ، وولده المحسن في الخامسة عشرة من عمره ، واذا فقد قضى في رعاية أبيه أهم سنوات تكوينه الثقافي ، وأفاد افادة مباشرة من « الندوة » الثقافية التي كان يؤمها مثقفو البصرة في بيت هذا

(١٩) - الفرج بعد الشدة جـ ١ ص ١٨٠ .

(٢٠) الفرج بعد الشدة جـ ٤ ص ١٣٣ .

(٢١) الفرج بعد الشدة جـ ٤ ص ٢٣٤ .

(٢٢) ظهر الاسلام جـ ١ ص ٢٤٠ .

(٢٣) محمد بن يحيى بن عبد الله - أبو بكر الصولي - توفي سنة ٣٣٥ وقد ذكر القاضي التنوخي بأنه سمع منه في البصرة في هذه السنة . انظر : الفرج بعد الشدة جـ ١ ص ٣١١ وغيرها .

الأب المحدث الشاعر الأديب ، ولقد كانت البصرة ، الى عصر المحسن ، عاصمة ثقافية هامة ، تتوارث الرواية عن بوادي نجد والحجاز ما يليها ، وتعتبر مستقرا لنوادر الاعراب ومجانهم ، مما أغنى ثقافة هذه المدينة وجعل منها مدرسة محددة الملامح ، شامخة الأثر ، في الشعر واللغة والنحو ، وغير ذلك من مكونات الثقافة العربية التراثية ، ولم تكن النوادر والأخبار كل ما تعلمه وسمعه المحسن في مجلس أبيه ، فقد ذكرت المصادر أنه سمع الحديث النبوي ورواه ويحدد الخطيب البغدادي بداية ذلك بسنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة ، أي أنه سمع الحديث وهو في نحو السابعة من عمره وقد سمع من واهب بن يحيى المازني ، وأبي العباس الأثرم ، ومحمد بن يحيى الصولي والحسن بن محمد بن عثمان النسوي ، وأبي بكر بن دامة ، وأحمد بن عبيد الصفار وطبقتهم ، ونزل بغداد وأقام بها وحدث الى حين وفاته ، وكان سماعه صحيحا (٢٤) . ولا تختلف عبارة ابن خلكان عما قاله البغدادي (٢٥) . أما ابن العماد الحنبلي فان عبارته تشعر بأنه استمر في سماع الأحاديث النبوية حين ترك البصرة الى بغداد ، كما أنه يخالف في أول سماعه فيجعله سنة ست وثلاثين وثلثمائة ، (٢٦) . ولعل هذا أقرب الى القبول ، اذ كان المحسن في التاسعة أو العاشرة من عمره .

لقد تقلب المحسن في وظائف مختلفة وشغل منصب القاضي في أكثر من مكان ، ومما يؤسف له حقا أن المصادر التاريخية القريبة من عصره لم تهتم بأن ترتب هذه الوظائف زمنيا ، مع أهمية ذلك في تحديد أطوار خبراته العملية ، وعلاقة هذه الخبرات بنشاطه التأليفي ، ويمكن اعتبار « نشوار المحاضرة » مصدرا أساسيا للمعرفة بحياته ، من حيث قيام مادته على تدوين ما يدور في المجالس وما يرتبط به من حوادث لم تدون في الكتب ، وقد بذل محقق « النشوار » (٢٧) ـ عبود الشالجي ـ جهدا طيبا في تجميع ما يتصل بحياة القاضي التنوخي مباشرة ، وترتيبه في سياق زمني متصل ، أو شبه متصل . لقد استقر به الأمر في بغداد عقب توليه قضاء القصر وبابل بسقي الفرات ، سنة ٣٤٩ هـ ، وأصبح عضوا في مجلس الوزير المهلبي . ويستنتج المحقق أن المحسن بقي في بغداد حتى سنة ٣٥٥ هـ ، وأن بعض الأعمال المتصلة بالقضاء قد أسندت اليه أيضا في تلك الفترة ، ثم غاب عن بغداد ما بين عامي ٣٥٥ و ٣٦٠ هـ . ثم عاد اليها ليستأنف ما انقطع من وجاهته الاجتماعية التي احتفظ بها برغم هذا الانقطاع . والدلائل تشير الى أنه كان يتولى قضاء واسط سنة ٣٦٣ هـ ، وبعدها لجأ التنوخي الى البطيحة ، هاربا من ابن بقية ، وزير عز الدولة بختيار ، وبقي بعيدا الى أن وثق صلته بعضد الدولة ـ ابن عم عز الدولة وأقوى شخصية في عصره ـ وقد كانت بينهما علاقة خاصة تحتاج قدرا من الاهتمام .

كان عضد الدولة البويهي (توفي سنة ٣٧٢ هـ) أديبا وشاعرا ، وحاكما حازما ، وكان بلاطه يحوي نخبة من الشعراء والأدباء محدودة ، وقد قدم ياقوت وصفا لبعض مجالس السمر في حضرة عضد الدولة ، دل على تنوع ثقافة التنوخي في الشعر والرواية والموسيقى ، مما سنجد عليه أكثر من دليل في تحليل مادة كتابه ، وسنقتطف ما يدل على مزاج القاضي ومنزلته وتطور علاقته . فقد كان يحضر مجالس سمره وفيها الغناء والشرب ، ولكنه كان لا يشرب ، وكان يعد قصائد

---

(٢٤) تاريخ بغداد ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

(٢٥) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٦٠ .

(٢٦) شذرات الذهب في أخبار من ذهب جـ ٣ ص ١١٢ .

(٢٧) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة جـ ١ ص ٢٠ ـ ٢٤ . وفي الفرج بعد الشدة ما يشير الى استتاره جـ ١ ص ١٠٩ . وأنه كان في الاهواز سنة ٣٥٠ هـ جـ ١ ص ١٥٣ .

يمدح بها عضد الدولة في بعض مناسباته الخاصة ، كما كان يراعي منزلة هذا الملك الفارسي اذا ما سمع شيئا من شعره ، حدث أن ذكر أحدهم بيتا من نظم عضد الدولة وهو :

وشرب الكأس من صهبائه صرف ... يقبض خلّى الشروب يد النظار

يقول القاضي التنوخي : « فقطعت المذاكرة ، وأقبلت أعظم البيت ، وأفخم أمره وأفرط في استحسانه ، والاعتراف بأني لا أحفظ ما يقاربه في الحسن والجودة فأذاكر به »[38] هذا اذا : القاضي التنوخي رجل الحاشية وجليس الملوك ، وليس الفقيه أو القاضي ، أو الناقد الأدمي ، ويتأكد هذا حين نراه يقبل الأرض شكرا حين ينعم عليه عضد الدولة بشيء جزيل ، يستمر هذا النمط من الحياة الى أن تحدث الوحشة ، ثم الفرقة والعقوبة . وقد جرى ذلك على مرحلتين ، فكانت السخطة الأولى بسبب تسرب خبر ألقي يشير الى أن الملك بسبيله الى القبض على الصاحب بن عباد ، وقد أسند هذا التسريب الى القاضي التنوخي ، فجفاه الملك خمسة وأربعين يوما ، يشاركه المجلس دون أن يبادله

كلمة أو يرفع اليه وجها ، والقاضي لا يجسر على الانقطاع أو مفاتحة الملك فيما نسب اليه ، الى أن يدافع عن نفسه ويعترف على نفسه بالوشاية بمن سبق أن اختلق الخبر وحمله عنه .

وكان القاضي التنوخي ابان قربه من عضد الدولة قد توسط في عقد مصاهرة بين الوزير الفارسي ، المتغلب ، والخليفة الطائع ، اذ تزوج الخليفة من ابنة الوزير ، ولكنه مع حب لها وشغفه بها ، لم يحاول أن ينجب منها خوفا من تزايد المطامع الفارسية ، وقد فطن عضد الدولة الى معنى هذا الامتناع عن مباشرة ابنته ، فحملت القاضي التنوخي في الأمر ، وحمله رسالة الى الخليفة على لسان والدة الصبية بأنها مسترهنة لاقبال مولانا الخليفة عليها وادنائه اياها . « فقد كنت وسيط هذه المصاهرة . فقلت : السمع والطاعة ، وعدت الى داري لألبس ثياب دار الخلافة ، فاتفق أن زلقت ووثئت رجلي » والحق أن القاضي تمارض ، وتصنع حادثة الانزلاق ورض عظام رجله ، لعله تخوف من الدخول في مرحلة خصومة قادمة بين الخليفة المستضعف ووزيره القوي . والمهمة في ذاتها غير مشجعة ، وهي تختلف كثيرا عن الوساطة في عقد مصاهرة . وقد كشف أمر التمارض ، فصدر أمر الملك للقاضي أن يلزم بيته ، وعزل من جميع مناصبه ، وصودرت أمواله ، واستمر ذلك الى وفاة عضد الدولة[39] . هكذا استحكمت الشدة ، التي انتهت الى « فرج » طال انتظاره ، وكان تأليف كتاب « الفرج بعد الشدة » ، بمثابة نوع من العزاء أو طلب السلوان وتبديد قسوة الانتظار . وهذا يعني أن القاضي التنوخي ألف كتابه وقد جاوز الاربعين من العمر ، وأصبح صاحب تجربة ، ابتلى الحياة وابتلته الحياة ، وسنجده في كتابه هذا يتمتع بقدر عظيم من التسامح ورحابة الصدر ، ينم على حكمة وبعد نظر .

خرجنا لنستسقي بيمن دعائه ... وقد كاد هدب الغيم أن يبلغ الأرضا

فلما ابتدا يدعو تقشعت السما ... فما تم الا والغمام قد انفضا

---

(٣٨) معجم الأدباء جـ ١٧ ص ١٠١ .

(٣٩) معجم الأدباء جـ ١٧ ص ١١٣ - ١١٤ .

وقال متغزلا :

أقول لها والحي قد فطنوا بنا ... ومالي على أيدي المنون براح :
لما ساءني أن وشحتني سيوفهم ... وأنك لي دون الوشاح وشاح

يقول الثعالبي في تقديمه للبيتين الأخيرين : « وأنشدني غيره له ، وأنا مرتاب له لفرط جودته وارتفاعه عن طبقته »[٣٠] وهي عبارة دالة على منزلة التنوخي في الشعر ، أما موقعه ، أو موقع كتابه بين فنون النثر في التراث العربي ، فهو ما يحتاج الى عناية وتفصيل .

٣ ـ صورة كتاب :

نعتمد في التعريف بكتاب « الفرج بعد الشدة » على النسخة التي حققها عبود الشالجي ونشرتها دار صادر بيروت ، سنة ١٩٧٨ في خمسة أجزاء ، مجموع صفحاتها ١٩٧٧ صفحة من القطع المتوسط ، نالت المقدمة الضافية التي ألفها المحقق عن حياة التنوخي ومصادر كتابه والمخطوطات التي اعتمد المحقق عليها ، ثم الفهارس المشروحة في آخر الكتاب ، نالت نحو ثلثمائة صفحة ، وما بقي فانه قسم الى فقرات متتابعة تحت أرقام أضافها المحقق مع عناوين من اختراعه ، تحاول أن تجمل موضوع كل خبر أو قصة ، أو موضع العبرة فيها ، ويتفاوت امتداد كل فقرة ما بين بضعة أسطر ، قد تصل الى ثلاثة أو خمسة في حالات قليلة ، وقد تمتد الى عشر صفحات أو أكثر في حالات محدودة ، أما الغالبية العظمى من هذه الفقرات فتمتد ما بين صفحتين الى أربع صفحات . وبذلك انقسم الكتاب الى ٤٩٢ فقرة متتابعة من الجزء الأول الى آخر الجزء الرابع ، ثم كان الجزء الخامس ، وهو أصغر الأجزاء عدد صفحات ، وقد تضمن آخر أبواب الكتاب ومادته من المختارات الشعرية التي تنضوي ـ بشكل عام ـ تحت هدف « الشدة يعقبها فرج » ، وهذه المختارات تملأ مائة صفحة وتتتابع دون ترقيم ، لتستأثر الفهارس ببقية هذا الجزء الأخير من الكتاب .

وقد أشار المحقق الى أول صلته بالكتاب ، ثم اعجابه به وبمؤلفه ، ذلك الاعجاب الذي حفزه على التوفر لتحقيق كتابيه « النشوار » ثم « الفرج » ، وقد بذل في خدمتها جهدا جديرا بالتقدير والثناء . أما بداية تلك الصلة فترجع الى نسخة مطبوعة نشرتها دار الهلال ، بمصر لم تنل رضاء المحقق ، لما فيها ـ حسب قوله ـ من اختلال ونقص ، فضلا عن حذف الأسانيد والتصحيف « وبالرغم من ذلك ، فقد أفدت منها ، اذ وجدتها قد أثبتت بعض القصص التي سقطت من بقية المخطوطات الأخرى » (١/٨) ونحن لم نطلع على نسخة دار الهلال التي لم يذكر لنا تاريخ نشرها ، وانما اطلعنا على نسخة أخرى نشرت قبل أن يقوم بتحقيق الكتاب بنحو ربع قرن ، قد أشير في صدرها أنها مأخوذة عن نسخة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية ، وهي نسخة كاملة شاملة ، اذا استثنينا احتمال التحريف أو تصحيف بعض الكلمات ، وهي لم تنسب الى محقق ، وقد نشرت في جزءين مجموع صفحاتها ٥١٨ صفحة ، تتابعت على ذات النسق الذي مضت عليه النسخة المحققة ، وليس من المحتمل أن عبود الشالجي لم يطلع عليها فقد قامت بنشرها بالمشاركة : مكتبة الخانجي

(٣٠) يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٣٤٧ .

بالقاهرة ، ومكتبة المثنى ببغداد ، سنة ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م وللكتاب من الشهرة ، وللناشر من الذيوع ، وللمحقق من الشغف الذي تحدث عنه ، ما يجزم بأن اللقاء مع هذه النسخة المنشورة التي أغفل الحديث عنها ، قد تم . ونعود الى محتوى الكتاب ، من خلال عناوين أبوابه .

قسم القاضي التنوخي مادة كتابه في أربعة عشر بابا :

الباب الأول : ما أنبأ الله تعالى به في القرآن ، من ذكر الفرج ، بعد البؤس والامتحان .

الباب الثاني : ما جاء في الآثار ، من ذكر الفرج بعد اللأواء ، وما يتوصل به الى كشف نازل الشدة والبلاء .

الباب الثالث : من بشر بفرج من نطق فال ، ونجا من محنة بقول أو دعاء أو ابتهال .

الباب الرابع : من استعطف غضب السلطان بصادق لفظ ، أو استوقف مكروهه بموقظ بيان أو وعظ .

الباب الخامس : من خرج من حبس أو أسر أو اعتقال ، الى سراح وسلامة وصلاح حال .

الباب السادس : من فارق شدة الى رخاء ، بعد بشرى منام ، لم يشب صدق تأويله كذب الأحلام .

الباب السابع : من استنقذ من كرب وضيق خناق ، بإحدى حالتي عمد أو اتفاق .

الباب الثامن : من أشفى على أن يقتل ، فكان الخلاص اليه من القتل أعجل .

الباب التاسع : من شارف الموت بحيوان مهلك رآه ، فكفاه الله سبحانه ذلك بلطفه ، ونجاه .

الباب العاشر : من اشتد بلاؤه بمرض ناله ، فعافاه الله تعالى بأيسر سبب ، وأقاله .

الباب الحادي عشر : من امتحن من لصوص بسرق أو قطع ، فعوض من الارتجاع والخلف بأجمل صنع .

الباب الثاني عشر : من ألجأه خوف الى هرب واستتار ، فأبدل بأمن ، ومستجد نعمة ، ومسار .

الباب الثالث عشر : من نالته شدة في هواه ، فكشفها الله تعالى عنه ، وملكه من يهواه .

الباب الرابع عشر : ما اختير من ملح الأشعار في أكثر معاني ما تقدم من الأمثال والأخبار .

بعد قراءة عناوين الأبواب ، ونظام تتابعها ، يمكن أن نكتشف أنها لا تخضع لاعتبار واحد ، ومن ثم فانها لا تتكامل ، بقدر ما يمكن أن تتداخل . ان الأخبار والقصص والحكايات التي اختيرت لتأخذ مكانها في هذا الكتاب ، تم انتقاؤها على أساس من الشكل الفني : الشدة ـ الفرج ، وهو أساس سليم ، يعبر عنه بلغة الفن الأدبي بكلمتي : الأزمة ـ الحل . ومن هنا كان ينبغي أن يكون أساس التقسيم فنيا ، يعتمد على نوع الأزمة ، أو أسلوب الحل ، ولكن يبدو أن جانب « الموعظة » في هذه الأخبار القصصية كان الأكثر وضوحا في ذهن المؤلف للرابطة النفسية النابعة من التجربة الخاصة ، ومن جانب آخر فاننا لا نستطيع أن نحمل التنوخي صفة التقصير ، ولم تكن أمامه تجربة رائدة ، كما لم تكن قضايا المنهج مما يهتم له المؤلفون ، وسنرى أنه حتى في اطار هذا التقسيم العام ، في داخل كل باب ، كان التداعي يقوم بالدور الأساسي في تتابع الأخبار والقصص . قبل أي اعتبار آخر .

ان البابين : الأول والثاني استحقا الصدارة لمادتها ذات الصلة بالقرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، وقصص الأنبياء السابقين . وقد تسللت الى بعض هذه القصص أساطير اسرائيلية وغير ذلك دون أن تفقد حقها في الصدارة لمغزاها الديني في نظر المؤلف وبصفة عامة فان فقرات هذين البابين ، وان دخلت تحت عنوان الكتاب ـ فانها خارج طابعه العام ، فأكثرها أدعية وأذكار تقال عند الشدائد ، أثرت عن بعض الأنبياء والصالحين والمكروبين من غير هؤلاء

وأولئك ، وكانت سببا في تبديد هذه الشدائد ، وليس من اليسير اعتبار هذه الأدعية والأذكار قصصا أو أخبارا حتى وان ذكرت المناسبة في عبارات موجزة ، لا تشكل منها عملا فنيا تصويريا ، وهو الطابع العام لهذا الكتاب ومن جانب آخر فان وسائل الفرج أو ظروفه في هذه المأثورات ذات الطابع الديني كانت تسلكها في أبواب الكتاب الأخرى ، ولم يكن من داع لاستقلالها سوى هذه « القدسية » التي أسبغها المؤلف على هذا النوع من الأخبار .

لقد روعي في توزيع الأبواب سبب الشدة غالبا ، كما روعي أسلوب الخلاص منها في أبواب أخرى وأهمل هذان الاعتباران اكتفاء بمطلق الشدة أحيانا ، سبب الأزمة أو الشدة ، روعي في الأبواب الخامس والتاسع والعاشر والحادي عشر والثالث عشر في حين أن أسلوب الخلاص من الشدة قد روعي في اختيار مادة الأبواب : الثالث والسادس ، فان التبشير بالفرج من نطق فأل ، أو بعد منام ، ليس مما يدخل في علاقة السبب والمسبب . وهو ما روعي في أبواب أخرى هي : الرابع والسابع . وفي حين يراعي مطلق الشدة في الباب الثاني عشر ، وهو ما يعني أنه كان من الممكن توزيع مادته على أبواب سابقة ، فان الباب الأخير ، بما اقتبس من أشعار يلمس بدرجة أو أخرى جميع أقسام الكتاب .

ومهما يكن من أمر العلاقة المنطقية المبهمة بين أبواب الكتاب فاننا لا نستطيع أن نوجه لوما الى القاضي التنوخي ، لقد كان « الاستطراد والتذكر بالمناسبة » أسلوبا مقبولا لتأليف الكتب ، وبخاصة تلك التي تعتمد على الرواية والرواة ، فهذا التعويل الشديد على المشافهة والسماع يجعل المادة الكلامية في حالة من الاستقلال والتشابك في الوقت نفسه : الاستقلال بذاتها دون وقوف عند موضع الشاهد ، أو بيت القصيد أو العبرة ، لأن الراوي لا بد أن يؤدي الخبر كما انتهى اليه بكل ملابساته ، ثم يكون التشابك من خلال مسارب متعددة ، فقد يسترسل الراوي نفسه في قصص أخرى لا يستبعد أن تخالف أو تناقض ما سبق أن رواه ، وقد تشبهه في المغزى وتختلف في الشخصيات التي صنعت الخبر ، أو العصر الذي تنتمي اليه . قبل التنوخي بقرن ونصف القرن تقريبا ألف الجاحظ كتابه الشهير « البخلاء » ، وهو محكوم بعنوانه مثل « الفرج بعد الشدة » ومع هذا فان الجاحظ لم يبذل جهدا في تقسيم مادته حسب العصور أو البيئات أو أنواع السلوك التي يمتثلها البخلاء .

وبصفة عامة ، فاننا يمكن أن نلمس الاعتبارات التي يرجح أن الكاتب وضعها موضع الاعتبار عن قصد أو مستهديا حسه الفني دون أن يقصد الى ذلك قصدا .

أول هذه الاعتبارات : التدرج في تنمية الشكل الفني من البساطة الى التعقيد ، ومن الايجاز الى الاطالة والاشباع ، ومن الغيبي الديني ، الى الواقعي الاجتماعي . يبدأ بالأدعية والأذكار في مواطن الشدة التي تعرض لها الأنبياء ، من آدم الى محمد عليه السلام ، ويغادر الأنبياء وقصصهم الى من يلوذ بهم من الأولياء والصالحين . كما يغادر « المعجزة » الى « الكرامة » ثم يمضي الى المواجهة بين ذوي السلطان ومن يدور في فلكهم من الوزراء والعمال أو المواجهة بين واحد من هؤلاء وشخص مغمور وقعت به الحوادث المستجدة الى براثنهم فنجاه الله بموعظة أو كلمة صدق ، ثم يتدرج الى قصص اللصوص وقطاع الطرق وحيلهم وما حاق بالناس من شرهم ، وحين يبلغ الباب قبل الأخير ، وقد عقده لقصص المحبين والعشاق فانه يكون قد بلغ أعلى درجات التركيب الفني جودة ، كما يتمكن من اتخاذ قصة الحب هذه وسيلة الى

الغوص في حياة المجتمع - بكل طبقاته تقريبا - والغوص الى أعماق جديدة في النفس الانسانية لم يبلغها في قصصه السابقة .

الاعتبار الثاني : استدرار المادة القصصية بطريق التداعي ، وقد أشرنا الى هذا الجانب منذ قليل ، فعلى الرغم من توزيع مادة الكتاب في أبواب ذات عناوين تحاول أن تكون محددة - وهذا ما لم يتحقق - فان التداعي داخل قصص الباب الواحد قد لعب الدور الأساسي في ترتيب هذه القصص ، للأسباب التي أسلفنا ، ونتيجة لذلك فان طابع « المسامرة » قد غلب على الكتاب وقد كانت « المسامرة » - التي يفضل القاضي التنوخي أن يدعوها « المذاكرة » مصدرا رئيسيا لامداده بالقصص في مجلس أبيه ، وقد ترددت هذه العبارة في صدر عدد من قصصه : « حدثني أبي في المذاكرة ، من لفظه وحفظه ، ولم أكتبه في الحال ، وعلق بحفظي ، والمعنى واحد ، ولعل اللفظ يزيد أو ينقص » بل انه ينص على هذه المذاكرة في عنوان كتابه الآخر « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » .

ويمكن أن نحصر أنواع التداعي التي استخدمت في ترتيب القصص في الآتي :

أ - تداع مصدره شخصية « البطل » الذي يدور الخبر من حوله ، مثل ذكره لأبيات دلس بها الشاعر البحتري على « المعتز » في سجنه قبل أن يصير خليفة (٢/ ٢١) فتستدعي أبيات البحتري الى خاطره أبياتا أخرى قالها لشخص آخر وقع في شدة ، وذلك هو أبو سعيد الثغري الذي سجنه المتوكل وصادر أمواله ، فتألم له البحتري في أبيات ، كان وصولها الى أسماع المتوكل سببا في اطلاق الثغري من حبسه ، وتوليته (٢/ ١٦) ثم يقول في الخبر التالي : « ومن محاسن شعر البحتري ، الذي يتعلق بهذا الباب ، وان كان تعلقا ضعيفا ، الا أن الشيء بالشيء يذكر ولا سيما اذا قاربه » ، ثم يأتي بأبيات للبحتري قالها مهنئا ابراهيم بن المدبر حين فرج الله شدته ، بعد أن سقط في أسر الزنج ، وتمكن من نقب السجن والهرب (٢/ ١٨) ونستطيع أن نقول ان التداعي الذي يرجع الى شخصية البطل لم يستخدم كثيرا ، والقصص والأخبار الخاصة بالرشيد ، والحجاج ، والبرامكة ، والمنصور ، والمأمون ، على كثرتها النسبية ليست متتالية ، وأحيانا ليست متقاربة اذ احتكم فيها الى اعتبارات أخرى .

ب - تداع مصدره شخصية الرواي ، أو الكتاب الذي ينقل عنه ، وبالنسبة لشخصية الراوية فانه نقل كثيرا عن الصولي ، كما تتكرر عنده سلسلة الرواية عن أبي قيراط وولديه (٢ / ٤٣) و (٢ / ٥١) و (٢ / ٥٢) . وقد يحدث أن يعتمد على النقل من مصدر واحد قصصا متتابعة ، وبخاصة حين يكون هذا المصدر محدد الموضوع ، ومن ثم يمكن أن تتجمع قصصه وأخباره في اطار معنوي واحد . وقد حدث هذا كثيرا عند النقل عن الجهشياري (٢ / ٣٤٦) و (٢ / ٣٥١) و (٢ / ٣٥٥) و (٢ / ٣٥٧) وجدير بالذكر أن المصدر واحد ، وهو كتاب الوزراء والكتاب ، والموضوع واحد أيضا ، حسب ما شرط على نفسه في توزيع الأبواب ولكن البطل مختلف في كل قصة ، بل ان الموضوع يختلف كثيرا اذا دققنا في مغزاه وتركيبه ويحدث الأمر نفسه عند النقل عن المدائني (انظر مثلا القصص في الصفحات : ١ / ٣٩٦ - ١ / ٣٩٧ - ١ / ٣٩٨) ولا نستطرد في هذا الجانب الواضح ، أما تداعيات الراوية أو السلسلة من الرواة فانها أقل تأثيرا ، بالاضافة الى أبي قيراط ، يمكن أن تجد قصصا متتابعة من رواية : يحيى بن فهد الأزدي (٤ / ١٦٦) وسعد بن محمد الأزدي ، الشاعر المعروف بالوحيد (٤ / ١٧٧ - ٤ / ١٨٠ - ٤ / ١٨١) وعبد الله بن محمد الصروي ، كما تكررت سلسلة : علي بن أبي الطيب ، عن ابن الجراح ، عن ابن أبي الدنيا ، متقاربة ومتباعدة .

ج ـ تداع مصدره المغزي الدقيق للحادثة ، أو المعنى اللغوي لها ، من النوع الأول ما حلم به الاسكندر الأكبر ، اذ رأى في منامه كأنه صارع دارا ـ ملك الفرس ـ فصرعه دارا ، فكر به ذلك وزاد همه ، ولكن عبارة الرؤيا أشارت الى أن الاسكندر هو الذي سيظفر بخصمه وقد قال له بعض فلاسفته معللا : « أبشر أيها الملك بالغلبة والنصر ، فانك تغلب دارا على الأرض : لأنك كنت تليها لما صرعك (٢ / ٣١٥) ويستدعي هذا رؤيا رآها عبد الله بن الزبير ابان صراعه مع عبد الملك بن مروان ، فصرع عبد الملك ، وسمره في الأرض بأربعة أوتاد . وقد فسر ابن سيرين هذه الرؤيا بانتصار عبد الملك ، للأسباب ذاتها التي أعلنها الفيلسوف اليوناني (٢ / ٣١٦) ويزيد تفصيلا أن الأوتاد الأربعة هم أولاد عبد الملك الأربعة الذين يرثون ملكه من بعده . ويستدعي هذا حلما ثالثا بنفس المعنى وان اختلف الشكل (٢ / ٣١٨) .

أما التداعي اللغوي فنجده ماثلا في حادثة الخلع الثاني للخليفة المقتدر ، يرويها فتذكره بخلع الأمين ، مع فارق في الدوافع والنتائج ، يستدعي منه أن يعود الى حادثة الخلع الأول للمقتدر (٣ / ١٩٣ ـ ٣ / ١٩٨ ، ٣ / ١٩٩) .

الاعتبار الثالث : الاهتمام بتوثيق المادة المروية ، سواء كانت تاريخا مرويا أبطاله أشخاص معروفون ، أوكانت مجرد أخبار عن نكرات من عامة الناس ، أو كانت حكايات وضعت لسبب أو لآخر ، كالوعظ والتعليم ، وظلت واضحة الاختراع والوضع برغم ذلك .

لقد حرص القاضي التنوخي على تسجيل كيفية وصول الخبر أو القصة اليه ، ومن هنا كثر ترديد كلمات : حدثني ، أخبرني ، حدثنا ، أخبرنا ، اذا ما كانت المشافهة والسماع طريقة التوصيل ، وكلمات : وجدت بخط القاضي أبي جعفر (١ / ٣٣٣) ، وقد ذكر محمد بن داود في كتابه المسمى كتاب الوزراء (٢ / ٢٦٤) ، وما الى ذلك من عبارات تؤكد صلته المباشرة بالمصدر الذي نقل عنه . وسنعود الى هذه النقطة بشيء من التفصيل حين نناقش مصادر المؤلف .

الاعتبار الرابع : أن المؤلف التزم بحدود العنوان الذي اختاره لكتابه ، ومع معرفتنا بتكوينه الثقافي الذي تغلب عليه طبيعة الفقيه ، ونشاطه العمل الذي لا بد أن يكون قد اصطبغ بصبغة القاضي ، فانه لم يحتكم الى فقهه أو قضائه في انتقاء مختاراته من الأخبار والقصص والحكايات الشعبية ، لقد كان يمتلك حسا فنيا رحبا ، يهش لروعة المفاجأة ويستجيب لمواطن المفارقة ، ويتجاوب مع الفرح بالحياة ، سواء اتفق هذا مع جد الحياة ، وعدالة السلوك والحكم أو ناقضه ، وربما دلت الأبيات القلائل التي اقتبسناها له على شيء من ذلك ، ومن الواضح أن قبوله منادمة مشاهير عصره ، وبخاصة عضد الدولة ، وقبول أن يكون شاهدا لما في هذه المجالس من مخالفة ما ينبغي التزامه ، حتى وان لم يشارك في الفعل ، يدل على هذا التسامح السلوكي ، ولا بد أنه كان يستجيب بطبعه الى هذه الحياة ، وقد ذكر في « الفرج بعد الشدة » قصة صاحب الشرطة الذي رفض أن يكون نديما للخليفة ، لأن هذا يناقض طبعه وانضباط مهنته ، وبعد جفوة قصيرة ، قبل منه الخليفة هذا التفسير ، بعبارة أخرى : لو أن القاضي التنوخي لا يملك رغبة دفينة في تذوق مباهج الحياة ومشاهدة مسراتها ، ما استطاع أحد اكراهه على ذلك .

هذه صورة شديدة العمومية للكتاب ، تحتاج الى أن نعود الى تأمل نواحيها بشيء من التفصيل .

(٤) حس الفنان

لم يكن القاضي التنوخي مبتدع عنوان « الفرج بعد الشدة » ، فهو مسبوق اليه ، كما سترى ، ومع هذا فان هذا الاختيار لعنوان كتابه ، يبدو وكأنه صادر عن نفسه ، معبر عن رؤ يته لنظام الكون ، ونظام الحياة . لقد اجتاز محنة شخصية كانت هي الدافع المباشر لتأليف الكتاب ، ولكننا نعرف أن « نقطة التحريك » التي تدفع كاتبا ما الى الاهتمام بموضوع معين ، لا تعني بالضرورة أن تظل هذه النقطة أو هذا الحافز الشخصي ، يظل مسيطرا على أفكار المؤلف ، والا لتشابهت الكتب ذات الموضوع الواحد ، أو الحافز الواحد . سيعود الأمر الى حجم ذخيرة المؤلف من المعرفة ، ومدى انفساح عقله وروحه للموافقة أو المخالفة ، ودرايته الفنية بأساليب القول ، وقدرته على استبطان ما هو ظاهر ، والغوص الى الرموز والدلالات . وفي كل هذه الجوانب ودون أن نعمد الى الموازنة التفصيلية بين ما كتب التنوخي وما كتب سابقوه في إطار الفرج بعد الشدة ، قدم التنوخي من براهين اتساع الأفق ، والقدرة على الغفران ، والحدب على الضعف الانساني ومجانبة التزمت والعنف ، ما يؤكد امتلاء نفسه بحس الفنان واستنارة بصيرته ، حتى ان ذلك كان يؤدي به أحيانا الى الخروج عما شرط على نفسه في عنوان كتابه ، والى مجانبة الجد ، بل مناقضة الهدف الأخلاقي الذي حرص عليه أحيانا ، وأهمله أحيانا ، من زاوية أن « الأخلاق » ليست شرطا للفن الجميل ، وهذه مقولة لم يبتدعها القاضي التنوخي ، وقد عرفت قبل عصره فرددها الجاحظ في كتاباته ، وبخاصة في « المحاسن والأضداد » وافتتح بها محمد بن سلام الجمحي كتابه « طبقات فحول الشعراء » (٣١) ، ثم نص عليها قدامة بن جعفر صراحة (٣٢) وهو يكاد يكون معاصرا للقاضي التنوخي (توفي قدامة سنة ٣٣٧ هـ) فلا نستغرب ان نجد هذا القدر من « التسامح » في الكتاب ، فهو، على أية حال ، مسبوق بتسامحه السلوكي ، النابع من احساس الفنان ، ورجل الحاشية معا ، لقد اقتنع القاضي التنوخي بأن وراء كل شدة فرجا و ان الله بحكمته ، أجرى أمور عباده ، وأغلبه نعمته ، منذ خلقهم ، والى أن يقبضهم ، على التقلب بين شدة ورخاء . . . علما منه تعالى بعواقب الأمور ، ومصلحة الكافة والجمهور (١ / ٥٤ ، ٥٥) .

ان الأساس الغيبي القدري ثابت عند المؤلف ، فالفرج من الله سبحانه وهو مسبب الاسباب ولهذا يبدأ كتابه بآيات اليسر الذي يقاوم العسر ، ومن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ثم يثني بما ابتلى به الأنبياء من محن ، وكيف ذهب الكيد البشري هباء حين أرادت السماء أن تنصر رسلها ومع هذا فان المشاركة الانسانية في رفع البلاء عن المكروبين من القيم الدينية الثابتة ، فاذا جاء الحديث الشريف بأن : « أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج من الله عز وجل » (١ / ١١) فقد نص حديث آخر على أن : « من ستر أخاه المسلم ستره الله يوم القيامة ، ومن نفس عن أخيه كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، وان الله في عون العبد ، ما كان العبد في عون أخيه » (١ / ١٢١) وبعد اقرار هذين المبدأين : أن الفرج من الله ، وأن هذا لا يعفي الانسان من مشاركة الآخرين في التغلب على مصائبهم يسجل القاضي التنوخي رسالة الشاعر أبي الفرج الببغاء التي أرسلها اليه ابان محنته حين صرفه عضد الدولة عن جميع

(٣١) طبقات فحول الشعراء ، المقدمة ، وانظر : مقدمة في النقد الأدبي ص .

(٣٢) في كتابه : نقد الشعر ص ١٥ .

وظائفه واعطله في بينه ، وفيها يكشف عن قانون كوني لاانفكاك منه ، هو دورة الكون والفساد ، وتلازمهما ، فلكل شيء اذا ما تم نقصان ، لهذا من حقنا أن نغتبط عند احتكام الأزمة ، والشداد الضائقة اذ ليس بعد ذلك الا الفرج؛ لأن انتهاء الشيء الى حده ، ناقل له عما كان عليه الى ضده ، فتكاد المحنة بهذه القاعدة ، لاقترانها من الفرج بفسيح الرجاء ، وانتهاء الشدة منها الى مستجد الرخاء ، أن تكون أحق بأسماء النعم » (١ / ١٥٣) .

ثم ينتقل المؤلف الى اضافة أخرى ، يعالج بها مرحلة « التوقع » للشدة ، وهي عادة تسبق مرحلة « الوقوع » فيها ، وهو يرفضها من منطلق فلسفي يعتمد على مبدأ « الاحتمال » فما دام وقوع الشدائد مجرد احتمال ، لا يرتفع الى درجة المستحيل الوقوع ، ولا الى المحتم الوقوع فان نسبة الحدوث تساوى ونسبة عدم الحدوث ، ومن هنا « لا يغلبن على قلبك ، اذا اغتممت ما تكره دون ما تحب فلعل العاقبة تكون بما تحب ، وتوقى ما تكره ، فتكون كمن يستسلف الغم والخوف (٣٣) .

ثم تكتمل رؤية القاضي التنوخي بربط الفعل البشري بالارادة الالهية فاكتمال هذه الارادة ونفاذها لا يعني تعطيل الفعل البشري أو عبث السعي عن حل لما يعاني الانسان ، فهناك دائما دور أساسي للفكر الانساني ، والفعل الانساني ، والحيلة الانسانية ، واذا بذل الانسان جهده كله في البحث والمحاولة ، فانه لا بد واجد وسيلة ، فاذا عجزت الوسائل ، فانه لم يعد أمامه الا انتظار الفرج من الله تعالى . (١ / ١٦٣)

هذا ـ اذا ـ الاطار العام الذي تحرك فيه معنى الشدة ، وجهد الانسان في البحث عن مخرج ، أو عن « فرج » يقاوم به معاناته ، ولانه أعطى الجهد الانساني دورا أساسيا فان هذا الجهد ، من حيث يحتكم الى نظرته الخاصة ، وتجاربه السابقة وأسلوبه في العمل ومستواه في التفكير ، وطبيعة المجتمع الذي يتحرك بين أطاره ، يمكن لهذا الجهد أن ينساق الى أعمال وأقوال ، تبتعد ـ بدرجة أو بأخرى ـ عن مفهوم الفرج الالهي ، الذي ينتظر ـ عادة ـ هناك ، في نهاية المطاف ، عندما تعجز كل الوسائل البشرية ، ومن ثم يمكن لهذا الجهد أن يقع في مخالفات دينية واضحة ، وهفوات سلوكية لا خلاف على خطئها ، ومجانبة للعفة والنزاهة والصدق . والجدير بالتأمل حقا أن القاضي التنوخي قد سجل ست عشرة قصة ، أو خبرا من هذا النوع ، دون أن يرفقها بأي تعليق يظهر ما تقوم عليه من تناقض أو مخالفة ، وهنا لم يكن فقيها يبحث في الحلال والحرام ، وما يجوز وما لا يجوز ، ولم يكن قاضيا يعني باصدار الاحكام على كل ما يشاهد من أفعال ، وما يسمع من أقوال ، لقد كان فنانا وحسب . كانت الحاسة الفنية تؤدي واجبها في التقاط الحادثة النادرة ، وتسجيل الحوار المتسم بالذكاء والالمعية ، واصطياد الحل المفاجيء غير المتوقع وتحليل المواقف الطريفة ، دون أن يشغل نفسه باصدار الاحكام الاخلاقية على هذا كله ، أو على شيء منه ، وجدير بالذكر أن هذا النوع من القصص والاخبار ينتشر على مساحة الأجزاء الأربعة الأولى ، المخصصة للقصص والأخبار ، وهذا يعني رسوخ الايمان الفني والاقتناع بالمفهوم العملي للفرج ، هذا المفهوم الذي ينهض على التصور الاجتماعي لمعنى جلاء الهم ، وكشف الغم ، بصرف النظر عن طبيعة هذا الغم ، والأسلوب الذي اتبع في كشفه .

---

(٣٣) الفرج بعد الشدة جـ ١ ص ١٥٥ ، والتنوخي ينقله عن سليمان بن يحيى بن معاذ .

أول ما تصادف من قصص هذا النوع ما نقله عن بعض الكتب : أن رجلين أتي بهما الى بعض الولاة ، وقد ثبت على أحدهما الزندقة ، وعلى الآخر شرب الخمر . فسلم الوالي الرجلين الى بعض أصحابه ، وقال له : اضرب عنق هذا ؛ وأشار الى الزنديق ، وحد هذا وأشار الى الشارب .

وقال : خذهما

فلما ذهب بهما ليخرجا ، قال شارب الخمر للوالي : أيها الامير ، سلمني الى غير هذا ليقيم عليّ الحدّ ، فلست آمن أن يغلط فيضرب عنقي ، ويحدّ صاحبي ، والغلط في هذا لا يتلافى .

فضحك منه الأمير وخلى سبيله ، وضرب رقبة الزنديق (١ / ٣٣٨) .

ومثل ذلك ما يروى في خبر آخر ، أن رجلا قامت عليه البينة بالسرقة ، ووقف أمام عبد الملك بن مروان ، ليأمر باقامة الحدّ عليه ، فأمر بقطع يده . فأنشده الرجل بيتين ، يتحسر على يده ، ويبتهل الى عبد الملك أن يعفو عنه ، فكان رد الخليفة : هذا حد من حدود الله تعالى ولا بد من اقامته عليك .

وهنا تكلمت أم المحكوم عليه ، وهي كبيرة السن ، تستعطف أمير المؤمنين لابنها الذي يعولها وانه ابنها الوحيد ، وتسأله أن يهبه لها . ولكن قلب الخليفة لم يلن لرجاء العجوز ، ووصف ابنها بالسوء ، وأنه لا بد من اقامة حدود الله عز وجل .

وهنا قالت العجوز : يا أمير المؤمنين ، اجعله من ذنوبك التي تستغفر الله منها ، وهنا أمر عبد الملك باطلاق الفتى والعفو عنه (١ / ٣٧٥) .

في هذين الخبرين يعطل حد شرعي ، في مقابل المفارقة اللاذعة ، والنكتة المحبوكة التي لجأ اليها السكران في الخبر الاول ، وأروعة التعبير وقدرته على تحريك مخاوف الانسان ، وبخاصة من يتصدى للحكم ، ويعرف أنه ليس معصوما من الخطأ ، ولعله ظلم أو أخطأ من قبل ، وأنه لا بد قد اقترف ذنوبا أعظم من « خطيئة العفو » عن ولد وحيد يعول أمه العجوز ، في الخبر الثاني .

أما أعشى همدان ، وكان من شعراء الكوفة وفقهائها في زمن الحجاج ، فقد غزا مع الجيش الاسلامي بلاد الديلم ، فوقع في أسرهم مدة ، وحبس في بيت القائد الذي أسره ، وكان لهذا الديلمي بنت ، رأت الأعشى ، فهوته ، وتسللت اليه ليلا ، فكان ما كان بين الأسير والفتاة وأعجبها ، فعرضت عليه أن تعاونه على الهرب ، على شريطة أن يأخذها معه ، ويصطفيها لنفسه وهكذا هرب أعشى همدان (٢ / ١٢٢) .

أما ابن الموصول ، وهو بزاز (تاجر حرير) من حلب ، فقد حبسه سيف الدولة لضرائب كانت متأخرة عليه ، وكان ابن الموصول حاذقا في تفسير الاحلام ، ومن ثم اخترع لنفسه حلما ، تفسيره أنه لا بد أن يطلق من حبسه هذا اليوم وعلى الفور طلب مقابلة سيف الدولة ، وحكى له رؤياه الملفقة ، وفسرها بين يديه بأنه يجب اخراجه من الحبس في نفس اليوم ، فقال له الأمير :

أحسنت التأويل ، والأمر على ما ذكرت ، وقد أطلقتك ، وسوغتك خراجك في هذه السنة فخرج الرجل يشكره ، ويدعو له [٣٥] (٢ / ٢٢١) .

وفي قصة طويلة نجد مناما آخر ، حلم به الخليفة العباسي المعتضد على الله ومضمونه أنه رأى النبي عليه السلام في المنام ، وأنه أمره باطلاق سراح رجلين مظلومين في سجونه ، فاستيقظ من غفوته وأمر باطلاقهما ، وسمع منهما أسباب حبسهما ، وعرف أنهما مظلومان . لاغرابة في أن يرى انسان ما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في منامه ، ولكن الغرابة أن الخليفة قبل أن يغفو كان جالسا بين ندمائه يسمر ، فحمل عليه النبيذ ، فجعل يخفق برأسه نعاسا (٢ / ٢٤١) فكما نرى فانه في حال لايصح معها أن يرى رسول الله في منامه . والمثير للتأمل أن القاضي التنوخي يورد القصة ذاتها برواية أخرى ، ويكون هاتف المنام فيها رجلا مجهولا وليس النبي عليه السلام ، وفي هذه الرواية الثانية يوصف خليفة المسلمين بأنه كان كثير الشراب وانه اذا شرب يعربد على جلسائه ، وأنه في الصباح ، حين ذكر امامه اطلاق سراح الرجلين المحبوسين لم يذكر شيئا مما أمر به وهو تحت تأثير الخمر ، والقاضي التنوخي يسجل الروايتين دون ان يشكك في صدق رؤية النبي في الاولى ، أو بعد الاحتمال في الثانية . ان الفرج قد أدرك السجين ، وهذا هو جوهر الموضوع ، هكذا تتعدد المواقف التي يسرع فيها و الفرج » ولا يستحقه كجائزة على سلوك أخلاقي ، أو اعتقاد صالح ، أو صبر جميل ، أو بذل طيب . ان الفرج ـ فيما تقدم ـ ثمرة ذكاء يخلق ، أو يلفق أو يحتال ، أو يتوهم ، وهو في هذا كله يصدر عن سلوك نفعي ، وموقف انتهازي ، ومن أحسن الاحوال ، أوهام الغيبية . ونجد في قصص أخرى ما هو أشد مناقضة لمعنى الفرج مما تقدم ، ففي أسوأ التصورات لا نجد أحدا ممن تقدم قد أنزل الضرر بشخص آخر ، وان حصل لنفسه منفعة عاجلة ، أو أزال عنها خسارة متوقعة . أما النماذج التي سنعرض لها الآن ، فانها تصرح بالتجني على بريء ، والخلاص حتى تضحية بلا جريرة ، والتعدى على حرمات تستحق أن تصان ، وتصان أعراض أصحابها .

فهذا ابن قمير ، مجلد الكتب بالموصل ، يأخذ دفترا لتجليده لأحد القادة الأشداء ، الذي يسرف في توصية ابن قمير بالحرص على الدفتر ، لكنه يسقط في الماء عند قيامه بالوضوء من النهر ، فيدركه وقد ابتل ، ولا يجد مفرا من أن يجلده ويحاول ستر ما حدث دون جدوى ، ويعزم على اعطاء الدفتر لحارس الباب ، والانصراف والهرب قبل ادراكه ، لكن حارس الباب يعلمه أن القائد بالداخل ، والاوفق أن يقدم له الدفتر بنفسه ، وهكذا أسقط في يده وتوقع شر عقوبة .

ولكنه حين أدخل وجد القائد الشرس يجلس في صحن القصر أمام بركة ماء . وأخرج ابن قمير الدفتر من كمه وناوله لأحد الغلمان ، ولكنه سقط من يد الغلام في البركة أمام عيني سيده ، الذي أنزل بالغلام المسكين عقوبة الضرب بالمقارع ، لأنه أفسد دفتره العزيز !! (٣ / ٩٧) فأي فرج ، وأي ظلم ؟

وتتكرر قصة من تسوقه ظروف قاسية الى مكان موحش ، فيجد فيه لصوصا وقتلة ، قد قتلوا نفوسا بريئة ، وسرقوا مالا حراما ، فيقاتلهم ويهرب بمسروقاتهم ، ويظهر في مكان آخر وقد صار من الأثرياء ، دون أن يطرف له رمش ، ودون أن يطلق المؤلف في أعقابه عبارة تعجب ، فضلا عن استنكار (٣ /٦٩ ، ٤ / ٢٥٠) بل أن منتهب قاطع الطريق ، وقد استولى على كل ما خبأ يقول بلهجة تستطيع أن تجد نغمة المباهاة في تركيبها : « وفزت بمال عظيم أغناني عن مقصدي وعدت الى بلدي » .

---

(٣٥) ويمثل ذلك ما يذكره في مكان آخر ، أن أحدهم زور مناما فيه مطابقة للحقيقة (٣ / ٩٨) .

ولا يختلف عن ذلك كثيرا ما فعله ابن عبدون الانباري الكاتب ، وقد خرج من بغداد لا يجد قوت يومه ، ثم تسوقه الظروف الى مصر ، ابان ثورة أقباطها في عصر المأمون ، فلما جاء جيش الخلافة هرب كثير من الأسر ، ثم منحوا الأمان ، وجنى ابن عبدون من رشاوي بذل الأمان « في ليلة واحدة ، مائة ألف دينار حلالا طيبا » (٣ /٨٣) أما سلامة القس فقد استمعت الى نصيحة ابن أبي عتيق ، وتمكنت من الغاء قرار عثمان بن حيان المريّ ، والي المدينة ، بتطهيرها من الغناء والزناء ، فبقي كل شيء على حاله ، وكان الفرج (٣ / ٨٩) وحين نصل الى قصص عشاق العرب فان الفرج سيكون أبدا ماثلا في خداع الزوج ، أو الضمير العام ، وتمكن العاشق من بلوغ مرامه من معشوقته فالأشتر يعشق جيداء ، وهي زوجة ، ويضرب لها موعدا عند الشجيرات ، « ولقيها فقبل بين عينيها » وقررت أن تقضي ليلتها معه وتخدع زوجها عن غيابها ، فترسل بصديق عشيقها وقد ارتدى ثيابها ونام في فراشها الى الصباح ، وجازت الخدعة على الزوج الضحية ونعم الحبيبان بليلة ليس فيها رقيب ، أما الأسدي الذي هوى امرأة من همدان بالكوفة فإنه أثار قلق جيرانها ، فراقبوه ، حتى اذا دخل عندها اقتحموا المكان ليضبطوه متلبسا ، ولكن هيهات ، لقد جاءه الفرج بطريقة غير متوقعة ، كانت المرأة بدينة جدا ، فوضعت حبيبها ويبدو أنه كان على العكس منها ضئيلا جدا ، خلف ظهرها « فأدخلته بينها وبين القميص ، ولزمها من خلفها » وبهذا لم يعثر عليه ».

وتتكرر فعلة الأشتر وجيداء والزوج المخدوع ، مع جميل وبثينة وزوجها ، غير ان الحبيبين يلتقيان في خيمة بثينة ، وراحا يتحدثان وهما مضطجعان ، وذهب بهما النوم حتى أصبحا ، ورآهما خادم الزوج الذي ما لبث أن أبلغ سيده بما عاين ، ولكن حيل العشاق لا تغلبها معاينة ولا ملاينة !!

لقد حاول القاضي التنوخي أن يضع في سياق قصص العشق ما يوحي الى القارىء بأنها لم تفض الى ارتكاب محرم ، أو الى الزنا على وجه التحديد ، فالأشتر يقبل بين عيني جيداء ، ثم يقطعان الليل في الحديث والشكوى ، وجميل لا يخلو ببثينة في خيالها ، فمعهما أم الجسير صديقتها ، ومادام معهما ثالث فليس باستطاعة الشيطان ان يكون رابعهما !! (٤ /٣٥٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣) هذه محاولات سليمة ، تريد أن تخفف مما يظهر في هذه القصص من حرية السلوك العاطفي ، وجرأة العشاق ـ رجالا ونساء ـ في كل العصور ، وعلى كل المستويات . ومهما حاول القاضي التنوخي أو غيره ممن عني بقصص الحب أن يحمل الواقع بشيء من توشية الخيال فان الصورة ستبقى نابضة بصدق ما كان ، لأنه ما يكون ، وما سيكون من صراع الهوى والارادة ، وتعاكس الشرعية والتمرد ، في كل العصور . وسيبقى القاضي التنوخي جديرا بصفة الفنان الصادق ، ذي الحس الملهم حتى وان غمز ذلك في فقهه وقضائه !! ومهما يكن من أمر ، فاننا لم نذكر ذلك لنقدح في نزاهة القاضي التنوخي أو دينه ، والواقع الذي وصفناه مستمد من كتابه ، وهو يحسب له ، لا عليه .

ومن قبل ألف الفقهاء في الحب والعشق بدءا بمحمد بن داود الظاهري ، وهو قريب عهد بالقاضي التنوخي (توفي سنة٢٩٦هـ ،أي قبل مولد التنوخي بثلاثين عاما) ومن بعده ألف فقهاء لا يقلون شهرة بالعلم والنزاهة عن ابن داود [٣٥]، مثل ابن حزم ، صاحب « طوق الحمامة » (توفي ٤٥٦ هـ) وابن قيم الجوزية ، مؤلف « روضة المحبين ونزهة

(٣٥) عن هذه النزعة الانسانية المتسامحة ، راجع : الحب في التراث العربي .

المشتاقين » (توفي ٧٥١ هـ) وغير هؤلاء من أكابر الفقهاء الذين لم يصرفهم فقههم ، ولا أوقعهم في الحرج ، عن وصف حالات الانسان ، وجموح العواطف وثورة الغرائز ، ان هذه احدى الانجازات العظيمة للحضارة العربية الاسلامية ، أنها اتسعت للبحث في الانسان ، بما هو انسان ، وليس في حدود اطار مفترض ، فلا غرابة في أن يتسع مدلول « الفرج » عند القاضي التنوخي ، ليعبر عن انقشاع نازلة عن مكروب ، مهما كان كربه ، ومهما كانت النازلة ، فهو انسان أولا ، وانسان أخيرا ، وألمه ألم انساني يستحق أن نأسى له ، وأن نفرح بزواله ، بصرف النظر عن دواعيه .

(٥) المصادر

تكتسب قضية المصادر التي استمد منها القاضي التنوخي مادته الاخبارية والقصصية أهميتها البالغة من ثلاث جهات :

الأولى تعود الى « التوثيق » فمن الواضح أن الشعر العربي قد نال النصيب الأوفى من اهتمام الرواة واللغويين والنقاد ، وتعلقت بركابه الخطب والوصايا وما أشبه ذلك من الأقوال المأثورة في حكم وأمثال . أمثال القصص ، التي تنوعت مستوياتها واستخداماتها للوعظ والتعليم والمسامرة ، فانها ظلت بعيدة عن اهتمام المشتغلين بالثقافة ، وكانت أهم دعاواهم في تعليل هذه الجفوة أن القصص تروى بالمعنى العام ، ويزيد فيها كل راوية ما يراه مؤثرا على جمهوره ، مفيدا للغرض الذي يتوخاه من قصه ، وحين تنعدم الثقة في موضوعية النص الأدبي ، ويتسرب الشك في نسبته الى صاحبه ، واكتمال صيغته ، فان الوضع النقدي يفقد مبررات الخطوة الأولى نحو الدراسة الفنية ، ومن ثم يكتفي بالاشارة هنا ، وكلمة هناك ، عن القصاص ، ونادرا ما يشير الى القصص ، فضلا عن الاستعانة بلغتها ، أو تحليلها فنيا .

كما أن حصر هذه المصادر ـ ما أمكن ذلك ـ يعتبر كشفا عن الاطار العام الذي تتحرك فيه ثقافة الكاتب ، ومدى ما فيها من تنوع أو انحصار ، وعلاقة ذلك بثقافة العصر ، وتوجهها العام ، وما يحمل هذا التوجه من دلالات على واقع الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية .

أما الجهة الثالثة فهي ماثلة في نوع الصلة بين هذا الكتاب ، والمصادر التي اعتمد عليها المؤلف في تكوين مادته ، فهل هو تكرار لما سبق قوله ، أو هو تجميع لما قيل في أكثر من مجال أو أنه تطوير لفكرة ، وتنمية لمنهج ، وتعميق لاتجاه قد وجد من قبل ؟

لقد حرص القاضي التنوخي على ذكر المصدر الذي أخذ عنه الخبر أو القصة ، أو حتى تلك الحكايات الشعبية التي يصعب اسناد تأليفها الى شخص معين . لم يهمل ذلك مطلقا .

ويمكن حصر مصادره في نوعين أساسيين : السماع والمشافهة والنقل عن وثائق مكتوبة في شكل كتب وصحائف معلومة المؤلف أو مجهولته . لقد ظل التلقي المباشر عن طريق السماع والمشافهة أي الرواية مصدرا أصيلا لتناقل المعرفة طوال قرون ، وكانت الرواية الشفهية أدعى الى الثقة وتجنب الخطأ من الكتابة ذاتها ، ومع أن التأليف الكتابي قد توسع

منذ بداية القرن الثالث الهجري فانه استبقى احدى دعائم المشافهة الاساسية ، وهي ذكر السند ، أو « العنعنة » ، محافظا على هذا التقليد الذي بدأ دينيا ، هدفه الحرص على دقة الحديث النبوي . وقد روى القاضي التنوخي عن أربعة أنواع من الرجال : عن أبيه وجلساء أبيه من مشاهير العصر ، وبخاصة في الفترة المبكرة التي قضاها في البصرة ، وعن بعض من أخذ من كتبهم ، ولكنه عاصرهم ، ولعله رأى أن يختبر بعض ما كتبوه على ضوء ما يحدثونه به ، وعن بعض محترفي القصص في عصره وسنرى دلائل تشير الى أن بعضا من هؤلاء كان مختصا برواية نوع معين من القصص أو الحكايات وعن نكرات لم يحددهم ، حتى وان كانت سلسلة الرواة معلومة النهاية الا انها تبدأ من مجهول .

وفيما يختص برواية المحسن عن أبيه القاضي أبي القاسم علي التنوخي ، فان عبارة : « وحدثني أبي في المذاكرة من لفظه وحفظه » تتكرر مرات ، وقد يتحدث الأب من وحي تجربته الخاصة ، ومن ثم لا مكان لذكر سند ، مثل حكايته لحادثة بطلها ابن بواب كان يعمل عنده ، حين كان يتقلد القضاء في الكرخ (٤ /٢٣٤) أما حين يروي عن آخرين فانه يذكر السند وربما نقده (١ /١٨٢) تحديدا لدرجة الثقة فيمن أخذ عنه أبوه ، وقد يذكر أن أباه قد أسند الرواية ، ولكنه نسيها ، فيقول مثلا : « حدثني أبي ، أبو القاسم التنوخي ، باسناد ذهب عن حفظي » (٣ /٢٣٠) أو يقول : « حدثني أبي رضي الله عنه ، في المذاكرة باسناد لست أقوم عليه ، لاني لم أكتبه في الحال » (٢ /٦٦) وهذا الاهمال للسند فيما روى عن أبيه متوقع ، لثقة الابن في صدق ما يتلقاه عن أبيه ، وهذا جانب نفسي لا يمكن اهماله ، ولأن هذا الوالد قد مات في فترة مبكرة كان المحسّن صبيا لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره حين مات أبوه ، فهذه الأخبار التي رواها عنه ترجع الى مرحلة مبكرة لم يكن النضج العلمي قد استقر في حركة عقله وشغل تفكيره .

أما جلساء هذا الأب فقد ذكرنا أسماءهم ، ومن أهمهم أبو بكر الصولي ، الذي سيأخذ نقلا عن كتابه الكثير ، ولكنه ـ في أخبار وقصص أخرى ـ يستخدم صيغة « وحدثني » « وأخبرني » « وأخبرنا » ، بل انه يستخدم عبارات تدل على أن سماعه من الصولي لم يكن لمرة مصادفة انه موجود بالمجلس ، بل انه يتلقى عنه ، ويستوثق منه ، ويجيزه أن يحدث الأخرين بما سمع ، بل سنفهم من بعض العبارات أن الصولي كان قد انتهى من تأليف كتابه الشهير « كتاب الوزراء » وانه كانَ يقرأ عليه على سبيل الاجازة ، أي الموافقة على النص بعد مراجعته ، وان المحسن ـ الفتى الناشيء ـ قد حضر عملية المراجعة والاجازة ، فيقول : « قرىء على أبي بكر . . . بالبصرة ، وأنا حاضر أسمع ، في كتابه الوزراء ، سنة خمس وثلاثين وثلثمائة » (١/ ٣١١) ويقول : « أخبرني أبو بكر الصولي إجازة ، ونقلته من خطه » (٢ /١٦) ويقول ، « حدثني . . . الصولي فيما أجاز لي روايته عنه » (٤ /٢٦٨) وهكذا تتعدد وسائل الاتصال ، فيما نقل القاضي التنوخي عن الصولي ، وهناك جلساء آخرون ليسوا على هذه الدرجة من السطوع في كتابه .

أما أبو الفرج الأصبهاني ـ صاحب الأغاني ـ فقد ترجع علاقته به الى ما بعد انتقاله الى بغداد ، وعبارات صاحبنا تشعر بأنه كان قد ألف كتابه الضخم ، ومع هذا فانه على الرغم من أن القاضي التنوخي قد نقل عن هذا الكتاب ، فان موقفه من صاحب كموقفه من الصولي وكتابه فيستخدم : أخبرني ، وحدثني ، وأخبرنا وحدثنا ، ويقول : « أخبرني أبو الفرج الأصبهاني اجازة ، قال » (١ /٣٢٨) ويقول : « وحدثني أبو الفرج المعروف بالاصبهاني ، بهذا الخبر من لفظه وحفظه بخلاف هذا » (١ /٣٥٣) بل يقول في عبارة دالة « حدثني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني ، رحمه الله تعالى ،

املاء من حفظه ، وكتبته عنه في أصول سماعاتي منه ولم يحضرني كتابي فأنقله منه ، فكتبته من حفظي ، وتوخيت ألفاظه بجهدي » (٤ /٣٧٢) ـ ويقول في مكان آخر : « ووجدت في كتاب الأغاني الكبير ، لأبي الفرج المعروف بالأصبهاني ، الذي أجاز لي روايته ، في جملة أجازة لي . . . » (٤ /٣٨٣) .

أما ما رواه القاضي التنوخي نقلا عن قصاصين حرفتهم رواية القصص ، ومن ثم تجميعها أو اختراعها لترضي حاجات مستجدة في المجتمع الاسلامي ، فاننا سنجد عليه أكثر من دليل ، والذي نحب أن ننبه اليه ونراه مهما ، دون أن يسوقنا الى مزيد من مشكلات القصة التراثية ، أن القاضي التنوخي لم ينقل شيئا عن أشهر القصاص في تاريخ القصة العربية القديمة ، بدءا بتميم الداري الذي حدث إبان عهد عمر بن الخطاب في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستمرارا مع : كعب الاحبار ، ووهب بن منبه ، وعبيد بن شرية الجرهمي في زمن بني أمية ، وغيرهم ممن أشار اليهم الجاحظ في أكثر من مكان في « البيان والتبيين »

وانما آثر أن يروي عن قصاص سمع منهم مباشرة ، أوهم قريبون جدا من عصره ، وأغلب الظن في تفسير ذلك أن القاضي التنوخي ، وهو فقيه قبل كل شيء ، قد رفض الطابع الأسطوري الغالب على قصص هؤلاء ، وآثر أن يقترب من الواقع ، ومن هنا جاءت قصصه أقرب ما تكون من الأخبار التاريخية ، فاذا غادر الواقع فانه ينتقل الى الحكاية الشعبية ، أو« الحدوتة » ويفضلها على ـ الطابع الأسطوري ، الذي لن نجد من آثاره الاشارات قليلة ، عالقة ببعض ما روى من قصص أنبياء بني اسرائيل .

نستطيع هنا أن نشير الى بعض المحدثين ، والطابع العام الذي يغلب على ما حدثوا به ودلالة ذلك على شيوع مجالس القصّ والرواية ، واختلاف المجال أو النوع الذي يحدث القاص به ، ومن ثم اختلاف جمهوره .

ان القاضي التنوخي يستخدم عبارة « حدثنا » و « منها ما حدثناه » علي بن أبي الطيب الحسن بن علي بن مطرف الرامهرمزي ، وهذا الراوية القاص قد توفي سنة ٣٧٦ هـ عن ثمانين عاما تقريبا ، وقد عرفنا من قبل أن أبا القاسم التنوخي ـ والد المحسّن ـ كان قد تولى القضاء بمدينة « رامهرمز » كما أنها دخلت ضمن المناطق التي تولى مؤلفنا فيها القضاء فيما بعد . ويلاحظ هنا أن السلسلة التي تنتهي بعلي بن أبي الطيب ، يروي فيها ـ غالبا ـ عن أحمد بن محمد بن الجراح ، عن أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي (١ /٧٩) ثم تتفرع بعد هذا التوحد في اتجاهات شتى ، لكن الطابع العام لما جاء عن طريق هؤلاء الثلاثة ينحصر في الوعظ والأخبار التاريخية ، وتحت الوعظ تندرج الأدعية المأثورة ، وبعض الأحاديث النبوية ، وقصص بعض الأنبياء (١ /٧٩ ـ ٨٦ ـ ١٠٩) وقد يجتمع الوعظ والتاريخ في خبر واحد ، كما نجد في قصة جلد الحسن بن الحسن في عصر الوليد بن عبد الملك ، وقد كتب بذلك الى والي المدينة ، فنجاه الله (١ /١٩٥) وما شاهده ابراهيم التيمي الزاهد حين كان في حبس الحجاج (١ /٢٦٠) وقد يوجد الخبر التاريخي متحررا من توجيه الموعظة ، فيكتسب شكل القصة تركيبا وتصويرا ، وهذا نجده في الأجزاء الأخرى التي لم تهتم بالوعظ ، وعلى سبيل المثال ، في (٢ /١٦٤) قصة وصفية لكيفية تخلص عمر بن هبيرة ـ وكان واليا على العراق ـ من سجن خالد بن عبد الله القسري الذي خلفه على الولاية وسجنه ، وقد جاء اتباع عمر ، فاكتروا دارا بجانب الحبس ،

ودارا بجانب سور المدينة - مدينة واسط - وحفر نفقان ، عن طريق النفق الأول خرج عمر من سجنه ، وعن طريق الثاني خرج من المدينة ، ومثل ذلك ما يروي عن استسلام قطن بن معاوية الكلابي للمنصور ، وكان قد خرج مؤيدا لابراهيم بن الحسن في البصرة ، أخي « النفس الزكية » الثائر العلوي بالمدينة (٤ /٥٦) .

ونستطيع أن نجد هذا الطابع الخاص فيما روى عن سعد بن محمد بن علي الأزدي الشاعر المعروف بالوحيد ، وقد توفي سنة ٣٨٥ ، فهو معاصر للقاضي التنوخي ، وجدير بالملاحظة أن مؤلفنا يستخدم كلمة « حكى » ثلاث مرات فيما رواه عن الوحيد ، و « حدّث » مرة واحدة ولعل هذا أن يكون بمثابة اقتراب من مصطلح « الحكاية » التي تختلف عن « الخبر » و « القصة » كما سنرى . وجدير بالملاحظة أيضا أن هذه الحكايات الأربع التي حكاها القاضي التنوخي عن الوحيد ، تتعلق ثلاث منها بحوادث غريبة ، تقوم على الصراع بين الانسان والوحش المفترس ، فهذا رجل شجاع ينازل الأسد ويستنقذ منه شخصا كان على وشك الموت بين براثنه (٤ /١٧٧) وهذا آخر يلقي بنفسه من علو شاهق استنقاذا لثروة ضائعة ، فيسقط على أسد كامن بين البردي ، (٤ /١٨١) وهذا ثالث يلجأ الى كهف يحتمي به من القيظ فتغلقه عليه أفعى ضارية ، لا يعرف كيف يتخلص منها ، ثم يأتي ابن عرس فيستدعي زميلا له ، ثم يحتالان في الهجوم على الأفعى بغتة ، أحدهما عند الرأس والآخر عند الذنب ، فيقتلانها ، ويبدو أن هذا الشاعر المغمور كان مختصا برواية حكايات الحيوان وغرائبه ، فان يارحها فالى الغرائب بشكل عام ، فان الحكاية الرابعة التي أخذها عنه القاضي التنوخي عن رجل فرد ، وقع في أسر سبعين من قطاع الطريق ، جردوه من كل ما معه ، لكنه راح يستعطفهم حتى تركوا له برذونه ، ثم راح يستعطف مرة أخرى حتى أعطوه قوسه ونشابه ، لعله أن يدفع بها شرا ، ولكنه استطاع بها أن يقارع السبعين ، وأن يهزمهم ويسترد منهم ما اغتصبوا منه (٤ /٣٦٤) .

وكما نجد حكايات الحيوان وغرائب الصراع معه عند الشاعر الوحيد ، فاننا نجد القصص التي تهتم بحيل اللصوص وقد آثرها عبيد الله بن محمد الصروي ، وان لم يقف جهده عليها ، لكن الميل الى المفاجأة والاغراب هو القاسم المشترك في كل ما حدّث به تقريبا ، فهذا رجل يجد هميانه (حافظة نقوده) بعد أعوام من فقده ، وقد صار فقيرا ، وتعلق حبل نجاته بجوهرة ثمينة أخفاها في مكان سرّي من هذا الهميان المفقود ، ويزداد أمر المصادفة غرابة أن يجد بعض أصدقائه هذا الهميان ، وينتفع بما فيه من مال ، ولا يفطن الى الجوهرة (٢ /٣٦٨) وتتكرر القصة على نحو آخر لا يقل غرابة (٢ /٣٧٣) وهذا رجل يهرب من قتل محقق عشوائي ، ليقع في مثله ، فينجو مرة ثانية ، وثالثة ، وكأن حياته سلسلة مواقف يتعرض في كل منها للقتل ، ولكن الحقيقة تنتصر (٣ /٦١) وهذا رجل يهرب من الفقر ، في حين تعاني امرأته المخاض ، ثم يعود بعد زمن طويل ، ليجد ابنه شخصية ثرية مشهورة ، وزوجته قابلة قصر الخلافة (٣ /٣١٤) وهذا كاهن في دير معزول ، يتصدى لمعاونة المسافرين العابرين ثم يقتلهم داخل الدير ويستولي على ممتلكاتهم (٣ /٣٨٩) وهذا عبد آبق ، يسامحه سيده حين يعثر عليه في بلاد بعيدة ، ولكنه لا يسامح سيده ، بل يسعى في هلاكه واغتصاب ماله (٣ /٣٩٣) وهذا قاطع طريق لا يكتفي بسرقة العابرين ، وانما يصر على قتل رجل وحيد ، وحين يضع السيف على عنقه يظهر أسد يأخذ قاطع الطريق بين فكيه ويمضي (٤ /٢٤٨) وهذا لص يتمكن من سرقة بضاعة وكان علانية ، ولكن صاحب الدكان الذي كان لصا في حداثته يتمكن من استرداد بضاعته (٤ /٢٥٦) . الا ما يخرج عن هذا الطابع

العام : طابع الفتك والمغامرة والمصادفة لا يمثل نسبة عالية فيما نقل التنوخي عن الصروي . ويحق لنا أن نلتفت الى ما يمكن أن يعتبر « ظاهرة » اختص بها هذا القاص ، فانه غالبا ما يروي عن نفسه دون ذكر سلسلة الرواة ، فكأنه يحكي مشاهداته ، غير أن الشخص الذي يمثل بطل القصة ، يغلب أن يكون منكرا ، غير محدد الاسم ، فنجد مثل هذه المداخل في قصصه : « حدثني عبيد الله بن محمد الصروي ، قال : حدثني أبي : أن رجلا حج . . . » أو « . . . . كان يجاورنا ببغداد فتى من أولاد الكتاب » أو : أن رجلا من أولاد التجار زالت نعمته » أو : « حدثني شيخ كان يخدمني » أو : حدثني رجل من أهل الجند » أو : « حدثني أكار (فلاح أو زارع) بنهرسابس يقال له سارخ » أو : « حدثني بعض اخواني أنه كان ببغداد رجل يطلب التلصص في حداثته » . في كل هذه القصص وغيرها يختفي التوثيق الدقيق الذي يحيط برواية الخبر التاريخي ، حتى وان تشكل بالصياغة القصصية ، ونجد الحكاية الغريبة ، ملازمة للبطل المجهول ، أو المصنوع .

هؤلاء أهم القصاص والرواة الذين أخذ عنهم القاضي التنوخي مباشرة ، بطريق السماع والمشافهة ولا شك أن هناك غيرهم ، مثل محمد بن عبد الواحد المعروف بغلام ثعلب ، فينص على لقائه ، والحمل عنه ، « وأجاز لي جميع ما يصح عندي من رواياته » (١ / ٩٠) وعلي بن هشام الكاتب ، المعروف بابن أبي قيراط ، وقد اهتما بالأخبار التاريخية غالبا .

أما المصادر المكتوبة التي نص القاضي التنوخي على أنه نقل عنها فانها كثيرة ، بعضها محدد بالكتاب والمؤلف ، ويذكر أحيانا اسم الكاتب دون الكتاب ، أو العكس ، كما أنه قد يشير الى النقل عن صحائف مكتوبة دون تحديد . لقد اهتم محقق الكتاب ـ عبود الشالجي بأمر المصادر المكتوبة ، وقمنا من جانبنا بحصر أهم المصادر التي تكرر النقل عنها ، وعدد مرات هذا النقل . أما الطابع العام لهذه الكتب فانه معروف ولا يحتاج الى جهد اضافي .

مع توافر الحافز الذاتي فيما واجه القاضي التنوخي من محنة العزل عن القضاء ، وتحديد اقامته بمنزله ، ومطالبته بسداد أموال جزيلة ، فان حافزا آخر قد توافر له في شكل تجارب سابقة ألفت تحت العنوان ذاته ، أو ما يقاربه . يقول في مقدمة كتابه : « وكنت وقفت في بعض محني على خمس أو ست أوراق ، جمعها أبو الحسن علي بن محمد المدائني ، وسماها « كتاب الفرج بعد الشدة والضيقة » ويصف القاضي التنوخي ما في هذه الأوراق بأنه حسن ، ولكنه قليل (١ /٥٢) والمدائني ـ وقد توفي سنة ٢٢٥ هـ ، أي قبل مولد المحسِّن بقرن من الزمان ـ أديب راوية مؤرخ ، بصري ، سكن المدائن ، وعاش في بغداد ، والأوراق المشار اليها لا تذكر بين مؤلفاته ، وقد نقل القاضي التنوخي أربعة عشر خبرا منسوبا الى المدائني ثمانية منها في الجزء الأول الذي يغلب عليه الطابع الديني ، والتاريخي ، وهو يذكر اسم كتابه ، أو أوراقه ، غالبا ، ويحدث أن يأخذ عن المدائني من أكثر من طريق ، فيقول مثلا : « قال المدائني في كتابه ، وجاء به القاضي أبو الحسين في كتابه عن المدائني بغير اسناد » (١ / ٣٠٤) ومرة أخرى أخذ عن شخص آخر ، أسند ما أخذه الى المدائني (٤ / ٧١) ومرة واحدة يقول : « ووجدت في كتاب المتيمين للمدائني » (٤ /٤٢٢) وهذا يعني أن ما نقله القاضي التنوخي عن المدائني قد تضمن كل ما اشتمل عليه كتاب « الفرج بعد الشدة والضيقة » وتجاوزه أيضا .

أما كتاب عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا « كتاب الفرج بعد الشدة » فقد وصفه القاضي التنوخي بأنه في نحو عشرين

ورقة ، وأن طابعه العام رواية الأحاديث النبوية ، وأخبار الصحابة والتابعين وما يقارب ذلك من الأدعية والأذكار ، ويشعر المؤلف أن أخبارا من هذا اللون لا تتطابق مع ما يهدف اليه من وضع كتاب بنفس العنوان ، لكنه يتجاوز الغاية التي توخاها ابن أبي الدنيا . وابن أبي الدنيا ـ على أية حال ـ قد أفاد بدوره من المدائني ، وهو أقرب عهدا الى عصر المؤلف ، لأنه توفي سنة ٢٨١هـ ، وقد ذكر اسم ابن أبي الدنيا في كتاب التنوخي خمسا وخمسين مرة ، دون أن يقرن الى كتابه المشار اليه ، لقد كان في جميع هذه المرات واحدا في سلسلة الرواة لخبر أو قصة أو أبيات من الشعر ، ولاندري لماذا ترك القاضي التنوخي ذكر كتاب ابن أبي الدنيا في تضاعيف كتابه برغم الاشارة اليه في مقدمته .

أما الكتاب الثالث الذي سبق هذا الكتاب الذي نحن بصدده ، الى اسم « الفرج بعد الشدة » فقد ألفه القاضي أبو الحسين عمر بن القاضي محمد بن يوسف القاضي ، رحمهم الله ، في مقدار خمسين ورقة ، أودعه أكثر ما رواه المدائني ، وأضاف اليه أخبارا أخر « أكثرها حسن وفيها غير ما هو مماثل عندي لما عزاه » ، والطريف أن القاضي التنوخي يأخذ على ابن أبي الدنيا والقاضي حسين ، أنهما لم يشيرا الى أن المدائني قد سبقهما الى التأليف في موضوع كتابيهما ويرى أن عدم معرفتهما بكتاب المدائني تعد أمرا طريفا ، وأن معرفتهما به وتجاهلهما لذكره شروعهما لما كتبا تعد أطرف . . وقد نقل القاضي التنوخي عن كتاب القاضي أبي الحسين ستا وثلاثين مرة ، انتشرت على مساحة فصول كتابه كلها تقريبا ، وهذا يعني أن القاضي أبا الحسين في كتابه هذا كان الأكثر قربا من تصور القاضي التنوخي لموضوع الفرج بعد الشدة ، ستجد أخبارا وقصصا تعود الى العصر الجاهلي (٢ /٢٠٦) بل نجد حالة فريدة روى فيها خبرا مصدره وهب بن منبه ، ولكنه ليس راوية لأساطير القدماء ، وانما هو صاحب الحادثة التي لا تزيد عن رؤيا رآها في أيام عمر (٢ /٣٣١) أما أكثر ما في الكتاب فيرجع الى عصر الراشدين ، وبني أمية ، ودولة بني العباس ـ التي يفوز رجالاتها بأكبر نصيب ، وبخاصة المأمون والبرامكة ، ثم يأتي دور القصص التي تجد في بعضها طابع الحكاية الشعبية . ويهتم القاضي أبو الحسين اهتماما واضحا بأخبار الولاة وتقلب الزمن بهم من الفقر والضياع الى الثروة والجاه ، أو العكس ، وهو موضوع قد أخذ نصيبا موفورا من كتاب التنوخي كما سنرى .

وهناك كتب أخرى ، أفاد منها القاضي التنوخي ، ونقل عنها أكثر مما فعل مع الكتب السابقة في مقدمتها « الأغاني » للأصبهاني ، الذي تلقى عنه مشافهة أيضا ، وكان يحدث أن يوثق ما سمع بعرضه على ما قرأ ، أو العكس ، فحين يروي خبر ما كان بين عبد الله بن طاهر والحصني ، وكيف أساء الحصني الى القائد العباسي بمعارضة قصيدته ، ومناقضة مفاخرها الفارسية ، يسند الرواية الى أبي الفرج المخزومي ، الشاعر المعروف بالببغاء ، وهو من أصدقاء القاضي التنوخي (١ /٣٣٩) ثم يورد رواية ثانية للخبر نفسه ، فيقول : « ووقع إليّ هذا الخبر بخلاف هذا ، فأخبرني أبو الفرج الأصبهاني ، قال » (١ /٣٥٠) وبعد أن ينتهي من هذه الرواية يتبعها برواية ثالثة للأصبهاني أيضا ، فيقول (١/٣٥٣) : « وحدثني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني ، بهذا الخبر من لفظه وحفظه بخلاف هذا » فهل تختلف « أخبرني » عن « حدثني » ؟ اختلاف القراءة عن السماع ، وان انتهى كلاهما الى نقل المعرفة بالشيء ؟ هذا احتمال قد يقويه قوله في صدر خبر آخر : « وجدت في كتاب الأغاني الكبير ، لأبي الفرج المعروف بالأصبهاني ، الذي أجاز لي روايته في جملة ما أجازه لي . . » (٤ /٣٩٤) .

لقد نقل القاضي التنوخي من « الأغاني » وروى عن صاحبه تسعا وثلاثين مرة ، ومع التنوع الموضوعي ، والامتداد الزمني الذي تمثله مادة هذا الكتاب الموسوعي الضخم ، نتوقع أن تمتد النقول إلى أطراف الكتاب على ضخامته . يفوز الخلفاء العباسيون ورجال دولتهم بأكبر نصيب ، وكذلك المغنون(٣/ ٨٩ ، و ٤/ ٣٩٤ وغيرهما) وتظهر ملامح العصر الأموي أحيانا ، كما نجد خبرا واحدا عن الاسكندر حين بلغ حدود الصين ، وقرر اخضاعها لسلطانه(٢/ ٢٤٠) ولنا هنا ملاحظة أساسية نثبتها ، فعلى الرغم من أن القاضي التنوخي كان يعرف الفارسية ، وعمل طويلا في أوساط فارسية ، ونادم عضد الدولة الفارسي ، وكان الكثير من أخبار الأكاسرة وغيرهم من عظماء الفرس ، بل وأخبار اليونان والهند ، معروفا لدى المثقف العربي في القرن الرابع الهجري ، فان النسبة العظمى من مادة كتاب القاضي التنوخي تعتمد على المجتمع العربي ، وأخبار رجاله ، بدرجة لا تجعلنا نعطي أية أهمية لما يتجاوز هذا الحد ، ومنه هذا القليل الذي ظهر فيه الاسكندر (ثلاثة أخبار ، أحدها عن الاصبهاني) كما ظهر كسرى أحيانا .

ويأتي « كتاب الوزراء » لمحمد بن عبدوس الجهشياري في مرتبة متقدمة بين المصادر المكتوبة التي اعتمد عليها ، يكاد ينافس « الأغاني » في الأهمية ، وان كان عدد مرات النقل أقل (نقل عنه خمسا وثلاثين مرة) ولم يسمع منه مشافهة بالطبع برغم صداقة الجهشياري لأبيه ، لأن الجهشياري توفي سنة ٣٣١هـ ، وكان مؤلفنا لم يتجاوز الرابعة من عمره تقريبا ، وهو في صدر كل خبر يكاد يكرر عبارة واحدة : « ذكر محمد بن عبدوس في كتابه « كتاب الوزراء » أو « في كتاب الوزراء » ماعدا مرة واحدة قال فيها قال محمد بن عبدوس في كتاب أخبار الوزراء والكتاب [٣٦] (٤/ ٤١٨) والكتاب المذكور محدد العنوان محدد الموضوع . ومن الطبيعي أن يكون النقل عنه محكوما بموضوعه .

ويكاد يلحق بالكتابين السابقين ما كتبه الصولي في كتاب الوزراء ، وقد نقل عنه سبع عشرة مرة ، ومن « الأوراق » مرة واحدة ، ولكن تأثير الصولي على مؤلفنا يتجاوز ما نقل عن كتابه ، إلى ماحدّث عنه ، فضلا عن التأثير الشخصي الذي يمكن توقعه . وهذا الكتاب مثل سابقه محكوم بموضوعه ، ومع هذا يمكن أن نلاحظ أنه أكثر توسعا ، بمعنى أنه لم يتوقف عند حدود ما كان يحدث للوزراء ، وانما تجاوزه إلى ما يحدث منهم ، ولهذا نجد بعض أخبار الحسين بن الضحاك الشاعر(١/ ٣٣١ ، ٣/ ٤٨) وأخبار الغناء والمغنين(٤/ ٢٦٨) وقد يعارض رواية الصولي برواية الأغاني ، كما يذكر مرات أنه سمع الخبر يقرأ على الصولي نفسه في مسجد البصرة .

هناك كتب أخرى أقل أهمية نقل عنها القاضي التنوخي ، أحصاها محقق الكتاب (١/ ١٠ ، ١١ - ١٢ ، ١٣) ونوع آخر من الكتب لم يفصح عن اسمه ، لأسباب غير محدودة فيقول مثلا « وجدت في بعض الكتب بغير اسناد » (١/ ١٩٤) أو يقول « قرأت في كتب الأوائل » (١/ ١٩٨) أو « قرىء على أبي العباس الأثرم ، المقرىء البغدادي . . . في منزله بالبصرة . . وأنا حاضر أسمع (١/ ٢٠٠) فمن أي كتاب كانت هذه القراءة ؟

ومهما يكن من أمر فان هذا النوع من الاخبار والقصص غير المحددة المصدر أو الرواية يبقى قليلا جدا اذا ما قيس إلى النصوص الموثقة ، التي تكسب كتاب « الفرج بعد الشدة » ثقة هو جدير بها ، وتعطي الدارس اطمئنانا كبيرا في الاقبال

(٣٦) وفي مرتين يسميه « أخبار الوزراء » فقط ، وقد آثر محققوه : مصطفى السقا وصاحباه تسميته كتاب الوزراء والكتاب ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي . ط أولى القاهرة .

على نصوصه ودراستها دراسة فنية دون أن تؤدي به الى التناقض أو النتائج غير الدقيقة نتيجة للرواية بالمعنى العام دون التقيد بالألفاظ ، وهو ما رميت به النصوص النثرية بوجه عام .

ويمكن أن نقول مطمئنين ، في ختام حديثنا عن المصادر : ان كتاب الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي ، مع أنه مسبوق في موضوعه ، ناقل عن كثير من السابقين ، قد تجاوز كل أولئك شكلا ومضمونا . ونقصد بالشكل الجانب الكمي الذي تفوق به على كل سابقيه ، والجانب المنهجي المتمثل في توزيع مادة الكتاب على فصول متنوعة المعنى ، وان اتفقت في الشكل العام (أزمة يعقبها حل) ، والجانب التركيبي حيث يزاوج بين الروايات للقصة الواحدة ، ويدير بينها حوار مثمرا ، وينميها بطريقة فريدة ، ونقصد بالمضمون أنه تجاوز بالشدة ، أو الأزمة أن تحدث لكاتب أو وزير أو خليفة ، الى الناس عامة ، وشذاذهم فلم يتوقف عند الطبقة العليا من المجتمع ، بل غمر جميع الطبقات ، وربما جميع الأجناس التي كانت تعيش تحت لواء الخلافة العباسية من عرب وفرس وديلم وترك وأكراد وروم ، ولم يتوقف عند المعنى الأخلاقي للفرج ، وانما عني به انفراج الأزمة ، أو لحظة التنوير في مفهوم القصة القصيرة المعاصرة ، وهذه جميعا اضافات ايجابية يتميز بها هذا الكتاب الى تراث أمته العربية ، ويضيف اليه .

(٦) المحاور

ان المحور الرئيسي الذي يدور حوله الكتاب هو الأخبار والقصص والحكايات التي تصور مواقف مختلفة في حياة أشخاص تاريخيين ، أو مجهولين أو مخترعين . وهذا المحور الرئيسي ينضم في اطاره محاور جزئية ، يمكن أن نختزل مفهوم كل محور في « الموضوع » ، و « الهدف » أي المضمون الذي سيبدو بمثابة طريقة ميسرة للتعريف الموضوعي للكتاب ، على أن نعود اليه على المستوى الصياغي ، أو أسلوب بناء كل نوع . وقد عرضنا من قبل لطريقة المؤلف في تقسيم أبواب كتابه ، ورأينا ما فيها من خلط في أسس التقسيم ، وتداخل بين الأنواع وهذا يعني أن المحاور التي نجمع مفرداتها الآن ، ونحاول أن نستخلص لها صورة وهدفا ستجدها متفرقة الاجزاء ـ أو المفردات ـ على مساحة الكتاب ، وليست مجموعة في باب واحد .

ويمكن أن نحصر هذه المحاور فيما يأتي :

١ ـ الأخبار والشخصيات التاريخية
٢ ـ صورة الحياة الاجتماعية
٣ ـ الحكايات الشعبية
٤ ـ القصص الوعظية
٥ ـ قصص وأخبار آل البيت
٦ ـ القصص التعليمية

وهذا الترتيب يتدرج تنازليا مع الجانب الكمي لكل موضوع ، كما أن التوزيع قام على التغليب فقد يكون الخبر عن

رجل من آل البيت ، ولكنه يصور سلوكا اجتماعيا معينا ، وهنا سيحدس القارىء أين يقع مركز الاهتمام فى هذا الخبر .

أولا : ـ الاخبار والشخصيات التاريخية

من المتوقع أن يفوز الخلفاء ، ومن يدور فى فلكهم من الوزراء والكتاب والقادة بأكبر نصيب ، لأن التاريخ المدون يهتم بأخبارهم ، ومع هذا لا نجد ما كتب حول هؤلاء تكرارا لما نجده فى كتب التاريخ ، من جانبين : أن القاضى التنوخى فى اختيار مادة كتابه ، حين ينتقى من حياة شخصية شهيرة كالحجاج ، أو المأمون مثلا ، فانه يختار المواقف « التى تدل على طبيعة الشخص ، وليس « الاعمال » التى يسارع المؤرخون الى تدوينها ، ومن هنا تكون اختياراته متوغلة فى التفاصيل التى قد لا يلتفت اليها المؤرخ عادة . وانه كثيرا ما يعنى بأشخاص لهم وجود تاريخى ، ولمواقف حياتهم دلالات تاريخية انسانية وحضارية ، ولكنهم لم يبلغوا من الشهرة بحيث يهتم بهم المؤرخون ، ومع هذا لا يمكننا ان نستوعب طبيعة المرحلة وظروفها دون أن نضع هذه المواقف العابرة تحت الضوء .

خلفاء بنى العباس ورجال دولتهم هم الأكثر ظهورا ، ولا يحتاج هذا الى تعليل ، فانهم الأقرب عهدا ، والأطول زمنا ، والأزمات فى عصرهم أكثر ، وسنجد القليل من عصر بنى أمية ، وما دمنا بصدد شدة تتفرج ، ومحنة تنزل وتنقشع فان الحجاج بن يوسف الثقفى يحظى وحده بنصف ما كتب عن العصر الاموى والأخبار التى تدور حول الحجاج تصور قسوته ، وجو الارهاب الذى ساد فى عصره ، حتى صار الاقبال على العبادة مظنة الاتهام بقول الخوارج وسلوكهم ، يقول أحد المحبوسين شارحا تهمته : « جاء العريف ، فتبرأ منى ، وقال : ان هذا كثير الصوم والصلاة ، وأخاف أنه يرى رأى الخوارج » (١ /٢٦١) وسجن الحجاج كان يسمى الديماس ، ومعناه : الحفرة العميقة لا ينفذ اليها الضوء . هذا هو الوجه الجاهز » عن الحجاج ، ولكن أخبارا أخرى تدخل بعض التفاصيل التى تتخفف نسبيا عن هذه الصورة القاسية الجافية . فهذا الشعبى يخرج مع ابن الأشعث على الحجاج وحين تنجلى الفتنة يقف أمام الحجاج مقرا بذنبه ، معتذرا ، وهنا يقول لجلسائه : هذا عامر ، ضرب وجوهنا بسيفه وأتانا يعتذر بالباطل ، ردوا عليه عطاءه (١/ ٣٣٤) . وحين يساق اليه أسرى فتنة ابن الأشعث يأمر بقتل طائفة منهم ، ويتقدم رجل قبل أن يضرب عنقه فقال : ياحجاج ، والله لئن كنا أسأنا فى الفعل ، فما أحسنت فى العقوبة ، وان كنا لؤمنا فى الجناية ، فما كرمت فى العفو .

فقال : ردوه . فرد . فقال : أخبرنى كيف قلت ؟ فأعاد الكلام . فقال الحجاج : صدقت والله ، أف لهذه الجيف ، أما كان فيها أحد ينبهنا كما نبهنا هذا ؟ أطلقوا عنه ، وعن باقى الاسرى(٤/ ١٢١) . ويأتى بعد الحجاج عبيد الله بن زياد ، وخالد القسرى ، وهما لا يقلان ضراوة عن الحجاج ، ومع هذا ، ومع ما سنجد للقاضى التنوخى من ميل الى آل أبى طالب لا مجال للشك فيه ، ومع ماهو معروف عن دور ابن زياد فى استشهاد الحسين رضى الله تعالى عنه ، ومع أن الكتاب قد سجل خبرا يؤكد هذه القسوة فى ابن زياد ، فانه يروى خبرا آخر يظهره فى صورة من يخشى الله ، ولا يجسر على الاستخفاف بكلامه الشريف ، فها هو رجل من القراء يساق اليه على أنه من الخوارج ، وفى حين

ينكر الرجل التهمة يتوعده عبيد الله بالانتقام ، ويأمر بسجنه ، فيتمتم الرجل بكلمات غير مبينة ، فاغتاظ ابن زياد ، وأمره بالجهر بما همس به ، فاذا هما بيتان من الشعر :

عسى فرج يأتي به الله انه ... له كل يوم في خليقته أمر
اذا اشتد عسر فارج يسرا فانه ... قضى الله أن العسر يتبعه يسر

فسكت ابن زياد ساعة ، ثم قال : قد أتاك الفرج . خلوا سبيله (١/٢٩٧) يمكن أن نجد مثل هذه المواقف مذكورة لمعاوية ، وعبد الملك ، وهشام ، والوليد بن يزيد . لا نجد هذا الشر المطلق في نفوسهم بغير عقال ، انهم بشر ، يهتزون للكلمة الطيبة ، ويأسرهم المعروف ويقدسون الأعراف العربية ، حتى يعفو أحدهم عن ألد أعدائه حين يكتشف وجوده على مائدته وقد أكل من طعامه .

أما خلفاء بني العباس فان الحديث حولهم أكثر تنوعا ، فأكثرهم قد اعتقل وزيره أو قتله ، وهذا وحده معين لا ينضب للشدائد ، كما انهم ـ هم أنفسهم ـ عانوا شدائد وأهوالا حين تسلط الأتراك ثم الديلم على الخلافة ، فهم بين مقتول ومخلوع ، ومسمول ومن ليس له من الأمر شيء ، ومع ذلك فانهم اذا ما قدروا أنزلوا البلاء حتى بأولئك الذين أوصلوهم الى الخلافة ، وأيدوا ملكهم . ان هذه الأخبار والقصص المدونة أشهر من أن نتوقف عندها ، وسنكتفي بالاشارة الى ما تدل عليه من قلق نظام الحكم والفساد الاداري والمالي ، أما الآن فنتوقف الى ما يمكن أن يعتبر اضافة لم يهتم بها المؤرخون .

من ذلك هذه القصة ، التي جرت في عهد المعتضد لأحد رجاله ومنها أن الخليفة كان له جهاز استخبارات خاص ، يرفع تقاريره اليه هو شخصيا وأن هذا الجهاز كان يراقب كبار رجال الدولة ـ وليس أعداءها ـ وأن العاملين فيه كانوا ينتقون ممن لا يتوقع أحد منهم هذه المهمة وأنهم كانوا يحتالون بكل وسيلة ممكنة للحصول على الأسرار . وربما دل الخبر ـ القصة ـ على أن الوزير كان له جهازه المضاد . فقد كان للقاسم بن عبيد الله ـ وزير المعتضد ـ سنة ٢٨٨ هـ حياة خاصة عابثة ، يشرب فيها ويلعب مع جواريه بغير تحرج ، غير أنه كان يخفي ذلك كله عن الخليفة حتى لا يستنقصه ، ويتهمه بالتشاغل عن الأعمال . لكن الخليفة ألقى في طريقه جملة تدل على معرفته بما يجري في الخفاء . فخرج الوزير وقد كاد أن يتلف غما . اذ كيف بلغه السر ، وهل يدل هذا على معرفته بباقي الأسرار كالهبات والرشاوى ؟ « وكان له في داره صاحب خبر جلد يرفع اليه الأمور ، فأحضره وعرفه ما جرى بينه وبين المعتضد ، وقال له : ابحث لي عمن أخرج هذا الخبر ، فان فعلت ، زدت في رزقك وأجزتك بكذا وكذا ، وان لم تخرجه نفيتك الى عمان . وحلف له على الأمرين » وهكذا وقف رجل الاستخبارات في مواجهة رجل الاستخبارات الآخر ، واستطاع أن يكتشفه في ثياب المكدين (الشحاذين) يتظاهر بأنه عجوز ، ويحمله بثياب تخفيه الى دار القاسم الذي يستجوبه سرا ، ويأبى الا أن يعرف حقيقته « أو لا ترى ضوء الدنيا » فيضطر الى الاعتراف بأنه فلان الهاشمي ، وأنه يتجسس للمعتضد . فيحبسه ، ويتغافل عنه ، الى أن يطلب الخليفة منه بنفسه اطلاق مخبره الخاص ، الذي كشف أمره (٢ / ٨٥) . ونعرف من قصة أخرى أن الادارة السياسية في العهد العباسي عرفت منصب من يسمى في زماننا « وزيرا بلا وزارة » أو « وزير التابعة » وكان في

عمله يتبع الوزير - فهو بمثابة مساعد له - وليس الخليفة ، فقد كان أبو جعفر بن أحمد حاجبا لأبي محمد المهلبي قبل تولي الوزارة ، فلما صار المهلبي وزيرا « كان يصرفه في الاستحثاث على العمال ، وفي الأعمال التي يتصرف فيها العمال الصغار » وتفهم من سياق القصة أن وزير الخليفة ينتدب لأداء مهمة عاجلة وأنه « قائم بحضرة الوزير » لمثل هذا الشأن .(٤/ ١٣٩)

ونعرف أيضا أن المأمون بعد أن تغلب على أخيه بسيوف الخرسانية ، أراد أن يكافئهم بتوليتهم المناصب ، والأعمال الادارية والمالية التي يمكن أن تعتبر بمثابة تعويض ، ولأنهم أهل ثقته وقد أدى هذا الى تعطيل الموظفين القدامى واضطراب معيشتهم ، ومن هذه القصة (٢ / ٣٥٥) تجد شيخا خرسانيا مغفلا ، أميا ، يقبل على أكبر الكتاب سنا ، ويطلب منه أن يختار له عملا مناسبا ليتولاه كما أمر أمير المؤمنين . . ويسخر الكاتب المتمرس من هذا الطلب الساذج من رجل لا يعرف ماذا ينبغي عليه أن يعمل ، فيقترح عليه تولي وظيفة لا وجود لها . فقال : لا أعرف لك عملا أولى بك من بزيندات البحر ، وصدقات الوحش أي الجسور التي تصد ماء البحر عن الشاطئ ، وأوقاف الوحوش ، فقال له : اكتبه لي ، فكتبه ، ورفع طلب الوظيفة الى الخليفة الذي غضب للسخرية من زعماء أنصاره وشيعته ، وأحضر الكاتب ، وقال له : ياجاهل . تعرضت لأصحابي ؟ ولكن الكاتب يرد بأمانة على المأمون ، مفندا خطر الاعتماد على « أهل الثقة » - واهماله أهل الخبرة ، ومقترحا الحل الذي يرضي سياسة الدولة ، ويحفظ مصالحها في نفس الوقت ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، أصحابنا هؤلاء ثقات يصلحون لحفظ ما يصل الى أيديهم من الخزائن والأموال ، وأما شروط الخراج ، وحكمه وما يجب تعجيل استخراجه وما يجب تأخيره ، وما يجب اطلاقه ، وما يجب منعه ، وما يجب انفاقه ، وما يجب الاحتساب به ، فلايعرفونه ، والقائمون بموجب الارتفاع (أي المضطرب بميزانية الدولة ولا تصل الى ماتحصله الآن) فان كنت يا أمير المؤمنين لا تثق بنا ، تضم الى كل واحد منهم رجلا منا ، فيكون الشيخ يحفظ المال ، ونحن نجمعه .

فاستطاب المأمون رأيه وكلامه ، وأمر بتقليد عمال السواد وكتابه ، وأن يضم الى كل واحد منهم ، واحدا من الشيعة .

انما لم نرد - في مستوى الخلفاء - أن نقف عند صور ترفهم ، وصراع أولياء عهودهم ، وخفايا ما يجري ليلة موت أحدهم ، (أنظر مثلا ما يروى عن كيفية موت الهادي ٣/ ١٩) وليلة أغمي على الرشيد بسبب التخمة حتى ظن أنه مات ٤/ ٢١٩ ، وليلة مات فعلا ٣/ ٣٦٠) فهذا مما يمكن تحصيله من كتب التاريخ : أما التفاصيل الصغيرة فهي ما نعني به هنا . نذكر مثلا أن الرشيد عرف أن العتابي الشاعر يقول بالاعتزال ، فتهدده حتى حمله على الهرب ، ولكن بعض محبيه وضع شيئا من خطبه ورسائله في طريق الرشيد ، فأعجب به ، وعفا عنه ، واستقدمه ليعلم الأمين والمأمون ويضع لهما خطبا »(٤ / ٢٧٠) ونعرف من أخبار أخرى أن كبار أدباء العصر كانوا يضعون الخطب لولي العهد ، الذي يحفظها ثم يلقيها من الذاكرة يوم الجمعة ، حين تعلن بيعته لولاية العهد .

ومن الأمور الطريفة ما يطلعنا عليه أكثر من خبر ، أنه حين كان يتم القبض على احدى الشخصيات العظيمة ، ذات

الجرم العام ، كانت هذه الشخصيات تقدم للمساءلة فيما يشبه المؤتمر العام ، أو المحاكمة العلنية ، وكان هذا المجلس يعقد برئاسة شخصية بارزة ، الخليفة أو أحد قواده ، وكان الحاضرون يشاركون في توجيه الحكم على المتهم ، كما أن شخصا يختص بأمور الدعاية للخليفة كان يقف خطيبا عند افتتاح الجلسة ، يسهب في ابراز مآثر العهد وفضائل الخليفة ووجوب طاعته ، والخبران عن هذا التقليد يرجعان الى عصر المأمون ، ونرجح أنه لم يبتدعها ، وفي أخبار الخلفاء ما يدل - ولو بصورة مصغرة - على وجود مثل هذه المحاكمات العلنية ، ذات الطابع السياسي ، يحضرها أعضاء الأسرة الحاكمة ، وكبراء الدولة ، لقد قيل ان ابراهيم ابن المهدي قبض عليه وهو يحاول الهرب في ثياب امرأة ، وأن المأمون طلب مثوله على الحال التي أخذ عليها « ثم جلس مجلسا عاما ، وقام خطيب بحضرة المأمون يخطب بفضله ، وما رزقه الله ، جلت عظمته ، من الظفر بابراهيم يزيد . . » (٣ / ٣٢٤) وحين قتل الأمين واضطربت أوضاع الخلافة انتهز أبو السرايا الفرصة ، وخرج بالطالبيين في البصرة غير أن الحسن بن سهل ، قائد جيش المأمون ، تمكن من دخول البصرة ، وهرب الطالبيون وقبض على أحد زعمائهم : زيد بن موسى بن جعفر الصادق ، فما كان من الحسن بن سهل الا أن جلس مجلسا عاما من أجله ، ودعا به ، فأنبه ، ووبخه ، وقال : قتلت الناس وسفكت دماء المسلمين ، وفعلت ، وفعلت ، ثم أقبل على من حضره من الناس والهاشميين وغيرهم ، وقال : ما ترون فيه ؟ فأمسكوا جميعا ، وانبرى له قثم بن جعفر بن سليمان ، فقال : أرى أيها الأمير أن تضرب عنقه ، ودمه في عنقي » (٤ / ١١٣) وهكذا قدم زيد للقتل ، ولكن رجلا من أصحاب المناصب في عهد الرشيد (قائد البحرية) يتدخل ، ويمنع القتل ، لأن المأمون لم يأمر به صراحة وهو حفظي على من أيام عمره !!

وهكذا نكتشف أن المحاكمات السياسية ، ونظام الادعاء ، ونظام الدفاع ، وربما الأخذ بنظام المحلفين - أو القضاة الشعبيين - كان معروفا ، ويلجأ اليه في توجيه التهمة للشخصيات ذات المنزلة الاجتماعية والسياسية .

وحين نغادر دائرة الخلفاء الى دائرة الوزراء سنجد صور الصراع بين العرب والفرس ، منذ تأسيس الخلافة العباسية ، وعبر كل العهود ، وسنجد وسائل تجنيد الانصار ، ودس العملاء وتجميع المعارضين ، والوشاية ، واصطناع التهم ، واثارة الظنون وتوجيهها ، وتوزيع مناصب الدولة ، وجزء من ثروتها على المنافقين والأقارب . . كل هذا مما استشرى وكأنه وباء في الجهاز الاداري منذ تأسيس الخلافة ، وأخذ مداه في عصور الضعف ، في أعقاب عصر المتوكل الى أن خرج الأمر برمته من أيدي الخلفاء .

ليس بمستغرب أن نجد ولي العهد يكون لنفسه بطانة تناصره حتى على أبيه الخليفة وتستعجل انتقال السلطة اليه ، ويحدث أن يقف وزير الدولة في صف الخليفة ، ومن ثم ينتظره سوء المصير حين تنتقل السلطة الى ولي العهد ، فهذا الخليفة المهدي يختار ابراهيم الحراني كاتبا لابنه موسى الهادي في منطلقه الى جرجان ، ثم يبلغه عن هذا الكاتب ما لا يطمئنه فيأمر ابنه بارجاعه اليه ، ولكن موسى يتهرب من انفاذ الأمر حتى « كتب اليه المهدي : ان لم تحمله خلعتك من العهد ، واسقطت منزلتك » ، (٣ / ٣٢٦) فيذعن مضطرا ويرسل الحراني ، ولكن المهدي يموت يوم وصوله في ظروف غامضة ، (قيل بطعام مسموم ، وقيل سقط من فوق فرسه)ليصبح الحراني وزيرا للخليفة الجديد ، وينحى

الربيع عن الوزارة ، وفي مرة أخرى لاينحى بل يقتل ، فقد كان المعتضد يعتقد أن الوزير اسماعيل بن جبل هو السبب في سوء رأي أبيه الخليفة الموفق فيه ، وأنه الذي أغراه بحبسه حتى صار يخشى أن يقتل ، ومع أن الوزير أقسم وترضى وتنصل ، وهو لا يزال وزيرا ، فان ولي العهد لم يمهله حين أفضت اليه الخلافة ، (١ / ١٨٢) وهذا المتوكل يستدعي اسحاق المصعبي - صاحب الشرطة في بغداد ابان عهود المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل - ويسلمه عبيد الله بن سليمان بن وهب ، ويقول له : هذا عدوي فافصل لحمه عن عظمه ، هذا كان يلقاني أيام المعتصم فلا يبدأني بالسلام ، فأبدأه به لحاجتي اليه ، فيرد علي كما يرد المولى على عبده ، وكل مادبر ايتاخ (القائد التركي) فمن رأيه . (١ / ٢٠٦) .

لا يمكننا الاستطراد في مثل هذه الحوادث الدامية ، ويكفي أن نشير الى وزير مثل ابن الفرات ، الذي أخذ من الوزارة الى السجن والعذاب ، ومن السجن الى الوزارة ثم من الوزارة الى السجن والعذاب مرة أخرى ، وفيها قتل ، (٢ /٤٣) .

وقد كانت أقدار الكتاب والعمال من الولاة ، وأصحاب الخراج مرتبطة بمصائر الخلفاء والوزراء الذين يستخدمونهم ، فلا عجب أن تكثر نكباتهم ومصادراتهم وأن يفتنوا في اختراع وسائل الاختفاء ، وأن يفتنوا بتهريب الثروات ، وأن يستنزفوا أموال الناس حين تكون في أيديهم السلطة تحسبا ليوم يعزلون فيه ، ويطالبون بمبالغ خيالية يعرفون أنه ما من الوفاء بها بد ، ولابد ألا يبقى لهم شيء كثير بعدها . ولأن هذه الفترة من العصر العباسي - ونعني القرنين الثالث والرابع - فترة اضطراب سياسي وفساد اداري شنيع ، نجد الأخلاق العامة تتبعها : مضطربة فاسدة ، يصدر قرار الخليفة بسجن وزيره وتعذيبه فيسجن ويعذب باشراف كبار رجال الدولة ، لكنهم يترددون الى الوزير السجين سرا ، ويعتذرون اليه تحسبا لاحتمال عودته الى الوزارة (١ /٢٣٣) ويقبض الوزير محمد بن عبدالملك الزيات على سلفه الوزير عبيدالله بن سليمان بن وهب ، ويهينه ويعذبه ، وفي خدمته أخوه الحسن بن وهب ، فلا يجسر على أن يتشفع لأخيه عند الوزير ، ولا أن يخفف عنه البلاء (٢ /٩٢) ويسلم أبودلف العجلي - القائد البطل العربي - للأفشين بأمر المعتصم يفعل به ما يشاء ، ويتصدى القاضي أحمد أبي داؤود ، ويحتال في ذلك بطرق غير مأمونة ، فينقذه ، ويستهدف لعداوة الأفشين (٢ /٦٦) لهذا الخطر الماحق صارت الثروة هدفا يسعى اليه العمال ، وأصبح بذل الرشوة أو قبولها أمرا عاديا للحصول على الحماية أو اسباغها على من يطلبها (٣ /٢٥) والمتاجرة بأموال الدولة عملا مباحا (٢ /٧٦) ، ومن أقوى الأخبار دلالة على الفساد الاداري والمالي ما ذكر من أن بعض العمال تقلد الأهواز وأراد أن يبدأ عهده بتطهير جهاز الحكومة ، ومنع الرشوة ، والزام كل موظف بموقعه لا يتخطاه فأحسَّ كبراء المدينة بالخطر الذي يتهدد مكاسبهم وتسلطهم بمنع الرشوة عن الموظفين فاختار الكبراء واحدا منهم يكلم الوالي الجديد . يقول : « فجئته ، وخلوت به ، وبذلت له مرفقا جليلا (رشوة ضخمة) فلم يقبله ، ودخلت عليه بالكلام من غير وجه ، فما لان ، ولا أجاب . فلما يئست منه ، وكدت أن أقوم عنه ، قلت له : ياهذا الرجل ، أنت مقيم من هذا الأمر على خطأ شديد ، لأنك تظلمنا وتزيل رسومنا ، من حيث لا يحمدك السلطان ، ولا تنتفع أنت أيضا بذلك ، ومع هذا فأخبرني : هل تأمن أن تكون قد صرفت (طردت من الوظيفة) وكتاب صرفك في الطريق ، يرد عليك بعد يومين أو ثلاثة ، ومادام هذا

الاحتمال واردا ، والوالي لا يطمئن في موقعه الا أياما ، فلماذا تُضيّع فرصة تعويض ما يحتمل حدوثه ؟ وبالفعل اهتز ثبات الوالي ، وقبل المرفق (الرشوة) ولم تمض أيام حتى جاء خطاب صرفه عن الوظيفة ، فراح يشكر الوسيط القديم على نصيحته ، وهو لا يشك في أن هذا الوسيط عينا في بغداد تكاتبه بما سيحدث ، وأنه كان عارفا بما سيكون من انهاء خدمته بهذه السرعة (٣/٣٤) .

ثانيا : صور الحياة الاجتماعية :

لم نرد في هذه الفقرة أن نقدم وصفا للحياة الاجتماعية ، أو بعض جوانبها ، كما أننا لم نحاول في الفقرة السابقة أن نحصي أو نعرض الأخبار والشخصيات التاريخية التي احتفل بها الكتاب . لقد أردنا أن نشير الى أهمية هذا المجال ، وأن نضع تحت نظر القارىء نماذج مما يمكن أن يعتبر اضافة في هذا الجانب ، لأن كتب التاريخ لم تحفل به ، لسبب أو لآخر ، وفي صور الحياة الاجتماعية ، لن نتخلى عن هذا القصد ، ولن نتوسع فيه توسعنا هناك وبشكل عام فان القاضي التنوخي لم يعمد الى كتابة أو جمع قصص اجتماعية ، بالمعنى الذي نقصد الآن من استخدام هذا المصطلح أي تصوير العادات والتقاليد وأنماط السلوك ، وتسليط الضوء على بعض المشكلات ذات الطابع العام ، والتي تهم الطبقات الدنيا في المحل الأول ، فلسنا نظن أن هذا المعنى الاجتماعي ، أو ذاك المغزى الطبقي كان واضحا عند كاتب في القرن الرابع الهجري بمثل وضوحه الآن ، أو بما يقارب وضوحه الآن . ومع هذا فان القاضي التنوخي قد جمع قصصا عن اللصوص ، وعن العشاق ، يمكن أن تعتبر في صميم القصة الاجتماعية ، غير اننا أردناه « بصور الحياة » يتجاوز الى ما يصح التناصه في سياق أية قصة ، أو أي خبر .

ان علاقة التفاعل الجدلي بين التركيب الاجتماعي في مفرداته الطبقية لن يسمح بعزل أوضاع أخرى ، انها لابد أن تكون سببا ونتيجة في الوقت نفسه ، وقد رأينا كم كانت أوضاع الخلافة مترديّة ، وكان المنصب ألعوبة ، وكانت النساء من أمهات الخلفاء وزوجاتهم وجواريهم متحكمات ، حتى كان بعضهن يقمن في بيوتهن ـ ولابد أنها قلاع أو شبه القلاع ـ سجونا خاصة ، ويمكن لاحداهن أن تحكم على موظف عندها بالقتل ، دون أن يمرّ بأي مرحلة من مراحل التقاضي (٢/١٠٨) و (٢/١١٢) ومن الطبيعي أن يؤثر هذا الخلل الأمني الاجتماعي في الطبقة المتعاملة مع طبقة القمة ، فنجد الولاة والعمال يجِدُّون في جمع الثروات ويفتنون في حماية أنفسهم . كان أبوجعفر بن شيرزاد الكاتب يسكن دارا هي قلعة بالفعل وكان لها أربعة عشر بابا ، يفضي بعضها الى جهات وأزقة لا يعرف عنها أحد شيئا . وكان يملك من الغلمان المسلحين المستعدين لافتدائه ما استطاع به أن يعطل قرار الوزير ، ويرفض مغادرة بيته ، ويتحدى السلطة الرسمية حتى تمكن من الاختفاء خارج بيته الى أن أتاه الفرج (٤/٢٨) ، كما أنهم كانوا اذا هُدِّدَ أحدهم في حياته وقُدِّم للقتل ، هتف : وأين المصادرات ؟ أين أنتم عن أموالي أفتدي بها نفسي ؟ أما انا أحيط به من أجل الاستيلاء على ثروته ، التي لابد أن تكون تضخمت بشكل لا يسهل احتماله راح ينكر ثروته ، التي تفنن في اخفاء معالمها . ويصمد لعمليات التعذيب على عنفها ، ويساوم ليصالح على بعض المطلوب منه ، ويدعي أنه تسلّفه من أصدقائه وكرماء عصره ليتقذ نفسه ، وهذا رجل ذو خبرة ، يرشد أحدهم الى وسيلة يقنع بها الوزير أنه لا يملك المال الذي يطالب به . قال :

تكتب رقعة الى رجل من معامليك تعرف شحهُ وضيق نفسه ، تلتمس منه لعيالك الف درهم يقرضك اياها وتلتمس منه أن يجيبك على ظهر رقعتك ، لترجع اليك فانه لشحه ، يردك بعذر ، وتحتفظ بالرقعة ، فاذا طالبك الوزير اخرجتها له على غير مواطأة ، وقلت له : قد أفضت حالي الى هذا (٢/ ١١٥) .

وجدير بالذكر هنا أن الخلفاء كانوا ـ عادة ـ على علم بالثروات المخبأة ، ولم يكونوا يعترضون عليها أو يمدون اليها أيديهم ، الا اذا رأوا أنها صارت من الضخامة بحيث تهدد جانبا من سلطانهم ، أو أن يواجه الخليفة أزمة سياسية يحتاج حلها الى المال بشكل غير عادي ، ولا تسعفه الخزانة العامة ، وتشح نفسه عن اخراج المطلوب من ماله الخاص ، فحينئذ يلجأ الى المصادرة والاستصفاء ، وهو سلاح مشرع في أي وقت ، وله مسوغاته الجاهزة . يدل خبر عن الرشيد أنه رضي عن فرج الرخجي ، وأعاده عاملا على الأهواز حين اعترف أمامه بمقدار ثروته الحقيقية ، ومصادر حصوله عليها في مرحلة عمله السابقة وعرض هذه الثروة الضخمة على الرشيد ليأخذها . ودلّ على مكانها ، فقال الرشيد ، بارك الله لك في مالك ، ارجع الى عملك (١/ ٣٦٨) وخبر آخر عن المأمون ، أنه دعا يوما بأبي عباد ، وأمره أن يأتي عمرو بن مسعدة ، ويدوّن معه ورقة بكل ما يملك بالتفصيل ، ويوقعان عليها معا ، ويحتفظ بها أبوعباد ، وتكون المفاجأة التي لم يفهم سرها أبوعباد أن عمرو بن مسعدة لديه أمر من المأمون أن يفعل الشيء نفسه مع أبي عباد . ويوضح ابن مسعدة اللغز ، فيقول : ان صاحبنا ـ يعني المأمون ـ ليس ببخيل ، ولكنه رجل يكره أن يطوي معروفه ، وانما أراد أن يعلمنا أنه قد علم بما صار الينا ، فأمسك عنه على علم (٣/ ٤٤) وقد أوضح المأمون ـ فيما بعد ـ قصده ، فهو لم يستكثر على رجال دولته ما جمعوا من ثروة ، ولكنه أراد أن يزيل عنهم همّ المصادرة ، وثقل المراقبة !! أما هذه الثروة التي سامح فيها المأمون رجليه فقد كانت اربعين الف الف درهم لابن مسعدة ، وسبعة وعشرين الف الف لأبي عباد !! هذه صورة الطبقة العليا في المجتمع ، تتحرك بين قطبين متباعدين ، يمثل الثراء والسلطة جانب ، والمصادرة والسجن جانب آخر ، وبين هذا وذاك حياة متوترة بالترف وانتهاب اللذات ، وانتهاز الفرص وتوقع الفاجعة وزوال السلطان ، ولكنها تمارس جبروت التحكم والعسف ، لعل هذا يؤخر في نزول المحنة القادمة لا ريب . هذا الوضع العام ، بما يشيع من جوّ نفسي كان له أثره ـ لا ريب ـ على النظام الاجتماعي . لقد عرف هذا العصر انتفاضات كبرى ، كثورة الزنج في منطقة البصرة . وثورة القرامطة وقد بلغ بهم الحال أن نزعوا الحجر الأسود من الكعبة ، وطردوا الحجاج ، ووصلوا بجيوشهم الى بغداد العاصمة التاريخية ، وان مناقشة هذه الحركات الانفصالية بمعزل عن غياب العدل الاجتماعي ، واضطراب النظام المالي للدولة الاسلامية ، واعتماد الخلفاء على الجنود المرتزقة من ترك وديلم في حماية دولتهم ، يؤدي الى نتائج قاصرة ، وهذه القصص الكثيرة التي تنتشر في الكتاب . يمكن أن تجد فيها ملامح التداخل بين هذه الظاهرات جميعا ، وكيف كان كل منها يرتبط عضويا بالآخر .

لقد قدم القاضي التنوخي صورا نادرة لحيل اللصوص ، ونماذج لسلوكهم وتقاليد مهنتهم ستجد للصوص نقيبا ، يعرف شخصية السارق من أسلوب سرقته ، والمنطقة التي وقعت بها السرقة وهو يمارس مهام رئيس الطائفة حتى وهو في السجن ، فيتشفع في ردّ مال مسروق (٤/ ٢٥١) وتجد قاطع طريق يستبيح مال التجار وينهبه معتمدا على فتوى فقهية ، مؤداها أن المال الذي لا تخرج زكاته يفقد حرمته ، فيأتي بالتجار الذين أخذ تجارتهم ويسألهم كيف يؤدون

زكاتها ؟ بأية نسبة ؟ ومتى ؟ وهل تخرج زكاة الديون ، والمدخرات الذهبية ، الخ ، ويكشف أمامنا عجزهم وتخبطهم بما يدل على أن حق الله في هذا المال لم يصل الى مستحقيه ، ومن ثم لا حرمة له (٢٣١/٤) ونتعرف على « ابن حمدي » اللص البغدادي المشهور بالفتوة والظرف ، وكان لا ينهب أصحاب البضائع القليلة . وسنجد أبلغ بيان عن محركات اللصوصية يقولها ابن حمدي هذا ، الذي يجد في قطعه للطريق عملا أقل قسوة وضررا مما يفعل الوزراء والولاة في الناس ، يقول لواحد ممن سلبهم أموالهم « الله بيننا وبين هذا السلطان الذي أحوجنا الى هذا ، فانه قد أسقط أرزاقنا ، وأحوجنا الى هذا الفعل ، ولسنا فيما نفعله نرتكب أمرا أعظم مما يرتكبه السلطان . وانت تعلم أن ابن شيرزاد ببغداد يصادر الناس ويفقرهم ، حتى أنه يأخذ الموسر المكثر ، فلا يخرج من حبسه . الا وهو لا يهتدي الى شيء غير الصدقة ، وكذلك يفعل البريدي بواسط والبصرة ، والديلم بالأهواز . وقد علمت انهم يأخذون أصول الضياع ، والدور ، والعقار ، ويتجاوزون ذلك الى الحرم والأولاد ، فاحسب أننا مثل هؤلاء ، وأن واحدا منهم صادرك .

فقلت : أعزك الله . ظلم الظلمة لا يكون حجة ، والقبيح لا يكون سنة ، واذا وقفت أنا وانت بين يدي الله عز وجلّ ، أترضى أن يكون هذا جوابك له ؟

فأطرق مليا ، ولم أشك في أنه يقتلني ، ثم رفع رأسه ، فقال : كم أخذ منك ؟ فصدقته . فقال : أحضروه . فأحضر ، فكان كما ذكرت ، فأعطاني نصفه » (٢٣٩/٤) . هكذا يبدو قاطع الطريق صدى لأخلاقيات العصر وسياسته ، ويبدو ـ في نظر نفسه ـ أكثر رفقا وانسانية وأرفع خلقا من الوزراء والولاة فيما ينزلونه بشعوبهم ، فهو لا يستأصل رأس المال في الضياع والعقار ، ولا يتطلع الى الحرم والأولاد ، انه يكتفي بنهب المال المنقول ، وقد رضي هذه المرة بالقسمة مناصفة .

وبصفة عامة فان قطاع الطريق واللصوص كان لهم نفوذ شبه معترف به في المناطق التي يسيطرون عليها ، وكان منسر بعضهم يبلغ مائة نفس ، بأسلحتهم وعددهم « كالعسكر العظيم » ، ويلفتنا أن القاضي التنوخي يصور الجوانب الانسانية والدوافع النفسية لدى هذه الطائفة الخارجة على النظام ـ ان كان ثمة نظام ـ ولم يصورهم في حالة متفردة أو قاسية الا نادرا ـ وقد كان بعضهم لا يعبأ بسلطة الدولة ويقطع طريق النهر على قافلة بحرية تحمل رسالة من الخليفة ولكن الغالب أنهم كانوا يتجنبون الصدام مع السلطة ، التي كانت تتغافل عنهم في حدود ، وقد تقبل مصالحة بعضهم ومقاسمته مكاسبه ، بشرط أن يتوب ، كما قد تعجب بشهامة بعضهم وفروسيته فلا تسرع الى معاقبته . واذا جاوزنا القصص التي عقدت لقطاع الطريق والمتلصصة ، فاننا سنجد علامات غياب الأمن ، وتعرض القوافل والأفراد للسلب تكاد تكون جزءا من تركيب القصة ، وملامح المجتمع في تلك الفترة المضطربة .

وفي الجزء الرابع بصفة خاصة ، في باب : « من نالته شدة في هواه ، فكشفها الله عنه وملكه من يهواه » سنجد بعض قصص المحبين العذريين في نمطها التقليدي الذي نجده في كتاب « الأغاني » ولكن الأكثر أهمية أننا سنجد عددا من القصص المحبوكة فنيا ، يقوم بدور العاشق والمعشوق فيها السيد وجاريته غالبا ، أو شاب حر وجارية يملكها بعض

السادة من علية القوم أو الجيران ، في أحيان أخرى ، وهذا النوع من القصص يضع أمامنا نوعا من العلاقات الاجتماعية أهملته الدراسات التراثية على تنوعها . هناك بعض الكتب التي اهتمت بأخبار القيان (الجواري المغنيات) أو الجواري بصفة عامة ، ولكنها اهتمت غالبا بأخبارهن في مجال الغناء أو اللهو والعبث ، أو النفوذ السياسي على سادتهن ، ونادرا ما نجد اهتماما بالحياة العاطفية لأولئك الجواري ، وكأننا نفترض ـ أو افترض القدماء ـ أنها مادامت مملوكة فلابد أن تكون مذعنة لسيدها ، خاضعة لرغباته ، وهذا التصور مبدأ من افتراض خاطيء ، فأول شرائط الحب أنه يقوم على اعتراف عميق بحرية الطرف الآخر وحقه في أن يمنح أو يمنع عن طواعية ورغبة حقيقية ، وهذا بدوره اعتراف بالمساواة بين العاشق والمعشوق ، وليس مصادفة أن أقوى قصص الحب العذري اتخذت من البادية مهادا لها وموطنا ، حيث تستقر أسس المساواة بين أفراد القبيلة ، وبين القبائل المتناظرة تتكرر في هذه القصص « لازمة » السيد الذي لا يبقى له من الدنيا غير جاريته المحبوبة قد تقترح عليه أن يبيعها ليعيش بثمنها ، وقد تعزيه بأنها ستصادف سادة أغنياء يتمكنون من اطعامها وكسوتها ، وقد يأتي الاقتراح من جانب السيد ، لنفس الدوافع ، ولكنه في كل مرة يضعف في اللحظة الحاسمة ، ويرفض البيع برغم الثمن الجزيل المعروض فيها ، ولا يكتفي بالاحتفاظ بها في ملكه ، بل يعلن أمام الشهود أنه أعتقها ، وجعل عتقها صداقها ، ويطلب منهم أن يزوجوها له .

هذا النوع من القصص يدل على المنزلة الاجتماعية التي حظيت بها الجواري في العصر العباسي وهو عصر عرف الخلفاء من أبناء الجواري ، ولم يحتل مكان الخليفة في هذا العصر على طوله من أبناء الحرائر غير السفاح ـ مؤسس الدولة ، والأمين ابن زبيدة . وقد كانت الجارية فارسية أو رومية ، فكأنها تمثل ما يحدثه التفاعل الحضاري في ذلك الحين . وبذلك كانت مساحة الخطوة الفعلية ، حتى على الجزيرة العربية ، التي تكتفي بمظهر السيادة ولم يكن السيد الرجل يتردد في أن يخضع لجاريته ، بل يتذلل ، ويسترضيها قائلا : ياستي وسألها أن تصفح عنه ، ويرضى بأن تشاركه عيشه الفقير ، على أن يبيعها ويعيش ثريا محروما منها ، وستجد عندها الوفاء لهذا السيد العاشق ، فلم يحدث أن جارية فضلت أن تباع للأثرياء ، على أن تبقى زوجة لسيدها الفقير ، بل انها تعاونه على اجتياز محنته ، بما تجيد من فن .

لا نريد أن نتوسع أكثر من ذلك ، حتى لا يخرج هذا الفصل عن الحجم الذي ارتضيناه ونكتفي بمجرد الاشارة الى أوجه أخرى تظهر فيها صور المجتمع العربي في القرن الرابع بتفاصيل أدق وأصدق مما صور المؤرخون في قمة الرصد الاجتماعي للسلوك العام ، وأنماط المعيشة ، وألوان التغيّر .

أ : العادات والتقاليد مثل كتابة الأحجبة بقصد التأثير لاستجلاب الرضا أو تجنب السخط (١/٢٢٤) وتحصين الأطفال بوضع رغيف تحت وسادة الطفل والتصدق به صباح كل يوم (٢/٢٩٢) وتعليق رقع فيها شكاوي ومظالم في محراب المسجد ، أو في قبور أئمة أهل البيت (١/٢٣٩) .

ب : نظام الشرطة ، ونجد للنظام الأمني مصطلحات وتحركات طريفة : فهناك الشرطة والعسس ، والطواف أو الطائف (٤/١٠٧) وقد كانت بغداد مقسمة الى أربعة أقسام أمنية ، ولكل قسم مسئول ، يعاونه جهاز ينتشر على مساحة الربع ، ويرفع اليه تقارير ، تتجمع في تقرير واحد ، يقدم يوميا الى صاحب الشرطة .

جـ : وهناك السجون وأنواع العقوبات وكانت درجات ، تتدرج شدة واذلالا ، فالمطبق كان كالحفرة ، وكانت كل زنزانة تسع لسجين واحد وهو جالس ، وفي ديماس الحجاج كان المسجونون جميعا في سلسلة واحدة ، والى جانب السجن الحفرة ، وجد السجن المكشوف للسماء ، يحده سور عال ، ولا يقي المساجين أي شيء في الصيف أو في الشتاء ، وكان يحدث أن يسلم الكبراء الى نظائر لهم يسجنونهم في بيوتهم ، فهذا نوع من تحديد الاقامة ، أو السجن السياسي ولكنه لم يكن يخلو من عذاب .

وتتدرج العقوبات من الصفع ، الى التجريد والجلد ، وقد قتل الخليفة ابن المعتز باعتصار خصيتيه حتى الموت .

د : الرسوم : وتراعى فيها منزلة صاحب السلطان ، فالخليفة تقبل رجله ، ويده ، ويقبل العمال البساط بين يديه ، وقد يحظى الوزير أو الكاتب بشيء يشبه هذا ، وكان للخليفة كما للوزير يوم عام يجلس فيه لاستقبال العامة من أصحاب الحاجات ، ويجلس من حوله أركان دولته : الوزير والكاتب وقاضي القضاة ، كل على درجته . وفي الايام الأخرى لا يدخل عليه الا باذن سابق .

هـ : أسلوب الحفاوة : وتتكرر في القصص والأخبار طريقة الاحتفاء بعزيز قادم بعد غياب ، أو اكرام غريب وافد . كان الأمر عادة يبدأ بادخاله الحمام ، وتقديم الطعام ، ومؤانسته ، ثم سؤاله عن حاجته وكانت المدن محاطة باسوار ذات أبواب تغلق عقب الغروب ، فاذا وفد الى المدينة أحد بعد اغلاق الأبواب لم يسمح له بالدخول ، ونجد دائما قريبا من باب المدينة ـ خارج السور ـ مسجداً يقضي به الغرباء ليلتهم حتى يفتح الباب مع الصباح ، ومثل هذا المسجد كان يبنيه الكبراء قرب بيوتهم ويؤمون أتباعهم في صلاة الجماعة كل يوم . وكان من عادة رجل العلية أن ينهي صلاته بوقار ، ويتمهل قليلا ليتم دعاءه وتسبيحه ، ثم ينظر خلفه يستعرض وجوه المصلين ، ومن ثم يكتشف الوجوه الغريبة ، ويعرف أنهم وفدوا لحاجة فيصحبهم ـ بين رجاله ـ الى جناحه الخاص ، ليسأل كلا منهم عن مطلبه ، ويحسن الى من جاء منهم يطلب الاحسان .

ثالثا : المحاور الأخرى :

وقد تضمن الكتاب عددا كبيرا من الحكايات الشعبية ، لا تستند الى خبر تاريخي ، ولا تحرص على الاقتراب من الواقع الاجتماعي ، ان هدف الحكاية الشعبية هو الترفيه ، تسلية المستمع أو القارىء باثارة دهشته وتخاوفه وايمانه القدري بان ما يريده الله يكون مهما كانت رغبة الانسان . في هذه الحكايات تلعب المفاجآت دورا مهما ولكنه يصنع العبرة في النهاية ، وهنا تلتقي الحكاية الشعبية مع القصة الوعظية التي تهدف الى غاية أخلاقية ، وان لم تحرص على التسلية فانها لا تعبأ كثيرا بالواقع والمنطق ، لانها تساق أصلا في نطاق المعجزة . ولأن القصّ من أجل الوعظ كان بداية طريق القصة الاسلامية التراثية ، فان أخبار بني اسرائيل والعرب البائدة ، وجوانب من عصر صدر الاسلام ، تظهر في هذا المجال تأتي مطلقة أحيانا ، وأحيانا منسوبة الى نبي ، فهذا نبي أو صدِّيق ذبح عجلا بين يدي أمه فخبل ، ومسح

عن فرخ أمام أمه فتأب عطله . (١٤٩/١) أما النبي دانيال فقد ألقي الى أسود جائعة فذلت له حتى وضع رجليه على رؤوسها (٧٩/١) وحكاية جحا المشهورة الساخرة ، عن حماره الذي قطع ذيله ، وامرأته التي اسقط حملها ، تروى عن سدوم ، وأن الله أهلكهم بها (٩٦/٣) أما قصص الوعظ القريبة الى عصر المؤلف فانها لا تختلف عن الحكاية الشعبية الا في غايتها الأخلاقية القدرية . وأكثرها يقوم على مصادفة ، فهذا رجل يقسم الا يأكل لحم فيل ، فيكون ذلك سبب نجاته وثروته (١٩١/٢) وآخر يحمله الأسد الى عرينه ليأكله ، فيجد هناك الثروة وفرصة النجاة (١٣٩/٤) وهذا أسد يقطع الطريق على دائن ومدين ، وكان الدائن قاسيا متشددا ، فأكل الدائن وسلم المدين (١٥٤/٤) الخ .

وتشغل قصص وأخبار آل البيت حيزا مهما ، وتتسلل في طوايا قصص أخرى كثيرة وقد ترجم صاحب « أعيان الشيعة » لابن القاضي التنوخي ولأبيه على أنهما من الشيعة . أما القاضي أبو علي المحسّن ، كاتبنا ، فقد ذكرت مصادر أخرى أنه معتزلي ، حنفي المذهب ، وليس ما يمنع من تعاطفه وتعلقه بآل البيت مع اعتزاله وحنفيته . فالأسد لا يأكل أبناء علي وسلالتهم (١٧٠/٤) وشخصية الامام علي تتراءى في المنام للظالمين والذين يوشكون على الوقوع في الخطأ ، فتظهر لهم وجه الصواب أو تردعهم ، ولا يقوم معها بهذا العمل غير الرسول عليه السلام ، وقد يظهر النبي في المنام ليوصي بأحد العلويين (٢٨٠/٢) بل أن المعتضد لم يعرض في خلافته للعلويين ، وتفسير ذلك أنه حين كان سجينا رأى عليا في المنام ، فبشره بالخلافة ، وهو الذي لقبه المعتضد (٢٠٩/٢) ولا يظهر بعد الرسول وعلي في المنام غير الحسين وفاطمة (٢٩١/٢) وتتراءى عبر قصص كثيرة المنزلة السامية التي يشغلها آل علي في قلوب جمهور المسلمين ، فزيارة الحائر (قبر الحسين في كربلاء) لها موسم يتطلع الناس فيه أفواجا ، وحرايتهم في أموال أتباعهم ثابتة كالفرض ، أو هي فرض ، على أن أخلاقهم ونبلهم وترفعهم عن شهوة الانتقام من خصومهم وتنزيه ألسنتهم عن هجر القول ، وحرص عامة المسلمين وخاصتهم على سماعهم ، والتقاط أدعيتهم ونصائحهم ، مما نجد عليه أدلة كثيرة لانتشارة في أثناء القصص .

أما القصص التعليمية ، فانها تكون عادة واضحة التلفيق ، وهي لا تعبأ بغير ما وضعت له ، وهو تفسير مناسبة أبيات ، أو شرح حكمة ، أو خطبة . . . الخ . وتضحي القصة التعليمية بالجوانب الفنية الا نادرا ، وسنجد قصصا لشرح مسائل فقهية ، عن زكاة المال ، وحرمة عروض التجارة ، وحق ابن الرقيق في وراثة أمه الحرة (٧٤/٣) وقصصا لشرح أبيات (١٠٢/١) و (٢٨١/١) و (٣٩٦/٢) وغيرها . ومن هذا النوع نجد قصة واحدة طريفة ، سنتوقف عندها في الفقرة التالية وهي قصة « حائك الكلام » .

هذه ـ باختصار ـ مجالات الاهتمام الأساسية التي تحرك بين أقطارها القاضي التنوخي ، وهناك محاور غيرها ، كالقصص التي هدفت الى تصوير أساليب علاج الأمراض المختلفة ، والقصص التي صورت الأثر السيء لحياة الجنود المرتزقة ـ الترك بخاصة ـ في بغداد وما أنزلوه بأهلها من مظالم واعتداء على الحرمات ، ولن يكون هذا التعريف مغنيا عن قراءة مفصلة تكون أكثر وفاء للدلالة على آفاق المعرفة ، وأنواع الخبرات ، التي استمد منها القاضي التنوخي ، مادة كتابه « الفرج بعد الشدة » .

٧ ـ البناء الفني للقصة :

باستثناء الأدعية ، وبعض أمثلة الوعظ ، والاقتباسات الشعرية ، تشغل حوادث التاريخ وشخصياته ـ على اختلاف في أهمية الخبر أو منزلة الشخصية التاريخية ـ الحيز الأكبر من الكتاب ، بل تكاد تكون طابعه العام ، وهذا واضح في ترتيب المصادر التي اعتمد عليها الكاتب ، ونقل عنها ، وتليها حوادث وشخصيات ليست من التاريخ ، أو لا تحتسب عادة على التاريخ ، لأنها معاصرة لحياة المؤلف ، أو قريبة جدا من عصره ، أو لأنها لم تشغل في حياتها مكانا مهما يرقى بها الى مستوى الحدث التاريخي أو الشخصية التاريخية ، ثم تليها أخيرا حوادث وشخصيات مخترعة ، واضحة الوضع ، وهذا التقسيم « الموضوعي » ليس هو التقسيم الفني ، الذي يحتكم عادة الى الصياغة ، ولهذا فاننا استخلصنا من قبل مصطلحات : الخبر ، والقصة والحكاية . وهذا التقسيم الفني لا يتوكأ على الصلة بالتاريخ ، أو الواقع ، وانما يعتمد على التشكيل الفني للمادة .

نذكر هنا أن القصة تروي خبرا ، ولكن ـ كما يقول رشاد رشدي ـ لا يمكن أن نعتبر كل خبر أو مجموعة من الأخبار قصة . فلأجل أن يصبح الخبر قصة يجب أن تتوفر فيه خصائص معينة أولها أن يكون له أثر كلي ، وأن يكون للخبر بداية ووسط ونهاية ، أي أنه يصور ما يسمى بالحدث ، ينتهي الى لحظة كشف ، أو ختام يمنح الحادثة مغزاها ، يسمى : لحظة التنوير[٣٧] كما نذكر النموذج المبسط الذي أوضح به القاص الناقد فورستر أهم خصائص البناء الفني ، وهو « الحبكة » فيرى أن « الحكاية » مجموعة من الحوادث مرتبة ترتيبا زمنيا ، أما « الحبكة » فهي سلسلة من الحوادث يقع التأكيد فيها على الأسباب والنتائج ، فاذا قلنا : « مات الملك ثم ماتت الملكة بعد ذلك » فهذه حكاية ، أما : « مات الملك ، بعدئذ ماتت الملكة حزنا » فهذه حبكة وقد احتفظنا بالترتيب الزمني ، ولكن الاحساس بالأسباب والنتائج يفوقه . أما « ماتت الملكة ولم يعرف أحد سببا لموتها حتى اكتشف أنها ماتت حزنا على وفاة الملك » فهذه حبكة بها سر غامض[٣٨] .

وينبغي أن ننبه هنا الى الفرق بين استعمالين للحكاية ، فهي في البناء القصصي تعني التتابع الزمني للحوادث الجزئية ، وكأنها جواب عن سؤال يتكرر : فما الذي حدث بعد ذلك ؟ ولكن حين توصف بها حادثة بكاملها ، فيقال انها تنتمي الى جنس الحكاية ، أو الحكاية الشعبية . ولا شك أن الوصف بالشعبية أضيف لنفي وقوع الالتباس ، فانها تعني الأشكال القصصية حين تبتعد عن الطابع الانساني ، والسلوكيات الاجتماعية ، وتتعلق بالجوانب الخرافية لأهداف وعظية وتعليمية تهذيبية ، وتفترض نزوع الخيال الى المغامرة والبطولة ، وغالبا ما يكون التماسك بين أجزاء الحكاية غير متقن ، لاعتماده على المصادفة ، كما أن « الحكاية » لا تحرص على العنصر الانساني انها تتحرك في عوالم الحيوان ، والجان ، وتصور فعل الخوارق والسحر ، وما يقترب من هذه الأجواء ، بعكس القصة .

---

(٣٧) فن القصة القصيرة ص ١٥ ـ ٦٠ .
(٣٨) أركان القصة ص ١٠٥ .

لعله قد وضح الآن كيف يمكن أن يظل الخبر التاريخي مجرد خبر ، وكيف يمكن أن يغادر التاريخ الى الفن اذا ما تشكل وفق أصول الفن القصصي ، بل كيف يمكن أن يبارح الخبر التاريخي دائرة القصة ، الى دائرة الحكاية الشعبية ، اذا ما أسرف الخيال في تصويره ، وأضفى عليه من المبالغة وخاض به من العوالم ، وعلق عليه من الأعمال البطولية ، ما يخرج به عن السوية الانسانية .

وهذا هو القياس الذي احتكمنا اليه .

لن تعرض للخبر التاريخي ، فهو خارج دائرة الصناعة الفنية ، ولكننا سنتوقف طويلا عند القصة والحكاية الشعبية ففيهما تظهر موهبة الكاتب .

وقبل أن نحاول اكتشاف مجموعة الأسس الفنية التي آثرها الكاتب فيما أورد من قصص ، سنسلم مبدئيا بأنه ليس مؤلف هذه القصص . كيف وهو يذكر مصدرها وسلسلة رواتها قبل نصها ؟ لنقل اذا : انه اختار قصصه وفق هذه الأسس الفنية ، أو لنقل : ان هذه الأسس تنتمي الى القصة التراثية في الأدب العربي بعامة . ومن جانبنا ـ فاننا وان كنا لا نستطيع أن نطرح من معارفنا المصطلحات النقدية الخاصة بفن القصة القصيرة ، وهي شكل معاصر ـ ينبغي أن نضع في الاعتبار استقلال القصة القديمة بأصولها الخاصة . ان « الحبكة » هي أهم عناصر البناء القصصي ، ونحن ـ على أية حال ـ نتجاوز بها ما حددها به فورستر ، وهو التركيز على الأسباب والنتائج ، الى قضية أدق ، وهي : كيف تعاونت جزئيات العمل ، أو مراحله ، لتصنع في النهاية شيئا واحدا لا يسهل تحويله الى أشلاء ؟ وهنا تختلف مستويات القصص التراثية ، كما تختلف مستويات الكتاب في خبرتهم ، وقدرتهم على اثارة التشويق دون مغادرة الخط الأساسي في القصة .

ويمكن أن نرصد ثلاثة أنواع من الحبكة : التقليدية ، والقصة داخل القصة ، والقصص المتحاورة • الحبكة التقليدية وضح معناها في التعريف ، وهي الأكثر انتشارا ، واتقانها يحتاج الى قوة الملاحظة ، والتركيز ، ونجد عليها أمثلة كثيرة نكتفي بإشارة الى واحد منها ، وهي من قصص اللصوص (٤ / ٢٥٦) فقد نفذ أحد اللصوص عملية سرقة لمحل بزاز (تاجر أقمشة حريرية) معتمدا على ذكائه وثبات أعصابه ، فقد جاء الى الدكان وقد تزيا بزي صاحبه ، ومعه شمعة ومفتاح ، وصاح بالشرطي الذي يحرس الدكاكين أن يشعل الشمعة ويحملها حتى يتمكن من فتح الدكان ، لأن له فيه شغل ، وهكذا تحت سمع الحارس وبصره جلس اللص وسط البضائع يكتب ويحسب ، ثم نادى الحارس من جديد أن يطلب له حمالا ، فذهب فأحضر الحمال . الذي حمل أربع رزم ثمينة ومضى مع اللص الذي لم ينس أن ينفح الحارس بدرهمين . واستيقظ سوق بغداد ، وجاء التاجر صاحب الدكان ليفتح الأبواب ، فأقبل عليه الحارس يشكره على ما أكرمه به ليلة أمس ، فاستراب الرجل ، ثم تأكد حين فتح الباب ، ووجد أثر الشمعة ، ومكان الرزم المسروقة ، وهنا ـ دون ضجيج ـ استدعى الحارس وسأله : من الذي حمل معي الرزم البارحة ؟ فلما عرف أنه حمال ، طلب منه احضاره هو بنفسه ، فأحضره الحارس ، فاعتذر التاجر للحمال بأنه كان البارحة منتشيا (شارب نبيذ) ولم يدرك أين ذهب بالرزم . فأخبره الحمال أنه ذهب معه الى شاطىء النهر ، وأنزل بالرزم معه في زورق ملاح معين . فذهب التاجر الى

الملاح وسأله : أين حملتني أمس مع أقمشتي ؟ فحدد له المكان ، كما حدد له الحمال الذي ساعده في مغادرة الزورق ومضى معه . فدعا بالحمال ولاطفه ، وأعطاه شيئا ، وسأله عن الموضع الذي انتهى اليه ، فدله على غرفة خارج البلد ، مشرفة على الصحراء ، على بابها قفل ، ما لبث أن كسره التاجر ، فوجد رزمه الأربع كما هي ، ووجد قريبا منها مئزرا ، لفها فيه ، وحملها الحمال ، وانصرفا ، حين خرج من الغرفة استقبله اللص ، وفهم الأمر ، فاتبعه الى الشط ، ونزل التاجر والحمال الى السفينة ، فدعا الحمال من يحط عنه ، فتقدم اللص يساعده كأنه متطوع ، وأنزل الرزم الى السفينة ثم وضع المئزر على كتفه ، وقال للتاجر : يا أخي ، أستودعك الله ، فقد استرجعت رزمك ، فدع كسائي .

هذه قصة تبدو عادية ، من السهل تأليف مثلها ، ومع هذا فقد روعيت فيها أصول صناعة القصة ، وركبت تركيبا جيدا . فقد كان التاجر « يطلب التلصص في حداثته ثم تاب وصار بزازا » وهذا يفسر سيطرته على أعصابه حين فوجىء بالسرقة ، ويفسر قدرته على تصور ماحدث ، والطريقة المثلى لتتبع الخيط ، حتى يقوده الى مكان المسروقات ، وهذا يفسر نداء اللص له في آخر القصة « يا أخي » فقد أدرك هو أيضا أن هذا الدهاء ليس دهاء التجار ، الذين تتجلى مواهبهم في اقناع المشترين ، وانما هو دهاء مجرب يعتمد على الحيلة ، وشخصية اللص مبنية بناء سليما من الناحية السيكولوجية ، فهو يعرف أن من دأب الحارس في الأسواق أن يسأل المتردد المتلفت ، وينصرف عن الواثق التلقائي ، وقد سأل الحارس ، قبل أن يسأله ليشغله بالجواب ، ولم يكتف بسؤاله ، بل صاح به ، وطلب معونته في فتح الدكان ، وهكذا نفى عن خاطره تماما أنه ليس صاحب الدكان . وتمثل هذه الثقة عمل الآخر أيضا ، فلم يفجأ أي واحد ممن عاونوا اللص أن سرقة قد حدثت وأنه قد ساعد اللص في اتمامها ، ولعل هذا لو حدث لأنكر الجميع أنهم شاهدوا أحدا أو عرفوا شيئا ، بدءا من الحارس ، الذي لابد أن يدرأ تهمة المواطأة أو الاهمال عن نفسه ، وقد استعمل التاجر لغة الرفق والحيلة مع الحارس ، والحمال ، والملاح ولكنه مع الحمال الأخير جاوز الملاطفة الى الرشوة « أعطاه شيئا » فهذا الحمال الأخير هو عقدة الموقف . لقد انتهت كل الخيوط عنده ، وفي استطاعته أن يفسد كل المراحل السابقة لو أنكر أو ضلل ، وأيضا فانه اذا كان للسابقين عذر في عدم معرفتهم بأن الرجل لص ، فان هذا الأخير كان ينبغي أن يعرف ، ويغلب على الظن أنه يعرف ، فليس من اليسير ايجاد مبرر مقبول لوضع رزم الحرير في غرفة خارج المدينة ، قريبة من الصحراء . من هنا كان المال بمثابة الجزاء و « تطمين » ومصالحة ، على افشاء سرّ الخطوة الأخيرة .

أما القصة داخل القصة فقد تكرر استخدامها ، وهي تحتاج الى مهارة في الربط بين القصتين بحيث لا يبدو الانتقال مفتعلا ، أو لا مسوغ له ، فضلا عن ضرورة توحيد المعنى العام ، والمغزى ، لأن القصة الثانية هي بمثابة جواب عن السؤال المطروح في القصة الأولى ، وقد وفقت بعض المحاولات ، كما أخفقت محاولات أخرى . من التجارب المفككة التي افتقدت الرابط العضوي بين القصتين قصة عمر بن أبي ربيعة والجعدي والفتاة الفارسية المتخفية في ملابس الرجال (٤٠٢/٤) وقصة زينب بنت سليمان الهاشمي ، مع شاب علق احدى جواريها ، وجاء يستوهبها فوصفته بالحمق وراحت تقص عليه قصة أخرى ، بطلتها مزنة امرأة مروان بن محمد ، وقد ذهبت أيام عزها ، وجاءت تستجدي الخيزران فأهانتها ثم تراجعت فأكرمتها . القصة الأولى مجرد مدخل ، ولا رابط بين القصتين الا كرم زينب وحكمة تصرفها (٧٥/٤) .

يمكن أن تجد نموذجا مقبولا في قصة محمد بن زيد العلوي ، صاحب طبرستان ، وكان من عادته أن يفرق ما يبقى في بيت المال ، آخر كل عام ، بحيث يأتي خراج السنة الجديدة وليس في بيت المال شيء . وكان يوزع على قبائل قريش ، والأنصار ، والفقهاء ، ثم عامة الناس . وحدث أنه كان يفرق المال ، فلما انتهى من بني هاشم ، دعا بسائر بني عبد مناف فقام شاب وانتسب ، فاذا به من أحفاد يزيد بن معاوية وقد قتل الحسين رضى الله عنه في خلافته . « فنظر اليه العلويون نظرا شديدا ، فصاح بهم محمد وقال : كفوا عافاكم الله ، كأنكم تظنون أن في قتل هذا دركا أو ثأرا بالحسين . . . والله ، لا يعرض له أحد الا أقدته به ، واسمعوا حديثا أحدثكم به ، يكون قدوة لكم فيما تستأنفون من أموركم » .

وهكذا تبدأ القصة الثانية ، وتستمر في اطار الأولى ، ولتأكيد الغاية منها ، وقد جرت في زمان آخر ، لشخصيات أخرى ، لكنها لم تنفصل عن الجوّ الذي رسمته القصة الأولى : فقد كان المنصور في مكة ، وعرف أن محمد بن هشام بن عبدالملك فيها ، فدعا الى صلاة جامعة في الحرم ، ليتمكن الحراس من اكتشافه والقبض عليه ، وعرف الفتى الأموي انه مقتول لا محالة ، ولم ينقذه بتضليل الحراس الا محمد بن زيد بن علي بن الحسين ، رضي الله عنه ، اذ طرح رداءه على رأسه ووجهه ، وأخذ يجره على أنه جمّال من الكوفة خدعه فيما حمل له ، حتى أخرجه من بين الحرس ، ولم يقبل منه هدية عرفان وقال : « يا ابن عم ، انا أهل بيت ، لا نقبل على المعروف مكافأة » (٢ / ٣٢٤) فهذا هو الوجه الآخر للقصة الأولى : ولا تنزل عقوبة بغير مستحقها ، وهو مغزى مستفاد من القصتين كل على حدة .

ان ضعف الرابطة هو الغالب على هذا النوع من القصص ، ونعني الذي يقوم على الاستطراد من قصة الى أخرى . وقد يعاب هذا من منظور عصري ، ولكنه كان طريقة عربية راسخة ، يمكن أن نزعم أن هذا الكتاب - وما يشبهه - كان بداية لما توسعت في الحكايات الشعبية ، التي بلغت قمتها في « ألف ليلة وليلة » وهذه الطريقة تقوم على التوازي بين الاستقلال والادماج ، فالقصتان يمكن أن تقرأ كل منها على أنها مستقلة ، وتؤدي وظيفتها الخلقية أو التعليمية ، أو الترفيهية بنوع من الاكتفاء ، ولكنها لا تنبت تماما عن القصة التي استدرجتنا اليها ، فالربط بين القصتين ، واكتشاف تكاملها ، وليس اندماجهما تماما ، أمر ممكن ، وهذه الطريقة وجدت أقصى امتداد لها في « ألف ليلة » التي يمكن اعتبارها حكاية واحدة ممتدة ، واعتبارها حكايات متعددة .

أما القصص المتجاورة فهو مصطلح وضعناه لندل به على القصة الواحدة حين تروى من طرق متعددة ، وهذا يحدث كثيرا في كتاب « الفرج بعد الشدة » وقد يحدث أحيانا ليست قليلة أن تكون الرواية الثانية أكثر توسعا في وصف الحدث من الرواية الأولى ، وتكون الثالثة أكثر توسعا من الثانية ، وكأن مؤلف الكتاب قد أراد شيئا من وضع الروايات الثلاث على هذا الترتيب ، فمن المسلم أن القصة وصلته بأكثر من رواية ، وكان يمكن أن يصفها بأي ترتيب أو بلا ترتيب ، ولكن يلاحظ أن خطاً ينمو ، وأن التفاصيل تزيد وان الغموض ينجلي ، مع التقدم الى الرواية الثانية ، فالثالثة ، وكأن القاضي التنوخي يضع الروايات المختلفة في علاقة جدلية ، ترى من خلالها « الحادثة » وهي تتكون ، بمشاركة الرواة وصناعتهم ، أو بالكشف عما كان خافيا من أسرارها ، أو بتحديد وجهات النظر المختلفة حول حقيقة موضوعية

واحدة ، على النحو الذي نجده في بعض المحاولات القصصية المعاصرة ومن أشهرها « ميرامار » لنجيب محفوظ ، وقد رويت حوادثها من خلال أبطالها جميعا ، يرويها كل شخص كما تراءت له ، من خلال مشاركته ، وفي حدود اطلاعه وتفسيره .

نشير الى محاولة ناضجة في هذا المجال ، تجري القصة بين كاتب ووزير ، الكاتب هو سليمان بن وهب ، والوزير هو محمد بن عبدالملك الزيات ، وتستمر ليكتمل معناها بين ولديهما عبيدالله بن سليمان ، الذي صار وزيرا ، وعمر بن محمد الذي صار من أتباع عبيدالله . تبدأ القصة من نهايتها أو قرب نهايتها ، وقد أقبل عمر يطلب أن يمنحه عبيدالله وظيفة أو معونة ، فيفعل ، ويصرفه ثم يبدأ في قصّ ما كان من صراع بين والديهما : سليمان ، ومحمد بن عبدالملك ، وقد صور هذا الصراع في ثلاث روايات متعاقبة .

حدثت الرواية الأولى زمن الصراع ، في أيام الواثق ، وسببه بطريقة اجمالية ، فقد كان سليمان مغضوبا عليه ، فحمل الى ابن الزيات ليحاسبه ، ويشرف على حبسه ، ولم يترفق ابن الزيات بسليمان على الرغم من أنه كان يستخدم أخاه الحسن بن وهب كاتبا له ، وفي لحظة المواجهة يأتي أحد الخدم حاملا الطفل عمر ومظاهر الترف بادية عليه ، فلما رآه سليمان بكى ، فأبى ابن الزيات الا أن يعرف سبب بكائه ، ولكن سليمان لزم الصمت ، فلما ألح الوزير مصمما على معرفة سر البكاء ، تدخل أخو سليمان ، الحسن ، وراح يرقق قلب الوزير قائلا : ان سليمان له ولد في مثل سن عمر ، وقد تذكره حين رأى ولدك ، فبكى . وهنا سخر الوزير من أن يكون لسليمان ابن مثل ابنه ، أو أن يطلع الى أن يكون ابنه وزيرا . لقد تألم سليمان بشدة من قسوة ابن الزيات ، ولكنه المفارقة التي تصادر القدر ، وتغفل عن ارادة الله . وهنا ضرع سليمان الى الله أن يصير ابنه عبيدالله وزيرا وأن يتقدم اليه عمر متظلما . وقد كان . وقد أكرمه عبيدالله وفاء لذكرى أبيه ، وأمنيته التي تحققت .

تبدأ الرواية الثانية من حيث بدأت الأولى أيضا ، أي من النهاية ، فعمر يتقدم الى عبيد الله وهو وزير ، يطلب عونه ، فأكرمه ، وصرفه ، ثم راح يقص ما كان بين والديهما من صراع . في هذه الرواية يصف سليمان أيام المواجهة بأنه كان « منكوبا » وأنه كان « في يد محمد بن عبد الملك الزيات » وأنه كان يحضره كل يوم » ، « بغير سبب » ولا مطالبة ، « الا ليكيدني » و « أنا في قيودي » و « وعلى جبة صوف » لا بد أن يلفتنا هذا التأكيد لغطرسة ابن الزيات ، وغرامه بالتشفي ، واذلال سليمان ، حتى أن الوزير كان يجعل الحسن بن وهب ، يحضر هذا الموقف الضنك الذي يلاقي فيه أخوه الهوان . وحدث في احدى المواجهات أن حمل الطفل عمر الى مجلس أبيه ، وأخذ الجلساء يدعون له ، ويثبون لتقبيله ، فيما عدا سليمان ، الذي كان في شغل بما ينزل به من عذاب ، وأراد ابن الزيات أن يزيد في عذابه النفسي ، فسأله لماذا لايدعو لولده ويقبله مثل سائر الجالسين ، فلما اعتذر بما يعاني ، قال ابن الزيات . « لا ، ولكنك لم تطق ذلك ، عداوة لأبيه وله ، وكأني بك ، وقد ذكرت عبيد الله ، وأملت فيه الآمال ، والله ، لا رأيت شيئا مما تؤمله فيه » وكأن هذا البغي السرف كان بمثابة بشرى أن يخلف ظن الظالم . وبالفعل لم تمض مدة ، حتى غضب المتوكل على وزيره ابن الزيات ، وأسند محاسبته الى سليمان ، فدخل دار خصمه ليحصي متاعه ، وهنا رأى الطفل عمر في حال

أخرى وقد دالت دولة أبيه ، كان يبكي لأن أشياءه الخاصة قد صودرت أيضا ، فرق له سليمان ، وأعاد اليه ما يملك ، وأوصى ابنه به اذا ما أوقفه القدر بين يديه .

لقد أضافت الرواية الثانية هذه تفصيلا في وصف المشاعر ، ووسائل التعليب النفسي كما أضافت مشهدا بكى فيه الطفل المدلل ، حين اختلف الحال ، كما أشارت باجمال الى ان عبيد الله قد استخدم عمر في بعض أعماله الخاصة .

ثم تأتي الرواية الثالثة والأخيرة ، فتبدأ من النهاية أيضا ، ولكنها لا تكتفي بأن تقول أن عمر أقبل متظلما يطلب العون من عبيد الله ، وانما تنكره وتصفه وصفا قاسيا ، ويقول الراوي : « كنا بحضرة عبيد الله بن سليمان ، أول وزارته للمعتضد ، وقد حضر رجل رث الهيئة بثياب خلاظ ، فعرض عليه رقعة ، وكان جالسا للمظالم ، فقرأها قراءة متأمل لها ، مفكرا ، متعجبا ، ثم قال : نعم وكرامة ثلاث مرات ـ أفعل ما قال أبي ، لا ما قال أبوك ، وكرر هذا القول ثلاث مرات » هذه البداية هي التي تناسب الصياغة القصصية . لاحظ حالة التضاد بين موقفين : وزير في أبهة السلطة يجلس للمظالم ، ويوصف مجلسه بأنه « حضرة » ، وانسان نكرة ، لم تعرف هويته أو طويته ، يتقدم شاكيا يلتمس الانصاف ، وحاله من البؤس والخشونة بمكان ، وهنا لا يكتفي الوزير باصدار أوامره بانصافه ، بل يعلق على الظلامة ، ويظهر أن له موقفا من هذا المتظلم ، وهو موقف له جذور ضاربة في الزمن ترجع الى عصر أب كل منهما . . . وهذا الغموض يثير التشويق ويحركه ويحمل القارىء يتلهف الى اكتشاف الصفحة المطوية من الصراع بين الأبوين ، وعلاقة هذا الصراع بالموقف الحالي ، وقد تبادل الولدان موقعيهما .

وتضيف هذه الرواية الثالثة تفصيلا تحتاجه القصة أحيانا ، ولا تشعر بأهميته أحيانا أخرى لكنه يبقى في صالح اضفاء جو الواقعية ، وتوثيق القصة وكأنها تاريخ ، فنعرف أن سليمان كان كاتبا لايتاخ ـ القائد التركي ـ وأنه صودر على أربعمائة ألف دينار ، وأنه استطاع أن يؤدي أكثر من نصفها وعجز عن الباقي ، فحبس ، وأهين بفعل ابن الزيات . ثم تأتي لحظة المواجهة ، ويضطر ابن الزيات أن يغادر المجلس قليلا ، وهنا يبني الحسن ابن وهب ، الى أخيه همسا ، أنه ولد له غلام ، ويطلب منه أن يسميه ويكنيه ، فترتفع معنويات هذا الأب السجين المرتهن بمال لا يستطيع أداءه ، وحين يعود ابن الزيات ، ويلاحظ وجه سليمان وقد ذهب عنه شعور الذل ، وارتفعت مقدرته الروحية لهذا الغلام الذي بشر به ، يلح عليه أن يعرف سر هذا التبدل ، فيصمت سليمان ويتكلم أخوه الحسن ، فيعلن ابن الزيات أنه حين قام من المجلس تلقى بشرى مولد غلام له أيضا . وهنا يقوم سليمان و ويقبل يدي ابن الزيات ورجليه ويتوسل بالغلام الوليد ، الذي رأى النور مع ابنه في نفس اليوم ، راجيا أن يرحمه الوزير ، معلنا عن أمله أن يكون ابنه كاتبا عند ابن الوزير في المستقبل . ولكن ابن الزيات الذي جبلت نفسه على الشك والقسوة ، يخمن أن هذه ليست أمنية حقيقية يضمرها سليمان للطفلين اللذين ولدا في يوم واحد ، وأنه ـ في رأي ابن الزيات ـ يضمر العكس ، أن يكون ابنه وزيرا ، وأن يقبل عليه الآخر متظلما ، ثم يبلغ به أقصى درجات العمى والاطمئنان الى الزمن ، فيقول : اني استحلفك بالله ، اذا صار ابنك وزيرا ، وجاءه ابني يطلب احسانه ، أن توصي ابنك الا يحسن اليه .

ولكن سليمان أوصى ابنه أن يحسن اليه ، وقد عمل الولد بوصية أبيه حين صار وزيرا ، وهذا سر عبارته : نعم

وكرامة ، أفعل ما قال أبي ، لا ما قال أبوك . وتضيف هذه الرواية الثالثة أن عبيد الله استخدم عمر كاتبا عنده ، وقلده ديوان البريد والخرائط ، وأن عمر كان اذا كتب لعبيد الله يصدر رسالته بعبارة : عبد الوزير وخادمه ، وأن عبيد الله أراد أن يتكرم عليه ، فمنعه ، من كتابة ذلك ، وعدل الصيغةالى : خادم الوزير (٢ / ٩٢) .

هذه القصة في رواياتها الثلاث نموذج للنوع الثالث من أنواع الحبكة ، نجد لها أشباها ، مع التفاوت في درجة التماسك ، أو تدرج الاسلوب نحو التفصيل وتصعيد الحوادث وتنمية الخط الاساسي (انظر مثلا : ٢/٧٢ ـ ٢/٢٢٣ ـ ٢/٢٨٢) .

وفي نهاية الحديث عن أنواع الحبكة ، نذكر بأن طريقة التقديم ظلت واحدة في مظهرها الخارجي فما دامت القصص جميعا تبدأ بسلسلة من الرواة ، في أولها من رأى موضوع القصة أو شارك فيه ، أو سمع به ، فان القصص ستظل بهذه البداية ، ومع هذا فانه لم يكن من الضروري أن يكون الراوية هو نفسه البطل ، انه مجرد مشارك ، أو مشاهد ، أو ناقل أحيانا ، ولهذا استعمل ضمير المتكلم ، كما استعمل ضمير الغائب ، بل قامت بعض القصص على ما يمكن أن يكون مشهدا حواريا ، لا يقوم فيه الوصف أو السرد بدور ذي بال .

وما دامت هذه القصص جميعا ـ الفنية منها والشعبية ـ قد انتخبت على أساس فني ، أجمله الكاتب في عنوان كتابه : شدة يعقبها فرج ، ويفصلها النقد منذ العصر الكلاسيكي في أزمة يعقبها حل ، فان « التحول » يقوم بدور أساسي في كل هذه القصص ، لأن التحول يعني اختلاف مصير البطل ، الى الضد تماما ، فيصير سعيدا بعد شقاء أو شقيا بعد سعادة . . وهذا النوع الأخير تحدث عنه أرسطو بالنسبة للبطل التراجيدي ، وربط به نظريته في الفن الشعري من حيث الغاية والهدف ، وهو « التطهير » ، ولكن كاتبنا العربي اختار قصصه على أساس الانتقال من الشقاء الى السعادة ، لأنه لم يفكر بالطريقة التي فكر بها أرسطو ، وهي ممارسة الاحساس بالالم ، باستثارة مشاعر الخوف والرحمة ، بغية التخلص من القدر الزائد المفسد للنفس من هاتين العاطفتين أو تطهير هاتين العاطفتين مما علق بهما من خبث ، « فان هذا لايزال مثار جدل »[39] وانما فكر القاضي التنوخي من زاوية أخرى هي أقرب الى الطبيعة الشرقية ، والاسلامية ، وهي زاوية الايمان القدري ، وعدالة السماء ، وفي هذا يختلف أبطاله عن طابع البطل التراجيدي ـ بالمعنى الكلاسيكي لأنهم لم يشعروا بالتعارض مع ارادة الله ، ولم يسعوا الى مقاومتها ، وانما كانوا بعكس ذلك ، يقومون بأدوارهم الانسانية ، ويسعون في الدنيا بقوانين هذه الدنيا وأعرافها ، التي قد يكون فيها أحيانا ما يضاد الخير والعدل والبراءة ، ومع هذا فان هؤلاء الابطال يحتفظون بهذا الايمان القدري في مكان خفي لايؤثر في تصرفاتهم اليومية ، أولايكاد يؤثر ،لكنهم يستخرجونه بحركة بارعة ، ويحتمون به اذا ما نزلت بهم محنة ، ولأن الايمان القدري يعمر نفوس العامة ، كما يستقر في نفوس الخاصة ابان تعرضهم للمصائب ، بعكس التمرد على القدر ، الذي لا يجاهر به الا الأقوياء ، فان أبطال قصص القاضي التنوخي انتموا الى جميع الطبقات الاجتماعية ، وليسوا من علية القوم دائما ، وأن غلب على بعضهم ذلك ، وبهذا تحقق الشرط التراجيدي في مجابهة المحن ، وتخلف الشرط الآخر . وهو أن تكون الشخصية بطولية مرموقة ، تهوى من مقامها العالي .

---

(٣٩) الكوميديا والتراجيديا ص ٢١٣ .

لقد تحدث ارسطو أيضا عن « التعرف » وهو يعني اكتشاف السر المجهول الذي يتم به الفعل الدرامي ، ويتحول على أثره مصير البطل ، ولهذا اشاد بالاعمال الفنية التي اقترن فيها التحول بالتعرف ، أو يمكن أن تعدل هذه العبارة الى أن المعرفة هي التي أدت الى تغيير المصائر .

حين نقوم بمراجعة قصص التنوخي في ضوء هذه القاعدة (ولسنا نجد حرجا في ذلك فالقصة التراثية أقرب ما تكون الى القصة القصيرة المعاصرة ، التي أخذت من المسرحية الكلاسيكية وحدة الحدث ، وربما الوحدات الثلاث ، فضلا عن التركيز ، ولحظة التنوير التي تعتبر بديلا للتعرف والتحول) سنجد التحول جزءا من بناء القصة ـ للاسباب التي قدمنا ـ ولكنه أحيانا ، بل ربما غالبا لايقترن بتعرف ، أو لا يوجد في القصة تعرف بالمرة ، ولعل هذا أن يكون تأكيدا لعمق الايمان القدري ، وقديما عبر شاعر شعبي عن هذا المعنى الذي لا يجد أهمية للاسباب ، ما دامت الثمرة قد تحققت :

ملك الملوك اذا وهب　　　　لا تسألن عن السبب

ولاشك أن القفز الى النتيجة ، وتجهيل الأسباب أو تجاهلها ، يقلل من منطقية العمل الفني ، ومن ثم مشابهته لواقع الحياة ، ودرجة اقناعه ، هناك قصص جيدة ، اقترن فيها التحول ، بالتعرف ، فوصلت الى ختامها بتدرج مريح ، مثل قصة صاحب الشرطة اسحاق المصعبي (٤/٥) وقد عزم على قتل بناته ، فأخذن في البكاء دون أن يملكن مراجعته ، ونعرف السبب حين يبعث الى أحد أصدقائه ـ هو أقرب الى التابع ـ ليفضي له برغبته في قتل نسائه ، وسبب هذه الرغبة ، أما السبب فقد كان ما تلا في التقارير الامنية التي رفعت اليه في هذا اليوم . لقد داهمت شرطة بغداد بعض البيوت المشبوهة ، ذات السمعة السيئة ، فوجدت بداخلها ، نساء كن بنات وزوجات لكبراء في الدولة ، مضى زمانهم ، ومن هنا فكر قائد الشرطة في أن مستقبل بناته وزوجته لن يكون خيرا من أولئك ، وبعد حين يزول سلطانه ، ويموت ، لتضبط بناته في بيوت مشبوهة ، لقد أصبح مقتنعا أن هذا الاحتمال واقع في المستقبل لا محالة ، فانه ـ المصعبي ـ ليس خيرا ولا أهم من آباء وأزواج أولئك النسوة لقد وصل الفرج عن طريق هذا الصديق الذي استدعى لمجرد الافضاء بالحزن اليه ، ومن حقنا أن تفسر هذا الاستدعاء ذاته بأن المصعبي لم يكن مقتنعا بأن ذبح نساء أسرته هو الحل الامثل لصيانتهن من معرة ستحدث في مستقبل مغيب ، ولهذا أراد أن ينفس عن كربه بالافضاء الى صديق مأمون أولا ، وأن يفكر معه بصوت عال ثانيا ، عله يجد تفسيرا آخر لانحراف نسوة كبراء العصر السابق يبعد عن أسرته شبح الموت . وبالفعل ، يعلل هذا الصديق ما حدث من انحراف بأن آباء هاته الفتيات المنحرفات لم يحفظوهن بالازواج ، كانوا يتكبرون على الناس ابان سطوتهم ، فتركوا بناتهم دون زواج ، والرجل هو الذي يحفظ المرأة ، ومن ثم فان الخطوة المطلوبة ليست أن يذبح قائد الشرطة بناته ، بل أن يزوجهن . وقد كان .

هناك أشباه لهذه القصة المحبوكة ، التي لاتحفظ في ابداء الاعجاب بها ، هدفا وصياغة ، ولكن حين يتخلف التعرف ، وبخاصة في القصص الوعظية التي يأتي الفرج فيها ، أو التحول عقب دعاء أو دون أسباب معروفة ، فان جزءا من أسباب الاعجاب يظل يعاني من ثغرة ، وفي قصة سابقة قامت على تحول في مصائر الأبوين ، أنتج تحولا في

مصائر ومواقف الولدين : عبيد الله وعمر لم نعرف الى الآن ، لماذا خرج سليمان بن وهب من سجن الواثق ، وكيف صار ابنه وزيرا في عصر المعتضد ، ولماذا سيق ابن الزيات الى السجن وأسندت محاسبته ـ أو مناظرته حسب التعبير القديم ـ الى سليمان بالذات ؟ وكيف طاح حظ ولده بعد نكبته ، مع انتشار النكبات واسترداد المواقع مرة أخرى بل مرات ، في تلك العصور ، ان تلك التعليلات كلها لا بد أن تكون موجودة في الموسوعات التاريخية ، أو في قصص وأخبار أخرى ، لكن هذه القصة ، كبناء فني قائم بذاته تفتقد هذا المبرر الضروري . ولقد ألهاها عن رعايته ، رغبتها في اقرار العظة ، وهي أن الله غالب على أمره ، وقد شق هذا الهدف طريقه بسرعة خاطفة ، مستبعدا أية تفصيلات ، ولم ير راوي القصة أنها ضرورية لاقرار هذه الغاية القدرية .

واذا كنا نلاحظ أن قصص « الفرج بعد الشدة » تميل الى وحدة الحدث دائما ، ولم تخرج عن ذلك الا في حالات نادرة (انظر مثلا قصة البرامكة مع ابن أبي خالد ، وقد استمرت زمنا وأحداثا من عهد الهادي الى عهد المأمون (٢٤٣/٣) فانها لم تهمل عناصر التشويق ، التي تحرض القارىء على طلب المزيد ، لمعرفة الى أية غاية انتهت الأمور ، يعتبر بدء القصة من نهايتها عاملا من عوامل التشويق وهو أرقى فنيا من صياغتها وفق التتابع الزمني ، وكذلك خلق أزمات أو صدمات سببها خطأ التوقع ، أو سوء التصرف ، وقد حدث أكثر من مرة أن يواجه شخص مشهور ـ كان له نفوذ وثروة ـ الافلاس والتعطل ، وقد يصل الى بيع منديله ليحصل على علف للدابة ، فيغالب كبرياءه ويذهب مستنجدا بصاحب ثروة وجاه ومنصب ، ويبسط حاله المتردية بين يديه ، ولكن الآخر لا يجيب بكلمة واحدة ، مما يدفع بالمستنجد الى الندم والألم ، فانه لم يفعل أكثر من أن كشف ستره ، وأشمت خصمه ، وتصاغر أمام من لا يقدر همه ، ويعود الى بيته حزينا آسفا ، وقد تلومه امرأته على ما فعل وتذكره بأنها توقعت هذه النهاية ، وأن الصبر كان بهم أجدر ، ويحتمل الرجل اللوم الذي يستحقه ، ولكن لا يمضي طويل وقت حتى يجد ثروة هائلة تطرق بابه ، في صورة مال نقدي ، أو جمال محملة بكل شيء ، يقودها عبيد هم جزء من المعونة أيضا ، ومع هذا كله كلمات اعتذار عن الصمت وتفسير له فقد كان الوضع لا يعالج بالكلام . ولا بد من العمل (انظر مثلا القصص في : ٢٤٣/٣ ـ ١٤/٤ ـ ٢٣/٤) .

واذا كان اخلاف التوقع ، بلجوء الانسان الى طلب المعونة من خصمه ، ثم تكول هذا الخصم عن المساعدة ، ثم اخلاف التوقع مرة أخرى بأن تكون المعونة سخية جدا ، يمثل عامل تشويق فان المصادفة تمثل عنصرا آخر من عناصر التشويق ، واذا كان الفن القصصي الحديث ينفر من المصادفة فانه يلغيها وان كان لا يمنحها الأهمية القصوى في تنمية الحبكة أو بلوغ الحل ، ويمكن أن نقول ان المصادفة من العناصر الأساسية في الحكايات الشعبية ، ووجودها فيما لدينا من قصص هو بمثابة تسلل لملامح الحكاية الشعبية في القصة الفنية ، ولا نتردد في أن نقرر ان الطابع العام للكتاب شعبي ، وان لم ينتم في جملته الى الحكايات الشعبية ، هناك مصادفات اختيرت بذكاء . وقام عليها البناء الفني بأكمله ، ولم نشعر بأنها مصنوعة أو زائفة ، مثل هذه القصة (٣٦٢/١) المحبوكة المثيرة ، ذات الألوان والاثارات . لقد كان لجعفر البرمكي فتوة وظرف وأدب ، وكان يحسن الغناء ويضرب بالطبل ، وهو يمارس حريته في خفية ، في يوم يغلق فيه بيته ، فلا يجالسه الا خاصة أصحابه ، في هذا اليوم بدأ برنامجه فلبس الحرير وتعطر وشرب وأكل ، وشاركه جميع أصحابه في كل ما فعل وكان قد أمر حاجبه وخدمه بألا يأذنوا لأحد بالدخول ، حتى وان كان رسول أمير المؤمنين « فأعلمه أن

مشغول » . غير أنه ترك الاذن مفتوحا لواحد من ندمائه تصادف أن تأخر ، وكان اسمه عبد الملك وبينما كان جعفر وندماؤه في لعبهم وصخبهم ، اذ رفع الستر ، فاذا عبد الملك بن صالح الهاشمي قد أقبل ، وغلط الحاجب . . . . . وكان عبد الملك هذا من جلالة القدر والتقشف ، على حالة معروفة حتى أنه كان يمتنع من منادمة الخليفة ، على اجتهاد من الخليفة أن يشرب معه قدحا واحدا ، فلم يفعل ، ترفعا . » .

كيف تطور المشهد المثير ؟

لقد تجمد القوم وسكتوا كأنما أصيبوا جميعا بسكتة قلبية مفاجئة ، ولم يدر جعفر ماذا يفعل ، وقد انكشف هذا القدر المهين من حياته الخاصة ، أمام رجل متزمت متحرج ، وهو من أقارب الخليفة أيضا وطال الصمت ، ولكن الحركة جاءت من حيث لا تتوقع ، لقد تقدم عبدالملك الهاشمي ، ونزع قلنسوته وجلس بين القوم ، وتصرف كصديق قائلا : أطعمونا شيئا ، وأمر جعفر بالطعام ولا يدري كيف تكون الخطوة التالية ، ولكن الرجل لم يتحرك حتى شارك في كل ما يفعل جعفر وندماؤه ، شرب رطلا ولبس ثوبا حريريا معدا لهذه المجالس ، وتعطر « ثم دعا برطل ورطل (من النبيذ بالطبخ) حتى شرب ثلاثة أرطال ، ثم اندفع يغنينا ، فكان ـ والله ـ أحسننا غناء » .

لقد انبهر جعفر بحجم المجاملة التي لقيها من عبد الملك ، وجدير به أن ينبهر ، وكان رد الفعل عنده عجيبا ، فقد صمم على أن يعرف سبب قدوم الرجل الى بيته ، وحاول عبد الملك أن يتجنب ذلك ، ليبقى اللقاء خالصا لوجه المتعة والطرب ، ولكن جعفر ألح ، حتى ذكر الرجل أنه مدين بمبالغ هائلة ، وأنه يرغب في أن يرضى عنه أمير المؤمنين ، وأن يعلي من شأن ابنه وجعفر لا يعد بمخاطبة الرشيد فيما يشكو منه عبد الملك ، بل يقرر أن الدين قد قضي ، وأن أمير المؤمنين قد رضي عنه ، وأنه ـ أي الخليفة ـ قد ولى ابنه مصر ، وزوجه ابنته الغالية ، ومهرها عنه ألفي ألف درهم ، لقد ظن سائر الندماء أن جعفر قد سكر ، وأنه يهذي ، ولا شك أن هذه الوعود المبذولة في صورة قرارات أمضيت ، يثير الخوف على جعفر ، الذي ضمن الرضا ، وسداد الدين ، وتولية حاكم جديد ، ثم زوج ابنة الخليفة وحدد مهرها .

لقد واجه جعفر شدة ، جاء فرجها حين شارك عبد الملك في اللهو وطلب الشراب ، وكان عبد الملك في شدة ، صورتها مطالبة من الخليفة ، فجاء فرجها في وعود جعفر ، ولكن : كيف الخروج من هذه الشدة ، وحلها بيد الرشيد دون غيره ؟

لقد تولى أحد الندماء رواية الجزء الماضي من القصة ، أما الفرج الأخير فيتولى روايته جعفر بنفسه ، وهذه المغايرة ، وان تكن من وسائل التشويق ، والتفنن في تشكيل طريقة التقديم ، فانها ضرورية ، لأن حل المشكلة لن يكون الا في لقاء بين جعفر والرشيد ، على انفراد . وهذا ما حدث . فقد بكر جعفر الى قصر الخليفة فحكى له ما حدث لم ينقصه حرفا ، وقد أعجب الرشيد بسلوك عبدالملك حين تخلى عن تزمته ، ورأى أنه يزيل الحرج والوحشة عن القوم ولا يفسد عليهم خلوتهم ، فرضي عنه ، ثم قضى دينه ، ثم زوج ابنه ، وولاه ، على نحو ما قرر جعفر .

مع أهمية المصادفة في القصة السابقة ، لأن كل ما جاء بعدها مترتب عليها ، فاننا لم نشعر بأنها ملفقة ، ولا أن المشهد مفتعل ، ولا أن الخاتمة مصنوعة ، انها قصة سلوكية محبوكة ، ومعبرة عن قوة اقتناع الرأي العام بحميمية العلاقة بين جعفر والرشيد ، وحجم دالته عليه .

أما النوع الآخر من المصادفات ، كأن يسقط طفل رضيع من أعلى الجبل الى الماء ، فينقض عقاب ويلتقطه من مجرى النهر قبل الغرق ويطير به ، ثم يهبط ، ويتمكن الناس من انقاذ الطفل ، وأن يخطف أسد رجلا ، ثم يحمله في فمه كما تحمل النسور أولادها في فمها ، ليأكله في عرينه ، ثم يموت الأسد في صراع لينجو الرجل ، ويجد بقايا هياكل ورمم في العرين ، يجد بينها حافظة نقود أبيه ، الذي كان الأسد قد افترسه في عام سابق ، وأن يحكم على بعض المذنبين بالموت ، ويقدمون للسيف واحدا وراء الآخر ، ثم يطلب أحدهم أن يأكل رأس خروف قبل قتله فيجاب طلبه ، وفي حين هو يأكل ، يحدث شغب عام واضطراب في المدينة ، ويفر الجنود الذين كانوا ينفذون أحكام القتل ، وينجو الفتى بسبب طلبه الغريب وحرصه على تناول الطعام .... الخ ، فهذا كله ينتمي الى الحكايات الشعبية التي تحمل الاغراب والاثارة ، والحرص على تصوير المفارقات وما ينتج عنها من عجائب ، هدفا في ذاته أحيانا ، ووسيلة الى تأكيد مبدأ « سيطرة القدر » في أحيان أخرى .

وأخيرا فانه لا بد أن تستوقفنا لغة هذه القصص ، ما دمنا بصدد الحديث عن البناء الفني ، فالقصة ، مثل أي عمل أدبي آخر ، هي في النهاية تركيب لغوي ، وقد كانت قضية اللغة من العوامل التي دفعت الدارسين والرواة قديما عن العناية بما أثر عن أجدادنا من قصص ، فقد لاحظوا ـ بشكل عام ـ أن لغة بعض القصص لا تصور العصر ـ في واقعه اللغوي كما ينعكس في لغة الشعر المعاصر لتلك القصص ، فالقصص المنسوبة الى العصر الجاهلي ، لا نجد فيها لغة العصر الجاهلي التي نجدها في شعر شعرائه من امرىء القيس الى الأعشى ، أعني : من أقدم شعرائه الكبار الى آخر الجاهليين ممن لامس الاسلام ، ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن القصص العذرية التي حملت الينا من العصر الأموي ، وقد استنتج هؤلاء أن هذه القصص رويت بالمعنى الاجمالي ، وأن صياغتها اللغوية من صنع راويتها وليست من صنع الأشخاص الذين تزعم أنها تصور جانبا من حياتهم وتفكيرهم ، ولغتهم .

ان ملاحظة وجود فروق ـ وليس فرقا واحدا ـ بين لغة القصص ولغة الشعر المعاصر لتلك القصص ملاحظة صحيحة ، ولكن الحكم بوضع القصص انتحالا من الأساس ، أو أنها رويت بالمعنى ، فيه تعجل ومغالطة . لن نستند الى سلاسل الرواة ، ومقارنة أكثر من رواية للخبر أو القصة الواحدة ، وما يدل عليه من دقة وحرص على التوثيق ، فهذا قد ناقشناه من قبل ، ونحن نرى ـ على أية حال ـ أن تسجيل أسماء الرواة جيلا بعد جيل لا يعتبر دليلا قاطعا ينفي التحريف أو التزيد أو الاختلاق ، وقد لاحظ القدماء ذلك وقرروه : اننا سنحيل على واقع نعايشه ، وقد قرأنا قصص المنفلوطي أوائل هذا القرن ، وأشعار شوقي وحافظ ومطران ، فهل نجد تشابها بين لغة الفريقين ، برغم أنهما يعيشان في بلد واحد ، وثقافتهما متقاربة ، ويخاطبان نفس الجمهور ويلتقيان ويقرأ كل منهما ما كتب الآخر ؟ أو هل تتشابه لغة أي شاعر ممن ذكرنا مع لغة محمود تيمور أو العقاد ـ في كتاباته النثرية ؟ وهل نجد أي تشابه بين أشعار صلاح عبد الصبور وروايات نجيب محفوظ ، مع أن الشاعر والروائي تخرج كلاهما في كلية الآداب ، ولمع نجمه أوائل الخمسينات ، وتطلع الى التجديد ؟ ان الفرق هنا ، كما يرجع بين شخص وآخر ، لأسباب من الوراثة والقدوة الفنية ، والعقيدة الفكرية والدينية .... الخ ، يرجع الى فرق أساسي هو اختلاف لغة الشعر عن لغة القصة ، وليس لغة النثر بشكل عام ، وهذا الفرق موجود في كل العصور ، في كل الآداب ، لأن لغة الشعر لغة استثنائية ، تقوم على التكثيف والتركيب والاضمار والتخييل ، وتلجأ من أجل هذا الى الاستعارة وغيرها من وسائل التصوير المجازي وغير المجازي وتوظف

الايقاع وتقدم وتؤخر في نظام الجملة بحيث يتشكل المعنى في صورة موسقة قادرة على النفاذ الى مكامن الشعور في النفس الانسانية ، وليست هذه وسائل الكاتب القصصي لأنه لا يتوجه الى هذه الغاية . انه يحاول الاقتراب من الواقع ، يحاكيه ، ويصور جوانبه ، ويلجأ الى التبسيط في جوانب ، والتركيب في أخرى ، ويهدف الى محاورة الخبرة الحياتية للقارىء ، ومن ثم يظل في حالة من الحضور الذهني ، عينه على القصة ، وعينه الثانية على الواقع ، وليس هكذا الشاعر في لحظة ابداعه .

وهناك مغالطة أخرى قائمة على تصور مبالغ فيه ، هو أن القدماء كانوا يتكلمون لغة الشعر أو في حدود معجمها ، فهذا غير ممكن ، لأن لغة الشعر لا تصلح أن تكون لغة حديث يومي ، ولأن معجمها يظل خاصا بالمستوى الشعري رؤية وفكرا وعاطفة ، وان الاعتزاز العربي بالشعر ، والقول بنقاء العرق ، واسباغ المواهب الفطرية على هذا النقاء وجعلها صادرة عنه بالطبيعة ، هو الذي سوغ للقدماء من الباحثين في اللغة أن يزعموا أن العربي لا يلحن ، وأنه يتكلم بالتراكيب الفصيحة وحدها ، ولا يترخص فيها ، وهذا منافر لطبيعة المجتمعات ، وطبيعة اللغات معا ، فهذه مبادىء مقررة ، حتى وان اختلفت درجة الافتراق أو ألوان الترخص ، تبعا لطبيعة المجتمع في موقعه ونشاطه العملي ، ونظام طبقاته ، ودرجة ثقافته .

ان لغة السرد في « الفرج بعد الشدة » تتفاوت أحيانا ، لكن الفرق الحاسم بين لغة قصة ولغة قصة أخرى يبدو اذا ما وزعنا القصص على أساس تاريخي ، سنجد أخبارا جاهلية وقصصا ، وكذلك أخبارا وقصصا تنتمي الى العصر الاسلامي ، أو العباسي ، على مراحله ، وسنجد التماسك والايجاز ، واستخدام بعض الكلمات أو التعابير الجزلة قليلة الانتشار لكنها لا تبلغ حد الندرة أو الاستغلاق ، مما يميز القصص القديمة ، ويصل الأمر الى العامية واستعارة الألفاظ من الفارسية في قصص العصر العباسي .

لقد قمنا بما يوشك أن يكون حصرا للمفردات العامية أو المستعارة من لغة غير عربية ، ودون أن نثقل كاهل هذه الصفحات بالقوائم والأرقام ، نشير الى بعضها ، مثل : وجاء بداتيال فألقاه عليها ـ فاذا الرسل يطلبوني ـ ايش تعمل ها هنا ـ عيلق ـ ستي (وقد تكررت كثيرا ينادي بها الخادم سيدته ، وينادي بها السيد جاريته المدللة ، مع وجود لفظ : سيدتي ، التي تختص بها سيدات الطبقة العليا ، مثل أم الخليفة أو من تقارب منزلتها) ـ أتذكر أيامنا الأوله ؟ وتحيي برأسه ـ فوطة ـ يبوقون : بمعنى يضربون في البوق ـ زليه : بمعنى بساط ـ ها أنذا أجي : أي سأحضر ـ عاتم شخصا أوله مصر : أي أحضروا ـ فراشة : وهي التي تقوم بالخدمة ـ تيموه ـ ضرب درابزين السرير ـ أتصدق : وتعني هنا أطلب الصدقة وليس أبذل الصدقة ـ ساري : بمعنى نخب ، أو نشرب على شرف فلان ـ فش القفل ـ مزين : أي حلاق ـ بطلت من الكتاب : أي انقطعت عن الدراسة .

وهناك آثار لهجية محدودة ، نبه القاضي التنوخي الى بعضها ، مثل قول أحدهم : كن على الظلامة ، يكررها دفعات ، ويكسر الميم بلسان أهل الكوفة . (١/٢٣) كما يلجأ الى المصطلحات المهنية ، والكنايات الشائعة لتجنب ما يتحرج من ذكره ، فيعبر أحد المغنين عن ضياعه وفقره بأنه صار دالفلس من طنبور مقطع الأوتار ، (٢/٣٦٥) أو يسأل أحدهم هل يوجد نبيذ ، فيقول لآخر : « عندك شيء من ذلك الفن ؟ » (٣/٢٢٠)

هذه التعبيرات وأمثالها أكدت المنزع الشعبي لقصص الكتاب بعامة ، فهي ليست وقفا على الحكايات الشعبية . وبعضها تطق به خلفاء على قدر عال من الثقافة وعبارة هاتم شخصا أوله مصر ، قالها المأمون في احدى القصص ، وليس ما يمنع أن يتكلم المأمون لغة عصره ، فيقول « هاتم » غير أن الوظيفة الفنية لهذا اللجوء الى العامية تتجاوز الواقع الحرفي ، الى الواقع الفني فلغة القصص في هذا الكتاب لغة مألوفة ، قريبة ، نادرا ما نجد فيها شيئا من الحزونة أو الصعوبة ، ونعود فنذكر أن المفردات العامية التي أحصينا ، ومثلنا لها ، تنتمي جميعا الى قصص تتعلق بالعصر العباسي ، وغالبا ما تكون شخصياتها من عامة الناس ، وان لم يكن دائما .

ويدخل في البناء اللغوي للقصة استخدام الحوار ، وما من قصة في الكتاب الا وقد أخذ الحوار فيها جانبا ، وقد وظف الحوار توظيفا فنيا راقيا ، لم يكن مجرد عبارات متبادلة تفضي الى الكشف عن معلومات كان السرد يستطيع الوفاء بها ، ان الحوار يكشف أصلا عن طوايا المتحاورين ، وخفايا نفوسهم ، ويعبر في لغته وتركيبه ، وعلاقة العبارات المتبادلة بين المتحاورين على المستوى العقلي وطاقة الذكاء التي يملكها كل منها . اننا نجد قصصا أعظم ما فيها هو ما انطوت عليه من حوار حيث تتجلى الموهبة الحقيقية للعقل العربي ، في سرعة استجابته ، وتلقائيته ، وقدرته على اصابة المرمى في كلمات قليلة ، وافحام المكابر أو المخالف ، من خلال الصنعة ، أو سقطة اللسان ، أو الاستدراج الى حديث بعيد عن الموضوع .

كان أحد الكبراء معجبا بقدرته الحكائية ، ويسرف في قوله لمحدثه « افهمت ؟ » فكان هذا مفتاح الفرج حين طلب بعض عماله لمحاسبتهم ، فقد فطن أحدهم الى هذه « اللازمة » في كلام الوزير ، فكان يقول : لا . لم أفهم : فيستطرد الوزير ويفيض ويزيد الى أن انتهى وقت المحاسبة ، وتم تأجيل القرار الى وقت آخر . ويقف عمر بن فرج الرخجي أمام المعتصم ، وقد اعتقله ودعا بالسيف ووجه اليه تهمة مهلكة ، وعمر يرد على الخليفة ويعبث بالبساط الذي كان تحت المعتصم . وكأنه يلمسه ليختبر مادته وصناعته ، ويستفز الأمر المعتصم فيهره .

« وقال : يا ابن الفاعلة ، ما شغلك ما أنت فيه عن لمس البساط ، كأنك غير مكترث بما أريده بك ؟ فقال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ولكن العبد يعني من أمر سيده بكل شيء ، على جميع الأحوال ، فاني استخشنت هذا البساط ، وليس هو من بسط الخلافة ، فقال له : ويلك هذا البساط ذكر محمد بن عبد الملك أنه قام علينا بخمسين ألف درهم . فقال : يا سيدي عندي خير منه قيمته سبعمائة دينار » (١٧/٤) وينتهي الحوار لتظهر ثمرته ، قال أحمد بن أبي داود شاهد القصة وراويتها : « فذهب والله عن المعتصم ذلك الفور الذي كان به ، وسكن غضبه ، وقال : وجه الساعة من يحضره . فجاء ببساط قد قام عليه - فيما أظن - بأكثر من خمسة آلاف دينار ، واستحسنه المعتصم ، واستلانه ، وقال هذا - والله - أحسن من بساطنا . وأرخص وقد أخذناه منك بما قام عليك .

ووالله ما برح ذلك اليوم ، حتى نادمه ، وخلع عليه .

وهكذا افتدى الرخجي حياته بثمن بخس ، واستعاد نفوذه القديم وزاد عليه ، بلمسة الذكاء السيكولوجي التي

أجاب بها معللا ـ حركة يده العابثة ببساط الخليفة : وفي قصص كثيرة تتجلى قوة الشخصية ، وبراعة التخلص في الحوار بصفة خاصة ، حيث تتلاقح الأفكار ، وتكون مباراة الذكاء معلنة أمام الأشهاد . من ذلك أن الفضل بن سهل وزير المأمون ، زعم أن عبد الله بن مالك الخزاعي أذاع أن الرشيد كان يدخل بيوت القيان ، وكذّب الفضل ذلك وألصق بالخزاعي ما ادعاه على الخليفة الأسبق . فهو الذي يتردد على بيوت القيان والمواخير أيضا . كان ذلك في مجلس عام . وبعد أن انتهى الفضل من حديثه أقبل على ثمامة بن أشرس ، وقال : « وإن أبا معن ـ أي ثمامة ـ ليعلم ذلك ، ويعرف صحة ما أقول » وتكررت مهاجمة الفضل وتوجيه التهم المخلة بالشرف الى عبدالله بن مالك الخزاعي ، وفي كل مرة يلتفت الى ثمامة ينتظر أن يؤيد كلامه ، لكنه في كل مرة يلتزم الصمت . انتهى المجلس العام ، وأرسل الفضل عقابا الى ثمامة عن هذا النكول عن تأييده أمام الناس ، واعراضه عن موافقته . فقال ثمامة لمعاتبه : « أنا والله بالموجدة عليه ـ أعزه الله ـ أحق ، لأنه قام في ذلك الجمع ، وقد حضر كل شريف ومشروف ، فلم يستشهد بي في خطبته ، وما أجراه في كلامه ، الا في موضع ريبة ، أو ذكر نبوة ، ودار مقين ومغنية وما أقدر أن أشهد الا أن أكون مع القوم ثالثا » فوافق الرسول المعاتب على هذا التفسير المنطقي ، بل وافق عليه الفضل بن سهل ، واعتذر لثمامة ، ولكن الطريف حقا أن دافع ثمامة حين لزم الصمت كان « عصبية لابن مالك » فلم يقبل الطعن فيه من فارسي ، وهذا سبب لا يمكن اعلانه ، فأسعفه ذكاؤه بهذا الاحتجاج المقبول . (١/٣٦٩) .

هناك مواقف أخرى قام الحوار فيها بوظيفته كأحسن ما يكون (أنظر مثلا ٢/٣٦٤) في تنمية الحدث ، والتعبير عن طبيعة الشخصية ، وتجسيد الصراع في اطار الموقف .

هناك قضايا أخرى يمكن طرحها في اطار البناء الفني ، مثل : الشخصية ، والصراع ، والامتداد الزماني والمكاني ، ولم نهمل هذه العناصر استهانة بقيمتها في الصناعة الفنية ، ولكن لأننا أشرنا ـ في فصول سابقة ـ الى ما يخصها ، وما يمكن على ضوئه تصور كيف تشكلت المادة الفنية بهذه العناصر المختلفة ، في بناء ، لا نزعم أنه حقق جمالية القصة القصيرة ، بمفهومها الحديث ، لكنه ينبع من ادراك بالتكامل ، ووعي بوظيفة اللغة الفنية ، والأسلوب التصويري ، وهذه اضافة تستحق ما نبذل من جهد في ابرازها .

٨ ـ رؤية ختامية

اذا لم يكن كتاب « الفرج بعد الشدة » رائدا في مجاله ، وهو تجميع الأخبار والقصص والحكايات الشعبية ، تحت عنوان واحد وتبويبها ، فله رائد في الاحتكام الى الشكل الفني ، ومراحله التقليدية ، العرض ، الازمة ، الحل ، أو لحظة التنوير ، لقد سبق الجاحظ فجمع نوادر البخلاء وأقاصيصهم وطرائف سلوكهم ، ولكن الجاحظ جمع مادته في اطار المضمون أو المعنى المجرد ، وهو البخل ، ولم يلتفت الى الشكل ، كما أنه لم يقسم مادة كتابه وفق أي تصور ، بل قاده الاستطراد من البداية الى النهاية وهنا يتفوق القاضي التنوخي .

وإذا كان الكتاب قد وجد دافعه الأول في ظروف نفسية عاناها المؤلف ، فانه لم يكن صدى لهذا الظرف المؤقت ، لقد اتسعت المادة جدا ، فعبرت بحق عن حرية الثقافة العربية ، ومرونتها وقدرتها على الاتساع لكافة التجارب ، والكتاب صورة لثقافة القرن الرابع الهجري ، بما فيها من امتزاج بين المادي والروحي ، وعمق حضاري يدفع الى التسامح ، والبعد عن الجفاف والتزمت ، وتفضيل التلقائية على التصنع والتنطع . كما عبر الكتاب عن الايمان العميق بالقدر ، وهو ايمان ينبع من يقين بأن الحياة ليست عبثا ، وان للكون قوانين تنظمه ، وهي قوانين عادلة ، قد تهتز تحت ظرف طاريء ، ولكنها لا تميل ولا تحيف .

لقد جرى عرف الدارسين أن يخصصوا فقرة عن الأثر الذي تركه الكتاب المعنى في دراسات لاحقة . وهذا أمر مشروع بل مطلوب ، ولكنه في مجال الأخبار والقصص سيكون قليل الجدوى ، ذلك لأن القصص النثري لم يشكل قطاعا مهما في تكوين الثقافة العربية ، في نظر التقليديين . إن عملا مهما مثل « رسالة الغفران » لم يلفت أنظار القدماء وحظى سقط الزند واللزوميات بالشهرة والشروح ، وانتظرت رسالة الغفران الى عصرنا الحديث لكي يرد لها اعتبارها . وقد لقيت « المقامات » اهمالا أشد ، وكان وقوعها في المماحكات اللفظية ، وإغراقها في السجع ، نتيجة لاهمالها من النقاد ، وعدم تسليط الضوء على الجوانب الايجابية فيها .

ان قصص « الفرج بعد الشدة » أسبق زمنا ، وأكثر نضجا من المقامات . فقد توفي بديع الزمان الهمذاني سنة ٣٩٨ هـ ، أي بعد التنوخي بأربعة عشر عاما ، وقصص القاضي التنوخي وان لم تكن من تأليفه ، ولا تناظر بالمقامات التي ألفها الهمذاني ـ أكثر نضجا في مراميها الاجتماعية ووسائل صياغتها الفنية ، ولغتها . وإذا كانت المقامات قد اهتمت بانسان الطبقة الدنيا ، فان هذه الطبقة ـ بمراتبها ، وأنشطتها المشروعة وغير المشروعة ـ موجودة بوضوح في الكتاب .

نستطيع أن نجد آثارا لكتاب « الفرج بعد الشدة » في بعض الكتب القديمة اللاحقة التي تيسر لنا الاطلاع عليها ، ومع هذا فاننا لا نستطيع أن نجزم بأنه المصدر الأساسي لهذا التأثير ، حيث كانت هذه القصص ـ في مجموعها ـ مفرقة في مصادر أخرى .

وعلى سبيل المثال ، نجد قصصا في « الفرج بعد الشدة » تتعلق بمعاناة أمراض مزمنة ، أو غريبة الأعراض ، يفشل الأطباء في الاهتداء الى علاجها ، ثم يعالجها طبيب بشيء غير متوقع ، فأحدهم أطعم المريض لحم جرو صغير ، والآخر أوجع الميت ضربا حتى تحرك من جديد ، وظهرت عليه علامات الحياة ، وأسرف مريض مزمن في وجبة جراد ، فكانت سبب شفائه . هذه الأخبار القصصية نجدها كوقائع ، وليس في شكلها القصصي ، في كتاب « طبقات الأطباء » لابن أبي أصيبعة ، المتوفى سنة ٦٦٨ هـ ، لكن : هل نستطيع أن نجزم أن كتاب القاضي التنوخي هو مصدر هذه الأقوال ، وليس كتابات أطباء العرب ؟

يمكن أن تكون المقارنة طريفة حقا ، وتؤدي الى نتائج ايجابية في اكتشاف جهد الصياغة الفنية ، فاقرأ مثلا ما نسب

الى القطبي الطيب ، الذي ضرب « الميت » بالمقارع (٤ / ٢٠٨) وهو ما يؤدي الى الصدمة العصبية التي تستخدم لها دفعة الكهرباء في زماننا ، وضعه بازاء ما نسب الى ثابت بن قرة الحراني حين عالج بالضرب ، (طبقات الأطباء ص ٢٩٦) واقرأ ما ذكره التنوخي عن مريض بالاستسقاء شفته أكلة جراد (٤ / ٢١٠) وما ذكره صاحب (طبقات الأطباء ص ٢٤٥) . أما قصص العشاق فانها موجودة بكل تفاصيلها في كتاب « مصارع العشاق » للسراج المتوفي سنة ٥٠٠ هـ ، وكتاب « أخبار العشاق » لداود الأنطاكي المتوفي سنة ١٠٠٨ هـ ، ونعود فنذكر بأن هذه القصص موجودة أيضا قبل كتاب التنوخي ، وهذا ما يجعلنا ننظر الى مجمل التأليف في هذا الحقل من زاوية أنه مجموعة من النصوص ، تحيط بها مجموعة من التقاليد والأعراف ، تنتقل من كتاب الى آخر ، ولا يلغي هذا شخصية أي كاتب ، أو جهده الخاص ، وذوقه في الاختيار والتبويب ، والصياغة أحيانا . ولعل هذا قد وضح في مراحل هذه الدراسة .

❊❊❊

المصادر والمراجع

(١) أحمد أمين : ظهر الاسلام : دار الكتاب العربي - لبنان ١٩٦٩ م
(٢) ابن الاثير (علي بن أبي الكرم الشيباني) : الكامل في التاريخ . دار صادر . بيروت ١٩٧٩ .
(٣) ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم السعدي) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء - تحقيق نزار رضا . مكتبة دار الحياة . بيروت ١٩٦٥ .
(٤) ابن تغري بردي (جمال الدين يوسف) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - مصور عن طبعة دار الكتب المصرية .
(٥) التنوخي : (القاضي أبو علي المحسن بن علي) : كتاب الفرج بعد الشدة : مكتبة الخانجي بالقاهرة : كتاب الفرج بعد الشدة - تحقيق عبود الشالجي - دار صادر . بيروت ١٩٧٨ .
(٦) الثعالبي (عبد الملك بن محمد) : يتيمة الدهر - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد مكتبة السعادة بمصر ١٣٧٧ هـ .
(٧) الجهشياري (محمد بن عبدوس) : كتاب الوزراء والكتاب - تحقيق السقا وآخرين : مصطفى البابي الحلبي . القاهرة ١٩٣٨ .
(٨) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد : دار الكتاب العربي . بيروت .
(٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان - تحقيق احسان عباس - دار صادر بيروت .
(١٠) داود الانطاكي : تزيين الأسواق في أخبار العشاق - دار حمد ومحيو . بيروت ١٩٧٢ .
(١١) رشاد رشدي : فن القصة القصيرة - دار العودة . بيروت ١٩٧٥ .
(١٢) الزركلي (خير الدين) دار العلم للملايين . بيروت ١٩٦٩ .
(١٣) السراج (جعفر بن أحمد القارئ) : مصارع العشاق . دار صادر . بيروت .
(١٤) طاش كبري زاده : مفتاح السعادة - دار الكتب الحديثة . القاهرة ١٩٦٨ .
(١٥) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب .
(١٦) فاروق خورشيد : في الرواية العربية : الدار المصرية للطباعة والنشر .
(١٧) فورستر (أ . م) أركان القصة - ترجمة كمال عياد . دار الكرنك . القاهرة ١٩٦٠ .
(١٨) ليتس . ك : الكوميديا والتراجيديا . سلسلة عالم المعرفة . الكويت ١٩٧٩ .
(١٩) متز (آدم) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري - تعريب : أبو ريدة - دار الكتاب العربي . بيروت ١٩٦٧ .
(٢٠) محسن الأمين (السيد) : أعيان الشيعة . مطبعة الانصاف . بيروت ١٩٤٨ .
(٢١) محمد حسن عبد الله : الحب في التراث العربي - سلسلة عالم المعرفة . الكويت ١٩٨٠ .
(٢٢) - محمد الخضري بك (الشيخ) : محاضرات تاريخ الامم الاسلامية - المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة ١٩٥٣ .
(٢٣) ياقوت (الحموي) : معجم الأدباء - دار المستشرق - بيروت - بدون تاريخ .

* * *

هذه ترجمة المقال التالي :

كتاب الالمام للنويري الاسكندراني
دراسة نقدية تحليلية *

عزيز سوريال عطيه
استاذ شرف بمركز الشرق الاوسط
جامعة يوتا ـ الولايات المتحدة الامريكية

هذا المقال الذي ننقله الى قراء العربية للمرة الأولى ، يشتمل على مقدمة بقلم الاستاذ خسرو مصطفى وفصول خمسة ، اولها تمهيدي وآخرها ختامي . وفيما بينهما ثلاثة فصول خصصها المؤلف للنويري وكتابه ، والنويري كمؤرخ ، وحملة القبارصة على الاسكندرية ، على التوالي .

وقد اشار الدكتور عطية في الفصل الأول التمهيدي الى اسباب اهتمامه بكتاب الالمام للنويري الذي تضمن ضمن ما تضمنه حملة القبارصة على الاسكندرية . كذلك اشار الى النسختين الخطيتين للالمام المعروفتين وقتها ، وهما نسخة كل من برلين والقاهرة ، ومراحل العمل فيهما الى ان تبين وجود نسخة ثالثة كاملة في بانكي بور بالهند ، وما استتبع ذلك من قيامه بنشر وتحقيق الموسوعة كاملة بلغتها الأصلية العربية ، في ضوء هذه النسخ الخطية الثلاث . وقد ظهرت في سبعة اجزاء في السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد بالهند(1) .

وفي الفصل الثاني وعنوانه « المؤلف وكتابه » عرفنا الاستاذ عطية بالنويري الاسكندراني وسبب تسميته بالاسكندراني التي ترجع الى اقامته الطويلة بالاسكندرية التي عشقها . كما حلل شخصيته ، واشار الى من تسموا بنفس الاسم من معاصريه من المؤرخين ، كما حقق نسبة كتاب الالمام اليه واكدها ، واوضح الفترة الزمنية التي شغلها في جمع مادة الكتاب واعداده . كما اشار الى مهنة النويري كناسخ للمخطوطات ، واهميتها في اتساع دائرة معارفه ومعلوماته من ناحية ، وفي تلك المادة الغزيرة الاصيلة التي اختزنها وافاد منها في الوقت

* ترجمة الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، استاذ تاريخ العصور الوسطى كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

(1) النويري الاسكندراني : كتاب الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية في وقعة الاسكندرية ، نشر وتحقيق الدكتور عزيز سوريال عطية ، ٧ جـ ـ [illegible] مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٩٦٨ ـ ١٩٧٦م / ١٣٨٨ ـ ١٣٩٦هـ .

المناسب من ناحية اخرى . وذكر كيف تبلور كل هذا في كتاب الالمام . فعلى الرغم من انه وضعه اساسا بهدف تسجيل كارثة هجوم القبارصة على الاسكندرية ، الا انه تضمن بين ثنايا سرده لأحداث الحملة الصليبية معلومات ومعارف متنوعة متعددة متشعبة تطرق فيها تقريبا الى كل المجالات والميادين . وقد اضفى هذا على الكتاب اهمية مضاعفة ، وان جعل التعامل معه في نفس الوقت امرا صعبا للغاية ، بسبب عدم ترتيب المؤلف لهذا القدر الهائل من المادة البالغة الاهمية . وقد عالج الدكتور عطية هذه الناحية في الجزء السابع الاخير من الكتاب والمعنون « فهارس كتاب الالمام » ، والذي تضمن اربعة عشر فهرسا مصنفة تصنيفا موضوعيا ، ومرتبة ترتيبا ابجديا . فهناك ، مثلا ، فهرس للاعلام ، وآخر خاص بالاماكن والبقاع ، وثالث للامم والقبائل والاجناس ، ورابع خاص بالاسكندرية ومبانيها وشوارعها ، وخامس يتعلق بالسفن ، وسادس بالمصطلحات الحربية . الى جانب فهارس تتعلق بالنواحي الادبية ، والجغرافية ، والفلكية ، وعلمي الحيوان والنبات . ولاشك ان هذه الفهارس سوف تتيح للباحثين المتخصصين الافادة الكاملة من كتاب الالمام ، واستخراج الدرر التي يشتمل عليها بسهولة ودون عناء .

لقد اضاف الاستاذ عطية الجديد الى ما كنا نعرفه من قبل عن النويري وكتابه ، عدّل وصحح بعض الآراء والافكار التي كانت سائدة من قبل ، والتي وردت في كتب المؤرخين الحديثين المعنيين مثل كارل بروكلمان C. Brockelmann والورد Ahlwardt وشارل ريو Ch. Rieu . ونخص بالذكر جهوده في تحقيق اسم النويري ، وشخصيته ، وتاريخ وفاته ، وتقدير اهمية كتابه ، والمآخذ عليه ، واسلوبه ، وهذه وغيرها من القضايا اما تضيف جديدا او تغير رأيا كان سائدا .

وفي الفصل الثالث وعنوانه « النويري كمؤرخ » ، حدد الاستاذ عطية دور النويري الاسكندراني في الاسهام التاريخي ومكانته بين كل من معاصريه من ناحية والسابقين عليه واللاحقين له من ناحية اخرى . وطرح عدة تساؤلات هامة لها دلالتها هل يعتبر النويري مؤرخا بالمعنى الدقيق المفهوم من هذا الاصطلاح ؟ واذا كان الامر كذلك ، هل هو مؤرخ محترف ؟ واذا لم يكن ، هل يجوز ان نعتبره مؤرخا ؟ هل يمكن ان نضعه في مصاف معاصريه مثل العمري وسميه النويري الكندي ؟ اوحتى للمتأخرين عنه زمنيا امثال الذهبي ، والصفدي ، وابن الفرات ، وابن خلدون ، ومن جاء بعدهم ؟ ثم ما هي مصادر معلوماته الوفيرة التي ضمنها كتابه ؟ والى اي حد يمكن الوثوق بها ؟ وبكلمة مختصرة ، ما وزن النويري كمؤرخ ، وما هي مكانته بين غيره من مؤرخي العصر الاسلامي الوسيط ، في ضوء التراث الذي خلفه لنا ؟

تساؤلات عديدة طرحها الاستاذ عطية على بساط البحث ، واجاب عنها اجابات صريحة محددة واضحة ، وقد خلص من ذلك انه ثمة عدة ركائز اساسية تحدد مكانة النويري في مجال الدراسات التاريخية ، وتكشف عن قيمة كتاب الالمام . فهو ، اولا ، اديب وشاعر مرهف الحس .. يمتاز بروحه المرحة . ثم انه ، ثانيا ، عاش في الاسكندرية معظم سني عمره ، وعشقها ، واصبح حبه لها يجري في دمائه . وهو ثالثا ، بحكم مهنته كناسخ للمخطوطات التي تناولت شتى افرع العلم والمعرفة ،قد قام بنسخ الآلاف منها واستوعب مافيها من معلومات غزيرة في كمها فريدة في نوعيتها . واخيرا فان النويري كان شاهد عيان لفاجعة الهجوم القبرصي على الاسكندرية ، وشاهد بعينيه آثار الدمار الذي حل بالمدينة فور نزول الصليبيين الى الشاطىء . ثم تركها مذعورا الى قريته النويرة ، وعاد ثانية اليها بعد رحيل القبارصة عنها ليرى آثار المحن التي نزلت بها ، واعمال السلب والنهب التي اصابتها . وقد اثارت فيه الفاجعة كوامن النفس ،

وحركت بداخله حبه الطويل القديم للاسكندرية ، وامتزجت بهذا وذاك تلك المعلومات الغنية التي اختزنها كناسخ للمخطوطات ، والتي تتميز بالتنوع والتشعب والتداخل ، وتتناول العديد من الموضوعات . وقد تبلور كل هذا في كتاب الالمام ، تلك الموسوعة العالمية الهائلة الفريدة في نوعها وبابها . وكان خطها الاساسي هو حملة القبارصة الصليبية على الاسكندرية ، وقد نسج حوله كل ما اختزنه واكتسبه من معارف ومعلومات لا اول لها ولا آخر وعلى هذا فمحور الكتاب هو الحملة . وحول هذا الموضوع الرئيسي ورد لنا أنباء امدتنا بمعلومات وتفاصيل هامة عن امبراطوريات الفرس واليونان والرومان والبيزنطيين والعرب قبل الاسلام . ووجه اهتماما خاصا الى الفتوحات الاسلامية ، والى الدول الاسلامية في العصر الوسيط . فتحدث عن الخلفاء الراشدين ، والامويين ، والعباسيين ، والطولونيين ، والاخشيديين ، والمغاربة ، والفاطميين . كما اشار بالتفصيل الى شخصيات عصره من المماليك في مصر . وزودنا ، احيانا ، بمعلومات جديدة غير معروفة في المصادر التاريخية التقليدية . وبحكم تنوع مادته وتداخلها في بعضها ، تطرق الى الحديث في العديد من الموضوعات مثل الحروب الاسلامية في العصر الوسيط ، وفن الحرب والقتال عند المسلمين ، وطبوغرافية الاسكندرية وجغرافيتها ومبانيها ومنشآتها وكل ما يتعلق بها ، الى جانب النواحي الادبية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والدينية . وبذلك جاءت موسوعته حاوية لنقاط جديدة شتى تجعلها اشبه بدائرة معارف يمكن ان يفيد منها الباحثون المتخصصون في شتى افرع المعرفة الانسانية . ولكن يجب الا ننسى بعد هذا كله ان النويري السكندري يعتبر حجة فيما يتعلق بحملة القبارصة على الاسكندرية .

اما الفصل الرابع وعنوانه « الحملة الصليبية على الاسكندرية عام ١٣٦٥م/٧٦٧هـ » ، فقد خصصه الدكتور عطية لتاريخ تلك الحملة من واقع كتاب الالمام للنويري . وسيادته يعتبر حجة راسخة في هذا الميدان الذي كرس له وقته وجهده . وكانت الثمرة اثراء مكتبة تاريخ الحروب الصليبية بالعديد من بحوثه ومؤلفاته التي لها وزنها وشهرتها العالمية .

وقد سبق ان تناول تاريخ حملة القبارصة على الاسكندرية في كتابه الضخم « الحروب الصليبية في اخريات العصور الوسطى »[٢] ، والذي توصل فيه الى نظرية جديدة اصبح معترفا بها في مجال الدراسات التاريخية ومفادها ان الحروب الصليبية التي تعرض لها العالم الاسلامي ، في مشرقه ومغربه ، لم تنته حسبما هو معروف في اواخر القرن الثالث عشر الميلادي (اواخر القرن السابع الهجري) عندما تمكن السلطان المملوكي الاشرف خليل من اجلاء الصليبيين عن عكا آخر معاقلهم الحصينة بالساحل الشامي سنة ١٢٩١م/٦٩٠هـ ، وانما استمرت خلال القرن الرابع عشر الميلادي (القرن الثامن الهجري) فيما عرف باسم « الحروب الصليبية المتأخرة » ، حينما تعرض العالم الاسلامي لحملات صليبية كبيرة لا تقل ضراوة عن الحملات المبكرة ، وتتفق معها في مفهومها وخصائصها وطبيعتها وهدفها . نذكر منها ، على سبيل المثال ، حملة القبارصة على الاسكندرية موضوع هذا الفصل ، وحملة لويس الثاني دوق بوربون على المهدية سنة ١٣٩٠م/٧٩٢هـ ، وحملة نيقوبوليس الشهيرة سنة ١٣٩٦م/٧٩٨هـ التي قامت بها اوروبا بأسرها لا لاخراج العثمانيين من شبه جزيرة البلقان فحسب ، بل للوصول الى بيت المقدس في قلب امبراطورية المماليك ايضا[٣] .

---

(٢) Cf. Atiya, A.S., the Crusade in the Later Middle Ages, London (Methuen & Co.), 1938, pp. 345 — 378.

(٣) للدكتور عزيز سوريال عطيه مؤلف عن تلك الحملة هو :

Atiya, A.S., The Crusade of Nicopolis, London, 1934.

وهنا لا يعيد الاستاذ عطية ما سبق ان ذكره عن الهجوم القبرصي على الاسكندرية ، في كتابه سالف الذكر ، وانما يحلل تحليلا دقيقا رائعا روايات النويري عن تلك الفاجعة ، وقيمتها التاريخية فيما يتعلق بالجديد الذي اضافته الى معلوماتنا عنها ، والتفاصيل التي زودنا بها ولم ترد في المصادر الغربية المعاصرة له مثل كتاب كل من جويوم دي ماشو Guillaume de Machaut وليونتيوس ماخايراس Leontions Makhairas(٤) .

والجديد في هذا الفصل ، ايضا ، ان الاستاذ عطية قام بتنسيق روايات النويري الخاصة بتلك الحملة والمبعثرة والمشتتة على امتداد الكتاب بين غيرها من المعلومات التي لا تربطها بها اي رابطة ، مع ترتيبها ترتيبا زمنيا مسلسلا ، بحيث تبدو وحدة واحدة متكاملة ، تسجل تاريخ الهجوم من بدايته الى نهايته لحظة بلحظة .

واذا استعرضنا مشاهد الحملة باختصار ، نجد انها تبدأ بتحذيرات وجهها بعض المسلمين الاتقياء في العالم الاسلامي الى اولي الامر في مصر من المماليك بما سوف يحل بمدينة الاسكندرية ، وكان ذلك قبل الحملة ببضع سنوات . وهنا تتداخل الحقائق والاساطير حينما يروي النويري بعض المنامات التي ترامت لعدد من الناس بهذا الخصوص . وبعد ذلك يحلل صاحب الالمام تحليلا دقيقا الاسباب التي ادت الى الكارثة ، ويحددها بسبعة ما بين مباشرة وغير مباشرة ، ورئيسية وثانوية ، وداخلية وخارجية ، مبينا كيف انها مجتمعة متكاتفة هيأت الجو لها . ثم يتحدث عن استعدادات الجانبين المصري والقبرصي ، ويشير الى نظام التجسس والاستطلاع لدى كل منها وأثره . وهنا يحلل الموقف تحليلا دقيقا ، مع ذكر امكانيات النجاح او الفشل فيما يتعلق بقدرة المماليك في مصر على صد هذا الهجوم المرتقب .

وابتداء من هذه النقطة يزودنا النويري بصورة حية نابضة عن الهجوم كشاهد عيان له ، منذ نزول الفرنج الى الشاطىء ، وتسلقهم للاسوار ، وفرار الجماهير المذعورة ، وحالة اليأس التي استولت على الجميع . ثم فراره هو مع الفارين ، وعودته ثانية الى المدينة بعد انسحاب الفرنج منها ليرى ، مرة اخرى ، ما رآه من الخراب والدمار اللذين حلا بها . اما فيما يتعلق بالفترة الواقعة بين تركه المدينة وعودته اليها ، فقد جمع معلوماته عنها من شهود عيان آخرين بقوا داخل اسوارها وقصوا عليه ما حدث بكل دقائقه وتفاصيله .

وكانت الحصيلة ان النويري - بعد جمع الدكتور عطية لهذا الشتات من المعلومات وتنسيقه وترتيبه - امدنا بصورة متكاملة نابضة بالحركة والحياة عن تاريخ هذه الحملة ، والكوارث التي حلت بالثغر السكندري على ايدي الغزاة ، وهي صورة تزود الباحث المتخصص بأتم واوفى وادق تسجيل لهذا الهجوم الوحشي المدمر الذي دام ثمانية ايام منذ لحظة نزول الفرنج الى الشاطىء وحتى مغادرتهم المدينة وهي في حالة يرثى لها . وهنا نجد انفسنا امام مشاهد وامثلة متباينة مثيرة للدهشة والعجب . امثلة نادرة للشجاعة الفردية اليائسة المستميتة لبعض اهالي المدينة ، الى جانب نماذج من الغدر والخيانة والجبن التي اتسم بها بعض المسئولين من المماليك ، الى جانب اعمال القسوة والوحشية التي تفوق حد الوصف والتي مارسها الغزاة ضد الاهالي ، دون شفقة او رحمة او هوادة ، ودون تفرقة او تمييز للسن او الجنس ، بل ودون تفرقة

(٤) Cf. Makhairas, L., Recital concerning the Sweet Land of Cyprus entitled Chronicle, 2Vols., Greek text with English trans. and notes by R.M. Dawkins, Oxford, 1932.

او تمييز بين الاهالي من مسلمين ومسيحيين ويهود . هذا ، الى جانب اعمال السلب والنهب التي ارتكبها الفرنج ، والاسلاب التي وضعوا ايديهم عليها وحملوها معهم في سفنهم ، والحرائق التي اشعلوها في منشآت المدينة ومبانيها حتى اضحت خرابا . ويزودنا النويري ، ايضا ، بصور عديدة تكشف عن تداخل المصالح الاقتصادية في المسائل السياسية ، وذلك فيما يتعلق بموقف الجاليات الايطالية التجارية ، وبخاصة البنادقة ، الذين رأوا في هذا الهجوم اضرارا بهم وبمصالحهم ، فوقفوا منه موقف المعارضة والعداء ارضاء للسلطات المملوكية من ناحية ، وحفاظا على امتيازاتهم ومكاسبهم في مصر من ناحية اخرى .

صور ومشاهد عديدة تترى وتتابع ، سجلها النويري باسهاب وتفصيل كبيرين . ومنها نعرف ان مدينة الاسكندرية اضحت بعد مغادرة الفرنج لها قبرا مفتوحا ، بينما جثث الضحايا تملأ شوارعها وازقتها ولا تجد من يقوم بدفنها . وقد ترك هذا جراحا عميقة في مصر لم تندمل ، رغم محاولات السلطات القبرصية اعادة السلام بين البلدين وتناسي الماضي المزعج . وكان طبيعيا ان تتدهور العلاقات بين مصر وقبرص بقية حكم بطرس الأول لوزجنان قائد الحملة المشئومة ، وفي عهد خلفيه بطرس الثاني وجانوس الثاني . واثناء حكم الاخير ، انتقمت مصر تماما لما حل بعاصمتها الثانية ، عندما وجهت ثلاث حملات كبيرة ضد قبرص خلال اعوام ١٤٢٤ و١٤٢٥ و١٤٢٦ على التوالي . وفي الحملة الثالثة الحقت بتلك الجزيرة ضربة قاضية ، وانزلت بها هزيمة ساحقة ، واخذت معها الى القاهرة ملكها جانوس وكبار رجال حاشيته اسرى مكبلين بالاغلال .

وهكذا كان الثمن الذي دفعته قبرص غاليا ، وكانت الضربة التي الحقتها سلطنة المماليك في مصر بالجزيرة قاضية ، تكشف بما لا يدع مجالا للشك ان كفة الميزان في الصراع الطويل المرير بين الصليبيين والمسلمين كانت قد رجحت وبشكل نهائي وحاسم لمصلحتها ، واصبح مركز الثقل يميل بقوة الى جانبها . وكل هذا يتصل بموازين القوى ومراكز الثقل في الصراع بين شقي العالم وقتها ، ويرتبط ايضا بالافعال وردود الافعال ، وبالاسباب والمسببات التي ادت الى ذلك الصراع والنتائج والخواتيم التي ترتبت عليه(*) .

وخلاصة ماسبق انه اذا اردنا ان نؤرخ لحملة القبارصة على الاسكندرية ، لا يمكن بحال ان نتجاهل او ان نتغاضى عما سجله النويري السكندري عنها في كتابه الالمام . وان هذا التجاهل او التغاضي يجعل دراستنا عن تلك الحملة ناقصة مبتورة غير مستوفاة .

وفي الفصل الخامس الختامي والأخير ، قدم الدكتور عطية تقييما دقيقا لهذا التراث الهائل المتنوع الذي خلفه لنا النويري ، والذي اثرى به الدراسات الانسانية في مختلف الميادين والمجالات ، وفي شتى نواحي العلم والمعرفة . ولا ريب ان فهارس الدكتور عطية الموضوعية المصنفة التي يشتمل عليها الجزء السابع والاخير من كتاب الالمام ، سوف تلقي الضوء على هذا التراث وتعين الباحث المتخصص على الاغتراف منه .

(*) انظر الى ذلك بالتفصيل في مقالي بالانجليزية :

Yousef, J.N., "Arab Awakening during the Crusades," Bulletin of the Alexandria Faculty of Arts, Vol.XXIII, 1969, Alexandria, 1971, pp. 11 — 26.

وبعد ، فقد اقتضى نقل مقال الدكتور عزيز سوريال عطية الى اللغة العربية ، الرجوع الى كتاب الالمام بأجزائه السبعة لتحقيق اسماء الاعلام والاماكن والمصطلحات كما ذكرها النويري . كذلك اقتضى ترجمة النص ترجمة دقيقة تتمشى مع روح اللغة العربية ، اضافة القليل جدا من العبارات الموجزة الى المتن بقصد الايضاح او التعريف بالنسبة للقاريء العربي . وتمييزا لها عن الاصل الانجليزي ، فقد وضعنا كل اضافة منها بين حاصرتين . كذلك زودنا الترجمة العربية ببعض التعليقات في الهوامش السفلية رأينا ان طبيعة الموضوع تستلزم تزويده بها . وقد اضفنا كلمة « المترجم » بعد كل حاشية منها تمييزا لها عن حواشي المؤلف ، وتحقيقا للفائدة المرجوة من تعريب هذا البحث القيم العظيم .

مقدمة الاصل الانجليزى
للسيد
خسرو مصطفى
مدير مركز الشرق الأوسط بجامعة يوتا

تولى عزيز سوريال عطية ، مؤسس الشرق الاوسط ومكتبته الرائعة بجامعة يوتا ، نشر مخطوطة « كتاب الألمام » في سبعة اجزاء ، والتي وضعها احد مصنفي الموسوعات المصريين من الاسكندرية في القرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] ، وهو محمد بن قاسم بن محمد النويري المالكي الاسكندراني . ويتضمن هذا العمل قدرا غير عادي من المعلومات في موضوعات شتى متنوعة . وقد خصص جانبا كبيرا منه لروايات اصيلة تتعلق بنهب القبارصة لمدينة الاسكندرية عام ١٣٦٥م [٧٦٧هـ] .

ووفقا لقول الناشر فان النويرى « قد اتخم النص بالمعلومات والتفاصيل ، متنقلا من موضوع الى آخر دون تمييز » . ورغما عن افتقار النص الى التنسيق ، فانه يصعب تقدير قيمة المخطوط كمصدر للمعلومات (التى تلقى ضوءا) على فصل من فصول التاريخ الطويل للحركة الصليبية . ويعتبر الدكتور عطية عالما حجة فى هذا الميدان ، اذ كتب فيه بغزارة . وأصبح النص الكامل لكتاب النويرى ، بفضل الجهود التى كرسها فى هذا السبيل ، فى متناول طلاب العلم بعد طبعه ونشره فى ستة مجلدات . اما المجلد السابع الذى اعده الدكتور عطية فسوف يسهل الى اقصى حد عملية البحث بالنسبة لأى دارس . اذ يزوده بعدد كبير من الفهارس التى تتضمن مختلف الموضوعات ، كأسماء الاماكن ، والاعلام ، والقبائل ، وادوات الحرب ، والحيوانات ، والسفن ، والفلك ، والقواق ، وما الى ذلك . وسوف تنير هذه الفهارس الطريق امام الباحث فى خضم « المعلومات المشوشة التى يعوزها التنسيق والترتيب » والتى زودنا بها النويرى حسب قول (عزيز سوريال عطية) . وربما كان هذا هو اعظم ما قدمه فيما يتعلق بعملية نشر الكتاب .

ويرجع اهتمام الدكتور عطية بـ « كتاب الالمام » للنويرى الى ما يزيد عن اربعين عاما مضت ، عندما عمل مع المغفور له الاستاذ اتين كومب Etienne Combe ، الذى كان فى ذلك الوقت ينشر نصا يعتمد على مخطوطتى برلين والقاهرة . وبعد وفاة كومب عام ١٩٦٢ ، تابع الدكتور عطية المشروع بمفرده ، مضيفا الى مصادره مخطوطة بانكى بور ، وهى اوفى من المخطوطتين الاخريين . وكانت الخطة الاصلية تهدف الى نشر طبعة مختصرة (للكتاب) . ولحسن

الخط ، قرر الدكتور عطية بعد تفكير طويل خلاف ذلك ، وكانت النتيجة صدور النص الكامل مطبوعا بلغته الأصلية وهي العربية . ولا شك انه ستظهر له ترجمة باللغة الانجليزية في الوقت المناسب .

ولقد تحمل الدكتور عطية تضحية شخصية هائلة في سبيل نشر الكتاب . واذا راعينا العناية الفائقة التى بذلها في العمل في المشروع قرابة نصف قرن ، الى جانب الوقت الذى اضطر لقضائه في حيدر أباد (الدكن) للاشراف على نشر كل جزء من اجزائه ، لتذكرنا تعليق احد الباحثين كان يعمل مساعدا للمغفور له ادواردج . براون . edward G Browne بجامعة كامبريدج . لقد شكا من ان براون كان قد اوفده ذات مرة في اربع رحلات مختلفة الى باريس للتأكد من صحة تهجئة كلمة واحدة في اربع نسخ خطية ، كانت قد استرعت انتباه براون الواحدة تلو الاخرى . ولسوء الحظ فان هذا النوع من العلم في طريقه الى الزوال ، لاننا نعيش اليوم في عصر السرعة والدراسة المتعجلة ، وفي عصر يهمل التفاصيل التى هى بمثابة العلامات الدامغة للصناعات الدقيقة .

وسوف يتيح هذا المقال للقارىء الذى يتكلم الانجليزية الفرصة للتعرف على مادة « كتاب الالمام » للنويرى ، وبخاصة وصفه الدقيق المفصل للاحداث المفجعة التى صاحبت حملة عام ١٣٦٥ م الصليبية . وان مركز الشرق الاوسط ليفخر بأن يضم الى سلسلة بحوثه ومقالاته ، ملخص الدكتور عطية الراقى لهذه الموسوعة .

الفصل الأول

تمهيد

ترجع معرفتي بـ « كتاب الالمام » للنويري الاسكندراني الى عام ١٩٣٦م ، وكان ذلك اثناء اعدادي لدراسة مستفيضة لتاريخ « الحروب الصليبية في اخريات العصور الوسطى »[٦] . وباستعراض الحملات الصليبية في شرق البحر المتوسط ، أصبح لزاما تخصيص مساحة كبيرة وتوجيه اهتمام بالغ الى كارثة نهب القبارصة وحلفائهم من غرب اوروبا لمدينة الاسكندرية عام ١٣٦٥م . فقد حظيت تلك المغامرة الصليبية بقدر كبير من الدراسة والتمحيص من جانب طلاب العلم الاوروبيين غير المستشرقين ، من واقع المصادر والأصول الغربية ، وبخاصة قصيدة جويوم دي ماشو Guillaume de Machaut الشهيرة تحت عنوان « غزو الاسكندرية » La Prise d'Alexandrie[٧] . وكان دي ماشو بالفعل احد المشتركين في هذا الحادث المؤسف . وعلى هذا فقد كتب كشاهد عيان ، ولو ان روايته كانت بطبيعة الحال من الزاوية المسيحية [الغربية] ولهذا السبب بدا لي [رأي دي ماشو] رأيا من وجهة نظر واحدة يشوبه بالضرورة الخطأ ، ما لم نعثر على الرأي الآخر من الجانب الاسلامي . ولما كان دي ماشو قد كتب من الخارج *، فانه من المستحسن من الوجهة التاريخية البحث عن مواطن كتب من الداخل حتى يتسنى تقديم قصة حية نابضة للصدام

(٦) ظهرت الطبعة الاولى في لندن ، طبع (Methuen & Co) عام ١٩٣٨ ، وصدرت الطبعة الثانية في نيويورك وتولت نشرها (Kraus Reprints) (عام ١٩٦٣) .

(٧) العنوان الكامل للكتاب هو :

La Prise d,Alexandrie ou chronique du roi pierre Ier de Lusignan,ed .Mas — Latrie) Geneva : Societe de I,Orient Latin, 1877.

* اى من خارج مصر (المترجم) .

بين الشرق والغرب [بعامة] وبين قبرص ومصر على وجه الخصوص . وقد عثرنا على بغيتنا في الكتاب الهائل الذي الفه النويري الاسكندراني ، وقد حفزه على تأليفه رد الفعل الذي تملكه من مسلك الغزاة في مدينته الزاهرة الاسكندرية .

وعندما رحلت من لندن الى جامعة بون بالمانيا خلال عام ١٩٣٦ ، تمكنت من الانتفاع بمخطوطة برلين لـ « كتاب الالمام » لتقييم احداث عام ١٣٦٥م تقييما متوازنا . وقد تبلورت حصيلة بحوثي المستفيضة في العديد من المصادر الشرقية والغربية على السواء ، في سردي لتاريخ الحروب الصليبية المتأخرة الذي رأى النور [في شكل كتاب مطبوع] عام ١٩٣٨ . وقادني هذا على الفور الى اتصال مباشر بباحث آخر كان يعمل في « كتاب الالمام » لهدف آخر الا وهو دراسة الآثار الاسلامية في الاسكندرية في العصور الوسطى . وكان هذا الباحث هو المغفور له اتين كومب Etienne Combe ، وهو مستشرق سويسري كان يقيم في الاسكندرية . وكان قد قدم اصلا الى مصر ليعمل متقفا لفاروق الصغير الذي كان آنذاك اميرا متوجا على عرش مصر . وعندما اعتزل كومب تلك الوظيفة ، عين مديرا للمكتبة العامة لمدينة الاسكندرية* . وعندما التقيت به الفيته وقد ركز « جهوده » لبضع سنوات على الطابع الاسلامي لتاريخ وآثار تلك المدينة ذات العمر المديد . وقد دفعه هذا بالضرورة الى الخوض في المصادر الاسلامية التي ترجع الى تلك الفترة من الزمن ، ومن ابرزها كتاب النويري . ومن الواضح ان طابع ذلك النص الزاخر بالمعلومات المتشابكة المتشعبة في العديد من المجالات ، قد حصر جهود كومب في اعداد اقتباسات مناسبة [من الكتاب] فحسب مصحوبة بترجمة فرنسية لها في مجلد واحد .

ثم ما لبث ان توقف الامر عند هذا الحد عندما اصبح كومب بعد ذلك مديرا للمعهد السويسري للآثار بالقاهرة . فقررنا حينئذ تنسيق جهودنا على امل نشر تلك المادة في مشروع مشترك يحمل اسمينا . وبالفعل انهيت الجزء الخاص بي من هذا الكتاب ، وسلمت النص لشريكي لمراجعة الترجمة الفرنسية غير المصقولة قبل النشر . ثم استدعتني جامعة متشيجان بان آربور عام ١٩٥٥ لشغل وظيفة استاذ زائر للدراسات الاسلامية باكاديمية العصور الوسطى التي انشئت حديثا ، وذلك لمدة عام جامعي . وما لبث ان تبعت هذه الدعوة دعوات اخرى من جامعات كولومبيا وبرنستون وانديانا ومعهد الدراسات المتطورة وشغلني عملي هذا لبضع سنوات في مجال الدراسات العليا الامريكية . وفي تلك الاثناء توفي الاستاذ كومب في ٩ يوليو عام ١٩٦٢ عن ٨٢ عاما ، تاركا كل مادة مشروعنا المشترك في المعهد السويسري . فلجأت على الفور الى السفارة السويسرية في القاهرة لاستعادة تلك المادة من مخلفات كومب . وقد امكننا الحصول على كل المخطوطات والصور الفوتوغرافية والمتعلقات الاخرى الخاصة بالكتاب ، وذلك بفضل وحسن تدبير الادارات التابعة للملحق الثقافي السويسري وقتها ، المغفور له الدكتور روبرت ران Dr. Robert Rahn . كما وافقت السيدة زوجة كومب على الفور على انقاذ هذه المادة .

وتضمنت المادة ايضا ، بالاضافة الى النسخة المكتوبة على الآلة الكاتبة للمقتطفات المذيلة بالشروح والتعليقات

---

* كانت تعرف آنذاك باسم مكتبة بلدية الاسكندرية (المترجم) .

ومسودة الترجمة الفرنسية التي اعدها كومب بقلمه البارع ، صورا فوتوغرافية لنص برلين[٨] ، والنسخة الناقصة لمخطوطة القاهرة[٩] وتعتبر المخطوطتان مكملتين لبعضهما . ويبدو انها فصلا عن نفس النسخة الاصلية المصورة المفقودة . ثم نما الى علمنا في تاريخ لاحق وجود النسخة الوحيدة الكاملة للنص في الهند[١٠] . وقد نسبت هذه المخطوطة عن طريق الخطأ الى ابي عبدالله محمد بن عمر زين الدين الواقدي . كما توجد مخطوطة رابعة في المتحف البريطاني[١١] ، ولكنها ليست سوى نبذة مقتضبة مبتورة مبنية بكل تأكيد على الاصل الهندي وتحمل اسم النويري . اما فيما يتعلق بعملية النشر والتحرير والمقابلة [بين مختلف النسخ] ، فان تلك التي يمكن الافادة منها هي مخطوطات برلين والقاهرة وبانكي بور ومع ذلك فان كل هذه المخطوطات توجد بها فجوات واجزاء مختصرة ، امكن ملؤها وتقويمها عن طريق المقارنة بين مختلف النصوص . وفي رأينا انه من المناسب اتخاذ مخطوطتي القاهرة وبرلين اساسا لنصها النهائي ، طالما انها نسختان من النسخة الاصلية للمؤلف . كما ساعدت النسخة الهندية غير المنشورة على ايضاح بعض الاجزاء الغامضة وسد العديد من الثغرات الموجودة في المخطوطات الأخرى .

واثناء انغماسي في مراجعة مشروع كومب ـ عطية توطئة لنشره ، تلقيت دعوة رسمية من المغفور له الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، للقيام بنشر النص بأكمله لحساب مؤسسته . كجزء من سلسلتها الشهيرة عن التراث العربي . وفي الحقيقة نظرا لأهمية الكتاب ووجود نسخته الوحيدة الكاملة في بانكي بور ، فقد نجح المسئولون في الدائرة في اقناع الحكومة الهندية لتمويل المشروع والتكفل بنشره في [السلسلة الجديدة من مطبوعات] دائرة المعارف العثمانية . وكان اعداد النص قائما على قدم وساق في الدائرة عام ١٩٣٨[١٢] ، وبنيها على المخطوطة الهندية التي اتضح انها ناقصة وغير وافية بالغرض[١٣] .

وبدا واضحا ان المقصود من دعوة الدكتور عبد المعيد خان هو نشر النص كاملا دون حذف او الاكتفاء بانتقاء اجزاء منه . ولذلك بدأ مشروع كومب ـ عطية الاصلي يأخذ اتجاها مغايرا . ولأسباب عديدة رحبنا في نفس الوقت

(٨) وتقع مخطوطة برلين من السبت في مجلد واحد تحت رقم Wetzstein ٣٠٩ (من ١ ـ ١٣٩) ويرقم ٣٦٠ (من ١٤٠ ـ ٢٦٠) . انظر :
Ahlwardt, Vergeichniss der Arabischen Hand — schriften der Koniglichen Bibliothek zu Berlin, 10 vols .) Berlin, 1887 — 99 (, IX , 304 — 6 .

هنا ، ولا تتضمن صفحة العنوان الاولى للمخطوطة اسم المؤلف . ولذلك ينسبها الوارد الى مجهول . ويأخذ بهذا الرأي بروكلمان في مؤلفه :
C . Brockelmann , Geschichte der Arabischen Literatur ,
2 Vols .) Berlin , 1898 — 1942 (, II, 35 — 36 .

ولم له صحح ذلك فيما بعد في الملحق الثاني ، ص ٣٤ .
(٩) دار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ١٤ ـ ١٩ تاريخ .
(١٠) بانكي بور ، المفردة ١٥ ، ١٠٦٦ .

(١١) Ch . Rieu , Supplement to the Catalogue of the Arabic Manuscripts in the british Museum London , 1894 (,No . 606 , Fol . 50/70 .

(١٢) كانت مسألة اعداد نص بانكي بور ، في الواقع ، موضع اعتبار في حيدر آباد في عام ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) ، كما ذكر بروكلمان في الملحق الثاني ، ص ٣٤ .

(١٣) يتضح هذا من النسخة طبق الاصل التي بعث بها الى القاهرة عن طريق الدكتور عبد المعيد خان .

باقتراح نشر الكتاب كله دون اختصار . اولا لأن مبدأ نشر التراث القديم غير منقوص قد اصبح لفترة طويلة مقبولا كنموذج مثالي لما يجب ان تكون عليه عملية النشر ، وبصفة خاصة عندما يطبع المخطوط لأول مرة . وثانيا ، ان وضع الترجمة الفرنسية على الرف والتركيز على النص العربي ، اطلق يدي المحرر تلقائيا من القيد الذي كان يحصر جهوده في جزء خاص او اكثر من الكتاب . لذلك فان مشروع كومب ـ عطية القديم الخاص باستبعاد جميع الأجزاء التي لا علاقة لها بالاسكندرية وتاريخها وآثارها ، كان لا بد من مراجعته مراجعة تامة مع اثبات جميع الاجزاء المحذوفة . ولم يكن هذا عملا سهلا ، وان كان باعثا على الرضاء التام . وهكذا ظهر النص بأكمله في الأجزاء الستة الأولى . ونظرا للطابع الذي يتميز به هذا الكتاب المتنوع المعلومات ، والذي يعوزه التخطيط الواضح المفصل ، فقد اصبح لزاما تخصيص مجلد سابع وأخير للفهارس العديدة التي قد تساعد القارىء على تحديد مكان معلومة ما ورد ذكرها وسط خضم النقاط المختلفة او بين ثنايا حشو النص المسهب .

وربما كان الجزء الوحيد الذي اغرانا بالحذف [من الكتاب] هو البذاءات التي تمس الانبياء[١٤] في مواضع منه ، او تلك التي تدخل في مناقشة صريحة حول الجنس في مواضع اخرى ، ومع ذلك ، فقد تقرر في النهاية ، بعد تقديم الاعتذار ، تضمين الكتاب حتى هذه الاجزاء دون المساس بها وذلك لأسباب عدة . اولا ، لأنها تمثل مظهرا من مظاهر ادب العصر الذي لم يرفضه او يتعفف عنه العقل العربي في القرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] باعتباره امرا مشينا . وبعبارة اخرى ، يجب ان ينظر الى كل ما اورده النويري في هذا المجال كتعبير عادي لاخلاقيات العصر . ثم ان التفاصيل التي كشف الكتاب عنها صراحة في هذا الخصوص ، انما تصلح اساسا من اسس دراسة فسيولوجية الجنس . وفي الحقيقة ، تأرجحت شخصية النويري التي تميزت بروحه المرحة بين الزهد الزائد عن الحد وبين الفجور المبتذل . وفيما بين هذين الطرفين [المتناقضين] كتب تقريبا بحرية في كل موضوع يمكن تصوره ومألوف لمعاصريه ، مما جعل كتابه موسوعة عالمية للعصر [الذي عاش فيه] . وبالرغم من الخلط والارتباك الناتجين عن خروجه عن جوهر الموضوع ، الا ان المادة التي جمعها تضم كثيرا من الدرر الغالية الكامنة في ثنايا نصه المسهب ورواياته غير المترابطة . ونأمل ان تقدم الصفحات التالية للقراء تحليلا متسقا لهذا النص العظيم ، وتهيء السبل اللازمة لتحديد مكان اي موضوع هام ومحدد عن طريق الفهارس [التي اعددناها لهذا الغرض] .

الفصل الثاني
المؤلف وكتابه

الاسم الكامل لمؤلف « كتاب الالمام » هو محمد بن قاسم بن محمد النويري[١٥] المالكي الاسكندراني . والاسم غير مدون على صفحة العنوان في كل من مخطوطة برلين ومخطوطة القاهرة ، الامر الذي ضلل الوارد Ahlwardt حتى

(١٤) محمد بن قاسم النويري الاسكندراني : كتاب الالمام ، نشر عزيز سوريال عطيا في سبعة اجزاء (حيدر آباد : دائرة المعارف العثمانية ١٩٦٨ ـ ١٩٧٦) . وسوف يرد ذكره فيما بعد تحت اسم « الالمام » . انظر بصفة خاصة جـ ٦ ص ٢٧٦ وما يليها وص ٢٩٠ وما يليها .

(١٥) الهجئة الواردة هنا هي التي حددتها دائرة المعارف العثمانية .

انه تسب مخطوطة برلين لشخص مجهول . وتبعه في ذلك بروكلمان Brockelmann في النسخة الاصلية لكتابه المتون " تاريخ الادب العربي " ، ولو انه صحح الخطأ بعد ذلك في ملاحقه[١٦] . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى نجد ان مخطوطة بانكي بور تذكر المؤلف تحت اسم ابو عبد الله محمد بن عمر زين الدين بن الواقدي . وهذا بالطبع غير صحيح ، وغير معروف مصدر هذا الخطأ الذي يظهر مرة اخرى في مخطوطة المتحف البريطاني الموجزة . ومع ذلك ، يظهر اسم المؤلف ونسبة الكتاب اليه في شعره في عدة مناسبات بين ثنايا النص ذاته[١٧] ، وبذا لا يترك لنا مجالا للشك في شخصيته . وعلينا ، في ذات الوقت ، ان نتذكر ان « كتاب الالمام لم يكن مجهولا لدى عدد كبير من المؤرخين القدامى ، ومن بينهم ابن حجر العسقلاني[١٨] (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) والسخاوي[١٩] (ت ٩٠٢ / ١٤٩٦ م) . وللاخير بعض الكلمات التي ينتقد فيها عملية تأليف الكتاب واسلوبه . وتتضمن مصنفات السير والتراجم المتأخرة [زمنيا عن عصر النويري] مثل [معجم] حاجي خليفة[٢٠] وكتاب عمر رضا كحالة[٢١] ، اسم « كتاب الالمام » بين قوائمها كاملا مع اسم مؤلفه .

وان وصف النويري لنفسه كسكندري (الاسكندراني) يعزى الى اقامته الطويلة في تلك المدينة . وهذا يساعد على تمييزه عن الآخرين الذين يحملون نفس اللقب . ومن اشهرهم احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) وهو المؤلف الذائع الصيت لكتاب " نهاية الارب " ،[٢٢] ووجيه الدين عبد الرحمن[٢٣] الذي توفي عام ٧١٦ هـ / ١٣١٩ م* وهو يقاتل في صفوف الجيوش الايوبية ضد الفرنجة ، وربما كان ذلك في دمياط . ومن الواضح ان الثلاثة قدموا اصلا من قرية النويرة من اعمال مديرية البوصيرية - محافظة بني سويف الآن - في مصر الوسطى .

ووفقا لروايات محمد بن قاسم نعرف انه قدم الى الاسكندرية في شهر ذي الحجة ٧٣٧ هـ / يوليو ١٣٣٧ م[٢٤] بهدف زيارة المزارات الاسلامية المقدسة والاضرحة مشايخها الابرار . وعندما احس بما تتمتع به المدينة من جمال ، ووجد ان المعيشة فيها مستساغة الى حد بعيد ، قرر الاقامة فيها . ثم تزوج فيها بعد من اهلها الذين اعجب بهم ، وبذلك كون عائلة داخل اسوارها الى ان تركها مع سيل المهاجرين عن طريق البوابة البرية هربا من الغزاة الفرنجة اثناء الايام العشرة

---

(١٦) انظر الفصل الاول ، حاشية رقم ٣ .

(١٧) الالمام جـ ٢ ، ص ٢١٩ ، جـ ٣ ص ٥٠ ، جـ ٤ ص ٤٤ و ٤٥ ، جـ ٥ ص ٢٩٧ . ويشير النويري في الجزء الثاني ص ٥٢ الى اريته الاصلية النويرة التي عاد اليها بعد هروبه من الاسكندرية سنة ١٣٦٥ .

(١٨) الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة (القاهرة ١٩٦٦) ، جـ ١٤ ، ص ١٤٢ .

(١٩) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (القاهرة ١٣٤٩ هـ) ، ص ١٣٢ .

(٢٠) كشف الظنون (استانبول ١٩٤١ - ١٩٤٣) ، جـ ١ ، ص ٢٨٢ .

(٢١) معجم المؤلفين (دمشق ١٩٥٩ - ١٩٦١) ، جـ ١١ ، ص ١٤٧ .

(٢٢) نهاية الارب في فنون الادب ، وهو موسوعة ادبية ضخمة صنفها شهاب الدين بن عبد الوهاب البكري التيمي الشافعي المعروف بالنويري . والموسوعة تقع في ثلاثين جلدا (طبع القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٧٥) .

(٢٣) الالمام ، جـ ٥ ، ص ٩٠ - ٩٢ . هنا ، وقد اورد المؤلف اسطورة مفادها انه بعد وفاة وجيه الدين استجاب لنداء مهين من قبل احد الفرنجة في ساحة القتال ، ومن ثم قتل الفرنجي الذي اخرجه الدهشة من جثمان الشيخ وحمله معه الى عكا حيث يرقد الفرنجي في مدفن الشيخ بعد اعتناقه الاسلام .

* التاريخ في الاصل الانجليزي ١٢١٩ م ، ولعله خطأ مطبعي ، وصحته ١٣١٩ م (المترجم) .

(٢٤) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٢١٩ .

الاخيرة من شهر محرم ٧٦٧ هـ / اكتوبر ١٣٦٥ م ، وكان النويري قد اتم في هذا التاريخ قرابة ثلاثين عاما امضاها في هذه المدينة التي عاد اليها بعد ذلك .

وعند عودته الى الاسكندرية ، بعد انسحاب القبارصة المشين منها ، ومشاهدته الكوارث التي حلت بها اثناء احتلالهم القصير لها ، والتي اثارت الرعب والهلع في نفسه ، قرر ان يؤلف كتابا عن تلك الاحداث الحقيرة . وبدأ بالفعل في جمع نصه في جمادى الثاني ٧٦٧ هـ /١٣٦٦ م ، واتمه في ذي الحجة ٧٧٥ هـ / مايو ١٣٧٤ م[٣٥] . ويمكن القول ، بناء على ذلك ، انه امضى نحو ثماني سنوات للفراغ من اعداد كتابه .

ومن الصعب تحديد تاريخ وفاة النويري تحديدا دقيقا . ولكن طالما انه عاش حتى اتم كتابه في السنة سالفة الذكر ، فلا بد اذن انه توفي بعد عام ١٣٧٤ م . ويحتمل انه كان على قيد الحياة في عام ١٣٧٥ أو ١٣٧٦ م . فهو يروي في ثنايا كتابه حادثة ضياع صقلية من ايدي المسلمين ووقوعها في قبضة النورمان الذين وصفهم بالفرنجة عام ٧٧٧ هـ (يونيو ١٣٧٥ ـ مايو ١٣٧٦ م)[٣٦] .

ويتحدث النويري عن مهنته كناسخ للمخطوطات لتجار الاسكندرية المسلمين الاثرياء ، وذلك اثناء اقامته الطويلة في تلك المدينة التي ناهزت اربعة عقود . ومن المؤكد انه نسخ عددا هائلا من المخطوطات طوال تلك السنين . وبحصر الكتب التي كان على معرفة بها ، والتي جمعنا عناوينها في فهرس خاص[٣٧] ، يتضح ان مكتبته قد زخرت بمجموعة لا بأس بها من المؤلفات الهامة لقدامى الاساتذة في مجالات عديدة في الدراسات الاسلامية . وبذا يمكن ان نستنتج انه استطاع كناسخ ان ينقل او يستظهر اجزاء عديدة هامة من المادة التي قام بنسخها ، واستخدمها في تأليف كتابه الخاص الذي قدر ان يكون « كتاب الالمام » . ويدل عنوان الكتاب على تلك الحقيقة ، فكلمة « إلمام » تعني نتفا وشذرات [من مختلف مصادر المعرفة] ، وهي واضحة من بناء الكتاب . ويفسر هذا ، ايضا ، احدى سمات الكتاب المثيرة للحيرة . اذ يبدو انه كان يهدف الى حشد تلك الشذرات المتراكمة فوق بعضها في النص دون خطة واضحة ، مما جعل اسلوبه غير مترابط الى حد ما في بعض الاحيان . وليس من المستغرب لناسخ امضى حياته في نسخ امهات الكتب المعنية بالدراسات الاسلامية ان يجمع قدرا هائلا من المادة التي تتميز بأهميتها البالغة من اصول معروفة او مفقودة ومجهولة بالنسبة لنا . فعلينا ، اذن ، ان نعتبر كتاب النويري بمثابة خزانة ، وربما كانت خزانة غير مرتبة لكنز ثمين متراكم حول واقعة رئيسية ، الا وهي واقعة نهب الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م .

وفي الحقيقة ، لا يعتبر افتقاد النويري لمسألة تنسيق مادته هو العيب الوحيد في كتابه . فيكاد يكون من المستحيل بالنسبة لرجل حصل على مثل هذا العلم الغزير والاطلاع الواسع ، ان نجد تفسيرا لخواص وسمات معينة في اسلوبه . اذ يخونه الجهل ببعض القواعد التي تعتبر من ابسط قواعد النحو العربي . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ليس من

---

(٣٥) على صفحة عنوان الجزء الاول تبدو السنة ١٣٧٢ ، وهو خطأ مطبعي وقع سهوا في الاجزاء الاخرى . وعلى اية حال ، فان هذا لا يغير من تاريخ وفاة النويري الذي وقع بعد كلا العامين .

(٣٦) الالمام ، جـ ٣ ، ص ١٠٢ .

(٣٧) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس رقم ١٢ .

الانصاف ان تنسب هنات الكتاب اليه كأمر محقق ، طالما انه لا توجد تحت ايدينا نسخة المؤلف الاصلية . وعلى هذا ، فمن المحتمل ان يكون الذين نقلوا من نسخته الخطية الاصلية هم المخطئون . ولكن ، لماذا تظهر في جميع المخطوطات التي تحت ايدينا نفس التراكيب النحوية المخالفة لابسط القواعد ؟ واما بالنسبة للاخطاء النحوية واللغوية الفاضحة والتعبيرات العامية لاحداث الحياة اليومية في مصر [الواردة في كتابه] ، فاننا نرى من المناسب اجراء حد ادنى من التصحيح والتهذيب اللذين لا بد منهما في اسلوب الكاتب مما يجعل النص صالحا للنشر في سلسلة من سلاسل التراث العظيم . ومن الصعوبة بمكان ان يوفق القرد بين مثل هذه المتناقضات في انجازات النويري الشعرية . فقد كان شاعرا قديرا . وان قصائده المتناثرة في الاجزاء الاخيرة [من الكتاب] لدليل كاف على سيطرته على علم العروض العربي ، وعلى مهارته الادبية في تناول موضوعاته . ويمكن اعتبار قصائده بمثابة وثائق تاريخية ، طالما انها تعالج الاحداث الخاصة بالقرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] والشخصيات المرموقة المعاصرة له .

وترجع قيمة « كتاب الالمام » كمصدر ثقة الى مصادره [التي اعتمد عليها] من جهة ، والى ملاحظات النويري نفسه كشاهد عيان [لأحداث ذلك الزمان] من جهة اخرى . ففي المقام الاول ، جمع مادة وفيرة استقاها من مؤلفات اصلية واقدم زمنيا من كتابه . ومع ذلك ، بوسعنا ان نعتبر طريقة عرضه طريقة لا بأس بها . فهو يكل بساطة حشا مادته في صلب النص ، متنقلا من موضوع الى آخر دون تفرقة او تمييز . ومع ذلك فمن الخطأ الجسيم ان نلفظ كتابه على هذا الاساس ، لانه وسط متاهات رواياته غير المترابطة لحد ما والمكتوبة باسلوب سجعي متكلف ، يستطيع القرد ان يعثر على تفاصيل غير عادية تتميز بأهميتها القصوى مبعثرة بطريقة عشوائية هنا وهناك [في ثنايا النص] . وقد حاولنا علاج فوضى المؤلف وشططه الذي لا مبرر له ، بجمع مادة هذا النص الضخم المرتبوع في اربعة عشر فهرسا تضمنها الجزء السابع والاخير [من الكتاب] . وفي رأينا ان هذه الفهارس قد تعين القارىء على تحديد مكان المعلومة التي يبحث عنها دون الخوض في [متاهات] النص المربك بأكمله .

وفي المقام الثاني ، شب النويري ليكون مواطنا صميما من مواطني الاسكندرية . واصبح على دراية تامة بمنشآتها وأزقتها وحواريها وأسوارها وأبراجها وفنادقها (أي نزلها) وبواباتها وشواطئها والشخصيات المعروفة من أهلها . كما كان شاهد عيان للاحداث التي كانت المدينة مسرحا لها . اما مالم يشاهده ، فقد سجله عن روايات بلغته بطريق مباشر ، او عن مصادر اصلية . وانعكست هذه الامور في التفاصيل الدقيقة التي زودنا بها والتي تتميز بطابعها الفريد فيما يتعلق بطبوغرافية الاسكندرية وآثارها في العصور الوسطى . ورأينا انه من المناسب جمع كافة الاشارات الخاصة بالمدينة في فهرس خاص على شكل جدول[٢٨] يبين انه مصدر ثقة عن الاسكندرية في القرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] .

ثالثا ، خصص المؤلف الجانب الاكبر من كتابه لأوفى معلومات معروفة [لدينا] باللغة العربية عن حملة القبارصة [على الاسكندرية] عام ١٣٦٥ م . وهو في ذلك يعتبر شاهد عيان من جهة ، ومن جهة أخرى مراسل أنباء عرج لجمع

(٢٨) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس رقم ٦ .

كل المعلومات من شهود عيان آخرين ، وهي التي تتناول التفاصيل الخاصة بالأحداث التي لم يشترك فيها شخصيا . ثم هو يقدم لنا اسماء مسئولة لاشخاص جمع منهم قصصه ورواياته ليؤكد صدق اقواله .

رابعا ، لقد ظل النويري ، باعتباره مواطنا يعيش في ميناء من أهم موانيء حوض البحر المتوسط ، لعشرات السنين يشاهد باستمرار مختلف السفن التي ارتادت مياهه . وهنا نجد سجله المفصل عن السفن ، وأوصافها الخاصة ، واستخداماتها ، وبنائها ، وحمولتها ، ومسمياتها الفنية ، سجلا مذهلا حقا ليس له مثيل في مصادر العصور الوسطى العربية . وقد افردنا فهرسا خاصا[٢٩] لهذا الجانب من الكتاب الذي سيثبت عند القاء نظرة خاطفة عليه ضخامة الجهد الذي بذله [النويري] في مجال نادر يتعلق بعلم الملاحة العربي والسفن العابرة في كل من البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندي ، وأحواض أنهار العالم القديم العظيمة . ويعتبر كتابه مصدرا هاما للغاية في هذه الناحية ، حتى ان القاموس الوحيد للملاحة العربية الذي جمعه كندرمان Kindermann [٣٠] يكاد يرتكز كلية على المعلومات الواردة في « كتاب الالمام » .

خامسا ، يزخر الكتاب بمسائل محددة واضحة تتعلق بالعلوم الجغرافية . كما افرد المؤلف قسما شيقا يتعلق بالمعلومات الفلكية . هذا ، فضلا عن أن جانبا كبيرا من محتوياته خاص بالعديد من المدن والأنهار والجزر والبلدان في عالم العصور الوسطى . وتتميز بعض روايات المؤلف بقيمتها النادرة بالنسبة لكل من العالم الجغرافي والعالم الفلكي . فالنويري على سبيل المثال ، كان على دراية بكروية الارض قبل كوبر نيكوس Gopernicus وجاليليو Galileo بوقت طويل ، حينما كان العالم الغربي يعتقد من وجهة نظر الكهنة [اللاهوتية] أن الأرض مسطحة يحيط بها محيط من الظلمات عامر بالرعب والأخطار والتنانين الضخمة . ومما يثير الاهتمام أن نقرأ أيضا بين ثنايا المعلومات التي يحتوي عليها النص ، اقتباسات تتناول خصائص بعض المدن والبلدان الكبيرة في أوروبا في العصور الوسطى ، مثل الكاتدرائيات والمنشآت الأسطورية في بعض العواصم والتي لا تزال بحاجة الى شرح الشراح وتفسير المفسرين المحدثين[٣١] . وان المرء لتعتريه الدهشة عند قراءة الفصول المتعلقة بمجموعات النباتات والحيوانات . ومع أنها قد تبدو مقتضبة ، الا أن رواياته في هذا الصدد يمكن أن تكون ذات فائدة لطلبة كل من علم النبات وعلم الحيوان . كما أنها تفيد مؤرخي التجارة المتعلقة باحتياجات الشرق وحاصلاته . فبالاضافة الى تجارة الفلفل والتوابل الواردة من الهند ، يعدد النويري النباتات الجلدية والحاصلات وأشجار الفاكهة والأخشاب الثمينة وغيرها من المواد التي لها أهميتها في عمليات تبادل الصادرات والواردات وعقد الصفقات التجارية في العصور الوسطى[٣٢] .

سادسا ، يلاحظ اثناء سرد النويري للمعارك والعمليات الحربية التي تتعلق بالفتح العربي والواردة في الحوليات المبكرة ، وكذلك ما يرتبط بالحروب التالية المتقطعة التي نشبت بين المسلمين في الشرق الاوسط وبين المسيحيين في الغرب ، أن المؤلف أمد القارىء بقدر هائل من الحقائق والمعلومات الخاصة بفن الحرب والقتال لدى المسلمين في تلك

---

(٢٩) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس السابع .

(٣٠) H.Kindermann: Schiff in Arabischen Untersuchung uber Vorkommen und Bedeutung der Termini) Zwickau I. Sa.1934 (.

(٣١) الالمام ، جـ ٧ ، الفهرسان الثاني والحادي عشر .

(٣٢) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرسان التاسع والعاشر .

العصور . ونجد بين محتويات الكتاب معلومات عن معدات الحرب العربية ، والخطط التكتيكية للقتال ، والاستراتيجية ، وعمليات الحصار وآلاتها ، والاساطيل ، والمعارك البحرية . وحاجة المؤرخين [المعنيين بفن الحرب والقتال] ماسة لهذه المعلومات النادرة الى حد ما ، للاسهام في توضيح الجوانب الغامضة التي اكتنفت فن الحرب عند العرب في العصور الوسطى . وهنا نجد أن لدينا فيضا من المعلومات الجديدة نسبيا التي تثري معرفتنا الضئيلة في هذا الموضوع بالذات . وقد قمنا بمحاولة لتحديد وتفسير المصطلحات التي استخدمها النويري في هذا المجال ، ولم يحالفنا التوفيق في عدد منها . وعلى ذلك فاننا نسجل المصطلحات كما وجدت في المخطوطات الاصلية ، تاركين عملية تفسير المسائل التي لا تزال بدون حل للمؤرخين العسكريين مستقبلا[٣٣] .

ثامنا ، علينا أن نتذكر أن النويري يعتبر انسانا بحكم مهنته اذ تبدو نواحي اهتماماته بجلاء في استخدامه المتواصل للشعر وفي دراساته الادبية[٣٤] . وكان النويري نفسه ، حسبما ذكرنا من قبل ، شاعرا من نوع معين . وان استخدامه للشعر الاصيل القديم الذي يرجع الى العصر الذهبي للأدب العربي ، قد وصل بينه وبين سرد شعر عصره المثور الدنيوي . وبناء على ذلك ، يمكن القول أن هذا القدر الهائل من المقتطفات الشعرية المتنوعة في « كتاب الالمام » قد استمد ابتداء بالمعلقات ، وهي ملاحم الشعر الجاهلي الخالدة ، ومن مشاهير الفترة الاسلامية المبكرة امثال ابي نواس والفرزدق ، وحتى تلك الاسماء المجهولة نسبيا امثال التكريتي وابن أبي حجلة وابي الفضل قاسم القصار وابي العباس المرسي ، وحتى النويري نفسه الذي كان من بين شعراء أواخر العصور الوسطى . وكان المؤلف في بعض الحالات يقتبس دواوين بأكملها أو مجموعات من القصائد والأشعار . وآية ذلك زعما بكون شعر مجنون ليلى[٣٥] ، حيث جمع النويري قصائد كافية للاسهام في اعادة نظم ديوانه باضافة أشعار أخرى اليه لم يحالفنا التوفيق في تحديد مكانها في الطبعات الأقدم التي لا تزال موجودة للشاعر العاشق الشهير . وتمشيا مع الروح الدينية التي يتميز بها النويري نجده يقتبس في نفس الوقت اقتباسا مكثفا من الشعر الديني ، مثل القصيدة العظيمة التائية « للشاعر ابن الفارض[٣٦] . فقد جمع فعلا كل المراثي التي نظمها شعراء عصره يتباكون فيها على سقوط ونهب مدينة الاسكندرية الفنية الباهرة ، وبخاصة القصيدة التي نظمها ابن أبي حجلة والتي سنوجه لها عناية خاصة في الفصل التالي . ومع أنه اقتبس بعض الرجز[٣٧] الى جانب الألغاز والأحاجي الشعرية لمجرد التسلية ، الا أنه أدى ذلك بطريقة سطحية عابرة دون امعان أو تدقيق ، وهي لا تتطلب معالجة فاحصة . أما شعره الشخصي فهو ، أساسا ، خاص بمدح الشخصيات التاريخية او الباكي على المصير الرهيب لمدينته العظيمة[٣٨] .

(٣٣) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس رقم ٨ .
(٣٤) يصعب ان نجد فصلا في مختلف اجزاء الكتاب لا يتضمن اقتباسات شعرية ترجع الى الفترة المبكرة . انظر الفهرس رقم ١٩ في الجزء السابع عن الشعر والشعراء .
(٣٥) يدعى قيس بن معاذ . انظر الالمام ، جـ ٦ ، ص ٣٣٩ . ووردت أشعاره في جـ ١ ص ١٩٠ و ١٩٢ و ١٩٦ و ١٩٧ و ١٩٩ و ٢٠٠ ، جـ ٦ ص ٣٣٦ و ٣٣٩ وما يليها و ٣٦١ وما يليها .
(٣٦) نفس المرجع ، جـ ١ ، ٦٣ و ٨٢ و ٨٨ و ١٤٥ و ١٩٨ و ٢٢٣ و جـ ٢ صفحة ١٨٩ وما يليها و ١٩٥ وما يليها و جـ ٣ ، ص ١٤٠ - ١٤١ و ١٧٦ و ٢٢٢ و جـ ٤ ، ص ٢٢٩ و ٢٣٨ وما يليها و جـ ٥ ص ٣٥٩ - ٣٦٠ و جـ ٦ ، ص ٣٦٦ وما يليها .
(٣٧) شعر شعبي مشكول الوزن . نفس المرجع ، جـ ٦ ، ص ٣٢٨ و ٣٢٩ .
(٣٨) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس رقم ١٤ .

تاسعا ، يحتل النويري مكانه كروائي أو قصاص . ويمكن تصنيف قصصه الى نوعين : أحدهما يشتمل على قائمة طويلة من الحكايات القصيرة ، وهي عبارة عن أحداث كان يسردها أهالي الاسكندرية الذين بقوا داخل أسوارها* تتضمن ما قاسوه على أيدي الفرنجة الغزاة [٣٩] . هذا ، وتوجد في الحقيقة حكايات أو روايات تاريخية عن أحداث ووقائع معينة أثناء غزو الاسكندرية . ويعتبر الفصل الثاني الخاص بتاريخ الحملة الصليبية هو المكان المناسب لتحليل تلك الوقائع والاحداث . (هذا عن النوع الأول من قصصه) ، أما النوع الثاني فهو يتضمن قصصا أطول هي من وحي خيال النويري . وهي تتناول قصصا خيالية تتعلق بملوك وممالك وجن وشياطين[٤٠] ومعارك باسلة مع الأسود المفترسة والأرواح الخفية والظواهر الخارقة للطبيعة ، وكل ما يتعلق بالسحر والمعجزات . ويمكن هنا أن نلمس مدى تأثير قصص « ألف ليلة وليلة » التي كان (النويري) على معرفة بأصولها ، ولو أن هذا لايظهر في قائمة كتبه لسبب جلي هو أن هذا العصر هو العصر الذي بدأ فيه فن القصص الخيالي الخالد يأخذ شكله النهائي . ومن الصعوبة بمكان حقا تتبع مصادره في هذا المجال بالذات ، تاركين الأمر لمجرد الحدس والتخمين . فمن أعجب قصصه قصة سردها باسهاب في مطلع « كتاب الالمام » ، وهي أفضل مما جاء في نهاية الكتاب الذي خصصه للقصص الخيالي البحت . وهذه القصة تدور حول فيلسوف معين يدعى سكندس Secundus[٤١] هو وروايته . وهي القصة الوحيدة **التي ترجع الى أصل اغريقي ، وهي تتفق الى** حد بعيد مع المأساة الاغريقية الشهيرة « الملك أوديب » Oedipus Rex وعلى العموم ، يبدو أن النويري كقصصي هذه الكتابة من أجل المتعة والتسلية ، قد قام بهذه المهمة بفصاحة وبلاغة[٤٢] .

وقد يكون من غير المناسب أن نختم هذا العرض دون أن نسجل صفات النويري البارزة على امتداد كتابه بأكمله . فهو مسلم شديد التقوى والتدين ، ويجعله ايمانه الشديد اقرب الى التزمت . فاقتباساته من القرآن الكريم واستخدامه للاحاديث النبوية ظاهر في كل فصل من فصول كتابه ، حقيقة انه أخذ أيضا من الكتب المقدسة الأخرى ، وتزخر كتاباته بأسماء الأنبياء خارج دولة الاسلام ، ولكنه كان يسترشد في كل أحكامه ورواياته بآيات من القرآن الكريم وما جاء في الحديث الشريف . ولو أنه من الصعب قبول صحة كل ما سجله من أقوال عن الرسول (ص) . ومع ذلك ، فانه من الأهمية بمكان ، في ذات الوقت ، دراسة كل ما نسب زورا وبهتانا الى الرسول ومعرفة مصدر نسبتها اليه . فقد أصبحت هذه مع اقتباساته القرآنية واحالاته الى الكتب الأخرى المنزلة ، جديرة بفهرس خاص[٤٣] .

ومع ذلك ، علينا أن نتذكر أن النويري بدأ كتابه كسجل للكوارث والبلايا التي دمرت تقريبا المدينة العظيمة التي كان قد ولع بها . ولذا لا نستطيع التغاضي ، بدافع ، من علو قدره كمؤرخ لتلك الأحداث بالذات . وسنكرس الفصول التالية لدراسة تحليلية لـ « كتاب الالمام » كمصدر عام لموضوعاته المختارة في التاريخ الاسلامي ، ثم بعد ذلك

---

* اي لم يغادرها اثناء حملة القرصنة عليها (المترجم) .

(٣٩) نفس المرجع ، جـ ٤ ، ص ١٣٦ وما يليها .

(٤٠) نفس المرجع ، جـ ٦ ، ص ٣١٨ وما يليها .

(٤١) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٨٨ وما يليها .

(٤٢) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس رقم ٣ (فهرس الموضوعات) .

(٤٣) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس رقم ٥ .

كسجل لتلك الأحداث الخاصة بمدينة الاسكندرية مع التركيز على حملة عام ١٣٦٥ م المشئومة ، وذلك من وجهة النظر المصرية .

الفصل الثالث

النويري كمؤرخ

من الخطأ تعريف النويري بالمؤرخ المحترف أو باعتباره واحدا من كتاب الحوليات ، أو محللي الأحداث في عصره في القرن الرابع عشر الميلادي القرن الثامن الهجري . ومن الخطأ الجسيم ، في ذات الوقت تجاهله كلية في مجال التاريخ . فقد أسهم بالفعل اسهاما عظيما في تحليل عدد من أحداث عصره ، وبصفة خاصة موضوع سلب القبارصة للاسكندرية ، حيث أمدنا بتفاصيل فريدة في نوعها . وعلى أية حال ، اذا خرجنا من هذه الدائرة ، يتضح أنه كتب في تمجيد الاسلام والامبراطورية الاسلامية عبر العصور . وجدير بالملاحظة أنه سمح لنفسه أثناء جولاته واستطراداته بالخوض في الحديث عن العديد من الامبراطوريات الأخرى التي ترجع الى العصرين القديم والوسيط . وعلى العموم ، فان اسلوبه في عرض الحقائق هو أسلوب من يكتب لتسلية قرائه . انه تناول الأحداث بأسلوب اشبه بأسلوب الرواة الذي يركز على الناحية الدرامية والاسطورية أكثر من التركيز على الناحية الواقعية . ومن الصعب تتبع أصول المصادر التي استقى منها معلوماته بحرية مطلقة . ولكن من المؤكد أنه اعتمد الى حد بعيد على الكتابات الأدبية العربية المتقدمة ، والتي كانت لا تزال موجودة في عصره ، ثم أصبحت الآن في حكم المفقودة .

اما عن كتاب الموسوعات الآخرين في عصره ، ويحتمل ان يكون (صاحب الالمام) على معرفة بمؤلفاتهم ، فمن بينهم من يحمل نفس الاسم[٤٤] ، وهناك أيضا العمري[٤٥] العظيم الذي توفي عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م . ومن الصعوبة بمكان أن نضع مؤرخنا النويري في نفس مرتبة أي منها . وليس باستطاعتنا ، كذلك ، أن نضعه في مرتبة المؤرخين الآخرين المعاصرين له تقريبا ، أمثال الذهبي[٤٦] ، والصفدي[٤٧] ، وابن الفرات[٤٨] ، وابن خلدون[٤٩] ، وكثير غيرهم ممن خلفوا كتبا ومؤلفات تعتبر أفضل من كتابه ، كما أنها نشرت قبل « كتاب الالمام » بفترة

---

(٤٤) شهاب الدين احمد [بن عبد الوهاب بن محمد] صاحب كتاب « نهاية الارب » وقد توفي سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م . انظر الفصل الثاني ، حاشية رقم ٨ .

(٤٥) اسمه بالكامل هو شهاب الدين ابو العباس احمد بن يحيى بن فضل الله العمري القرشي الشافعي . توفي سنة ... ، عمله العظيم المدون « مسالك الابصار في ممالك الامصار » ، الجزء الاول ، نشر احمد زكي باشا (القاهرة ١٩٢٤) . وثمة اجزاء منه تتعلق باليمن نشرها ابن فؤاد سيد (القاهرة ١٩٧٤) . وبه قسم من ... مصحوب بترجمة باللغة الالمانية بقلم كلاوس ليخ Klaus Lech (طبع فيزبادن Wiesbaden سنة ١٩٦٨) .

(٤٦) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان قايماز بن عبد الله الذهبي التركماني الفارقي الشافعي ت ٧٤٨ هـ ١٣٤٨ م له عدة مؤلفات في التاريخ الاسلامي .

(٤٧) خليل بن أيبك بن عبد الله ابو الصفا (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣) .

(٤٨) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م) . وقد نشر قسطنطين زريق جانبا من تاريخه (طبع بيروت ، ١٩٣٦ - ١٩٣٩) ، وحسن الشماع (طبع البصرة ، ١٩٦٧ - ١٩٧٠) .

(٤٩) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) .

طويلة . كذلك يجب أن نأخذ في الاعتبار أن النويري كان على معرفة بمؤلفات الكتاب السابقين . ثم أن معظم الذين جاءوا بعده أمثال ابن حجر[٥٠] ، والسخاوي[٥١] ، كانوا في نفس الوقت على علم بكتابه ، ولو أن الأخير انتقده نقدا لاذعا .

وعلى أية حال ، يقف النويري باعتباره حجة له ثقله في حقل التاريخ على أساسين على أقل تقدير . فان ما سجله عن أحداث حملة القبارصة المشئومة على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م [٧٦٧ هـ] واحتلالهم القصير لها ـ حسبما ذكرنا من قبل ـ هو في المقام الأول أو في الروايات الاسلامية الموجودة . وبسبب الأهمية البالغة التي تتمتع بها رواياته ، من ناحيتي الكم والكيف ، سوف تخصص الفصل الثاني لدراسة تحليلية لمحتوياتها . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يعد كتاب النويري تكملة فريدة في نوعها للدراسات الطبوغرافية الهائلة (أي الخطط) التي دونها أقدر استاذين في أخريات العصور الوسطى وهما المقريزي[٥٢] والسيوطي[٥٣] . وقد ركزا اهتمامها على مدينة القاهرة ، بينما اختص النويري بمدينة الاسكندرية . وفي هذا الخصوص ، سد الأخير فجوة في المعلومات التي أمكن الحصول عليها عن المدينة الثانية العظيمة في مصر في العصور الوسطى . ومع أنه لم يعد للكتابة المنسقة عن خطط الاسكندرية بالمعنى الدقيق المفهوم من هذا الاصطلاح ، الا أنه في الواقع أنجز مهمته تلك دون أن يوليها العناية الواجبة ، وذلك عند استعراضه للأحداث المرتبطة بتاريخ المدينة في القرن الرابع عشر . ولقد مكنته معرفته بجميع التفاصيل الطبوغرافية المتعلقة بالمدينة التي اتخذها موطنا له ، من أن يضمن دراسته معظم المعلومات والتفاصيل ، أيا كانت ، عن بناء وتكوين مدينة الاسكندرية ، بما يعود بالفائدة على علماء الآثار المسلمين وعلى المشتغلين في التاريخ الوسيط المتخصصين في دراسة هذه المنطقة . وفي حكم المستحيل الا نلم المأما تاما في مجرد مقال بكل العصور التاريخية والامبراطوريات التي تعرض لها النويري . وكل ما نستطيع حقا أن نفعله ـ في نطاق محاولتنا هذه ـ هو تصنيف مادته وتقديمها للقارىء مزودة ببعض التوجيهات عن الخصائص الاساسية لنصوصه الضخمة والمتشابكة الى حد ما . وجدير بالملاحظة أنه كان يقطع تسلسل رواياته التاريخية ، بصفة عامة ، العديد من النكات والنوادر التي لها علاقة سطحية بالموضوع أو التي لا تمت للموضوع بصلة . وثمة اقتباسات شعرية على امتداد الموسوعة تكشف عن اهتمام المؤلف الخاص بهذه الناحية الجذابة المشوقة ، وان كانت في غير موضعها الطبيعي .

وفيما يتعلق بالتاريخ القديم ، فضلا عن موضوع التراث الجاهلي في شبه جزيرة العرب قبل ظهور الاسلام وهو الشيء الذي يتكرر على امتداد كتاب النويري ، فانه يبدأ بالحديث عن الامبراطورية الفارسية[٥٤] . وهو يوجه عناية خاصة الى كسرى أنو شروان وابنه هرمز نظرا لتقارب عهديهما من تاريخ ميلاد النبي محمد (ص) . ويتحدث بفصاحة

---

(٥٠) شهاب الدين بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) . انظر كتابه « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » ، ٤ جـ ، (حيدر أباد ١٩٢٩) ، جـ ٤ ، ص ١٤٣ .

(٥١) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م) . انظر كتابه « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » (القاهرة ١٣٤٩) ، ص ١٢٢ .

(٥٢) تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) . وعنوان مؤلفه الذي يقع في أربعة أجزاء (طبع القاهرة ١٩٠٦ ـ ١٩٠٨) هو : كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار .

(٥٣) أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد جلال الدين السيوطي الشافعي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) . وعنوان خططه هو : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ٢ جـ . وأصدر طبعة أولاها محمد أبو الفضل ابراهيم (طبع القاهرة ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨) .

(٥٤) الالمام ، جـ ١ ، ص ٤١ و ٤٢ وما يليها .

عن الفتح العربي لامبراطورية الفرس الساسان . ولكنه يقلب في الجزء الأخير من كتابه[٥٥] التسلسل الزمني للوقائع والأحداث بالعودة الى قصة الصراع بين دارا والاسكندر الأكبر .

ويخصص النويري ، بعد حديثه عن الامبراطورية الفارسية ، بضع صفحات عن الرومان مبتدئا بالحديث عن أغسطس[٥٦] ، ويزودنا بسرد مشوش عن حروبه مع أنطونيوس وكلابطرة كليوبترا . وطبقا للمسميات العربية ينتقل الى طباريوس « طيبريوس » وقلودس « كلوديوس » ثم بشيانس « فسبسيان » وطيطس « طيطس » ثم طريان « تراجان » ودقيانوس « دقلديانوس » . ثم يتعرض أثناء حديثه لمولد المسيح ومعجزاته ، كما يشير الى استشهاد القديس بطرس والقديس بولس وتشتت اليهود من أورشليم بين الأمم .

ويشير النويري باقتضاب الى الاباطرة البيزنطيين[٥٧] ابتداء بقسطنطين الكبير حتى ثيداسيس [ثيودوسيوس] وهرقل . وفي حديث موجز مشوش الى حد ما يستأنف كلامه عن الحروب البيزنطية مع الخلافة الاسلامية[٥٨] . وثمة اشارات عارضة عن احداث هامة في التاريخ البيزنطي مبعثرة في مواضع متفرقة في الأجزاء الاخرى [من الكتاب] ، وبصفة خاصة عندما خصص المؤلف حيزا ملحوظا للفتح العربي لبعض المقاطعات البيزنطية في غرب آسيا وشمال افريقية .

وفي موضع آخر من الكتاب ، يعود النويري للحديث مرة اخرى عن قصص وحكايات ترجع الى عهود قديمة عن ملوك في العصور السحيقة الغابرة . ويتحدث باسهاب عن الملوك الكفار الجبابرة من ذرية آدم[٥٩] ، ثم يخصص بعد ذلك فصلا مطولا عن تاريخ مصر القديم وآثارها[٦٠] . وهنا يتحدث النويري عن الاهرامات والمعابد والتوابيت الحجرية والمقابر وعلم التنجيم والسحر وبعض الخرافات . ونجد في النص اسماء ملوك مصر الذين يصعب التعرف على شخصياتهم[٦١] . ومن الواضح انه اعتمد على احد المصادر العربية المفقودة كتبه شخص يدعى الوصيفي[٦٢] . ثم يسرد محاولة الخليفة العباسي المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م) حفر مدخل للهرم الاكبر بالجيزة اثناء زيارته لمصر بهدف اخماد ثورات القبط في الدلتا . ولا تزال هذه الفتحة التي نحتها المأمون في جانب الهرم تستخدم فعلا كمدخله الوحيد حتى يومنا هذا .

وكان الهدف الاساسي لهذا الخليفة ومن تبعه من خلفاء هو البحث عن كنوز الذهب المخبأة بداخله . ونجد مثلا آخر بهذا الخصوص في عهد الخليفة جعفر المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١ م) الذي تابع واليه في مصر المسمى ابن المدبر هذه الحفائر في مكان آخر .

---

(٥٥) نفس المرجع جـ ٥ ص ٤٣ وما يليها .
(٥٦) نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٩٢ وما يليها .
(٥٧) نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٩٧ وما يليها .
(٥٨) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٣٥٧ وما يليها .
(٥٩) نفس المرجع ، جـ ٦ ، ص ٧٧ وما يليها .
(٦٠) نفس المرجع ، جـ ٦ ، ص ٨٤ وما يليها .
(٦١) انظر على سبيل المثال ، نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص ٣٣٢ وما يليها .
(٦٢) نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ٩٠ .

ثم تولت الدولة بعد ذلك ، في عهد كل من الطولونيين (٨٦٨ ـ ٩٠٥ م) والاخشيديين (٩٣٥ ـ ٩٦٩ م) ، اعمال الحفر المنظم ، وعثرت على كنوز طائلة وان كان معظمها عبارة عن تماثيل وتوابيت حجرية ومومياءات . وبالرغم مما اشتمل عليه هذا القسم من الكتاب من محتويات متنوعة غير مألوفة ، الا انه يقدم لعلماء الآثار المصرية معلومات قيمة لما وصلت اليه الدراسات الاثرية في العصور الوسطى .

ان الاحداث التاريخية المختلفة المتباينة التي حاول النويري تغطيتها دون خطة محددة ، هي شديدة الوفرة والتنوع والتشعب والتداخل ، حتى اصبح من الصعوبة بمكان تقدير جهده فيها دون استخدام فهارسنا الشاملة . فهي ، اولا ، تدور حول الاحداث المشئومة لمدينة الاسكندرية في القرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] . اذ انبرى لجميع النواحي ، مع التركيز على مسألة واحدة الا وهي الانتصارات التي حققتها حركة الفتوحات المبكرة وانتشار الاسلام في عالم مرهق منقسم على نفسه ، وقد تمزق بين المسيحية الغربية وثيوقراطية دولة الساسان الشرقية . وكثيرا ما يروى القصص والنوادر التي يمكن ان تكون ذات فائدة في القاء الضوء على التاريخ الاجتماعي لتلك الفترات الغامضة . ومع انه كان يستهدف المتعة والتسلية ، الا انه حشد دون قصد قدرا هائلا من المعلومات عن الاسلام في تلك الفترة المبكرة .

ويستعرض « كتاب الامام » ايضا ، اسماء العديد من الصحابة بما يطابق ما جاء في معظم الحوليات المعروفة الاخرى . وبالاضافة الى ذلك ، فان المؤلف يعيد صقل هذه المعلومات بعد تضمينها تفاصيل شخصية شيقة اغفلتها كتب الحوليات والسير والتراجم والوفيات العامة . وينطبق هذا الحكم العام تماما على الخلفاء الراشدين[٦٣] ، والامويين[٦٤] ، والعباسيين[٦٥] . وكان النويري في بعض الاحيان يعيد عن طريقه ليحدد نقاطا معينة ذات طابع خاص ، والتي لا بد وأن يكون قد جمعها من مصادر متنوعة معروفة أو مجهولة أو مفقودة .

وثمة مثال آخر غير عادي هو حصره لألقاب الخلفاء ، الى جانب مظهرهم الشخصي والسمات التي تتميز بها شخصية كل واحد منهم[٦٦] .

ويتضح اهتمام النويري بتاريخ وطنه مصر بالذات فيما سجله عن كل دولها وممالكها الاسلامية[٦٧] . فهو يحدثنا عن الحكم السني في عهد الأسرتين الطولونية والاخشيدية تحت السيادة الاسمية للخلافة العباسية في بغداد[٦٨] . قبل انتقال السلطة الى الخلافة الفاطمية الشيعية بعد غزو القائد جوهر الصقلي مصر (وهو المواطن الصقلي الذي يدعوه

---

(٦٣) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ١٣٣ وما يليها و جـ ٥ ، ص ٣٤٥ وما يليها .

(٦٤) نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص ١٣٦ وما يليها و ٢٩٦ وما يليها و جـ ٥ ص ٣٤٨ .

(٦٥) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٣١٣ وما يليها و ٣٤٩ وما يليها .

(٦٦) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٣٤٨ وما يليها .

(٦٧) يقع اهتمام النويري بتاريخ مصر في اطار علم السياسة الاسلامية في الجزء الثالث من الكتاب ، حيث جمع ما ورد عن مصر في القرآن الكريم (ص ٢٧٤ ـ ٢٧٨) ، وحصر الرسل والأنبياء والصحابة ورجال العلم من المسلمين وكذلك التاريخ والآثار ومشاهير الأبناء الذين دخلوا مصر (ص ٢٨٠ وما يليها و ٢٨٨ وما يليها) .

(٦٨) نفس المرجع ، جـ ٦ ، ص ١٦ وما يليها . هذا ، وقد وردت الاشارة الى أحداث هامة مبينة في مواضع أخرى من الكتاب ، مثل قصة أحمد بن طولون والقاضي بكار بن قتيبة (جـ ٣ ، ص ٣٨٨ وما يليها) .

النويري بالرومي) عام ٩٦٩م . ولقد أعد ملخصا عن حياة الخلفاء في ظل النظام الجديد حتى نهاية حكمهم في عام ١١٦٩م عندما قبضت الدولة الأيوبية على زمام الحكم تحت زعامة السلطنة السنية لصلاح الدين(٦٩) .

وان اهتمام « كتاب الالمام » بموضوع الفتح العربي لمصر يفوق اهتمامه بكل تلك الاسر الحاكمة (المشار اليها) . ويفرد له المؤلف حيزا كبيرا . ومن الواضح أنه اعتمد الى حد بعيد على مؤلفات الواقدي(٧٠) الذي تخصص في سرد مغازي الرسول وفتوحات الخلفاء الراشدين . ومع ذلك ، فقد حصر النويري معظم رواياته في فتح دلتا النيل ، اكثر من اهتمامه بالتفاصيل المتعلقة باستيلاء عمرو (بن العاص) على حصن بابليون (٦٤٠م) الذي أشار اليه بايجاز في بداية الكتاب .(٧١) فقد استولى العرب المسلمون عنوة وهم في طريقهم الى الاسكندرية على مدينة ترنوط القبطية ، وذلك بمعاونة امرأة ما كانت تعمل في قصر الحاكم تدعى ربقي . وهي أخت مارية القبطية التي كان المقوقس صاحب مصر (من قبل بيزنطة) قد أهداها للنبي محمد ، وأصبحت احدى زوجاته . وكانت ربقي ترغب في عدم ترك اختها ، وكانت تلك هي فرصتها عندما وعدها بذلك القائد المسلم خالد بن الوليد مقابل خدماتها في سبيل الاستيلاء على المدينة . وهكذا فتح هذا النصر الطريق الى الاسكندرية امام العرب الذين واجهوا اول كتائب للعدو وأبادوها عند دير الزجاج (الهانطون اليونانية)(٧٢) الذي يقع على مسافة نحو تسعة أميال جنوبي العاصمة (الاسكندرية) . وكان برفقة الكتيبة البيزنطية مجموعة من الرهائن العرب الذين قبض عليهم البيزنطيون أثناء غارة على طبرية والساحل السوري . وما لبث ان تولى حكم الاسكندرية رسطوليس الذي ذبح أباه المقوقس بسبب استسلامه لعمرو ، واعتقد أن باستطاعته استخدام أولئك الأسرى كرهائن في المفاوضات الأخيرة مع العرب ولكن هؤلاء حصلوا على حريتهم في مدينة الهانطون ، ولم يكن أمام رسطوليس سوى خوض غمار الحرب لانقاذ المدينة وقد انعقدت آماله على وصول الامدادات من سيرنيكا . ولكن تبين ان هذه التعزيزات كانت بطيئة الحركة سريعة الارتباك لدرجة لم يكن بوسعها الانضمام الى البيزنطيين اخويها في الذين دفاعا عن الاسكندرية . ويروي النويري قصة انفتاح ثغرة في تلك الاثناء في الاسوار الحصينة بمعجزة عند صلاة شرحبيل(٧٣) ، وهو كاتب رسول الله ومن صحابته وفي تلك اللحظة انسحب رسطوليس ورجاله الى اعالي البحار ، بينما لاذت الجيوش القادمة من سيرنيكا بالفرار عائدة الى ديارها عند سماعها خبر دخول العرب العاصمة تحت قيادة خالد (بن الوليد) .

وبعد الاستيلاء على المدينة ، فرض المسلمون ضريبة جماعية على المواطنين قدرها مائة الف دينار . وفي تلك الاثناء عرضوا على المواطنين اما اعتناق الاسلام اودفع الجزية بواقع اربعة دنانير للفرد الواحد . وكلف احد الاقباط ويدعى الشعيا بن شاس(٧٤) بجمع المبالغ تحت رقابة رفيق عربي يدعى قيس بن سعد . ويختتم النويري قصته بمأساة

---

(٦٩) وردت الاشارة باختصار الى الدولة الأيوبية في الجزء الرابع من الكتاب ، ص ٤٩ - ٥٠ ، وتوجد معلومات أوفر في نفس الجزء من صلاح الدين والدولة الأيوبية . أنظر ص ٦٢ - ٧١ .

(٧٠) أبو عبدالله محمد بن عمر الواقدي . المؤرخ المعروف للفتوحات العربية المبكرة . [illegible] ([illegible]) .

نفس المرجع ، جـ٢ ، ص ٣٠ .

(٧١) الالمام ، جـ٢ ، ص ٣٠ وما يليها .

(٧٢) نفس المرجع ، جـ٢ ، ص ٣٩ .

(٧٣) شرحبيل بن حسنة . نفس المرجع ، جـ٢ ، ص ٤٣ .

(٧٤) نفس المرجع ، جـ٢ ، ص ٤٧ .

مواطن ثري يدعى تولين[٧٤] اشتهر بالبخل ، وأراد التهرب من دفع نصيبه بالتظاهر بالفقر . فلعنه قيس قائلا : « فوالله ! مامضى يومهم ذلك حتى جاء الخبر أن أغنامه هلكت جميعا ، وبساتينه قد يبست ودياره وأملاكه قد تهدمت ، وأمواله قد مضت »[٧٥]

ثم مالبث أن توافدت الوفود من المدن الاخرى في مصر السفلى لاعلان خضوعها للمنتصرين بمحض رغبتها ، ملتمسة الامان . وكانت رشيد وفوة والمحلة وكل مديرية البحيرة[٧٦] ممثلة في تلك الوفود . وانحسرت المقاومة المتبقية فقط في ميناء دمياط البحري القائم عند فم فرع النيل الشرقي . وكان يحكم هذه المنطقة الهاموك خال المقوقس المتوفى . فأرسل خالد فصيلة مكونة من اربعين فارسا بقيادة المقداد بن الاسود للتفاوض في امر استسلام المدينة . ولكن الهاموك رفض النصيحة بالاستسلام التي كان قد اسداها له وزيره الدارجان[٧٧] اللتي أعلمه . وبذلك ألزم حتى ابن الدارجان الذي تآمر عن طريق المخادعة بالسماح للعرب بدخول المدينة عبر فتحة في السور . ويمكن تلخيص مشاهد الأحداث التالية في تلك الأعمال الاستطلاعية البسيطة بين جماعة الهاموك والمسلمين ، والتي تتضمن اعتناق عائلة الدارجان القوية الاسلام . وفي المرحلة التالية من الصراع سقط أحب أبناء الهاموك اليه ويدعى شطا[٧٨] من فوق ظهر جواده وفقد الوعي . وعندما ثاب الى رشده روى رؤيا تراءت له من السماء شاهد فيها جنود العرب في زي اخضر تحت قباب عجيبة ومعهم فتاة جميلة تدعوه الى الاسلام . وبذلك عبر الى الجانب الاسلامي ، ثم مالبث أن حذا الوالد المؤمن حذو ابنه المؤمن . وهكذا اعتنقت دمياط الاسلام .

ثم أعقب ذلك بقصة أخرى روائية تدور حول مدينة تنيس[٧٩] عاصمة مصر القديمة والتي كان يحكمها عربي نصراني يدعى أبا ثور من قبيلة بني غسان الذين تحصنوا في خنادق على جزر بحيرة المنزلة . فقرر المعتنقون للدين الجديد في دمياط ارسال وفد تبشيري لدعوة ابي ثور واتباعه للدخول في دين جيرانهم وهو الاسلام . وتطوع شطا بن الهاموك بالقيام بهذه المخاطرة ، ورافقه يزيد بن عامر ، ذلك العربي المقيم في دمياط وأحد رفاق الرسول . وانتهت هذه المهمة بالفشل بالرغم من المعجزات التي قام بها المبشرون المسلمون والتي عددها النويري (في كتابه) . وعندما فشلت الدعوة السلمية ، اصبح لزاما استخدام القوة لارغام ابي ثور على دخول الاسلام . وأثناء العمليات الحربية التي تلت ذلك ، ظهرت لشطا رؤيا تتعلق بالفردوس الاسلامي الذي يصفه النويري وصفا حيا . ولكن في النهاية ، قام ابو ثور بذبح شطا وطارد الهاموك وحلفاءه حتى بوابات مدينة دمياط ، حيث بدأت تلوح في الافق التعزيزات العربية التي تستهدف ازعاج المنتصر واحباط جهوده . فأنزلت الهزيمة بأبي ثور واقتيد اسيرا ثم اطلق سراحه بعد اعتناقه الاسلام . وبذلك تم فتح الدلتا في العام السادس والعشرين بعد الهجرة ، اي في عام ٦٤٧ ميلادية . ومن الاهمية بمكان ان نعرف ان شطا

(٧٥) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٩٨ .
(٧٦) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٩٨ - ٩٩ .
(٧٧) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٩٧ .
(٧٨) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٩٨ .
(٧٩) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٢٣ .
(٨٠) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٢٢ وما يليها .

دفن في نفس الموقع الذي سقط فيه ، واعتبرت مقبرته من اقدس الاضرحة في الاسلام . واستمر الحجاج الاتقياء من جميع الجهات يتوافدون عليه حتى وقت تأليف « كتاب الالمام »[٨١] .

وان الاهتمام بتلك القصص التاريخية يتعدى ما وراء المعارك والانتصارات . فيزودنا المؤلف في ثنايا اقواله بالكثير من التفاصيل الطبوغرافية لبلاده . فثمة وصف نادر لاسوار وحصون دمياط واستحكاماتها وبواباتها العديدة المنيعة ، الى جانب التفاصيل المتعلقة بعرش ابي ثور والايقونات المسيحية المحيطة به .

وجدير بالملاحظة ان النويري كان ينتقل في سرده للاحداث برفق وهدوء ، باحثا عن الفرص التي يتحدث فيها عن انتصارات الاسلام . ولو انه ، كان من آن لآخر ، يشذ عن تلك القاعدة بذكر نكسات اليمة احاقت بالاسلام . وربما كان اشد الفصول ايلاما في هذا الصدد هو غارات القرامطة على الحجاز وسقوط مكة المدينة المقدسة في قبضة ابي طاهر صاحب البحرين[٨٢] عام ٣٠٧هـ/ ٩١٩م . وليس هناك مثيل للاهوال التي صاحبت تلك الغزوة في الحوليات الاسلامية . فقد ذبح الحجاج والمواطنون دون تمييز ، والقي بجثثهم في بئر زمزم المقدسة حتى امتلأت الى آخرها بالموتى وأجساد أولئك الذين كانوا يلفظون انفاسهم الاخيرة . ويقدر عدد الشهداء بثلاثين الفا ، بخلاف النساء والاطفال الذين اقتيدوا كرقيق وقد أعمل السلب والنهب في الكعبة ، وقلع الحجر الاسود من مكانه ، ونقل بعيدا لفترة اثنين وعشرين سنة . وبذلك ترك الخوارج أطهر منطقة في الاسلام في حالة فوضى دامية ، لمدة ستة ايام .

وكانت الحادثة الأخرى التي طاولت مبلغه خطر انتهاك القرامطة لحرمة المقدسات هي غزو التتر لبغداد عام ١٢٥٨م[٨٣] تحت قيادة هلاكو خان (هولاكو خان) . وقد وقع المستعصم بالله آخر الخلفاء بني العباس تحت حوافر خيول التتار حتى تمزقت اربا ، ولم يكن من السهل تجميع اشلائها . كما صودرت كنوزه وقتل اولاده الثلاثة مع ثمانمائة من أقاربه . وحمل الف من العذارى بعيدا عن قصره . واستمر هولاكو في اعمال الذبح في الاهالي لمدة اربعة عشر يوما بمعدل ٥٠,٠٠٠ فرد في اليوم الواحد ، وبذلك اصبح مجموع القتلى في النهاية ٧٠٠,٠٠٠ ملأت جثثهم الشوارع برائحتها الكريهة ، وتفشي وباء الطاعون في المدينة بل تعدي انتشاره حدودها .

وفي مواجهة هذه المآسي الفظيعة التي كانت تقف على قدم المساواة مع سلب الاسكندرية عام ١٣٦٥م ، جد النويري في البحث عن انتصارات اسلامية تكون بمثابة رد فعل لتلك الهزائم المنكرة بهدف رفع الروح المعنوية لدى المسلمين . ويزخر كتابه باشارات الى الانتصارات الاولى في صدر الاسلام في منطقة الهلال الخصيب ضد الدولة البيزنطية وامبراطورية الفرس الساسان وهكذا تناول بالمديح والثناء فتح العرب لمصر والتقدم في شمال افريقية كما أسلفنا . فهو يمجد دفاع المسلمين البطولي ضد استعادة المسيحيين لأراضيهم في شبه الجزيرة الايبرية ، مع ان الحرب (بين الطرفين) بدأت بداية سيئة لحد ما بالنسبة للسلطان ابي الحسن المريني[٨٤] ، الذي هزم هزيمة منكرة خارج مدينة

---

(٨١) نفس المرجع ، جـ٢ ، ص ٩١ .
(٨٢) نفس المرجع ، جـ٢ ، ص ١٢ وما يليها .
(٨٣) نفس المرجع ، جـ٢ ، ص ٢٢٢ وما يليها .
(٨٤) اسمه بالكامل حسبما ورد في المراكل هو ابو الحسن بن علي يعقوب بن العباس المريني . أنظر نفس المرجع ، جـ٣ ، ص ١٩٥ . وفيها يتعلق بالحرب كلها ، أنظر جـ٣ ، ص ١٨٣ وما يليها .

طريف (بالاندلس) ويحتمل أن تكون هذه هي معركة ريوسا لادو Rio Salado عام ١٣٤٠ م التي لم يرد ذكرها (في الكتاب) عن عمد ، وكان المنتصر في ذلك اليوم هو الفونس ملك النصارى[٨٥] المعروف باسم الفونسو الرابع (١٣٢٥ - ١٣٥٧م) بطل البرتغال الشجاع . وكان الملك البرتغالي متحالفا مع قشتالة التي حارب ملكها الفنسو الحادي عشر صراحة الى جانبه والذي يحمل نفس الاسم ومع ذلك سرعان ما انتقم السلطان ابن الاحمر[٨٦] لهذه الهزيمة ، فاخترق بلاد الاندلس واستولى على الجيسيراس Algeciras[٨٧] والجهات المحيطة بها عام ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م ، اي بعد مرور سنة واحدة على كارثة الاسكندرية . وبذلك عاد المسلمون الذين الفي بهم خارج شبه الجزيرة للاستقرار مع ابي الحسن مرة اخرى في ملكهم القديم بعد ذبح المسيحيين . واذا اخذنا بما قاله ابن الاحمر وروايات النويري ، لوجدنا ان فتوحات السلطان امتدت ، فيما بعد ، الى مدن جيان[٨٨] Jaen (جنوب الاندلس) وابدة[٨٩] (شمال شرقي جيان) واطريرة[٩٠] Utrera (جنوب الاندلس) ، والى قرى وقلاع أخرى بلغ مجموعها ثمانية وأربعين[٩١] وبهذه المناسبة يقتبس النويري دليلا من الوثائق يتضمن خطابين[٩٢] متبادلين بين ابي الحسن المريني وعدوه الفونس (الفونسو) ، كما يتضمن رسالة[٩٣] تحوي المزيد من التفصيلات موجهة من ابن الأحمر الى سلطان فاس المريني في شمال افريقية ، يبلغه فيها بانتصاراته على القند[٩٤] ملك النصارى » .

وان ماسبق ذكره من روايات يمكن اعتباره بمثابة أمثلة توضيحية تتعلق باهتمام النويري بالحروب الاسلامية عبر العصور الوسطى . ويزخر « كتاب الالمام » بالاشارات الى معارك اخرى ، مابين صغيرة وكبيرة ، ومعروفة وغير معروفة ، والتي ربما يكون سردها أمرا مملا لهذيم الفائدة . ومع ذلك ثمة أمر واحد يبدو بوضوح في خضم التكرار في هذا الموضوع ، الا وهو المادة الوفيرة التي حشدها المؤلف لتاريخ حديث عن أدوات الحرب والقتال عند المسلمين ، وقد رأينا انه جدير بفهرس خاص به[٩٥] هذا ، بالاضافة الى تكتيكات واستراتيجية القتال المسلمين وأن هذا العرض الموجز للكتاب يتميز بقيمته التي يصعب تقديرها بالنسبة للطالب الذي يدرس الفنون الحربية الاسلامية . في العصور الوسطى[٩٦] .

---

(٨٥) نفس المرجع ، جـ٣ ، ص١٨٦ وحاشية رقم ٥ .

(٨٦) الاسم بالكامل هو : أبو عبدالله محمد بن يوسف الملقب ابن الأحمر . أنظر نفس المرجع ، جـ٦ ، ص٣١٨ . أنظر أيضا جـ٥ ، ص٣١٧ ح ٥ حيث عرف باسم محمد الخامس الذي ولي سلطان غرناطة .

(٨٧) نفس المرجع ، جـ٣ ، ص١٩٨ وما يليها .

(٨٨) نفس المرجع ، جـ٥ ، ص٣١٩ وحاشية رقم ٥ .

(٨٩) نفس المرجع ، جـ٥ ، ص٣٢٥ وحاشية رقم ١ .

(٩٠) نفس المرجع ، جـ٥ ، ص٣٢٧ وحاشية رقم ١ .

(٩١) نفس المرجع ، جـ٥ ، ص٣٣١ . هذا ، وغير معروف معظم تلك القلاع .

(٩٢) نفس المرجع ، جـ٣ ، ص١٩٣ - ١٩٧ . وليس بوسعنا تتبع أصول تلك الخطابات في المصادر المشهورة .

(٩٣) نفس المرجع ، جـ٥ ، ص٣١٨ وما يليها . هذا ، والوثيقة مكتوبة بأسلوب غريب لم يسبق ايه في المصادر المشهورة . وليس معروفا من أين حصل النويري على تلك الخطابات .

(٩٤) أي « الكونت ملك المسيحيين » . ولقب « قند » مشتق من الكلمة الاسبانية Conde والفرنسية Comte . وربما يكون هذا الشخص هو أحد أشراف مملكة قشتالة في عصر بطرس الرهيب (١٣٥٠ - ١٣٦٩ م) . أنظر جـ٥ ، ص٣١٧ - ٣١٨ وحاشية رقم ٦ .

(٩٥) نفس المرجع ، جـ٧ ، الفهرس رقم ٥ .

(٩٦) عند عقد المقارنة بين ما خلفه النويري وبين الدراسات المتعلقة بفن الحرب والقتال في الغرب ، ليس هناك ما هو أفضل من تأليف شارل أومان Charles Oman ، كيهلر G.Khler ، و م . دلبريك M.Delpreux ، ف . لوت F.Lot .

وتبدو قدرة النويري الحقيقية « كمؤرخ »(٩٧) بوضوح أكثر في المواضيع التي يناقش فيها أحداث وشخصيات عصره كشاهد عيان أولا وقبل أي شيء آخر . هذا ، وبدون التعمق والاسهاب في موضوع الاسكندرية الذي أرجأناه للفصل التالي ، فاننا يجب أن نعتبر تناوله (لدولة) المماليك البحرية(٩٨) اعتبارا من سلطنة الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٦٧م) تقريبا وحتى حكم السلطان المعاصر للنويري نفسه وهو الاشرف شعبان (١٣٦٣ - ١٣٧٦م) ، بمثابة اضافة مفيدة الى مؤلفات المقريزي(٩٩) العظيمة والى مدرسته ، ولو أن ما أورده في هذا الخصوص مختصر نسبيا . ويزيد من قيمة تلك التفاصيل الدقيقة والفترات التاريخية المحددة التي يرويها النويري ، أنها لاتظهر في كتب الحوليات المعروفة . وهو فوق هذا وذاك ، يقدم لنا سجلا غنيا بكل الاعمال التي قام بها أمراء المماليك(١٠٠) في عصره ، ومكانتهم في الادارة سواء كانت اقليمية أو مركزية . وأن وصفه لموكب السلطان شعبان في الاسكندرية(١٠١) ، الذي رآه كشاهد عيان ، هو قطعة فنية حية تذكرنا بالعظمة الاسطورية للمواكب والاحتفالات البطلمية في نفس المدينة قبل عصره بنحو سبعة عشر قرنا من الزمان .

ولم يدعم النويري أقواله ، في كثير من الأحيان ، بالوثائق الأصلية . وكانت المقتطفات الشعرية هي الأمر المفضل عنده ، متمشيا في ذلك مع ميوله الأدبية . ورغما عن ذلك ، نجده في احدى المناسبات يقتبس وثيقة أصلية بأكملها ، وهي تعتبر من اهم الفرمانات او المراسيم الرسمية(١٠٢) لعصر المملوكية . وقد اشار كبار كتاب الحوليات في الحوليات العصور الوسطى الى هذا المرسوم بايجاز(١٠٣) . ولكننا لم نعثر عليه كاملا الا في « كتاب الالمام » . وكان النويري يستهدف من هذا المرسوم وتاريخه سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م ، توضيح ولاية السلطان الناصر بن محمد الثالثة (١٣٠٩ - ١٣٤٠م) الجديرة بالاهتمام . وهو يتميز بطابع دستوري شامل له اهميته القصوى ، لانه يعالج تقريبا كل ناحية من نواحي الاقتصاد والمجتمع المصري . وقد صدر المرسوم بعد اجراء مسح عام للبلاد ، وبعد تقرير نظام جديد وعادل للضريبة على الارض في سجل يعرف باسم « الروك الناصري » .(١٠٤) ومع ان نص المرسوم كما هو موجود في النسخ الخطية توجد به فجوات مفقودة ، الا ان الوثيقة في معظمها على حالتها الاصلية ، وتقدم قائمة تحليلية مفصلة ونادرة للمشاكل الوطنية التي سعى السلطان الى حلها .

فبعد المقدمة او الافتتاحية التي تجد فيها كتاب البراءة او المرسوم سلطنة الناصر ، يذكرون الدوافع الخيرة التي

(٩٧) تعني علامات التنصيص تحفظات حول وصف النويري كمؤرخ .
(٩٨) نفس المرجع ، جـ٣ ، ص ٨١ وما يليها و ٢١٢ وما يليها وجـ٤ ، ص ٧٥ وما يليها وجـ٥ ص ٢٣٥ وما يليها و ٢٥٤ وما يليها و ٣٨٠ ، ٣٨١ وجـ٦ ص ١ وما يليها و ١٦ وما يليها .
(٩٩) أهم مؤلفاته هو كتاب السلوك في أربعة أجزاء تشتمل على عدة أقسام ، نشره محمد مصطفى زيادة وأكمله سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ١٩٣٦ - ١٩٧٣) .
(١٠٠) الالمام ، جـ ٧ ، فهرس رقم ١ . أنظر أيضا الحاشية التالية .
(١٠١) نفس المرجع ، جـ٧ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ ، جـ٦ ، ص ٤٠١ .
(١٠٢) نفس المرجع ، جـ٤ ، ص ١٤٦ - ١٥٤ .
(١٠٣) أنظر على سبيل المثال ، السلوك للمقريزي ، جـ٢ ، قسم ١ ، ص ١٥٠ - ١٥٢ ، أبو المحاسن بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة (القاهرة ١٩٤٢) ، جـ٩ ، ص ٤٩ - ٥٠ ، ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر (القاهرة ١٩٦٠) ، ص ٢٩٦ .
(١٠٤) وكان هذا هو آخر مسح عام للأراضي بهدف ربط الضرائب على أساس عادل . وقد خصص المقريزي لهذه المسألة جانبا من خططه (طبعة القاهرة في أربعة أجزاء ، ١٣٢٤ هـ) ، جـ١ ، ص ١٤١ - ١٤٧ . ويجد فيه روك صلاح الدين الذي جمعه ابن مماتي (كتاب قوانين الدواوين ، نشر عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣) .

دفعت السلطان الى منحه لرعاياه ، بهدف ازالة مساوىء تشريع سابق ، ومؤكدا لهم أمنهم وأمانهم . وكل مانستطيع أن نفعله هنا لبيان قيمة تلك الوثيقة هو جدولة المواد التي اشتملت عليها جدولة تحليلية .

١ ـ اسقاط الرسوم المفروضة سابقا على الغلال الواردة الى سواحل القاهرة واعمالها ، ومنع تكرار ازدواج ضريبة الدرهم الفرد عند تفريغ الغلة وبيعها .

٢ ـ ابطال نصف ضريبة السمسرة التي يؤديها جميع السماسرة والمنادين .

٣ ـ ابطال المقدمين ومقرراتهم ومايضم الى ذلك من الاعلاف التي يطالبون بتقديمها لبغالهم ودوابهم .

٤ ـ ابطال رسل الدولة والمترددين على البلاد ، مع ضمان الأمن للرعايا .

٥ ـ نواب الامراء الذين يقرونهم ببلادهم هم نواب عن مجلس الحرب ، ويجب على الوالي الذي يتمتع بكافة الصلاحيات التصدي لازالة التعدي على حقوق الافراد .

٦ ـ المفسدون الهاربون والقتلة ومرتكبوا الجرائم الذين يهربون الى بلد غير بلدهم يجب أن يلقى ولاة تلك الناحية ومشايخها وخفراؤها القبض عليهم ، واعادتهم الى بلادهم الاصلية او تسليمهم الى والي الحرب في تلك الناحية . ويجب الا يمكن هؤلاء المفسدون والمعتدون من اقامتهم يوما واحدا او ساعة واحدة . ولأرباب الدولة سلطة استخدام « سيوفنا » ضدهم بالتوسيط والشنق والتسمير على نخيل تلك البلدة .

٧ ـ الفلاحون المتجمعون من بلدة الى اخرى بسبب القحط ، والذين يأويهم الاهالي يستطيعون البقاء في تلك البلدة حتى موسم الحصاد ، ثم يرجعون الى بلادهم الأصلية .

٨ ـ لايمكن احد من الولاة ولانوابهم ولا المتحدثين عليهم ولا الكتبة ولا الجباة من جباية رسم استثنائي مياومة او مشاهرة ، ومحظور عليهم أيضا تناول جامكية اكثر من الدرهم الفرد .

٩ ـ ابطال حقوق السجون ومقرراتها وضمانها ، ومنع التعرض لأخذ الدرهم الفرد منها .

١٠ ـ لاتجبى أي مبالغ عن الجسور والترع والقنوات ، ولاتفرض اي رسوم على تسليف الادوات الزراعية ، او على القش والابقار والخولة والمهندسين . وعلى كل بلد ان يلتزم مقطعها بعمل مايجب عمله من غير رجوع الى العوائد القديمة .

١١ ـ ابطال طرح الفراريج على البلاد ، أو أي شيء آخر(١٠٥) .

١٢ ـ ابطال مقرر الفرسان ومقرر الخيل الذي كان يستأدى وقت حركات الجيوش .

---

(١٠٥) يبدو أن هذه الأشياء كانت تدفع عينا بدلا من الدفع النقدي للضرائب .

١٣ ـ لايؤخذ مقرر ملاهي لمن يعمل فرحا ومن أعرس او كتب كتابه او كان عنده ختان . ولايطلب الا من كان عنده أحد من الغوالي والملاهي .

١٤ ـ المسامحة بثمن العبي التي كانت تقررت على عامة الناس .

١٥ ـ ابطال المقرر من التبن والقش لمعاصر الأقصاب لمدة عام ، ويسمح بشراء التبن بثمنه ورضى أصحابه .

١٦ ـ ابطال حماية المراكب النهرية ، وان لايعود أحد من الأمراء وأرباب الجهات يحمي مركبا ولايستأدي من الحماية حقا (وهذا يعني توفير الحماية بدون أجر) . ولايتعرض أحد الى المراكب بغير حق يشهد به الديوان .

١٧ ـ لايطالب الحي عن الميت ، ولا المقيم عن النازح ، ولا الحاضر عن الغائب ، مالم يكن ضامنا او كفيلا اوملتزما .

١٨ ـ المسامحة بما انساق للامراء والمقطعين من البواقي في بلادهم من الخراج والضمان والى آخر مغل سنة ٧١٤هـ .

١٩ ـ اعفاء جماعة الفلاحين من ضيافة القدوم عند انتقالات الاقطاعات في سنة الروك .

٢٠ ـ ابطال عداد النحل حسب مايشهد به الديوان .

٢١ ـ ابطال زكاة الرحالة المستجين بالديار المصرية بالوجهين القبلي والبحري . كما ينسحب هذا الامر على اليهود والنصارى ، الا على حكم التصفح .

٢٢ ـ ابطال جميع البدول من الولاة والنظار والمستوفين وارباب الوظائف جميعا اعتبارا من استقبال شهر صفر سنة ٧١٦هـ .*

وتنص الحالة على حتمية تنفيذ بنود هذا المرسوم في القاهرة وجميع الاقاليم بدون استثناء وبدون ارضاء مدينة على حساب الاخرى . وتنص ايضا على ان جميع الولاة والامراء والحكام ورؤساء العمال ونظار الخاصة ومحصلي الضرائب وجميع سلطات الدولة ملزمون بتنفيذ نصوص هذا الفرمان حرفيا دون تفسير او تبديل . ويحمل الفرمان في بدايته توقيع السلطان بما يليق والتقاليد الدبلوماسية المتبعة في العصور الوسطى . وينتهي بتاريخ اصداره في ١٨ من ذي الحجة عام ٧١٦هـ/ ١٣١٦م .

ويحتمل ان يكون هذا المرسوم هو اكثر المراسيم المتعلقة بالحريات في مصر ابان العصور الوسطى اثارة للدهشة . وهو اشبه مايكون بوثيقة « العهد الاعظم » Magna Carta ، مع فارق وهو ان السلطان منحه عن طيب خاطر ولم ينتزع قسرا من الملك . وبذلك يبدو ان (الميثاق المذكور) كبح جماح الادارة المركزية والحكومة المحلية واستبدادهم بعامة الشعب . وقد شاهدت الولاية الثالثة للسلطان الناصر محمد تغييرات عظمى في اقتصاد مصر ، ولابد انها هيأت

* رأينا الالتزام ، قدر الاستطاعة ، بنص المرسوم وحرفيه كما ورد في الأصل (المترجم) .

(فرص) العدالة الاجتماعية للرجل العادي . ومع ذلك فمن المشكوك فيه ان كانت روح هذا الميثاق قد احتفظ بها خلفاء الناصر . ويمكن التثبت من ذلك مما كتبه مؤرخو مصر في اواخر العصور الوسطى ، ومن بينهم النويري الذي ندين له بمعرفتنا بكافة مواد هذه الوثيقة الدستورية العظيمة .

الفصل الرابع

الحملة الصليبية على الاسكندرية عام ١٣٦٥ م / ٧٦٧ هـ

ليس في نيتنا هنا ان نسرد من جديد القصة الكاملة للحملة الصليبية على الاسكندرية فقد سبق ان تناولناها ، اعتمادا على مختلف المصادر من شرقية وغربية ، في دراستنا المستفيضة بعنوان « الحروب الصليبية في او اخر العصور الوسطى »[١٠٦] . وهدفنا هنا تحليل ذلك القدر الهائل من المعلومات الذي سجله النويري كشاهد عيان ، او ذلك الذي جمعه بنفسه نقلا عن الروايات التي سمعها من شهود العيان الآخرين . ومعروف ان الحقائق التي قدمها المؤلف توجد مبعثرة متناثرة على امتداد كتابه ، وقد تقطعت اوصالها بسبب كتابته في مجالات عديدة ليس هناك اي رابطة تجمع بينها . لذلك ، فان رواياته تحتاج الى جهد لتنسيقها ، وهو ما نأمل تحقيقه في هذا الفصل .

ان هذا الكتاب المطول ، كما يدل عنوانه ، بدأ اساسا بهدف تدوين الاحداث المشئومة « التي قدر » ان تحل بمدينة الاسكندرية . ومع ان المصنفات التاريخية العربية الاخرى التي ترجع الى او اخر العصور الوسطى ، قد افسحت مكانا مناسبا لتلك الاحداث ، الا انه أيا منها لا يستطيع مباراة « كتاب الالمام » فيما يتعلق بمعظم المعلومات التي قدمها خاصة بتفاصيل القصة .

وسيظل النويري هو مصدرنا الرئيسي الموثوق به في هذا الموضوع من وجهة النظر المصرية .

ووفقا لرواية المؤلف ، فان قصة كارثة الاسكندرية تبدأ بمجموعة من التحذيرات التي وجهها عدد من الشيوخ الابرار في أرجاء مختلفة من العالم الاسلامي[١٠٧] . ويرجع تاريخ تصريحاتهم التي تنبأوا بها الى السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر الميلادي [او اخر القرن السابع الهجري] في بلاد مابين النهرين ، والتي سجلها شخص يدعى الباجربقي[١٠٨] في ملحمته التي نظمها عن الحروب الصليبية ضد كل من سورية والاسكندرية . وقبل سقوط المدينة بوقت قصير يروى النويري اربعة منامات عن الكوارث الفادحة المنتظرة التي سوف تحل بها . وهي عبارة عن منامات

(١٠٦) الكتاب طبع لندن (نشر Methuen & Co. Ltd.) سنة ١٩٣٨ . وبه قائمة بالمصادر والمراجع المتعلقة بالموضوع ، ص ٣٤٥ ـ ٣٧٨ والحواشي . وعلى ذلك ليس ثمة ما يدعو الى اجترارها هنا .

(١٠٧) Et. Combe, "Les presages annoncant la Croisade de Pierre de Lusignan et la cause de cette attaque," Bulletin de la Societe Royal d'Archeologie d'Alexandrie, annee 1948, No. 37.

(١٠٨) الالمام ، ج١ ، ص١٠٦ وما يليها . وقد اقتبس النويري تسعة عشر بيتا من تلك الملحمة الشعرية القديمة والتي كان ابن خلدون على معرفة بها . وورد الباجربقي تحت اسم بجربقي وبجربقة ، وامله خطأ مطبعي . انظر كتاب العبر (طبعة بيروت ، سنة ١٩٦١) ، ج٥ ، ص٦٠٣ ، ٦٠٨ . انظر أيضا المقريزي : السلوك (القاهرة ١٩٤١) ، ج ٢ ، قسم١ ، ص٦٦٧ ج ٣ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة (القاهرة ١٩٤٢) ، ج ٩ ، ص٦٦٢ . ويظهر اسم الباجربقي أيضا في مؤلفي ابن كثير وابن شاكر . انظر الالمام ، ج١ ، ص١٠٧ ح ١ . والباجربقي من مواطني قرية بجربقا ، وهي تقع بين الشام ونصيبين فيما بين النهرين ، وذلك وفقا لمعجم البلدان لياقوت ، ج ١ ، ص٤٦٥ . انظر الالمام جـ١ ، ص١٠٦ ، ١٠٧ ح٦ .

ترامت لأربعة من مواطنى[١٠٩] الاسكندرية ، بالاضافة الى منام خامس يذكر ان مصدره دمشقى[١١٠] ومنذ البداية يستبق المؤلف الاحداث قائلا ان سقوط مدينته العظيمة لايعزى الى بسالة غزاتها ، ولكنه كان فقط قدرا محتوما انزله الله كعقاب لخطايا سكانها وآثامهم ومع ذلك فهو لايجد من الكلمات مايكفى ليسب غازيها بطرس الاول لوزجنان الذى يصفه بانه كلب لعين ولص[١١١] وجبان ، ركن الى الفرار بما سلبه خوفا من مواجهة امدادات السلطان التى كانت فى طريقها الى المدينة . ويقرر ان بطرس كان يحتل ادنى المراتب بين الملوك المسيحيين ، وان مكانه يتبع « كراسى قبرة فى جزيرة »[١١٢] .

وحيث ان ارادة الله بترك المدينة للفرنجة كانت امرا لامرد له ولا سبيل الى مقاومته ، الا ان بعض الظروف هى التى مهدت الطريق لتنفيذه وتحقيقه . وهنا يشرع النويرى فى ذكر سبعة أسباب أدت الى الكارثة ، يمكن ترتيبها زمنيا كالآتى[١١٣] :

السبب الاول : فى عام ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م اصدر السلطان صالح بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون (٧٥٢ ـ ٧٥٥ هـ / ١٣٥١ ـ ١٣٥٤ م) مرسوما بطرد جميع المسيحيين الأقباط من دواوين الحكومة مالم يرتدوا عن دينهم ويعتنقوا الاسلام . وزاد الطين بلة ، انه نص فى نفس المرسوم ان يكون لجميع الرعايا المسيحيين زى خاص مميز . كما حتم عليهم ركوب الحمير فقط بدلا من الجياد . ولما تطبق هذه الاجراءات المهينة فى كل من القاهرة والاسكندرية ، شجع عوام المسلمين أن يبدأوا حركة اضطهاد ضد جميع المسيحيين ، سواء اكانوا من اهل البلد او من الاجانب الذين يقيمون فى كلتا العاصمتين . وبذلك اضطر التجار المسيحيون الاجانب الى جمع بضائعهم وحزم امتعتهم والعودة الى بلاد الروم . وقد أثار هذا الاجراء غضب الملك القبرصى الذى بدأ نتيجة لذلك رحلته الى الغرب بحثا عن مجندين للهجوم على الاسكندرية[١١٤] .

السبب الثانى : يقال ان بطرس الاول لوزجنان عند اعتلائه العرش (١٣٥٩ ـ ١٣٦٩ م) ، طلب من السلطان الناصر حسن اثناء ولايته الثانية (٧٥٥ ـ ٧٦٢ هـ / ١٣٥٤ ـ ١٣٦١ م) السماح له بزيارة صور لتدعيم تتويجه بالجلوس على عمود معين فى تلك المدينة طبقا للتقاليد القبرصية المتبعة . ولكن السلطان رفض طلبه باحتقار . وعلى هذا ، فان بطرس الذى أثار غضبه هذا الموقف ، قام بغزو الاسكندرية انتقاما لكرامته[١١٥] .

السبب الثالث : فى شوال ٧٥٥ هـ (اكتوبر ـ نوفمبر ١٣٥٤ م) رست سفينة محملة بقراصنة الفرنجة فى ميناء الاسكندرية ، وسببت مضايقات للبحرية الاسلامية مما جعل نائب السلطان بالمدينة يرسل القناصل المسيحيين الى

---

(١٠٩) الالمام ، ج ١ ، ص ١٠١ ومابعدها . وهؤلاء هم أبو عبد الله محمد بن صالح الناير المصرى ، وأبو عبد الله محمد الزجاج ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد الناير الرحالة ، وعلى بن راشد الحجازى المقيم الاسكندرية .

(١١٠) نفس المرجع ، ج١ ، ص ١٠٥ ـ ١٠٩ هو رجل الحيشى الذى توجه الى القاهرة بعد المنام الذى ارادى له وهو نائم بدمشق ودخل الاسكندرية بعد الغزاة . وبعد اختلط بالفرنجة الذين كانوا يظن انهم ، ولكن من الوصول الى بطانة الملك بطرس وسرق مهمات الذهبى ومانه لنا بعد ترك الاسكندرية .

(١١١) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٣٠٢ .

(١١٢) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٢٣ .

(١١٣) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٩٩ ـ ١١٠ .

(١١٤) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٩٢ ومابعدها .

(١١٥) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٩٦ ـ ٩٧ .

المعتدين للتأكد من نواياهم واغراضهم . فقالوا انهم يحتاجون الى مؤن ومياه عذبة وامر النائب بارسالها اليهم . ثم تنكروا بعد ذلك لقواعد كرم الضيافة بسلب سفينة سورية راسية في مياه الاسكندرية وابتعدوا عن الميناء . وقد وصلت أخبار هذه القصة الى بطرس الذى أدرك أن مدينة الاسكندرية خالية من الحراسات . وعلى ذلك قرر الاستيلاء عليها عنوة[١١٦] .

السبب الرابع : شن بعض القراصنة المسيحيين غارة بالقرب من رشيد انتهت بأسر عدد من المسلمين وفرار الغيرين . وكانت هذه الغارة دليلا آخر شجع بطرس كثيرا على مهاجمة الاسكندرية[١١٧] .

السبب الخامس : في ٢٧ شعبان ٧٦٤ هـ (١١ يونيو ١٣٦٣ م) رست ثلاث سفن تحمل مائة من الجنود المسلحين عند شاطىء أبي قير من ضواحي الاسكندرية . وقبضوا على ستة وستين رجلا وامرأة وطفلا من المسلمين ، ثم فروا بهم الى صيدا حيث اطلق سراحهم بعد ان افتداهم المسلمون . وقد عززت هذه الحادثة ، مرة أخرى ، موقف الحاكم القبرصي بالنسبة لمشروعه ضد الاسكندرية[١١٨] .

السبب السادس : اعقب تلك الغارة الفاشلة التى قامت بها ست سفن على ابى قير نفسها ، غارة اخرى على مدينة رشيد الأهلة بالسكان . وبعد رسو السفن ، تصدت لها وسائل الدفاع الاسلامى ، وفقد القراصنة لمائتين رجلا من رجالهم في هذا الصدام . فكان لابد من الانتقام لهذه الهزيمة ، وكانت فرصتهم تتمثل في غزو الاسكندرية[١١٩] .

السبب السابع : كان من نتيجة المذبحة التى راح ضحيتها البنادقة المقيمون في الاسكندرية على ايدى العوام ، ان توثقت صلة البندقية بقبرص ضد مصر . ووضعت البندقية اسطولها تحت تصرف بطرس الاول في مشروعه المزمع القيام به ضد الاسكندرية . وفي نفس الوقت الذى البابا في روما يقف الى جانب قبرص ، لجمع الامدادات من الدول الاوروبية والامراء الاوروبيين الذين شاركوا في غزو الاسكندرية[١٢٠] .

ومن خلال عرض النويرى للاسباب وانعكاساتها ، يبدو ان كلا من الجانبين كان لديه نظام للتجسس والاستطلاع ، وان كلا منهما كان يتتبع الموقف في كل من قبرص والاسكندرية . وقيل ان نائب السلطنة[١٢١] بالمدينة كان قد تلقى تحذيرا من عملائه عن الاستعدادات القائمة في قبرص . ولكن كل ما استطاع القيام به هو تعلية سور المدينة من جهة الباب الاخضر الذى يواجه الميناء الغربي . كما انه بلغ الخاسكى مقدم جيوش المماليك في القاهرة ، ملتمسا ارسال العون والامدادات . ولكن توسلاته لم تجد أذنا صاغية من قبل الادارة المركزية . ثم ان السلطات في القاهرة لم تكن تتوقع احتمال هجوم خطير تشنه قبرص [على الاسكندرية] . وساد الاعتقاد ان بطرس ليست لديه القوة او الشجاعة لتولى حتى اقل العمليات الحربية ضد مماليك مصر . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى كان الملك القبرصي على دراية تامة بضعف دفاعات المدينة عن طريق اولئك الذين أخبروه بذلك شخصيا . ويصف المؤلف تلك الدفاعات

---

(١١٦) نفس المرجع : جـ٢ ص ٩٧ وما يليها .

(١١٧) نفس المرجع ، ج٢ ، ص١٠٢ وما يليها

(١١٨) نفس المرجع ، ج٢ ، ص١٠٦-١٠٧ .

(١١٩) نفس المرجع ، ج٢ ، ص١٠٧-١٠٩ .

(١٢٠) نفس المرجع ، ج٢ ، ص١٠٩ وما يليها .

(١٢١) هو وكيله زين الدين خالد ، وهو امير غير معروف على ما يبدو . انظر نفس المرجع ، ج٢ ص ١١١ .

بأنها كانت تتكون اساسا من مجموعة صغيرة من الجند تتبختر خارج أسوار المدينة بسيوفها المرصعة بالجواهر ، وعمائمها الحريرية الجذابة وثيابها المعطرة ، ولكن كانت تنقصهم روح القتال الحقيقية[١٢٢] . وحدث أيضا أن نائب السلطان كان متغيبا عن المدينة ، فقد كان حاكمها خليل صلاح الدين بن عرام غائبا عنها بمكة بسبب الحج في ذلك الوقت . وقد بعثت القاهرة بأمير غير متمرس يدعى جنغرا ليحل محله[١٢٣] . وفضلا عن ذلك ، يقال ان كاتب الديوان بالاسكندرية ويدعى شمس الدين ابن غراب كان متآمرا مع السلطات القبرصية[١٢٤] . وفي زحمة تلك الظروف حدثت ساعة الصفر ، عندما يصل فيضان النيل الى اعلا منسوب له ، وتفصل الدلتاين الاسكندرية والقاهرة بعد ان تكون قد غمرتها المياه ، بحيث تصبح عملية نقل القوات من الجنوب امرا صعبا متعذرا . وبعبارة أخرى ، فقد كان الموقف كله مهيأ للغزوة المزمع القيام بها ، مع احتمالات قوية للنجاح .

ومن هذه النقطة فصاعدا ، يبدو ان ما كتبه النويري عن تاريخ الحملة الصليبية ينقسم الى شقين . ففي المقام الاول ، يتميز وصفه كشاهد عيان لما رآه خارج الاسوار وعلى الشاطىء عند مرأى الاسطول المسيحي ، وخطاب اللوم الذى تبع انزال القوات المعادية ، بالوضوح . وكان النويرى هناك ، أيضا ، بين موجات الفارين بعد دخول الاعداء المدينة . وقد ترك لنا وصفا حيا لوضع يائس مضطرب . ثم نجده بعد ذلك يختفي مع الجماهير . اما الشق الثاني الذى اسهم به [في تسجيل تاريخ الحملة المذكورة] ، فيبدأ بتقرير آخر عن مصير الفارين المشئوم فيما وراء بوابات المدينة . وبعد ذلك يستأنف وصفه للمشاهد التي رآها عند دخوله المدينة بعد انسحاب المسيحيين منها . أما فيما يتعلق بما حدث بين لحظتي اختفائه من المدينة وظهوره فيها ثانية ، فقد جمع معلوماته عنه من شهود عيان آخرين كانوا قد آثروا البقاء داخل أسوارها ، وبذلك أصبحت الصورة [التي زودنا بها] عن المذبحة واعمال التدمير كاملة غير منقوصة .

ولنتابع بشيء من التفصيل تلك الروايات المثمة التي تنبض بالحياة فقد اعتقد أهل الاسكندرية في بادىء الأمر ، أن الاسطول القادم عبارة عن مجموعة من السفن التجارية الوافدة من البندقية بهدف شراء الفلفل والتوابل كالمعتاد . ولذلك اسرعوا الى الشاطىء ليشاهدوا رسوها ، بينما اختلط الباعة المتجولون وبائعو الطعام مع الجماهير ، يبيعون سلعهم وبضائعهم ، وكانت المساومات لتخفيض الاسعار وفقا للطريقة الشرقية تدوى في كل مكان . ولم يكترث الناس بالكوارث الوشيكة الوقوع ، حتى بدأ المسيحيون المسلحون تسليحا كاملا يترلون بسيوفهم المسلولة التي استخدموها ضد الجماهير المتفرجة العزل من السلاح . وفي هذه اللحظة أسرعوا يهرولون في اتجاه البوابات طلبا للأمان وراء أسوار المدينة . وزاد الطين بلة والحالة سوءا ، ظهور فصائل الفرسان القليلة العدد ومعها القوات المحلية في محاولة لصد الهجوم . وكانت حالة الاضطراب تفوق حد الوصف . اذ ترك التجار من أهل المدينة بضائعهم تداس بالأقدام وتسحقها حوافر الخيل فوق الرمال .

وكان النائب الجديد [للمدينة جنغرا ممزقا بين رأيين ثار حولهما الجدل والنقاش فيما يتعلق بمشكلة الدفاع . وأحد الرأيين تقدم به تاجر مغربي نصح بأن يصدر النائب أوامره الى الجند والعوام بالانسحاب من الشاطىء والقتال من

(١٢٢) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١١٥ - ١١٩ .
(١٢٣) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٣٠ وما يليها .
(١٢٤) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٩٨ .

داخل حصون المدينة واستحكاماتها . اما الرأى الآخر فقد وصم ذلك المسلك بالجبن ، واصر على مواجهة العدو مباشرة بالحيلولة بينه وبين النزول الى الشاطىء . وانصار هذه النصيحة هم سكان الأربطة فى الجبانات القائمة خارج اسوار المدينة الذين لم يكونوا ـ فى الحقيقة ـ راغبين فى التخلى عن احيائهم للعدو . وانحاز جنغرا الذى كانت تعوزه الخبرة إلى رأى الفريق الثانى ، ودفع الثمن غاليا لقراره الذى جانبته الحكمة .

ومن ثم ، أبيدت كتيبة مغربية فى محاولة متهورة لاشعال النيران فى خطاف تابع للمسيحيين على مقربة من الساحل . ثم منيت فرقة من الفرسان العرب بالهزيمة . وعندما وخزت سهام المسيحيين الجياد ، جمحت خالقة وسط الجماهير الهاربة ، الامر الذى زاد من شدة الدمار والخراب . اما جنغرا نفسه فقد جرح فى القتال الذى نشب بعد ذلك ، واضطر الى التراجع مع الآخرين فارا نحو الباب الأخضر الذى يعرف ايضا باسم باب البحر طلبا للأمان خلف الأسوار .

ولنستشهد بأمثلة من تلك الشجاعة اليائسة . اذ انبرى جزار يدعى محمد الشريف ، بشراسة ، بساطور المجزرة الذى يتميز بنصله الحاد ، وأخذ يعمل القتل فى الأعداء حتى سقط هو نفسه صريعا . كذلك اخترق فقيه يدعى محمد بن الطفال الصفوف المسيحية بسيف مسلول فى محاولة لاعمال القتل فيهم ، ثم وقع شهيدا[125] . وفى جزيرة فاروس دافع حرس رباط [الشيخ محمد] ابن سلام[126] عن مبناهم الفخم ضد الفرسان المسلحين تسليحا تاما . وقد تمكنوا من صدهم من فوق سطح المبنى ولكنهم ذبحوا أخيرا وقيل أن دماءهم سالت فى جداول خلال المزاريب (الميازيب) ، أما أولئك الذين شاهدوا بقايا المذبحة بعد انسحاب المسيحيين ، لقد صعقوا عند رؤية كتل الدم المتجمد التى سدت تلك المزاريب . كما أن جثث الشهداء الملوحين ظلت على السطح حتى جللتها شمس مصر ، ثم جمعت معا ودفنت فى حفرة واحدة خارج الرباط الذى تعرض للسلب والنهب[127] .

اما الصورة التالية فهى تبين عملية تسلق الصليبيين للأسوار ودخولهم المدينة . وقد تناولها الكاتب بشكل مفصل واضح . ففى البداية بدت المدينة منيعة لاترام بأسوارها العالية المزدوجة وأبراجها الحصينة . وفشلت محاولات حرق الباب الاخضر المنيع ، لأن المهاجمين لم يستطيعوا الاقتراب منه بنيرانهم . فكانت سهام المدافعين السريعة تصدهم بشكل منتظم اعلا منطقة السور . وفجأة اكتشف العدو جانبا من السور خاليا من الدفاع بالقرب من الميناء الشرقى . ويمدنا النويرى بتفسير لهذه الثغرة فى الدفاع . ذلك ان رماة السهام الذين تركزوا عند الباب الأخضر حيل بينهم وبين الوصول الى هذا القسم من السور فوق باب البحر وباب الديوان الذى يطل على الميناء الشرقى بالقرب من برج ضرغام القرير . وزيادة على ذلك ، فان الوصول الى ذلك الجزء من السور من داخل المدينة ، كان ممكنا فقط من خلال باب الديوان حيث كانت جميع انواع البضائع مكدسة فى انتظار تفريغها . وبذلك كانت منطقة الديوان مغلقة من الداخل للمحافظة على محتوياتها . وبناء على ذلك ، فان السور فوق البوابات المذكورة اصبح منيعا من الداخل . وقيل ان اغلاق باب الديوان فى وجه الدفاع كان عملا من اعمال خيانة شمس الدين بن غراب الذى اتهم فيها بعد بان الملك بطرس

(١٢٥) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص١٤٨ ـ ١٤٩ .

(١٢٦) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص١٥٣ ـ ١٥٤ . راجع هذا الذى ارى من موظفى المدينة يدعى محمد بن سلام . وقد دمر الصليبيون بابه وشبابيكه المصنوعة من النحاس المشغول ، كما أشعلوا النيران فى سقفه المزخرف . وقد استعادها نفس الرحالة فى ٧١١ هـ / ١٣٦٩ م ، ولكنه ألفى سقف ديوانه بالحجارة حتى لا يتأثر بالنار .

(١٢٧) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص١٥١ .

[لوسنيان] قد رشاه وعاملا آخر من عمال المماليك يدعى شمس الدين بن أبي عذيبة . وحاول الاثنان تبرير فعلتهما بحجة ان فتحة البوابات الداخلية سوف تمكن الاجانب المقيمين [في الاسكندرية] من نقل البضائع المستحقة الرسوم من الديوان ، وبذلك يسلبون الخزانة من حصيلة الجمارك غير المدفوعة . ويقال ان شمس الدين بن غراب قد دفع حياته فيما بعد ثمنا لهذه الفعلة . فقد تم اعدامه بطريقة وحشية بتوسيطه وعلق قطعتين على الباب [باب رشيد] .

وعلى أية حال ، فان اكتشاف السور الخالى من الدفاع ، قد أعطى الصليبين فرصتهم الذهبية . وفي غمرة الفرح بدأوا في اعداد السلالم المفصلة التي تسلقوا عليها السور بأمان ، بينما أشعل الآخرون النار في باب الديوان . وفي ذهول حلق الناس الذين كانوا على الجانب الأخر من قمة ضرغام ، وقد استبد بهم اليأس والعجز ، وأدركوا ان اليوم قد انتهى [في غير صالحهم] . وهبط المسيحيون الى داخل الديوان ، وفتحوا بابه المحترق على مصراعيه ، وتدفق المهاجمون داخل المدينة .

وكان الدمار الذى اصاب الجانب الاسلامى مخيفا ورهيبا . فقد فر المواطنون نحو البوابات البرية في محاولة للهرب طلبا للأمان . وقد اعطى النويرى وصفا حيا لهذا المشهد ، لانه هو نفسه كان من بين الجماهير الهاربة . وبلغ من شدة الزحام بسبب كثافة الجموع المتدفقة عند البوابات البرية ان عددا من الناس آثروا الهبوط الأسرع من الأسوار بواسطة الحبال . فسقط عدد كبير منهم على الأرض مابين قتيل وعاجز . وقد حشا احد التجار كل ثروته التي تبلغ ستة آلاف دينار من الذهب في كيس نقود ، ثم انضم الى الجموع المتزاحمة عبر باب رشيد . واثناء صراعه من اجل الحياة سقط منه الكيس ، ولم يستطع الانحناء لاستعادته بسبب الضغط العالى للكتل البشرية التي تطلب النجاة . وحاولت حشود الفارين التي تمكنت من الهرب الاتجاه الى القرى المجاورة مثل السلقون والكريون بمديرية البحيرة . ولكن معظمهم تعرض لرعب آخر جديد في الحقول المكشوفة . اذ سلبهم مامعهم البدو وقطاع الطرق من القبائل العربية التي تقطن الصحراء الغربية دون رحمة او هوادة .

وعند هذه الواقعة يختفى النويرى من مسرح الصراع والملحمة داخل المدينة . ويحتمل ان يكون قد عاد الى النويرة قريته الاصلية في مصر الوسطى لقضاء فترة من الراحة ثم تابعها طرد الصليبيين الى البحر عندما عاد هو ثانية الى الاسكندرية . ولا نعرف على وجه التحديد تاريخ عودته ليواجه مصير المدينة الفجع ، لكنه لم يستطع ان يمكث بعيدا عنها لفترة طويلة . وعند وصوله بدأ يجمع المعلومات من أولئك الذين بقوا في المدينة ، وظلوا على قيد الحياة بمعجزة بعد الاحتلال المسيحى لها . وان رواياته النابضة بالحياة عن أحداث تلك الايام القليلة تفوق كل وصف وتقدير .

وقد يكون من العبث ان نعدد قائمة مستوفاة تتضمن بيانا بجميع التحف الفنية التي أخذها الصليبيون من المدينة ، او ان نحصى المخازن والنزل التي نهبت ، او ان نعدد المدارس والقصور والمساجد التي احترقت ودمرت . وبالرغم من ذلك ، يمدنا النويرى بمجموعة من القصص والروايات التاريخية التي يجب أن نلخصها هنا لتقدير فداحة تلك الكارثة الفظيعة التي حلت بالاسكندرية . وان كل ما تمكن الغزاة من وضع أيديهم عليه من ذهب وفضة ، وكل ما خف حمله وغلا ثمنه من المعادن الثمينة والنحاس ، وكذلك كل بالات الحرير والأشياء الثمينة كالسجاجيد والأقمشة الغالية والكثير من التوابل والفلفل والحاصلات الهندية ـ كل هذا أخذه الصليبيون الى أسطولهم . واستخدمت الجمال والخيول والبغال والحمير الموجودة في المدينة في نقل تلك الغنائم الهائلة . كما سخروا الرجال والنساء لينضموا هم أيضا الى تلك الدواب في عملية النقل . وعندما تمت السخرة ، صدر الأمر بدخولهم في جوف السفن لنقلهم عبر البحر

كأسرى وعبيد المستقبل . وفيما يتعلق بالحيوانات ، فبمجرد انتهاء مهمتها لم يعد لها اى فائدة بالنسبة لهم ، لأن السفن كانت قد بلغت اقصى حمولتها ، طعنها المحاربون المتقيتون بسيوفهم وحرابهم كما كسروا عظام ارجلها الرقيقة بمنتهى البساطة لشل حركتها . ثم تركوها اما ميتة او فى طريقها للموت فى الشمس الحارقة فوق الشاطىء الرمل ، حتى جاء المسلمون فأحرقوا جيفها بعد استعادة المدينة . كما اشعل الصليبيون النيران فى المصانع والمخازن ومكاتب الادارة وجميع المبانى .

وثمة شاهد عيان كان يراقب الجند وهم فى مجموعات من فجوة فى مخبأ سرى ، تحدث الى النويرى عن الأسلوب الذى اتبعوه فى اشعال الحرائق . فقد غطوا البوابات المغلقة بمادة سوداء لطخت بدهان احمر ، ومن الصعب التثبت الا كانت تتكون من القطران (القار) والكبريت . وعلى اية حال ، فالامر الهام هو انه عندما مس اللهب هذه الأبواب ، اشتعلت على الفور وانهارت تاركة البناء مفتوحا على مصراعيه تحت رحمة العدو . كما قيل لنا ان عصابات اخرى من المسيحيين حملت أيضا معها حلقات غمست فى الزيت والقار والزفت والنفط . ثم ثبتت على اطراف السهام واشعلت واطلقت الى اعلا نحو أسقف المبانى الخشبية لتبدأ حرائق اخرى ، بهدف التأكد من اتلاف المكان بصفة نهائية . وكانت بعض المبانى آية فى الفن ، سواء المنقوشة باليد او المدهونة بالطلاء .

هذا ، ولم يميز الصليبيون بين المنشآت الخاصة بالتجار المسلمين وتلك التى كانت من أملاك المسيحيين . ومن بين الفنادق والنزل التى دمروها ، عدد النويرى تلك التى تخص القطلانيين والجنوية وأهالى مرسيليا . كما جردت المساجد والأضرحة من كل عمل فنى يمكن نقله . كذلك هشموا جميع قناديلها الزجاجية المطعمة بالجواهر والأحجار الكريمة ، لانه لم يكن من السهل نقلها . اما البيوت الخاصة ، فقد قامت بالتنقيب فيها بشكل منتظم مجموعات أصغر من تلك العصابات من رماة السهام . فكانوا يطلبون من سكانها الموجودين فيها كل ما لديهم حتى لا يتعرضوا للموت . ولى هذا لم ينج مسلم أو مسيحى قبطى من اهل البلد . ويستشهد النويرى بحادثة خاصة لسيدة قبطية كسيحة ابنة قس يدعى جرجس بن فضائل ، كان فيها على كنيسة قبطية بجوار منزلها . فلم تستطع حتى علامة الصليب [التى رسمتها لهم] أن تحميها من مضايقة أفراد احدى هذه العصابات الذين طلبوا اليها ان تسلمهم كل ذهبها وفضتها . ومع ذلك فقد حاولت انقاذ الكنيسة من الحريق الذى أشعلوه بتسليمهم الأوانى الفضية للأسرار المقدسة مع كل مدخراتها الذهبية .

ويخبرنا النويرى ، أيضا ، أن سبعين سفينة [من السفن الصليبية] قد حملت اكثر من طاقتها من الغنائم ، لدرجة ان الفرنج اضطروا الى القاء جزء من حمولتها فى البحر المتوسط بالقرب من شاطىء ابى قير شرقى الاسكندرية لتفادى غرقها أو تقدمها البطىء الذى قد يعرضهم للمطاردين . كما يقول النويرى انه رأى صهاريج الزيت والشهد والزبد الخالص محطمة فى الشوارع لأن الصليبيين لم يستطيعوا حملها معهم . كما أنهم تركوا كميات هائلة من التوابل والفلفل التى كانوا قد سحبوها الى الشاطىء بسبب ضخامة حجمها .

وربما كان المبنى الوحيد الذى لوحظ بقاؤه سالما هو الترسانة التى احتوت مخازن الذخيرة وبها ستون ألف سهم ، وكميات هائلة من القسى ، والسيوف ، والحراب ، والخلل الحربية ، والدروع ، وأجهزة المدفعية والمواد الملتهبة وجميع المعدات الحربية وآلات الحصار وحدثت معجزة نجاتها من النهب والتدمير الناجين بمحض الصدفة . فقد وقفت مجموعة من الرجال المسلحين عند بابها العظيم للتشاور . ولكن عندما اعتقد وا من مظهره انه قد يكون أحد أبواب المدينة بسبب حجمه الضخم اكثر من المعتاد وقربه من اسوار المدينة ، قرروا تركه ، ورحلوا عنه دون ان يمسوه بسوء . ولكن جميع

المباني الاخرى الخاصة بمصالح الدولة ، بما فيها الديوان ، قد تركت حطاما خاوية محترقة . ومع ذلك ، فمما يدعو الى العجب أن عصابات اخرى (من الفرنج) أشعلت النيران في عدد من الأبواب البرية ومن بينها باب سدرة ، وهو خطأ تكتيكي ، اذ زاد من فرص دخول قوات السلطان الى المدينة والقادمة اليها من الجنوب . وربما ظنوا ، عن سطحية وغباء ، أنه بدون الأبواب تصبح المدينة مفتوحة أمامهم عندما يقومون بهجوم جديد . وكان هذا ، بطبيعة الحال ، أملا ذهب أدراج الرياح ، لأن المصريين أعادوا ترميم الأبواب بسرعة . وبعدأن زادت يقظتهم وقوى حرصهم ، لم يجرؤ المسيحيون اطلاقا على معاودة الكرة .

وعندما دخل جيش السلطان شعبان تلك المدينة ثانية ، اصاب زعماءه الهلع لما رأوه . فقد كانت جثث المذبوحين والمشوهين من الرجال والنساء والاطفال مبعثرة في الشوارع دون اعتبار للسن أو الجنس . كما دمرت أحياء بأكملها . ولم يبق أي مبنى هام ، دون أن يمس سوى الترسانة الحربية على مايبدو . فبدت المدينة قبرا مفتوحا ، وتعثر الناس فوق جثث الضحايا من المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء . وقد يصيب الدوار العقل عندما يدرك ان مثل هذا الدمار الفظيع وتلك الذبحة الجماعية يمكن أن تتم اثناء احتلال دام لمانية أيام . ولم تكن الاسكندرية قد تعرضت خلال عمرها الطويل لمثل تلك الكوارث والبلايا التي لم تفق منها حتى العصر الحديث .

ويمدنا النويري ببعض التفاصيل الشيقة للمفاوضات التي دارت بين السلطات الاسلامية بعد استعادة المدينة وبين الملك بطرس للتسحب على سفنه ، وذلك قبل ابحاره . وقد اختير لتلك المهمة احد اليهود المقيمين بالاسكندرية وكان يتقن الحديث بلغة الفرنجة . وكان المصريون الفارون قبل ذلك قد ساقوا معهم جميع التجار المسيحيين في المدينة الي دمنهور عاصمة مديرية البحيرة . لذا ، تقدموا بعرض يقوم على تبادل المسيحيين بأسرى المسلمين على السفن القبرصية . ولكن هذا العرض لم يأت بنتيجة ، وقرر الجيش المسيحي أن يبحر بسرعة بأسلابه ومغانمه طلبا للأمان في عرض البحر .

وبعد عودة الملك بطرس الي قبرص ، وقد داعبه الأمل في أن سورة غضب السلطان[المملوكي] قد هدأت ، سعي الي مفاوضات لأعادة السلام الي مصر . ولكن الجراح التي اصيبت بها البلد كانت عميقة ، لدرجة أنه لم يكن من السهل نسيانها أو التغاضي عنها بمثل هذه السرعة . وقد قوبلت المصالحة الملكية الجديدة بالرفض التام من قبل القاهرة . ولذلك لجأ بطرس الي اتخاذ اجراء عنيف لحد ما بأمل إجبار السلطان علي الصلح . اذ جهز أسطولا صغيرا أغار به أكثر من مرة علي طرابلس علي الساحل الشامي ، في نوفمبر ١٣٦٦ ويونيو ١٣٦٧م ، ثم مرة ثالثة في سبتمبر من نفس العام ، ولكن دون جدوي . ويقدر النويري الاسطول القبرصي في آخر تلك الغارات الحربية بمائة وخمسين سفينة ، متضمنة بعض الشواني وناقلات الجند . ووجد المهاجمون ان الاهالي ثابتون وعلي استعداد لملاقاتهم . لذا ، بعد انزال قواتهم ، قرر القبارصة العودة بسرعة الي سفنهم للبحث عن أراض مكشوفة يهاجمونها ، حيث يمكنهم مفاجأة مسلمين آخرين . وهكذا نجحوا في نهب طرسوس وتدمير اكوام متراكمة من المواد التي كانت قد اعدت لبناء الشواني للسلطان . فأشعلوا النيران في كميات هائلة من الاخشاب والقار وحبال المراكب ، بينما تخلصوا من المواد غير القابلة للاشتعال كالحديد والمسامير بإلقائها في البحر . ثم توجهوا بعد ذلك نحو ميناء اللاذقية ، ولكنهم ، مرة اخري ، وجدوا الاهالي على البر علي استعداد لملاقاتهم . وقد حالت الرياح والامواج الشديدة ، وكذلك استحكامات المدينة المنيعة ، بينهم وبين انزال قوات اضافية . وظلت حالة التوتر المستمر قائمة طوال حكم بطرس الاول وحتي مقتله علي يد نبلائه الثائرين عليه عام ١٣٦٩م .

وعلى أية حال ، لم يتحسن الموقف المتدهور بين مصر وقبرص باختفاء الملك المحوز الذي يعتبر الوغد الحقيقي وراء مأساة الاسكندرية . ففي خلال حكم خلفه بطرس الثاني(١٣٦٩ ـ ١٣٨٢م) كانت غارات القرصنة ، سواء الموجهة ضد الشواطىء المملوكية او ضد السفن الاسلامية في عرض البحر تقابل بغارات مماثلة من جانب مصر على شواطىء قبرص الجنوبية . وفي ظل هذه الظروف المضطربة توقفت التجارة مع القوميات الأوروبية . وكان على كل من جنوة والبندقية التوسط لاعادة السلام واستئناف تجارتهم مع مصر التي تعود عليها بالمكاسب والارباح . وان قصة ايفاد مبعوثين من قبلها الى القاهرة لتحقيق سلام مهتز ، قد رواها المؤلف بشيء من التفصيل . ويبدو في واقع الأمر ، ان السلطان كان يشجع تلك المحادثات غير الحاسمة لكسب الوقت حتى يتمكن من استكمال بناء اسطول قوي يسمح بغزو تلك المملكة الجزيرة [اي قبرص] أخذا بالثأر . والظاهر ان النويري لم يعش حتى يرى تحقيق هذا الحلم . اذ تحقق ، فعلا ، غزو قبرص في عهد السلطان[الاشرف] برسباي(١٤٢٢ ـ ١٤٣٨م) من دولة المماليك الجديدة البرجية في حملة مدمرة مضادة . لقد جهز برسباي ثلاث حملات ناجحة ضد قبرص في اعوام ١٤٢٤ و١٤٢٥ و١٤٢٦م . على التوالي . وأثناء الحملة الثالثة نشبت معركة خيروكيتيا في السهول الجنوبية من الجزيرة . وكان النصر الذي حققه المصريون في ساحة القتال ساحقا . اذ أسروا ملك قبرص الضعيف المدعو جانوس الثاني Ganus II وارستقراطيته ، وحملوهم معهم مكبلين بالاغلال الى القاهرة . وبهذه الطريقة دفع جانوس الثاني الثمن باهظا عقابا للفعلة الشنعاء التي ارتكبها بطرس الاول ضد الاسكندرية .

وان تطور الاحداث بعد ذلك انما يتعلق بفصل تال بعد انتهاء حياة النويري وكتابه . لذا يجب متابعته من حوليات تاريخية متأخرة ، نذكر من بينها كتاب السلوك للمقريزي ، وهو اعظم المؤرخين المصريين في القرن الخامس عشر الميلادي(القرن التاسع الهجري) .

الفصل الخامس

خاتمة

تقييم التراث الذي خلفه النويري

لفترة طويلة ترجع بنا الى أواخر العصور الوسطى ، لم يتمكن قراء كتاب الالمام ، للنويري من تقدير قيمة ما خلفه لعالم الادب . ويعتبر كتابه ، حسبما أسلفنا ، بمثابة فيض عطر من المعلومات غير المتسقة أكثر منه مقالة منظمة تعالج مجموعة محددة متصلة من الموضوعات . ولما كانت حرفة النويري هي نسخ المخطوطات ، فلا بد أنه قد اطلع على مؤلفات اصلية يصعب حصرها تتناول العديد من الموضوعات . ويمكن فقط القول انه أثناء قيام النويري بنسخ المخطوطات للتجار السكندريين الأثرياء قد ألهبت خياله افكار وأجزاء معينة من تلك الاعمال . فعمل على اكتناز مقتطفات منها ليستخدمها كلما واتته الفرصة . وقد حانت تلك الفرصة مع أخطر حادثة في حياته ، الا وهي الحملة الصليبية المشئومة على الاسكندرية عام ١٣٦٥م . ولا بد أن تلك الحادثة المشئومة قد أثارته لدرجة أنه قرر أن يبدأ وكتاب الالمام ، كسجل لكل ما شاهده وما سمعه عنها . ولهذا السبب بدأ ينسج نصه حول هذه الواقعة بالذات .

ولم يتناول الموضوع بطريقة مباشرة أو مستقيمة . بل كان على هيئة تعليق على مرثاة حول مصير الاسكندرية كتبها شاعر معاصر غير معروف يدعى ابن ابي حجلة . لذا نجد تفاصيل تلك الحملة الصليبية مطمورة في ثنايا ذلك التعليق . ومما زاد الطين بلة ، أنه قرر استخدام حصيلة المقتطفات الهائلة التي استقاها من مخطوطاته بطريقة عشوائية اثناء سرد

روايات ، متنقلا من موضوع الى اخر ليس له اي علاقة بالفكرة الاصلية سوي كلمة عابرة او فكرة سطحية لا تمت للامر الذي يعرضه بأية صلة حقيقية . ونتيجة لذلك ، نجده ينتقل النويري من التاريخ الي الاسطورة ومن التقاليد الاسلامية الي الفحشاء والكلمات البذيئة ومن الشعر الفصيح الي القصص الخرافية ، ومن الحكمة الزاهدة والعقائد المقدسة الي الطب الشعبي وحياة النبات والحيوان ، ومن علوم الفلك والجغرافية الي مهنة ركوب البحر والي المعلومات المتصلة بالآثار ، أو حتي الأمور التافهة كالأحاجي والألغاز السلية والأشكال الشعرية الجديدة للرجز والنثر الذي يتميز بالصنعة . ولقد كان كل هذا الشتات المختلط المتداخل ، هو الذي حال بين القراء الجادين وبين الخوض في أعماق هذا النص الهائل دون تخطيط واضح أو تنظيم موضوعي . وربما يفسر هذا ، في الحقيقة ، موقف الباحثين الذي يتسم بعدم الاهتمام بهذا الكتاب الذي لم يعن أحد بنشره أو دراسته دراسة واعية حتي ظهور طبعتنا الحالية .

وعلى اية حال ، نظرا لاهتمامنا بالدراسات التي تتعلق بالحروب الصليبية في القرن الرابع عشر ، لم نجد مفرا من القيام بعملية تفحص هذا المخطوط الصعب تفحصا يمتاز بالصبر والدقة . هذا ، ويعرف النويري [نفسه كتابه] « الالمام » تعريفا له مغزاه ، مبينا انه يشتمل على « لمحات » ومن هنا بدأنا نكتشف هذا التراث غير المعروف الذي خلفه النويري ، والذي تناول الكثير من مجالات المعرفة التي قد تكون في بعض الاحيان فريدة في طابعها وتنوعها وليس من المعقول ، في الواقع ، نشر أجزاء منفصلة من ذلك الكتاب الموسوعي بشكل مستقل قائم بذاته ، والتي قد ضمنها نبذا ومقالات تعالج العديد من الامور المستمدة منه . وان نظرة سريعة على المجلد السابع بفهارسه الكبري الأربعة عشر ، تكشف عن خصوبة وثراء المعارف والمعلومات التي تضمنها هذا النص الضخم .

وليس من شك في ان المؤلف قد جمع أعظم مادة أصلية تتميز بتميزها عن الحملة الصليبية على الاسكندرية من وجهة النظر المصرية . ومع ذلك ، أمدنا أثناء محاولته القيام بهذا العمل بالكثير من التفاصيل عن بناء وطوبوغرافية وآثار الاسكندرية في العصور الوسطى[128] وهنا نجد وصفا للمباني والمنشآت الهامة التي تشتريبها وفيها المعماري الرائع ، قدمه رجل كان قد عاش فيها وعلى معرفة بكل شيء عنها . ونشاهد هنا أيضا ، كان على معرفة بميناءي المدينة الايونستوس Eunostos والباب الكبير Portus Magnus الذي يرجع الي عصر البطالمة . وعلى هذا كان بوسعه اثراء[المكتبة العربية] بما كتبه عن علم البحار ، وان يزود القاريء بأتم مجموعة من المصطلحات العربية الخاصة بمهنة ركوب البحر التي عرف بوجودها في تلك اللغة . اذ استعرض ووصف جميع انواع السفن التي تمخر عباب كل من البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندي والانهار العظيمة القديمة من النيل الي دجلة والفرات[129] .

وهنا تعرض ايضا للعلوم الجغرافية التي أسهم فيها اسهاما شخصيا . ومما يدعو الي الدهشة معرفته بكروية الارض ، تلك المعرفة التي لا بد ان يكون قد ورثها عن الجغرافيين العرب السابقين قبل ان تظهر هذه الفكرة في اوروبا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي [أواخر القرن التاسع الهجري] . ومما يدعو الي الاعجاب ، ايضا ، وصفه لعواصم اوروبا ، وحصره للقلاع الاسبانية ، وذكره للجزر والانهار والجبال والبراكين وغيرها من العلامات الجغرافية المميزة[130] .

(١٢٨) انظر الالمام ، ج ٢ ، الفهرس السادس .
(١٢٩) نفس المرجع ، الفهرس السابع .
(١٣٠) نفس المرجع ، الفهرسان الأول والثاني .

وبين ثنايا رواياته عن المعارك الاسلامية المبكرة والمتأخرة ، حفظ لنا الكثير من المعلومات الاساسية التي سوف تعين الباحث على توضيح الغموض الذي يشوب تاريخ فن الحرب والقتال الاسلامي[١٣١] وقد اعددنا له ولكل الموضوعات سالفة الذكر ، فهارس خاصة نستطيع من خلالها تقدير قيمة ما خلفه النويري من معلومات لم تكن معروفة من قبل . ووجدنا انه من الضروري تعريف وتوضيح مصطلحاته ، مع تحديد الاماكن او التعريف بها في الهوامش السفلية . وقد نجحنا الى حد ما ، ولم يحالفنا التوفيق في بعض الاحيان في ايجاد حلول للمشاكل [التي واجهتنا] والتي نترك بعضها للباحثين المتخصصين في المستقبل .

اما في مجال الفقه والشريعة الاسلامية ، فلم يضف النويري سوى القليل واحيانا لا يضيف شيئا الى ادب الفقه القائم المعظم . وربما كانت المسألة الوحيدة الجديرة بالذكر هنا هي اقتباسه لكثير من الاحاديث التي يبدو انها غير صحيحة بالرغم من ادعائه صحة نسبتها[١٣٢] ويحتاج هذا الموضوع لمزيد من البحث في المستقبل .

كذلك أبدى النويري في عالم الادب اهتماما كبيرا باقتباس القصص القديمة ، والشعر القديم المعروف ولكن اسهامه الحقيقي يكمن في اقتباسه من شعر عصره بالذات . ومع ذلك ، فان هذه الناحية التي ادلى فيها بدلوه تفشل في ان تعكس روعة العصر الذهبي للادب العربي . وبالرغم من كل ذلك ، فهي تزودنا بنماذج لها وزنها تمثل خير تمثيل تأليف القرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] . وجانب كبير من هذا الشعر يصور حادثة معاصرة او يمتدح شخصية معروفة أو يرثي حادثة أليمة مثل الحملة الصليبية على الاسكندرية . ويعتبر النويري نفسه في الحقيقة شاعرا له مكانته . وتظهر قصائده في [ثنايا] عدة مجلدات [من الالمام] . وهي ليست رائعة في طابعها ، ولكنها قد تساعد كوثائق تاريخية فيما يتعلق بأحداث عصره[١٣٣] .

ويستخدم النويري الاسلوب الايقاعي الموزون . ولذلك تبدو الصنعة والتكلف بوضوح في محاولة المؤلف ايجاد القافية المطلوبة بأي وسيلة . وكثيرا ما تصبح هذه المسألة عقبة لا تستحق الاطراء . وان التناقض العجيب في اسلوبه يبدو في استخدامه العبارات الدارجة وانحرافه عن ابسط قواعد النحو والصرف ، مما يصعب معه المواءمة بينها وبين سعة اطلاعه في مجال الادب .

فهل من الجائز ان يكون نساخ « كتاب الالمام » هم المرتكبين الحقيقيين لهذا الخطأ ، فشوهوا بذلك المخطوط الاصلي الذي يتضمن النص بخط المؤلف ؟ وسوف يظل هذا التساؤل قائما لأنه من الصعوبة بمكان أن نجد له جوابا شافيا .

وليس بوسعنا اخفاء دهشتنا بالنسبة للموضوعات المختلفة المتنوعة التي جمعها النويري بمحض الصدفة وبتخطيط متواضع . ومع ذلك ، فان ثمرات جهوده الشاقة عبارة عن خليط غير مترابط من المعلومات التي جمعها بحكم خبرته كشاهد عيان [لأحداث ذلك الزمان] . وبالرغم من كل المآخذ التي تؤخذ على كتابه ونواحي القصور فيه فقد تمتع النويري بكافة الصفات التي تؤهله ليكون أحد مصنفي الموسوعات السكندريين في القرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] .

---

(١٣١) نفس المرجع ، الفهرس الثامن .
(١٣٢) نفس المرجع ، الفهرس الخامس .
(١٣٣) نفس المرجع ، الفهرس الرابع .

أضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن علي المقريزي وكتاباته

سعيد عاشور

يحتل عصر سلاطين المماليك ـ وهو العصر الذي يمتد من منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) حتى اوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر للميلاد) أي قرابة قرنين ونصف من الزمان ، يحتل اهمية خاصة على الصعيدين العالمي والمحلي ، نظرا لما واكب ذلك العصر من أحداث مثيرة ، وتيارات قوية بارزة في مختلف الانشطة الحربية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، مما جعل دولة سلاطين المماليك ـ وعاصمتها القاهرة ـ قبلة انظار المعاصرين من الاصدقاء والاعداء جميعا : الاصدقاء ينشدون مساعدتها ويأملون في عونها ، والاعداء يرجون مسالمتها ويتجنبون غضبتها ، ويتقون بطشها ، ومن يتتبع تاريخ دولة سلاطين المماليك بوعي وادراك يلمس حقيقة لها مغزاها ، هي أنه لايكاد يمر عام إلا وتشهد القاهرة وصول سفارة او اكثر ، بعضها من مختلف انحاء العالم الاسلامي في الشرق والمغرب ، يطلب اصحابها اعترافا من الخلافة العباسية بالقاهرة يضفي عليهم صبغة الشرعية ، أو يشكو لسلطان المماليك بعض الجيران والاعداء طالبا تأييده المعنوي والحربي ، والبعض الآخر من الدول والقوى التجارية في غرب وحوض البحر المتوسط ، تطلب بعض التسهيلات لرعاياها وتجارها ، أو تنشد عقد اتفاقية تجارية تحقق لهم قدرا من الضمانات والامتيازات في اراضي سلطنة المماليك .

وهكذا غدت القاهرة مركز ثقل السياسة العالمية في عصر سلاطين المماليك ، ومحور العلاقات بين العالمين الاسلامي وغير الاسلامي ، وعاصمة المال التي تتحدد فيها اسعار العملات والسلع والغلات ذات القيمة العالمية ، سواء كانت من حاصلات الشرق او انتاج الغرب . ولاشك في ان الانتصارات الكبرى التي حققها سلاطين المماليك في صدر دولتهم ، سواء على كتلة تتار فارس والعراق او على الصليبيين في الشام ،

اضفت هالة من المجد على هذه الدولة ، بحيث غدت في نظر المسلمين جميعا آخر بقية من مجد الاسلام . وبخاصة ان هذا النشاط الخارجي الواسع النطاق - على الصعيدين الحربي والسياسي - لم يكن الا مظهرا واحدا من مظاهر نهضة شاملة متعددة الجوانب ، آثرنا ان نطلق عليها اسم النهضة الثانية - ولانقول الاخيرة - في الاسلام .

ويعنينا من أمر هذه النهضة التي لم تترك جانبا من جوانب النشاط الحضاري الا طرقته واسهمت فيه بسهم وافر ، ان كل من تعرضوا لها من الباحثين حتى الآن عللوا لها تعليلا مبتورا ، في ضوء النشاط الاقتصادي الذي اتصف به عصر سلاطين المماليك ، وما حققه اولئك السلاطين من ثروات طائلة نتيجة لاحتكارهم بعض الحاصلات الاساسية في التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وبخاصة تجارة التوابل والفلفل ، وماترتب على هذا النشاط من توافر عنصر المال الذي مكن المماليك من اقامة المنشآت والمؤسسات والمشاريع الضخمة ، وتشجيع العلماء والادباء والفنانين .

هذا هو الرأي السائد في كتابات جمهرة الباحثين المحدثين . ونحن مع اعترافنا بأن الانتعاش الاقتصادي دعامة اساسية لأية نهضة حضارية ، الا انه من الاهمية بمكان ان نترك ان المال ليس الدعامة الوحيدة في بناء الحضارات ، وانما لابد ايضا من توافر الجذور أعني البيئة الحضارية والانسان المتبع . ونقصد بالبيئة الارض الطيبة ذات الامكانات الحضارية الراسخة ، وذات المناخ المناسب الذي يساعد على الانتاج ، والموقع الوسط الذي يجعل منها بابا مفتوحا على التيارات الحضارية والسياسية في العالم الخارجي . اما الانسان فنعني به العنصر البشري البناء الذي لديه الاستعداد ولديه القدرة - ليس على الانتاج فحسب - بل ايضا على الابداع . وهذا كله ما توافر لدولة سلاطين المماليك عند مولدها على ارض مصر في منتصف القرن السابع للهجرة ، الثالث عشر للميلاد .

على انه من الاهمية بمكان ان نلاحظ ان العالم الاسلامي - رغم تفتته سياسيا في ذلك الدور الاخير من العصور الوسطى - الا انه ظل في نظر المسلمين المعاصرين يمثل كلا واحدا متماسكا ، ينتقل المسلم بين ارجائه من مصر الى آخر ، وهو اينما حل انما يقيم في ديار الاسلام ويستظل بظله . وهكذا فان النهضة الكبرى التي تزعمتها مصر في عصر سلاطين المماليك أسهم في بنائها مجموعة ضخمة من أبناء مصر وغير أبناء مصر من الوافدين عليها من شتى انحاء العالم الاسلامي ، مشرقه ومغربه . فالى جانب القلقشندي والاسنوي والنويري والسخاوي . . . . . وغيرهم من أبناء مصر الذين ينسبون الى مدنها وقراها ، نسمع - من جملة من نسمع عنهم من اعلام هذه النهضة - عن ابن خلدون وابن حبيب ، وغيرهما من الاعلام الذين وفدوا على مصر في ذلك العصر من المغرب والمشرق . ويحكي ابن حجر العسقلاني عن بعض علماء الشام ، وغير الشام من بلاد الاسلام ، انهم قالوا عن بلادهم في ذلك العصر « هذا بلد ضيق عن علمي وهجروها الى مصر »[١] . وهناك فريق ثالث من العلماء ولدوا على ارض مصر ، وكان أجدادهم أو آباؤهم قد نزحوا الى مصر في مرحلة سابقة ، فنشأ هذا الفريق غير مصريين من ناحية الاصول والجذور ، مصريين من ناحية المولد والنشأة . ومن هؤلاء الحافظ شهاب الدين احمد بن علي بن حجر العسقلاني ، الذي يصف نفسه بانه « العسقلاني الاصل ، المصري المولد ، القاهري الدار » ومن هذا الفريق ايضا شيخ المؤرخين المصريين « في القرن التاسع الهجري الخامس عشر للميلاد - تقي الدين احمد بن علي المقريزي .

---

(١) ابن حجر العسقلاني : رفع الاصر عن قضاة مصر ، ورقة ١٩٥ .

ومن المتعارف عليه في المصادر المعاصرة أن أسرة المقريزى بعلبكية الاصل ، تنتسب الى حارة المقارزة ، احدى الحارات القديمة فى مدينة بعلبك . وقد نزح والده على الى مصر ، وسكن القاهرة ، حيث انجب ابنه احمد . وذكر ابن حجر انه رأى بخط المقريزى مايدل على أن ولادته كانت فى سنة ست وستين وسبعمائة هـ(١٣٦٤ ـ ١٣٦٥م) . وكان أن نشأ احمد بن على المقريزى نشأة طيبة ، فى بيئة حضارية لها طابعها الذى يختلف كثيرا عن البيئة التى عاش فيها أجداده ، فاذا كان اجداده قد عاشوا فى بعلبك ، تلك البلدة الراسخة فوق جبال الشام ، فان شهرة بعلبك فى تلك العصور لم تتجاوز الدور الذى تعبته فى الصراع بين حكام المسلمين بعضهم وبعض من ناحية ، او بينهم وبين الصليبين من ناحية اخرى . وربما كان لها دور فى حوادث زحف التتار على بلاد الشام من ناحية ثالثة . وبالتالى فان بعلبك ـ بحكم موقعها ـ كانت فى كثير من ادوار تاريخها ميدانا للصراع بين القوى المتنافسة ، أو معبرا للتجارة ، وربما مأوى لبعض الفرق الدينية ، التى تشكل اقليات متناثرة فى بلاد الشام . ولكنها فى جميع الحالات لم تكن مركزا لحركة علمية مزدهرة ، ولم نسمع عن أحد شيوخ العلم انه نزح اليها واستقر فيها ، هذا كله بالاضافة الى جوها الشديد البرودة بسبب ارتفاعها ، مما جعل منها مكانا غير مغر بالنزوح اليه والاقامة فيه .

اما المؤرخ احمد بن على المقريزى فيمتاز ويفتخر بانه ولد بين جنبات القاهرة ، وفى حى من اكثر أحيائها صخبا وامتلاء بالحياة والنشاط الاجتماعى والاقتصادى المتنوع . وقد ذكر المقريزى عن سوق حارة برجوان التى ولد ونشأ فيها ـ انه « اعظم اسواق القاهرة » ، ما برحنا ونحن شباب نفاخر بحارة برجوان سكان جميع حارات القاهرة « (٢) وكانت القاهرة ـ كما سبق أن اشرنا ـ مقصد كل مسافر طموح ، وصفها الرحالة المعاصر ابن بطوطة بانها « ام البلاد المتناهية فى كثرة العمارة ، المتناهية فى الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط الضعيف والقادر (٣) » ولذا نرجح أن عليا المقريزى ـ والد المؤرخ تقى الدين احمد ـ انما نزح من بعلبك الى القاهرة يلتمس سعة العيش ، وانه عندما استقر فيها كان يعانى ضيق ذات اليد ، بدليل ان جد تقى الدين احمد لامه ـ وهو ابن الصايغ الحنفى ـ هو الذى كفل تعليمه واشرف على تنشئته ، وفق مذهبه ، وهو المذهب الحنفى (٤)

وهكذا نشأ احمد بن على المقريزى نشأة دينية علمية ، واتاحت له ظروفه ان يرضى طموحه العلمى فتتلمذ على مجموعة من كبار علماء وشيوخ عصره الذين عجت بهم القاهرة . هذا الى انه فى تنقلاته خارج القاهرة ومصر ، التقى بكثير من العلماء . يترجم السخاوى لاحمد بن على المقريزى ، فيقول عنه انه نشأ بالقاهرة نشأة حسنة ، فحفظ القرآن وسمع جده لأمه الشمس بن الصايغ الحنفى ، والبرهان الآمدى ، والعز بن الكويك ، والنجم بن رزين ، والشمس بن الخشاب ، والتنوخى ، وابن ابى الشيخة ، وابن ابى المجد ، والبلقينى ، والعراقى ، ـ والهيثمى ، والقرسيسى ، وغيرهم . وقيل انه سمع المسلسل على العماد بن كثير .

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار (ج ٢ ص ٩٥ ، بولاق .)

(٣) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ٦٧ (طبعة باريس ١٨٨٠)

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢١ ترجمة ٦٦

ثم ان المقريزى ادى فريضة الحج ، فسمع بمكة من النشاورى والاميوطى ، والشمس بن سكر ، وابى الفضل النويرى القاضى ، وسعد الدين الاسفرايينى ، وابى العباس بن عبد المعطى . . . وجماعة » واجازله الأسنوى والأذرعى ، وأبو البقاء السبكى ، وعلى بن يوسف الزرندى ، وآخرون . ومن الشام الحافظ ابو بكر وابو العباس بن العز ، وناصر الدين محمد بن محمد بن داود وطائفة . . » (٥)

وعندما توفى والده فى سنة ست وثمانين وسبعمائة هـ ـ وكان احمد عندئذ قد جاوز العشرين من عمره ـ تحول شافعيا واستقر منذ ذلك الوقت على مذهب الشافعية . وكانت ظاهرة التحول من مذهب الى آخر منتشرة بين المعاصرين ، ولها اهميتها وخطورتها فى حياة الفرد ـ وبخاصة اذا كان من المشتغلين بالعلم او المتولين وظائف الدولة ـ ، لانه معنى اعتناق مذهب معين هو ان ينكب على دراسة اصول هذا المذهب ، ويركز فى تحصيله على استقاء العلم من شيوخه . هذا الى ان كثيرا من الوظائف ذات الصبغة الدينية كالقضاء والحسبة والنظر فى المؤسسات الدينية والخيرية ، كان يشترط فيمن يليها ان يكون من اتباع مذهب معين ، يحدده العرف ، او حجة الوقف المحبوس على ذلك المرفق او تلك المؤسسة .

وهنا الواقع ان المقريزى لم يعش فى المرحلة الاولى من حياته بعيدا عن جو الوظائف العامة وكان اول ماوليه من هذه الوظائف وظيفة موقع ـ اى كاتب ـ بديوان الانشاء بالقلعة ، وهى وظيفة لها اهميتها فى ذلك العصر لانه لايليها الا من يتمتع بمواصفات معينة ومستوى راق من العلم والاسلوب (٦) . ثم عين المقريزى بعد ذلك نائبا من نواب الحكم ـ اى قاضيا ـ عند قاضى القضاة الشافعى . وبعد ذلك تولى الخطابة بجامع عمرو ، ثم بمدرسة السلطان حسن فاما ما لجامع الحاكم مع نظر هذا الجامع ، ثم مدرسا للحديث بالمدرسة المؤيدية . ويبدو ان المقريزى حظى بمكانة خاصة عند السلطان الظاهر برقوق وابنه السلطان فرج بن برقوق ، فعينه السلطان برقوق فى وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى سنة احدى وثمانمائة هـ ، انولاها وتنحى عنها اكثر من مرة . وفى تلك الاثناء تزوج المقريزى وانجب ابنته التى ماتت بالطاعون الذى اجتاح مصر سنة ٨٠٦ هـ .

وقد دخل المقريزى دمشق مع الناصر فرج بن برقوق فى سنة عشر وثمانمائة ، وعاد معه الى مصر . وعرض عليه قضاؤها عدة مرات فأبى . ويبدو انه تردد على دمشق بعد ذلك اكثر من مرة فتولى فيها نظر وقف القلانسى والبيمارستان النورى الذى كان من شروط وقفه ان يتولى نظره قاضى دمشق الشافعى ، ولذا عينه السلطان فرج بن برقوق نائبا للحكم بدمشق ، اى قاضيا بها . وفى دمشق تولى المقريزى ايضا تدريس الحديث بالمدرستين الاشرفية والاقبالية .

ولكنه لم يلبث ان ضاق ذرعا بالمناصب ، وغلبت عليه طبيعته الهادئة ، فآثر التفرغ للاشتغال بالعلم ولذا هجر دمشق بعد ان أقام بها نحوا (من عشر سنوات ، وعاد الى مصر ، حيث « أقام ببلده (القاهرة) عاكفا على الاشتغال بالتاريخ ، حتى اشتهر به ذكره وبعد فيه صيته » (٧) . وحسب المقريزى فى حياته الوظيفية ان يقول فيه السخاوى ـ وهو الذى يكاد لم يسلم احد من قلمه ولسانه ـ « وحمدت سيرته فى مباشراته » (٨) وفى هذه المرحلة يترك المقريزى القاهرة الا

---

(٥) المصدر السابق .

(٦) المقريزى : المواعظ والاعتبار ٢ ص ٢٢٥ (بولاق)

(٧) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٢ ترجمة ٦٦

(٨) المصدر السابق

لفترة محدودة ـ تقارب خمس سنوات ـ اتجه فيها الى مكة حيث ادى فريضة الحج ، مع اشتغاله بالتدريس والتأليف فى تلك الاثناء .

وقد استهل المقريزى نشاطه فى التأليف بالشروع فى وضع موسوعة كبرى اسماها « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » وهى الموسوعة التى نسبت إليه وعرفت باسم خطط المقريزى وقد بدأ المقريزى فى كتابة خططه حوالى سنة ٨٢٠ هـ ، واستمر فى كتابتها حتى قبل وفاته بعامين أى حتى سنة ٨٤٣ هـ . وفى تلك الاثناء لم يكن المقريزى منقطعا انقطاعا تاما لتأليف هذا الكتاب وانما دون كتبا أخرى عديدة ، منها الكبير ومنها الصغير ، كما سنذكر فيما بعد . ونرى أن طول المدة التى استغرقها تأليف كتاب « المواعظ والاعتبار » يرجع الى ان هذا الكتاب ليس من كتب التاريخ العادية التى تقتصر على سرد الحوليات وأحداث السنين سنة بعد اخرى ، وانما هو بمثابة موسوعة عمرانية جغرافية ، تاريخية اقتصادية اجتماعية سياسية فنية . . بكل معانى الكلمة . تناول فيه المقريزى بلاد مصر ، فعالج مدنها وآثارها ومعالمها الرئيسية ، واصفا كلا منها وصفا دقيقا متتبعا تاريخ كل أثر من العصور القديمة ـ الوثنية او القبطية الى العصور الاسلامية ، حتى ايامه . واذا كان قد توسع فى وصف بعض مدن الوجهين البحرى والقبلى ـ وبخاصة مدينة الاسكندرية التى كانت قبل الفتح الاسلامى عاصمة مصر ، وظلت على ايام المقريزى اكبر ثغورها على البحر المتوسط ، فان خطورة هذه الموسوعة تتضح عندما ينتقل المقريزى الى الكلام عن القاهرة الكبرى ـ اى القاهرة المعزية وما يرتبط بها من فسطاط وعسكر وقطائع ـ ليدرسها دراسة مسهبة مستفيضة ، جعلت من خططه مصدرا له اهميته البالغة بين مصادر تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، وبخاصة فى عصر سلاطين المماليك ، عصر الزعامة السياسية والحضارية . (٩)

على اننا لانستطيع أن نتعرض لكتاب المواعظ والاعتبار للمقريزى دون ألا نشير الى مسألة هامة لها اهميتها ، مازال تشغل فكر الباحثين واستنفدت الكثير من جهود المؤرخين المشتغلين بتاريخ تلك الحقبة والمهتمين بالمقريزى ومكتبته التاريخية . أما هذه المسألة فهى ماوجه الى المقريزى من اتهام بأنه نقل كتابه « المواعظ » عن كتاب صنفه الاوحدى وظفر المقريزى بمسودته ، فنسب الكتاب الى نفسه (١٠) . والاوحدى هذا هو المقرىء الشافعى الاديب المؤرخ ـ أحمد بن عبد الله بن الحسن بن طوغان بن عبد الشهاب الاوحدى المتوفى سنة ٨١١ هـ . ترجم له السخاوى فقال عنه « . . . اعتنى بالتاريخ ، وكان لهجا به . وكتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة ، تعب فيها وافاد واجاد ، وبيض بعضها ، فبيضها المقريزى ونسبها لنفسه مع زيادات » (١١)

واذا كان السخاوي قد ساق هذا الاتهام دون سند في ترجمته للاوحدى ، فانه ذكر في موضع آخر من مؤلفاته انه استقى هذا الاتهام من شيخه ابن حجر العسقلاني . يقول السخاوي « وكذا جمع خططها المقريزي وهو مفيد . قال لنا

(٩) طبع كتاب المواعظ للمقريزى طبعتين ، الأولى ، وهى الطبعة ـ طبعة بولاق سنة ١٢٧٠ هـ فى جلدين كبيرين . والطبعة الثانية هى الطبعة الأهلية فى أربعة أجزاء (القاهرة ١٩٠٧ م)

(١٠) تعرض لهذه المسألة من المستشرقين كل من كاترمير ، وبروكلمان ، ووست ، وجاستون فييت . ومن المؤرخين العرب المحدثين كل من اساتذنا المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة (المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ص ١٠ وما بعدها ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٥٤) والاستاذ الجليل محمد عبد الله عنان (دراسات عن المقريزى ـ مجموعة أبحاث صدرت ضمن سلسلة المكتبة العربية عن وزارة الثقافة بجمهورية مصر العربية ، بالتعاون مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ القاهرة ١٩٧١)

(١١) السخاوى : الضوء اللامع ج ١ ص ٣٥٨

شيخنا (ابن حجر) انه ظفر به مسودة لجاره الشهاب احمد بن عبد الله ابن الحسن الاوحدي ـ بل كان يبض بعضه ـ فاخذها وزاد عليها زيادات ونسبها الى نفسه »[١٢]

وهذه القضية الخطيرة ـ التي وقف أمامها معظم الباحثين وقفة تردد ـ والتي قال فيها المستشرق كاترمير « يحسن ان نغض النظر عن هذه القضية ، ونتجنب الادلاء فيها برأي قاطع »[١٣] نعتقد انه قد آن الاوان لتصدر فيها حكما فاصلا بجرأة وأمانة ، لان مثل هذه الامور لاينبغي أن تترك معلقة . وليس اخطر في مثل هذه القضايا التاريخية من اصدار الاحكام العشوائية التي لاسند لها الا العاطفة ، ولذا نمهد لحكمنا بابراز الحيثيات الآتية :

اولا : الادانة لاتكون على اساس اتهام أتى في صورة كلمات عابرة اطلقها رجل في حق زميل له في المهنة ، مع ماكان معروفا بين المشتغلين بالمهنة الواحدة ـ ومن جملتهم العلماء ـ من تحاسد . لو كان أحد الثقات من المعاصرين قد شارك السخاوي فيما وجهه الى المقريزي من اتهام ، لصار لزاما علينا أن ناخذ هذا الاتهام بعين الجدية . أما وقد انفرد به السخاوي وحده ـ وهو الكاتب السباب المولع بتجريح الرجال ، والذي يكاد لم ينج أحد ـ حتى ابن خلدون ـ من رشاش قلمه ، فان الامر في نظرنا يحتاج الى وقفة طويلة للتدبر والتمحيص . كيف نأخذ بشهادة رجل واحد قال فيه معاصره السيوطي : « ماترون في رجل الف تاريخا جمع فيه اكابر واعيانا ، ونصب لأكل لحومهم خوانا ، ملاه بذكر المساويء وثلب الأعراض . وفرق فيه سهاما على قدر أعراضه ـ والاعراض هي الأغراض ـ جعل لحم المسلمين جلة طعامه وادامه ، واستغرق في اكلها أوقات فطره وصيامه . . »[١٤] أما ابن اياس ـ المؤرخ المعاصر المتزن ـ فقد اشار الى السخاوي وكتابه « الضوء اللامع » فقال « الف تاريخا فيه الكثير من المساويء في حق الناس »[١٥]

اذا كان هذا هو حكم المعاصرين على السخاوي ، ونظرتهم الى كتاباته واحكامه ، فهل تؤخذ شهادته في حق عالم جليل مثل المقريزي على محمل الجدية ، دون سند او دليل او قرينة ؟؟

ثانيا : والغريب ان السخاوي الذي انفرد بتوجيه هذا الاتهام الى المقريزي هو نفسه الذي يقول عن المقريزي ـ في ترجمته له ـ انه نشأ نشأة حسنة وانه « شارك في الفضائل » وانه « حمدت سيرته في مباشراته » وانه « كان كثير الاستحضار للوقائع القديمة » وانه اتصف « بحسن الخلق وكرم العهد وكثرة التواضع وعلو الهمة لمن يقصده ، والمحبة في المذاكرة والمداومة على التهجد والاوراد ، وحسن الصلاة ، ومزيد الطمأنينة فيها ، والملازمة لسنته . . » ؟؟ فكيف تتوافر هذه الصفات كلها لشخص متهم بسرقة ماللغير ونسبته الى نفسه

حقيقة ان هذا الاطراء من جانب السخاوي لم يأت خالصا نقيا ، وانما مشوبا ببعض الغمز واللمز ، كأن يقول فيه « وكان حسن المذاكرة بالتاريخ لكنه قليل المعرفة بالمتقدمين ، ولذلك يكثر له فيهم وقوع التحريف والسقط ، وربما

(١٢) السخاوي : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التواريخ ـ ص١٢

(١٣) Quatremere : Mamlouks, I, I, P x 111

(١٤) السيوطي : الكاوي على السخاوي (مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ١٠١٠ أدب)

(١٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص٣٢٩ (طبعة بولاق ١٨٨٦ م)

صحف في المتون ، اوكأن يقول فيه « كان كثير الاستحضار للوقائع القديمة في الجاهلية وغيرها ، اما الوقائع الاسلامية ، ومعرفة الرجال واسمائهم والجرح والتعديل والمراتب والسير وغير ذلك من اسرار التاريخ ومحاسنه فغير ماهو فيه » وهكذا فان طبيعة السخاوي في تجريح الرجال تغلب عليه ، فلا يستطيع ان يمتدح انسانا دون ان يلمزه ولا ان يثني على عالم دون ان ينتقص من قدره .

فاذا اراد السخاوي ان يتصيد هفوة في كتابات المقريزي ، فانه يقول : « وربما صحف في المتون . ومما رأيته بخطه في ذلك (ابن البدر) وهو بفتح الموحدة والدال المهملة فضبطه بخطه بالبدل . و (علي بن منصور الكرجي شيخ السلفي) وهو بالجيم فضبطه بالخاء المعجمة . وكثيرا مايجعل (عبد الله) عبيد الله ، وعكسه . بل وبلغني أنه جعل (أباطاهر بن محمش) ـ راوي الحديث المسلسل بالاولية ـ حين حدث به ـ بالخاء المعجمة بدل المهملة »

وهكذا نسي السخاوي ـ أو تناسى أن المؤلف عندما ينهمك في الكتابة كثيرا مايهتم بتسجيل الافكار والمعلومات ، قبل أن تتطاير اكثر مما يهتم برسم الحروف ، كما نسي أن لكل مؤلف مصادره التي يرجع اليها وهذه المصادر لاتسلم غالبا من تحريف الناسخين . ولاندري كيف يتفق هذا النقد مع قول السخاوي نفسه عن المقريزي « وقد قرأت بخطه أن تصانيفه زادت على مائتي مجلدة كبار وان شيوخه بلغت ستمائة نفس »

ثالثا : ان المتتبع لكتابات السخاوي يكتشف أنه عندما تجرفه طبيعته الى الرغبة في اتهام بريء او تجريح عالم أو النيل من انسان لاغبار عليه فانه كثيرا مايغفل خلف شيخه واستاذه ابن حجر « فيقول « قال شيخنا » ، « وترجمه شيخنا في معجمه فقال . . . » هذا غالبا هو أسلوبه في نقد معظم من تقدمهم من الاعلام ، ومن بينهم ابن خلدون والمقريزي ولكننا نتتبع كتابات شيخه ، فلا نجد الا قلما عفا واسلوبا مهذبا ، واذا استدعى الامر ـ احيانا ـ نقدا هادئا بعيدا عن القذف والتجريح . وعندما يتعرض ابن حجر لذكر تقي الدين المقريزي فانه لايذكره الا بكل تقدير واجلال . بل يصر ابن حجر ـ في اكثر من موضع من كتابته ـ على وصف المقريزي بأنه صديقه المقرب . ولنا أن نسأل السخاوي كيف ارتضى استاذه وشيخه ان يصادق انسانا خرب الذمة يعرف عنه انه سرق كتابا لغيره ونسبه الى نفسه ؟ وكيف ارتضى استاذه لنفسه ان ينافق ضميره فيصف المقريزي بحسن الخلق وهو يعلم انه خرق العهد وخان الأمانة واستولى على مالغير دون وجه حق . اليس شهاب الدين ابن حجر العسقلاني هو الذي قال عن صديقه احمد بن علي المقريزي « وفي الاكثر هو مؤثر للانجماع بمنزله مع حسن الخلق وكرم العهد ، وصدق الود . وبيننا من الود مالايسعه الورق . الله تعالى يديم النفع به »[١٦]

اليس ابن حجر هو الذي افتتح كتابه « رفع الاصر عن قضاة مصر » بالاشارة الى المقريزي بوصفه مصدرا من المصادر التي استقى منها مادة كتابه ، فقال عنه « رفيقي الامام الاوحد المطلع تقي الدين المقريزي »[١٧]

---

(١٦) ابن حجر : المجمع المؤسس والمعجم المفهرس ـ ورقة ٣٧١ (مخطوطة بدار الكتب المصرية) .

(١٧) ابن حجر : رفع الاصر عن قضاة مصر (مخطوطة بدار الكتب المصرية ١٠٥ تاريخ) .

اليس ابن حجر هو الذي ترجم للمقريزي في الصفحات الاخيرة من موسوعته « انباء الغمر » فقال عنه « وكان اماما ، بارعا مفتنا ، متقنا ، ضابطا ، دينا ، خيرا ، محبا لاهل السنة ، يميل الى الحديث والعمل به . » (١٨)

واخيرا ، اليس السخاوي نفسه هو الذي كتب عن شيخه واستاذه ابن حجر انه وصف المقريزي بانه صاحب « النظم الفائق ، والنثر العابق ، والتصانيف الباهرة ، خصوصا في تاريخ القاهرة ، فانه أحيا معالمها ، وأوضح مجاهلها ، وجدد مآثرها ، وترجم أعيانها »(١٩) .

ومن الواضح ان الاشارة في العبارة الأخيرة الى مآثر المقريزي في كتابته عن القاهرة يقصد بها ماكتبه عنها في خططه . فكيف يصف ابن حجر المؤرخ تقي الدين المقريزي بأنه أحيا معالم القاهرة واوضح مجاهلها . . وهو يعلم ان ماكتبه عن القاهرة وخططها مسروق عن الأوحدي ؟؟

رابعا :

واذا افترضنا أن الأوحدي قد كتب مؤلفا في خطط مصر والقاهرة وان المقريزي رجع الى هذا الكتاب وأفاد منه فانه لم يفعل بذلك غير ماكان يفعله غيره من جمهرة العلماء المعاصرين ، ان لم يكونوا كلهم دون استثناء . ذلك أن الوضع جرى في تلك العصور على ان يستعين المؤرخ ـ على وجه الخصوص ـ بكتابات من سبقه . ولذا نجد الجزء الجديد المبتكر في كتابة اي مؤرخ هو الجزء الذي عاصر المؤرخ احداثه وشاهدها عن كثب ، وسمع بها عن قرب ، ان لم يكن قد شارك بنفسه في صنع بعضها . ولو اتجهنا الى اتهام اي مؤرخ أخذ عن سابقيه ومعاصريه بالسرقة ، لما بقي مؤرخ من مؤرخي الاسلام ـ بعد القرن الرابع للهجرة ـ لاتقع عليه هذه التهمة ، ولأدين الجميع دون استثناء بمن فيهم السخاوي نفسه ، وشيخه ابن حجر ، وعلى سبيل المثال : لماذا لانتهم مؤرخا عملاقا مثل ابن الأثير بالسرقة لانه افاد من الطبري وغير الطبري من المؤرخين السابقين ؟

خامسا :

ومن هذا المنطلق نرى المقريزي يتتبع في خططه كل أثر ، فيذكر تاريخه السابق ، وماطرأ عليه من تطورات عبر العصور ، ويترجم للاشخاص الذين يرتبط ذلك الاثر بهم ـ من مؤسسين ومصلحين وغير ذلك ـ ويشير خلال ذلك الى المصادر والكتب التي رجع اليها وافاد منها ، حتى يصل الى ايامه فيذكر ما شاهد عليه هذا الأثر او ذاك من احوال والكيفية التي ادركه عليها . . . وبذلك يضرب مثلا اعلى في الامانة والدقة والمثابرة في التقصي والاستقصاء .

وعلى سبيل المثال فهو يتتبع تاريخ جامع ابن عبد الظاهر ، ويترجم لصاحب هذا الجامع ومايزال يتتبع المراحل التي مربها حتى يصل الى عصره ، فيقول « وهو اليوم قائم على اصوله »(٢٠) . وعندما يتكلم عن جامع القلعة يتتبع تاريخه الى أن يقول « وبه الى اليوم يصلي سلطان مصر صلاة الجمعة »(٢١) بل انه في كلامه عن الجامع الاشرفي يتتبع ما اجرى

---

(١٨) ابن حجر : انباء الغمر بأبناء العمر ـ وفيات سنة ٨٤٥ هـ ـ ج ٩ ص ١٧٢ طبعة حيدر أباد ١٩٧٦)

(١٩) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ ترجمة ٦٦ ، أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي .

(٢٠) المقريزي : المواعظ ، ج ٢ ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ (بولاق) .

(٢١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٢٥ (بولاق)

فيه من زيادات واصلاحات حتى سنة ٨٢٧هـ ، أي بعد وفاة الاوحدى بستة عشر عاما فكيف يقال انه نقل كتابه عن الاوحدى ؟ (٢٢) كذلك في كلامه عن المدرسة القمحية يشير الى ماطرأ على الاوقاف الموقوفة عليها سنة ٨٢٥ هـ ، أي بعد وفاة الاوحدى باربعة عشر عاما (٢٣) وعندما يعالج الرخاب ، يقول عن رحبة باب العيد هذه الرحبة كان اولها من باب الريح أحد أبواب القصر الذي ادركنا هدمه . . (٢٤) وعندما يتكلم عن باب النصر ، يقول ابن بدر الدين الجمالي « عندما عمر سور القاهرة نقل باب النصر من حيث وضعه القائد جوهر الى حيث هو الآن ، فصار قريبا من مصلى العيد ، وجعل له باشورة ادركت بعضها . . (٢٥) ، فاذا لم يستطع المقريزي أن يحدد موقع أثر من الآثار الخالية او ذكر معلومة عنه ، توقف وقال « والله اعلم » (٢٦) .

سادسا : لم ينكر المقريزى اتصاله بالأوحدى ، وهو بذلك لم ينف انه قد يكون قد استفاد منه (٢٧) وفي الوقت نفسه فان المقريزى حرص على أن يوضح في تقديمه لكتاب المواعظ المصادر التى اعتمد عليها وافاد منها ، فقال في امانة وصراحة :

« واما أنى أنحاء التعاليم التى قصدت فى هذا الكتاب ، فانى سلكت فيه ثلاثة أنحاء ، وهى : النقل من الكتب المصنفة فى العلوم ، والرواية عمن أدركت ، والمشاهدة لما عاينته ورأيته . فأما النقل من دواوين العلماء التى صنفوها فى انواع العلوم ، فانى اعزو كل نقل الى الكتاب الذى نقلت منه ، لاخلص من عهدته وابرأ من جريرته . . وحسب العالم ان يعلم ماقيل فى ذلك ويقف عليه . وأما الرواية عمن أدركت من الجلة والمشايخ ، فانى فى الغالب والاكثر اصرح باسم من حدثنى ، الا أن لايحتاج الى تعيينه او اكون نسيته ، وقل ما يتفق مثل ذلك ، وأما ما شاهدته ، فانى ارجو ان اكون ـ ولله الحمد ـ غير متهم ولا ظنين » .

فهل هناك توثيق للمصادر التى يعتمد عليها باحث ، وتحديد للمراجع التى رجع اليها وافاد منها اكثر من هذا التوثيق وذلك التحديد ؟ مع ملاحظة مستوى العصر الذى عاش فيه المقريزى وما اتصف به ذلك العصر من منهج خاص واسلوب معين فى البحث والتسجيل .

سابعا : ولا أدل على أمانة المقريزى والمامه بجهود السابقين وآثارهم ، من انه حرص على ان يذكر أسماء من سبقوه من العلماء والمجتهدين فى ميدان الخطط ، مركزا على الكندى والقضاعى وابن بركات النحوى والجوانى وابن عبد الظاهر وابن المتوج . ويقف عند ابن المتوج بالذات ـ وليس الأوحدى ـ ليقول انه كان آخر من كتب قبله عن الخطط ، وانه يصل فى كتابه الى ذكر أحوال مصر وخططها الى اعوام بضع وعشرين وسبعمائة .

---

(٢٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ (بولاق)
(٢٣) المصدر السابق ، ج ، ص ٣٦٤ (بولاق)
(٢٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٧ (بولاق)
(٢٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٨١ (بولاق)
(٢٦) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤١٣ (بولاق)
(٢٧) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٢٨٩ ، ج ١ ص ١٢ (بولاق)

واذا افترضنا - جدلا - أن المقريزى أخذ عن الأوحدى ، فماذا يضيره أو يقلل من قيمة عمله ، طالما انه لم يقتصر على ماذكره الاوحدى ، وانما استعان بمن سبقوا الاوحدى فى كتابة خطط مصر والقاهرة . هذا الى ان السخاوى عندما اتهم المقريزى بأنه نقل ماكتبه الأوحدى قال ان ذلك تم « مع زيادات » وطالما اننا لم نعثر على ماكتبه الأوحدى ، فمن يدرينا ان تكون هذه الزيادات هى لب اللباب ، وانها الجوهر الثمين فيما سجله المقريزى ؟

ومن يتتبع اسلوب المقريزى فى المواعظ يدرك ان طريقة الاسناد التى اتبعها فى ذكر المعلومات والروايات ، لايمكن ان تتفق مع فكرة نقل الكتاب عن الغير ، وخاصة ان بعض تلك الروايات سمعها المقريزى بأذنيه وأسندها الى من رواها له . فهو على سبيل المثال يصف قيسارية جهاركس فيقول « ورأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون لم ترق شىء من البلاد مثلها فى حسنها وعظمها » ثم يتابع كلامه فيقول « قال الحافظ جمال الدين يوسف بن احمد ابن محمود اليغمورى : سمعت الامير الكبير . . » (٢٨) وفى كلامه عن الاسواق يقول فى ذكر القصبة « سمعت غير واحد ممن ادركته من المعمرين يقول ان القصبة تحتوى على اثنى عشر الف حانوت . . » وعندما يتكلم عن الحارة المحمودية يقول « ذكرها المسبحى فى تاريخه مرارا ، قال فى سنة اربع وتسعين وخمسمائة . . . »[29]

ومرة اخرى نؤكد أن خطط المقريزى عبارة عن موسوعة كبرى عالج فيها الجوانب العمرانية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية ، فضلا عن التاريخ بمعناه الكبير الواسع وحرص فى تأريخه لعصور مصر الاسلامية حرص على ان يشير فى كل موضع الى مؤرخى ذلك العصر الذين أخذ عنهم وافاد منهم . فاذا تعرض لأوضاع مصر فى فجر الاسلام فانه يشير الى ابن عبد الحكم وابن يونس والمسعودى ، ويعالج تاريخ الفسطاط منذ انشائها فيشير الى الكندى وابن زولاق . فاذا تعرض للطولونيين والاخشيديين ومدينة القطائع ، أشار الى البلوى وابن يونس والكندى . وعند تأسيس القاهرة والكلام عن الفاطميين وآثارهم يشير الى ابن زولاق والمسبحى وابن المأمون والجوانى وغيرهم من اعلام ذلك العصر . ويتدرج الى العصر الأيوبى ، فيركز على القاضى الفاضل واليغمورى وعماد الدين الاصفهانى . وفى العصر المماليكى الاول يشير الى محيى الدين بن عبد الظاهر وابن المتوج ، فضلا عن معاصريه من المعمرين ومن سمعوا عنهم ، كأن يقول « اخبرنى شيخنا قاضى القضاة مجد الدين اسماعيل بن ابراهيم الحنفى وخال أبى تاج الدين اسماعيل بن احمد ابن الخطباء أنها أدركا بكوم الريش عدة امراء يسكنون فيها دائما . . . »[30]

والواقع ان هذا هو منهج المقريزى فى كافة مؤلفاته وكتبه ، وليس فقط فى كتاب المواعظ كما سنذكر فيما بعد .

ثامنا : ان المتأمل فى انتاج المقريزى يدرك أنه أحد العلماء الموسوعيين الذين يفخر بهم عصر سلاطين المماليك . حقيقة ان انتاجه الخصب ينصب بصفة اساسية على تاريخ مصر الاسلامية ، ولكنه حرص فى هذا المجال على أن يغطى جميع حلقات ذلك التاريخ ، بحيث خصص لكل حلقة مؤلفا قائما بذاته . من ذلك أنه وضع كتابا فى اخبار مدينة الفسطاط

---

(٢٨) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٩٧ (بولاق)

(٢٩) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٠١ (بولاق)

(٣٠) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٠ (بولاق)

يغطى تاريخ مصر منذ الفتح العربي الاسلامى حتى قيام الدولة الفاطمية . ووضع كتاب (اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا) يغطى تاريخ مصر فى العصر الفاطمى . ووضع كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » يغطى تاريخ دولتى الأيوبيين والمماليك .

فهل من الصعب على عالم واسع المعرفة متنوع الثقافة مثل المقريزى أن يؤلف كتابا فى خطط مصر والقاهرة ، هو فى جملته موسوعة فى تاريخ مصر وأوضاعها العمرانية فى العصور . الاسلامية ؟

تاسعا : لو كان المقريزى قد نقل كتابه عن غيره ، ولو كان كتاب الخطط المقريزية مسروقا عن مسودة للأوحدى ، لما احتاج صاحبه فى نقله (وتبييضه) الى تلك السنين الطويلة التى استنفدها وضع الكتاب المذكور . فالمعروف أن المقريزى افنى عمره فى وضع كتاب المواعظ والاعتبار فبدأ فى تأليفه عام ٨٢٠ هـ وفرغ منه عام ٨٤٣ هـ أي قبل وفاته بعامين ومعنى ذلك أنه قضى فى تأليف هذا الكتاب نحوا من ربع قرن . فهل يتطلب نقل مسودة كل هذا العمر الطويل ؟

عاشرا : واخيرا ، فان السخاوى الذى انفرد بتوجيه هذه التهمة الى المقريزى ، هذا السخاوى نفسه لم يستطع ـ رغم نزعته الهدامة عندما يتعرض لسير الرجال ـ أن يخفى اعجابه بالمقريزى ، فألف كتابا اسماه « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » وهو كتاب ضخم فى أربعة اجزاء (٣١) وكما يتضح من عنوان الكتاب ، فان السخاوى وضعه تكملة وذيلا لكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى . ولنا أن نتساءل : اذا كان المقريزى غير امين واذا كان ـ كما وصفه السخاوى ـ غير ماهر فى (الوقائع الاسلامية ومعرفة الرجال واسمائهم والجرح والتعديل والمراتب والسير وغير ذلك من أسرار التاريخ ومحاسنه) فلماذا وقع اختيار السخاوى على كتاب المقريزى بالذات دون غيره من عشرات الكتب التاريخية التى عالجت تاريخ نفس الحقبة فى القرن التاسع الهجرى ـ ليضع ذيلا له ؟

وبعد ، فاننا نرجو أن تكفى هذه الحيثيات لاصدار حكم عادل فى قضية ظلت معلقة بضعة قرون ، وتخوف معظم الباحثين المحدثين من البت فيها بقرار حاسم ، ومن جملة هؤلاء الباحثين بعض شيوخنا وأساتذتنا ، غفر الله لهم ولنا .

ومهما يكن من أمر ، فان كتاب « المواعظ والاعتبار » المعروف باسم « خطط المقريزى » يعتبر دون شك درة فريدة تزدان بها المكتبة العربية فى حقل الدراسات التاريخية ، لانه يسد فراغا أساسيا ، بحيث لايمكن الاستعاضة عنه ـ فى كثير من المعلومات التى انفرد بها دون غيره ـ باى كتاب أو مصدر آخر ، مع كثرة المصادر المعاصرة وتنوعها .

على انه اذا كان تقى الدين احمد المقريزى قد استهل انتاجه العلمى بالشروع فى تأليف كتاب المواعظ والاعتبار ، فانه كثيرا ما أحس أثناء وضع هذا الكتاب أن بعض المعلومات التى جاءت فيه تحتاج الى مزيد من الشرح والتفصيل . لذلك شرع أثناء مسيرته فى تأليف الكتاب فى وضع سلسلة من المؤلفات « قصد فى كل منها أن يشرح ما اجمله من اخبار الدول الاسلامية المصرية التى تناولها قبلا فى بكر مؤلفاته » (٣٢)

(٣١) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك (بولاق ١٨٩٦) انظر ايضا محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ١٠ ـ ١٢

(٣٢) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ١٣

وقد قسم بعض الباحثين المحدثين[٣٣] مؤلفات المقريزى الى قسمين : كتب موسوعية ضخمة، واخرى تخصصية صغيرة . القسم الاول يعضه عنى فيه المقريزى بالتاريخ العام ، مثل كتاب (الخبر عن البشر) وكتاب (الدرر المضيئة فى تاريخ الدول الاسلامية) وكتاب (امتاع الاسماع بما للرسول من الانباء والاحوال والحفدة والمتاع) . والبعض الآخر ركز فيه المقريزى على تاريخ مصر الاسلامية ، وتراجم المشاهير من اهلها وابنائها . ومن هذا البعض كتاب (المقفى الكبير) فى تراجم أهل مصر والوافدين عليها ، وكتاب (درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة) وهذان الكتابان فى التراجم ، خصص اولهما لتراجم البارزين من أهل مصر ، والذين وفدوا عليها وأقاموا فيها منذ الفتح العربى الاسلامى . والثانى خصصه المقريزى لتراجم المشاهير من معاصريه .

أما فى تاريخ مصر السياسى ، فقد ألف المقريزى ثلاثة كتب تغطى تاريخها منذ الفتح العربى حتى أيامه : الاول كتاب (عقد جواهر الاسفاط فى تاريخ مدينة الفسطاط) ويعالج تاريخ مصر الاسلامية حتى بداية العصر الفاطمى . والثانى كتاب (اتعاظ الحنفا بذكر الائمة الفاطميين الخلفا) ، وقد عالج فيه تاريخ مصر الفاطمية . أما الثالث فهو كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) وقد أرخ فيه المقريزى لمصر منذ بداية الدولة الايوبية حتى قبيل وفاته فى سنة ٨٤٥ هـ (٣٤) . وهذه الكتب الثلاثة الاخيرة التى خصصها المقريزى لعلاج تاريخ مصر السياسى فى العصور الاسلامية ، يكملها الكتاب الذى أفرده لعلاج تاريخ مصر العمرانى ، ونعنى به كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) وهو موسوعة تاريخية سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية ، ثقافية فنية ... بكل معانى الكلمة .

أما عن الكتب التخصصية الصغيرة ، فانها رغم صغر حجمها كبيرة القيمة ، لأن كلا منها عبارة عن رسالة قيمة عالج فيها المقريزي مشكلة من مشاكل التاريخ أوجانبا مهملا من جوانبه أوطرفة من طرف المعرفة ، بحيث يسد كل منها ثغرة احس بوجودها في عالم الفكر والمعرفة [٣٥] واذا كانت موسوعات المقريزي ومؤلفاته الكبيرة تموج بتفاصيل احداث التاريخ واعمال الخلفاء والسلاطين والملوك وتراجم المشاهير من الحكام والامراء والعلماء والتجار ، فان كتبه الصغرى لاتتسع لكل ذلك .ولذا نجدها تتصف بالتركيز والايجاز ، ويغلب عليها أن يتعرض كل كتاب منها لمشكلة معينة في التاريخ الاسلامي . فكتاب (النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم) يعالج مشكلة قديمة في التاريخ . وكتاب (الالمام باخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام) وكذلك كتاب (الطرفة الغريبة من أخبار حضرموت العجيبة) يعالجان بعض الجوانب المهملة في التاريخ الاسلامي . اما كتاب « الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك »

---

(٣٣) جمال الدين الشيال : مؤلفات المقريزى الصغيرة ، بحث فى كتاب (دراسات عن المقريزى) التى سبقت الاشارة اليه ، ص ٣٣ وما بعدها .

(٣٤) يقع كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك فى أربعة أجزاء ضخمة ، وقد تم تحقيقه ونشره فى اثنى عشر مجلدا ، كل جزء فى ثلاثة أقسام ، وكل قسم فى مجلد قائم بذاته . وقد حقق الجزءين الأول والثانى فى ستة مجلدات استاذنا المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة (دار التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة)
وقام تلميذه من بعده بتحقيق الجزءين الثالث والرابع ، حتى نهاية الكتاب ، فى ستة مجلدات أخرى ، صدرت عن مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية (١٩٧٠ - ١٩٧٢) وللأسف لم نعثر على الكتاب مكتملا بأجزائه الأربعة ومجلداته الاثنى عشر فى احدى مكتبات دولة الكويت ، فاضطررنا أثناء كتابة هذا البحث الى الرجوع فى الجزءين الثالث والرابع الى صورة ميكروفيلم تحتفظ بها للمخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٣٣٣٧ . وأشرنا الى ذلك فى مواضع البحث .

(٣٥) من بين المهتمين من مؤلفات المقريزى ، زميلنا الراحل وأخونا الكبير المرحوم جمال الدين الشيال ، اذ عكف على تحقيق ونشر بعضها فى سلسلة صدرت بعنوان مكتبة المقريزى الصغيرة (دار التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) كذلك كتب بحثا بعنوان (مؤلفات المقريزى الصغيرة) سبق أن أشرنا اليه .

وكتاب تراجم ملوك الغرب ، فيعرِّفان بمجموعة من ملوك الاسلام ربط بينهم نشاط واحد او ركن واحد من اركان الدولة الاسلامية البعيدة .

وهناك من هذه الكتب الصغيرة ماقصد به المقريزي القاء الضوء على بعض الأوضاع المعاصرة مثل كتاب « البيان والاعراب عمن نزل أرض مصر من الاعراب » وهو يعرف بالقبائل العربية المنتشرة في مصر على ايام المؤلف . بل ان المقريزي تناول في بعض هذه الكتب جوانب من العلوم البحتة ، فهو في كتابه « المقاصد السنية لمعرفة الاجسام المعدنية » يتكلم عن المعادن والاجسام المتولدة من الابخرة والادخنة المحتبسة في الارض ويفرق بين المعادن القابلة للطرق ـ وهي الذهب والفضة والنحاس الرصاص والحديد والاسرب والخارصين ـ والمعادن غير القابلة للطرق بسبب ليونتها ـ كالزئبق ـ او الاجسام الصلبة التي تتعرض للكسر في حالة الطرق ، مثل اليواقيت والشب والنوشادر .

ومن أمثلة هذا النوع من الكتب ـ أو الرسائل العلمية ـ التي ألفها المقريزي كتاب (نحل عبر النحل) ، الذي يتعرض بالشرح فيه للنحل وانواعه ومراحل نموه وطباعه والوانه وأحجامه ، ثم ينتقل الى بيوت النحل أو خلاياه ، فيتكلم عن مواضعها في الجبال والسهول وانواعها ، ويصف أشكالها وطريقة العمل فيها . وبعد أن يوضح الآفات التي يتعرض لها النحل ، ينتقل الى عسل النحل وانواعه وفوائده والوانه ، ويربط ذلك كله بالزهور التي يعيش عليها النحل واثر كل منها في نوع العسل الذي يخرجه .

والمقريزي عندما يتكلم في هذه الكتب العلمية عن جانب معين من جوانب العلوم لايفوته ان يربط كلامه بالحياة الواقعية والاقتصادية . فهو في كلامه عن المعادن يشير الى مالها من أهمية اقتصادية في حياة الناس .

وعندما يتكلم عن النحل يوضح القيمة الاقتصادية للعسل ـ وبخاصة في العصور الوسطى ـ وكيف انه يشكل مصدرا هاما لايرادات الدولة ، لانه يدخل في المعاملات السلطانية والجهات الديوانية . هذا فضلا عن الشمع الذي يستخرج من بيوت النحل ، وماكان له من دور كبير في الحياتين العامة والخاصة ، بوصفه المصدر الاساسي للاضاءة عندئذ ، حتى ان سوقا كبيرا من أسواق القاهرة ـ عرف باسم سوق الشماعين ـ تخصص في تجارة الشموع وحدها .

على أن أهم مؤلفات المقريزي الصغيرة ـ في نظرنا ـ هو دون شك كتاب (اغاثة الأمة بكشف الغمة) ، نظرا لماله من قيمة اقتصادية واجتماعية كبيرة ، ولأن المقريزي ضمنه كثيرا من الآراء والنظريات التي سبق بها عصره بكثير . وفي هذا الكتاب يتعرض المقريزي لتاريخ المجاعات والاوبئة التي اصابت مصر وأهلها منذ القدم ، وحتى المجاعة الشديدة التي عاصرها (٧٩٦ ـ ٨٠٨ هـ) والتي فقد في الطاعون الذي صحبها ابنته الوحيدة سنة ٨٠٦ هـ . ويبدو أن هذه المحنة التي ابتلي بها المقريزي جعلته يتحمس لتأليف الكتاب المذكور ، حتى أنه ماكاد ينكب على تأليفه عقب وفاة وحيدته ، حتى فرغ منه بعد قرابة العام ، وعندئذ يقول عن نفسه انه عكف على « ترتيب هذه المقالة وتبليها في ليلة واحدة من ليالي المحرم سنة ثمان وثمانمائة »

وترجع أهمية كتاب « اغاثة الامة » الى انه دراسة ناقدة تحليلية ، يغلب عليها الطابع الاقتصادى الاجتماعى . ومن خلال هذه الدراسة ينتقد المقريزى كثيرا من الاوضاع القائمة فى الدولة وما يرتبط بها من سوء تصرفات الحكام ، ويرجع الازمات الاقتصادية التى تحل بالبلاد الى تلك الاوضاع والتصرفات . وفى الوقت نفسه نرى المقريزى يحلل تلك الازمات تحليلا اقتصاديا يجمع بين العمق والايجاز ، ويشرح مالها من آثار اقتصادية واجتماعية ، مما يجعل من كتابه هذا ظاهرة فكرية لها أهميتها وخطورتها فى عصر سلاطين المماليك .

على أن عظمة المقريزى وزعامته لمؤرخى عصره لاتنبع من كثرة مؤلفاته وتنوع مواضيعها ، ومثابرته على الكتابة والتأليف ، بقدر ماتنبع من منهجه فى كتابة التاريخ . ونستطيع أن نحدد اركان هذا المنهج فى الجوانب الآتية : ـ

أولا : أمانة العرض ، والقدرة على التجرد من الاهواء ، وعدم التعصب لرأى أو التحيز لفكر مع عفة القلم واحترام الغير .

واذا كانت الامانة صفة لازمة لكل عالم ، فانها ألزم للمؤرخ منها لأى عالم آخر . والمؤرخ عند ما يروى رواية عن الغير ينبغى أن يحافظ عليها كما هى . واذا روى بعض مشاهداته عليه أن يكون دقيقا فيما يسجله ، لأن هذه الرواية او تلك ستكون مع الايام سجلا ومرجعا يعتمد عليه اللاحقون . وربما ضاع الاصل الذى استقى منه المؤرخ روايته ، وعندئذ تبقى العبارات التى سجلها المؤرخ مصدرا وشاهدا على التاريخ . والمؤرخ شاهد على الناس ـ الموتى والاحياء ، شاهد على الماضى والحاضر ، والشهادة فى الاسلام لها اصولها وآدابها[٣٦]

وبمقارنة كتابات المقريزى بما دونه غيره من المؤرخين المعاصرين ، نجده اكثرهم اعتدالا ، وأوفرهم دقة ، وأبعدهم عن الاستجابة للأهواء والميول والنزوات . هذا بالاضافة الى أنه فى كتابته للتراجم والسير نراه دائما متحكما فى قلمه ، يحترم الصغير والكبير سواء ، عفيف اللفظ والكلمة . حتى فى نقده لمن يستحق النقد يبدو المقريزى متحرزا منضبطا يخشى الله فيما يقول ، ولايتخذ من التاريخ اداة لتجريح الناس ونهش اعراضهم والكشف عن خباياهم .

ولايخفى عنا أن المقريزى عاش فى عصر كثر طواله التحاسد بين العلماء ، وتعرض بعضهم لبعض بالذم والاساءة . ولكن المقريزى ظل بعيدا عن الخوض فى ذلك المستنقع ، مكتفيا عند الشروع فى تأليف كتاب بأن يدعو الله « أن يجعل هذا الكتاب بالقبول عند الجلة والعلماء كما اعوذ به من تطرق أيدى الحساد اليه والجهلاء ، وان يحفظ فيه ـ وفيما سواه من الاقوال والافعال ـ الى سواء السبيل »[٣٧] .

وحسبنا الفارق بين هذا النهج المعتدل ، وبين ما كان عليه مؤرخ آخر معاصر كالسخاوى ، وصفه معاصره السيوطى بأنه ألف تاريخا « ملأه بذكر المساوىء وثلب الاعراض » (٣٨) وقال عنه ابن اياس انه « ألف تاريخا فيه كثير من المساوىء فى حق الناس »[٣٩] .

---

(٣٦) سورة المائدة ، ١٠٨ وسورة البقرة ، ٢٨٢ .

(٣٧) مقدمة كتاب المواعظ والاعتبار للمقريزى ، ج ١ ص ٣ (بولاق)

(٣٨) السيوطى : الكاوى على السخاوى (مخطوط بدار الكتب المصرية ، ١٥١٠ أدب)

(٣٩) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٦٢ (طبعة القاهرة)

* ثانيا : لم يكتف المقريزى بتدوين ما يسمعه ونقل ما يقرأه . وانما عرف عنه التدقيق وحب الاستقصاء والرغبة فى معرفة أسباب الظواهر وعلل الاحداث . يقول المقريزى عن نفسه ـ عند ذكر بعض الاحداث ـ « وكثر تعجبى من ذلك ، وما زلت أفحص عنه على عادتى فى الفحص عن أحوال العالم ، حتى وقفت على . . » (٤٠)

وهذه الصفة المتأصلة فى المقريزى ، والتى يلمسها الباحث فى كتاباته تجعله يسمو فوق مستوى كثيرين غيره من المؤرخين السابقين والمعاصرين ، بل واللاحقين حتى اوائل القرن الماضى . ذلك ان الغالب على المؤرخين حينئذ هو ان يسرد الواحد منهم احداث التاريخ مكتفيا بما يصل الى علمه من طريق النقل والسماع . واذا كان المؤرخ أمينا أسند الرواية الى من نقلها عنه ، وربما فعل ذلك خشية الله او حتى يتحلل من مسئولية وتبعة ما يرويه ولا نقول ان المقريزى تجرد من هذه النزعة او تخلى عن هذا الاسلوب ، فقد لجأ فى سرده أخبار السلف الى الاعتماد على روايات السابقين ، وكثيرا ما اشار اليهم حفظا لحقوقهم وتمسكا بامانة النقل والرواية . ولكن المقريزى كان لا يكتفى بذلك ، وانما كثيرا ما يحرص على ان يقف امام الرواية التاريخية ليناقشها وينقدها ، مقارنا اياها بغيرها ، مستقصيا اسبابها ، محاولا تعليلها . وفى هذا كله تظهر الحاسة التاريخية المرهفة لدى المقريزى ، وقدرته ـ لا على الاستيعاب وحسن العرض فحسب ـ بل ايضا على التحليل والنقد والتعليل . ويتضح هذا الاتجاه فى كافة مؤلفات المقريزى ، سواء كتبه الكبيرة المليئة بالاحداث ـ كالسلوك او كتاب المواعظ المشحون بذكر الآثار والمعالم العمرانية ، فضلا عن كتبه الصغيرة ـ مثل « اغاثة الامة » او فى مقالاته ورسائله العلمية مثل كتابه عن المعادن وكتابه عن النحل . . وغيرها .

ثالثا : عدم الاسراف فى الاستطراد . والمقصود بالاستطراد الانتقال من موضوع الى ثان ثم الى ثالث لأتفه الأسباب وأوهى المناسبات . وربما تنبه الكاتب بعد فترة ـ قد تطول او تقصر ـ الى انه ترك موضوع حديثه الاصلى وبعد عنه ، فيعتذر للقارىء ، واحيانا يستغفر الله ويعوذ به من الشيطان الرجيم الذى صرفه عن قصده ، ويخط عريض يقول « نعود الى ذكر كذا . . » (٤١) وبذلك يصحح مساره ، ولكنه لا يلبث ان يقع فى المحظور من جديد ويعود الى الاستطراد بعد قليل .

ومن المؤرخين المعاصرين من يحاول ان يبرر جنوحه نحو الاستطراد ، فيدعى انه تعمد ذلك . للترويح عن القارىء وإبعاد السأم عنه اذا هو ظل منكبا على قراءة موضوع واحد ، او انه قصد اتحاف القارىء ببعض الطرائف لينشط فكره ويسرى عنه .

ومهما يقل من اننا نجد احيانا فى استطرادات السابقين من المؤرخين معلومات جديدة ، قد يفوق بعضها فى مضمونه ما يحويه المتن الاصلى من معلومات ، فان منهج البحث العلمى السليم يتطلب من الباحث تركيز الفكر فى موضوع معين ، والوصول الى الحقائق والنتائج من أقصر الطرق ، وعدم تشتيت الذهن بمسائل اخرى بعيدة عن موضوع البحث الاساسى ، مهما تكن هذه المسائل على درجة من الأهمية والخطورة . وفى ذلك يقول ابن النديم ـ صاحب الفهرست ـ

(٤٠) المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨٢٦ هـ .
(٤١) انظر على سبيل المثال كتاب : الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام ، النويرى السكندرى

من علماء القرن الرابع الهجري (العاشر للميلاد) : « النفوس تشرئب الى النتائج دون المقدمات ، وترتاح الى الغرض المقصود دون التطويل في العبارات . . . » .

ونلمس استقامة منهج المقريزي وعزوفه عن الاستطراد في كافة مؤلفاته الكبيرة والصغيرة . ويبدو أنه أدرك ما تعانى منه الكتابة التاريخية من تطويل ومط يعرضها للمسخ ويفسد صورة التاريخ ، بدليل ما ذكره في مقدمة موسوعته « المواعظ والاعتبار » من أنه حرص على أن يكتب كتابه هذا « من غير اطالة ولا اكثار ، ولا اجحاف مخل بالغرض ولا اختصار ، بل وسط بين الطرفين وطريق بين بين . . . » وفي هذا يبدو اعتدال المقريزي وتمسكه بالطريق الوسط ، فلا اطالة واستطراد ولا ايجاز ولا اختصار .

ولعلنا لسنا بحاجة الى الاشارة الى ان تنوع الموضوعات التي حواها كتاب « المواعظ والاعتبار » لا ينبغي أن تفسر بأنها نوع من الاستطراد ، لأن طبيعة دراسة الخطط وما يرتبط بها من آثار ومنشآت وأخبار مؤسسيها ومنشئيها ، وما شهدته من أحداث خاصة وعامة . . كل ذلك في بلد عريق مثل مصر يتمتع بتاريخ حافل ، وفي مدينة خالدة مثل القاهرة اسهمت منذ مولدها بسهم وافر في النشاط الحضاري لدولة الاسلام . . كل ذلك جعل لكتاب المواعظ وضعا خاصا لان طبيعة موضوعه تتطلب تنوع الموضوعات وتشعبها .

رابعا : العناية بأخبار مختلف طبقات الشعب وفئاته . ذلك انه مما يؤخذ على كتابة التاريخ في تلك العصور ، ان المؤرخين تمشوا مع الاوضاع التي تعتبر التاريخ ربيب الحكام والخلفاء والسلاطين والملوك والامراء ، وبالتالي فانهم ركزوا في تدوين التاريخ على تسجيل اخبار الحكام وما كان يجرى في القصور ، مع التطرق أحيانا الى أخبار الاعيان والمرموقين من القادة والتجار والعلماء ونحوهم . أما الشعوب وعامة الناس ، وما كان يجرى في الاسواق والحارات ، وما دار خارج الحواضر والمدن من ريف وبادية . . فكان المؤرخ لا يتعرض له عادة إلا بالقدر الذي يمس سير الحكام والاعيان . ويتضح ذلك من اسماء وعناوين الكتب التاريخية في تلك العصور مثل « الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين » و « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » و « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » .

ولم يكن باستطاعة المقريزي أن ينتزع نفسه من عصر نشأ وعاش فيه ، وصار يعبر عن وجه من فكره وعقليته . ولكننا نجده في كتابته للتاريخ يذكر الحكام والسلاطين والامراء ، ولا يهمل الاشارة الى عامة الناس والشعب . وعندما أراد اسما لحولياته الشهيرة اختار أن يسميها « السلوك لمعرفة دول الملوك » فهو لم يخص الملوك وانما استهدف دول الملوك ، وكل دولة فيها الكبير والصغير واذا كان قد اختص الحكام والخلفاء والملوك بكتاب ، فانه اختصهم بالذكر في كتاب اكثر ارتباطا بشعائر الدين وذكر الله ، فوضع كتابا صغيرا اسماه « الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك » .

ولم يكن المقريزي يكتب للخاصة وحدهم ، وانما كان يكتب للعامة أيضا . وبعبارة اخرى فانه حرص على أن يجد الجميع في كتاباته غذاء وسلوى . يقول عن كتابه « المواعظ والاعتبار » ما نصه « واني لارجو أن يحظى ان شاء الله تعالى

عند الملوك ، ولا ينبو عنه طباع العامى و الصعلوك ويجله العالم المنتهى ، ويعجب به الطالب المبتدى . ويرضاه خلائق العابد الناسك ولا يمجه سمع الخليع الفاتك . ويتخذه أهل البطالة والرفاهية سمرا ، ويعده أولو الرأى والتدبير موعظة وعبرا . . » (٤٢)

خامسا : عدم مداهنة الحكام . ذلك أن آفة خطيرة من الآفات التى ابتلى بها التاريخ على مر العصور هى مداهنة كثير من الكتاب للحكام والسلاطين والملوك ، فيبرزون ما لهم من محاسن ويتسترون على ما لهم من عيوب ، ومن اجل ذلك ربما يقلب بعضهم الحق باطلا والباطل حقا . والمعروف أن المقريزى دون مؤلفاته فى القرن التاسع الهجرى ، أى فى عصر اختلت أمور طبقة المماليك الحاكمة ، واهتز نظامهم ، وفسدت أحوالهم ، وبدت صورتهم غير ما كانت عليه فى القرنين السابقين . ولكنه لم يضعف أمام بريق الجاه ، ولم يصغر أمام السلاطين اللذين عاصرهم والذين عرضوا عليه الوظائف والمناصب ، وانما آثر فى مرحلة معينة أن يعتزل الخدمة الحكومية ويترك المناصب للراغبين فيها ؛ واختار المقريزى أن يقضى المرحلة الاخيرة من حياته عاكفا فى بيته بالقاهرة على الاشتغال بالعلم والتأليف والكتابة (٤٣) . ولم يترك داره الا ليتجه الى مكة حيث اقام مجاورا بضع سنوات قليلة ، واصل خلالها الكتابة والتأليف ، وعاد بعدها الى القاهرة مكبا على حياته العلمية .

وبذلك لم يسمح المقريزى لنفسه أن يكون عبدا للسلطان أو أسيرا للوظيفة ، الامر الذى جعله حرا فيما يكتبه . وبالتالى فانه لم يكن يتحرج من نقد الاوضاع القائمة ، وكشف النقاب عن اوجه الفساد فى جهاز الدولة ، والقاء المسئولية على عاتق السلاطين والحكام . من ذلك انه فى حوادث سنة ٨٣٢ هـ يتحدث عن جشع السلطان برسباى وتطرفه فى سياسة الاحتكار وانزال المظالم بالتجار « حتى حل بالناس بلاء لا يمكن حكايته » (٤٤) وفى حوادث سنة ٨٣٤ هـ ينتقد بشدة الخلل الذى أصاب نظام الحكم وجهاز الحكومة « فتزايدت القسوة لكثرة التناقض وعدم الثبات على الامر واستخفاف العامة براعيها » . . . (٤٥) وهكذا نلمس فى المقريزى قلما منطلقا وفكرا حرا .

على أن أهم ما امتاز به منهج المقريزى فى كتابة التاريخ هو عنايته بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية ، بحيث يستطيع ان يتذوق القارىء اللماح فى كتاباته طعما جديدا ليس له نظير فى كتابات كثيرين من مؤرخى العصور الوسطى بوجه عام .

ويركز معظم الباحثين تفسيرهم لعناية المقريزى بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية فى صلته بابن خلدون وتأثره به . . ذلك أنه من المعروف أن المقريزى كان واحدا من تلاميذ ابن خلدون المقربين اليه ، الملتصقين به ، المتأثرين بآرائه وأفكاره . وعندما يشير فى كتاباته الى ابن خلدون ، فانه يقول « قال لى شيخنا الاستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ، رحمه الله تعالى . . » (٤٦)

---

(٤٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٣
(٤٣) يقول السخاوى فى ترجمته للمقريزى « وكان قد اتصل بالظاهر برقوق ، ودخل دمشق مع ولده الناصر فى سنة عشر وعاد معه . وعرض عليه قضاؤها مرارا فأبى » الضوء اللامع ج ٢ ص ٢١ ـ ترجمة رقم ٦٦
(٤٤) المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ـ الجزء الرابع ـ حوادث سنة ٨٣٢ هـ (تحقيق الباحث ونشر مركز تحقيق التراث بالقاهرة)
(٤٥) المصدر السابق ـ حوادث سنة ٨٣٤ هـ .
(٤٦) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٥٠ (بولاق)

ولكن علينا أن نذكر أن عظمة ابن خلدون فى الفكر الاقتصادى الاجتماعى تنبع ـ بصفة رئيسية ـ من فلسفته لهذا الفكر فى مقدمته الشهيرة . فاذا تركنا المقدمة وعكفنا على دراسة تاريخ ابن خلدون المسمى (العبر وديوان المبتدأ والخبر) فاننا لا نجد اثرا واضحا قويا لتطبيق الفكر على الواقع التاريخى . حقيقة ان ابن خلدون استشهد فى نظرياته التى اتى بها فى مقدمته بأمثلة عديدة من واقع التاريخ ، ولكنه عندما انتقل الى تسجيل الاحداث التاريخية فى الاجزاء التالية من كتابه ، غلب على منهجه طابع السرد التاريخى ، ولم يحاول ـ الا نادرا ـ الوقوف امام الاحداث ليفسرها فى ضوء النظريات الاجتماعية والقوانين الاقتصادية التى سبق ان اتى بها فى مقدمته . ومن هنا كانت اهمية ابن خلدون فى مقدمته اكثر منها فى تاريخه .

اما المقريزى ـ وهو تلميذ ابن خلدون المعجب به المتأثر بآرائه ـ فانه فى رأينا فاق استاذه فى الجانب التطبيقى . ومهما يقل من ان المقريزى استقى من ابن خلدون اهتماماته بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية فى التاريخ ، فانه لا بد وان يكون لديه هو نفسه الاستعداد والحاسة التى جعلته يطور تلك الجوانب ويجيد تطبيقها فى تسجيل احداث التاريخ . وبعبارة اخرى ، فاننا نرى من المبالغة أن ننسب كل ما نلمسه فى كتابات المقريزى من اتجاهات اجتماعية واقتصادية الى مجرد تأثره بأستاذه ابن خلدون وآرائه ، دون ان نعمل حسابا لفطرة المقريزى واستعداداته العقلية والنفسية . ففى حقل الدراسات التاريخية بالذات لا يكفى التعلم لكى يخلق من المتعلم مؤرخا ناجحا ، وانما لا بد من حسن الاستعداد وتوافر الحاسة التاريخية المرهفة عند من يريد أن يبرز فى حقل التاريخ . والمتتبع لكتابات المقريزى المدقق فى عباراته ، المتأمل فى آرائه وأفكاره ، يلمس حاسة تاريخية مرهفة نابعة من داخله مكنته من ربط الاسباب بالنتائج ، ومن تفسير الروابط بين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتطورات السياسية والادارية .. كل ذلك فى يقظة وسرعة بديهة ، وقدرة فائقة على الالتقاط والربط والتعليل . ان تلاميذ ابن خلدون الذين التفوا وأعجبوا به وأخذوا عنه كثيرون ، ولكن أحدهم لم يصل الى ما وصل اليه المقريزى من تفوق وابداع ، والسر فى ذلك يرجع الى المقريزى نفسه وليس الى ابن خلدون .

وعندما نقول ان المقريزى تمتع بحاسة اقتصادية اجتماعية ظهرت واضحة بين ثنايا كتاباته التاريخية ، فان علينا ان نذكر أن مؤلفات المقريزى الرئيسية ارتبطت أساسا بمصر وتاريخها وقد عبر عن شعوره نحو مصر وارتباطه بها ، وحبه لها ، وحرصه على تسجيل تاريخها واخبارها فقال « هى مسقط رأسى وملعب أترابى ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامّتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى ، فلا تهوى الأنفس غير ذكره . ولازلت مذ شدوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الاشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها .. » (٤٧) وهكذا فاننا فى كلامنا عن الاتجاهات واللمسات الاجتماعية والاقتصادية فى كتابات المقريزى ، علينا ان نوضح من البداية انها ترتبط اساسا بمصر .

ومن ناحية اخرى فاننا عندما نقول ان الحاسة الاقتصادية والاجتماعية عند المقريزى برزت فى علاجه لتاريخ مصر ، فاننا نذكر مرة أخرى بأنه عاش فى عصر سلاطين المماليك ، وانه اختص هذا العصر بالذات بقسط كبير من عنايته .

---

(٤٧) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٢ (بولاق) .

وقد سبق أن أوضحنا أن مصر في ذلك العصر كانت قلب العالم الاسلامي النابض بالحياة والتيارات الحضارية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والفنية وغيرها .

وكان من الطبيعي أن يحظى النشاط الاقتصادي بالذات بعناية خاصة من الباحثين في عصر سلاطين المماليك ، وهو العصر الذي تميز بازدهار التجارة والانتعاش الاقتصادي والثراء الفاحش . ذلك ان قيام دولة سلاطين المماليك جاء مصحوبا بتسلط التتار على طرق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب ، واهمها طريق الخليج وطريق سمرقند البري الى بغداد ، والطريق الممتد الى حوض نهر الفولجا وجنوب روسيا . ونجم عن هذه الظاهرة انه لم يسلم من سيطرة التتار على طرق التجارة الكبرى بين الشرق والغرب سوى طريق البحر الاحمر ومصر فكانت توابل الشرق وحاصلاته تصل الى ميناء عيذاب او القلزم ، ومنها تنقل عبر صحراء مصر الشرقية الى مجرى نهر النيل ، لتتجه فيه الى موانئ مصر على البحر المتوسط ، وبخاصة الاسكندرية ودمياط . وهناك ينتظرها تجار ايطاليا والغرب الاوربي ليحملوها الى بلادهم .

وقد ترتب على هذه الاوضاع الجديدة التي ألمت بطرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى أن احتكر سلاطين المماليك تجارة الشرق ، لانه لم يعد هناك طريق آمن بعيد عن عبث التتار سوى الطريق المار بدولتهم واراضيهم . وهكذا جنى سلاطين المماليك ثروة طائلة وتحكموا في اثمان كثير من السلع وبخاصة التوابل والفلفل ، واكتظت القاهرة ودمياط والاسكندرية بالاسواق والمؤسسات التجارية الكبرى ـ كالخانات والفنادق والوكالات التي تستقبل التجار على اختلاف أجناسهم ومللهم ، والبضائع على تنوع اصنافها وانواعها . هذا في الوقت الذي حرصت القوى التجارية الكبرى ـ وبخاصة في ايطاليا وجنوب اوروبا ـ على تدعيم علاقاتها الاقتصادية مع سلطنة المماليك وحماية مصالح تجارها ورعاياها ، فاكثرت من عقد المعاهدات والاتفاقيات التجارية مع سلاطين المماليك لهذا الغرض ، كما سبق أن اشرنا .

واذا كان بعض مؤرخي مصر في عصر سلاطين المماليك قد اشاروا الى النشاط الاقتصادي في ذلك العصر ، فان اشاراتهم جاءت عابرة سريعة متناثرة ، وربما غير مقصودة ، يغلب عليها الطابع العشوائي . فهي تأتي بين ثنايا سردهم للأحداث السياسية دون أن تكون هدفا في حد ذاتها . أما المقريزي فله مكانة خاصة لانه افرد للحياة الاقتصادية أجزاء معينة من مؤلفاته مستهدفا اياها بالذات . وجاء ذلك اما في صورة كتب قائمة بذاتها او في صورة فصول وابواب مستقلة داخل الموضوعات التي دونها ، وبخاصة كتاب (المواعظ والاعتبار) . هذا الى أن المقريزي عايش مرحلة خطيرة في تاريخ دولة سلاطين المماليك ، وهي مرحلة الخلل في اجهزة دولة دخلت فعلا مرحلة الخريف من عمرها ، فرأى بعينيه ولمس بحاسته التاريخية المرهفة عظمة النشاط الاقتصادي في دولة سلاطين المماليك من ناحية ، وبداية الانحراف في اوضاع الدولة من ناحية اخرى ، مما مكنه من المقارنة والنقد ، حتى وضع يديه على اسباب الداء وحاول ان يقترح العلاج .

وهكذا نستطيع أن نصنف جهود المقريزي في علاج التاريخ الاقتصادي لمصر في عصر سلاطين المماليك في قسمين : القسم الاول ينصب على موارد الثروة في مصر ـ زراعية وصناعية وتجارية وما يرتبط بها من وصف للمؤسسات

الاقتصادية من ناحية ونشاط اقتصادي واسع من ناحية اخرى والقسم الثاني عبارة عن دراسات ناقدة لمظاهر وأسباب عدم الاستقرار الاقتصادي ، التي اخذت تعاني منه دولة سلاطين المماليك في عصر المقريزي بالذات .

اما عن موارد الثروة في مصر ، فالمعروف عن هذا البلد انه ظل طوال تاريخه يعتمد اعتمادا أساسيا على الزراعة ، وعلى نهر النيل في نشاطه الزراعي ، لذلك نرى المقريزي يركز عند كلامه عن الحياة الاقتصادية في مصر على أهمية نهر النيل ، وماله من مزايا وصفات ، فيقول ان شرب ماء النيل ينسى الغريب وطنه ، ويذكر بعض الاحاديث النبوية في فضل نهر النيل وبركته ، ويشير الى فيضان نهر النيل وزيادته ، ثم الى المقاييس القائمة عليه لقياس منسوب المياه فيه ، والى الخلجان التي تخرج من نهر النيل لتحمل الماء فيها ، يمينا وشمالا الى البلاد البعيدة عن مجرى النيل ، ويوضح ان هذه الخلجان مرتبطة بمجموعة من الجسور تفتح عندما يفي النيل . وتنتهي زيادته في وقت الفيضان .

وينتقل المقريزي بعد ذلك الى « ذكر نزول العرب بريف مصر واتخاذهم الزرع معاشا » ويتتبع خراج مصر من عهد الى آخر ، حتى بلغ خمسة ملايين دينار في عهد الافضل - ابن امير الجيوش بدر الدين الجمالي - في العصر الفاطمي . وهنا يوضح المقريزي حقيقتين على جانب من الاهمية أولاهما أن كتاب الخراج في مصر كانوا غالبا من النصارى الاقباط لخبرتهم في أمور المحاسبة من جهة ودرايتهم بأوضاع البلاد من جهة اخرى . أما الحقيقة الثانية فهي أن الدورات الزراعية وما يرتبط بها من تحديد مواسم الزراعة ومواقيتها والاجراءات الرسمية وغير الرسمية الخاصة بها ظلت تتم وفق التقويم القبطي - وهو الامر المتعارف عليه بين المزارعين في مصر حتى اليوم نظرا لارتباط هذا التقويم بالشمس وثباته وعدم تعرضه للتغييرات التي يتعرض لها التقويم الهجري المرتبط بالقمر[٤٨] .

ويوضح المقريزي أن مصر لم تعرف النظام الاقطاعي في حيازة الأرض وزراعتها حتى نهاية العصر الفاطمي ، فيقول « واعلم انه لم يكن في الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما قبلها من دول أمراء مصر - لعساكر البلاد اقطاعات ، بمعنى ما عليه الحال اليوم في أجناد الدولة التركية »[٤٩] ومن الثابت أن صلاح الدين هو أول من طبق هذا النظام في مصر ، فوزع اراضي مصر الى اقطاعات بين الامراء مقابل قيامهم بالخدمة العسكرية واعداد الجند والفرسان اللازمين للقتال ، وبذلك أقام جيشا كبيرا بأقل نفقات ممكنة[٥٠] .

ويوضح المقريزي حقيقة خطيرة ، هي أن أرض مصر الزراعية صارت كلها في عصر سلاطين المماليك لطبقة الحكام من المماليك انفسهم ، فقسمت الى اربعة وعشرين قيراطا ، اختص السلطان منها بأربعة قراريط ، واختص الامراء بعشرة قراريط ، والاجناد بعشرة قراريط (٥١) على ان زمام الارض ظل وعدل اكثر من مرة في عصر سلاطين المماليك ، وهي العملية التي اطلق عليها اسم (الروك) ويشير المقريزي الى الروك الحسامي الذي اجراه السلطان

(٤٨) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٨٤ (بولاق)
(٤٩) المصدر السابق ، ص ٨٥
(٥٠) يذكر أبو شامة (كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ، ج ٢ ص ١٦) أن صلاح الدين قام سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) ، باقطاع البلاد وتوزيع ما على الأجناد ،
(٥١) المقريزي : كتاب المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٨٨ (بولاق)

حسام الدين لاجين سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٨ م) ، والروك الناصري الذي تم في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥م)[٣٢] اما الأمراء المسنون الذين لا يتحملون تبعات الاقطاع ، فاعتاد سلاطين المماليك أن يمنحوهم بدل الاقطاع رواتب نقدية تخصص لها جهات معينة ، يتناول المقطع نصيبه منها . ويذكر المقريزي انه جاء وقت غدت فيه معظم الضرائب والمكوس المفروضة في مصر « عليها اقطاعات الأمراء والأجناد »[٣٣].

ويتكلم المقريزي عن مال مصر - اي دخلها - فيقسمه الى قسمين : مال خراجي ومال هلالي فالمال الخراجي ما يؤخذ مساحة من الاراضي التي تزرع حبوبا ونخلا وعنبا وفاكهة ، وما يجبى من الفلاحين على سبيل الهدايا العينية ، مثل الغنم والدجاج والكشك ، وغير ذلك « من طرف الريف » أما المال الهلالي ، فيقصد به المقريزي الضرائب والمكوس غير الشرعية وقال ان « اول من أحدث مالا سوى الخراج بمصر هو أحمد بن محمد بن مدبر ، لما ولي خراج مصر بعد سنة خمسين ومائتين . . »[٣٤] وقد عرف المال الهلالي في أول الامر بالمرافق والمعاون ولكن كثيرا من الحكام الذين تعاقبوا على مصر رغبوا عن المال الهلالي ، لما فيه من خروج على الشرع ، وتحميل الناس والرعايا اكثر من طاقتهم . ومن هؤلاء احمد بن طولون الذي اسقط المرافق والمعاون بعد ان بلغت حصيلتها في مصر على عهده مائة الف دينار كل سنة ويمضي المقريزي في هذا البيان الطريف ، فيقول ان الاموال الهلالية احيت في ايام الدولة الفاطمية عندما ضعفت الدولة واهتز كيانها الاقتصادي واشتدت حاجتها الى المال . وظلت هذه الأموال قائمة حتى الغاها صلاح الدين ، وكتب عنه القاضي الفاضل مرسوما بذلك[٣٥]

ومع قيام دولة سلاطين المماليك عاد المال الهلالي الى الظهور تحت اسم « الحقوق والمعاملات » على أن بعض سلاطين المماليك - اعتبارا من الظاهر بيبرس - اظهروا تحرجا ابطال هذه المكوس وان كان يعودون الى ابطالها ثم تحريمها ويذكر المقريزي « أن آخر ما أدركنا ابطاله ضمان الاغاني وضمان القراريط في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة على يد الملك الاشرف شعبان ابن حسين »[٣٦] ويشرح المقريزي ضمان الاغاني ، فيصفه انه كان بلاء عظيما وانه عبارة عن أخذ مال - او ضريبة - من النساء البغايا ، فاذا دفعت احداهن المال المقرر الى الضامنة ، وسجلت اسمها عندها ، لا يستطيع احد منعها من مزاولة الفاحشة ومن ناحية اخرى ، كان لا يجوز لاحد اقامة فرح بالغناء دون دفع رسوم معينة لضامنة الاغاني « ومن فعل فرحا بالغناء او نقش امرأته من غير اذن الضامنة حل به بلاء لا يوصف » أما ضمان القراريط فيعرفه المقريزي بأنه كان يؤخذ من كل من باع ملكا ، عن كل الف درهم عشرون درهما[٣٧] .

اما عن الصناعة ، فيستفاد مما ذكره المقريزي في سياق وصفه لأسواق القاهرة تنوع الصناعات وكثرتها مع جودتها . ومن أهم هذه الصناعات صناعة الشمع الذي كان يباع بسوق الشماعين ، وصناعة المعادن - ومنها الحلي الدقيقة - مثل

---

(٣٢) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .
(٣٣) المصدر السابق (ج ١) ص ٨٨ - ٨٩ ، ١٠٣ - ١١١ (بولاق)
(٣٤) المصدر السابق ، ص ١٠٣
(٣٥) المصدر السابق ، ص ١٠٤
(٣٦) المصدر السابق ، ص ١٠٦
(٣٧) المصدر السابق ، نفس الصفحة

« الخواتيم والفصوص وأساور النسوان وخلاخيلهن وغير ذلك » وكانت تباع فى سوق القفصيات حيث كان يضعها الباعة فى أقفاص صغار من حديد مشبك ليعاينها المشترون ـ ويرتبط بالمعادن أيضا صناعة الاسلحة ـ كالقسى والنشاب والزرديات ـ وكانت كلها تباع بسوق السلاح . اما المهاميز فكانت تصنع وتباع بسوق المهامزيين . ويقول المقريزى انه ادرك الناس « وهم يتخذون المهماز كله ـ قالبه وسقطه ـ من الذهب الخالص ، ومن الفضة الخالصة »[٥٨] هذا عدا سوق الخراطين الذى كانت تصنع وتباع فيه السكاكين ونحوها[٥٩] .

كذلك انتعشت فى مصر فى ذلك العصر صناعة التكفيت وهى تطعيم معدن بمعدن آخر . ووجد لهذه الصناعة بالقاهرة سوق كبير هو سوق الكفتيين ، وصفه المقريزى ، فقال ان به « عدة حوانيت لعمل الكفت ، وهو ما تطعم به أوانى النحاس من الذهب والفضة وكان لهذا الصنف من الأعمال بديار مصر رواج عظيم ، وللناس فى النحاس المكفت رغبة عظيمة . . فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت . ولا بد ان يكون فى شورة العروس دكة نحاس مكفت . والدكة عبارة عن شيء شبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والابنوس ، او من خشب مدهون ، وفوق الدكة دست طاسات من نحاس اصفر مكفت بالفضة . . »[٦٠]

ومثل هذا يقال عن صناعة الجلود ، فقد وصف المقريزى سوق اللجميين بالقاهرة فقال انه كانت تصنع وتباع فيه « آلات اللجم ونحوها مما يتخذ من الجلد » ويرتبط بها السروج التى كانت تصنع من أصفر وأزرق . اما القضاة ورجال العلم والدين فكانوا يفضلون السروج السود التى تصنع من الجلد البلغارى الاسود » ومن الجلد البلغارى ايضا كانت تصنع الأخفاف الممتازة التى يلبسها السلطان والأمراء فى اقدامهم[٦١]

أما صناعة الأخشاب فقد تنوعت ، فمنها ما يرتبط بالأبواب والنوافذ ومنابر المساجد ومعظمها كان يحلى بالحفر ، ومنها ما يرتبط بالصناديق والاسرة والخزائن ـ وكثير منها مطعم بالعاج ـ وكانت تباع فى سوق الصناديقيين بالقاهرة (٦٢)

واشتهرت فى مصر عدة مراكز لصناعة المنسوجات والاقمشة ، منها تنيس ودمياط . ويصف المقريزى تنيس فى صدر الاسلام بأنها كانت مدينة كبيرة « بها يحاك ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا ، كما يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة ، لايدخل فيه من الغزل ـ سداه ولحمة ـ غير اوقيتين وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحرج الى تفصيل ولا خياطة . . وليس فى الدنيا طراز ثوب كتان ـ يبلغ الثوب منه ـ وهو ساذج بغير ذهب . مائة دينار عينا غير طراز تنيس ودمياط[٦٣] واما الثياب المصنوعة فى الاسكندرية فقد وصفها المقريزى بأن « لا نظير لها ، وتحمل الى أقطار

(٥٨) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ٩٦ ـ ٩٧ (بولاق)
(٥٩) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٠٣
(٦٠) المصدر السابق ، ص ١٠٥
(٦١) المصدر السابق ، ص ٩٨
(٦٢) المصدر السابق ، ص ١٠٢
(٦٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٧٦ (بولاق)

الارض » (٦٤) وتشهد اسماء بعض الأسواق فى عصر المقريزى ـ كسوق الجوخيين وسوق الشرابشيين ، وسوق الحريريين وسوق الغرابين . . على نشاط وتجارة الاقمشة وما يرتبط بها من ملابس وفراء واجواخ (٦٥)

وهناك صناعات اخرى غذائية متفاوتة الاهمية ، اشار اليها المقريزى ضمن تتبعه للنشاط الاقتصادى فى مصر ، ولعل اهم هذه الصناعات صناعة السكر . يذكر المقريزى انه كان فى سمهود سبعة عشر معصرا لعصير القصب كما كان فى ملوى عدة معاصر (٦٦) وكان يرتبط بهذه المعاصر ـ التى انتشرت فى كافة انحاء البلاد ـ مطابخ لصناعة السكر الذى اشتد الاقبال على استهلاكه نتيجة لحياة الترف التى اشتهرت بها مصر فى تلك العصور . ولا ادل على كثرة استهلاك السكر لعمل الحلوى عندئذ ، مما ذكره المقريزى من أن استهلاك السكر على ايام السلطان الناصر محمد بن قلاون بلغ فى شهر رمضان وحده ـ من عام ٧٤٥ هـ ثلاثة آلاف قنطار ، قيمتها ثلاثون الف دينار منها ستون قنطارا كل يوم من أيام رمضان برسم الدور السلطانية (٦٧)

ومهما يكن للزراعة والصناعة من شأن فى الحياة الاقتصادية فى مصر على عصر سلاطين المماليك ، فانه مما لا شك فيه ان التجارة كانت المصدر الاول للثراء الكبير الذى اتصف به ذلك العصر ، والذى مكن سلاطين المماليك من تحقيق مشاريعهم الكبرى فى الخارج والداخل . ويشير المقريزى ـ بين ثنايا كتاباته ـ الى مدى عناية سلاطين المماليك بتشجيع التجارة عن طريق تأمين الطرق ، وتوفير السلامة للتجار ، واقامة المؤسسات التجارية فى المدن لينزل فيها التجار الوافدون على البلاد ، ويباشرون منها نشاطهم ومعاملاتهم التجارية . من ذلك ما يذكره المقريزى عن تودد السلطان المنصور قلاون الى القوى الاسلامية فى حوض البحر الاحمر ـ مثل ملوك اليمن وأمراء الحجاز ـ واكرامهم وارسال الهدايا اليهم ، ليسهلوا مرور التجار ببضائعهم الى مصر . (٦٨) هذا بالاضافة الى ما يذكره المقريزى عن حرص سلاطين المماليك على سلامة طرق التجارة وتأمينها حتى أنه عندما اشتد القتال فى صحراء عيذاب بين عرب جهينة وعرب رفاعة ، وادرك السلطان المنصور قلاون ما يترتب على ذلك من تهديد لأمن القوافل التجارية المتجهة من عيذاب الى وادى نهر النيل ، اصدر السلطان اوامره الى الشريف علم الدين صاحب سواكن « بأن يوفق بينهم ولا يعين طائفة على اخرى ، خوفا من فساد الطريق » (٦٩)

وهناك اشارات عديدة فى مختلف مؤلفات المقريزى توضح دور مصر فى التجارة العالمية ، وانها كانت مقصد التجار من الشرق والغرب . من ذلك ما يقوله من أن تجار الهند واليمن والحبشة كانوا يردون فى البحر الى عيذاب ، ثم يسلكون صحراء مصر الشرقية الى قوص ، ومنها يتجهون فى النيل الى القاهرة يحملون احمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو

(٦٤) نفس المصدر والجزء ، ص ١٦٣

(٦٥) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٩٨ ، ١٠٢

(٦٦) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤

(٦٧) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٢١ (بولاق)

(٦٨) المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٠٠ ، ٧٠٢

(٦٩) نفس المصدر والجزء ، ص ٧٠٠

ذلك[٧٠] ويبدو أن طريق عيذاب ـ قوص أهمل بعد طرد الصليبيين من الشام وزوال خطرهم عن شمال البحر الاحمر ، فصارت المتاجر تأتي في البحر الاحمر الى القلزم ، ومنها بطريق القوافل الى القاهرة . أما من ناحية الجنوب ، فكان ثغر مصر الرئيسي على النيل مدينة اسوان التي قال عنها المقريزي ان « بها تجارات وبضائع تحمل منها الى النوبة »[٧١] على أن ثغر اسوان لم يكن باب مصر الوحيد على افريقية في ذلك العصر وانما كانت هناك نسبة كبيرة من تجارة مصر مع غرب افريقية وبلاد السودان الغربي وافريقية الوسطى ، تصل الى مصر بالقوافل عن طريق الصحراء الغربية الى قوص او الى الجيزة ، وهناك طريق شهير كان يسلكه الحجاج والتجار من بلاد السودان الغربي الى مصر ـ هو طريق غات ـ يبدأ من مدينة غات في حوض نهر النيجر ، وينتهي عند الاهرام بالجيزة . وقد عرف تجار تلك الجهات باسم الكارم او الكارمية نسبة الى مملكة الكارم ، كما عرفوا باسم التكرور نسبة الى مملكة التكرور ، وهما من ممالك السودان الغربي الاسلامية ، في ذلك العصر[٧٢] وكان هؤلاء التجار يجلبون الى دولة سلاطين المماليك بضاعة من أخطر البضائع التي قامت عليها عظمة دولة المماليك واستمدوا منها ثروتهم ، وهي التوابل والفلفل والبهار والبخور والقرنفل . . وكلها أصناف اشتد تهافت الاوروبيين عليها ، ودفع فيها التجار الغربيون الاثمان المرتفعة (٧٣) . يقول المقريزي « كان تجار الكارم بمصر حينئذ في عدة وافرة ، ولهم أموال عظيمة » ، كذلك اشار المقريزي الى ان سلاطين المماليك كانوا يقترضون المال منهم احيانا ، اذا اضطرتهم الظروف الى ذلك »[٧٤] ، ولا أدل على ازدياد حجم جالية التكاررة بمصر من أنهم ابتنوا مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق ، غدت مركزا لطلاب العلم الوافدين من بلاد التكرور ، ويذكر المقريزي ان الخيرين من اثرياء التكاررة اعتادوا أن يبعثوا لتلك المدرسة بالمال والتبرعات[٧٥] .

ومن ناحية اخرى ، فان بعض التكاررة في مصر كانوا على درجة شديدة من الفقر وهؤلاء حظوا بعطف سلاطين المماليك ، حتى أن المقريزي ذكر أن الملك السعيد بركة خان ـ ابن السلطان الظاهر بيبرس « عمل للتكاررة خوانا حضره كثير من أهل الخير »[٧٦] .

أما تجارة مصر مع اوربا ودول حوض البحر المتوسط ، فكانت أهم ثغورها دمياط و الاسكندرية . وقد ظلت دمياط ميناء مصر الاول على البحر المتوسط ـ أو بحر الروم ـ طوال الشطر الاول من العصور الوسطى ، الامر الذي عرضها لعدة هجمات صليبية ، وبخاصة بعد طرد الصليبيين من الشام . ويذكر المقريزي أنه بعد حملة لويس التاسع على

---

(٧٠) المقريزي : المواعظ ، ج ١ ص ٢٠٢

(٧١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ١٩٧

(٧٢) ونرجح أن تكون تسمية ساحل مصر على النيل باسم بولاق التكرور نسبة الى تجار التكرور الذين كانت ترد بضائعهم من قوص عن طريق بر النيل الى ساحل بولاق (انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكي ص ٣٠٦) ويذكر المقريزي (كتاب السلوك ج ٢ ص ٣٢٦) أن ساحل بولاق كان يعرف باسم منية بولاق ثم عرف ببولاق التكروري بعد أن نزل هناك الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري ، وكان يعتقد فيه الخير .

(٧٣) انظر ترجمة التاجر الكارمي عز الدين عبد العزيز بن منصور الكولمي ، المتوفي سنة ٧١٣ هـ (المقريزي : كتاب السلوك ج ٢ ، حوادث سنة ٧١٣ هـ ، ص ١٣٢)

(٧٤) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٦ ص ١٠٣

(٧٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٣٦٨ (بولاق)

(٧٦) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٦٤٩

مصر ـ وهي الحملة التي انتهت بسقوط الدولة الايوبية وقيام دولة سلاطين المماليك في منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) ـ « اتفق أرباب الدولة بمصر ـ وهم المماليك البحرية ـ على تخريب مدينة دمياط ، خوفا من مسير الفرنج اليها مرة اخرى ، فسيروا اليها الحجارين والفعلة ، فوقع الهدم في اسوارها يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ثمان واربعين وستمائة ، حتى خربت كلها وعفت آثارها »[٧٧] وقد شهدت مدينة دمياط الجديدة في الداخل ـ بعيدة عن شاطىء البحر ـ فتقف المراكب التجارية بحذائها « وينقل ما فيها من البضائع في مراكب نيلية تعرف عند أهل دمياط بالجروم ، واحدها جرم »[٧٨] . ويبدو أن هذا الاجراء لم يؤثر في مكانة دمياط التجارية فاستمرت تقصدها سفن التجار الاوربيين ، ووجدت بها جاليات كبيرة لهم ، حتى أخذت الاسكندرية تحل محلها تدريجيا ، لتصبح في القرن التالي ميناء مصر الاول على البحر المتوسط . وقد زار المقريزي دمياط واعجب بمنشآتها ، وقال ان دمياط الجديدة المستحدثة « صارت بلدة كبيرة ذات أسواق وحمامات وجوامع ومدارس ومساجد ، ودورها تشرف على النيل الاعظم ، ومن ورائها البساتين . وهي احسن بلاد الله منظرا »[٧٩] .

واما الاسكندرية فقد وصفها المقريزي بأنها « من أعظم مدائن الدنيا » وأفاض في سرد تاريخها القديم منذ الاسكندر الاكبر . وقد ازدادت مكانة الاسكندرية التجارية في القرن الثامن الهجري ـ الرابع عشر للميلاد ـ مما عرضها للحملة الصليبية التي شنها عليها بطرس لوزجنان ملك قبرص سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥) م . ومع ذلك فان هذه الحملة لم تؤثر في مكانة الاسكندرية ، بل على العكس ضاعفت من عناية سلاطين المماليك بها وتحولت الى نيابة يحكمها نائب عن السلطان بعد أن كانت ولاية على رأسها وال . وعلى أيام المقريزي في القرن التاسع الهجري ـ الخامس عشر للميلاد ـ شهدت الاسكندرية أزهى أيامها بسبب رواج تجارتها ، وصارت تقصدها سفن التجار البنادقة والجنوية والبيازنة وغيرهم .[٨٠] .

وقد فضل التجار الاوربيون الاقامة في المدن التجارية والثغور ، حيث كان لكل جالية اجنبية قنصل يشرف على مصالح افراد الجالية ، كما اتخذت كل جالية لنفسها فندقا ينزل فيه افراد الجالية . وتمتع التجار الاوربيون داخل فنادقهم بقدر كبير من الحرية ، فسمحت لهم حكومة دولة سلاطين المماليك باستحضار الخمور اللازمة لاستهلاكهم واتزالها في فنادقهم ، بعد دفع الضرائب الجمركية المستحقة عليها . ويبدو أن التجار الاوربيين أسرفوا في استحضار الخمور ، اذ يروي المقريزي أن السلطان الصالح اسماعيل حاول منعهم من احضار الخمور الى ثغر الاسكندرية . ولكن حاكم الثغر اعترض على هذه الفكرة وقال ان الضرائب التي تحصل في السنة من تلك الخمور تبلغ اربعين الف دينار[٨١] .

هذا عن التجارة الخارجية ، اما التجارة الداخلية ، في ضوء كتابات المقريزي ، فمن الواضح انها انتعشت في عصر سلاطين المماليك لا رتباطها بالتجارة الخارجية ، من ناحية وبحالة الرواج الاقتصادي الذي شهدته البلاد في عصر

---

(٧٧) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٢٢٣ (بولاق)
(٧٨) المصدر السابق ـ نفس الجزء والطبعة ـ ص ٢٢٤
(٧٩) نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٨٠) سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص ٢٢٧ وما بعدها
(٨١) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٦٩٤

سلاطين المماليك من ناحية أخرى . ويشهد على ذلك كثرة الاسواق والقياسر التي عددها المقريزي ووصفها اوصافا تنم عن الانتعاش والازدهار والرواج الذي صار مضرب الامثال . ويكاد المقريزي لا يذكر مدينة كبرى من مدن مصر الا ويشيد بأسواقها العامرة . فاذا تعرض المقريزي لاسواق القاهرة ، أسهب في تعدادها ، وأفاض في وصفها ، معبرا ليس فقط عن تاريخ كل سوق بل أيضا عن ما رآه بنفسه بوصفه شاهد عيان .

من ذلك ما يقوله المقريزي في وصف سوق القصبة « وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة الحوانيت ، غاصة بأنواع المآكل والمشارب والامتعة ، تبهج رؤيتها ، ويعجب الناظر هيئتها ، ويعجز العاد عن احصاء ما فيها من الانواع ، فضلا عن احصاء ما فيها من الاشخاص »[٨٢] واذا تكلم المقريزي عن القياسر ، اشار الى جمال بنائها ، وكثرة ما فيها من حوانيت وتنوع ما فيها من بضائع[٨٣] اما الفواكه على اختلاف أنواعها ـ سواء المحلية او الواردة من بلاد الشام ، فقد خصص لها فندق دار التفاح ـ تجاه باب زويلة ـ وبه « عدة حوانيت تباع فيها الفاكهة ، تذكر رؤيتها وشم عرفها الجنة ، لطيب وحسن منظرها وتأنق الباعة في تنضيدها واحتفالها بالرياحين والازهار ، وما بين الحوانيت مسقوف حتى لا يصل الى الفواكه حر الشمس . . . »[٨٤] وقد شيدت للتجار المسلمين الوافدين من خارج البلاد الوكالات والخانات لينزلوا فيها ومعهم بضائعهم واموالهم تحفظ فيها ، حتى ينجزوا معاملاتهم .

ومن أشهر هذه الوكالات في عصر المقريزي وكالة قوصون ، التي يقول فيها « هذه الوكالة في معنى الفنادق والخانات ، ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت والشيرج والصابون والدبس والفستق والجوز واللوز والخرنوب والرب ونحو ذلك . وقد أدركنا هذه الوكالة ، واذا رؤيتها من داخلها وخارجها لتدهش لكثرة ما هنالك من أصناف البضائع وازدحام الناس ، وشدة أصوات الحمالين عند حمل البضائع ونقلها لمن يبتاعها . . »[٨٥] .

هذه هي بعض الملامح التي نستخلصها من كتابات المقريزي عندما يصف النشاط الاقتصادي ومظاهره في مصر الاسلامية ، وبخاصة في عصر سلاطين المماليك . على أن المقريزي لم يقف عند ذلك الحد ، وانما انتقد كثيرا من الاوضاع الاقتصادية التي لمسها في عصره ، والتي لم يرض عنها واعتبرها مظهرا للتردي وسببا للفساد الذي أخذ يستشري على أيامه . ذلك ان المقريزي المؤرخ ـ كما سبق أن أشرنا ـ عايش فترة انتقال خطيرة في تاريخ دولة سلاطين المماليك ، فرأى آيات من أمجاد هذه الدولة ـ سجلها بأمانة واخلاص ـ ورأى بذور الخلل ، وقد أخذت تتطرق الى اجهزة الدولة ، وعلى رأسها الجهاز الاقتصادي ، وكان أن حرص على أن يضع يده على الداء ويصف العلاج ، فعبر بأمانة عن أسباب الخلل الاقتصادي ، وانتقد بشدة كثيرا من الاوضاع التي رآها بعينيه ولمسها بنفسه .

واذا كان صدق الحاسة الاقتصادية عند المقريزي ، جعله يدرك خطورة العامل الاقتصادي واهميته في تشكيل حياة

---

(٨٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٩٤ ـ ٩٥ (بولاق)
(٨٣) المصدر السابق ، نفس الجزء والطبعة ، ص ٨٦ وما بعدها
(٨٤) المصدر السابق ، نفس الجزء والطبعة ، ص ٩٣ وما بعدها
(٨٥) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة

البلاد والعباد ، فان هذه النظرة الثاقبة لم تبد فقط في شتى كتاباته ، وانما بدت أشد ما تكون تركيزا ووضوحا في كتابه « اغاثة الامة بكشف الغمة » ذلك أن المقريزي دون كتابه هذا من منطلق اقتصادي بحت ، وفي ظل ظروف اقتصادية قاسية ، ومن واقع أزمة خانقة عايشها وقاسى منها ، ودفع فيها ثمنا باهظا ترك أعمق الاثر في نفسيته ووجدانه ـ ونعني بهذه الازمة المجاعة التي حلت بمصر ، واستمرت بصفة متقطعة بين سنتي ٧٩٦ ، ٨٠٨ للهجرة ، وما صحبها من انتشار الطاعون في البلاد وهو الوباء الذي ذهب ضحيته آلاف الناس ، ومن جملتهم ابنة المقريزي ووحيدته ، وهكذا فان المقريزي عندما عالج سوء الحالة الاقتصادية في كتابه « اغاثة الامة » وبحث في أسباب الداء ، وفتش عن الدواء ، انما كان يكتب بأحاسيسه ، ويسجل مارآه بعينيه ، وما أحسه بفؤاده ، وليس فقط ما سمعه بأذنيه .

وقد بدأ المقريزي كتابه هذا[٨٦] بالاشارة الى ان من أجل نعم الله ـ عز وجل ـ على الانسان أن ينير بصيرته ويلهمه العلم والحكمة ، ليبين للناس أسباب ما نزل بهم من محن ، ويعرفهم كيف يكون الخلاص منها . ثم يوضح ذلك فيقول ان المحنة التي سبقت الاشارة اليها ، والتي تحت وطأتها وضع كتابه هذا ـ طال أمدها ـ وحل فيها بالناس من أنواع البلاء والعذاب مالا يوصف ، حتى ظن بعضهم أن لا أمل في الخلاص منها . ويصف المقريزي هؤلاء القانطين بأنهم « بأسباب الحوادث جاهلون ، ومن روح الله آيسون » . ومن هذا المنطلق استهدف المقريزي من تأليف كتابه « اغاثة الامة » أن يوضح حقيقتين كبيرتين :ـ

الاولى : « الأسباب التي نشأ منها هذا الامر العظيم ، وكيف تمادى بالبلاد والعباد هذا المصاب الشنيع » .

والثانية : « ما يزيل هذا الداء ويرفع البلاء » .

ويحاول المقريزي أن يخفف من وقع الأزمة على معاصريه ، فيوضح أن الانسان كثيرا ما يبالغ في الازمات التي يعاني منها في حاضره ، ويتصورها أثقل وطأة من كوارث الماضي كما يتوهم المستقبل أفضل من الحاضر « فلذلك لا يزال الحاضر أبدا منقوصا حقه مجحودا قدره ، لان القليل من شره يرى كثيرا . . » وبهذه العبارة يضعنا المقريزي أمام حقيقة كثيرا ما تغيب عنا ، وهي اننا نبالغ في الصعوبات التي نواجهها في حاضرنا لانها ملموسة ، ونتصورها أفدح مما تعرض له السابقون في الماضي ، وانه لا يمكن ان يحدث في المستقبل ما يماثلها في قسوتها . ولذا فان الحاضر دائما « منقوصا حقه مجحودا قدره » على حد تعبيره .

ويخلص من ذلك الى أن الأزمة المعاصرة التي دفعته الى الكتابة ليست الأولى من نوعها في تاريخ مصر وأهلها ، وليست بحالة من الأحوال أشد وأقسى من غيرها ، وأن بدت كذلك في نظر المعاصرين . ذلك ان (القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخبر ، اذ مقاساة اليسير من الشدة اشق على النفس من تذكر الكثير مما سلف منها . .)[٨٧]

(٨٦) المقريزي : اغاثة الأمة بكشف الغمة ـ تحقيق الاستاذين المرحوم محمد مصطفى زيادة والمرحوم جمال الدين الشيال ـ الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٧

(٨٧) المصدر السابق ، ص ٥ ـ ٦

ولكي يبرهن على سلامة وجهة نظره يتتبع الازمات الاقتصادية التي حلت بمصر منذ أقدم العصور ، فيرجع بذلك الى ما قبل طوفان نوح عليه السلام ، ويتدرج الى ان وصل الى الأزمة الطاحنة التي حلت بالبلاد زمن يوسف الصديق عليه السلام . وفي ظل الاسلام حدثت اول أزمة اقتصادية بمصر في سنة سبع وثمانين للهجرة ، ووالي مصر يومئذ هو عبد الله بن عبد الملك بن مروان ـ الذي وليها من قبل أبيه الخليفة عبد الملك ـ « فتشاءم به الناس ، لانه أول غلاء وأول شدة رآها المسلمون بمصر » .

ومنذ الفتح العربي الاسلامي لمصر حتى أيام المقريزي نفسه ، عدّد هذا المؤرخ نحوا من عشرين أزمة اقتصادية ، تفاوتت في شدتها ، أرجع معظمها الى قصور نهر النيل وعدم وفائه وانخفاض مستوى الفيضان ، وأرجع القليل منها الى كثرة الاضطرابات ، وتعدد الفتن ، وعدم الاستقرار والأمن بسبب المصادمات بين طوائف الجند والامراء ، وما صحب ذلك من نهب الأسواق واختلال الاوضاع الاقتصادية[88] وفي جميع الحالات وصف المقريزي بايجاز ما كان يحدث في تلك الازمات أو الغلوات من ارتفاع في الاسعار ، ونقص في الاقوات ، وما كان يصحب ذلك غالبا من انتشار الطاعون والاوبئة الفتاكة ، مما يزيد من وقع البلاء .

ومما يسترعي الانتباه ان المقريزي عندما عدد في كتابه « اغاثة الامة » ما حل بمصر من الغلوات[89] وما نجم عن هذه الغلوات من محن وأوبئة ، فانه لم يشر الى الوباء الاسود الذي انتشر بمصر سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) وهو وباء عالمي عرف في مصادر تاريخ العصور الوسطى باسم « الموت الاسود » Black Death ويعلل الاستاذان الجليلان اللذان قاما بتحقيق كتاب « اغاثة الامة » ذلك بأن المقريزي قصر بحثه في هذا الكتاب على أخبار الاوبئة الناجمة عن أسباب داخلية ـ قصور النيل وسوء الحكم في مصر ـ في حين أن وباء سنة ٧٤٩ هـ كان خارجي المصدر ، وفد على البلاد نتيجة العدوى التي زحفت من الشرق الاقصى على امتداد الطرق التجارية المتجهة غربا . واستمر هذا الوباء ـ الذي اجتاح الشرق الاوسط واوربا ـ نحوا من قرنين من الزمان حصد فيهما عددا يتراوح بين ثلث ونصف سكان البلاد التي انتشر فيها[90] .

ومع ذلك فان المقريزي تعرض لهذا الوباء بالتفصيل في موضع آخر من مؤلفاته ، فقال في كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » عن أثر هذا الوباء[91] « . . . وكان يموت بالقاهرة ومصر ما بين عشرة الاف الى خمسة عشرة ألف الى عشرين الف نفس في كل يوم . . . وكانت الحفرة يدفن فيها الثلاثون والاربعون واكثر . . . وعم مع ذلك غلاء الدنيا جميعا . . . . .

ومات الفلاحون بأسرهم فلم يوجد من يضم الزرع . وزهد أرباب الاموال في اموالهم وتوقفت الاحوال بالقاهرة

(٨٨) المصدر السابق ، ص ١٣

(٨٩) المصدر السابق ، ص ٧ ، ٤١

(٩٠) عن هذا الوباء وانتشاره وآثاره انظر :

سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ـ الجزء الأول ـ ص ٥٧٥

(٩١) المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، حوادث سنة ٧٤٩ ، الجزء الثاني ص ٧٧٠ ـ ٧٧٥

ومصر . وابطل كثير من الناس صناعاتهم وانتدبوا للقراءة امام الجنائز . . . . وبطلت الافراح والاعراس من بين الناس . . . » وفي ذلك قال بعض الشعراء المعاصرين :ـ

فهذا يوصي باولاده — وهذا يودع اخوانه

وهذا يهيء اشغاله — وهذا يجهز اكفانه

وهذا يصالح اعداءه — وهذا يلاطف جيرانه

وفي تتبعنا للمقريزي وهو يسرد اخبار الازمات الاقتصادية والغلوات التي حلت بمصر نلمح اشارات عابرة بين ثنايا السطور توضح ما كان يتمتع به هذا المؤرخ من حاسة تاريخية مرهفة ، وقدرة على تلمس الظواهر الاقتصادية وتحليلها والربط بينها . فهو لا يقتصر على السرد ، وانما يعلق احيانا بقدر ما يسمح به حجم كتابه الموجز على الاحداث ، مبديا ما يرتبط بها من مؤشرات اقتصادية متنوعة . ومن ذلك ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ أن المقريزي أبدى الملاحظات الآتية :ـ

١ ـ أن قصور النيل كان يصحبه فورا الغلاء وارتفاع الاسعار ، وكانت أسعار صرف العملة أول ما يتأثر بهذه التطورات . يقول المقريزي في حديثه عن الغلاء الذي حدث سنة ٣٨٧ هـ ما نصه « فارتفعت الاسعار ، ووقفت الاحوال في الصرف ، فان الدراهم العاملة[٩٢] كانت تسمى يومئذ بالدراهم المزايدة والقطع ، فتعنت الناس فيها . وكان صرف الدينار ستة وعشرين درهما منها . فتزايد سعر الدينار الى ان كان في ستة سبع وتسعين كل اربعة وثلاثين درهما بدينار . وارتفع السعر وزاد اضطراب الناس ، وكثر عنتهم في الصرف . . . . »

٢ ـ وكما هي العادة ـ في كل زمان ومكان ـ كثيرا ماكان التجار والباعة يستغلون فرصة الغلاء لتحقيق مكاسب ضخمة . من ذلك ما يذكره المقريزي عند وصفه للغلاء الذي حدث سنة ٦٩٦ هـ على عهد السلطان العادل كتبغا « وكثرت ارباح التجار والباعة ، وازدادت فوائدهم ، فكان الواحد من الباعة يستفيد في اليوم المائة والمائتين ويصيب الاقل من السوقة ربحا في اليوم ثلاثين درهما . وكذلك كانت مكاسب أرباب الصنائع ، واكتفوا بذلك ، طول الغلاء . . » ولم يفت المقريزي أن يوضح مدى ما أصاب هؤلاء المستغلين من بلاء أنزله الله بهم ـ عقوبة لهم ـ حتى « اصيب جماعة كثيرة ممن ربح في الغلال ـ من الامراء والجند وغيرهم في مدة الغلاء ، اما في نفسه بآفة من الآفات ، او باتلاف ماله التلاف الشنيع ، حتى لم ينتفع به . . . »[٩٣] .

٣ ـ ان بعض هذه الغلوات بلغ درجة من القسوة والشدة جعلت الناس يأكلون القطط والكلاب « حتى قلت الكلاب ، فبيع الكلب ليؤكل بخمسة دنانير » بل يذكر المقريزي ان الحال تزايد احيانا « حتى أكل الناس بعضهم

(٩٢) يقصد بالدراهم العاملة ما كان منها مضروبا حسب قوانين الدولة القائمة ، متداولا بين الناس بقيمته الرسمية . انظر كتاب : اغاثة الامة ، للمقريزي ص ١٤ حاشية ٣ . وكذلك ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٥ ـ ٤٦٨ ، dozy : supp. dict arabe

(٩٣) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٣١ ـ ٣٢ .

بعضا ، وتحرز الناس ، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ، ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب ، فاذا مر بهم احد القوها عليه ونشلوه في أسرع وقت وشرحوا لحمه واكلوه »[٩٤] ويقول في وصف غلاء سنة ٥٩٦ هـ « وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بني آدم من الجوع فكان الاب يأكل ابنه مشويا ومطبوخا . والمرأة تاكل ولدها »[٩٥] ومها يكن في هذه الاوصاف من مبالغة غير مستساغة ، فانها تشير الى مدى قسوة تلك الازمات .

٤ ـ لم يفت المقريزي أن يشير الى ان هذه النكبات الاقتصادية التي حلت بالناس منذ أقدم العصور « انما تحدث من آفات سماوية » وان الله سبحانه وتعالى جعلها عقوبة للبشر « اذا خالفوا أمره ، وأتوا محارمه ، أن يصيبهم بذلك جزاء بما كسبت أيديهم »[٩٦] ويبدو أن هذا التعليل كان بمثابة التفسير الاولى الذي حاول به المعاصرون ـ حكاما ومحكومين ـ تعليل المحن التي نزلت بهم . ولذلك كثيرا ما كان الناس في تلك الازمات يعلنون توبتهم ، فيكثرون من الصلاة ، كما يلجأ الحكام الى اصدار الأوامر باراقة الخمور وتحريم تعاطيها في مختلف انحاء البلاد ، اظهارا للتوبة[٩٧] .

٥ ـ ولكن الشعب ـ مع ايمانه بالله وقضائه ـ لم يعف الحكام من مسئوليتهم ازاء هذه المحن . وكان يحدث في كثير من الحالات أن تثور الرعية[٩٨] وقد حدث ايام الغلاء سنة ٧٩٨ هـ أن هدد العوام المحتسب ، فاضطر الى الانقطاع في بيته لا يجرؤ على مغادرته خوفا من العوام . وقد تخوف السلاطين من غضبة العوام فلجأ بعضهم عند حدوث غلاء الى الامر بجمع الفقراء وذوي الحاجات وتوزيعهم على الاغنياء والامراء « بحيث يلتزم كل منهم باطعام عدد معين[٩٩] وفي الغلا الذي حدث سنة ٧٧٦ هـ ، أمر السلطان الأشرف شعبان « بجمع الفقراء ، وفرقهم على الأمراء ومياسير التجار »[١٠٠]

ومع أن المقريزي نفسه يؤمن بأن المحن والكوارث الاقتصادية هي « عادة الله تعالى في الخلق ، اذا خالفوا أمره وأتوا محارمه » ومع أنه نص صراحة في كل أزمة من الازمات الاقتصادية أو الغلوات أن السبب الرئيسي في حدوثها هو نقص النيل وعدم وفائه الا انه عند تعليله للأزمة الطاحنة التي عاصرها سنة ٨٠٦ هـ ـ والتي فيها ألف كتابه « اغاثة الامة » ـ أرجع حدوث هذه الأزمة الى « ثلاثة أشياء لا رابع لها » على حد تعبيره هي :[١٠١]

<u>اولا</u> : السبب الاول ـ ويعتبره المقريزي « اصل الفساد » ـ هو ولاية الخطط السلطانية والمناصب العامة بالرشوة . ومن هذه المناصب ما هو جليل كالوزارة والقضاء ونيابة الاقاليم وولاية الحسبة ، الامر الذي جعل ولايتها « لكل جاهل

---

(٩٤) المقريزي : اغاثة الأمة ص ٢٤
(٩٥) المقريزي : اغاثة الامة ص ٢٩
(٩٦) المصدر السابق ، ص ٤١
(٩٧) المقريزي : كتاب السلوك ، حوادث ٧٠٩ هـ ، ٧٨٨ هـ ، ٨٣٦ هـ .
(٩٨) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ١١
(٩٩) المقريزي : كتاب السلوك ج ٣ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣
(١٠٠) المصدر السابق ، حوادث سنة ٧٧٦ هـ ، وكذلك كتاب اغاثة الأمة ص ٤٠
(١٠١) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٤٣

ومفسد وظالم وباغ ، وكان يكفي أن يتوصل أحد هؤلاء الى بعض رجال حاشية السلطان ويعده بمال للسلطان على ما يريده من الاعمال ، حتى يتسلم ما كان يؤمله من منصب جليل على وجه السرعة ، وغالبا ما يتولى منصبه الجديد وليس معه من المال ما يؤديه للسلطان وحاشيته وفاء لوعده ، فيضطر الى الاستدانة ، ويمد يده الى اموال الرعية ، ويتعسف في الفائها بالالتزامات ليحصل على ما يريد . فاذا كان صاحب الوظيفة متوليا عملا من أعمال الريف ، فانه يثقل كواهل الفلاحين بما يفرضه عليهم من ضيافات سنية وتقادم جليلة من الخيول والرقيق وغير ذلك . ثم يمضي المقريزي في شرحه وتعليله ، فيقول انه لما دهى أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظالم ، اختلت أحوالهم وهجروا الارض ، فقلت مجابي البلاد ومتحصلها لقلة ما يزرع بها ، ولخلو أهلها ورحيلهم عنها ، لشدة الوطأة من الولاة عليهم »(١٠٢)

ثانيا : أما الثاني الذي ذكره المقريزي لهذه الازمة التي عاصرها سنة ٨٠٦ هـ فيقول انه غلاء الاطيان . ذلك أن عدم الامراء ووكلائهم « أحبوا مزيد القرية منهم ، ولا وسيلة أقرب اليهم من المال ، فاستحضروا مستأجري اراضي الامراء من الفلاحين وضاعفوا عليهم قيمة الايجارات عاما بعد عام ، حتى أن ايجار الفدان ـ بعد حوادث هذه الازمة ـ صار عشرة أمثال ما كان عليه قبلها . وهكذا تضاعفت تكاليف الزراعة في الوقت الذي اشتدت ـ وطأة الامراء وأصحاب الاقطاعات على « اهل الفلح وكثرت المغارم في عمل الجسور وغيرها فخرب بما ذكرنا معظم القرى ، وتعطلت اكثر الاراضي من الزراعة . فقلت الغلال وغيرها مما تخرجه الارض ، لموت اكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد من شدة السنين وهلاك الدواب »

ثالثا : أما السبب الثالث والاخير الذي علل به المقريزي حدوث تلك الازمة ، فهو رواج الفلوس . ويعني بالفلوس هنا العملة النحاسية الصغيرة التي كثر استخدامها في ذلك العصر ، حتى طغت على غيرها من الدنانير الذهبية والدراهم الفضية . يقول المقريزي ان « سنة الله في خلقه وعادته المستمرة منذ كانت الخليقة الى ان حدثت هذه الحوادث » هي أن يكون الذهب والفضة فقط قاعدة التعامل بين الناس . وبعد دراسة مفصلة يأتي بها المقريزي عن أصل النقود وتطورها قبل الاسلام . وفي ظل الاسلام(١٠٣) يختص مصر بفصل خاص ، يستهله بالقول بأن الذهب(١٠٤) ظل قاعدة التعامل الاقتصادي في مصر « وسائر دولها جاهلية واسلاما » واما الفضة فكانت تستخدم في مصر حليا وأواني ، وقد يضرب منها الشيء القليل للمعاملات اليومية المحدودة التي تحتاج اليها البيوت وقد تزايد امر الدراهم الفضية منذ ايام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، ومنذ ذلك الوقت ضربت الفضة نقودا في مصر ، وازداد تداول الدراهم الفضية . وهكذا ـ حتى كان عهد السلطان الكامل محمد الأيوبي ، فضرب سنة ٦٢٢ هـ دراهم مستديرة اطلق عليها اسم الكاملية ـ ثلثاها فضة والثلث نحاس . ولم تلبث هذه الدراهم ان حلت محل الذهب في التعامل ، وانتشر استعمالها في مصر والشام بقية العصر الايوبي ، ثم في عصر المماليك « وصارت المبيعات الجليلة تباع وتقوم بها واليها تنسب عامة اثمان المبيعات وقيم الاعمال ، وبها يؤخذ خراج الارضين وأجرة المساكن وغير ذلك . . »(١٠٥)

(١٠٢) المصدر السابق ، ص ٤٣ ـ ٤٤
(١٠٣) المصدر السابق ، ص ٧٤ ـ ٦٢
(١٠٤) المصدر السابق ، ص ٦٢
(١٠٥) المصدر السابق ، ص ٦٥

وأما الفلوس النحاسية فيذكر المقريزي أنها خصصت للمحقرات من الأشياء ، أي للتعامل في الاشياء التافهة التي لا تسمو في قيمتها الى ان تباع بدرهم اوبجزء منه . وقد كثر ضرب الفلوس منذ أيام الكامل الايوبي ، بحيث كان الدرهم الكاملي يصرف بثمانية واربعين فلسا . ومع تتابع الازمات ، اكثر سلاطين المماليك من ضرب الفلوس ، فكثرت وخف وزنها حتى صار التعامل بها منذ سنة ٦٩٥ هـ يتم بالميزان ، بحيث يكون الرطل منها بدرهمين « وكان هذا أول ما عرف بمصر من وزن الفلوس والمعاملة بها وزنا لا عددا »[١٠٦] .

وهكذا حتى كانت ايام السلطان الظاهر برقوق . فأكثر من ضرب الفلوس النحاسية « وبعث الى بلاد الفرنجة لجلب النحاس الاحمر » لضربها ، واتخذ الاسكندرية دار ضرب لعمل الفلوس ، « فكثرت الفلوس بأيدي الناس كثرة بالغة ، وراجت رواجا صارت من أجله هي النقد الغالب في البلد » .

هذه هي الأسباب الثلاثة التي علل بها المقريزي للأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها مصر سنة ٨٠٦ هـ ، والتي دون كتابه « اغاثة الأمة » تحت وطأتها . وبتحليل الاسباب التي ذكرها المقريزي لتلك الازمة ، نجد أنه جمع بين أمرين : أولهما الأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها البلاد سنة ٨٠٦ هـ ، وهذه حدثت مثل غيرها من « الغلوات » السابقة بسبب قصور النيل . يقول المقريزي ما نصه « قصر مد النيل في سنة ست وثمانمائة ، فشنع الأمر ، وارتفعت الأسعار ، حتى تجاوز اردب القمح اربعمائة درهم ، وسرى ذلك في كل ما يباع من مأكول ومشروب وملبوس . وتزايدت أجر الأجراء - كالبناء والفعلة وأرباب الصنائع والمهن - تزايدا لم يسمع بمثله فيما يقرب من هذا الزمن » أما الأمر الثاني فهو اختلال أوضاع الدولة اداريا واقتصاديا ، الأمر الذي جعل الأزمة لا تنفرج رغم زوال سببها الطبيعي المرتبط بنهر النيل .

ففي سنة ٨٠٧هـ « جاء الغوث من عند الله تعالى ، فكثرت زيادة النيل ، وعم النفع به الأقاليم » ومع ذلك فان الاوضاع ظلت سيئة على ما هي عليه ، مما جعل المقريزي يقول « ونحن الآن في أوائل سنة ثمان وثمانمائة ، والامر فيها من اختلاف النقود ، وقلة ما يحتاج اليه ، وسوء التدبير ، وفساد الرأي في غاية لا مرمى وراءها من عظيم البلاء وشنيع الامر . . »[١٠٧] .

والواقع انه اذا كان قصور نهر النيل هو السبب الرئيسي في الغلوات ، والازمات التي تعرضت لها مصر في عصر سلاطين المماليك - وقبل عصر سلاطين المماليك - الا أننا في ضوء كتابات المقريزي نلمس أسبابا أخرى أخذت تبدو في أفق القرن التاسع الهجري الخامس عشر للميلاد - أي على عصر المقريزي نفسه - أدت الى ارتباك اقتصاد البلاد وازدياد الغلاء . وهذه هي الاسباب التي ذكرها المقريزي ، واعتبرها أس الفساد وأصل البلاء .

(١٠٦) المصدر السابق ، ص ٧٠
(١٠٧) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٤٢ - ٤٣

وهنا ينبغي أن نشير الى الفارق الواضح بين السبب الطبيعي المرتبط بقصور النيل والذي كثيرا ما ترتبت عليه أزمات طاحنة ـ وبين الأسباب الاخرى التي فسر بها المقريزي سوء أوضاع البلاد والعباد سنة ٨٠٨ هـ . فالجانب الاول المرتبط بقصور النيل ـ مع قسوته وشدته وخطورة آثاره ـ يشكل سببا طارئا مؤقتا لا يلبث أن يزول بعد عام أو اكثر بارتفاع منسوب المياه في نهر النيل ، وعندئذ يعود الرخاء ، وتعود الحياة الاقتصادية ـ وغير الاقتصادية ـ الى طبيعتها بالتدريج .

أما الاسباب الثلاثة التي ذكرها المقريزي ، وفسر في ضوئها سوء الأوضاع سنة ٨٠٨ هـ فترجع في جوهرها الى الفساد الذي أخذ يدب في جسم الدولة بعد أن انحل نظامها وفقدت اتزانها ودبت الشيخوخة المبكرة في جسمها .

ولم تغب هذه الفوارق بين الجانبين عن المقريزي ، فيقول في مقدمة كتابه « اغاثة الامة » ما نصه « وبعد ، فانه لما طال أمد هذا البلاء المبين ـ يعني أزمة ٨٠٦ ـ ٨٠٨ هـ وحل فيه بالخلق أنواع العذاب المهين ، ظن كثير من الناس ان هذه المحن لم يكن فيما مضى مثلها ، ولا مر على زمن شبهها . . . ومن تأمل هذا الحادث من بدايته الى نهايته ، وعرفه من أوله الى غايته ، علم أن ما بالناس سوى تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد ، لا أنه كما مر من الغلوات والقحط من السنوات المهلكات ، الا أن ذلك يحتاج الى ايضاح وبيان ويقتضي الى شرح وتبيان »[(١٠٨)] .

وهكذا ، فان المقريزي عندما يجعل لكتابه عنوان « اغاثة الامة بكشف الغمة » فانما يقصد بالغمة أزمة ٨٠٦ ـ ٨٠٨ هـ . وعندما يحرص على سرد أخبار الغلوات ، والأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر منذ فجر التاريخ ، فانه يفعل ذلك لاثبات حقيقة كبرى سيطرت على فكره وسعى لاثباتها ، هي أن أزمة ٨٠٦ ـ ٨٠٨ هـ تختلف في أسبابها الجوهرية عن الأزمات السابقة . فاذا كانت الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر منذ أقدم العصور ترتبط أساسا بقصور النيل وعدم وفائه وانخفاض مستوى الفيضان فان أزمة ٨٠٦ ـ ٨٠٨ هـ . في نظره ليست الا نتيجة لسبب رئيسي هو « سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح البلاد والعباد » .

وقد سبق أن أشرنا الى أن المقريزي عاصر فترة انتقال خطيرة في دولة سلاطين المماليك ، انتقال من الجد والسؤدد والنظام والانضباط والانتعاش الاقتصادي ، الى وضع آخر ـ كثيرا ما يصاحب الدول في خريف عمرها ـ ويتصف بالفساد والخلل الاداري والاقتصادي ، والتفكك الاجتماعي والخلقي . وقد انتقد المقريزي في كتاباته ما صار اليه نظام المماليك في أيامه من انحلال ، بعد أن انعدمت بينهم روح النظام والطاعة التي ميزت أسلافهم ، وحلت محلها روح التمرد والعصيان « فاستطار شرهم ، وتعدوا في الضُرْطُورْهم ، حتى خافهم أعيان أهل الدولة . . . »[(١٠٩)] وبعد أن كان المماليك في أوائل دولتهم مضرب المثل في الانضباط وحسن النظام والطاعة ، صاروا على ايام المقريزي مصدر الفوضى وسوء النظام ، وصاروا ينتشرون في الطرقات والاسواق لنهب الحوانيت ، وخطف العمائم ، وانتزاع الخيول

---

(١٠٨) المصدر السابق ، ص١٠٣

(١٠٩) المقريزي : كتاب السلوك ـ الجزء الرابع ـ حوادث سنة ٨٣٣ هـ

من أصحابها . بل كانوا أحيانا يهجمون على النساء في بيوتهم وفي الحمامات فيخطفونهن(١١٠) . وقد بلغ حنق المقريزي على ما صار اليه أمر المماليك في أيامه من فوضى وسوء خلق ونظام ، انه لم يتمالك نفسه فوصفهم بأنهم « ليس فيهم الا من هو أزنى من قرد ، وألص من فأره ، وأفسد من ذئب »(١١١) .

ومن هذا المنطلق علل المقريزي سوء الاحوال الاقتصادية بمصر سنة ٨٠٨ هـ . فأرجع أصل الفساد الى عدم كفاية القائمين على شئون الدولة ، والمتولين لشتى وظائفها الكبرى ، لان غالبيتهم تولى منصبه عن طريق الرشوة ، ولذا لم تتوافر فيهم الأهلية والكفاية . بل ان وظائف الدولة صارت « مثل الأموال المملوكة يبيعها صاحبها اذا شاء ويرثها بعده صغار ولده ، وسرى ذلك حتى في التداريس الجليلة وفي نظر الجوامع والمدارس ومشيخة التصوف . فيالنفس جدي ان دهرك هازل »(١١٢) .

ثم ان المقريزي انتهز فرصة تدوين حولياته الكبرى المعروفة باسم « كتاب السلوك » للاتيان بأمثلة واقعية تثبت ماردده من آراء في كتابه « اغاثة الأمة » عن عدم كفاية القائمين على شئون الدولة . من ذلك أنه أشار في حوادث سنة ٨٠٨ هـ الى أن الوظائف العامة صار يليها غير أهلها عن طريق الرشوة ودفع الأموال ، حتى أن أحد باعة السكر استقر في وظيفة حسبة مصر « فكان هذا من أشنع القبائح وأقبح الشناعات !! »(١١٣) ويؤكد المقريزي هذا المعنى مرة أخرى في سرده لحوادث سنة ٨٣٥ هـ عندما يقول « غير أن الكفاءة غير معتبرة في زماننا ، بحيث أن بعض السوقة ممن نعرفه ولي كتابة السر بحماه على مال قام به . . »(١١٤) ويلقي المقريزي بمسئولية هذا كله على القائمين على أمر الدولة ، لأنهم لا يلتزمون بقرار « فتزايدت المضرة لكثرة التناقض وعدم الثبات على الأمر ، واستخفاف العامة براعيها وقلة الاحتفال بما يرسم »(١١٥)

وينتقل المقريزي ـ كما رأينا ـ الى سوء أوضاع الريف في مصر ، لكثرة المظالم المتنوعة التي حلت بالفلاحين في ظل النظام الاقطاعي ، وهو النظام الذي طبقه المماليك في مصر بروح استغلالية متطرفة . ولم يقتصر الأمر على رفع قيمة ايجارات الاراضي الزراعية ، بل تعدى ذلك الى تسخير الفلاحين في كثير من الاعمال دون أجر ، وجمع أموال اضافية منهم « غير العادة اضعافا »(١١٦) وعند وصول الشد ـ المكلف بجمع الأموال الى القرية ، توزع نفقات اقامته على الفلاحين من حيث الأكل والشرب ، وما تحتاج اليه دوابه من عليق ، ويلزم الفلاح بكل ذلك قهرا ، مهما يبلغ فقره . وربما هرب الفلاح لضيق ذات يده ، فتلزم زوجته واولاده بالمطلوب ، وتضطر الى بيع ما لديها لشراء ما يلزم الشد من

(١١٠) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ١١٤ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١١ ، سعيد عاشور : المصري ص ٨٨ ، ٨٩ .

(١١١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ص ٣٤٨ (الطبعة الأهلية)

(١١٢) المقريزي : كتاب السلوك ـ الجزء الرابع

(١١٣) المقريزي : كتاب السلوك ـ الجزء الرابع ـ حوادث سنة ٨٠٨ هـ

(١١٤) المصدر السابق ـ نفس الجزء ـ حوادث سنة ٨٣٥ هـ

(١١٥) المصدر السابق ـ نفس الجزء ـ حوادث سنة ٨٣٤ هـ

(١١٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ٣٠٢

دجاج ولحم[١١٧] وهكذا عاش الفلاحون في عصر سلاطين المماليك « في حال من المظالم معروفة » على حد قول المقريزي[١١٨] . وقد أدرك المقريزي ريف مصر وأهله على حال من الفقر والحرمان لا يعرفون النقود ، فيشترون الكثير من حوائجهم ببعض الدجاج وبنخال الدقيق ، لان « الغلال معظمها لأهل الدولة ، اولي الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت في اللذات رغباتهم ، فخرب معظم القرى لموت اكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد»[١١٩] ويبلغ الأمر من سوء معاملة الفلاحين في ذلك العصر أنه كان لا يسمح لأحدهم بأن يلبس متزرا أسود أو يركب فرسا ، أو يتقلد سيفا ، أو حتى يحمل عصا مجلبة بالحديد[١٢٠] . وقد ترتب على سوء أوضاع الريف وكثرة المظالم التي حلت بأهله ، ان كثرت الهجرة من الريف وبخاصة الى القاهرة ، حتى نودي سنة ٨٢٧ هـ . « بخروج أهل الريف من القاهرة ومصر الى بلادهم فلم يعمل بذلك »[١٢١] .

وأخيرا يأتي المقريزي بالسبب الثالث الذي علل به للخلل الاقتصادي وارتفاع الأسعار سنة ٨٠٨ هـ ، وهو كثرة الفلوس النحاسية ، والاعتماد عليها كنقد أساسي ، واستعمالها في المعاملات المالية الكبرى ، دون الذهب والفضة أو بعبارة أخرى دون الدينار والدرهم . ومهما يقال في الفلوس فهي دون شك عملة رديئة لانها معدن رخيص ، اذا قورنت بالنقود الذهبية والفضية ، ولذا نستطيع ان نقول ان المقريزي سبق عالم الاقتصاد الانجليزي جريشام بنحو قرن من الزمان ، عندما أعلن قانونه الشهير بأنه اذا وجدت في السوق عملتان احداهما رديئة والأخرى جيدة ، فان ـ العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق .

ثم أن المقريزي يتهم الحكام باثارة ظاهرة عدم الاستقرار الاقتصادي في السوق لانهم أكثروا من زيف النقود المتداولة بين الناس ، كما انهم لم يكتفوا بالاكثار من ضرب الفلوس النحاسية فحسب ، وانما اختلفوا في تقدير وزنها ، فحينا يكون الرطل منها بستة دراهم ، واحيانا باثنى عشر درهما ، وربما صار بدرهمين ونصف . وفي جميع الحالات ارغم التجار والاهالي على التعامل بها وفق القيمة التي تحددها الحكومة ، مما اضطر كثيرين من التجار الى حبس بضائعهم تجنبا لبخسها ، ويصحب هذه الحالة ارتفاع الأسعار وارتباك السوق وقلة الخبز[١٢٢] . وبحاسة اقتصادية قوية ، يربط المقريزي ـ في كتاب السلوك ـ بين ارتفاع سعر الذهب من ناحية وارتفاع اثمان البضائع واجور العمال وايجار الاراضي من ناحية أخرى[١٢٣]

واخيرا فان المقريزي لم يحصر أفقه الاقتصادي داخل مصر أو داخل دولة سلاطين المماليك ، وانما يحرص على أن يربط بين أسعار النقود في مصر وأسعار العملات العالمية الأجنبية . من ذلك أنه يثمن بها الدينار الافرنتي والدينار التركي

---

(١١٧) سعيد عاشور : المجتمع المصري سلاطين المماليك ، ص ٥٠

(١١٨) المقريزي : كتاب السلوك ج ٤ ص ٤٦٩

(١١٩) المقريزي : اغاثة الأمة ص ٣٩ ـ ٦٠

(١٢٠) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٩٤٦

(١٢١) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨٢٧ هـ .

(١٢٢) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٤٧ وما بعدها ، كتاب السلوك ج ٢ ص ١٧ ، سعيد عاشور : المجتمع المصري ص ٨٨

(١٢٣) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨٠٩ هـ

والدينار المغربي ، كما أنه يقارن بين الدنانير السابق سكها في مصر كالدينار الناصري والدينار السالمي ، ويتعرض خلال ذلك الى ما دخل على كل عملة من غش وزيف(١٢٤) بل انه يعرض في حوادث سنة ٨١٨ هـ ، على بيان أصناف الذهب وسعر كل صنف(١٢٥) .

هذا عن بعض ملامح الجانب الاقتصادي في كتابات المقريزي . أما الجانب الاجتماعي في كتاباته فلا يقل شأنا وأهمية . وهنا نلاحظ أنه اذا كان باستطاعة المقريزي ان يفرد كتابا من كتبه ـ مثل كتاب « اغاثة الأمة » لدراسة الاوضاع والمشاكل الاقتصادية التي عاصرها ، فان الامر اختلف بالنسبة للجانب الاجتماعي . ذلك أنه كان من الصعب على مؤرخ او عالم في تلك العصور أن يتعرض في بحث مستقل لصميم أوضاع المجتمع ، وهي اوضاع حساسة في ظل التقاليد التي سادت المجتمع عندئذ ، فضلا عن نظرة الناس الى الحياة ومشاكلها من خلال الدين . ولما كانت الاوضاع الاجتماعية مرتبطة في تلك العصور باحكام الدين وآدابه من ناحية ، وبالظروف الاقتصادية من ناحية أخرى ، فاننا نرى بعض العلماء والفقهاء انتقدوا مالمسوه من انحلال اجتماعي من خلال كتاباتهم الفقهية ـ مثلما فعل ابن الحاج(١٢٦) ، في حين انتقد البعض الآخر سوء أوضاع المجتمع من خلال سرده التاريخي او معالجته للجوانب الاقتصادية ، مثلما فعل المقريزي .

على أنه لا يقلل من قيمة الملاحظات الاجتماعية التي ابداها المقريزي انها جاءت متناثرة بين ثنايا كتاباته الاخرى ـ سياسة كانت أو اقتصادية أو عمرانية ـ لان العبرة بعمق النظرة التي نظر بها المقريزي الى المجتمع ومشاكله ، وروح الأمانة والصدق التي صور بها بعض الاوضاع وانتقد بها البعض الآخر . حقيقة ان التقاط مثل هذه الملاحظات المتناثرة من مؤلفات المقريزي عملية ليست بالسهلة ، ولكننا نستطيع بشيء من الجهد والمثابرة أن ننسج من تلك الخيوط صورة واضحة لبعض ملامح الحياة الاجتماعية على عصر المقريزي .

وقد وضع المقريزي تقسيما للمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك فقسم أهل مصر ـ في الجملة ـ الى سبعة أقسام : أهل الدولة ـ ويعني بهم المماليك ـ وأهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوي الرفاهية ، والباعة ومتوسطو الحال من التجار ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة وأهل الفلح وهم « الزراعات والحرث وسكان القرى والريف » ، والفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة وارباب الصنائع والاجراء أصحاب المهن ، واخيرا ذوو الحاجة والمسكنة وهم « السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم »(١٢٧)

ومهما يكن في هذا التقسيم من ثغرات ، فمن الواضح أن المقريزي أتى به في سياق دراسة اقتصادية ، ولذا فانه حرص على أن يوضح الحالة الاقتصادية لكل شريحة من شرائح المجتمع التي ذكرها . ولا يخفى عنا أن الوضع

---

(١٢٤) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨١٤ هـ

(١٢٥) المقريزي السلوك ، ج ٤ ص ٨١٨

(١٢٦) نؤكد في هذا الصدد على أهمية كتاب المدخل ، أو مدخل الشرع الشريف على المذاهب ، لأبي عبد الله محمد بن محمد العبدري ، الشهير بابن الحاج ، المتوفى سنة ٧٣٧ هـ . وقد تعرض فيه المؤلف الكثير من الأوضاع الاجتماعية السيئة التي تفشت في تلك العصر والتي تعارضت مع أحكام الشرع الشريف (أربعة أجزاء ، القاهرة ١٩٢٩)

(١٢٧) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٧٢ ـ ٧٣

الاجتماعي يتأثر الى حد كبير بالوضع الاقتصادي وخاصة في تلك العصور التي عاصرها المقريزي وكتب عنها . هذا الى انه في اشاراته المتناثرة ، يأتي بملاحظات اجتماعية طريفة وجديدة ، قد لا نجد لها شبيها في بقية المصادر . فهو في كلامه عن طوائف المماليك يشير الى أصولهم ، ويوضح كيفية جلبهم والقواعد المتبعة في تسميتهم ، ويلقي الأضواء على أسلوب تربيتهم ونشأتهم ، ويفسر الروابط بين المملوك وأستاذه ـ أي سيده الذي امتلكه وأشرف على تربيته ولم يضن عليه بعطف أو مال ـ والعلاقة بين المماليك بعضهم وبعض ، ومدى ما كانت تتمتع به طبقة المماليك من ثراء ومظاهر هذا الثراء ومصادره . وهكذا حتى ندرك السنوات الاخيرة من حوليات المقريزي فنلمس كثيرا من الاشارات الى تطرق الفساد الى نظام المماليك ، وانحلال أمرهم ، وانعكاس ذلك على أوضاع الدولة(١٢٨)

ثم ان كتابات المقريزي تزخر باشارات متناثرة توضح علاقة طبقات المجتمع بعضها ببعض من ناحية ، وعلاقاتها بالحكام من ناحية اخرى . من ذلك أنه يشير الى ان سلاطين المماليك في مصر حرصوا على احترام العلماء والفقهاء و لان بهم عرفوا دين الإسلام وفي بركتهم يعيشون »(١٢٩) ويقول ان بعض السلاطين كان اذا دخل عليه عالم أو أحد رجال الدين انتصب له قائما(١٣٠) وربما حرص بعض السلاطين على أن يشيع عالما تولى فيمشي على قدميه أمام نعشه . وقد يحاول السلطان حمل النعش على كتفه ، فتحمله أكابر الأمراء عنه(١٣١)

أما التجار ، فصاروا موضع حسد السلاطين وطمعهم ، لما كانوا فيه من ثروة طائلة في ذلك العصر ، فتمادى بعض السلاطين في فرض الرسوم عليهم ، بل ربما في مصادرتهم ، حتى ذكر المقريزي أن بعض التجار « دعوا على أنفسهم أن يفرقهم الله حتى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيهم »(١٣٢) وفي بعض الحالات كان السلطان يحتكر صنفا او يحتكره لبيعه للتجار بأثمان باهظة يفرضها عليهم ، مما يسبب لهم خسارة بالغة ، حتى « اشتد الأمر على التجار لرمي البضائع عليهم بزيادة الأثمان والقيم ، وكثرت المصادرات في الولاة وأرباب الأموال »(١٣٣) . وشتان بين هذا الوضع الذي آل اليه أمر التجار في اواخر عصر سلاطين المماليك ، وبين ما كانوا فيه من تكريم وتشجيع ورعاية في اوائل ذلك العصر .

ويستشف من كتابات المقريزي أن رقيقي الحال ـ من الفقراء والمعدمين ـ كانوا دائما أبدا موضع عطف ورعاية بقية قطاعات المجتمع ، فحرص كثير من السلاطين والاثرياء والميسورين على اقامة المؤسسات الخيرية ، ووقف الأوقاف عليها ، لرعاية الفقراء اجتماعيا وصحيا من ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس خصص وقف الطرحاء لتغسيل فقراء

---

(١٢٨) المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٢ ص ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٧١٦ وكتاب المواعظ والاعتبار (الخطط الأخيرة) ج ٣ ص ١١٢ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ج ٤ ص ٧٨ ، ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

(١٢٩) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٣٨٣

(١٣٠) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ٥٢٣

(١٣١) المصدر السابق نفس الجزء ، ص ٤٤٤ ـ وانظر ايضا : سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص ٢٨ ، ٣٠

(١٣٢) المقريزي : السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٤١

(١٣٣) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٣٨

المسلمين وتكفينهم ودفنهم[١٣٤] . وفي أوقات الشدائد والمحن والغلوات كان الفقراء يوزعون على الأغنياء ، بحيث يلتزم كل غني باطعام عدد معين منهم[١٣٥]

أما أهل الذمة - وبخاصة أقباط مصر - فيفهم من كتابات المقريزي أنهم عاشوا غالبا في طمأنينة ، حتى انه ذكر أديرتهم بالوجه القبلي فبلغ عددها ثمانية وخمسين ديرا ، يحمل النصارى الى رهبانها النذور والقرابين[١٣٦] . وكان للأقباط في مصر بطرك يخلع عليه السلطان خلعة البطركية[١٣٧] ، كما أنهم تمسكوا بلغتهم القبطية في محادثاتهم فيما بينهم وبين بعض[١٣٨] ولم يكن اليهود في مصر أقل حظا في التمتع بحقوقهم ، فاحتفظوا بعوائدهم ونظمهم الموروثة ، كما احتفظوا بمعابدهم التي عددها المقريزي[١٣٩] . ومع ذلك فان المقريزي لم يتناس أن اليهود والنصارى جميعا تعرضوا أحيانا في ذلك العصر في فترات محددة - لبعض ألوان الاضطهاد ، لأسباب طارئة مؤقتة ، ذكرها[١٤٠]

أما الفلاحون ، فيذكر المقريزي أنهم عاشوا « في حال من المغارم معروفة »[١٤١] فوقعوا بين شقي الرحى بين استغلال الحكام وبطش العربان . وقد سبق أن أشرنا الى أوضاع الريف والفلاحين ، أما العربان الذين انتشروا في أقاليم متعددة ، فقد رفضوا في أول الامر الخضوع للمماليك ، ووصفوا سلطانهم - على حد قول المقريزي - بانه « مملوك قد مسه الرق »[١٤٢] بل لقد تمادى العربان وقالوا « نحن اصحاب البلاد ، ونحن أحق بالملك من المماليك وهم خوارج خرجوا على البلاد »[١٤٣] ولم يقتصر أذى العربان في ذلك العصر على الريف وأهله ، بل ان المدن الكبرى - مثل اسيوط والاسكندرية - لم تسلم من اغاراتهم وعبثهم وعدوانهم على أهلها[١٤٤] .

ويتعرض المقريزي للحياة الاجتماعية في القاهرة والمدن الكبرى ، فيصفها بالعظمة والاتساع وكثرة السكان وتنوعهم ، وكثرة المنازل وضيق دروبها وطرقاتها ، واكتظاظها بالمارة والسوقة والدواب[١٤٥] واظهر الحكام في ذلك ابوابها ، ويرتب جماعة من الطواف لكشف الازقة وتفقد الطرقات وتأديب المخالفين ، ومن سار بالليل لغير سبب مقبول العصر حرصا شديدا على اقرار الامن في المدن ليلا ونهارا ففي الليل كانت شوارعها وطرقاتها تضاء بالمصابيح وتغلق

---

(١٣٤) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٦٣٨
(١٣٥) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٢٤٢ - ٢٤٣
(١٣٦) المقريزي : اخبار قبط مصر ، ص ٣٦ - ٩٤ .
(١٣٧) المقريزي : كتاب السلوك ، ، ج ١ ص ٣٨٦
(١٣٨) المقريزي : اخبار قبط مصر ، ص ٤٣
(١٣٩) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٤٦٤ وما بعدها (بولاق)
(١٤٠) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٩٠٩
ذكر دخول قبط مصر ، ص ١٤٨ .
(١٤١) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ص ٤٦٩
(١٤٢) المقريزي : البيان والاعراب ، ص ٩
(١٤٣) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٣٨٦
(١٤٤) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٩٢٠
(١٤٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٣٧٢ وما بعدها (بولاق)

قبض عليه[١٤٦] ومن ناحية أخرى ، شدد سلاطين المماليك العناية بنظافة القاهرة وكنس شوارعها ورشها بالماء ، وأمر أرباب الحوانيت بان تكون عند أبواب حوانيتهم أزيار مملوءة بالماء لتسهيل اطفاء ما قد يقع من حريق[١٤٧] .

والمقريزي عندما يعالج ما حفلت به القاهرة من مؤسسات تجارية وغير تجارية ، لا يغفل عن الاشارة الى ما كان لبعض هذه المؤسسات من نشاط اجتماعي ، وما كان يعج به بعضها من تيارات اجتماعية قوية ، ذلك أن المدن الكبرى ـ وبخاصة القاهرة ـ زخرت بمؤسسات ذات صفة دينية كالمساجد والخانقاوات ، أو ذات صفة تعليمية ثقافية كالمدارس ، أو ذات صفة صحية كالبيمارستانات ، او ذات صفة تجارية كالخانات والوكالات والفنادق . ولكن هذه المؤسسات على تباين صفاتها لم تخل من نشاط اجتماعي ، وهو ما حرص المقريزي على ايضاحه وبيان ما كان يجري داخلها من تيارات اجتماعية ينعكس صداها على المجتمع الخارجي .

هذا الى ان المقريزي في تصويره للمجتمع المصري ، حرص على أن يؤكد روح المرح والفكاهة التي اتصف بها أهل مصر ، فوصفهم تارة « بالبشاشة التي أربوا فيها على من تقدم وتأخر . وخُصّوا بالافراط فيها دون جميع الامم حتى صار أمرهم في ذلك مشهورا والمثل بهم مضروبا »[١٤٨] وتارة أخرى ربط المقريزي بين مرح أهل مصر من ناحية وبين شعور اللامبالاة الغالب على بعضهم من ناحية أخرى ، ورد في ذلك عبارة أخذها عن ابن خلدون « قال لي شيخنا الاستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى ، أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب »[١٤٩] .

ويضرب المقريزي أمثلة على ذلك بحب أهل مصر للتسلية والخروج الى المتنزهات كالحدائق والبرك وغيرها[١٥٠] هذا فضلا عن ركوب نهر النيل مليئا في وقت الفيضان واستئجار القوارب والسفن ، واستصحاب المغاني وجوقات العوالم معهم[١٥١] بل يذكر المقريزي أن صاحب اليمن عندما أتى لزيارة مصر ، حرص على أن يصطحب معه عند عودته الى بلاده سنة ٧٥٥ هـ « كثيرا من الصناع والمساخر وارباب الملاهي »[١٥٢] وكثيرا ما كان الناس يتلهون ببعض الألعاب ، مثل تطيير الحمام والمناطحة بالكباش والمناقرة بالديوك وغيرها[١٥٣] . ولم يسلم الحكام من نكات المصريين اللاذعة ، فاطلق العوام على امراء المماليك القابا وتسميات تهكمية قارصة . ومن هؤلاء الأمير عز الدين ايغان وقد اطلقوا عليه لقب « سم الموت » والامير سيف الدين ملكتمر الناصري وقد اطلقوا عليه لقب « الدم الاسود » وناصر الدين ـ متولي حسبة مصر ـ وقد اطلقوا عليه « فأر السقوف » . . . . وغير ذلك »[١٥٤]

---

(١٤٦) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ١٩
(١٤٧) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٦٦٧ كتاب المواعظ ج ٢ ص ١٧١ (الاهلية)
(١٤٨) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٩ (بولاق)
(١٤٩) المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ٥٠ (بولاق)
(١٥٠) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٤٧ (الأهلية)
(١٥١) المقريزي : المواعظ ، ج ٣ ص ٢٣٢ ، ٢٤٤ (الأهلية)
(١٥٢) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ، حوادث سنة ٧٥٥ هـ
(١٥٣) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٧٧٤
(١٥٤) المقريزي : كتاب السلوك ج ١ ص ٥٢٣ ، ج ٢ ص ١٤١ ، ص ٦١٤ ... الخ

وعندما يتكلم المقريزي عن قرافة مصر والقاهرة ، لا يكتفي بأن يوضح الدور الرئيسي للقرافة بوصفها دارا للموتى فحسب ، ويتتبع ما أقيم فيها من البيوت والزوايا والمدارس ـ وغيرها ، بل حرص المقريزي على أن يشير الى أن القرافة في ذلك العصر شهدت نشاطا اجتماعيا واسعا في حياة الترح وحياة الفرح سواء ، اذ صارت من جملة متنزهات مصر ، وصار البعض يدعون الأهل والأصدقاء اليها حيث يقيمون فيها ولائم صاخبة ، يكثر فيها الغناء والرقص . وربما عم الفساد نتيجة لاختلاط النساء بالرجال »[١٥٥]

ويلمح المقريزي ـ ضمن كتاباته ـ الى الأفراح العائلية في عصره ، فيرسم صورة لفرح من أفراح القصور والسلاطين ، هو احتفال السلطان الناصر محمد سنة ٧٣٢ هـ بزواج ابنه الأمير آنوك ، فأمر السلطان : « باحضار جميع من بالقاهرة ومصر من أرباب الملهى الى ـ الدور السلطانية ، ووقع الشروع في عمل الخوان ، فأقام المهم سبعة أيام بلياليها . . فلما كانت ليلة السابع منه جلس السلطان على باب القصر ، وتقدم الامراء على قدر مراتبهم واحدا بعد واحد ، ومعهم الشموع . فاذا قدم الواحد ما احضره من الشمع قبل الارض وتأخر . وما زال السلطان بمجلسه حتى انقضت تقادمهم ، فكانت عدتها ثلاثة آلاف شمعة زنتها ثلاثة آلاف وستون قنطارا . . . حتى اذا كان آخر الليل نهض السلطان ، وعبر حيث مجتمع النساء ، فقامت نساء الأمراء بأسرهن ، وقبلن الارض واحدة بعد اخرى ، وهي تقدم ما احضرت من التحف الفاخرة والنقوط ، حتى انقضت تقادمهن جميعا . ورسم السلطان برقصهن عن آخرهن ، فرقصن أيضا واحدة بعد واحدة ، والمغاني تضرب بدفوفهن ، وأنواع المال من الذهب والفضة وشقق الحرير يلقي على المغنيات ، فحصل لهن ما يجل وصفه ، ثم زفت العروس . . . . فكان هذا العرس من الأعراس المذكورة ، ذبح فيه من الغنم والبقر والخيل والأوز والدجاج ما يزيد على عشرين الفا ، وعمل فيه من السكر برسم الحلوى والمشروب ثمانية عشر الف قنطار[١٥٦]

ومن العادات الطريفة التي أشار اليها المقريزي انه كان يراعى أن يتضمن شوار العروس دكة لنحاس مكفت . والدكة عبارة عن شيء يشبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس وفوق الدكة دست طاسات من نحاس اصفر مكفت بالفضة . وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض ، تبلغ كبراها ما يسع الاردب من القمح . وتبلغ قيمة الدكة ما يزيد على مائتي دينار ذهبا . فاذا كانت العروس من بنات الامراء أو الوزراء أو الاعيان ، فانها تجهز في شوارها بسبع دكك[١٥٧] وفي ليلة الدخلة يخرج العريس قاصدا بيت العروس في موكب كبير يحف به الاهل والاصدقاء . وهناك في بيت العروس يقام حفل الزفاف الذي تحييه جوق المغاني ، ويختلط فيه الغناء بضرب الدفوف وزغاريد النساء من المدعوات اللاتي يحرصن على ارتداء أفخر الملابس والمجوهرات[١٥٨] . وكثيرا ما يتفاخر المدعوون والمدعوات بتقديم النقوط الى المغاني وتقديم الهدايا الى اصحاب العرس ، وتكون هذه الهدايا من الشمع والتحف الفاخرة والخراف والسكر والأوز . . . وغيرها[١٥٩]

---

(١٥٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٣١٩ (الأهلية)

(١٥٦) المقريزي : كتاب السلوك ج ٢ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٦ (حوادث سنة ٧٣٢ هـ)

(١٥٧) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ١٠٥ (بولاق)

(١٥٨) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٤٢٦ ، ٦٠١

(١٥٩) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦

ومن المناسبات الاجتماعية التي كان يحتفل بها احتفالا كبيرا في ذلك العصر « النفاس والولادة » فاذا كان المولود ذكرا تضاعف الحفل ، ويقيم أهل المولود وليمة كبيرة يدعي اليها الاصدقاء ، ويبالغ في عمل الوان الطعام الفاخر ، هذا عدا مظاهر التكريم التي تضاعف لام المولود في هذه الحالة[١٦٠] اما ختان الطفل ، فكان يحتفل به - احتفالا كبيرا - قد يستمر ثلاثة أيام - ولا بد للمدعوين في هذه الحالة من تقديم النقوط لاهل الطفل ، ويضعونه في « الطشت الذي يطاهر فيه الولد »[١٦١]

وفي الحياة الاجتماعية التي حفلت بها مصر في عصر سلاطين المماليك ، لم يفت المقريزي أن يشير - من قريب أو بعيد - الى دور المرأة في الحياة العامة . ففي الحياة السياسية يشير المقريزي بين حين وآخر الى تدخل بعض زوجات السلاطين في شؤون الحاكم مثل ست حدق ، زوج السلطان الناصر محمد ، وكان لها دور ملحوظ في شئون الدولة ، وكلمة مسموعة عند السلطان ، حتى ان التجار لجأوا اليها لرفع بعض المظالم عنهم[١٦٢] . وفي الحياة العلمية يشير المقريزي الى بعض النساء اللائي اشتغلن بالفقه والحديث ، وشارك بعضهن في الحديث بصحيح البخاري في قلعة الجبل الى جانب الفقهاء[١٦٣] ويتكلم المقريزي عن التصوف والزوايا والاربطة - فيسهب في الكلام عن دور المرأة في حياة التصوف من ذلك ما يقوله عن رباط البغدادية « وما برح (هذا الرباط) الى وقتنا هذا يعرف سكانه من النساء بالخير ، وله دائما شيخة تعظ النساء وتذكرهن وتفقههن . وآخر من أدركنا فيه الشيخة الصالحة سيدة نساء زمانها أم زينب فاطمة بنت عباس البغدادية . . »[١٦٤] ولم يكن دور المرأة في الاسواق والطرقات والحمامات والمتنزهات أقل شأنا . ويذكر المقريزي ان بعض سلاطين المماليك حاول منع النساء من الخروج الى الطرقات او الذهاب الى المقابر ومواضع النزهة ، ولكن ذلك المنع لم يستمر الا زمنا محدودا ، يعود بعده الحال الى ما كان عليه[١٦٥] وربما احترفت « بنات الهوى » الايقاع بالرجال فتخرج الواحدة الى الطريق وقد استكملت زينتها لتستدرج رجلا الى حيث يتم سلب امواله وقتله - بأيدي اعوانها[١٦٦] .

ويستطيع الباحث العثور في كتابات المقريزى على ملاحظات توضح ملابس النساء في عصره . من ذلك مايقوله من ان النساء كن يستعملن القنائع ، وهي مناديل توضع فوق الرأس والوجه[١٦٧] . أما غطاء الرأس فكان عبارة عن عصبة تلبسها المرأة بحيث يكون أولها عند جبينها وآخرها مدلى على ظهرها ، وتسمى هذه العصبة « الشاش »[١٦٨] على أنه مما

(١٦٠) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٢
(١٦١) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٤١٩ - ٤٢٠ ، ج ٤ ص ٤٦٦
(١٦٢) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٤١٢
(١٦٣) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ١٦٩
(١٦٤) المقريزي : كتاب المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ - ٤٢٨
كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ .
(١٦٥) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ص ٤٢١ ، ٨٢٣
(١٦٦) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحات .
(١٦٧) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٤٣٣ .
(١٦٨) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٥٤

يسترعى الانتباه مايذكره المقريزى من أن النساء فى عصره كن يعمدن أحيانا الى تقليد الرجال فى زى الرأس فلبسن الطواقى ، وتعممن بالعمائم ، حتى اضطر السلاطين الى المناداة « بأن امرأة لاتتعمم بعمامة ولاتتزيا بزى الرجال ، ومن فعلت ذلك بعد ثلاثة ايام سلبت ماعليها من الكسوة »[١٦٩] . وقد حاول المقريزى أن يلتمس للنساء بعض العذر فى ذلك ، فقال ان الضرورة هى التى فرضت عليهن محاكاة الرجال فى لبس الطواقى السابقة ، بسبب ما نزل من فقر وفاقة ، فتعذر على نساء عصره محاكاة الأوائل فى لبس الشاشات الفاخرة ، ولكن هذا التبرير لايتفق مع قول المقريزى إن هؤلاء النسوة اعتدن ان يزخرفن الطواقى بالذهب والحرير ، ويبالغن فى ذلك[١٧٠] وربما كان أقرب الى الواقع ماذكره المقريزى فى موضع آخر من كتاباته لتعليل هذه الظاهرة ، وهو ما سنشير اليه فيما بعد .

والواقع انه يفهم من الملاحظات التي أبداها المقريزي أن بعض النساء في ذلك العصر بالغن في ثيابهن ، سواء من ناحية الهيئة أو القيمة ، حتى بلغ الامر بين احيانا أن تفصل الواحدة قميصها من اثنين وتسعين ذراعا من القماش البندقي الذي عرضه ثلاثة أذرع ونصف ، وبذلك تصبح مساحة القماش الذي يفصل منه القميص اكثر من ثلثمائة وعشرين ذراعا مربعا[١٧١] . أما تكاليف مثل هذا القميص ، فقد ذكر المقريزي أنها تجاوزت الالف درهم ، ومثله الازار الخارجي ، في حين وصل ثمن خف المرأة الى ما بين مائة وخمسمائة درهم[١٧٢] . ويبدو أن هذا الاسراف من جانب النساء دفع الدولة الى التدخل لتحديد ملابسهن ، فصدرت اوامر في سنى ٧٥١ هـ ، ٧٩٣ هـ ، ٨٥٠ هـ ، ٨٧٦ هـ ، بالا يزيد طول قميص المرأة عن الى عشر ذراعا ، وأن لا تكون الاكمام مفرطة في الاتساع . وطاف المنادون في شوارع القاهرة يحذرون النساء من مخالفة هذه التعليمات . بل لقد نصبت اخشاب على سور القاهرة وأبوابها ، وعلقت عليها تماثيل على شكل نساء وقد ارتدين القمصان الطوال ، وذلك لتذكير النساء وتخويفهن[١٧٣] .

على أن المقريزي - بما أوتيه من دقة ملاحظة - أوضح بطريق غير مباشر أن المستحدثات (الموضة) تنتقل في المجتمع من فوق الى تحت ، ومن الطبقات العليا الى مادونها ، فيقول ان ما فعلته عامة نساء المجتمع لمن العذر فيه ، لانهن يتشبهن في ملبسهن بما تفعله نساء السلاطين والامراء . ففي حوادث سنة ٧٩٣ هـ يعيب المقريزي في صراحة على عوام النساء انهن لتشبهن في الملبس بنساء الملوك والاعيان[١٧٤] . أما في حوادث سنة ٨٥٠ هـ فيصف المقريزي كيف أن نساء السلاطين وجواريهن أحدثن ثيابا طوالا تسحب أذيالها على الأرض ، ولها اكمام واسعة ، عرض القميص منها بالقطلة .

(١٦٩) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٥٠٣

(١٧٠) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ص ١٦٩ (الأهلية)

(١٧١) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ص ٦٧٣

(١٧٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٤ ص ١٢٧ (الأهلية)

(١٧٣) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ، حوادث سنة ٧٩٣ هـ .

(١٧٤) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ، حوادث سنة ٧٩٣ هـ

ويعقب المقريزي على هذا الخبر بقوله « وتشبه نساء القاهرة بهن في ذلك ، حتى لم تبق امرأة الا وقميصها كذلك »[١٧٥] .

ثم ان المقريزي يشير الى حقيقة اخرى ، هي ان ملابس النساء لم تظهر على حال واحد ، وانما تعرضت للتغيير والتبديل بين فترة واخرى . فهي مرة واسعة وطويلة ، وبعد فترة تصبح ضيقة وقصيرة[١٧٦] .

وأخيرا فان المقريزي بنظرته الاجتماعية ، لم يرض عن كثير من الامراض الاجتماعية التي فشت في المجتمع في عصره ، فانتقدها حينا في هدوء واحيانا في قوة وعنف . ولم يتمالك هذا العالم الجليل نفسه ، فأظهر الاسف وعبر عن الأسى عندما وجد الناس « اظهروا المنكرات في الخمور ونحوها من المسكرات ، واختلاط النساء والرجال من غير استتار » ويوضح المقريزي أن هذه الامراض الاجتماعية لم تستحدث في زمنه ، وانما جذورها قديمة . ويستشهد على ذلك بما ذكره القاضي الفاضل في متجددات سنة ٥٨٧ هـ أنه رأى « من البغي ومن المعاصي ومن الجهر بالفسق والزنا واللواط وشهادة الزور . . . . . وشرب الخمر مالم يسمع أو يعهد مثله »[١٧٧] .

ويبدو أن هذه الأمراض الاجتماعية ازداد فشوها في أواخر عصر سلاطين المماليك ، تمشيا مع المبدأ المعروف في التاريخ ، وهو أن التدهور في تعريف عصرها لا يقتصر الانحلال الذي يعتريها على الأجهزة السياسية والاقتصادية والادارية والحربية ، وانما يمتد ايضا الى الجوانب المعنوية والاجتماعية والخلقية .

ومهما يكن من أمر ، فان المقريزي كان أمينا في تفنيد العيوب والامراض دون مجاملة او مبالغة ، شديدا في رفضه لها ، قاسيا في نقده لبعض الاوضاع التي لا تتفق وتعاليم الدين أو مبادىء الاخلاق . من ذلك أنه ساءه أن تعترف الدولة بالبغاء والبغايا وتفرض عليهن ضرائب مقررة ، مما أدى الى تفشي البغاء والزنا[١٧٨] واستنكر وقوف البغايا في الاسواق أمام المارة وعلى مرأى منهم[١٧٩] . ولم تقتصر هذه الظاهرة على القاهرة والمدن الكبرى ، بل فشت في مراكز الصعيد والوجه البحري حيث خصص للبغايا حارات مرية[١٨٠] وقد حاول بعض سلاطين المماليك محاصرة هذا الداء قبل أن يفشو ويزداد خطره ، فأصدر السلطان الظاهر بيبرس قرارا بابطال المكوس المقررة على البغايا ، حتى لا تكتسب هذه الحرفة صفة اعتراف الحكومة بها ، كذلك منع البغاء في سائر البلاد ، وقبض على البغايا حتى يتزوجن ، بحيث لا يزاد

(١٧٥) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ حوادث سنة ٨٤٠ هـ (ص ٨٨٤)

(١٧٦) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص ٢٢١

(١٧٧) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ص ٣٧ ، ٣٨ (الأهلية)

(١٧٨) المقريزي ، كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٢١٩ ، ٢٢٠

(١٧٩) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣١٢

(١٨٠) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٣١

في مهورهن عن اربعمائة درهم ، يعجل منها مائتان ، وذلك لتيسير زواجهن[١٨١] كذلك ذكر المقريزي انه كان من جملة الضرائب التي الغاها الناصر محمد عقب الروك الناصري ، ما كان يجمع من « الفواحش والمنكرات » والضريبة المقررة على كل جارية أو عبد حين تزوهم بالخانات لعمل الفاحشة[١٨٢] .

ومن الامراض الاجتماعية التي أشار المقريزي الى فشوها في ذلك العصر الشذوذ الجنسي . وقد عبر المقريزي عن فشو هذا المرض بين طبقة المماليك بالذات ، فقال انه « فشى في أهل الدولة (يعني المماليك) محبة الذكران » ، حتى عمدت النساء الى التشبه بالذكور في ملبسهم ليستملن قلوب الرجال[١٨٣] . ولعل في هذا خير تعليل لما سبق أن أشرنا اليه من انتشار لبس الطواقي بين النساء ـ تشبها بالرجال ـ في ذلك العصر . كذلك ذكر المقريزي كيف أضرب الناصر أحمد ـ ابن الناصر محمد ـ عن الطعام سنة ٧٤٥ هـ « حتى يأتوه بشاب كان يهواه . . فأتوه به ، فأكل عند ذلك[١٨٤] بل لقد ذكر المقريزي أن كتبغا خلع من السلطنة سنة ٦٩٦ هـ بسبب غلام[١٨٥] .

وانتقد المقريزي انتقادا مريرا تفشي المخدرات في أيامه ، فقال عن الحشيش « فشت هذه الشجرة الخبيثة في وقتنا هذا فشوا كبيرا . وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعا كثيرا ، وتظاهروا بها من غير احتشام . وماشيء في الحقيقة أفسد لطباع البشر منها ، لاشتهارها في وقتنا هذا عند الخاص والعام بمصر والشام والعراق والروم »[١٨٦] ولم تمنع الدولة تعاطي الحشيش ، وانما فرضت عليه ضريبة كانت تمد خزائنها « بجملة كافية » واستمرت هذه الضريبة حتى ألغاها السلطان الظاهر بيبرس الذي « أبطل ضمان الحشيشة الخبيثة وأمر بتأديب من أكلها »[١٨٧] وعلى أيام المقريزي شاع تعاطي الحشيشة بين الصوفية ـ وهم الذين عرفوا باسم الفقراء ـ حتى أطلق عليها المعاصرون اسم « حشيشة الفقراء »[١٨٨] .

أما الخمور ، فيذكر المقريزي أن تعاطيها انتشر بين سائر الناس ، فكانت تعصر وتباع في انحاء البلاد على رؤوس الاشهاد ، حتى أن ما عصر منها في خزانة البنود في سنة واحدة بلغ اثنين وثلاثين الف جرة[١٨٩] وقد عرف المماليك

---

(١٨١) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٥٧٨ ، ج ٢ ص ١٥٠

(١٨٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ١٤٤

(١٨٣) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ١٦٩ (الأهلية)

(١٨٤) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٦١ ـ ٦٦٢ (سنة ٧٤٥ هـ)

(١٨٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٣٦ (بولاق)

(١٨٦) نفس المصدر السابق

(١٨٧) المقريزي : كتاب السلوك ، حوادث سنة ٦٦٤ هـ

(١٨٨) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٣٩

(١٨٩) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٦٨١ ـ ٦٨٢

انواعا عديدة من الخمور ، منها نبيذ القمز ويعمل من لبن الخيل(١٩٠) والمزر ويعمل من القمح(١٩١) والنبيذ التمر بغاوي وطريقة صنعه أن تمزج عشرة أرطال من الزبيب الى أربعين رطلا من الماء ثم يوضع المزيج في جرار تدفن في زبل الخيل أياما حتى يتخمر(١٩٢) وبلغ من انتشار الخمور في ذلك العصر أن أمراء المماليك اعتادوا أن يتهادوا بها في أفراحهم(١٩٣) . فاذا احتاج أحد السلاطين أو الأمراء الى كمية كبيرة من الخمر لحفل أو ظرف طارىء ، وزعوها على النصارى واليهود المعروفين بصنعها ، وفرضوا على كل طائفة عددا معينا من الجرار ، تقدمها . واذا تقاعسوا ـ مثلما حدث سنة ٨١٦ هـ « جبيت منهم بعنف وعسف وضرب »(١٩٤) وفي كثير من الحفلات والافراح الشعبية اعتبرت الخمور متممة للمعاني(١٩٥) ويقول المقريزي أنه لاعبرة بالاوامر التي كان يصدرها سلاطين المماليك في أوقات الأزمات والشدائد بازالة الخمور طلبا لمغفرة الله وعفوه ، مثلما حدث في سنى ٧٠٩ ، ٧٨١ ، ٨٣١ هـ ، لان هذه التوبة كانت لا تستمر الا مدة قصيرة من الزمن ، يعود الناس بعدها الى التظاهر بشرب الخمر « ولم ينتهوا عما هم فيه »(١٩٦) .

وهكذا اهتم المقريزي في كتاباته بالتاريخ الاجتماعي مثل اهتمامه بالتاريخ الاقتصادي وبقية فروع التاريخ ، بحيث جاء انتاجه يعبر عن صورة تاريخية متكاملة ، لها أوجهها السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية . . . . . وغيرها .

وبعد ، فاننا عندما نصف المقريزي بأنه شيخ المؤرخين في القرن التاسع الهجري الخامس عشر للميلاد ـ فانما نحق فعلا أنه تزعم صنعة التاريخ في ذلك العصر ، واجاد هذه الصنعة حتى بلغ الذروة فيها ، بعد ان ألم بأركانها ، واستوفى متطلباتها وادواتها وشروطها .

وعند ما أقدم المقريزي على ممارسة التدوين التاريخي ، فانه لم يكتب فيه كتابة سطحية أو عشوائية . وانما التزم بمنهج علمي ثابت يمثل أرقى ماوصلت اليه كتابة التاريخ في عصره فلم يقتصر على سرد الاحداث مكتفيا بالنقل عن السابقين ، وانما تجاوز ذلك الى النقد والتحليل ، والبحث عن الاسباب وتتبع النتائج . كما انه لم يقف موقفا سلبيا أمام الظواهر والأحداث ، وانما حاول دائما أن يربط بين أطرافها ، ويعلل لها تعليلا سليما منطقيا .

---

(١٩٠) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٧ (حاشية ٢ للمرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة)

(١٩١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ١٠٥ (الأهلية)

(١٩٢) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٤١

(١٩٣) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦

(١٩٤) المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٢١ ، ٢٠١

(١٩٥) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٤٢٦

(١٩٦) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٣ ، ٥٤ ، ج ٣ ص ٣٥٤

ثم ان المقريزى لم يتخذ الكتابة التاريخية أداة للتجريح والهدم ، مثلما فعل بعض معاصريه من المؤرخين ، وانما اتصف قلمه بالانضباط والعفة .

هذا الى أمانته فى نسبة الروايات التى ينقلها الى أصحابها ، وعنايته بتمحيص هذه الروايات للتفرقة بين الغث والسمين منها ، واستبعاد الضعيف والتمسك بالرواية القوية .

يضاف الى هذا جرأته فى الحق ، وعزوفه عن تملق الحكام والتمسح بركابهم ، وتوجيه النقد اليهم فى مواضع النقد .

وصفوة القول أن المؤرخ أحمد بن على المقريزى جمع بين قوة الحاسة التاريخية من ناحية ، وصدقها وانضباطها من ناحية أخرى ، هذا فضلا عن ادراكه للابعاد الحقيقية والأركان الرئيسية لعلم التاريخ ، مما جعل منه ظاهرة فريدة بين مؤرخى عصره ، وجعل من تراثه ومؤلفاته ثروة حقيقية تعتز بها المكتبة التاريخية العربية .

***

أبو بكر الرازي وبحوثه في العلم الطبيعي

جلال شوقي
عميد كلية الهندسة ـ جامعة قطر

يُعتبر أبوبكر محمد بن زكريا الرازي أحد أعلام العرب لا سيما في العلوم الطبيّة حيث ألّف فيها أكثر من خمسين كتابا ومقالة ، ومن ثمّ يُعد الرازي ـ بغير منازع ـ أعظم أطباء الحضارة الاسلامية ، ومن أشهر كتبه في الطب كتاب « الجامع الكبير » أو كتاب « الحاوي » ، كذا كتاب « الكناش المنصوري » الذي ألّفه للأمير منصور بن اسحق* الساماني حاكم الري (٢٩٠ ـ ٢٩٦هـ) ، وهو أول من اهتم بالجانب النفسي في العلاج الطبي .

اشتغل الرازي بالعلوم الحِكْمية عموما ، وله كتب كثيرة في الأهيات والمنطق وما بعد الطبيعة ، كذا في الكيمياء والطبيعيّات والرياضيات والفلك والموسيقى وغيرها .

ولقد سبق الرازي كلا من الشيخ الرئيس ابن سينا والعالم الجليل الحسن بن الهيثم في أن الابصار يحصل بورود الشعاع من الجسم المُبصَر إلى العين ، وبذلك كان أول من نقض قول علماء الاغريق بخروج الشعاع من العين إلى الشيء المُبصَر . كما أن الرازي قد اشتغل بقياس الثقل النوعي بقصد التمييز بين معدني الذهب والفضة .

كذلك بيّن الرازي أن الأرض ذات هيئة كرية ، وأنها أصغر من الشمس وأعظم من القمر ، ولكنه أخطأ في اعتباره أن الأرض تقع في وسط الفلك .

ولقد كان الرازي أحرص ما يكون على الدرس والتأليف ، وهو الذي يقول في مُصنّفه « كتاب السيرة الفلسفية » :

« وإنّه بلغ من صبري واجتهادي أني كتبت بمثل خط التعاويذ في عام واحد أكثر من عشرين ألف ورقة ، وبقيت في عمل « الجامع الكبير » خمس عشرة سنة ،

(*) وفي رواية أخرى أنه صنفه لمنصور بن أبي قرابة والي خراسان .

أعمله الليل والنهار ، حتى ضعف بصري ، وحدث لي فسخ في عضل يدي يمنعاني في وقتي هذا من القراءة والكتابة ، وأنا على حالي لا أدعهما بمقدار جهدي ، وأستعين دائما بمن يقرأ ويكتب لي » .

هذا هو شأن العالم العربي الكبير الذي نعرض له بالدراسة ، ونحن نقصر بحثنا الحالي على جهد الرازي في مجال الطبيعيات دون أن نلج في آرائه الفلسفية الخاصة بقدم أشياء خمسة هي الباريء والنفس والهيولي (أي المادة) والزمان والمكان ، وإنما نعرض هنا لأقوال الرازي وآرائه في ماهية الهيولي والزمان والمكان والخلاء والثقل والخفة من الوجهة العلمية .

ترجمته

وُلد الرازي في مدينة الريّ جنوبي طهران حوالي سنة ٢٥٠هـ (٨٦٤) وبها نشأ ، وقدم إلى بغداد وعمره نيف وثلاثون سنة ، وأصبح رئيسا للمستشفى العضدي بها ، وكان من قبل رئيسا لمارستان الريّ وذلك قبل قدومه إلى بغداد .

وقد عُرف الرازي في الغرب باسم "Rhases" وتُرجم كتابه « الحاوي » في الطب إلى اللاتينية بعنوان : "Liber Continens" ، كما تُرجم له كتاب في الصحة العامة حيث ظهرت ترجمته اللاتينية بعنوان : "Miscellanea" .

كرّس الرازي حياته لخدمة العلم ، فلا غرو أن يخلّف وراءه عشرات الكتب والمقالات ، وكان أن ضعف بصره في آخر عمره ، وقد اختلفت الروايات حول تاريخ وفاته ، فالمشهور أنه توفي في بغداد سنة ٣٢٠هـ (٩٣٢م) ، إلاّ أن القفطي قد ذكر في كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » أنّ الرازي قد عاش حتى سنة ٣٦٤هـ (٩٧٤م) وأنه اتصل بابن العميد ، بينما يذكر الصفدي في « نكت الهميان » أن الرازي توفي سنة ٣١٠هـ (٩٢٢م) .

شيوخه ومعاصروه

قرأ الرازي الحكمة على أبي زيد البَلْخيّ[1] الذي كان دائم التجوال والترحال في الأمصار الاسلامية وكان على دراية حسنة بالفلسفة وعلوم الأقدمين ، كما أن الرازي قد درس الطب على يد الطبيب الفاضل أبي الحسن علي بن رَبَّن الطبري ، وهو من أهل طبرستان ، وكان الطبريّ قد قدم الريّ حوالي سنة ٢٨٩هـ (٩٠٢م) بعد استيلاء السامانيين على طبرستان ، وقد أصاب الرازي من علم الطبري وحكمته الشيء الكثير ، وكان الرازي مُعاصرا لأبي يعقوب اسحق بن حنين بن اسحق[2] الذي كان من أشهر وأقدر نقلة علوم الحكمة إلى اللغة العربية ، وكان الرازي على صلة بأبي الحسن علي بن عيسى الجرّاح[3] أثناء إقامته في بغداد .

أقواله المأثورة :

وللرازي أقوال مأثورة كثيرة نقدم بعضا منها فيما يلي :

« مَنْ لم يُعْنَ بالأمور الطبيعية ، والعلوم الفلسفية ، والقوانين المنطقية ، وعَدَل إلى اللّذات الدنيائية ، فاتّهِمْهُ في علمه ، لا سيما في صناعة الطب » .

« الاستكثار من قراءة كتب الحكماء ، والاشراف على أسرارهم ، نافع لكل حكيم عظيم الخطر » .

(١) هو أبو زيد أحمد بن سهل البلخي ، عاش في الفترة من حوالي سنة [illegible] ـ ودام حتى سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م . درس الفلسفة مع الكندي ، وهو من جغرافيي العرب .
(٢) شهد أيام الخلفاء المعتمد والمعتضد والمقتدر ، وتوفي ببغداد في أيام المقتدر ، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٨هـ (٩١٠م) .
(٣) كان وزيرا للخليفة المقتدر سنة ٣٠١هـ (٩١٣م) ، وتوفي سنة ٣٣٤هـ (٩٤٦م) .

« متى اجتمع جالينوس(٤) وأرسطوطاليس(٥) على معنى ، فذلك هو الصواب ، ومتى اختلفا صَعُب على العقول إدراك صوابه جدا » .

« ما اجتمع الأطباء عليه ، وشهد عليه القياس ، وعضّدته التجربة ، فليكن إمامك ، وبالضدّ » .

« متى كان اقتصار الطبيب على التجارب ، دون القياس وقراءة الكتب ، خُذِل » .

« الأطباء الأُميّون والمُقلِّدون ، والأحداث الذين لا تجربة لهم ، ومن قلّت عنايته وكثرت شهواته : قتّالون » .

« ينبغي للطبيب أن يُوهم المريض أبدا الصحة ، ويُرجّيه بها ، وإن كان غير واثق بذلك ، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس » .

آثاره العلمية :

قدّم أبوبكر الرازي إلى العلم العربي إضافات جليلة ، ليس في مجال الطب فحسب وإنّما في سائر فروع العلم والمعرفة ، وقد جاء أبوالريحان البيروني(٦) من بعده ، فاهتم اهتماما خاصا بحصر أعمال الرازي حيث كتب رسالة(٧) ضمّنها أسماء ما يتوف على مائة وثمانين مُصنَّفًا من تصانيف الرازي ، ونبين فيما يلي إحصاء عاما بهذه المؤلفات :

الطب والأقرابازين	٥٦ تصنيفا
الطبيعيّات	٣٢ تصنيفا
الكيميائيات	٢١ تصنيفا
الرياضيات والنجوم	١١ تصنيفا
الالهيات	١٦ تصنيفا
الفلسفة	١٦ تصنيفا
المنطق	٧ تصنيفا
ما بعد الطبيعة	٦ تصنيفا
تفاسير وتلاخيص واختصارات	٧ تصنيفا
فنون مختلفة	١٢ تصنيفا
المجموع	١٨٤ تصنيفا

ونظراً ما خطّه يد الرازي في معرض دفاعه عن استحقاقه تسمية « فيلسوف » ، وهو الذي أفنى عمره كله في تحصيل العلم والاشتغال به ، حيث يستشهد بسرد أسماء بعض تصانيفه فيذكر في مؤلَّفه « كتاب السيرة الفلسفية »(٨) :

أما في باب العلم فمن أبلى أنا لو لم تكن عندنا منه إلا القوة على تأليف مثل هذا الكتاب لكان ذلك مانعا عن أن يُمحى عنا اسم الفلسفة ، فضلا عن مثل كتابنا « في البرهان » و « في العلم الإلهي » و « في الطب الروحاني » .

وكتابنا « في المدخل إلى العلم الطبيعيّ » الموسوم « بسمع الكيان » ، ومقالتنا « في الزمان والمكان والمدّة والدهر والخلاء » .

(٤) طبيب إغريقي شهير عاش في الفترة من حوالي سنة ١٣٠م حتى سنة ٢٠١م ، له مؤلفات هامة في الطب ، رجع إليها أطباء العرب .
(٥) هو الفيلسوف والعالم الإغريقي أرسطو ، عاش في الفترة من سنة ٣٨٤ق.م حتى سنة ٣٢٢ق.م .
(٦) هو العالم العربي أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الملقب ببرهان الحق وبالأستاذ عاش في الفترة من سنة ٣٦٢هـ (٩٧٣م) حتى سنة ٤٤٣هـ (١٠٥١م) .
(٧) كتب عنها المستشرق : روسكا في مجلة إيزيس ، سنة ١٩٢٢ ، ونشر الرسالة المستشرق بول كراوس في باريس سنة ١٩٣٦ ، وهي بعنوان « في فهرست كتب محمد بن زكريا الرازي » .
(٨) « رسائل فلسفية » للرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة جامعة فؤاد الأول ، بالقاهرة ، سنة ١٩٣٩ ، الصفحات ١٠٨-١١٠ .

و « في شكل العالم » ،
و « سبب قيام الأرض في وسط الفلك » ،
و « سبب تحرُّك الفلك في استدارة » ،
ومقالتنا « في التركيب » ،
و « أنَّ للجسم حركة من ذاته وأن الحركة معلومة » ،
وكتبنا « في النفس » وكتبنا « في الهيولى » ،
وكتبنا في الطب كالكتاب « المنصوري » ،
وكتابنا « إلى من لا يحضره طبيب » ،
وكتابنا « في الأدوية الموجودة » ، والموسوم « بالطب الملوكي » ،
والكتاب الموسوم « بالجامع » الذي لم يسبقني إليه أحد من أهل المملكة ، ولا احتذى فيه أحدٌ بعدُ احتذائي وحذوي ،
وكتبنا في صناعة الحكمة التي هي عند العامة الكيميا

وبالجملة فقرابة مائتي كتاب ومقالة ورسالة خرجت عنيّ ـ إلى وقت عمل هذه المقالة ـ في فنون الفلسفة من العلم الطبيعي والإلهي .

فأما الرياضيات فإنيّ مُقِرٌ بأنيّ إنما لاحظتها ملاحظة بقدر ما لم يكن لي منها بدٌّ ، ولم أفْنِ زماني في التمهُّر بها بالقصد منيّ ذلك ، لا للعجز عنه ، ومن شاء أوضحت له عذري في ذلك بأن الصواب في ذلك ما عمله لا ما يعمله المُقَنّون لأعمارهم في الاشتغال بفضول الهندسة من الموسومين بالفلسفة .

فإن لم يكن مبلغي من العلم المبلغ الذي استحقُّ أن أسمىَّ فيلسوفا ، فمن هو ليت شعري ذلك في دهرنا هذا » .

ويمضي أبوبكر الرازي في « كتاب السيرة الفلسفية » ، فيقول في معرض بيانه وتدليله على مدى حُبِّه للعلم وانكبابه على تحصيله :

« فأما عشقي للعلم ، وحرصي عليه ، واجتهادي فيه ، فمعلوم عند من صَحِبني وشاهد ذلك منيّ أنيّ لم أزل منذ حداثتي وإلى وقتي هذا مُكِبّاً عليه حتى إنيّ متى اتفق لي كتاب لم أقرأه أو رجل لم ألقه لم ألتفت إلى شُغْل بتّة ـ ولو كان في ذلك عليّ عظيم ضرر ـ دون أن آتي على الكتاب وأعرف ما عند الرجل » .

وقد سبق أن أوردنا في صدر هذا البحث مبلغ اجتهاد الرازي الذي سبّب له ضعفا في بصره وفَسْخا في عضل يده أودى به الى الاستعانة بمن يقرأ له ويكتب .

أعمال الرازي في الطبيعيات

كتب الرازي مؤلفات كثيرة في الطبيعيات وما يرتبط بها من علوم ، ولقد اهتم اهتماما خاصا بالبحث في ماهية الهيولى (المادة) وكُنْه الزمان والمكان ، كما أنه اشتغل بتعيين الثقل النوعي للمواد بقصد التفرقة بين المعادن الثمينة والمعادن غير الثمينة ، كذلك كتب الرازي في كيفية الأبصار ، وبحث في حركة الأفلاك ومساراتها ، وله أيضا كتاب في الحيل ، أي في الوسائل الميكانيكية النافعة ، ونشير فيما يلي الى بعض مؤلفات الرازي في هذا المجال :

كتاب « في المدخل إلى العلم الطبيعي » الموسوم « بسمع الكيان » .

كتاب « المدخل التعليمي » .

كتاب « المدخل البرهاني » .

كتاب « الهيولى الكبير » أو « كتاب كبير في الهيولى » .

كتاب « الهيولى الصغير » ، ولعله هو « كتاب الهيولى المُطلقة والجزئية » الذي ذكره ابن النديم في فهرسه .

مقالة « في الزمان والمكان والمدة والدهر والخلاء » .

« مقالة « فيما جرى بينه وبين أبي القاسم الكعبي في الزمان » .

مقالة « في الفرق بين ابتداء المدة وابتداء الحركات » .

« مقالة » في أن للجسم حركة من ذاته وأن الحركة معلومة » .

كتاب « في محنة الذهب والفضة والميزان الطبيعي » ،

كتاب « في كيفية الابصار » .

كتاب « في الحيل » .

مقالة « في شكل العالم » ، أو كتاب « هيئة العالم » .

مقالة « في سبب قيام الأرض في وسط الفلك » .

مقالة « في سبب تحرُّك الفلك على استدارة » .

هذا ونعرض هنا بشيء من التفصيل لآراء الرازي في المادة والزمان والمكان ، وذلك بالرجوع الى كتابات البيروني ، والمرزوقي الاصفهاني ، وناصر خسرو ، وأبي حاتم الرازي ، عن مذهب أبي بكر الرازي فيها .

القدماء الخمسة

يذكر برهان الحق أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة »[9] بعضا من آراء الرازي في العلم الالهي فيقول :

لبٌ في ذكر المدّة والزمان بالاطلاق
وخلْق العالم وفنائه

قد حكى محمد بن زكريا الرازي عن أوائل اليونانيين قدمة خمسة أشياء منها الباريء سبحانه ، ثم النفس الكلية ، ثم الهيولي الأولى ، ثم المكان ثم الزمان المطلقان .

وبنى هو على ذلك مذهبه الذي تأصل عنه ، وفرق بين الزمان وبين المدة بوقوع العدد على أحدهما دون الآخر بسبب ما يلحق العددية من التناهي ، كما جعل الفلاسفة الزمان مدة لما له أول وآخر ، والدهر مدة لما لا أول له ولا آخر .

وذكر أن الخمسة في هذا الوجود الموجود اضطرارية ، فالمحسوس فيه هو الهيولي المتصورة بالتركيب ، وهي متمكن فلابد من مكان ، واختلاف الأحوال عليه من لوازم الزمان ، فإن بعضها متقدم وبعضها متأخر ، وبالزمان يعرف القدم والحدث والأقدم والأحدث ومما فلابد منه .

وفي الموجود أحياء فلابد من النفس ، وفيهم عقلاء ، والصنعة على غاية الاتقان ، فلابد من الباريء الحكيم العالم المتقن المصلح بغاية ما أمكن ، الفائض قوة العقل للتخليص .

ويقول المرزوقي الاصفهاني[10] في « كتاب الأزمنة والأمكنة »[11] :

« فنقول وبالله الحول والقوة ، من زعم أن الأزلي أكثر من واحد أربع فرق :

الأولى : الذين يقولون هما اثنان ، الفاعل والمادة فقط ، ويعني بالمادة الهيولي ،

الثانية : الذين يدعون أن الأزلي ثلاثة ، الفاعل والمادة والخلاء ،

الثالثة : الذين يدعون أنه الفاعل والمادة والخلاء والمدة ،

الرابعة : الفرقة التي زعيمهم محمد بن زكريا المتطبب ، لأنه زاد عليهم النفس الناطقة ، فبلغ عدد الأزلي خمسة بهذيانه .

---

(٩) طبعة لندن ، سنة ١٩١٠م ، صفحة ١٦٣ .

(١٠) هو أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الاصفهاني المتوفي سنة ٤٢١هـ (١٠٣٠م) .

(١١) طبعة حيدر آباد ، سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) ، الجزء الأول ، الصفحتان ١٤٤ ، ١٤٥ .

وينكر المرزوقي الأصفهاني على أبي بكر الرازي ما ذهب إليه ، فينقده بقوله :

« أليس من العجائب هذيانه في القدماء الخمسة وما يعتقده من وجود العالم لحدوث العلة ، وما يدعيه من وجود الجوهرين الأزليين : أعني الخلاء والمدة ، لا فعل لهما ولا انفعال ؟ فلولا خذلان الله إياه وإلا فما يحمل بجوهر لا فاعل ولا منفعل ؟

ولم يضع الأرواح المقدسة قبالة الأرواح الفاسدة ، ولم تحدث العلة من غير نقص ولا آفة ، ولم يذكر شيئاً ليس فيه جدوى ولا ثمرة ؟

ويمضي المرزوقي الأصفهاني في نقده لأبي بكر الرازي في موضع آخر من كتابه « الأزمنة والأمكنة » حيث يقول[12] :

« وأعجب من هذا أن الباري مخترع لجميع ما خلقه ، وأنه لا يُعجزه مطلوب ولا يفوته معلوم ».

ثم أقاموا معه في الأزل الهيولي وهو المادة ، وركبوا معه الصورة ليكون جميع ذلك كالنجار والخشب والنجارة .

والله تعالى يقول : « قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين » إلى قوله : « وذلك تقدير العزيز العليم » ، ولم يقل ذلك إلا وأهل العلم إذا فكروا فيه أدركوا منه الآية البيّنة والحجة الواضحة .

يبين لنا من الكتابات المتضمنة للآراء المنسوبة إلى الرازي في قدم وأزلية الهيولي والزمان والمكان ، أنه قد تعرض بسببها لنقد شديد من معاصريه ومن أتى بعده من الفلاسفة والمفكرين ، حتى أن بعضهم قد اتهمه بالهذيان بل وحتى بالالحاد .

وليست قضية القدم والحدث معروضة في حد ذاتها على بساط البحث هنا ، وإنما هي آراء الرازي في ماهية هذه الأشياء الثلاثة التي نعرض لها بالدراسة ، ولنبدأ برأي الرازي في الهيولي .

الهيولي (المادة)

ثبت أن للرازي عدة مؤلفات في الهيولي ذكرها أصحاب التراجم ، بيد أنا لم نعثر حتى الآن على كتابات الرازي في هذا المجال اللهم إلا ما ورد عنها في كتاب « زاد المسافرين »[13] لناصر خسرو[14] باللغة الفارسية ، ونقدم فيما يلي منتخبات من ترجمته العربية[15] حيث يورد ناصر خسرو رأي الرازي في الهيولي :

« ليست الهيولي المطلقة سوى أجزاء لا تتجزأ ، بحيث أن يكون لكل واحد (أي لكل واحد من تلك الأجزاء) عظم ، لأنه لو لم يكن لكل واحد من تلك الأجزاء عظم لم يحصل بتجمعها شيء له عظم .

وأيضا لا يجوز أن يكون لأي جزء (يقصد الجزء الذي لا يتجزأ) من عظم حتى يجوز أن يوجد عظم أصغر مما هو عليه ، وذلك أنه لو كان لجزء الهيولي جزء ، لكان الجزء نفسه جسماً مركباً ، ولم تكن الهيولي مبسوطة[16] ، مع أن الهيولي التي هي مادة الجسم مبسوطة » .

---

(١٢) نفس المصدر السابق صفحة ١٥٦ .

(١٣) طبعة برلين ، سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٢م) ، صفحة ٧٣ وما بعدها .

(١٤) هو أبو المعين ناصر بن خسرو القبادياني سنة ٤٨١هـ (١٠٨٨م) .

(١٥) عن كتاب « رسائل فلسفية » للرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة جامعة فؤاد الأول ، سنة ١٩٣٩ ، صفحة ٢٢٠ وما بعدها .

(١٦) أي بسيطة .

وينسب الى الرازي قوله :

« إن تركيب الأجسام من تلك الأجزاء التي لا تتجزأ ، وسينتهي تفرق تركيب أجسام العالم في آخر أمر العالم الى تلك الأجزاء بعينها ، وهذه هي الهيولى المطلقة » .

وقوله أيضا :

« إن ما صار من أجزاء الهيولى متجمعا جدا ، كان منه جوهر الأرض ، وما صار أكثر تفرقا كان منه جوهر الماء ، ثم إن ما صار أكثر تفرقا كان منه جوهر الهواء . وما صار أكثر تفرقا من جوهر الهواء كان منه جوهر النار » .

ويسطره ناصر خسرو في موضع آخر من كتابه « زاد المسافرين » ناسبا لأبي بكر الرازي قوله :

« إن كيفيات الأجسام من ثقل وخفة وظلمة ونور وغيرها ، إنما ترجع الى قلة أو كثرة الخلاء الذي امتزج بالهيولى ، فصار شيء ما خفيفا وآخر ثقيلا ، وشيء ما مضيئا وآخر مظلما ، لأن الكيفية عرض ، والعرض محمول على الجوهر ، والجوهر هو الهيولى .

وفي هذه الجملة التي عرفناها زبدة قول محمد بن زكرياء الرازي في الهيولى » .

« إن محمد بن زكرياء الرازي ادعى أن الهيولى قديمة ، وأنها أجزاء في غاية الصغر ودون أي تركيب ، وأن الباريء سبحانه ركب أجسام العالم من تلك الأجزاء في خمسة تراكيب ، أعني الأرض والماء والهواء والنار والفلك .

ويقول إن ما كان من تلك الأجسام أكثر كثافة صار أكثر ظلمة ، وإن تركيب جميع الأجسام من (اختلاط) أجزاء الهيولى بأجزاء الخلاء يعني المكان المطلق ، وإن أجزاء الهيولى في تركيب الأرض أكثر منها في تركيب الماء ، وأما أجزاء الخلاء فهي في الأرض أقل ، وفي الماء أكثر ، ومن أجل هذا صار الماء أخف من الأرض ، وصار الماء مضيئا بينما كانت الأرض كثيفة مظلمة . . .

وأما التفاوت الذي يوجد بين هذه الأجسام من حيث الخفة والثقل والنور والظلمة ، فليس سببه سوى تفاوت أجزاء هذين الجوهرين في تركيبها . . .

كذلك وردت هذه المعاني في كتابات الرازي في « العلم الألهي » .

مما تقدم يتضح لنا أن الرازي قد ذهب الى أن المادة تتكون من أجزاء غاية في الصغر ، وأن هذه الأجزاء لا تقبل التجزئة ، وأن تفرق تركيب أجسام العالم - في آخر أمر العالم - سينتهي إلى تلك الأجزاء التي أطلق عليها تسمية الهيولى المطلقة .

وإذا ما قارنا هذه الفكرة بما يتوفر لدينا عن النظرية الذرية ، لوجدنا - على سبيل المثال - أن قطر ذرة الهيدروجين يقرب من واحد من عشرة ملايين جزء من المليمتر ، وأن النموذج المعروف للذرة يتركب من نواة تضم عددا من البروتونات والنيوترونات ، تدور حولها - في مدارات ثابتة - مجموعة من الالكترونات ، وبينما تكون النواة موجبة الكهرب ، فان الالكترونات المحيطة بها سالبة الشحنة ، أما الذرة في مجموعها فهي متعادلة من الوجهة الكهربية ، وهناك قوى كهربية وميكانيكية تحفظ على الذرة نظامها الشبيه بنظام المجموعة الشمسية .

ومن المعروف أن انشطار النواة يؤدي الى اطلاق طاقة جبارة ، فإن ذرة اليورانيوم ٢٣٥ مثلا (وتضم ٩٢ بروتونا + ١٤٣ نيوترونا ومن هنا جاء الرقم ٢٣٥) إذا ما قذفت بنيوترون ، انشطرت النواة وتولد عن هذا الانشطار طاقة كبيرة ، وتتفاعل النيوترونات الناتجة من الانشطار بدورها مع ذرات اليورانيوم المجاورة محدثة سلسلة من الانشطارات النووية .

ولعل الرازي يقصد أنه « في آخر أمر العالم » فإن الأجسام ستؤول في النهاية الى تلك الأجزاء التي لا تقبل التجزئة ، والتي أسماها بالهيولي المطلقة .

الزمان

لأبي بكر الرازي آراء في الزمان والدهر وردت في مناظراته مع سميه أبي حاتم الرازي كذا فيما نقله عنه ناصر خسرو ، ففي المناظرات التي جرت بين الرازيين ، ترد فقرات تكشف عن رأي أبي بكر الرازي في ماهية الزمان والدهر[١٧] ، حيث تجري المناظرة بينهما على النحو التالي :

يقول أبو حاتم الرازي :

« وطالبته في مجلس آخر وقلت له : أخبرني ألست تزعم أن الخمسة قديمة لا قديم غيرها ؟

قال : نعم

قلت : فإنا نعرف الزمان بحركات الأفلاك ومرّ الأيام والليالي وعدد السنين والأشهر وانقضاء الأوقات ، فهذه قديمة مع الزمان أم محدثة ؟

قال : لا يجوز أن تكون هذه قديمة لأن هذه كلها مقدرة على حركات الفلك ومعدودة بطلوع الشمس وغروبها ، والفلك وما فيه محدث ، وهذا قول أرسطاطاليس[١٨] في الزمان ، وقد يخالفه غيره ، وقالوا فيه أقاويل مختلفة .

وأنا أقول إن الزمان زمان مطلق وزمان محصور ، فالمطلق هو المدة والدهر ، وهو القديم ، وهو متحرك غير لابث ، والمحصور هو الذي بحركات الأفلاك وجري الشمس والكواكب .

وإذا ميزت هذا أو توهمت حركة الدهر ، فقد توهمت الزمان المطلق ، وهذا هو الأبد السرمد .

وإذا توهمت حركة الفلك ، فقد توهمت الزمان المحصور .

ويمتد النقاش حول تعريف الزمان المطلق ، وقدم الفلك والعالم إلى أن يبين أبوبكر الرازي موقفه من آراء فلاسفة الاغريق حيث يقول :

« . . . وقد عرفتك أن أرسطاطاليس كان يعتقد ما تقوله أنت وقد خولف فيه ، وقول أفلاطون[١٩] لا يكاد يخالف ما نعتقده في الزمان ، وهذا عندي أصوب الأقوال » .

وتمضي المناظرة بين الرازيين ، بيد أننا نكتفي هنا ببيان قول أبي بكر الرازي في الزمان .

ولقد وردت في مجموعة تحتوي على مقالتين للرازي[٢٠] فقرة صغيرة بعنوان « ما الفصل بين الدهر والزمان » نصها كما يلي :

« إن الدهر هو عدد الأشياء الدائمة ، والزمان هو عدد الأشياء الزمانية ، وهذان العددان يعدان الأشياء فقط ، أعني الحياة والحركة ، فإن كل عاد إما أن يعد جزءا بعد جزء وإما أن يعد الكل معا ، فإن كان هذا على ذلك قلنا : إن الشيء الذي يعد الكل هو الدهر ، والشيء الذي يعد الأجزاء جزءا بعد جزء هو الزمان .

---

(١٧) كتاب « أعلام النبوة » لأبي حاتم الرازي ، الصفحات ١٢ ـ ١٤ . وكتاب « الأقوال الذهبية » لأحمد بن عبدالله الكرماني .
راجع كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر الرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٣٩م ، صفحة ٢٩٥ وما يليها .

(١٨) هو الفيلسوف والعالم الاغريقي أرسطو أو أرسطاليس ، أثرى الحضارة الاغريقية بمؤلفاته القيمة ، وهو مؤسس مذهب « فلسفة المشائين » .

(١٩) هو الفيلسوف الاغريقي أفلاطون : Plato عاش في الفترة من حوالى سنة ٤٢٧ق .م . حتى سنة ٣٤٧ ق .م . وكان تلميذا لسقراط وأستاذا لأرسطو .

(٢٠) مجموعة مخطوط مكتبة راغب باشا باستانبول ، رقم ١٤٦٣ ، ورقة ٨٩ظ ، وتشتمل على مقالتين لأبي بكر الرازي ، كذا على رسائل لأبي على مسكويه ولأبي نصر الحسن بن سوار وغيرها .

فقد استبان الآن وصح أن العدد اثنان فقط ، أحدهما بعد الأشياء الدائمة الروحانية وهو الدهر ، والآخر بعد الأشياء الجزئية الواقعة تحت الزمان ، وهو الزمان ، وهو عدد حركات الفلك . » .

ولعل هذا القول للرازي أو لأحد المؤلفين الذين ضمت المجموعة بعضا من تصانيفهم .

ويقول ناصر خسرو في كتابه « زاد المسافرين »[٢١] ما ترجمته بالعربية[٢٢] :

« إن طائفة الحكماء الذين قالوا إن الهيولي والمكان قديمان قرروا أيضا أن الزمان جوهر ، وقالوا إن الزمان جوهر ممتد وقديم ، وردوا على قول الحكماء الذين قالوا إن الزمان عدد حركات الجسم ، وقالوا لو كان الزمان عدد حركات الجسم لما جاز أن يتحرك متحركان في زمان واحد بعددين متفاوتين .

وقال إيران شهري الحكيم إن الزمان والدهر والمدة ليست إلا أسماء يرجع معناها إلى جوهر واحد ، (وقال) إن الزمان دليل على علم الله ، كما أن المكان دليل على قدرة الله ، والحركة دليل على فعل الله ، والجسم دليل على قوة الله ، وإن كل واحد من تلك الأربعة غير متناه وقديم ، (وقال) إن الزمان جوهر متنقل بغير قرار ، وأما قول محمد بن زكرياء ـ الذي جاء بعد إيران شهري ـ فهو أنه قال إن الزمان جوهر يجري » .

من جملة ما ورد عن مذهب الرازي وآرائه يمكننا أن نخلص إلى أن أبا بكر الرازي قد فرق بين زمانين : زمان مطلق ، وزمان محصور ، ويرى الرازي أن « الزمان المطلق » هو الأبد السرمد ، أو هو المدة أو الدهر ، وهو قديم ممتد أزلي ، وأما ما أسماه « بالزمان المحصور » فإنه يقصد به الزمان النسبي الذي يقدر بحركة الأفلاك وجري الشمس والكواكب ، وما نحس به من تعاقب الليل والنهار ، وبه صار حساب اليوم والشهر والسنة ، كذا أجزاؤها وأضعافها .

المكان :

تتضمن مناظرات أبي حاتم الرازي وأبي بكر الرازي تعريف المكان ، حيث يجري الحديث بينهما على النحو التالي[٢٣] :

« قلت[٢٤] : أخبرني عن المكان ، أهو محيط بالأقطار ، أم الأقطار محيطة به ؟

قال : بل الأقطار محيطة بالمكان .

قلت : كيف لا تعد الأقطار مع الخمسة التي زعمت أنها قديمة ، لأنه إن كان المكان قديما فقد أوجبت أن الأقطار قديمة معه !

قال : الأقطار هي المكان ، والمكان هو الأقطار ، وهما شيء واحد لا فرق بينهما » .

ويستطرد أبوبكر الرازي في موضع آخر من هذه المناظرة قائلا :

---

(٢١) طبعة برلين ، سنة ١٣٤١هـ ، صفحة ١١٠ ـ ١١٣ .
(٢٢) من كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر الرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٣٩م ، الصفحات ٢٦٦ ـ ٢٧١ .
(٢٣) كتاب « أعلام النبوة » لأبي حاتم الرازي ، الصفحات ١٤ ـ ١٧ . راجع كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر الرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٣٩م ، الصفحات ٣٠٥ ـ ٣٠٧ .
(٢٤) هذا القول لأبي حاتم الرازي .

« فإني أقول في المكان أيضا إنه مكان مطلق ، ومكان مضاف .

والمكان المطلق مثاله مثال الوعاء الذي يجمع أجساما ، وإن رفعت الأجسام عن الوهم لم يرتفع الوعاء ، كما لو أنّا رفعنا الفلك عن الوهم لم يرتفع الشيء الذي هو فيه عن الوهم بل هو باق في الوهم ، كالدن الذي يفرغ من الشراب ، فارتفع الشراب عن الوهم ولم يرتفع الدن بتة .

والمكان المضاف إنما هو مضاف إلى المتمكّن ، فإذا لم يكن المتمكن لم يكن مكان ، وهذا مثل العرض الذي إذا رفعته عن الوهم ارتفع الجسم ، كما انك إذا رفعت الخط عن الوهم ارتفع السطح عن الوهم » .

وينهي أبوبكر الرازي حديثه حول المكان بقوله :

« . . . والذي أقوله أيضا في باب المكان هو قول أفلاطون ، والذي قد تشبث به أنت هو قول أرسطاطاليس .

وأما أنا فقد وضعت في المكان والزمان كتابا ، فإن أردت الشفاء في هذا الباب فانظر في ذلك الكتاب » .

ولعل الرازي يشير هنا إلى مقالته « في الزمان والمكان والمدة والدهر والخلاء » التي ورد ذكرها في مؤلفه « كتاب السيرة الفلسفية » كما تقدم بيانه .

هيئة العالم وحركته :

تعرض الرازي بالدراسة للعالم الخارجي المحيط بكوكبنا الأرضي وألف في ذلك عدة مصنفات منها مقالة « في شكل العالم » أو كتابه « هيئة العالم » ، ومقالته « في سبب تحرك الفلك على استدارة » ، وفيها ينادي الرازي بكروية الأرض ، وبأن الأرض تفوق القمر في الحجم ، بينما هي تقل بكثير عن جرم الشمس ، ولقد كان الرازي من أنصار الرأي القائل بوقوع الأرض في مركز العالم ، كما يبين ذلك في مقالة له بعنوان « في سبب قيام الأرض في وسط الفلك » ، وهو ولا شك اعتقاد خاطىء .

الثقل النوعي للمواد

اهتم الرازي بدراسة الثقل النوعي للمواد ، أي بتعيين ثقل حجم معين من المادة منسوبا إلى ثقل نفس الحجم من الماء ، ويرجع السبب في اشتغال الرازي بهذا الموضوع إلى رغبته في إيجاد وسيلة علمية يمكن بها التمييز بين معدني الذهب والفضة ، ومن ثم كان كتابه « في محنة الذهب والفضة والميزان الطبيعي » ، ومن المعروف أن الثقل النوعي للذهب يفوق بكثير الثقل النوعي للفضة ، ومن هذا التباين يمكن التفرقة بين الذهب والفضة .

كيفية الابصار

لأبي بكر الرازي مصنف بعنوان « في كيفية الابصار » وهو كما يدل عليه عنوانه بحث في كيفية إدراك المبصرات ، ولقد كان الفكر السائد قبل الرازي - كما جاء في المصادر الاغريقية - أن الابصار يحدث نتيجة خروج شعاع ضوئي من العين إلى الجسم المرئي ، فجاء قول الرازي لينقض هذا الزعم ويقدم النظرية الصحيحة للابصار ، وتقوم على خروج الشعاع الضوئي من الجسم المبصر الى العين حيث يتم الادراك البصري ، وبذلك يكون لأبي بكر الرازي فضل السبق الى بيان كيفية الابصار .

خلاصة البحث

يعرض هذا البحث لأحد عمالقة العلم العربي ، هو الحكيم أبوبكر محمد بن زكريا الرازي ، الذي عاش في النصف الثاني من القرن التاسع وأوائل القرن العاشر للميلاد ، وقد وهب الرازي حياته للعلم والمعرفة فناضل في طلبهما أصدق نضال ، وخلف وراءه ما يقرب من مائتي رسالة ومقال في الطب والأقرباذين والطبيعيات والكيمياء والفلك والفلسفة والمنطق وغيرها من فروع المعرفة المختلفة .

وتقتصر دراستنا هذه على جهد الرازي في مجال الطبيعيات فحسب ، حيث تقدم دراسة مقتضبة لآراء الرازي في ماهية الهيولي والمكان والزمان ، وهي أمور كانت تحتل مكانا هاما في الفلسفة الطبيعية عند العرب ، ولقد أولى الرازي اهتمامه لموضوع الثقل النوعي للمعادن في محاولة علمية للتمييز بين معدن الذهب والفضة ، كذلك سبق الرازي الى بيان النظرية الصحيحة لكيفية الابصار حيث خالف قول الاغريق بتقريره أن الابصار يتم بخروج شعاع ضوئي من الجسم الى العين ، مسجلا بقوله هذا سبقا واضحا على كل من الشيخ الرئيس ابن سينا ورائد علم البصريات الحسن بن الهيثم .

الا ما تم كشف النقاب عنه من أعمال أبي بكر الرازي لا يعدو النذر اليسير ، وان المهتمين بالحضارة العربية ليتطلعون بشوق زائد الى مزيد من الدراسات الجادة للتراث العلمي العظيم الذي قدمه العالم الفيلسوف الطبيب أبوبكر الرازي لحضارة الانسان ، ذلك المخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه وعلمه ما لم يعلم .

***

مصادر البحث

(أ) المصادر العربية

(١) كتاب «الفهرست» لمحمد بن إسحق النديم (تم تأليفه عام ٩٨٨م) طبعة القاهرة: مطبعة الاستقامة عام ١٩٢٩م.
(٢) كتاب «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» لجمال الدين أبي الحسن القفطي، طبعة القاهرة: مطبعة الخانجي، سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م).
(٣) كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» طبعة بيروت: دار الفكر، سنة ١٩٥٦م.
(٤) كتاب «رسائل فلسفية» لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي جمعها وصححها المستشرق بول كراوس، جامعة فؤاد الأول، كلية الآداب، المؤلف رقم ٢٢. مطبعة بول باربيه، القاهرة، الجزء الأول، سنة ١٩٣٩م.
(٥) «رسالة في فهرست كتب محمد بن زكريا الرازي» لأبي الريحان البيروني. إعداد بول كراوس، القاهرة/باريس، عام ١٩٣٦.
(٦) كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» لأبي الريحان البيروني (يعرف أيضا بالعنوان المختصر: تاريخ الهند) نشره ادوارد سخاو في لندن عام ١٨٨٧م. وترجمه إلى الانجليزية في جزءين عام ١٨٨٨م. أما الهند فقد طبعت في لندن عام ١٩١٠م.
طبعته دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند عام ١٩٥٨م. وظهرت طبعة [illegible] عام ١٩٢٥م.
(٧) «الطب الروحاني»: أبو بكر محمد بن زكريا الرازي في كتاب «الفلاسفة المشرقية» تأليف إسماعيل حقي الأزميري. مطبعة الأوقاف الإسلامية باستانبول، عام ١٣٤١هـ (١٩٢٢م).

(ب) المصادر الأجنبية

(1) P. kraus :
'Epitre de Beruni contenant le repertoire des ouvrages de Muhammad b. Zakariyya al Rasi,' paris, 1936.

(2) J. Rusha :
'Al — Biruni als Quelle fur das Leben und die Schriften al — Razis's'' ISIS,5, (1923), 26 — 50.

(3) S. pines :
'Beitrage zur islamischen Atomenlehre,' Berlin, 1936.

***

مطالعات

الفيزياء والحيل عند العرب

محمد عيسى صالحيه
أستاذ مساعد ـ قسم التاريخ
جامعة الكويت

تباينت آراء العلماء العرب في تحديد أساس مفهوم العلوم الطبيعية ، فمنهم من نظر اليها نظرة فلسفية باعتبارها تحدد القانون الطبيعي بحقيقته الفلسفية وجوهره ، فالفارابي مثلا يعرفها « بأنها العلوم التي تنظر في الأجسام الطبيعية ، وفي الأعراض التي قوامها في هذه الأجسام ، وتعرف الأشياء التي عنها والتي لها ، والتي بها توجد هذه الأجسام والأعراض التي قوامها فيها[1] » . ويشتمل العلم الطبيعي عند الفارابي على ثمانية أجزاء ينقلها عن أرسطو وهي ، السماع الطبيعي وكتاب السماء والعالم ، وكتاب الكون والفساد والآثار العلوية ، والمعادن والنبات ، والحيوان والنفس .

أما ابن خلدون فيراه « علما يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون ، فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية ، وما يتولد عنها من حيوان وانسان ونبات ومعدن ، وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل ، وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك ، وفي مبدأ الحركة للأجسام وهو على تنوعها في الانسان والحيوان والنبات »[2] . ويعرفه طاش كبرى زاده بأنه « علم يبحث في أحوال الأجسام الطبيعية بأنواعها ، وموضوعه الجسم ، من حيث كونه متغيرا »[3] .

كانت العلوم الطبيعية اليونانية مجرد نظريات تستند الى الأفكار الفلسفية وتقوم على منهج عقلي استباطي ، لأنها اقتصرت على الحركة ، ومؤداها أن الأشياء تتحرك ، وعلى الانسان أن يتصدى لهذه الحركة . ولما أخذها العرب درسوها دراسة علمية تستند الى التجربة

---

(١) الفارابي : احصاء العلوم ، ٩١ ، حسين علي محفوظ : مؤلفات الفارابي ، ١٩٣ ، ٢٧٠ ، ٢٨٩ .
(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ٤٩٢ .
(٣) طاش كبرى زادة : مفتاح دار السعادة ،

والملاحظة ، ومن ثم وضعوا لها القواعد والأصول الكثيرة ، وخلقوا بذلك علم الطبيعة التجريبي ، فجاءت النتائج والدراسات دقيقة وواضحة مبدعة بدرجة كبيرة ، حتى أنها لا تختلف في بعض المجالات عن النتائج العملية التي توصل اليها العلم الحديث(٤) .

ومن الجدير بالذكر أن السريان لم يؤلفوا في العلوم الطبيعية كتبا منفردة عدا الأسقف الرهاوي ، الذي صنف كتاب « علة كل العلل » في النصف الثاني من المائة العاشرة ، وعليه فان المراجع اليونانية التي نُقلت أو فسرت بالعربية ، كادت أن تكون المرجع الأساسي لتزويد العلماء العرب بأوليات العلم ، الذي توسع العرب فيه ، وأضافوا اليه فيما بعد ، وأوجدوا طرقا متعددة طبقت في أبحاث العلوم الطبيعية ، ومن تلك الكتب الطبيعية التي ترجمت مبكرا ، كتاب الفيزيكس لارسطاطاليس ، وكتاب الحيل الروحانية ، وكتاب رفع الأثقال لايرن ، وكتاب الدواليب ، والآلات المصوتة على بعد ٦٠ ميلا لمورطس ، وخاصة كتابي الأرغن البوقي ، والأرغن الزمري ، وكتب فطيزيوس وهيرون الاسكندري في الآلات المفرغة للهواء والرافعة للمياه ، وكتاب الثقل والخفة لاقليدس ، وكتاب ساعات الماء التي ترمي بالبندق لأرشميدس(٥) .

ونتيجة لدراسة العرب هذه الآثار ، استطاعوا أن يزيدوا عليها زيادات تعتبر أساسا لبحوث علم الطبيعة المتنوعة بما طوروه وابتكروه من آلات منذ وقت مبكر فبدت ميادين علم الطبيعة ممثلة فيما يلي :

ـ علم الحيل أو الميكانيك ، وتشمل مراكز الثقل وتطبيقاتها ، وصناعة الأواني العجيبة بأنواعها المختلفة .
ـ دراسة الصوت .
ـ دراسة الضوء والبصريات .
ـ علم السوائل .
ـ دراسة الجاذبية الأرضية والمد والجزر .
ـ فيزياء الغازات والرياح .
ـ أبحاث المغناطيس والبوصلة والرقاص .
ـ الآلات الحربية (كالمنجنيق والبارود) .

وأهم بحوثهم النظرية في الفيزياء كانت :
ـ البحوث في القوى .
ـ البحوث في الحركة .

وكان من أهم بحوثهم العملية المتميزة :
ـ اقامة الساعات لحساب الزمن .

وقبل أن نبحث انجازات العرب المسلمين في هذه الميادين ، فانا نسجل بأن العرب قد أعطوا العلوم الطبيعية (الفيزياء والحيل) المنهج الصحيح في البحث العلمي ، بأن خلصوها من الشوائب التي ما فتئت تكدرها ، وذلك بطرح أساطيرها واعتماد منهج موضوعي في فك مغاليقها ، اذ نقوا الخرافات وحاربوها ، فقد تصدى ابن حزم مثلا للزعم القائل أن الفلك والنجوم تعقل وأنها ترى وتسمع وأثبت أنها دعوى بلا برهان(٦) ، ورفض العلماء العرب الادعاء بأن أنهار النيل وجيحون والفرات تخرج من الجنة ، وتسقي جميع المعمورة وردوها الى أهلها وغيرها من الخرافات ، ورافق ذلك سعة اطلاع غدا دستورا علميا صحيحا ،

(٤) كحالة : العلوم البحتة في العصور الاسلامية ، ٢١٦ ، مرحبا : المرجع في تاريخ العلوم ، ٣٢٢ .
(٥) ابن النديم : الفهرست ، ٢٤٧ ـ ٢٤٩ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ٢/ ٧٦ ، سارتون : تاريخ العلم ، ٥/ ٣٣٥ .
(٦) ابن حزم : الفصل في الملل والنحل ، ٥/ ٣٦ ، محمد بن يوسف الشطي : الأمد على الأبد ، ، ٦٨ ، ١١٩ ـ ١٢١ .

وصاحبه بحث وتنقيب ميداني من خلال الرحلات التي كانت ضرورة من ضروريات العلم عند العرب ، فكانوا يسافرون للقاء أهل العلم والمعرفة والأخذ عنهم علما وتعليما والقاء ومحاكاة وتلقينا[٧] . كما جعل علماء العرب التجربة منهاجا مهما في دراستهم الفيزيائية ولعل مطالعة قصة حي بن يقظان ، وآراء ابن طفيل في الموازنة بين النبات والحيوان والمقارنة بينهما في الخلق ، تؤكد جدية العرب في التجربة والمراقبة العملية الميدانية[٨] .

وحتى تلم باطار الصورة ، أرى أن نعرض لانجازات العرب ببعض الميادين التي أشرنا اليها سابقا .

علم الحيل (الميكانيك)

أطلق اليونانيون على العلم المختص للأجهزة الميكانيكية اصطلاح « ميكانيك » ، وعرفه العلماء العرب باسم « علم الآلات الروحانية وعلم الحيل » وعرفوه « بأنه علم الآلات الروحانية » المبنية على ضرورة عدم الاخلاء ، كقدح العدل وقدح الجور ، وغيرها من آلات الشراب ، ومنفعته ارتياض النفس بغرائب هذه الآلات » ويبدو جليا ، أن أكثر هذه الآلات توضح أنواعا من الحيل المبنية على المبادىء الميكانيكية المنسوبة لهيرون الاسكندري وغيره من علماء اليونان[٩] .

ومن المؤكد أن العرب قد أطلوا على هذا العلم منقولا عن اليونانيين وزادوا عليه وطوروه ، وبرز أبناء موسى بن شاكر (محمد ، أحمد ، الحسن) . كأشهر من كتبوا في هذا الفن[١٠] ، وعلى الأخص ، أحمد بن موسى ، الذي نبغ كعقلية خلاقة مبدعة ، بابتكاراته العديدة التي وصفها بأنها « أوضاع غريبة وأشياء عجيبة في جر الأثقال ، وكلها عملت بالطلبات والبكر »[١١] ، فقد اخترع أجهزة تمتلىء تلقائيا كلما فرغت من السوائل ، كدنان الخمر التي تفرغ كمية محدودة من ذاتها تعقبها استراحة محدودة ، وقناديل ترتفع فيها الفتائل ، ويصب الزيت فيها تلقائيا كلما أتت النار على جزء منها[١٢] ، واخترع أيضا آلات لخدمة الزراعة والفلاحة ، مثل المعالف المخصصة لحيوانات ذات أحجام خاصة ، تتمكن أن تصيب مأكلها ومشربها ، فلا تنازعها غيرها الطعام والشراب ، وآلة أخرى تثبت في الحقول وتصدر أصواتا خاصة ، كلما ارتفع مستوى الماء في الحقول ، لئلا تضيع كميات الماء هدرا ، ويمكن بواسطتها السيطرة على عملية ري المزروعات ، وركب نافورات خاصة تندفع مياهها على أشكال مختلفة وصور متباينة[١٣] .

ان الاطلاع على الكتاب الموسوم « بحيل بني موسى » حيث جمعت اختراعات أحمد بن موسى بن التطور الميكانيكي لابداعه[١٤] ، يعطي صورة واضحة

---

(٧) فروخ : عبقرية العرب ٨٨٦

(٨) نفس المرجع السابق ، ٩٦

(٩) الشمس : مقدمة لعلماء الفيزياء في الحضارة العربية الاسلامية ، ٢٣٣ ، وبعام العدل : انه يملأ شرابا ويكسى ، فلا يصب منه شيء فيوهم الشارب انه استوفى مائه ، أما جام الجور فاذا صب منه فوق المقدار فرغ كل مائه

(١٠) زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ٢/ ٢٨٦

(١١) الصفدي : الوافي بالوفيات، ٥/ ٨٥

(١٢) Donald,R. Hill : the Genius of Arab civilization. P.137.

(١٣) مرحبا : المرجع ، ٢٥٣

(١٤) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

لتقدم علم الميكانيك عند العرب . وعلى أي حال ، فيمكن أن تقسم المؤلفات العربية في الحيل الى قسمين :

الأول : يبحث في مراكز الأثقال وجر الأجسام بالقوة اليسيرة .

والثاني : يبحث في آلات الحركات ، وصنعة الأواني العجيبة ، وآلات هذه الصناعة .

أما مركز الثقل عندهم ، فهو العلم الذي يتعرف منه كيفية استخراج مركز ثقل الجسم المحمول باعتباره حدا في الجسم ، يتعادل نسبيا مع الحامل ، ومن ألف فيه أبو سهل الكوهي ، ولنظريته مثبتة رياضيا[15] . وقد أدى بهم التعمق في دراسة مركز الثقل الى الاهتمام بالموازين درسا وصنعا وتأليفا ، اذ يعتبرون العمل بالميزان من عجائب النسبة . وكان أن وضع ثابت بن قرة ت ٢٨٨هـ/ ٩٠٠م أبحاثا في صفة استواء الميزان والوزن واختلافه وشرائطه ، في كتابه (القرسطون أو القبان) . أتى بنظرية ، تعتبر من أهم نظريات العصور الوسطى ، وملخصها « ان الرافع يمكث في حالة الاتزان ، اذا وضعنا على أحد ذراعيه عمودا ثقيلا ممتدا على أحد ذراعي العمود ، ثم استبدلنا هذا العمود بثقل ، وزنه مساو لثقل العمود ووضعناه على نصف المسافة التي كان العمود ممتدا عليها وهذه النظرية تقترب من حساب التفاضل والتكامل في عصرنا .

اهتم العرب بدراسة الموازين ، فاخترعوا أدقها ، واستعملوا لموازينهم أوزانا متنوعة دقيقة ، وكان الفرق بينها لا يصل الى ٠,٠٠٤ ، وهذه النسبة الدقيقة لا يمكن الوصول اليها الا باستعمال أدق الموازين الكيميائية الموضوعة في صناديق من زجاج ، لا تؤثر فيها تموجات الهواء .

ومن الذين ألفوا في الميزان بالاضافة الى أبناء موسى بن شاكر ، وثابت بن قرة ، برز أبوسهل الكوهي ، والفارابي ، وقسطا بن لوقا ، وابن سينا والحسن بن الهيثم ، وابن جامع والجلدكي . ويعتبر كتاب عبدالرحمن بن نصر المصري ، أحسن ما وضع في العصر الأيوبي ، فقد أعده للمحتسب لمراقبة الأسواق أيام صلاح الدين . ومن الجدير بالذكر أن كتاب « الميزان الطبيعي » الذي صنفه الرازي ت ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م ، يحظى بمنزلة مرموقة في تقديرنا ، فهو أول كتاب استقل في نهجه عن أبحاث اليونان في علم الميزان ، فقد خالف في صنعته وعمله قرسطون أرشميدس ، فهو يستعمله والكفتان خارجتان عن الماء ، وكلتاهما مملوءتان مترعتان ، ولنقصان الماء من كل كفة منهما بقدر مساحة الجرم الذي فيها بينما أرشميدس يستعمل الكفتين وكلتاهما في الماء غاطستان ، وهو ذو شعيرات[16] . وقد جعل الرازي فصوله الثلاث تشتمل على :

- في العمل بالميزان .

- بيان الميزان الطبيعي .

- وضع شعيرات النسبة عليه[17] .

---

(١٥) القلقشندي : صبح الأعشى ، ١/ ٤٧٦
(١٦) حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ٢١٠
(١٧) الخازني : ميزان الحكمة ، ٨٣

أما كتاب « ميزان الحكمة » الذي وضعه عبدالرحمن الخازني ، فهو من الكتب المعتبرة في علم الطبيعة ، بل وأهم ما ألف في (mecanique) علم الميكانيكا والحيل وموازنة السوائل ، اذ يشتمل على نظرية الثقل والكثافة ونظرية الروافع ، وتطبيقات للميزان ، وطرق لقياس الزمن ، ويضاف الى ذلك ، أنه من أكثر الكتب استيفاء لبحوث الميكانيكا . ومن دراستنا لكتاب ميزان الحكمة ، نرجح أنه كان لدى الخازن آلات خاصة لحساب الوزن النوعي ، وأخرى لقياس حرارة السوائل[١٨] بل أنه ضمن كتابه مصورا لآلة مركبة من عدة أعضاء ، وبها خمس كفات توزن بها الأشياء في الهواء والرطوبات ، وتتحرك على ذراع واحد[١٩] .

ومن ناحية ثانية ، فقد كان للعرب بحوث نفيسة في الروافع ، وكان لديهم عدد غير قليل من آلات الرفع ، ومع أن فضل اليونان لا ينكر في هذا المجال ، وخاصة ايرن الا أن العرب ابتدعوا روافع سهلة العمل ، قليلة التعقيد ، وكتاب « الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل » للجزري ضم صورا عدة لتلك الروافع وشرح طريقة عملها . وتفوق على ما سواه ، وليس معنى ذلك أنه الكتاب الوحيد في هذا المجال ، فقد صمم أمية بن عبدالعزيز بن أبي الصلت ت ٥١٢/ ١١٣٤هـ آلات بأشكال هندسية ، واستعملها لرفع الأثقال[٢٠] وهناك آلات بسيطة جعلت لجر الأجسام بالقوة اليسيرة ، شرحها الخوارزمي في كتابه ، مفاتيح العلوم ، ومنها البرطيس والمخل والبيرم وأبوغليوط والثقل واسقاطولي والأسفين واللولب وغالاغرا (معصرة للزيتون) . كلها تعتمد على نقط الارتكاز والمحاور بعد الضغط عليها من الطرف الآخر[٢١] .

في آلات الحركات وصنعة الأواني العجيبة :

ونعني بها الآلات والأواني التي ابتكرها العلماء العرب للمنفعة العامة كتدبير المنزل أو آلات الحرب والري والآلات الفلكية والساعات أو للتسلية كالدمى التي تتحرك وحدها أو التي تكشف حيل المشعوذين ، وتقوم هذه الآلات على الحركات الميكانيكية الناتجة من ذات الآلة ومن الماء أو من الرمل ، وكنا قد أشرنا الى تفوق بني موسى ، وخاصة أحمد في هذا المجال ، ونوهنا بأهمية الآلة التي جاوزت المائة ، وعظيم فائدتها في دفع العلم الميكانيكي .

وبالاضافة الى كتاب حيل بني موسى ، فان هناك مجموعة من المؤلفات عُنيت بوصف الآلات الميكانيكية ، وأعطت رسوما توضيحية ، تبين طريقة صنعها وكيفية عملها ولعل من أهمها كتاب « الحيل أو الجامع بين العلم والعمل » لأبي العز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري ت ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م . وقد أولى فيه بديع الزمان الجزري اهتماما خاصا بالمسائل العملية لعلم الهيدروليكا والآلات المتحركة بذاتها[٢٢] ، وقد ألفه للملك الصالح محمد بن قرا أرسلان من آل أرتق بديار بكر في النصف الثاني من القرن ٦هـ بعد عمله في بلاط بني أرتق قرابة ٢٥ سنة ، وحوى الكتاب صورا للبنكام الذي يعرف به ما مضى من ساعات النهار ،

(١٨) الدفاع : العلم عند العرب ، ٣٠٥ .
(١٩) ماجد الشمس : مقدمة لعلم الميكانيك ، ٤١ ، ٤٢ .
(٢٠) مجلة تاريخ العلوم العربية ، حلب ، السنة الأولى ، العدد الأول ، ١٩٧٧ ص ٥١
(٢١) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ١٤٢
(٢٢) الدفاع : العلم عند العرب ، ٣٠٥ ، مجلة تاريخ العلوم ، ١٩٧٧ ع١ ص ٥٦

وصورا لآلات رفع الماء ، وآلات سرية تظهر حركات مدهشة ، كرجل يدق ساعة أو رجل يمشي أو يتحرك ، ورسوما ايضاحية لتركيب الدمى وحركاتها وأشكالها كما أن الكتاب يعد مرجعا هاما لدراسة الساعات عند العرب ، وطرق صنعها وعملها[٢٣] .

ووضع عبدالرحمن الخازني ت ٥١٢هـ/ ١١١٨م ، كتابا في الآلات العجيبة تعرض فيه لعمل آلات الرصد ، وعرف فيه أيضا علم الهيئة ، وكانت تلك الدراسات هي التي مهدت لاختراع البارومتر .

وكان البيروني ت ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م قد ذكر في كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » بعضا من الآلات ، ووصف طريقة عملها ، وخاصة آلات رفع المياه الجوفية من الآبار والعيون ، ومن المعلوم أن للبيروني دراسات مهمة في السوائل والمطر والسحاب والضباب والثقل النوعي ، وتشكل المياه في باطن الأرض وغيرها .

وصنف مجهول لعله أبوعامر (أحمد الأندلسي) ، كتاب « الباهر في عجائب الحيل » ويعرف أيضا « بكتاب الباهر في النارنجات » ، وصف فيه أنواعا من الدمى تتحرك بما يشبه أعمال الحواة ، قصد به الكشف عن حيل بعض المشعوذين ، كادخال البيضة في الزجاجة ، وألعاب الأقداح واخفاء الخواتيم وغيرها[٢٤] .

وعقد الخوارزمي في كتابه « مفاتيح العلوم » فصولا لصناعة الحيل ، وأفرد فصلا خاصا سماه « في حيل الماء وصنعة الأواني العجيبة »[٢٥] ، هذا بالاضافة الى المؤلفات التي بحثت في الساعات وعملها ، وآلات الحرب التي ترمي البندق وغيرها . أما تقي الدين الراصد ت ٩٩٤هـ/ ١٥٨٥م ، فقد كان كتابه « الطرق السنية في الآلات الروحانية » اجمالا لهذه الآلات وأشكالها وأنواعها[٢٦] .

وأخيرا فقد نشر المستشرق الفرنسي كارا دي فو كتابا عربيا في الميكانيكيات « الحيل الروحانية ومغانيقا الماء » ويعتقد أنه لفيلون[٢٧] ، وهو مفقود باليونانية الا أنه محفوظ بنصه العربي ، كما أن قسما صغيرا منه موجود باللاتينية نقلا عن النص العربي ، وقام Valentin Rose بنشر النص اللاتيني في Anecdota graeca et graecolatina الصفحات ٢٨١ - ٣١٤م ، برلين ١٨٧٠م . ثم أعاد Wilhelm Schmidt طبعه De ingenis Spiritualibus باللاتينية والألمانية ، وبارون كارا دوفو باللغة العربية والفرنسية .

Le Livre des appareils pneumatiques et des machines hydrauliques, Notices et extraits de MSS de la Bib-. liotheque Nationale, 38,211,pp,paris, 1092.

ومن هذه الآلات التي ابتدعها العلماء العرب ما يلي :

- آلات بني موسى للتدبير المنزلي ، مثل المعالف والمشارب وخزانات الحمامات ، ودنان الخمر التي

---

(٢٣) زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ٣/ ٢٧٤

(٢٤) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(٢٥) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ١٤٣ - ١٤٨

(٢٦) توجد نسخة من المخطوطة في جستربيتي تحت رقم ٥٢٩١ أشار اليها حسن الحسن في كتابه عن تقي الدين الراصد

(٢٧) مجلة المشرق ، السنة السابعة ص ٢٦٥

تسكب القليل ثم تنقطع فترة ، والقناديل التي ترتفع فتايلها وزيتها تلقائيا ، وآلات مرصد سامراء ، ذات الشكل الدائري ، والتي تحمل صور النجوم ورموز الحيوانات ، وتدار بقوة مائية[٢٨] ، وإذ كلما غاب نجم من السماء ، اختفت صورته من الآلة ، وهذا يتطلب معرفة دقيقة في علم الفلك ، ومهارة فائقة في علم الميكانيكا تتميز بالخيال الخصب والأفكار العلمية التي تبرز منها الدقة والتعمق والموضوعية العلمية[٢٩] .

ومن الجدير بالذكر ، أن ابتكار الأدوات الفلكية ، كان فنا متقدما عند علماء الفلك العرب ، وقد أدت آلاتهم الفلكية الغرض المرجو منها ، مما أوجب الاستمرار في استعمال بعضها حتى في عصرنا الحديث ، كآلة السدس والربع والاسطرلاب وغيرها .

- آلات رفع الماء : الروافع والنواعير

ومن هذه الروافع ، آلات ترفع من عمرة وبئر ليست بعميقة ونهر جار ، وآلات ترفع من مياه من عمرة إلى مكان مرتفع بداية تدير سهيا ، وروافع للماء من غمرة أو بئر تديرها دابة ، وآلات أخرى في بركة ، وسطها عمود مجوف ، عليه قرص ، يعلوه تمثال بقرة تدير دولابا بأربعة وغيرها من الآلات ، ومن أشهرها مضخة ابن الرزاز الجزري ، والتي تعد الجد الأقرب للآلة البخارية[٣٠] .

وعلى الأنهار ركبوا النواعير ، وقد عرف بها قيصر بن أبي القاسم عبدالغني بن مسافر (علم الدين الحنفي) ٥٦٤هـ - ٦٤٩هـ/ ١١٦٨ - ١٢٥١م . حيث ارتبط اسمه « بفن السواقي » وكان علم الدين الحنفي قد خدم أمير حماة ، وأنشأ له النواعير على نهر العاصي[٣١] .

وامتدت ابتكاراتهم إلى صنع الأواني العجيبة ، أي الأوعية الصغيرة التي تدخل في الأعمال المخبرية ، كالأنابيب الزجاجية والبواتق والدوارق ، وأدوات الرفع البسيط وغيرها . فالرازي ت ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م ، مثلا يصف ما يزيد على عشرين جهازا ، منها الزجاجي ، ومنها المعدني[٣٢] .

ومن ناحية ثانية ، فقد وصف الخوارزمي ، صنعة الأواني العجيبة التي تتحرك بحيل الماء ، كالاجانة التي توضع فوق الماء ، وتعلق بها خيوط ، كما تعلق بكفة الميزان ، وتشد بتلك الخيوط الأجسام التي يراد حركتها ، فكلما امتلأت الاجانة ، ورسبت في الماء ، وجرت الخيوط وما يتصل بها ، فيحدث لذلك حركة تختلف أشكالها بالمراد منها[٣٣] . ومن هذه الأدوات والأواني التي وصفها الخوارزمي نذكر ، الأواني السحارة ، والسحارة المخنوقة التي تعمل في جام العدل ، والكوز القريل السفل ، والبيثون ، والمليار أو الميناز ، (اناء كبير يسخن فيه الماء) وسرن السرحى ، وبركار السرن ، والقطارات ، الحنانات (آلات تعمل فتحن مثل صوت المعازف والمزامير والصفارات وغيره

(٢٨) جورج سارتون : تاريخ العلم ، ترجمة لفيف من العلماء ، ٥/ ٢٤٠
(٢٩) حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ٢٩١
(٣٠) مجلة تاريخ العلوم ، حلب ، العدد الأول ، ٥٦
(٣١) الدوميلي : العلم عند العرب ، ٣٠٦ ، حكمت نجيب : دراسات ، ٢٩١ ، ولقد وردت نماذج لوسائل الري التي استخدمت في السادس عشر في كتاب The Genius of ArаB CIVILIZATION PP.181.184. وبينها عباس النيل عند الروضة
(٣٢) ماجد الشمس : مقدمة العلم ، ٤١
(٣٣) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ١٤٣

والنضاحات والفوارات ، والمشاط القلس والشاقول)[٣٤] .

وهناك نوع من هذه الأواني تكون على هيئة الأنابيب والبرابخ ـ أنابيب الفخار والقنوات ـ ومنها ، الذي دعوه (سارق الشراب) ، وهو اناء يملأ شرابا وينكس ، فلا ينصب منه شيء فيوهم الشارب أنه اسشرق ما فيه ويسمى جام الجود وضده جام العدل ، لأنه اذا زيد فيه شيء يفوق المقدار ، انصب ما فيه كله[٣٥] ، وكذلك المهتدم ، وباب مطحون وباب الدفع (المستق) وآلة الذبة ، وهي آلة من نحاس أو غيره مجوفة ولا متنفس بها البتة ، وتوضع في سطل أو نحوه ، ثم يصب في السطل ماء صبا رقيقا ، فكلما ازداد الماء ، طفت تلك الآلة ، ورفعت ما يتعلق بها من الأجسام فيحدث لذلك حركات[٣٦] .

واستفاد بعض العلماء العرب من الرمل والخردل والجاورس في صنع آلات بحيل بدل الماء ، وتقوم على أنابيب بربخية ، فوقها قطع من الرصاص المشدود بخيط معلق عليه ما يحتاج الى تحريكه ، ويتلخص عمله بأنه كلما تناقص الرمل أو الجاورس تحرك الرصاص الى الأسفل وحرك الخيط وما هو متصل به ومن جهة أخرى ، فقد نشأ علم خاص يسمى « علم الآلات الحربية » وهو علم « يعرف منه كيفية اتخاذ الآلات الحربية ، مثل المنجنيقات والعرادات والخنزيرات والسهام والأسطام ويشمل أيضا ، رمي القوس والبندق»[٣٧] وعد من فروع علم الهندسة . وقد نجحت العديد من المكتبات العربية والأجنبية باقتناء العديد من المؤلفات التي تشرح كيفية صنع المجانيق والأقواس والبندق وما اليها ، وكان كتاب « تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الاسواء » ، ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء « لمرضي بن علي بن مرضي الطرسوي ت ٥٨٩هـ» ، نشره كلود كاهن بيروت ، ١٩٤٨ ، من أهم كتب الحروب ، فقد وصف فيه طرق صنع السيوف ، والأقواس والرماح والتراس والدروع والجواشن واللتت والأعمدة والدبابيس والنجنيقات العربية والفارسية والرومية (الفرنجية) . وطرق صنع الدبابات والأبراج والستائر والمثلثات والنفوط وخاصة النفط الذي يمشي على الماء ويصلح لحرق المراكب .

ان صنع الساعات والعمل بها ، كان من أهم ما عرفه العرب في علم الميكانيكا ونظرا لأهميته ، فأرى أن نفرد لها مكانا في هذا البحث .

الساعات العربية :

يعتقد بعض العلماء أن الاشارة التي وردت في سفر اشعيا « بان الظل رجع على درج آحاز عشر درجات » انما قصد بها الساعة الشمسية المعروفة بالمزولة والتي تقوم فكرتها على تقدير الوقت بحسب اتجاه الظل ، فيُنصب جسم مواز لمحور الأرض على سطح مستو ، قد رسمت عليه الزوايا المطابقة للساعات ، واذ يقع ظل الجسم عليها ، يحدد الوقت بموجبه[٣٨] .

---

(٣٤) لتوضيح عمل هذه الآلات انظر المرجع السابق ، ١٤٣ .
(٣٥) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة
(٣٦) المرجع السابق ، ١٤٣
(٣٧) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ١/ ١٢٥
(٣٨) مجلة المقتطف ، المجلد ٧٠/ ١٥٩ ، خطر الثاني : أثر المدنية ، ٢٤٣ ، سارتون : تاريخ العلم ، ٥/ ٢٤٦

ونحن وان كنا لا نميل لمعالجة تطور صناعة الساعات والعمل بها عند الأمم الأخرى ، كالكلدان واليونان لخروجه عن مظان بحثنا ، غير أن حساب الزمن وفق النظام السومري ـ البابلي لا يزال قائما ، ثم ان الكتاب التاسع لفتروفيوس قد عني بالمزاول أو الساعات المائية ، ولم يُعثر على نص يوناني لكتاب فيلون « في الحيل الروحانية وميخانيقا الماء » الا بالعربية ، الأمر الذي يؤكد أنه كان لدى الأمم السابقة اهتمام بمسألة الوقت وتحديده من جهة ، وأن العرب قد اطلعوا عليها من ناحية أخرى[٣٩] .

وفي رأينا ، أن ذاك التطور الذي وصل اليه عرب الأنباط والحضر وتدمر والحيرة ، لا يمكن أن يتم دون الالتفات لعنصر الزمن ، اذ لا يعقل أنهم بلغوا مستوى حضاريا متقدما بلا معرفة متقدمة عن الساعات وتقسيم الزمن ، سيما وأنهم اهتموا بالأرصاد الفلكية ، هذا بالاضافة الى أن عبادة الأجرام السماوية كانت جزءا من عبادة الصابئة . وما يهمنا هو التأكيد على اهتمام عرب الجاهلية بأمر التوقيت لعوامل تتعلق بشئون حياتهم اليومية ، فالزراعة فرضت عليهم الالتفات الى تقلبات الجو ، كما أن الاعياد وأمور العبادة ، جعلت رجال الدين في المعابد والكهان يقومون بضبط الوقت اعتمادا على الفلك والنجوم والأنواء ، ويبدو أن تحديد الزمن بواسطة الآلة ، مكن عرب الجاهلية من تسمية كل ساعة من ساعات النهار الأربع والعشرين ، باسم خاص ، فساعات النهار هي الذرور والبزوغ والضحى والغزالة والهاجرة والزوال والدلوك والعصر والأصيل والصبوب ، والحدود والغروب ، وساعات الليل هي ، الشاهد والغسق والعتمة والفحمة والموهن والقطع والجوشن والهيكة والتباشير والفجر الأول والمعترض والأسفار[٤٠] ومع أن هناك أسماء أخرى فرضتها اختلاف البيئات القبلية وأسباب موضوعية أخرى ، الا أنها لا تخرج في معناها عن المشار اليها ، وأطلق عرب الجاهلية على من يعمل بالساعات هذه من غير رجال المعابد ، اسم « الساوعة »[٤١] ، وهذه دلالة أخرى على اهتمامهم بالوقت وتحديده .

وفي صدر الاسلام ، كان تحديد مواقيت الصلاة يتم بحركة الشمس اليومية اليوم يبدأ عندهم بصلاة المغرب ، وذلك بعد غروب الشمس ، والعشاء عند انطفاء الشفق الأحمر ، والفجر تبدأ بظهور الفجر ، أما الظهر ، فعندما تبدأ الشمس في انخفاضها بعد عبورها خط الزوال ، وصلاة العصر ، تحل عندما يساوي طول ظل أي قائم ظله عند الظهر ، مضافا اليه طول القائم ، وكانت معرفة الوقت من الأمور التي يتوجب على كل مسلم معرفتها ، حتى أن شاعرهم يقول :

ولا خير ، فيمن كان بالوقت جاهلا
ولم يك ذا علم بما يتعهد[٤٢]

وقد أجمل أحدهم ضبط الوقت بهذه الأبيات ، ولعلها لابن يونس المصري

ومعرفة الأوقات فرض معين
على عقلاء المسلمين مؤكد
أتى ذلك في القرآن ياصاح مجملا
وفسره خير البرية أحمد

(٣٩) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ٨/ ٤٦٩ ، ابن سيده : المخصص ، ٩/ ٤٤
(٤٠) ابحاث الندوة العالمية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب ، مقالة ، علم الوقات لدافيدكنج ، ٣٩١
(٤١) نفس المرجع السابق ، ٣٩٦
(٤٢) الشمس : مقدمة ، ٣٦ ، ابن ابي أصيبعة : عيون الانباء ، ٤٨٣

فمهما رأيت الظل قد زاد فيئه
فصل صلاة الظهر اذ ذاك يرصد
وزد قامة ظل الزوال فانه
أوان لوقت العصر محدد
وعند غروب الشمس قم صل مغربا
فليس لها وقت سوى ذاك مفرد
وصل العشاء وأنت للنجم ناظر
اذا الشفق الأحمر يغيب ويفقد[٤٣]

ومما يجدر ذكره أن العرب قد أقاموا الساعات في المساجد والمدارس ومعاهد العلم ، وعينوا لها المهندسين للاشراف عليها والعناية بها ، وكان من مهام المؤذن أن يكون خبيرا بتحديد أوقات الصلاة ، وألفوا في الميقات والموقتين والساعاتيين بالجوامع والمدارس ، واتخذت مؤلفاتهم أشكالا عدة ، فمنها :

مؤلفات في الساعة الشمسية « أو المزولة » :

كانت الساعة الشمسية ، المزولة ، أكثر اختراعاتهم أصالة وفنا ، وهي المسماه « ساعة الرخمة » ، لا سيما بعد أن أصبحت دائرية الشكل ، وجعلوا بوسطها محورا لتحديد موضع الشمس والوقت ، ومن الساعات الشمسية العربية ما عرف « بالرخامة » وهذا النوع من الساعات كثرت المؤلفات العربية فيه ، فثابت بن قرة ت ٢٨٨هـ/ ٩٠٠م ، وضع كتابا في آلات الساعات التي تسمى رخامات[٤٤] وللخوارزمي ٢٣٢هـ ، كتاب « الرخامة »[٤٥] ، ولحبش بن عبدالله المروزي ت ٢٢٠هـ كتاب الرخائم ، ولمحمد بن كثير الفرغاني كان « حيا سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م » « عمل الرخامات »[٤٦] ، وألف أبوعبدالله الشلوي ، كتابا « في الرخامة المنحرفة وكتابا آخر في الرخامة المستطيلة »[٤٧] . ولابراهيم بن محمد بن حبيب البغدادي ت ١٨٨هـ كتاب « مقياس » ويذكر أنه لا تزال هناك ساعتان شمسيتان ، الأولى في متحف طوب قابي في اسطنبول على شكل ربع كرة ، قسم تجويفها الى اثنى عشر قسما ، ومحمولة على قاعدة من نفس المادة وفي سجلها ، أنها جلبت من مدائن صالح ، مما يؤكد ما ذهبنا اليه أن عرب الجاهلية قد عرفوا العناية بالوقت ، والأخرى بجوار الثريا ، بجامع القرويين بالمغرب ، صنعها (المعدل) محمد بن عمر ت ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م ، وأضاف مؤلف جامع القرويين ان هناك أربع ساعات من هذا النوع تلاشت جلها اليوم ، كما أن هناك واحدة أخرى بأعلى الصومعة[٤٨] . وحيث أن هذا النوع لا يدخل ضمن علم الحيل ، فاننا نكتفي بهذه العجالة فيه ، أما النوع الآخر من تأليف الساعات ، والذي قام أساسا على « علم الحيل في الماء » أو ميكانيكا الماء ، ونبغ فيها العديد من العلماء العرب فندرجها تحت عنوان التأليف في الساعات المائية .

مؤلفات في ساعات الماء :

اقتصرت الفائدة في استعمال الساعة المزولة على أيام الصحو ، أما في أيام الغيم والمطر فقد تعذر استعمالها ،

---

(٤٣) ابحاث الندوة العالمية الاولى ، ٣٩٢ .
(٤٤) ابن النديم : الفهرست ، ٣٩٧ ، ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٢/ ٨١ ، البغدادي : هدية العارفين ، ٦/١ .
(٤٥) ابن النديم : الفهرست ، ٣٩٨ ، ٤٠٣ .
(٤٦) البغدادي : هدية العارفين ، ٥/٢ .
(٤٧) ابن النديم : الفهرست ، ٣٩٨ ، الحسني : مقدمة ، ٣٦ .
(٤٨) التازي : جامع القرويين ، ٢/ ٣٤٧ .

لأنها تقوم أساسا على الثقل ، ولهذا اضطر العلماء الى استنباط الساعة المائية لحل المشكلة الوقتية ، وبدأت بسيطة بوعاء صنع من مواد مختلفة وبأشكال متعددة ، يصب فيه الماء وينفذ الى وعاء آخر بقدر ، ليقيس الوقت بمقدار ما ينساب من الماء بوحدات زمنية اصطلاحية[٤٩] ومن ثم زيد منها دولاب أو أكثر يدور بتناقص الماء في الوعاء ، فيدير عقربا على ميناء فتعرف الساعة[٥٠] بذلك .

ولعل من معترض يرى أن الساعة المائية ما كانت الا تطويرا لتلك التي كانت موجودة عند الكلدان والهنود واليونان . وفي تقديرنا أن الساعة الكلدانية المائية الهندية واليونانية ، لم تختلف كثيرا عن الساعة الرملية مع فارق ابدال الرمل بالماء ، وكان القصد منها تعيين فترة للقيام بعمل معين ، دون الأخذ بعين الاعتبار زمنا محدودا ، فالخطيب مثلا كان يمنح مهلة للكلام ، تنقضي بفراغ محتويات قارورة من سعة معينة ، ويقطع النظر عن سرعة التفريغ ، اذ لم تحصل بالتدرج وحتى لم تربطه بزمن معين[٥١] .

وليس معنى هذا أن الأمم السابقة لم تعرف الساعة المائية الميكانيكية ، فقد ذهب سارطون الى أن كتسيبوس قد اخترع ضاغطة وأرغنا مائيا وساعة مائية ، كما أنه استخدم الماء في القوى الضاغطة ، والحكم في ذبذبات الهواء لاخراج أصوات معينة ، ويكون بذلك قد أدرك الحاجة الرئيسية للاسطوانة والكباس والصمام ، وأدخل فيلون البيزنطي بعض التحسينات على نماذج تلك الساعة[٥٢] غير أن العلماء العرب قد ارتقوا بهذه الفكرة البسيطة ، ليدخلوها ضمن عمليات رياضية منظمة منسقة أساسها الاستفادة المثلى من مكتشفاتهم في علم الحيل ، حتى اذا ما وصلت هذه الاستفادة مرحلة متقدمة ، جعلوها علما ، فنقرأ في كشف الظنون[٥٣] ، تعريفات لعلم البنكامات ولعلم آلات الساعة ، وعلم البنكامات عندهم يعني الصور والأشكال المصنوعة لمعرفة الساعات المستوية والزمانية وذلك بآلات يقدر بها الزمن ، وموضوعه » حركات مخصوصة في أجسام مخصوصة ، تنقضي بقطع مسافات مخصوصة ، وغايته معرفة أوقات الصلوات وغيرها ، دون ملاحظة حركات الكواكب ، وكذلك معرفة الأوقات المفروضة للقيام في الليل ، تهجدا أو للنظر في تدابير الدول ، والتأمل في الكتب والصكوك والخرائط المنضبط بها أحوال المملكة والرعايا واستمداده من الرياضة والطبيعة ، أما علم آلات الساعات ، فيبحث في الصناديق والصوالب وأمثال ذلك .

كان هذا يجري في الوقت الذي اتهم فيه البابا سلفستر الثاني بأخذه السحر ، واستعانته بقوة الشيطان ، بعد صنعه ساعة في مدينة كلدبرج ٣٥٦هـ/ ٩٩٦م ، تدور بثقل دواليب[٥٤] ، ولا ندري ان كان سلفستر قد بنى ساعته على نمط تلك الساعة التي قيل أن هارون الرشيد قد أهداها ١٩٢هـ/ ٨٠٧م الى شارلمان ، وقد أطرب واصفوها غاية الاغراب في وصفها ، حيث أورثت رجال الدين حيرة وذهولا ،

(٤٩) الشمس : مقدمة ، ٤٥
(٥٠) مجلة المقتطف ، م ٣٠ص ١٦٠
(٥١) سارطون : تاريخ العلم ، ٥/ ٢٣٧
(٥٢) سارطون : تاريخ العلم ، ٥/ ٢٣٦
(٥٣) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ١/ ١٤٧ ، ٢٠٠
(٥٤) الشطي : مجموعة ابحاث من تاريخ العلوم الطبيعية ، ١٩ .

ويبدو أن تلك الساعة كانت مائية ، صنعت من نحاس مذهب ولها في وجهها اثنا عشر بابا صغيرا بعدد الساعات ، وكلما مضت ساعة فتح باب وسقطت منها كرات معدنية ، تقع على جرس ، فيقرع بعدد الساعات وتبقى الأبواب مفتوحة تفتح الأبواب الاثنا عشر ، وحينئذ تخرج صور اثنى عشر فارسا على خيول تدور على الصفيحة ، ثم تدخل وتغلق الأبواب وراءها .

ونحن وان كنا نشك في وجود مثل تلك الساعة في ذاك الوقت ، لاننا لم نعثر على أية اشارة في المصادر العربية التي اطلعنا عليها ، وذهب بارتولد في بحثه عن تاريخ فلسطين في العصور الوسطى ، الى أن سفارة هارون الرشيد التي أنيطت بها مهمة السفر لمقابلة شارلمان ، ومعها الساعة والمفاتيح ليست الا من وضع اسحق اليهودي لتحقيق أهداف سياسية أصبحت اليوم معروفة ، ومهما كانت التحليلات والدراسات ، فان ايراد الخبر في المراجع الأوروبية فيه اقرار أوروبي ضمني ، بأن العرب قد بلغوا شأوا في صناعة وعمل الساعات منذ فترة مبكرة (عصر هارون الرشيد) ، وبالتالي تقدم علم الحيل عندهم (٥٥) ، ومما يجدر ذكره ، أن العرب أطلقوا على الساعة المائية عدة تسميات ، مثل ، ميقاتية ، بنكام ، فنكان ، فنجانة ، منجانة ، القطان .

ولعل أبا يوسف الكندي ت ٢٤٦ هـ / ٨٧٣ م ، كان أول من ألف رسالة في عمل ساعات مائية على صفيحة تنصب على السطح الموازي للأفق ، خير من غيرها (٥٦) وبحث شكنا ما ذكره الجاحظ « ان المسلمين كانوا يستعملون بالنهار الاسطرلابات وبالليل المكبات (٥٧) ولهم بالنهار ظل يعرفون به ما مضى من النهار ، وما بقي ، وأضاف « وأربابهم يتفقدون المطالع والمجاري (٥٨) ، فهلا عرف أو سمع الجاحظ برسالة الكندي وهو المقب النؤوب ، أو أنها أي صنعة الساعة التي وصفها الكندي لم تكن منتشرة ، واستمر الناس يعرفون الأوقات بالمطالع والمجاري الفلكية .

وكان مؤلف أبي عبدالله الخوارزمي ، (كان حيا ٣٨٠ هـ / ٩٧٦ م) . وما فيه من وصف الساعات المائية ، كآلة النوبة والفيل وصندوق الساعات وغيرها ، أكثر توضيحا من المؤلفات السابقة (٥٩) .

يبدو أن التقدم الفعلي لصناعة الساعات والعمل بها قد تم في القرون الثلاثة السادس والسابع والثامن الهجرية ، اذ وردت إشارات لمؤلفات في الساعات وصناعاتها ، وتخصص عدد من المهندسين في صنع الساعات وآلاتها ومنهم ، علي بن تغلب (ثعلب) بن أبي الضياء ت ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م ، وينسب اليه تدبير الساعات على أبواب المدرسة المستنصرية في بغداد ، وقيل أنه هو الذي صنعها (٦٠) .

محمد بن رستم الساعاتي ت ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م ، وهو الذي صنع الساعات على باب الجامع الأموي بدمشق في زمن نور الدين ، محمود بن زنكي ، وكانت

---

(٥٥) مجلة المقتطف ، مجلد ٧٠/ ١٦٠ ومجلة الرسالة : الساعات العربية لاحمد دهمان ، عدد سنة ١٩٣٦ /٢ /٦٧٤
(٥٦) البغدادي : هدية العارفين ، ٦/ ٥٤٠ ، ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٢/ ٣٩
(٥٧) ماجد الفيسي : مقدمة ، ١١٧ ، الكبات (ج مكبة) ، وهو ما يلف عليه الغزل او الخيط
(٥٨) الجاحظ : الحيوان ، ٢/ ١٠٧
(٥٩) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ١٤٢-١٤٦ ، ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٢/ ٥١
(٦٠) الرسالة : ١٩٣٦ ، مقالة دهمان ، ٦٧٤ ، ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٢/ ٥٥

له الأنعام الكثيرة من السلطان ، وقيل أنه هو الذي صنع الساعة على باب جيرون [٦١] .

رضوان بن محمد رستم الساعاتي ت ٦٢٠ هـ/١٢٢١م ، وقد استوزره الملك الفائز ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وقيل أنه بعد وفاة والده المشار اليه سابقا انتدب ابن النقاش (لعله محمد بن الحسين بن محمد التنوخي) ، لاصلاح خلل وقع في ساعات المسجد فزادها خرابا ، فعهد الى رضوان ، فأصلحها ، ومنها ساعة شمسية كبيرة تمثلت فيها الشموس والسيارات ، وقام رضوان أيضا بتحسين ساعات أبيه ، ووضع كتابا شرح فيه « علم الساعات والعمل بها » بالتفصيل والدقة ، صور كل قطعة منها وسماها باسمها ، ووصف مكانها وعملها ، ومن الكتاب نسخة دار الكتب والوثائق القومية في جملة كتب زكي باشا ، منقولة من مكتبة كوبرلي [٦٢] .

أبو عبدالله القيسراني : وهو محمد بن نصر بن صغير بن داغر المخزومي ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م ، أصله من حلب ، ومولده بعكا ووفاته بدمشق ، وقد تولى الاشراف على ساعات باب جيرون بالجامع الأموي ، ثم خزانة الكتب ، وكانت بينه وبين ابن منير الشاعر الطرابلسي مكاتبات وأجوبة ومهاجاة ، وقد أورد صاحب مرآة الزمان خبر انتقال ابن القيسراني من الساحل الفلسطيني الى حلب [٦٣] .

ـ محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن الحارثي الدمشقي ت ٥٩٩ هـ/١٢٠٢ م . وهو عالم بالهندسة والطب ، تعد حياته نادرة من نوادر الدهر ، تجلى فيها النبوغ ، فقد عمل نحاتا ثم نجارا ، وقرأ الهندسة والرياضيات ، واشتغل بالفلك وعمل الأزياج ، ثم انقطع للطب ، وفي زمنه تخربت ساعات المسجد الأموي ، فأصلحها وكان له في دمشق مجلسان ، أحدهما من طبه في البيمارستان الكبير ، والثاني من تفقده لاصلاح ساعات المسجد الأموي ، ومن مؤلفاته :

ـ رسالة في معرفة رسم التقويم .

ـ مقالة في رؤية الهلال [٦٤] .

ـ أبو العز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري ، نبغ في حوالي سنة ٦٠٢ هـ/١٢٠٥ م ، وكنا قد أشرنا اليه سابقا ، ولكنا نضيف بأن كتابه « الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل » يعد من أهم المؤلفات العربية في صناعة الساعات المائية بصفة خاصة ، وآلات الحيل بصفة عامة ، ولا أدل على أهميته من استعراض الأبحاث التي كتبت عن ابن الرزاز ، وكان الدوميلي وجورج سارطون وفيدمان وهاوز قد درسوه ، أما المقالات والأبحاث والكتب التي تناولت أعمال ابن الرزاز الجزري فأهمها :

Carra de vaux, Note Sur Les mecaniques de bedi ez-zar el- Djazari et sur un appareil -d'hydraul attribue a Appollonius de Perge (Congress d'historire de Paris, 5 section, 122-12. H.Suter:Mathematiker (137 — 226) 1900.

---

(٦١) الشمس : نفسه ، ٥٤ ، ٥٥ ، مجلة الرسالة (١٩٣٦) ، ٩٧٢/٦ .

(٦٢) النعيمي الدمشقي : الدارس في تاريخ المدارس ، ٣٨٨/٢ ، ياقوت : معجم الأدباء ، ٢١١/٤ .

(٦٣) زيدان : تاريخ آداب اللغة ، ٢٧٤/٢ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ٢١٣/٨ ، محمود ابراهيم : صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، ٣٩ .

(٦٤) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ١٥/٤ .

E, Weidmann: Beitrage 3 (Sitzung sberichte, Er Langen. Vol, 37, 259, 262, 1905)

A.C.Coomaras: Treatise of al-Jazari on Automa

Leaves from aMS of Kitab fi ma arifat (21p. 8pi., Boston, 1924).

Creswell : Yearbook of oriental art and culture, A.C.Coomaraswamy: Early Arabic and Islamic Persian Paintings (Museum of fine Art Bulletin, 45 — 52, Boston, 1922).

هناك كتاب دونالد هل

The book of Knowldge of Ingenious Mechanical De Boston, U.S.A. Printed in Nether Land. [65]

ابن الشاطر ت ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م .

وهو أبو الحسن ، علاء الدين ، علي بن ابراهيم بن حسان الأنصاري الدمشقي ، وكان قد تعلم صنعة تطعيم العاج ، ومن ثم العلوم الرياضية والفلكية وتولى التوقيت ورئاسة المؤذنين بالجامع الأموي ، وينسب اليه الارتقاء بمستوى صناعة الساعات ، فقد جعل حجمها صغيرة ، سهلة الحمل ، ويمكن تعليقها على الجدران ، ولا تحتاج آلاتها الى الماء ، وقد وصف ابن العماد الحنبلي [66] اسطرلاب ابن الشاطر ، الذي كان موجودا في منزله داخل باب الفراديس ، بدرب الطيار سنة ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م ، ويتكون من قنطرة طولها نصف أو ثلث ذراع تقريبا ويدور على الدوام من غير ماء ، وبموجب حركات الفلك ، ورتب على أوضاع يعلم منها الساعات المستوية والساعات الرملية الزمانية ، ونستشف من النص ، أنها المرة الأولى التي يستعمل فيها الاسطرلاب كساعة ميقاتية صغيرة الحجم ، سهلة الاستعمال ، ولا مائية ، ومن مصنفات ابن الشاطر في هذا المجال ، تسهيل المواقيت في العمل بصندوق المواقيت .

- النفع العام في العمل التام ، بالتام لمواقيت الاسلام [67] .

- عبد العزيز محمد الوفائي المؤيدي : ت ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م .

وكان يعمل مؤقتا بالجامع المؤيدي ، ومن تصانيفه

- نظم العقود في عمل الساعات على العمود .

- رسالة في دائرة المعدل .

- وسيلة الطلاب في عمل استخراج الأعمال بالحساب [68] .

تقي الدين الراصد : ت ٩٩٣ هـ / ١٥٨٥ م

وهو محمد بن أبي الفتح ، محمد بن أحمد بن يوسف الأسدي كان أوسع المهندسين بعد الجزري دراية في عمل الساعات وصنعها ، وانعكست خبرته الواسعة على مؤلفاته ، منها

- الطرق السنية في الآلات الروحانية .

- الكواكب الدرية في البنكامات المالية وهو أهمها ، منه نسخة في مكتبة جامعة Chester deaty

(٦٥) النعيمي : الدارس ، ٢/ ٣٧٨ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٥/ ٣١٤ ، الصفدي : الوافي ، ٢/ ٢٧٩ الزركلي : الاعلام ، ٦/ ٢١٥ .

(٦٦) البغدادي : هدية العارفين ، ٥/ ٧٢٥ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ٦/ ٢٥٢ .

(٦٧) البغدادي : هدية العارفين ، ٥/ ٨٨٣ .

(٦٨) نفس المرجع السابق ، ٦/ ٢٥٧ .

- خلاصة الأعمال في مواقيت الأيام والليال .
- الدر المنظوم في حل التقويم .

- ريحانة الروح في رسم الساعة على مستوى السطوح (٦٩) . وفي المغرب ، نشط صانعوا الساعات في عملها على المساجد والمعاهد والمدارس والطرقات العامة ، ومن أهمهم :

- أبو عبدالله - محمد بن الحباك ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م ، وقد ركب ساعة مائية في مدينة فاس بناء على طلب القاضي ، أبي عبدالله ، محمد بن أبي الصبر ، أيوب بن كنون ، ليعرف الناس أوقات النهار والليل ، سواء في الأيام المشمسة أو الغائمة وخاصة أن الساعة الشمسية والرملية ، لم تعد كافية بعد أن وصلت أخبار الساعة المستنصرية وطريقة صنعها (٧٠) .

محمد بن عبدالله الصنهاجي ت ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م . وقد صنع منجانة جامع القرويين ، أيام أبي سعيد ، عثمان المريني ، وذلك بالتعاون مع محمد بن الصديق القرسطوني ، الذي رسم خطوطها (٧١) .

- محمد بن محمد بن العربي ت ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م ، وقد قام بتجديد اصلاح المنجانة على وجه متقن ، ومن ثم أدخل استعمال الاسطرلاب فيها ، ومتى طلعت المسطرة ، تعرف أوقات الليل والنهار ، يتحرك خيوط الاسطرلاب والساعة المائية فربط بين الاسطرلاب والساعة المائية بفن متقدم (٧٢) .

- عبد الرحمن بن سليمان الجاتي ت ٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م . وقد صنع ساعة مائية بأمر السلطان أبي سالم ، ابراهيم بن أبي الحسن بن عبد الحق (٧٣) . وهناك فئة من العلماء آثرت أن تبحث في الميقات .

كالحسن بن علي المراكشي ، كان حيا ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م . وصنف في آلات التقويم وجامع المبادىء والغايات في علم الميقات (٧٤) . ومحمد بن سنان القونوي (المعروف بابن كاتب سنان ت ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م ، وقد ألف (تحفة الفقراء في علم الميقات) وابن أبي الخير ، محمد بن عموش الرشيدي الميقاتي ت ١٠٠٢ هـ / ١٥٩٣ ، ألف « النجوم الشارقات في ذكر بعض الصنائع المحتاج اليها في علم الميقات ، وأخيرا نذكر احمد بن عبد الرحمن ، الواعظ بجامع بني أمية ، وقد ألف كتابه « هدية المشتاق لمعرفة الأوقات في جميع الآفاق » ولا يزال مخطوطا ، ومنه نسخة في المكتبة الظاهرية تحت رقم ٧٥٦٤ - علوم أخرى (٧٥) .

وجدير بنا أن نشير الى أن العرب قد أطلقوا على الذين يعملون في الساعات اسم « المهندس » أو « الموقت » أو « المعدل » .

أشهر الساعات المائية في المشرق والمغرب :

يستفاد من اشارة ذكرها ناصر الحسين بن علي القيمري ، الذي أنشأ ساعة على باب المدرسة القيمرية

(٦٩) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة
(٧٠) التازي : جامع القرويين ، ١/ ٣٢٢ - ٣٢٣
(٧١) التازي : جامع القرويين ، ١/ ٣٢٢
(٧٢) نفس المرجع السابق ، ٢/ ٣٤٣
(٧٤) البغدادي : هدية العارفين ، ٥/ ٢٨٦
(٧٥) نفس المرجع السابق ، ج ٦/ ٧٦ ، ٢٢٨

الكبرى ، أن تكاليف بناء الساعات كانت باهظة فقد كلف بناء الساعة المذكورة أربعين ألف درهم [٧٦] ، وهو مبلغ ضخم آنذاك ، وعليه فقد اقتصر بناء الساعات وتركيبها على الأماكن المهمة دون سواها . وفي الحواضر أو المدن الرئيسية ، وفي المساجد والمعاهد والمدارس والساحات العامة الواسعة أحيانا ، وكانت ساعات دمشق ذات شهرة متميزة ، وقد وصلنا وصف لتلك الساعات من خلال ما ذكره ابن جبير ، الذي وصل دمشق سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ووصف الساعات الموجودة في المسجد الأموي وعلى باب جيرون فذكر « عن يمين الخارج من باب جيرون ، في جدار البلاط الذي أمامه ، غرفة ، ولها هيئة طاق كبير مستدير ، فيه طيقان صفر ، قد فتحت أبوابا صغارا على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيرا هندسيا ، فعند انقضاء ساعة من النهار ، تسقط صنجتان من صفر من فمي بازيين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر ، تحت كل واحد سهم ، أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب ، والثاني تحت آخرها والطاستان مثقوبتان ، فعند وقوع البندقتين فيها ، تعودان داخل الجدار الى الغرفة ، وتبصر البازيين يمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانها بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحرا ، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لها دوي ، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر ، لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الابواب كلها ، وتنقضي الساعات ، ثم تعود الى حالها الأول ، ولها بالليل تدبير آخر ، ذلك أن القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة التي عشرة دائرة من النحاس مخرمة ، وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة تدبر ذلك كله منها ، خلف الطيقان المذكورة ، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاعها ، فلاحت للأبصار دائرة محمرة ، ثم انتقل ذلك الى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها » .

ويضيف ابن جبير ، أنه « وكل بها في الغرفة ، متفقد لحالها ، درب بشأنها وانتقالها ، يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج الى موضعها ، وهي التي يسميها الناس « المنجانة » . [٧٧]

وهناك ساعة مائية ثانية على باب جامع دمشق القبلي المسمى « باب الزيارة » وهي دائرة بيكار (نصفية) عليها عصافير نحاس ووجه حية من النحاس أيضا ، وغراب فاذا تمت الساعة ، خرجت الحية وصفرت العصافير ونعق الغراب ، وسقطت حصاة في الطست ، وهذه الأصوات ليست الا عملية تحكم بذبذبات الهواء بحركات ميكانيكية نتيجة (انتقال الماء وتحريك ما فوقه) [٧٨] .

ومن ناحية ثانية ، قد أشار ابن طولون في حوادث سنة ٨٥٩ هـ الى « احتراق قيسارية الفرنج المعروفة بقيسارية ابن دلامة والتي هي شرق قيسارية ابن المزلق التي على بابها الساعات [٧٩] ، وهذا تأكيد على أن الساعات المائية كانت تنصب على أبواب الأسواق علاوة على المساجد والمدارس .

---

(٧٦) بدران : منادمة الاطلال ، ومسامرة الخيال ، ١٤١ .

(٧٧) ابن جبير : الرحلة ، ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٧٨) مجلة الرسالة : سنة ١٩٣٦ ، العدد ٢ ، ٢٧٥ .

(٧٩) شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، ١/١٦٢ .

أما في بغداد ، فقد أدهشت ساعة المدرسة المستنصرية ، مهندسي العصر ببراعة هندستها ودقة صنعها ، ولكونها تعمل عملا ميكانيكيا جيدا ، ثم انها في مدرسة ساهمت في النهضة الفكرية الاسلامية ، والمخطوطة رقم ١٣٨٣ تاريخ والمحفوظة في الخزانة التيمورية في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة تصفها ، وجاء في وصفها :

« سنة ٦٣٣ هـ ، تكامل بناء الأيوان الذي أنشىء قبالة المدرسة المستنصرية وركب في صدره صندوق الساعات على وضع عجيب ، يعرف منه أوقات الصلوات ، وانقضاء الساعة الزمانية نهارا وليلا ، والصندوق عبارة عن دائرة فيها صورة الفلك ، وجعل فيها طاقات لطاف ، لها أبواب لطيفة ، وفي طرفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين من ذهب ، ووراءها بندقتان من شبة لا يدركهما الناظر ، فعند مضي كل ساعة ينفتح فما البازين ، ويقع منهما البندقتان ، وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات ، والباب مذهب ، فيصير حينئذ مفضضا ، وحينئذ تمضي ساعة زمانية . وأن وقعت البندقتان في الطاستين ، فانها تذهبان الى مواضعهما من نفسيهما أي بصورة تلقائية ، ثم تطلع شموس من ذهب في سماء لازوردية في ذلك الفلك ، مع طلوع الشمس الحقيقية ، وتدور مع دورانها وتغيب مع غيبوبتها فاذا غابت الشمس وجاء الليل ، فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها ، كلما تكاملت ساعة ، تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر ، ثم تبتدىء مع الدائرة الأخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس ، فيعلم بذلك أوقات الصلاة وتقضى الساعات الزمانية ليلا ونهارا ، وتوحد المواليد وحلول الشمس في البروج الاثنى عشر ، وكيفية قطعها الفلك والدرج والدقائق ، وهي منقبة جليلة للامام المستنصر بالله [٨٠] .

أما الساعات التي عملت بعد المستنصرية ، فتقوم على دخول كرات رصاصية أو نحاسية الى جوف باز تسقط في وعاء ، فيسمع لها صوت ، وتكون اما بطريقة الضغط المائي . أو يرشح من ثقوب صغيرة ، أو بذوبان شمعة فيقل وزنها وترتفع ، وتكون الشمعة مقسمة الى أجزاء متساوية يحترق كل جزء منها في ساعة وعند نهايته كرة من الرصاص أو الشبة وعند ذوبان الشمع عنها تحدث صوتا ، ثم تذهب الى مكانها من ثقب في أسفل الاناء ، أما الأقمار والشموس والنجوم ، فكانت تحدث بتأثير الأضواء من خلفها [٨١] .

وبلغت ساعات ابن الرزاز الجزري غاية في التطور واستخدام علم الحيل الآلي في عملها . وتستطيع أن تقسمها وفق تطورها الى ثلاثة أنواع :

ـ ساعات تعمل بميكانيكا الماء ، وفيها سلاسل وموازين وبنادق .

ـ ساعات تعمل بميكانيكا الماء ولكن بدون سلاسل وموازين وبنادق ، صغيرة الحجم ، قليلة التلف .

ـ ساعات متطورة كالثانية ، ولكن يستعمل الشمع فيها بدل الماء ، وحركاتها الميكانيكية بسيطة ، وسهلة الحمل ، صغيرة الحجم .

ومن النوع الأول ، اخترع ابن الرزاز .

(٨٠) الاربلي : خلاصة الذهب المسبوك ، ٢٨٧ ، القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ناجي معروف تاريخ علماء المستنصرية ، ٢/ ٥٦ .

(٨١) معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٢/ ٥٣ ، ماجد الشمس : مقدمة في علم الميكانيكا ، ٥٠ ـ ٥١ .

ـ بنكام يعرف منه مضي ساعة زمانية ، وتقوم فكرتها على أحداث حركة في الأبواب ، تحرك البازين ، فتلقى كرات الرصاص ويدق الطبالون وينفخ حملة الأبواق ويضرب الصناجون ، وذلك بحركة انسياب المياه من دستور محكم (حنفية) ، وفي الليل يستعمل ضوء القناديل بشكل أقمار[٨٢] .

ساعة الطبالين :

طولها (٥) أمتار ، وتتكون من اثني عشرة جامة ، أسفلها شرفات وشخص يقطع كل شرفة ، وطائر يلقى البنادق ، وخزان للماء فيه طفافة وحنفية (فيشون) ومخروط عالم يشكلان بابا مطحونا ، لا ينفذ منه الماء الا في حينه ، وعربة ذات عقود ، وتسير بموازاة الجامات لتحريك القماط الساتر للضوء المنبعث من قنديل ، يوقد داخل الساعة . ومكان لحفظ الكرات الساقطة الى فم الطائر ، وبكرة في سقف بيت الساعة ، ويمر عليها الخيط الواصل بين رأس الطفافة وعجلة الميدان ، وكفة الحوض وأنبوب في الكفة يسمح بانسكاب الماء الزائد عن استيعابها ، ودستور منظم لعملية سقوط الماء[٨٣] حركتها على ثلاث مراحل :

عمل أدوات الماء .

عمل العربة ذات الأربع عجلات .

عمل الأجزاء المحركة لأيدي الطبالين والصناج وصوت البواقين .

فهذه الحركات متتابعة ، فهبوط الطفافة ، يحمل عربة الميدان لسير مسافة منتظمة القضيب المرتبط بها احدى الشظايا ، فتسقط بندقة عبر رأس البازي كل ساعة في تقصير الكفة المليئة بماء يعادل ما يسقط ، وميزاب الدستور يؤشر على أول برج السرطان . وحيث أن سقوط الكرة يخل بتوازنها ، فتسكب الماء في الحوض ومنه الى كفات الدولاب حيث تتحرك أيدي الطبالين والصناج ، ثم الى القدر الصغير وهكذا[٨٤] .

ساعة الزورق : وتتكون من زورق فيه ماء وطرجالة تمتلىء وتفرغ ماء كل ساعة وكاتب على سرير بيده قلم ، وطائر يقذف كرات فم ثعبان ، وملخص عملها «ان حركة الكاتب تؤثر على بقية الأجزاء ، فالطائر يقذف كراته الى فم الثعبان التي تنقلها الى صدر الزورق ويسمع لها صوت وترتفع الثعبان . وتكون الحركة في الزورق وأدواته الداخلية وعمل الكاتب ، وحركة الطائر ورمي البنادق ، وحركة السلاسل المحركة لشفرق الميزاب .

ساعة الفيل : وهي تتفق مع بقية الساعات التي ذكرناها ، الا أن فيها طائرين واحد يلقى البنادق والآخر يصفر عند القائها ، وكاتب وشخص يجلس في الروشن وثعبان وسلاسل تربط بين الأجزاء التي يراد تحريكها وهيئة فيل وفيال ، بيده فأس يضرب بها ومدقة وأثقال وماء طهرجاه وتتم الحركة على عدة مراحل ، فالأجزاء الظاهرة لها حركة منضبطة ، وللفيل والسرير (الحوض) حركة ، بباطن الفيل والفيال ، والأعمدة الأربعة ، والقصر الذي يجلس فيه الكاتب ، وميزاب لكرات ، والرجل الذي في الروشن ، والثعابين والطائر

(٨٢) ماجد الشمس : مقدمة في علم الميكانيكا ، ٥٣/٢ .

(٨٣) انظر وصفها وطريقة عملها في مقدمة في علم الميكانيكا في الحضارة العربية الاسلامية ، ص ١٤٩ ، والعدد الأول من مجلة تاريخ العلوم العربية لسنة ١٩٧٧ .

(٨٤) ابن الرزاز : الجامع بين العلم النافع ، ٦١ .

والقدحان اللذان على كتفي الفيل . كل واحدة من هذه لها حركة تتم بصورة سريعة ومتتابعة كل ساعة . [٨٥]
ويلاحظ أن ابن الرزاز كان يسعى دائما لتحسين نوعية ساعاته ، ويحاول التغلب على المشاكل الفنية التي تعترضه ، ليجعلها أكثر قبولا ، فساعاته السابقة ذات طول مرتفع يصل في بعضها الى ٥ أمتار (كساعة الطبالين) . وبعضها معقد وثقيل ، لكثرة السلاسل والموازين والبنادق فيصعب حملها ، هذا بالاضافة الى كثرة تعطلها بسبب انقطاع خيط أو عدم انتظام حركة لسلسلة أو غيرها ، ثم ان هذه الأنواع لا تقيس الا الساعات المستوية ، أي ساعات كاملة صحيحة ، العاشرة ، الحادية عشرة ، الثانية عشرة مثلا . أما أجزاء الساعة كالنصف أو الربع أو الثلث فلا تقدر عليه ، علاوة على أن تشغيلها في الليل ، يتطلب مراقبة مستمرة وخاصة للماء ، ولذا ابتكر ابن الرزاز ساعات من نوع جديد ، بناء على طلب أبي الفتح بن محمود بن قرا أرسلان ، خفيفة وسهلة الحمل والتركيب ، ويمكن استصحابها في السفر ، ويعرف بها جزء الساعة وخلصها من السلاسل والموازين والبنادق ، ومن هذه الساعات :

ساعة الكأس وساعة الطراويس :

وتتكون الأولى من كاتب وبيده قلم ، وبكرات ثلاث كبيرة وبكرتين جانبيتين وثقالة وسطرة تتحرك عليها عوامة ، وجزعة مثقوبة من أسفل وبدن الساعة كأسي الشكل ، بقاعدة رباعية الشكل ، وتلخص فكرة عملها وأنه حين تملأ الكأس ماء ترتفع العوامة ، وينخفض الثقل ، ويبدأ الماء بالنضح من ثقب الجزعة ، فتجلب الطفافة ، فتحرك الكاتب الى ١٥ درجة وهي تساوي ساعة زمانية ، وعند المساء يعاد الماء من القاعدة الى الكأس بسرعة وهكذا[٨٦] على نفس النمط تعمل ساعة الطراويس .

أما النوع الثالث من ساعات ابن الرزاز فهي التي تعمل بالشمع بدل الماء ، وفائدتها أنها تحدد الساعات المستوية وأجزائها أيضا ، ومنها :

- ساعة السياف
- ساعة الكاتب .
- ساعة القرد .
- ساعة الأبواب

وتقوم فكرتها جميعا على استعمال الشمعة فيها كمادة تذوب نتيجة الاحتراق بقدر متساو كل ساعة ، فينقص وزنها وترتفع ، وتسقط عند نهاية الذوبان في كل ساعة فينقص وزنها وترتفع ، وتسقط عند نهاية الذوبان في كل ساعة كرة ، ويأخذ الثقل بالهبوط الى أسفل فتتحرك الأجزاء المربوطة مع بعضها [٨٧] لتؤشر على تدريج ، جعل كل ١٥ وحدة منه تعادل ساعة زمانية ، وهكذا دواليك أما ساعات المغرب فقد بنيت على نمط ساعة المستنصرية المائية . ولم تستعمل الشمع فيها انتهى الى ولكنها استفادت من شبكة الاسطرلاب بربطها بلولب مع الساعات المائية ، وتقوم فكرتها العامة على :

- ماء في الأوعية ، ينساب بقدر معلوم .
- مجرى فرق الماء فيه خطوط وثقوب .
- طفافة تتحرك بنقصان الماء فتحرك المتصل بها لتؤشر على التدريج .

(٨٥) المرجع السابق ، ١٣٧ .
(٨٦) ابن الرزاز الجزري : الجامع بين العلم والعمل ، ١٢٦ ـ ١٤٣ .
(٨٧) القلقشندي : مقدمة ، ١٨١ .

ـ يعاد الماء بعد انتقاله بسرعة الى الاناء الأول .

وهكذا فانها تتطلب مراقبة دقيقة ودائمة .

ـ اضافة شبكة الاسطرلاب الى الساعات .

وأهم تلك الساعات :

ـ ساعة ابن الحباك ، وتتكون من صحن من الفخار بالقبة العليا بجامع القرويين ، يملأ ماء ، وعلى وجهه مجرى من النحاس ، ذو خطوط وثقوب ، ويخرج الماء منها بقدر معلوم الى أن يصل الخطوط المرسومة على مختلف ساعات الليل والنهار ، فتعرف بذلك الأوقات ، وهي أصغر حجما وأبسط تركيبا من ساعات ابن الرزاز [88] .

وأما ساعة الصنهاجي فتتكون من مجن من خشب الارز ، داخله إناءان من القطار يعلو أحدهما على الاخر ، بأسفله أنبوب محكم العمل ، ينزل منه الماء في الاناء الأسفل ، وفي الجانب صفحة حوى خطوط تقسيم الوقت ، وعلى وجه الاناء الذي يجتمع في الأسفل جسم عائم مجوف من النحاس على شكل الاترجة ، والطفافة تحرك المسطرة فتظهر الوقت ، وعند المساء لا بد من رد الماء من الوعاء الأسفل الى الأعلى ، وتعلق المسطرة كما كانت [89] .

ـ ساعة محمد بن محمد بن العربي ت ٧٤٧ هـ ، وقد أضافا الى المجن السابق شبكة الاسطرلاب ، ومتى طلعت المسطرة المذكورة تعرف أوقات النهار والليل بتحرك خيوط الاسطرلاب ورسومه ، وأجريت الحسبانات فيها ، اذ أطرت دائرة الاسطرلاب لأربع صفائح وثبتت بشكل متين [90] .

هذا بالاضافة الى ساعات المدرسة البوعنانية ـ نسبة الى السلطان أبي عنان ، بشارع الطالعة من فارس وساعة الجاي ، وتقوم على أبواب وطاسات وكرات وأنابيب تصل بينها . [91] وأما في مصر ، فقد ذكر القليوبي في النوادر أنه كان عند السلطان الكامل شمعدان فيه أبواب فكلما مضت ساعة يخرج شخص من باب منها ، يقف في خدمته الى مضي ساعة وهكذا الى تمام الأبواب ، اثني عشرة ساعة ، فاذا تم الليل خرج شخص فوق الشمعدان ويقول « أصبح السلطان » فيعلم أن الفجر قد طلع فيتأهب للصلاة [92] .

ولقد أدهشتنا هذه الاشارة لهل عرف العرب تسجيل الصوت ، وحيث أننا لا نقطع برأي حول المسألة ، ونميل الى أن الصوت انما هو تحكم بلبليات بطريقة خاصة تبعث صوتا قد يفسره السلطان أو من سمعه « بأصبح السلطان » كما هي المعزوفات الغنائية في زماننا ، غير أننا سنعود لبحثها في درسنا للصوت عند العرب .

ومن ناحية ثانية ، فقد أورد المقري في كتابه نفح الطيب وصفا دقيقا لساعة تلمسان كأنها حلة يمانية . « ولها أبواب مجوفة على عدد ساعات الليل الزمانية فكلما مضت ساعة ، وقع النقر بقدر حسابها ، وفتح عند ذلك باب من أبوابها ، وبرزت فيه جارية ، صورت في أحسن صورة . وفي يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم تلك الساعة باسمها مسطورة ، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ويسراها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة » [93] .

(٨٨) الشمس : مقدمة ، ٢٠٧ ، وصف الساعات في كتاب الجامع ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٦٨ .
(٨٩) التازي : جامع القرويين ، ٢/٣٢٢
(٩٠) المرجع السابق ٢/٣٢٣
(٩١) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة
(٩٢) مجلة الرسالة سنة ١٩٣٦ ، مقالة بالعدد ، المجلد ٢ ص ٧٧٤
(٩٣) سعد الخادم : الدمى المتحركة عند العرب ، ٤٠

ويضيف المقري أن خزانة المنجانة كانت ذات تماثيل لجين محكمة الصنع ، بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويختله فيها أرقم خارج من كوة ، يجلب الأيكة صاعدا ، ويصدرها أبواب مرتجة بعدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفيها بابان كبيران ، وفوق جميعها دُوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره في الفلك ، ويُسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينقض من البابين عقابان في يد كل واحد منها صنجة صُفر ، يلقيها الى طست من الصفر مجوف بواسطة ثقب يفضي بها الى داخل الخزانة فيرن وينهش الأرقم أحد الفرخين ، فيصفر له أبوه ، فهنالك يفتح باب الساعة الذاهب وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راه ، بيمناها اضبارة فيها اسم لساعتها منظوما ، ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة[94] .

وكان التطور الهائل في صناعة الساعات واعتمادها على الميكانيكا بصورة عامة ، فكان حين استعمل العرب الأثقال بدون ماء ، لإحداث الحركة الاوتوماتيكية . فاخترعوا الرقاص (بندول الساعة) ، ويبدو أن مخترعه هو أبوسعيد ، عبدالرحمن بن أحمد بن يونس المصري ت ٣٩٩هـ/ ١٠٠٠م ، وقد اعترف بذلك ليديو وسديوك وتايلر فذكروا أن العرب قد سبقوا غاليليو بستة قرون في اختراع الرقاص واستعماله ، وفي ايجاد علاقته بالزمن ، لا سيما وأنه كان لديهم فكرة عن قانون الرقاص ، اذ كان الفلكيون العرب يستعملون البندول لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد ، ولقد حاول أسامة عانوتي في بحثه « هل اكتشف العرب رقاص الساعة » المنشور في مجلة الدراسات الأدبية ـ الجامعة اللبنانية ، السنة الخامسة ص ٣٥٧ - ٣٧٢ ، ان يثبت ما ذهب اليه قدري طوقان والمستشرقون ، ونجح في ذلك[95] .

وكانت هذه قفزة هائلة في تاريخ الساعات امتدت آثارها حتى اليوم ، فالساعات الحديثة تقوم عليها ، باستثناء ما بني على استخدام الاليكترونات .

ونشير في النهاية الى نوع من الساعات ، التي لا تزال تستعمل الى يومنا بسيطة الصنع والتركيب ، والغرض منها تعيين فترة محدودة ، وهي الساعات الرملية والتي تتركب من دورتين ، الصقت فوهة أحدهما بفوهة الأخرى بواسطة الشمع وملئت العليا رملا فينزل الرمل بالتدريج الى السفلى ، من ممر بينهما صنع بنسبة مقدرة ، وتقلب الساعة عندما تفرغ العليا ، وهناك ساعة في جامع القرويين تعمل بالبسط الرملي صنعها محمد بن محمد الحريرات ت ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م ، وبعض أجزائها محفوظة في الغرفة بالجامع[96] . ان الالمام بكل ما ابتكره العرب من آلات وأواني ميكانيكية الحركة ، يتطلب جهداً جامعا ، لتجمع مخطوطاته ، ويعهد الى المختصين درسها ، ليحدد مدى ما قدموه الى الحضارة الانسانية في هذا المجال .

أما ما أضافه علماء العرب في الصوت والضوء والبصريات والقوى والحركة والمغاطيس والغازات والرياح ، ومدى استفادة الغرب منها فسيكون موضوع الصفحات التالية ، وتبين منها ما حققه علماء العرب المسلمين في هذا المجال .

(94) المقري : نفح الطيب ، ٩/ ٢١٦ .

(95) سيديو : تاريخ العرب ، ٢١٤ تايلر : مختصر تاريخ العالم ، ١٦٣ ، سمث : تاريخ الرياضيات ، ٢/ ٦٧٣ عفار القاضي : أثر المدنية الاسلامية ، ٢٤٣

(96) مجلة الرسالة ، العدد ٨٧ ص ١٦٩٣ ، التازي : جامع القرويين ، ٢/ ٣٤٧

الصوت ودراسته :

كان للعرب اشتغال في بحوث الصوت ، وأحاطوا بالمعلومات الأساسية فيه ، وذهبوا الى أن السبب في منشأ الأصوات ، انما يعود الى حركة الأجسام المصوتة ، وهذه الحركة تؤثر في الهواء لشدة لطافته وخفة جوهره وسرعة حركة أجزائه كما قسم علماء العرب الأصوات الى أنواع منها ، الصوت الجهير والصوت الخفيف والحاد والغليظ وغيرها . وعزوا ذلك الى طبيعة الأجسام المصوتة ، والى قوة تموج الأصوات بينها . وتميزت أبحاث الموسيقيين العرب بدراسة الأوتار والأصوات الناجمة عن اهتزازها ، وكشفوا بقوانين رياضية العلاقة بين طول الوتر وغلظه وقوة شده أو توتره وشدة النقر من جهة ونوع الصوت من جهة أخرى[٩٧] . وقادهم هذا بالضرورة الى بحث الألحان التي جعلوها ٤٧ نوعا هي : الصياح ، والسجاح ، والنبرات ، والشلوات ، والصرخات ، والنهدات ، والضجرات ، والزجرات ، والتشريح ، والزمة ، والمد ، والتعليقة ، والتفخيم ، والتأوه ، والنوح ، والترجيع ، والكرة ، والتشيعة ، والابدال ، والاستهلال ، والانشاد ، والاستغاثة ، والتغير ، والقهقهة ، والهزة ، والاتباع ، والانتزاع ، والتفكيك ، والتضافر ، والشهقات ، والامالة ، والتمطي ، والتوطئة ، والهاعاة ، والمقطع ، والردة ، والصلة ، والاستحالة ، والتشويب ، والصهيل ، والغمزة ، والتجنيبة ، والزحمة ، والتكاهن ، والغمزة[٩٨] .

وعللوا الصدى ، والذي يحدث حسب تعليلهم عند انعكاس الهواء المتموج بعد مصادمته لعال ، كجبل أو حائط ، ويجوز أن لا يقع الشعور بالانعكاس لقرب المسافة ، فلا يحس بتفاوت زماني الصوت وعكسه . وقد برع أخوان الصفا في تعليل تموج الصوت بشكل كروي ، وبينوا عوامل قوة وضعف موجاته ، فالسبب في حدوث الصوت عند أخوان الصفا هو حركة الأجسام المصورة في الهواء ، الذي لشدة لطافته وخفة جوهره ، وسرعة حركة أجزائه ، يتخلل الأجسام كلها ، فيما اذا صدم جسم جسما آخر ، انسل ذلك الهواء من بينهما ، وتدافع وتموج الى جميع الجهات وحدث من حركته شكل كروي ، واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج منها ، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركة تموجه الى أن يسكن ويضمحل[٩٩] .

ومن ناحية ، فان دراسات العلماء العرب لم تقف عند صوت الانسان بل تعدتها الى دراسة أصوات الحيوانات ، وكان اخوان الصفا والجاحظ والدميري رواداً في هذا المجال ، اذ قسمت أصوات الحيوانات عندهم الى :

- أصوات الحيوانات ذات الرئة وتختلف باختلاف الصدر والحجاب والحلقوم والمنخرين ، وشدة استنشاق الهواء ، وقوة دفع أنفاسها من أفواهها ومناخيرها .

- أصوات الحيوانات التي ليست لها رئة ، ولكن لها جناحين ، كالزنابير والجراد والصراصير وغيرها ، فان الأصوات التي تحدثها ناتجة عن تحرك الهواء بأجنحتها . واختلاف أنواعها انما تستند على لطافة هذه الأجنحة وغلظها وطولها وقصرها وسرعة حركتها .

- أصوات الحيوانات التي ليست لها رئة ولا أجنحة ، كالسمك والسرطان والسلاحف وما شاكلها ، وتسمى

---

(٩٧) نجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ٣١٢ ، كحالة : العلوم البحتة ، ٣٢٠ .

(٩٨) الكاتب (الحسن بن احمد) : كتاب كمال أدب الغناء ، ٢٨ ، الفارابي : كتاب الموسيقي الكبير ، ١٠٦٩ .

(٩٩) اخوان الصفا : الرسائل ، ٢/ ٤٠٢ .

بالحيوانات الخرس ، لأنه لا منطق ولا صوت لها ، وتختلف أصواتها باختلاف اليبس والصلابة والحجم من كبر وصغر وطول وقصر وسعة وضيق وغير ذلك(١٠٠) .

ولم تتوقف دراسة الصوت عند العرب على المسائل النظرية ، بل طبقوا مبادىء الطبيعة في الصوت وغيره على الموسيقى ، وبدعوا في هذا الفن ، وقطعوا فيه شوطا بعيدا ، وكانوا دائما في نظرياتهم الموسيقية عمليين ، فلا يقبلون النظرية الا بعد التثبت منها عمليا . وقد تطرق في هذا المجال ، الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ويوسف الكاتب وابن المنجم والأرموي وغيرهم . ويذكر أن اجادة العرب لبحوث التموجات الكروية للصوت ، هي التي أوحت لزرياب أن يضيف الوتر الخامس للعود وصبغه باللون الأحمر . وجعله(١٠١) متوسطا في موضعه بين الأوتار الأربعة .

ـ الضوء والبصريات :

تجاوزت أبحاث العلماء العرب في الضوء ما انتهى اليه علماء اليونان ، وكانت مقالة حنين بن اسحق « في حقيقة الضوء » بداية الانطلاق نحو دراسة الضوء والاستفادة منه في تحليل العديد من الظواهر الكونية . ومع أن رسالة حنين استندت أساسا على مقالة ارسطاطاليس ، الا أنه أضاف اليها وطورها بحيث بدت شيئا متميزا ، فالضوء عند حنين عرض وليس بجسم نير وحق أنه ليس بجسم ويورد العديد من البراهين ، ووصف حنين حركة الضوء بأنها تتجه الى الوسط فهي ليست حركة مستقيمة ولا مستديرة ، وانما حركة وسطية ، كحركة ضياء المصابيح من العلو الى الوسط(١٠٢) وهو يتحرك الى جهات كثيرة .

ويرى الفلاسفة الطبيعيون ، أن الضوء صورة جوهرية ، وهو معنى من المعاني التي تتقدم منها ماهية الجسم المضيء بذاته ولا تفارقه مادام حافظا لجوهره ومع أن التعريف لا يخرج عن ما أورده أرسطوطاليس(١٠٣) ، الا أن ابن سينا أضاف اليه « بأنه انفعال في القابل من المضيء ، أو حصول أثر فيه من واهب الصور »(١٠٤) .

أما ابن الهيثم فالضوء عنده « حرارة نارية تنبعث من الأجسام المضيئة بذواتها كالشمس أو النار أو الجسم المتوهج ، وانه اذا أشرق على جسم كثيف أسخنه واذا انعكس عن مرآة مقعرة ، واجتمع عند نقطة واحدة ، وكان عندها جسم يقبل الاحتراق ، أحرقه »(١٠٥)

وكيفما كان الحال ، فان للعلماء العرب أبحاثا متقدمة في الضوء والبصريات تمثلت بالنواحي التالية :

درس ابن سينا انعكاس الضوء وانكساره وأخطاء البصر ، واستطاع أن يعلل بذلك كبر حجم الشمس والقمر والكواكب والنجوم في رأي العين ، حينما تكون قريبة من الأفق عند الشروق والغروب ، وكانت تحليلات ابن سينا لكيفية تكون الهالة القمرية والهالة الشمسية هي أساس التفسير العلمي الحالي ، حيث افترض وجود بخار الماء في الجو وسقوط الشعاع الضوئي

(١٠٠) المرجع السابق : ١٩١/٢ ، الجاحظ : الحيوان ، ١٩٣/٤ ، ٢٣٧/٧ .
(١٠١) المقري : زرياب ، ٤٦ عبد الرحمن : تاريخ الموسيقى الأندلسية ، ١٦ ، صابات حلبي : تاريخ آلة العود وصناعته ، ٣٩ .
(١٠٢) حنين بن اسحق : في الضوء وحقيقته ، المشرق ، السنة الثانية ، العدد ٢٤ ، ١٥ كانون اول سنة ١٨٩٩ ، ١١٠٧ ـ ١١١٢ .
(١٠٣) مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٨٠/١ .
(١٠٤) ابن سينا : التعليقات ، ٤٧ .
(١٠٥) مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٨٠ .

على القطرات المكونة للهالة[١٠٦] . كما علل أسباب تناقص الشفق حينما تصبح الشمس على ١٩ درجة تحت الأفق .

ومع أن ابن سينا هو الذي وضع قانون سير الأشعة سيرا كرويا ، منحنيا كانحناء سطح الارض غير أن البيروني كان أكثر منه دقة في هذا المجال ، وأشار الى عظم سرعة الضوء اذا ما قيست حتى بالنسبة لسرعة الصوت . ان هذه النتائج أفادت نصير الدين الطوسي في أبحاثه عن المناظر وانعكاس الشعاعات والانعطافات وأتى فيه على برهانه ، مساواة زاويتي السقوط والانعكاس .

ولقد حاول ابن سينا أن يدرس الآثار العلوية الكونية ، ففسر كيفية تشكل قوس قزح ، كذا الهالة المحيطة به ، وتعدد الألوان منه كما فعل الكندي حين علل اللون اللازوردي الذي يرى في الجو . الا أن محمد بن مسعود بن مصلح الشيرازي ت ٧١١هـ/١٣١١م ، كان أكثر العلماء توضيحا لدراسة ظاهرة قوس قزح ، فقد شرحها في كتابه « نهاية الادراك في دراية الأفلاك » شرحا وافيا ، وبين أن ظاهرة قوس قزح انما تحدث من وقوع أشعة الشمس على قطيرات الماء الصغيرة الموجودة في الجو ، عند سقوط الأمطار ، وحينئذ تعاني الأشعة انعكاسا داخليا ، ولعل الشيرازي قد بنى تحليله على تلك الدراسات التي بدأها ابن سينا قبله ، وشملت الظل والثلج والضباب والهالة والقوس والشمسيات والنيازك والرياح والبرق والرعد[١٠٧] .

لقد بلغت دراسات ابن سينا منزلة متفردة ، فيما أورده بشأن الابراق والارعاد فالبرق عنده نتيجة لاحتكاك وقرع بين الغمام ، أو للاستبراح اللطيف من الغمامة اذا طفئت نارها ، بمعنى انتقال الشحنات أثر الحرارة ، أو اذا كانت في الغمام نار مستكنة وانضغطت الغمامة وانعصرت وتفرقت[١٠٨] . وأشار ابن سينا الى احتمال حدوث الارعاد بلا برق أو العكس ، ورسالة ابن سينا في الرعد ، تضمنت الاشارة الى أسبابه ، فالرعد عنده ، يقع اذا تصادمت غمامتان ، واذا دخلت في غمامة جوفاء ريح فدارت عليها ، واذا ما سقطت نار في غمامة رطبة وطفئت ، وحين يقرع الريح غمامة مرتفعة جليدية قرعا شديدا ، واذا دخلت في غمامة مجوفة وانقلقت ، واخيرا اذا ما احتكت غمامتان خشنتان ببعضهما[١٠٩] . والصواعق عنده أما نار ريحية أو ريح نارية ، ويرى أن الصاعقة تكون لسببين ، أولهما احتكاك الريح بالغمام ومن ثم شدة خروجها وقد صارت نارا ، وثانيهما ، اجتماع الكثير من الغمام الصغار ، فاذا اجتمعت مع بعضها صارت منها صاعقة .

وأما البصريات :

فقد درس العلماء العرب الحواس دراسة وافية ، وكان علماء اليونان والهنود قد أخطأوا في تحديد كيفية الأبصار ، فانشغل العرب بها وخاصة الكندي الذي ألف في اختلاف المناظر واختلاف مناظر المرآة . وهناك من يعتقد أن ابن سينا قد سبق ابن الهيثم في الوصول الى

(١٠٦) فروخ : عبقرية العرب ، ١١٢ .
(١٠٧) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة
(١٠٨) كحالة : العلوم البحتة ، ٢٢٦ .
(١٠٩) المرجع السابق ونفس الصفحة

قانون الأبصار ، وان ابن الهيثم قد زاد عليه بتشريح العين وتفصيل نظريات الضوء ، وذهب هذا النفر الى أن ما أورده ابن سينا في معرض تعريفه للبصر بأنه « قوة مرتبة في العصبة المجوفة ، تدرك صورة ما ينطبع في الرطوبة الجليدية من أشباح الأجسام ذوات اللون المتأدية في الأجسام الشفافة بالفعل الى سطوح الأجسام الصقلية » . انما هو شرح لعملية الأبصار ليس الا .

ونحن وان كنا لا نتفق مع ما ذهبت اليه هذه الفئة ، لنرى أن في تناولنا لجهود الحسن بن الهيثم ، كشف لمنجزات العلماء العرب في الضوء والبصريات وتوضيح لما حققوه في هذا المجال ، سيما وأن البحث يبقى مبتورا بدون كشوفات الحسن بن الهيثم البصرية والضوئية .

الحسن بن الهيثم ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٩م

ولد ونشأ في البصرة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م ، ثم نزح الى مصر في كهولته ، اثر استدعائه من قبل الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمي ، عندما تناهى اليه قول ابن الهيثم « لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملا ، تحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغني أنه ينحدر من موضع عال ، وهو في طرف الاقليم المصري »[110] .

وفي محاولة لتنفيذ مشروعه ، سار ابن الهيثم الى الجنادل ، ولما لم يجد المكان العالي ، قفل عائدا الى القاهرة ، وتولى منصبا هاما في الدولة ، حتى اذا ما شهرت أفعال الحاكم وتعديه على الناس ، وحتى لا يتهم الحسن بن الهيثم بموافقته على أفعال الحاكم ورضائه عنه ، تظاهر بالخبل والجنون ، حتى اذا ما غابت سيرة الحاكم عاد الى حياة البحث والعلم في بيته بجوار الأزهر . ومنهجه في البحث العلمي يقوم على الملاحظة والتجربة والأخذ بالاستقرار والقياس ، وبذلك أنه يستقرىء الموجودات ، ويتصفح أحوال المبصرات ، ويميز خواص الجزئيات ، مع انتقائه المقدمات ، ولذا كانت لابن الهيثم شفافية علمية خاصة في البحث ، تدفعه وباستمرار للمزيد من التوسع[111] والتعمق في سبر غور المسائل لتحقيقها . وقد صنف ابن الهيثم ما يقرب من مائتي رسالة وكتاب في الرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية والفلسفة والطب ، أشار اليها القفطي والبيهقي وابن النديم وابن أبي اصيبعة ، ودرسها حجاب في مقاله عن الثروة العلمية لابن الهيثم[112] ، وحدد كتاب تذكرة النوادر من المخطوطات العربية ، أماكن توزعها في الكتبات العربية[113] ، ولا يزال الباحثون يحملون لكشف المزيد من تراث ابن الهيثم العلمي .

لقد كانت أبحاث ابن الهيثم موضع اهتمام كيلر وفتري وفيتلو وماكس مايرهوف حتى حد بحق أعظم فيزيائي في العصر الوسيط ، بل اعتبر هؤلاء أن عظمة الابتكار الاسلامي انما تتجلى في علم الضوء والبصريات ، وقد ألف ابن الهيثم في الضوء والاظلال وصورة كسوف القمر ، الا أن أعظم مؤلفاته كانت ، كتابه « المناظر » الذي اعتبر أكثرها شمولا ودقة وتحليلا ، حتى أنه لا يقل أهمية عن الكتب الحديثة المؤلفة في موضوع انكسار الضوء وتشريح العين ،

(١١٠) القفطي : تاريخ الحكماء ، ١٦٥ ، البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، ٨٥ ، زهير الكبي : الحسن بن الهيثم ، ٩ ، ابن ابي اصيبعة : عيون الأنباء ، ٥٥١
(١١١) مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، ١/ ٢٠ ، Irving : Readingsan Logic .P. 256.
(١١٢) حجاب (محمد علي) : الثروة العلمية لابن الهيثم ، مقالة مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم ، والعدد ٦، ١٣١ - ١٣٨ .
(١١٣) انظر تذكرة النوادر من المخطوطات العربية ، رتبت وطبعت بحيدر أباد سنة ١٣٥٠هـ .

وكيفية تكوين الضوء على شبكتها . وبالاجمال ، فانه يبحث عن أحوال حاسة البصر من جهة محسوساتها ومدركاتها وتتناول الكثير من ظواهر الضوء الأساسية وخواصه الذاتية ، وقد جاء الكتاب في سبع مقالات ، تناولت كيفية الأبصار وخواص البصر وتفصيل المعاني التي يدركها البصر وعللها وكيفية ادراكها وأغلاط البصر ، وفي ادراك البصر بالانعكاس عن الأجسام الصقيلة والخيالات ، وأخيرا في كيفية ادراك البصر بالانعطاف من وراء الأجسام المشفة المخالفة لشفيف الهواء[١١٤] . والكتاب يحققه صبرا منذ ٣ سنوات .

وكانت هذه من أعظم مآثر ابن الهيثم في الضوء ، حيث أبطل النظرية القديمة التي كانت شائعة منذ عهد اليونان الى عصر ابن الهيثم نفسه وهي « أن الأبصار يكون بشعاع يخرج من البصر الى المبصر » ، الا أن ابن الهيثم بين أن المبصر يجب أن يكون مضيئا ، اما بذاته ، أو باشراق ضوء من غيره ، وأن تكون بينه وبين العين مسافة ، وان يكون بين كل نقطة من سطح المبصر وبين العين خط مستقيم غير منقطع بشيء كثيف ، واستنتج من ذلك ، على أن السبب الرئيسي للابصار هو وجود المبصر مع توافر هذه الشروط[١١٥] .

ويتم بسقوط شعاع أو حزمة من الأشعة على الجسم المرئي وانعكاسه على شبكية العين[١١٦] . وعلل عدم ازدواج الصورة اذا نظر الى الشيء بعينين ، وذلك ان صورة الشيء تتأدى في كل عين ، حتى اذا وصلت الى ملتقى بصر العينين انطبقت الصورتان ، اذا كانتا متماثلتين مع أنهما صورتان لا صورة واحدة .

وذهب أبعد من ذلك ، وميز بين الأجسام المشفة التي ينفذ منها الضوء ولها قوة مؤدية للضوء ، والأجسام الكثيفة ، والتي لها قوة قبول الضوء ، ومن خصائص هذه الأجسام عند ابن الهيثم ، أنها إذا جاورت أجساما مضيئة بذاتها ، استفادت من ضوئها ، وأشرقت منها بفعل هذه المجاورة[١١٧] . ومن ناحية ثانية فقد كان ابن الهيثم أول من أقام التجارب على البيوت المظلمة ، ودخول الضوء اليها من الثقوب ، وكانت المناسبة التي هدته الى ذلك هي محاولته اثبات أن ضوء الشمس يشرق من جميع أجزاء سطح الشمس ، فأجرى التجارب على ضوء الشمس مدخلا اياه من ثقب يوصل الى غرفة مظلمة ، فتبين له أنه ينتشر داخل الغرفة انتشارا واسعا ، مما يدل على أنه يصدر من أجزاء مختلفة من الشمس ، ويرجع مصطفى نظيف ، ان الحسن بن الهيثم ، وهو يمعن النظر في مواقع الأضواء النافذة من الثقوب قد عرض أمام بصره ، صورة منكوسة لجسم موجود في الخارج ، وقد عرض ابن الهيثم تجربته على الشكل التالي : « اذا كان في موضع واحد عدة سرج في أمكنة متفرقة ، وكانت جميعها مقابلة لثقب واحد ، وكان ذلك الثقب ينفذ الى مكان مظلم وكان مقابل ذلك الثقب في المكان المظلم جدار أو قوبل بجسم كثيف ، فان أضواء تلك السرج تظهر على ذلك الجسم ، أو ذلك الجدار ، متفرقة وبعدد تلك السرج وكل واحد منها مقابل لواحد من السرج على السمت المستقيم الذي يمر بالثقب ، واذا ستر واحد من السرج ، بطل من الأضواء التي في الموضع المظلم الضوء الذي كان يقابل ذلك السراج فقط ، وأن رفع الساتر عن السراج ، عاد ذلك

(١١٤) صبرة : تطور نظريات الضوء منذ ابن الهيثم حتى الوقت الحاضر ، ٧٤ .
(١١٥) فروخ : عبقرية العرب ، ١٠٣ ، نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٤٢/١ ، جلال موسى : منهج البحث العلمي ، ٩٨ .
(١١٦) نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٩٣/١ .
(١١٧) المرجع السابق ، ٨١ .

الضوء الى مكانه[١١٨] يضاف الى ذلك أن ابن الهيثم عالج الشروط اللازمة لوضع الصورة الحاصلة بواسطة الثقب ، فاشترط الضيق النسبي للثقب ، لأن الضيق يقلل الضوء ، فتكون الصورة أدنى الى الخفاء عن البصر[١١٩] .

كما درس ابن الهيثم خواص المرايا المتعددة ، وكيفية تجميع أشعة الشمس في نقطة واحدة ، تكون بمثابة النقطة التي تحدث فيها أشعة الشمس ، وهذا هو المبدأ الذي يقوم عليه الفرن الشمسي في زماننا .

وتعمق ابن الهيثم أيضا في استقراء أشعة الشمس الساقطة على مرآة ، والتي تتبعثر في اتجاهات كثيرة حسب السقوط .

ان هذه الدراسات مهدت الطريق لاختراع آلة التصوير - الكاميرا - بحجرتها المظلمة وعدستها ، وكذا القائمة من العدسات اللامة والمفرقة للاشعة ، ومن ثم صناعة الآلات البصرية ، القائمة على تسخير ظاهرة الزيغ الكروي الطولي[١٢٠] لتحسين رؤية العين بتلك الآلات ، النظارات الطبية فيما بعد ، وقاده هذا لدراسة العين وتشريحها ، وله في ذلك جهد لا ينكر بفضل رسوماته التشريحية .

ولنستحق آراء ابن الهيثم في ضوء القمر وماهية الأثر الذي في وجه القمر وقفة تأملية . فقد كان الرأي الشائع عند الطبيعيين أن « ضوء القمر مستفاد من الشمس ، وأن سطحه المضيء هو الذي يكون مقابلا لجرم الشمس »[١٢١] بمعنى أن القمر غير مضيء من ذاته ، وأنه يكتسب ضوءه من الشمس ، وذهب الطبيعيون الى أن ضوء القمر هو ضوء الشمس منعكسا عن سطحه الى الأرض ، كما ينعكس الضوء عن سطوح الأجسام الصقيلة .

ويعلق ابن الهيثم بقوله « ليس يوجد لأحد منهم قول برهاني يدل على أن ذلك واجب ضرورة ، ما لم يقم البرهان على أن ذلك واجب ، فليس يحتمل وجها غير ذلك الوجه الامكاني ، وكان مظنونا لا متيقنا[١٢٢] » فابن الهيثم يرى أنه ما لم يقم البرهان على ما ادعاه الطبيعيون ، تبقى امكانية الاتيان بفرضيات أخرى لتعليل الظاهرة واردة ، بل وممكنة ، وأن بتفسير للظاهرة مؤداه « أن ضوء القمر من خواص الأجسام المضيئة من ذاتها ، اذ كل نقطة من سطحه المضيء يشرق منها ضوء على كل نقطة تقابلها ، أي أن ضوء القمر ثانوي يشرق من القمر كما يشرق الضوء الثانوي من سطوح الأجسام الكثيفة التي تستضيء بالأضواء المشرقة من الأجسام المضيئة بذاتها[١٢٣] .

أما ماهية الأثر الذي يظهر في وجه القمر فهو على صفة واحدة لا يتغير لا في شكله ولا في كيفية سواده . ويورد ابن الهيثم في رسالته عن مائية (ماهية) الأثر الذي في وجه القمر ، آراء الطبيعيين حوله ، من اعتقادهم أن الأثر من نفس جرم القمر أو خارج عن

(١١٨) المرجع السابق ، ٨٣ .
(١١٩) زهير الكبي : ابن الهيثم ، ١٤٤ .
(١٢٠) نظيف : ابن الهيثم ، ٢١/١ .
(١٢١) ابن الهيثم : رسالة في ضوء القمر ، ٣ ، ضمن مجموعة رسائل الحسن بن الهيثم ، حيدر آباد الدكن ، سنة ١٣٥٧ هـ .
(١٢٢) أنظر رسائل ابن الهيثم ، ص ٤ ، جلال موسى : منهج البحث ، ٩٩ .
(١٢٣) نظيف : الحسن بن الهيثم ٤٢/١ .

جرم القمر ، أو متوسط بين جرم القمر وبين أبصار الناظرين اليه ، أو صورة تظهر بالانعكاس لأن سطح القمر صقيل ، أو أنه صور البحار التي في الأرض وترى بالانعكاس أو صور الجبال أو صورة قطعة من الأرض التي يقع عليها الشعاع المنعكس . وبعد أن يناقش ابن الهيثم هذه الآراء ويفندها ، يبين أن جوهر القمر مخالف لجوهر جميع الكواكب الباقية ، والظلمة في جرمه سببها أن ذلك الجزء لا يقبل الضوء قبولا تاما ، ويعلل هذه الظاهرة بالبراهين التالية :

ـ ان القمر يقبل الضوء من الشمس وليس فيه شيء من الشفيف[١٢٤] . ومعنى هذا أن في القمر القوة القابلة للضوء ، وليست فيه القوة المنفذة له .

ـ ان درجة قبول القمر للضوء تختلف من مكان لآخر على سطحه ويعزو ذلك الى كثافة ذلك الجزء .

وحري بنا أن نشير الى الدراسات الحديثة لسطح القمر ، والتي عللت الأثر بسبب وجود الجبال والوديان والحفر على سطحه . وليس ببعيد عما ورد في المقالة أن في جسم القمر تقعيرا ، فاذا أشرق عليه ضوء الشمس ، صار لمحيط التقعير ظل على باطن التقعير ، والأثر هو ظل محيط التقعير[١٢٥] .

وأخيرا نشير الى مسألة على غاية الاهمية ، تعرف بمسألة الحسن بن الهيثم أو « مسألة الهازن » وملخصها « اذا تعرضت نقطتان حيثما اتفق أمام سطح عاكس فكيف تعين على هذا السطح نقطة بحيث يكون الواصل منها الى احدى النقطتين المفروضتين بمثابة شعاع ساقط والواصل منها الى الأخرى بمثابة شعاع متعكس » وقد درس المسألة العديد من العلماء أمثال بودا وسارطون وقرنة وطوقان وفروخ والدمرداش ، ولكن مصطفى نظيف قد أتى ببرهانها في أكثر من مائة صفحة ، وناقش أوجهها حسب آراء ابن الهيثم[١٢٦] ، وهي تمثل ذروة النبوغ عند الحسن بن الهيثم لزوايا السقوط والانعكاس .

السوائل :

كان للعرب فضل بين في علم السوائل ، فقد شرحوا بعض الظواهر التي تتعلق بضغط السوائل وتوازنها ، وكان (منها جهم) واضحا ودقيقا وسهلا ، وقد حفظ لنا ابن عساكر رواية المعتمر بن سليمان عن أبيه التي توضح مفهوم العرب لتكون ماء المطر في القرن الأول هـ . فالماء عند خالد بن يزيد ، من السماء أو من الغيم الندي يحمله من البحر ، حيث يصليه البرق والرعد[١٢٧] ، ويضيف خالد ، انه باستطاعته تحليل مياه البحر ، وأحضر القلال الى المجلس ، ووصف كيف يصنع به حتى يعذب[١٢٨] ويبدو أن مسألة استخراج الماء العذب من البحر كانت معروفة ، فقد لاحظ الكرخي أن أهل السفن يستخرجون من قرار البحر الماء العذب ويشربونه ، وذلك بأنهم يتخذون آنية من الآنك ، مثقوبة من أسفلها ، وفي فمها أنبوبة متخذة

(١٢٤) أنظر ، مقالة أبي علي ، الحسن بن الهيثم في مائية الأثر الذي يرى في وجه القمر ، مخطوطة مكتبة الاسكندرية رقم ٢٠٩٦ د ، نشرها عبد الحميد صبرة في مجلة تاريخ العلوم ، العدد الأول ١٩٧٧ ، ص ١٨٠ .

(١٢٥) ابن الهيثم : مائية الأثر ، ١٢

(١٢٦) الكفي : الحسن بن الهيثم ، ١٥٩

(١٢٧) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، مخطوط ، ترجمة خالد بن يزيد ، بدران : تهذيب تاريخ دمشق ، ٥ / ١٢٣

(١٢٨) نفس المراجع السابقة .

من الجلود الرقيقة مشمعة ، فلا يدخلها الماء في خرزها ويسد فم الجرة بكرة مهندمة ، قد جعل فيها خيط ممدود في وسط الأنبوبة ، طوله مثل طولها ، وترسل الآنية الى قعر البحر ، وعند شد الخيط ودخول الماء اليها ، تخرج الآنية بالخيط المشدود في عروة مركبة عليها ، فيوجد فيها ماء عذب[١٢٩] .

وعرض البيروني لموضوع اتزان السوائل ، فشرح الظواهر التي تقوم على ضغط السوائل واتزانها وتوازنها ، وبين كيفية تجميع مياه الآبار والمياه الجوفية وكذلك صعود مياه الفوارات والعيون الى أعلى ، وبنى عليه الينابيع وطريقة رفع الماء بأنابيب الرصاص والروافع والبرابخ ، مستندا في ذلك الى سلوك السوائل في الأواني المستطرقة حيث تتساوى السطوح ، فان انخفضت أحداهما عن الأخرى سال الماء الى أن ينتهي الماء أو تعود لحالة التوازن مرة أخرى[١٣٠] .

وقد حوى كتاب الخازني ، مواضيع هامة في موازنة السوائل ، منها على سبيل المثال ، موازنة عمود الميزان على سطح الأفق والميزان مائي ، وكذلك في أحكام الجسم المصمت (المجوف) في الماء وطفوه ورسوبه ، وعلل الحالات التي يمكن أن تغرق السفينة أو حتى حساب مقدار غوصها في الماء وهي محملة[١٣١] ، وكتاب ميزان الحكمة كتاب معتبر في علم الطبيعة العامة ، وعلم الهدروستاتيكا والميكانيكا خاصة[١٣٢] .

كما حظيت الخاصية الشعرية في الأنابيب الدقيقة ، باهتمام العلماء العرب ، اذ حددوا مدى امكانية صعود السوائل منها ، وتحليل ارتفاع الموائع فيها ، وهذا البحث قادهم الى دراسة التوتر السطحي ، Surface Tension[١٣٣] وفسر ابدمسر بن علي ابدمسر الجلدكي ، ظاهرة التموج في السوائل ، وجعله (أمر يحدث بعد صدم وسكون بعد سكون) .

ومن ناحية ثانية فقد وصف العلماء العرب طريقة لتجميد الماء في غير وقته ، باستعمال مقادير معلومة من الشب اليماني الجيد السحوق ويضاف اليه ماء في قدر ، ويعمل في تنور ويطين عليه حتى يتبخر منه الثلثان ويبقى الثلث ، ثم يرفع في قنينة ويسد رأسها جيدا ، ويستعمل هذا الماء المحضر بالطريقة السابقة باضافته الى قناني مائية أخرى ، فتجمد ، وهناك طريقة أخرى استعملها المغاربة حيث ينقع بزر الكتان في خل مختمر جيد مركز ، فاذا جعل فيه ، يلقى في جرة أو حب مليء بالماء ، فانه يجمد ما كان فيه من الماء ، ولو في حزيران أو تموز[١٣٤] وقد اعتاد هارون الرشيد أن يحمل الثلج معه في أسفاره ، وكان يجلب له من الجبال الشمالية للعراق ، أو حتى من جبال لبنان ، الى أماكن حارة كالحجاز مثلا ، وهو أمر يقتضي المعرفة بوسائل جيدة لحفظ الثلج ونقله لمسافات طويلة ولعدة أيام .

الثقل النوعي :

ومن ناحية أخرى فقد عرف العرب الثقل لبعض

(١٢٩) محمد بن الحسن الحاسب الكرخي : انباط المياه الجوفية ، ١٠ ـ ١١ .
(١٣٠) جلال شوقي : دراسات البيروني في الطبيعيات ، ٢٦٩ ، البيروني : الآثار الباقية ، ٢٦٩ ، ٢٩٣ .
(١٣١) عبدالرحمن الخازني : كتاب ميزان الحكمة ، ط حيدر اباد ، ٦٦ ـ ٩٨ .
(١٣٢) مرحبا : المرجع في تاريخ العلوم ، ٣١٧ .
(١٣٣) أنور الرفاعي : تاريخ العلوم ، ١٤٠ .
(١٣٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ١٧٤ ، الدمشي : مقدمة لعلم الميكانيك ، ١١ .

المواد الصلبة والسائلة ، وقدروا ثقلها بدرجة دقيقة تقترب أحيانا مما قدره علماء العصر الحاضر ، وفي بعض الأحيان تطابق الدراسات الحديثة . بالرغم من اختلاف المستوى العلمي والتقني [١٣٥] . وقد أوجد العلماء أجهزة لتعين الثقل النوعي ، فالبيروني مثلا استخدم جهازا لتعيين الثقل النوعي للمعادن والأحجار الكريمة ، ذا شكل مخروطي ، له مصب بالقرب من فوهته ، بحيث يتجه الى أسفل ، وتقوم طريقة البيروني على القاعدة المعروفة : الكثافة = الحجم/الكتلة = ث = ح/ك ، وهذا كان يزن الجسم في الهواء وزنا دقيقا ، ثم يلقيه في الاناء المملوء بالماء ، فعندما يغمر الجسم في الماء يزاح الماء الى وعاء آخر ، وهو حجم الجسم المغمور ، وأهمية الجهاز ، أن يكون معروفا في هذه الفترة المبكرة من تاريخ العلوم [١٣٦] ويدخل في أبحاث الكثافة والحجوم وغيرها .

ان استعراض أرقام نتائج دراسات البيروني والخازن في الثقل النوعي ومقارنتها بالأرقام الحديثة تبين أن أرقام البيروني والخازن كانت قريبة جدا من القيم الصحيحة الحالية :

المادة	أرقام البيروني	أرقام للخازن	الرقم الحديث
الذهب	١٩,٢٩	١٩,٠٥	١٩,٢٦
الزئبق	١٣,٤٩	١٣,٥٦	١٣,٥٩
النحاس	٨,٨٣	٨,٦٦	٨,٨٥
النحاس الأصفر	٨,٦٧٦	٨,٥٧	٨,٤ [١٣٧]

ولم تقف جهود العلماء العرب على دراسة الثقل النوعي للمواد الصلبة ، بل شملت أيضا المواد السائلة ، وكانت نتائجهم متفوقة في اقترابها من الأرقام الحديثة :

المادة	أرقام الخازن	الأرقام الحديثة
الماء العذب البارد	١,٠٠	١,٠٠
الماء الحار	٠,٩٥٨	٠,٩٥٩٧
الماء اذا بلغ درجة الصفر	٠,٩٦٥	٠,٩٩٩
ماء البحر	١,٠٤١	١,٠٢٧
زيت الزيتون	٠,٩٢٠	٠,٩١
حليب البقر	١,١١٠	١,٠٤-١,٤٢
دم الانسان	١,٠٣٣	١,٠٤٥-١,٠٧٥

وتعتبر نسب الخازن دقيقة ، لأن فرق الاختلاف انما يعود الى طبيعة الماء والسوائل وليست للخطأ أو عدم دقة الطريقة [١٣٨] . فقد استعمل الخازن ميزان الهواء Aero Meter في ذلك ، وقد ذكر محي الدين عبد القادر بن محمد الطبري ت ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨م . في كتابه « عيون المسائل من أعيان الوسائل » ، جداول فيها الأثقال النوعية للذهب والزئبق والرصاص والفضة والنحاس والحديد ولبن البقر والجبن والزيت والياقوت ، والياقوت الأحمر ، والزمرد ، واللازورد والعقيق والماء والزجاج [١٣٩] .

(١٣٥) في مكتبة الآثار الثلاثة لمروم الأرثوذكس ، بيروت ، مقالة رسالة في النسب التي بين الفلزات والجواهر ، أنظر المشرق ، المجلد العاشر ، سنة ١٩٠٦ ، ٩
(١٣٦) جلال شوقي : دراسة البيروني في الطبيعيات ، ٢٦٤ ، أبحاث الندوة العالمية لتاريخ العلوم حلب ٧٧ ، ٢٦٤
(١٣٧) الأرقام مقارنة الى الماء ، على أساس أن الوزن النوعي للماء = ١
(١٣٨) الدوميلي : العلم عند العرب ، ٢٢٨
(١٣٩) كحالة : العلوم البحتة ، ٢٤٠ ، الرفاعي : تاريخ العلوم في الاسلام ، ١٤٣

ان التعمق في دراسة كثافة الأجسام ، وثقلها النوعي ، كانت الموحى للعالم العربي الأندلسي عباس بن فرناس ، بفكرة الطيران المعروفة النهاية(١٤٠) ، اذ وقع وأصيب بكسور سببت له آلاما عاشت معه لسنوات قبل وفاته .

الحـركة :

حدد ابن سينا في كتابه الشفاء العناصر الأساسية للحركة وهي ، المتحرك والمحرك وما منه واليه ، والزمان(١٤١) . ويرى أبو البركات هبة الله ابن ملكا البغدادي ان اتصال الزمان لازم لاتصال الحركة(١٤٢) .

وقد قسم فلاسفة العرب الحركة الى عدة أقسام منها : الحركة الانتقالية والحركة الوضعية ، والحركة القسرية والحركة الطبيعية(١٤٣) . وفي عصرنا يقوم علم الحركة على قوانين ثلاثة ، جرى العرف على نسبتها جميعا الى اسحق نيوتن ، علما أن بين العلماء سواء من المشرق أو المغرب من سبقوه اليها ، غير أن فضل نيوتن في حسن وجودة صياغته لها ، وتحديد صورها الرياضية وعلى الأخص القانون الثاني(١٤٤) .

وقد جمع الجرجاني ت ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م في كتابه « التعريفات » الحالات الممكنة للحركة في الكم والكيف والأين والوضع والحركة العرضية والذاتية والقسرية والارادية والطبيعية(١٤٥) . ولا تخرج قوانين الحركة عن هذه المضامين كما يتضح من مناقشتها .

القانون الأول :

يقول هذا القانون بأن الجسم يبقى في حالة سكون أو حالة حركة منتظمة في خط مستقيم ما لم تجبره قوى خارجية على تغيير هذه الحالة ، ويتعلق القانون بخاصية القصور الذاتي أو العطالة .

وقد تناول اخوان الصفا أجزاء من القانون في رسائلهم في أكثر من وضع عند حديثهم عن الحركة ، فالأجسام الكليات كل واحد له موضع مخصوص ، ويكون واقفا فيه لا يخرج الا بقسر قاسر ، فمتى وقفت الدابة ، سكن الدولاب وعدم الاستقاء(١٤٦) .

وابن سينا في الاشارات والتنبيهات ، ذكر « انك لتعلم أن الجسم اذا خلي وطباعه ، ولم يعرض له من خارج تأثير غريب ، لم يكن له بد من موضع معين وشكل معين فاذن في طباعه مبدأ استيجاب ذلك(١٤٧) . وما يريد ابن سينا بيانه ان الجسم لا يخلو من موضع وشكل طبيعيين ، لأن فيه طبيعة تقتضي ذلك ، شريطة أن لا يعرض له من الخارج أي تأثير ، لأن التأثير الخارجي ربما جعل للجسم موضعا وشكلا قسريا ، كتأثير الحرارة والاناء المكعب في الماء .

---

(١٤٠) الرفاعي : تاريخ العلوم في الاسلام ، ١٤٣ .

(١٤١) المتحرك : الجسم الذي فيه الحركة ، المحرك : القوة السببية للحركة ، ما فيه : المكان والوضع ، ما منه وما اليه : مواضع الابتداء والانتهاء ، والزمان : الفترة الزمنية التي تتم فيها الحركة بقطع مسافة الانتقال .

(١٤٢) العراقي (محمد عاطف) : الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا ، ط مصر سنة ١٩٦٩ ، ٤٦٦ .

(١٤٣) مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، ١/ ١٩٢ .

(١٤٤) جلال شوقي : تراث العرب في الميكانيك ، ٢٦ .

(١٤٥) الجرجاني (علي بن محمد) : التعريفات ، ٩٠ .

(١٤٦) اخوان الصفا : الرسائل ، ٣/ ٣٢٢ ، ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، ٢/ ٢٥٤ .

(١٤٧) ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، ٢/ ٢٧٣ .

وعليه فان مبدأ القصور الذاتي أشار اليه ابن سينا أيضا في طبيعيات الشفاء حيث ان الجسم وهو في حالة الاندفاع تكون قوته المستمدة من السبب الذي أثار حركته في الأصل ، قادرة على دفع تلك القوة التي تعوقه عن الحركة في اتجاه معين أي قادرة على مقاومة الوسط الذي تنطلق فيه ، حتى تتبدد أخيرا في الخلاء[١٤٨] .

وينبه ابن سينا الى أن الجسم له ميل للاستمرار في حركته ، يحس به المانع والذي لا يتمكن من منع حركته الا فيما يضعفها أولا ، حيث تأخذ الموانع الخارجية والطبيعية معا في اثنائه قليلا قليلا[١٤٩] .

ومجمل القول ، ان ابن سينا قد توصل الى القانون الأول للحركة بشقيه الخاصين بحالة السكون وحالة الحركة المنتظمة ومدافعة الجسم وطلبه البقاء على حاله ومقاومته للتغيير ، وهي ذاتية خاصة بالجسم في حال سكونه وحال حركته[١٥٠] .

ومن ناحية أخرى ، فقد تضمنت مباحث ابن الهيثم معنى القصور الذاتي ، فقد ناقش ذلك في وصفه حركة الكرة بعد ارتدادها من السطح ، اذ لا تلبث الكرة حتى تهبط الى أسفل للقوة الطبيعية المحركة لها الى أسفل ، كما أسند تغير قوة الحركة من حيث الكم والمقدار الى القوة ، وذلك واضح من اسناد تغير الحركة الى فعل الممانعة في الهواء عن الانعكاس وعن الانعطاف ، وكذلك في تحليله لفكرة الحركة الى مركبتين متعامدتين[١٥١] . وقد تضمن كتاب المناظر شرحا للأوضاع التي يراها ابن الهيثم لتصادم الأجسام .

لقد كانت دراسة الحسن بن الهيثم لحركة تصادم الأجسام دراسة علمية مؤيدة بالتجربة والتحليل ، فأمكنه التوصل الى القواعد الأساسية التي تحكم هذه الحركة ، ووقف على معنى كمي للحركة ، وقدم ابن الهيثم أول طريقة عرفها العالم لقياس صلابة الأجسام ، على أساس تباين ممانعة الاجسام للانفصال بالمصادمة[١٥٢] .

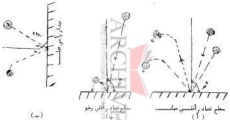
القانون الثاني :

ويقضي هذا القانون على أن القوة اللازمة للحركة تتناسب مع كل من كتلة الجسم المتحرك وتسارعه ، وبالتالي فانها تقاس بحاصل ضرب الكتلة والتسارع بحيث يكون التسارع في نفس اتجاه القوة وعلى خط ميلها وبلغتنا الحديثة « فالتسارع المعجلة التي يتحرك بها جسم تتناسب طرديا مع القوة المؤثرة عليه ، وتتناسب عكسيا مع كتلته » .

ونستطيع القول أن العرب قد وقفوا على بعض المعاني الواردة فيه ، ولم يتوصلوا الى منطوق القانون ذاته ، ولنستعرض مقولات العلماء بهذا الصدد ، فابن سينا يرى بأن القوة في الجسم الأكبر ، اذا كانت مشابهة للقوة في الجسم الأصغر حتى لو فصلت من الأكبر مثل

---

(١٤٨) نصر / سيد حسين : ثلاثة حكماء مسلمين ، ٤٨ .
(١٤٩) ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، ٢ / ١٥٣ .
(١٥٠) جلال شوقي : تراث العرب ، ١١ .
(١٥١) نظيف : الحسن بن الهيثم ، ١ / ١٥٨ .
(١٥٢) جلال شوقي : تراث العرب ، ٥٥ .
Singer Ashort History & Scientific Ideas, P.153-155



(شكل / ٢ مسار الجسم المصادم قبل وبعد المصادمة)
عن كتاب تراث العرب العلمي في الميكانيكا لجلال شوقي



(شكل ٣٧ تساوي زاويتي الاقتراب "السقوط" والارتداد (الانعكاس) عند تصادم جسم مع سطح أملس .

الأصغر ، تشابهت القوتان بالاطلاق ، فاما في الجسم الأكبر أقوى وأكثر ، اذ فيهما من القوة شبيه تلك الزيادة ، ويضيف ابن سينا بأن الجسم الأقل مقدارا أقبل للتحرك وأسرع حركة[١٥٣] .

ويؤكد فخر الدين الرازي ، ازدياد القوة الطبيعية مع عظم الجسم ، فالأجسام كلما كانت أعظم كان ميلها الى احيازها الطبيعية أقوى ، فاذا كانت كذلك ، كان قبولها للميل القسري أضعف[١٥٤] .

وذهب لمثل ذلك نصير الدين الطوسي في معرض شرحه لاشارة ابن سينا في الفصل التاسع عشر من النمط السادس من الالهيات ، وقد جاء منها و اعلم أنه لا يجوز أن يكون جسم ذو قوة غير متناهية يحرك جسما غيره ، لأنه لا يمكن أن يكون الا متناهيا ، فاذا حرك بقوله جسما ما ، من مبدأ نفرضه ، حركات لا تتناهى في القوة ثم فرضنا أنه يحرك أصغر من ذلك الجسم بتلك القوة ، فيجب أن يحركه أكثر من ذلك من المبدأ المفروض ، فقطع الزيادة التي بالقوة ، في الجانب الآخر ، فيصير الجانب الآخر متناهيا أيضا ، وهذا محال[١٥٥] ويشرح نصير الدين الطوسي هذه الاشارة على الكيفية التالية ، ان القوة التي لا نهاية لها ، هي التي تكون على أعمال أو حركات غير متناهية ، والحركة غير المتناهية هي الدورية ، وفي مثل هذه الحالة ، فان القوى الجسمانية غير متناهية ، ثم اذا فرضنا ان ذلك الجسم المحرك ، يحرك جسما آخر شبيها بالجسم الأول في الطبيعة ، وأصغر منه في المقدار ، بتلك القوة عينها من ذلك المبدأ المفروض ، فيجب أن يحرك الثاني أكثر من الأول ، وذلك لأن المقسور انما يعاون القاسر بحسب طبيعته المخالفة لطبيعة القاسر ، ويستنتج نصير الدين بأن القوة غير المتناهية لو حركت بالغرض جسمين مختلفين ، لوجب أن يكون تحريكها اياهما متفاوتا[١٥٦] .

ويقول هبة الله بن ملكا البغدادي ت ٥٤٧ هـ في كتابه « المعتبر في الحكمة » بازدياد السرعة عند اشتداد القوة ، فكلما زادت قوة الدفع زادت سرعة الجسم المتحرك وقصر الزمن لقطع المسافة المحدودة .

وكل هذه النصوص تبين أن العرب قد وقفوا على ما يكاد يكون كل معاني القانون الثاني للحركة ، وان لم يتوصلوا الى صياغته بشكل رياضي مناسب كما فعل اسحق نيوتن بعدهم[١٥٧] .

القانون الثالث :

وينص هذا القانون على أن « لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ، ومضاد في الاتجاه » .

ولنا أن نقرر ، أن العرب قد قالوا بأصول هذا القانون وعلى الأخص ، أبو البركات ، هبة الله بن ملكا البغدادي في كتابه المشار اليه سابقا ، وكان يراقب لعبة شد الحلقة من قبل متصارعين ، فذهب الى أن الحلقة المتجاذبة بين المتصارعين ، لكل واحد من المتجاذبين في جذبها قوة مقاومة لقوة الآخر ، فان غلب أحدهما ، كانت قوته مقهورة وليست معدومة .

---

(١٥٣) ابن سينا : الطبيعيات ، ١٥ ، جلال شوقي : تراث العرب ، ٦٦
(١٥٤) جلال شوقي : تراث العرب ، ٦٧
(١٥٥) ابن سينا الاشارات والتنبيهات ، ٣/ص١٩٥
(١٥٦) المرجع السابق ، ١٦٢
(١٥٧) جلال شوقي : تراث العرب ، ٦٨

أما فخر الدين الرازي ، في كتابه « المباحث المشرقية في علم الالهيات والطبيعيات » عند حديثه عن الميل والمدافعة ، فيرى ، أن وقوف الحلقة في الوسط بين المتجاذبين تدل على فعل كل منهما فيها فعلا متساويا وهو يتعدى المدافعة أي قوة الدفع وهو غير قوة الجذب أيضا . ويقرر أن الذي فعله كل منهما لو خلي عن العارض (العائق) لاقتضى انجذاب الحلقة الى جانبه ، وانتهى أن ما حدث يتعدى العلة الطبيعية والقوة النفسانية .

وبجمل القول ، أن العرب بالفعل قد توصلوا الى أصول القانونين الأول والثالث للحركة ، وكادوا أن يتوصلوا الى القانون الثاني للحركة في صورته الكاملة(١٥٨) .

أما الجاذبية الأرضية :

لقد درس العرب منذ القرن التاسع الميلادي ، قوة التثاقل الناشئة عن الجاذبية الأرضية ، وسموها القانون الطبيعي أو الميل الطبيعي ، حيث افترضوا أن لكل جسم مكانه الطبيعي في منظومة الكون ، فاذا ما أخرج منه قسرا ، نزع الى استعادة مكانه الطبيعي . وقد درس مجموعة من العلماء تفاصيل تساقط الأجسام تحت تأثير الجاذبية الأرضية . ومنهم على سبيل المثال ، ثابت بن قرة ، واخوان الصفا ، والبيروني وابن سينا ، وأبوالبركات هبة الله بن ملكا البغدادي وفخر الدين الرازي ونصير الدين الطوسي ، وذهبوا الى أن الجسم وهو يجاهد ليأخذ مكانه الطبيعي ، انما يسلك في ذلك أقرب الطرق ، الخط المستقيم ، كما حاولوا أن يعللوا العديد من خواص الجذب ، فالمدرة عند ثابت بن قرة انما تعود الى السفل ، لأن بينها وبين كلية الأرض مشابهة في كل الأعراض من البرودة واليبوسة والكثافة ، والشيء يتجذب الى مثله والأصغر ينجذب الى الأعظم ، والى المجاور الأقرب قبل انجذابه الى مجاوره الأبعد . وعند اخوان الصفا أن الاجسام وهي في أمكنتها الطبيعية الخاصة لا توصف بالخفة أو الثقل ، فاذا ما خرجت من أمكنتها وصفت بالثقيلة ، ان كانت حركتها نحو المركز (مركز الأرض) ، وبالخفيفة ان كانت حركتها نحو المحيط . ولعل الثقل والخفة تكون أيضا بسبب الموانع التي تعوق الجسم من أن ينتظم في مكانه الطبيعي ، فيقع التنازع ، ويكون على أشده في المركز واضعفه في المحيط(١٥٩) ولا تتعدى آراء ابن سينا هذا الاطار في الثقل والخفة ، ولم يأت فيها بجديد ، وانما عرضها على النهج الارسطوطالي ، فلكل جسم مكانه الطبيعي أو ميزة تقتضي طبيعته أن يتحرك اليه ، فالنار مثلا تتحرك الى أعلى ، والحجر عادة وطبيعيا يتحرك الى أسفل(١٦٠) ، والمتحرك الى الوسط هو الذي يسمى ثقيلا ، اما المتحرك عن الوسط فيكون خفيفا(١٦١) ، وقد علق فخر الدين الرازي على هذه المسألة بأن كل جسم له ميل الى المكان الملائم وميل عن المكان الغريب ، والميل هو الثقل والخفة(١٦٢) .

ومن ناحية أخرى ، فقد أدرك علماء العرب ، أن قوة

(١٥٨) المرجع السابق ، ٧٤ .
(١٥٩) اخوان الصفا : الرسائل ، أنظر رسالة السماء والعالم .
(١٦٠) أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي ، ٣٠٣ ، ماجد فخري : تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ١٨٨ .
(١٦١) ابن سينا : الطبيعيات ، ٩ .
(١٦٢) المرجع السابق ، ٩٩ .

الثاقل تزيد بكبر الجسم وانها تسلك أقصر الطرق في تساقطها ، وتزيد سرعته مع مسافة السقوط ولا تعتمد تلك السرعة على كتلة الجسم ، وبهذا الصدد يذكر هبة الله بن ملكا في كتابه المعتبر في الحكمة « وأيضا لو تحركت الأجسام في الخلاء لتساوت حركة الثقيل والخفيف والصغير والمخروط المتحرك على رأسه الحاد ، والمخروط المتحرك على قاعدته الواسعة ، في السرعة والبطء ، لأنها انما تختلف الملائمة بهذه الأشياء بسهولة خرقها لما تخرقه من المقاوم المخروق ، كالماء والهواء وغيره[١٦٣] . وهذه الأخيرة انما هي مبادىء للديناميكا الهوائية ، حيث ان مقاومة الهواء تختلف باختلاف الشكل الهندسي للجسم الذي يخترق الهواء ، فالسهم المائل مثلا يجعل من الهواء وسطا حاملا له ، في حين أن الشكل المخروطي يلقى مقاومة من الهواء . ولعمري انها اللبنة الأولى لدراسة حركة الأجسام في الهواء ، وما سمى في عصرنا « الديناميكا الهوائية »[١٦٤] .

ولم تتوقف بحوثهم عند هذا الحد ، فقد أدركوا أن للهواء وزنا ، وأن له قوة رافعة كما في السوائل[١٦٥] ، وأدرك الخازني أن وزن الجسم في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي ، وعلل ابن سينا حركة الرياح بتخلخل جهة من الهواء لسخونة أو برودة وكذا الشميسات التي هي كالشموس ، خيالات تحدث في مرآة شديدة الاتصال والصقالة ، والنيازك عند ابن سينا ، خيالات أيضا في لون قوس قزح ، الا انها مستقيمة ، تكون في جنبة الشمس يمنة عنها أو يسرة ، لا تحتها ولا أمامها ، وقلما تظهر عندما تكون الشمس في نصف النهار ، وانما عند الطلوع أو الغروب ، ولا يختلف هذا القول عن ما ذهب اليه العلم الحديث . وقد صحح البيروني مقولات الهنود حول ظاهرة المد والجزر ، وبين أنها ترتبط بالتغير الدوري لوجه القمر[١٦٦] .

ولعل البيروني خير من فهم هذه الناحية من العلماء في عصره فهما علميا صحيحا ، فقد عرف بأن الأرض تجذب ما فوقها نحو مركزها ، وأن الأجسام تنزع دوما الى المركز[١٦٧] ، وأورد الادريسي أن الأرض جاذبة لما في أبدانهم (أي أبدان الاجسام) من الثقل وتكون الأرض بمنزلة حجر المغناطيس الذي يجذب الحديد . وعرف الخازني في « ميزان الحكمة » أن الأجسام الساقطة تنجذب في سقوطها الى مركز الأرض ، وتجاوز ذلك الى معرفة نسبة السرعة المتصاعدة في سقوط الأجسام ، « فالثقل هو القوة التي يتحرك بها الجسم الثقيل الى مركز العالم » والسرعة تزيد عندما يكون الوسط (الهواء) رطبا وغيرها من الأمور[١٦٨] .

ومن ناحية أخرى ، فقد سخر العرب ظاهرة الجاذبيه الأرضية لخدمة حياتهم اليومية ، وخاصة في الابرة المغنطيسية ، اذ استعملوها في أسفارهم البحرية لتحديد الاتجاهات ، ولأغراض أخرى ، بعد تطور معرفتهم العلمية ، ومع أن اليونان قد عرفوا المغناطيس ، وتأكدوا من اتجاهه نحو الشمال والجنوب على الأقطاب المغناطيسية الأرضية ، الا انهم لم يعرفوا

(١٦٣) جلال شوقي : تراث العرب ، ٨٣ .
(١٦٤) هبة الله بن ملكا : المعتبر ، ١٠٧/٢ .
(١٦٥) الخازني : ميزان الحكمة ، ٥ .
(١٦٦) البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة ، ٤٢٨/١٣٧ .
(١٦٧) المرجع السابق ، ٢٣٣ .
(١٦٨) الخازني : ميزان الحكمة ، ١٦ ـ ٢٠ .

البوصلة ، الاختراع الذي تنازعه كل من الصينيين والعرب والطليان ، وتسقط دعوى الايطاليين لأنها تنسبها الى جيرارد الكريموني ، والذي أثبتت الدراسات المحدثة الموثوقة ، ان جيرارد اعتاد أن ينسب ما ترجمه من التراث العربي لنفسه ، فيدعي التأليف وما هو بأكثر من مترجم وحتى مترجم ضعيف لأنه لم يكن يجيد العربية ، اما الادعاء الصيني فان المؤرخ الصيني Chuyu يذكر أن الصينيين عرفوا البوصلة عن طريق ملاحين أجانب هنود أو عرب ، وحيث أن المراجع الهندية لا تذكرها ، فاننا نرجح انها وصلت الصين مع الملاحين العرب الذين كانوا يجوبون الهند والصين في رحلاتهم البحرية وأن البوصلة تطوير عربي لفكرة الابرة المغناطيسية وامرها معروف .

ومن الجدير بالذكر ، ان بطرس فون ماريكو ، نقل مباشرة معلوماته عن المغناطيس من العرب ، وكذا كيفية استعمال البوصلة ، وأدخلها الى أوروبا ، ورسالته المسماة « Epistole Mayneie » مشهورة ومعروفة في الأوساط العلمية الأوروبية(١٦٩) .

أثر الفيزيائيين العرب في الترقي الأوربي :

يعد ابن الهيثم أعظم الفيزيائيين العرب بابتكاراته واختراعاته المتعددة ، ويبدو ان اهتمام علماء أوربا به في بدء نهضتهم يفوق اهتمامهم بأي عالم آخر ، ولعل سارطون أصاب كبد الحقيقة حين قرر « ان ابن الهيثم هو أعظم عالم ظهر عند العرب في علم الطبيعة ، بل أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى ، ومن علماء البصريات القليلين المشهورين في العالم كله » . ويبدو ان شهرة ابن الهيثم الأوربية ، انما تعود الى اطلاع الاوروبيين على كتابه « المناظر » منذ فترة مبكرة ، لا سيما وان كتابه « المناظر » يعتبر أهم كتاب ظهر في القرون الوسطى ، لانه استوفى العديد من البحوث الضوئية ، وعالج القوانين الأساسية للانعكاس والانكسار والانعطاف ، تلك القوانين التي تعرف خطأ بقوانين ديكارت بالاضافة الى المواضيع الأخرى ، مما حدا بـ H.Sutter ان يذكر بأن هذا الكتاب « المناظر » قد أثر تأثيرا عظيما في دراسة علم المناظر أثناء القرون الوسطى من عهد روجر بيكون الى عهد كبلر(١٧٠) .

كان العالم البولوني Witello أول من نشر كتابا في البصريات في أوربا سنة ١٢٧٠ م . . ، وضعه كما قال هو نفسه على أساس ما جاء في كتاب بطليموس القلوذي ، وكتاب آخر لمؤلف عرف في العالم اللاتيني باسم « AL-Hazen »(١٧١) وما هو الا الحسن بن الهيثم .

ان هذه الاشارة التي أوردها « witello » ، كانت بداية التوجه الأوربي نحو دراسة منجزات الحسن بن الهيثم ، ومن يومها ، وأبحاث الحسن بن الهيثم تجد مكانها في الدراسات الأوربية اما بصورة مشتهرة أو بالاقتباس الضمني ، فقد درس جون بيكام سنة ١٢٩١ م ما أسماه « علم المناظر » ولدى تدقيقه من قبل الدوميلي ، خلص الدوميلي بنتيجة مؤداها « ان مناظر J. peckam ليست الا اقتباسا ناقصا من كتاب ابن الهيثم »(١٧٢) . أما روجر بيكون فكان أكثر تيلا من

(١٦٩) الشمس : مقدمة لعلم الميكانيك ، ٣٦٠
(١٧٠) دي بور : تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ١٩٢
(١٧١) نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٢
(١٧٢) الدوميلي : العلم عند العرب ، ٢٠٨

سيقوه ، فاعترف بأيدي ابن الهيثم فيما توصل اليه من نتائج دراساته البصرية والضوئية سنة ١٢٩٤ م . وقد نشر ورنر سنة ١٥٧٢ ترجمة لاتينية كاملة لكتاب المناظر سماها « الذخيرة في الأوبتيكي للحسن » وقد بقيت الترجمة دستورا للبصريات حتى القرن السابع عشر(١٧٣) . وتواكبت الدراسات عن ابن الهيثم فيما بعد ، فقد اطلع E. Weidemann على مخطوط عربي عنوانه « تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر » لكمال الدين الفارسي ، فألف على أثرها zu ibn alhaitams optik ، وترجم كيفية الأظلال ، وفقرات من رسالته في المكان ، ومسألة ابن الهيثم العددية ، التي أشرنا اليها سابقا ، ورسالته في المرايا المحرقة بالدوائر(١٧٤)

ومن الدراسات الحديثة التي جعلت ابن الهيثم وكشوفه عناوينها الرئيسية نذكر :

H. J. Winter: The Optical researches of Ibn Al-Haitham in Contaurus, 31 (1954) p. 19-120

O. S. Marshall: Al-Hazen and the telescope, Astronomical society of the pacific, San Francisco, 1950

Donald, R. Hill: On the Construction of water Clocks, The Art Bulletin, 11, 1920,p.206-214 .

Library of the University of Leiden .

وقد ترجم جيرار دي كريمونات ١١٨٧ ، رسالة ابن الهيثم في الشفق ، ونشرت رسالته في الضوء في المجلة الأسيوية ـ الألمانية (z d m g) في العدد ٣٦ ، الصفحات (١٩٧ ـ ٢٣٧) ، نشرها المستشرق بارمان ، وفيها بحث عن ماهية الضوء وكيفية انتشاره والأجسام المشفة التي تنقله .(١٧٥)

وترجم Carl Shoy مقالة ابن الهيثم في الأثر الظاهر في وجه القمر ، وكان عنوان مقالته في سنة ١٩٢٥ .

Abhandlung des Shaicks... Ibn Al-Haitham: Uber die Natur der Spuren (Flecken), die man der Oberflache Des Mondes sieht, Hannover, 1925.

وأعادها عبد الحميد صبره فيما بعد في مجلة تاريخ العلوم ، ١٩٧٧ ، العدد الأول ونشر ألرمان آيل بحثا عن المقالة بالفرنسية بعد بعشر سنوات وعنوانه

La Selenographie d'Ibn Al-haitham (965-1039) das ses rapports avec la sciences, Bruxelles, 19-23, Juin, 1935,p. 76-81.(١٧٦)

ومع أن كاجوري يقر في كتابه history of physics ، بأن الحسن بن الهيثم كان أول طبيب وصف العين بصفة تشريحية ، فقد نسب اكتشاف الخزانة

(١٧٣) عمر القاضي : أثر الثقافة الاسلامية في الحضارة الغربية ، ٢١١ .
(١٧٤) المرجع السابق ، ٢١١ .
(١٧٥) المشرق : السنة الثانية ، العدد ٢٤ ، سنة ١٨٩٩ ، ١١٠٧ .
(١٧٦) عبد الحميد صبرة : مقالة الحسن بن الهيثم ، حلب ، المجلد الأول ، العدد الأول ، أيار سنة ١٩٧٧ ، عبد الرحمن بدوي : أبحاث المستشرقين في تاريخ العلوم ، عالم الفكر ، الكويت ، ١٩٧٨ ، ٢٩ .

المظلمة ذات الثقب الى باتيستا دلابورتا من خلال وصفه لها في كتابه Magia naturalis (السحر الطبيعي) . ونحن وان كنا نقدر له رأيه ، فنورد ان حنين بن اسحق في مقالاته العشر عن العين قد سبق ابن الهيثم في تشريح العين ، كما أن دلابورتا يثير في كتابه المذكور ، مسألة تأثره بما توصل اليه ابن الهيثم بهذا الصدد[177] ، ولعل ابن الهيثم قد فسر عمل الكيرا تفسيرا مقبولا من الناحية النظرية والعلمية .

ولم يقتصر اهتمام علماء أوربا على منجزات الحسن بن الهيثم دون غيره ، فقد ترجمت أيضا بصريات الكندى الى اللاتينية ، وكان لها أثر في أعمال روجر بيكون وغيره . اما الكندي ت ٢٥٢هـ/٨٨٦ م فينسب اليه أكثر من ٢٦٥ بحثا على شكل رسالة ومقالة وكتاب في الفيزياء والطقس والمد والجزر والبصريات والصوت والوسيقى ، بالاضافة الى ما كتبه في المطر والضباب والرياح وأسبابها واتجاهها والكثافة والثلج والبرد والصواعق والرعد واختلاف سرعة الضوء عن سرعة الصوت[178] . ومعظم هذه الأبحاث وجدت طريقها الى الترجمة المبكرة .

وأخيرا فان نظرية ابن سينا حول القصور الذاتي ، ظهرت لأول مرة بصورة واضحة في كتابات peter olivi ، وحرفت على يد جون بوريدان غير أن البحث الأوربي المتصف اعترف بما قدمه علماء الفيزياء العرب في مجالات الحركة والقوى والجاذبية ، مما يتعذر معه على أي باحث في تاريخ العلوم ان يتجاوزه .

أما ما قدمه العرب في علم الحيل وصنعة الأوالي وتأثر الأوربيين بها وعلى الأخص الروافع ، فهذا مما أشرنا اليه في القسم الأول من بحثنا هذا .

ان تاريخ العلوم حلقات متصلة ، وان تجاوز بعضها ، باعتبارها ليست ذات شأن يضعف حلقة النتاج الجديدة ، ولا يفسر بأية حال بنية الحلقة المتخلفة ، وعليها ، فان اعادة الربط والوصل بين الحلقات يصبح أمرا حتميا ، وهذا ما نحاول أن نجلوه ، فهلا تعاونا ؟!

***

(١٧٧) نظيف : الحسن بن الهيثم ، ١٨٠ ، عطار القاضي : أثر النهضة ، ٢١٢ .
(١٧٨) مرحبا : المرجع في تاريخ ، ٣٢٣ .

قراءة ثانية في معجم البلدان لياقوت الحموي

احسان صدقي العمد
وزارة الاعلام ، الكويت

(ملخص)

يعتبر معجم البلدان اهم مصنف في تراث الادب الجغرافي العربي ، ولقد كتب كثير من المستشرقين والباحثين حول هذا الكتاب ، حتى قال كراتشكوفسكي « لعله لم يتمتع جغرافي عربي بعدد من الدراسات مثل الذي افرد لياقوت[1] » . لكن الدراسات والابحاث السابقة كانت في معظمها تتناول ـ على اهميتها ـ موضوعا واحدا من الموضوعات العديدة التي اشار اليها ياقوت عرضا أثناء تصنيفه الكتاب ويحاول هذا البحث من خلال قراءة متأنية لمعجم ياقوت البلداني النفيس ، أن يقدم عرضا موضوعيا لهذا المعجم ، ويوضح منهج صاحبه في البحث العلمي ، كما يبرز بعض الملامح السياسية العامة التي يتضمنها معجم البلدان ، وبخاصة تلك المتعلقة بعصر ياقوت المضطرب الذي واكب المرحلة الاخيرة من الحروب الصليبية ، وطلائع الغزوة المغولية المدمرة للمشرق الاسلامي ، وكان للملامح الاقتصادية البارزة نصيب في هذا البحث ، وفي مقدمتها تطور الاقطاعات في الدولة الاسلامية ومصادر الثروة الاقتصادية والتجارية فيها ، اضافة الى بعض الظواهر الاجتماعية المتميزة التي رافقت تطور المجتمع العربي الاسلامي منذ الفترة السابقة على ظهور الاسلام وحتى عصر المؤلف الذي يغطي أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة ، أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر للميلاد . وعرض البحث كذلك الى بعض السمات الثقافية للحضارة الاسلامية كما أشار اليها ياقوت في معجمه علاوة على التعرف على مصادره ومراجعه التي استقى منها معلوماته ومواد معجمه . ولم يغفل البحث الاشارة الى الملامح الأثرية المتناثرة في ثنايا

(1) كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ١٩٦٢ ، ١/ ٣٣٧ .

الكتاب ، ناهيك عن الدراسات الرائدة التي كتبت عن معجم البلدان .

تمهيد :

الذين أشادوا بياقوت الحموي وآثاره العلمية والادبية كثيرون ، منهم المعاصرون له واللاحقون به والمتأخرون عليه والمحدثون . وهؤلاء وأولئك يغلب على بعضهم الاختصار والتعميم في معرض تقويمهم لتلك الآثار ، في حين يتسم تقويم البعض الآخر بالاضافة والتخصيص . فابن خلكان وهو من المعاصرين ، يصف ياقوت بأنه « كانت له همة عالية في تحصيل المعارف . . . وان الناس كانوا عقيب موته يثنون عليه ، ويذكرون فضله وأدبه »[٦] . والذهبي وهو من اللاحقين ينعته « بالأديب الاخباري صاحب التصانيف الادبية في التاريخ والانساب والبلدان وغير ذلك »[٧] . وهو عند ابن تغري بردي المتأخر عنه « صاحب التصانيف والخط »[٨] .

وكان المستشرقون السابقون من المحدثين هم الذين نوهوا بتراث ياقوت ونبهوا الى اهمية مؤلفاته وبخاصة معجم البلدان ، ويأتي في مقدمة هؤلاء المستشرق الروسي فرين (Frahn) الذي كان اول من كتب منهم عن شخص ياقوت وعرف به ، وتبعه زميله سنكوفسكي (Senkowski) الذي وصفه « بأنه كاتب مدقق مجتهد تدين له بحفظ آثار قيمة . . وقد أبدى الكثير من الغيرة والحماس في دراسة الاوضاع الجغرافية والاثنوغرافية والسياسية لعصره » وجاء بعده فستنفلد (Wustenfeld) الألماني فوصف معجم البلدان بأنه « أحسن مؤلف وضعه واحد من العرب الكبار »[٩] وقفى عليه الأسباني بونس بويجس (Pons Boigues) فذكر انه اوسع وأهم ، بل وأكاد أقول افضل مصنف من نوعه لمؤلف عربي للعصور الوسطى ، وأشار كراتشكوفسكي (Krachkovski) الى أن « أهمية معجم ياقوت تتجاوز بكثير حدود الأهداف الجغرافية الضيقة . . فهو جامع للجغرافيا في صورها الفلكية والوصفية واللغوية وللرحلات أيضا ، كما تنعكس فيه الجغرافيا التاريخية الى جانب الدين والحضارة والاثنولوجيا والأدب الشعبي والأدب الفني في القرون الستة الأولى للهجرة »[١٠] . وأشاد به المستشرق الهولندي كرامرز (Kramers) وبخاصة بالنسبة للاشارات التجارية التي وردت فيه ، واعتبره أثرا جليلا في هذا الميدان ، كما أكد أن علم التاريخ مدين لمعجم البلدان أكثر من علم الجغرافية[١١] . ونوه به المستشرق الفرنسي كارادوفو (Carra de Voux) حين قال « ان معجم البلدان من المؤلفات التي يحق للاسلام أن يفخر بها كل الفخر »[١٢] .

واولى عدد من الباحثين المحدثين اهتماما مماثلا بمعجم البلدان ، فاعتبره نفيس أحمد كتابا ذا أهمية فائقة ، اذ يصور العالم الاسلامي في الفترة السابقة على الخراب الذي اصاب ثقافته وثروته بأيدي المغول ويعتبر

---

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ١٩٤٩ ، ج٥ ، ص١٨٥ .
(٧) الذهبي : العبر ، ١٩٦٦ ، ٥/١٠٧ .
(٨) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٦/٢٥٧ .
(٩) فستنفلد : مقدمة معجم البلدان ، ١٨٦٦ ص٧ .
(١٠) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي ، ١٩٦٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ .
(١١) كرامرز : تراث الاسلام ط١ ، الترجمة العربية ، ١٩٧٢ ، ١٤٥ .
(١٢) صلاح الدين المنجد : اعلام التاريخ والجغرافيا ، ١٩٥٩ ، ١/٧٤ .

الجهد الذي قام به ياقوت دراسة متقنة لما سبق بين يديه من مؤلفات جغرافية ذات قيمة ، وهداه الى كتب متعددة لم يعد يتيسر الحصول عليها ، كما استعمل المنهج النقدي الذي يأخذ به الجغرافي الحديث »[٩] . وعده جرجي زيدان « خزانة علم وأدب وتاريخ وجغرافية »[١٠] . وهو عند حسين مؤنس « معجم جغرافي خالد وديوان الجغرافية العربية الاكبر ، وكنزها الذي يمثل صرحا من صروح العبقرية البشرية في كل العصور »[١١] . وعند عمر كحالة « اكمل مصنف للمعلومات الجغرافية الوصفية والفلكية واللغوية واخبار الرحالين التي جمعها السلف »[١٢] .

صاحب المعجم :

ونتعرف على صاحب معجم البلدان قبل قراءته ، فاذا به في أول نشأته غلام رومي صغير مجهول الاسم يقع في الأسر خلال الحروب المتصلة التي كانت تنشب بين المسلمين والروم في آسيا الصغرى ، ويدخل في ولاء تاجر حموي في بغداد يدعى عسكر بن أبي نصر بن ابراهيم الحموي فيسميه ياقوتا ، وينسبه اليه فيعرف منذ ذلك الوقت بياقوت الرومي الحموي . ويحدثنا ابن خلكان عن الحاق التاجر الحموي البغدادي لياقوت بأحد الكتّاب لينتفع به فيما بعد في ضبط تجارته ، فتعلم ياقوت من مولاه التجارة وأوفده في عدة رحلات تجارية زادت في خبرته ووسعت أفقه ، ومكنته من زيارة عدة بلدان أهمها منطقة الخليج العربي حيث زار البصرة وبعض موانيء الخليج وجزره ، وبخاصة جزيرة قيس التي كانت مركز النشاط التجاري بين الخليج والهند في القرن السادس الهجري ، القرن الثاني عشر الميلادي . وكان خلال رحلاته التي اتسعت فيما بعد لتشمل المناطق الواقعة بين مصر وما وراء النهر ، يجتمع بأهل الأدب والعلم ويطلع على ما لديهم من كتب ، حتى اذا بلغ العشرين من عمره انفصل عن مولاه لجفوة وقعت بينهما ، فاشتغل ياقوت بنسخ الكتب ليتكسّب منها ، وحصّل بالمطالعة فوائد زادت في ثقافته العلمية وحببت اليه الاشتغال في العلم ومكنته منه . وتعود العلاقات الودية بين ياقوت ومولاه ثانية بعد بضع سنين ، ويصبح شريكا لمولاه في التجارة بالمضاربة . وقد أعطاه الأخير مالا خرج به للتجارة في جزيرة قيس ، فلما عاد من رحلته تلك الى بغداد عام ٦٠٦هـ ، وجد مولاه عسكر بن ابي نصر قد توفي . فأعطى أولاده وزوجته من المال ما أرضاهم به ، وبقيت لديه بقية جعلها رأس مال ، واشتغل بعمل في التجارة بما فيها تجارة الكتب ، فكان يطوف بالبلاد ويتردد على الوراقين ودور الكتب ، ويتعرف على العلماء وكبار القوم الذين يرغبون في هذه البضاعة ، فعلت مكانته واشتهر أمره فسعى الى تغيير اسمه الى يعقوب تخلصا من اسم ياقوت الذي كان يطلق على الرقيق . لكن الناس لم يألفوا اسمه الجديد وظلوا يدعونه باسمه الأول ياقوت[١٣] .

وفي اثناء تجوال ياقوت في مدن خراسان أدركته جيوش التتار في مدينة مرو التي أحبها كثيرا وتمنى ان يقضي بقية حياته فيها ، فغادرها مكرها الى اربل ،

---

(٩) قيس احمد : الفكر الجغرافي في التراث الاسلامي ، ١٩٧٨، ١٠٣–١٠٧.
(١٠) زيدان : تاريخ آداب ، ١٩٦٧، ٣/ ٩٢.
(١١) مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ١٩٦٧، ٤١٨.
(١٢) كحالة : التاريخ والجغرافيا في العصور الاسلامية، ١٩٧٢، ٢٤٠.
(١٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ١٩٤٩، ٥/ ١٧٨–١٨٩.

ومنها الى الموصل بعد ان قاسى الكثير من المتاعب والاهوال وضيق ذات اليد . وفي الموصل استأنف ياقوت عمله في نسخ الكتب ، وقد نسخ منها الكثير ، اذ يحدثنا ابن الشعار المبارك بن ابي بكر بن حمدان الموصلي (ت٦٥٤هـ /١٢٥٦م) الذي التقى بياقوت في الموصل ، ان ياقوت « كتب بيده في مدة سبع سنين ثلاثمائة مجلد »(١٤) . واذا علمنا ان هذه الكمية نسخها ياقوت خلال الفترة (٥٩٦هـ ـ ٦٠٣هـ) ، امكننا القول انه نسخ بعد هذا التاريخ مئات اخرى من الكتب ، وهذه مهمة شاقة لم تكن تدر على صاحبها فيما يبدو الكثير ، وقد شكا ياقوت من ذلك وهو في الموصل حيث قال انه كان « يمارس حرفته ويبخته ... ويذيب نفسه في تحصيل الحراش هي لعمر الله الحراض من صحف يكتبها واوراق يستصحبها ، نصبه فيها طويل واستمتاعه بها قليل ثم الرحيل ... وهيهات مع حرفة الادب بلوغ وطر او ادراك أرب »(١٥) . وكتب ياقوت وهو في الموصل رسالة مؤثرة الى جمال الدين علي القفطي وزير الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب ، شرح له فيها ظروفه السيئة والتمس منه الوفادة عليه والاقامة في كنفه ، فلم يخيب القفطي رجاءه فاستقدمه الى حلب حيث استمر ياقوت فيها يطلع على الكتب وينسخها ويجتمع الى اهل العلم والادب . واكمل خلال تلك الفترة مسودة معجم البلدان الذي اهداه الى الوزير القفطي اعترافا بفضله عليه . ولم يلبث ياقوت ان توفي في حلب وهو في الخمسين من عمره (٥٧٤ ـ ٦٢٦هـ) (١١٧٨ ـ ١٢٢٩م) .

وقد صنف ياقوت بالاضافة الى معجم البلدان عدة كتب وصل الينا منها ارشاد الاريب الى معرفة الاديب المشهور بمعجم الادباء ، والمقتضب من كتاب جمهرة النسب ، والمشترك وضعا والمفترق صقعا . وفقد من مؤلفاته كتاب المبدأ والمآل في التاريخ ، وكتاب الدول ، ومجموع كلام ابي علي الفارسي ، وعنوان كتاب الاغاني ، وكتاب أخبار المتنبي ، وكتاب معجم الشعراء . وقد اتهم ابن الشعار الموصلي ياقوت بأنه « كان ضنينا بما يجمعه ، لا يحب اطلاع احد على ما يؤلف ، شديد الحرص عليه ، لايفيد لمخلوق فائدة البتة ، وكان ربما سئل عن شيء وهو به عارف ، لم يجب عنه ، شحا وجفاء طبع ، هكذا كانت شيمته مع الناس ، وخلف كتبا ، وأوصى أن توقف ببغداد بدرب دينار بمسجد الشريف الزيدي ، شاهدته بالموصل ، وهو كهل أشقر احمر اللون ، أزرق العينين ، وكانت بينه وبيني أنس صداقة وأنس تام . واقتضيته شيئا من شعره ، فأجابني الى ذلك ، وجعل يماطلني ويعدني هكذا مدة من الزمان ، ثم سافر الى الشام فما عدت رأيته بعد ذلك »(١٦) .

وقد يكون في هذا الاتهام بعض مبالغة المتعاصرين وتنافسهم ، الا ان ياقوت يشير الى شيء من ذلك في مقدمته لمعجم الأدباء التي يقول فيها : « فقد رأى جماعة من أهل العصر ، وقد نظمت لآلىء هذا الكتاب ، وأبرزته في أبهى من الحلل على ترائب الكعاب ، فاستحسنوه ، والتمسوه لينسخوه ، فوجدت في نفسي شحا عليهم وبخلا يعطف جيده عليهم ، لأنه مني بمنزلة الروح من جسد الجبان والسوداوين من العين والجنان ، مع كوني غير راض لنفسي بذلك المنع ، ولا حامد لها

---

(١٤) ابن الشعار : عقود الجمان ، خ استنبول ، ٩/ ١٧٠ .
(١٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ١٩٤٩ ، ٥/ ١٨٤ ، ١٨٦ .
(١٦) ابن الشعار : عقود الجمان ، ٩/ ١٧٠ ، ابن المستوفي ، تاريخ اربل ، قسم ٢ ، ٥٢٨ .

ذلك الصنع ، لكنها طبيعة عليها جُبلت ، وسجية اليها جُبرت . . وقد أقسمت ألا أسمع باعارته ، مادام في مسودته . . فحملهم منعي على احتذائه وتصنيف شرواه في استوائه وما أظنهم يشقون غباره ويحسنون ترتيبه وأسطاره ، وأن وقفت لنظر الجميع ، فستعرف الظالع من الضليع ، فاذا هذبته ونقحته وبيضته ، فتمتع به ، واذكرني في صالح دعائك »[17] .

وفي قول ياقوت تبرير معقول لهذا التصرف الذي أجبر عليه كما يقول خوفا من أن ينحلوا أقرانه حلوه مادام في مسودته ولم يخرج الى النور بعد ، فربما سطوا عليه أو انتحلوه وهو امر له في تاريخ الأدب العربي أشباه ونظائر . ولعل ذلك هو ما جعل ياقوت يقول في مقدمته لمعجم البلدان : « ولي على ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه الا يضيع نصبي ، ونَصْب نفسي له وتعبي »[18] .

معجم البلدان :

يقع معجم البلدان في خمسة مجلدات في طبعة بيروت المتداولة . وقد بدأ ياقوت في جمع مادته منذ شبابه واستمر في ذلك حتى قبيل وفاته ، حيث بادر في تسويد أوراقه خشية بغتة الموت قبل تبلج فجره على حد تعبيره . وكان يود لو يمتد به العمر فيضاعف حجمه ، ورفض بشدة اختصار الكتاب ، والاستجابة الى طلبات متكررة باختصاره . ويذكرنا ياقوت هنا بعزم شيخ المؤرخين الطبري على جعل تاريخه في ثلاثين ألف ورقة ، الا ان همة طلابه قصرت عن ذلك فاختصره في ثلاثة آلاف ورقة . ومع ان حجم معجم البلدان قريب من حجم تاريخ الطبري المختصر ، الا ان ياقوت تمسك برأيه في عدم اختصار كتابه حتى تكتمل الافادة منه[19] .

ويشتمل معجم البلدان على مقدمة وخمسة ابواب ، وهو بعامة ، يغطي اسماء البلدان والجبال والاودية والقيعان والقرى والمحال والاوطان والبحار والانهار وغيرها من المعالم البارزة في العالم المعروف آنذاك وبخاصة العالم الاسلامي . ونشير ابتداء الى الاهمية الكبيرة للمقدمة التي كتبها ياقوت لهذا المعجم ، لاحتوائها على نقاط رئيسية نجملها فيما يلي :

أولا : دواعي تأليف معجم البلدان وأسبابه ، وتتلخص في ما جاء في القرآن الكريم من حث للبشر على السير في الارض والتفكر في عاقبة من عمروها قبلهم ، وحاجة المسلمين الى معرفة أحوال أمصارهم وفتوحها ووصف جغرافيتها ، والالمام بأماكن الزيارة والحج والغزوات والمواقع التي يرد ذكرها في كتب السيرة والتاريخ والأدب[20] .

ثانيا : مصادر المعجم ، وتضم عرضا موجزا قيما لحركة التأليف الجغرافي لدى علماء العرب والمسلمين ، بالاضافة الى الفوائد التي حصل عليها من دواوين العرب والمحدثين وتواريخ اهل الادب ، ومن أفواه الرواة وتفاريق الكتب ، وما شاهده في اسفاره وحصّله في تطوافه وهو كما يقول اضعاف ذلك[21] .

(١٧) ياقوت : معجم الادباء ، القاهرة ، ١/٨٨ ، ٦٢-٦٣ ، القطاع : للفهم

(١٨) ياقوت : معجم البلدان ، ١٩٥٥ ، ١٣-١٤

(١٩) قارن : ياقوت ، معجم البلدان ، ١٩٥٥ القطاع : للفهم ، ١/١٣ ، البغدادي ، تاريخ بغداد ٩/١٦٣

(٢٠) معجم البلدان : ١٩٥٥ ، ١/١-١٠

(٢١) معجم البلدان : ١٩٥٥ ، ١/١١-١٢

ثالثا : منهج تأليف المعجم ، من حيث حرصه على توخي الدقة في الوصف ، وضبط الأسماء ومواقع الأمكنة بالنقط والتحريك ، والاشارة الى ذلك قولا وكتابة منعا للبس والتحريف والتصحيف ، اضافة الى ميله الى الشرح والتفصيل ونفوره من الاجتزاء والاختصار ، وتنبيه القارىء الى ما يرد في الكتاب أحيانا من أساطير ، تبرأ من صحتها ، وأوردها على علاتها حتى يقف الناس على ما قيل فيها ويكونوا على بينة منها ، وبذلك حفظ لنا معجم البلدان بعض ما كان لدى عدد من الأمم والشعوب من أساطير تهم الباحثين في علم الميثولوجيا .

رابعاً وأخيراً : تشمل المقدمة معلومات مفيدة بالنسبة لسيرة ياقوت الذاتية ورأيه في عدد من قضايا العلم والأدب ، والجهود الفنية التي بذلها طوال حياته لجمع مادة معجمه ليفيد به الناس ، عله يظفر منهم بالثناء والدعاء ، فينال ذكرا زكيا من المؤمنين ، ويحشر في زمرة الصالحين كما كان يأمل ويرجو[٣٢] .

وأما البابان الأول والثاني فتنحصر فوائدهما في الوقوف على تطور مفهوم الجغرافية الوصفية وعلاقة المعلومات الفلكية بها ، في حين افرد ياقوت الباب الثالث لشرح معاني المصطلحات الفنية الواردة في المعجم ، كالبريد والفرسخ والميل والاقليم والكورة والمخلاف والرستاق والطسوج ، والسكة بمعنى الطريق ، والمصر ، والقطيعة ، وغيرها ، سالكا في ذلك أحدث الطرق في التأليف والتصنيف . وخصص الباب الرابع لأقوال الفقهاء في أحكام أراضي الفيء والغنيمة ، وأدار الباب الخامس على جمل من أخبار البلدان . وكانت المقدمة والأبواب الخمسة الأولى من كتاب معجم البلدان والتي لا تتجاوز الاربعين صفحة ، موضوع رسالة دكتوراه لوديع جويدة ، نشرت في ليدن عام ١٩٥٩ بعنوان :

Jwaiden, Wadie: The Introductory Chapters of Yaqut's Mu'jam AL-Buldan, Leiden, 1959.

طريقة ياقوت في البحث العلمي :

التزم ياقوت طريقة علمية دقيقة في معجم البلدان تتمشى مع الروح الواضحة في مقدمته . وقد نوه بذلك عبد المعين الملوحي في بحثه عن « الفكر العلمي عند ياقوت الحموي »[٣٣] . وتبدأ هذه الطريقة بذكر الأسماء الواردة فيه على حروف المعجم ، مع التأكيد على كتابة شكل تلك الأسماء بالحروف خوفا من الالتباس والتصحيف . ثم يعرض بايجاز سبب التسمية واشتقاقها اللغوي ، ويحدد مواقع البلدان وظروف فتحها في كثير من الاحيان ذاكرا اي معلومات مفيدة عنها ، ويخلص الى التنويه بأسماء المشهورين المنسوبين اليها . فكان معجم البلدان بهذه الطريقة اشبه ما يكون بالموسوعة الجغرافية والتاريخية واللغوية والادبية ، وجاء هذا المعجم اوفى واشمل عمل عربي من نوعه بعد معجم ابي عبيد البكري (ت ٤٩٦هـ / ١١٠٢م) . ويبدو ان هذا الشكل الموسوعي في التاليف لم يرق لبعض المتأخرين على ياقوت مثل ابن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م) والسيوطي (ت ٩١١هـ /١٥٠٥م) على اساس ان المعجم الجغرافي

(٣٢) معجم البلدان : ١/١٢-١٣ .

(٣٣) مجلة مجمع دمشق : مجلد ٥٦/ ٣٥٢ .

« ينبغي ألا يخلط به غيره مما بُيِّنَ في علم آخر لئلا يتشعب الفهم ويطول الكلام فيؤدي الى الاملال ، وهذه حال معجم البلدان ، فان الغرض انما هو معرفة اسماء الاماكن والبقاع على الربع المسكون من الارض مما ورد به خبر او جاء في شعر ، وبيان جهته من الارض وموضعه من اصقاعها ، فما زاد على هذا القدر فهو فضل لا حاجة اليه »(٢٤) .

لكن هذا الخلط والتنويع اللاحق بالمعلومات الجغرافية المجردة الواردة في معجم بلدان ياقوت ، مهما كان الرأي فيه ، فانه يضفي على المعجم ترويحا وجمالا وفائدة يحس بها كل من أسعفه وقته بقراءة هذا المعجم المفيد ، كما أن ذلك يدل من ناحية اخرى على ثقافة ياقوت المتنوعة الواسعة ، والمامه الجيد بتواريخ البلدان واخبارها ، وتمكنه من لغة العرب وانسابهم ووقوفه على اشعارهم(٢٥) اضافة الى معرفته بالفارسية وشيء من اللاتينية ، كما يتضح ذلك من تفسيره الصحيح لاشتقاق اسماء بعض الاماكن والبلدان ، ويتجلى هذا على سبيل المثال في اثناء حديثه على طرابلس ، وطيزناباد ، وهمذان(٢٦) .

على ان اتباع حروف المعجم في ذكر المواد ، وان كان الغرض منه تسهيل طريق الفائدة من معجم البلدان من غير مشقة كما يقول صاحبه(٢٧) ، الا ان هذه الطريقة تفتت المعلومات البلدانية الخاصة بكل جزء من العالم الاسلامي ، كما هو الحال بالنسبة للتاريخ على السنين الذي يبعثر المادة التاريخية ولا يربط بين موضوعاتها . ولكن ليس بالامكان تجنب هذا التوزيع في المعاجم الأبجدية بعامة ما دمنا نروم الحصول على المعلومات المطلوبة بأقل جهد وأقصر وقت . ومع ذلك فقد بذل ياقوت جهدا رائعا ومشكورا في عرض مواد معجمه ، بهمة عالية وعمل دؤوب ، ويمكن للباحثين المحدثين ان يصوروا خارطة كبيرة لذلك العالم الذي وصفه ياقوت ، ويحاولوا جهدهم وضع اسماء البلدان والأماكن في مواقعها ، وبالتالي يسهل استخراج خارطة ممثلة لكل جزء من ذلك العالم ، كما فعل المستشرق الفرنسي باربييه دي مينار (Barbier de Meynard) الذي وضع كتابا في جغرافية وأدب فارس وماجاورها معتمدا على معجم البلدان لياقوت كمصدر رئيسي في دراسته ، كما افاد المستشرق الانجليزي جي لي سترينج (G. Le Strange) من هذا المعجم في وضع كتابه الشهير بلدان الخلافة الشرقية (Lands of Eastern Caliphate)(٢٨) .

وقد حرص ياقوت في اثناء اعداد وجمع مواد معجم البلدان أن يراعي أصولا علمية دقيقة تثير الدهشة والاعجاب وهي :

أولا : الاعتماد على مصادر موثوق بها ، وهي كثيرة جدا من بينها : فتوح البلدان للبلاذري ، وكتاب الفتوح لابي

---

(٢٤) ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ، ١٩٥٤ ، ١/ز
حاجي خليفة : كشف الظنون ، ١٩٤١ ، ٢/١٧٣٢
(٢٥) صلاح الدين المنجد : اعلام التاريخ والجغرافية ، ١٩٥٩ ، ١/٧٢-٧٥
(٢٦) ياقوت : معجم البلدان ٤/٢٥ ، ٥٤ ، ٤١٠
(٢٧) نفس المصدر ، ١/١٠
(٢٨) العقيقي : المستشرقون ، ١٩٦٤ ، ١/٢١٤ ، ٥١١

حذيفة اسحاق بن بشر القرشي ، وكتاب فتوح الشام لابي حذيفة بن معاذ بن جبل ، وكتاب خطط مصر للقضاعي ، وكتاب أبنية الأسماء (الأبنية) لابن القطاع وكتاب ما ائتلف واختلف من اسماء البقاع لنصر بن عبد الرحمن الاسكندري ، وكتاب اشتقاق البلدان أو أنساب البلدان لابن الكلبي ، وكتاب جزيرة العرب للحسن الهمداني ، وكتاب جبال تهامة لابي الاشعث الكندي ، وكتاب في مياه العرب للغندجاني ، بالاضافة الى العديد من كتب البلدان والمسالك والممالك التي الفها ابن خرداذبة وابن واضح ، والجيهاني وابن الفقيه والبلخي والاصطخري وابن حوقل والبشاري المقدسي والمهلبي وابن ابي عون البغدادي وغيرهم[29] . ويلاحظ ان جانبا من هذه المؤلفات قد فقد اوضاع ولم يصل الينا بعد ، مما يجعل لاقتباسات ياقوت عنها اهمية تراثية كبيرة ، ناهيك عما تدل عليه من سعة المصادر التي رجع اليها ياقوت في تأليف معجمه ، فكان لا ينفك منذ نشأته وحتى وفاته يطالع في امهات الكتب ويعكف على الافادة منها والاقتباس عنها ، وقد اكد ذلك معاصره ابن الشعار في ترجمته لياقوت فقال في ذلك « لما يعلم انه منذ كان عمره سبع سنين الى ان توفي ، ما خلت يده من كتاب يستفيد منه او يطالعه او يكتب منه شيئا أو ينسخه»[30] . وكان ياقوت أمينا في الاشارة الى اقتباسه عن هذه المصادر . ونقد في مقدمته من يختلس مؤلفات الآخرين ويدعيها مثل الحازمي محمد بن موسى (ت ٥٨٤هـ /١١٨٨م) الذي اخذ مادة كتاب ابي الفتح نصر بن عبد الرحمن الاسكندري (ت ٥٦١هـ /١١٦٦م) المعروف باسم « فيما ائتلف واختلف من اسماء البقاع » ، ونسبه لنفسه تحت عنوان « ما اتفق لفظه واختلف مسماه » والذي ما يزال مخطوطا[31] .

ويقول ياقوت في ذلك بعد أن اطلع على الكتابين « فوجدته ـ اي كتاب نصر ـ تأليف رجل ضابط قد انفذ في تحصيله عمرا وأحسن فيه عينا واثرا ، ووجدت الحازمي رحمه الله ، قد اختلسه وادعاه ، واستجهل الرواة فرواه ، فلما انا فكل ما نقلته من كتاب نصر ، فقد نسبته اليه واحلته عليه ، ولم أضع نصبه ، ولا اهملت ذكره وتعبه ، والله يثيبه ويرحمه »[32] . وقد ألف المستشرق الالماني هير (M. Heer) كتابا حول مصادر ياقوت نشر في ستراسبورغ ١٨٩٨[33] .

ثانيا : الافادة من المشاهدة والمعاينة الشخصية التي اكتسبها من تجارته وأسفاره التي امتدت من النيل الى جيحون كما ذكرنا . وقد اشار ياقوت الى ذلك اكثر من مرة كلما دعت المناسبة الى ذلك ، فتراه مثلا يسهب في الحديث عن خوارزم وخراسان وطبرستان ، ويقول عن الأخيرة « رأيت اطرافها وعاينت جبالها . . . ولابد من احتمالك لفصل فيه تطويل بالفائدة البارزة ، فهذا من عندنا مما استفدناه بالمشاهدة والمشافهة »[34] ، ويذكر انه زار البصرة ثماني مرات . ويقول في اثناء تعريفه

(٢٩) ياقوت : معجم البلدان ٣١/١٠
(٣٠) ابن المستوفي : تاريخ اربل ، ١٩٨٠ ، ٤٣٧/٢
(٣١) الزركلي : الاعلام ، ١٩٦٩ ، ٣٣٩/٧
(٣٢) ياقوت : معجم البلدان ، ١١
(٣٣) الطيلي : المستشرقون ، ٧١٩/٢
(٣٤) ياقوت : معجم البلدان ، ١٣/٤

بقرية بلجان بين البصرة وعبادان ، ورأيتها مرارا آخرها سنة ٥٨٨هـ أو بعدها »[٣٥] وكذلك الحال بالنسبة لجزيرة قيس في الخليج العربي[٣٦] ، والخليج العربي نفسه الذي يشير اليه قائلا : « وأما في زماننا هذا فاني سافرت في ذلك البحر وركبته عدة نوب »[٣٧] ، كما يشير الى زيارته للقدس واجتيازه ببلدة رأس العين في الجزيرة ، والى مشاهدته نهر جيحون وهو جامد في اعلاه وجار في اسفله[٣٨] ، وهكذا تتراوح عباراته في مثل هذه المواضع والبلدان بين شاهدتها ، وزرتها حينا ، واجتزت بها ، ورأيتها حينا ودخلتها حينا ، ورأيتها مرارا ، وهو امر يجعل من صاحب معجم البلدان شاهد عيان مستيرا ، ومصدرا موثوقا به في اي بحث عن المناطق والبلدان التي زارها ، ومن بينها منطقة الخليج في اواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة[٣٩] .

ثالثا : استقصاء سبل البحث العلمي الدقيق ، من ملاحظة وتحقيق واجتهاد واستقراء واستنباط ، فكان ياقوت لا يثبت القول المتداول في معظم الأحوال الا اذا اطمأنت اليه نفسه ، وقد اتبع ذلك في كثير من الاخبار كما هو الحال في حديثه عن سبب تسمية قريش بهذا الاسم ، فبعد أن يعدد الروايات المختلفة في هذا الشأن يقول : « والذي تركن اليه نفسي انه اما ان يكون من التجمع ، او تكون القبيلة سميت باسم رجل يقال له قريش بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة »[٤٠] . ويذهب مثل ذلك في تحقيقه لخبر فدك حيث يقول « وفي فدك اختلاف كثير في امره بعد النبي ﷺ وأبي بكر وآل رسول الله ﷺ ومن رواة خبرها من رواه بحسب الأهواء وشدة المراء ، وأصح ما ورد عندي في ذلك ما ذكره احمد بن يحيى بن جابر البلاذري في كتاب الفتوح له »[٤١] .

فاذا لم يجد ياقوت ما تطمئن اليه نفسه من صحيح الاخبار ، ظل يبحث ويستقصي حتى يصل الى ضالته فيهدأ ويطمئن . وقد حدث مثل ذلك معه عندما كان يحقق مواضع المحمدية حيث تبين له بعد البحث والتنقيب في المصادر وجود محلة بالري كانت تدعى ايضا المحمدية نسبة الى منشئها الخليفة العباسي محمد المهدي ، وقال بعد ان توصل الى هذه المعلومة « فلما وقفت على هذا فرج عني »[٤٢] . وواجه مثل هذا الموقف لدى جمعه بعض المواد الأخرى لمعجمه ، بل قام ياقوت بعد البحث والتحقيق بتصحيح أخطاء وقع فيها بعض من سبقه في هذا الميدان ، مثل ابن الكلبي والبلاذري وأبي حنيفة الدينوري والمسعودي وابن بطلان وغيرهم[٤٣] . وتوصل في نفس الوقت الى معلومات مفيدة عن طبرستان ، وبني النضير ، والبرامكة ، وآل الصفار ، ودارات العرب وعدد العشرات من أيامهم في أثناء حديثه عن مواقعها[٤٤] .

---

(٣٥) نفس المصدر : ١/ ٤٣٩ ، ٤٧٩
(٣٦) نفس المصدر : ٤/ ٤٢٢
(٣٧) نفس المصدر : ٥/ ٨
(٣٨) نفس المصدر : [illegible]
(٣٩) نفس المصدر : [illegible]
(٤٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٤/ ٣٣٩
(٤١) ياقوت : معجم البلدان ، ٤/ ٢٣٩ ، البلاذري : فتوح البلدان ، ٣٢ - ٣٨
(٤٢) نفس المصدر : ٥/ ٦٥
(٤٣) نفس المصدر : [illegible]
(٤٤) نفس المصدر : ٤/ ١٢ ، ١٦٠ ، ٢/ ٤٢٨

وكان ياقوت أيضا يراسل أهل الثقة من البلدان ويلتقي ببعضهم فيسألهم عن بلادهم ويستقصي منهم صحة الأخبار المنسوبة اليها ، مثل أصفهان ، وأندرين احدى قرى حلب ، ومرباط وهي ميناء ظفار(٤٥) . وتشبه اتصالاته بأهل الأمصار والبلدان التحقيقات الصحفية حول قضية او موضوع من الموضوعات ، فقد سمع عن عادة غريبة كانت تنسب الى أهل مرباط بشأن اختلاط الرجال بالنساء ليلا خارج المدينة للسمر والمجالسة والملاعبة . وقد شك ياقوت في صحة الخبر ، فاجتمع برجل منهم أديب عاقل وجرى بينهما الحديث على النحو التالي :

ياقوت : « بلغني عنكم شيء أنكرته ولا أعرف صحته ؟

الرجل : لعلك تعني السمر .

ياقوت : ما اردت غيره .

الرجل : الذي بلغك من ذلك صحيح ، وبالله أقسم انه لقبيح ، ولكن عليه نشأنا ، وله مذ خلقنا ألفنا ، ولو استطعنا ان نزيله لأزلناه ، ولو قدرنا لغيرناه ، ولكن لا سبيل الى ذلك مع مر السنين واستمرار العادة »(٤٦) .

أما الاستقراء والاستنتاج ، فقد توفرا لياقوت بما كان يتمتع به من حضور ذهن وذكاء متقد ، فتراه يحقق بالاستقراء والاستنتاج مثلا اسم موقع ضيزناباذ بين الكوفة والقادسية ، ويتوصل بذلك الى الحقيقة ، يقول ياقوت في ذلك « والذي يظهر لي من اشتقاقه وسبب تسميته بهذا الاسم ، أنه من عمارة الضيزن . . . . ، وأن الفرس ليس في كلامهم الضاد ، فتكلموا بها بالطاء فغلب عليها ، ومعناه عمارة الضيزن ، لأن اباذ العمارة . ثم وقفت بعدما كتبت هذا بمدة على كتاب الفتوح للبلاذري فوجدت فيه : قالوا كانت طيزناباذ تدعى ضيزناباذ ، نسبت الى ضيزن بن معاوية بن عمرو بن العبيد السليحي . . . . ، فاستحسنت لنفسي صدق ما ظهر لي فتركته على ما كان »(٤٧) . ومثل ذلك يقول عن المدائن « والذي عندي ان هذا الموضع كان مسكن الملوك من الاكاسرة الساسانية وغيرهم ، فكان كل واحد منهم اذا ملك بنى لنفسه مدينة الى جنب التي قبلها وسميت مدائن »(٤٨) .

وأما الاجتهاد ، فكان ياقوت يلجأ اليه اذا لم يسعفه الدليل القائم أو النص المقنع ، كما فعل في محاولته معرفة اشتقاق اسم « منة » اذ يقول : « لم اقف على احد يقول في اشتقاقه ، وأنا اقول فيه ما يسنح لي ، فان وافق الصواب فهو بتوفيق الله ، والا فالمجتهد مصيب ، فلعله يكون من المنا وهو القدر ، وكأنهم اجروه مجرى ما يعقل »(٤٩) .

واذا اعيت ياقوت كل هذه الوسائل والطرق في الوصول الى الحقيقة المنشودة ، اعترف بذلك اعتراف العالم الواثق من نفسه ، وأشار الى ذلك بعبارات واضحة كقوله عند الحديث عن غزوة ذي قرد : « وهذا

---

(٤٥) نفس المصدر : ١/٢٠٣ ، ٢٦١ ، ٢/٤٢١ ، ٥/٩٣ ، ٢١٠
(٤٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٥/٩٧
(٤٧) نفس المصدر : ٤/٥٤ ، ٥٥
البلاذري : فتوح البلدان ، ١٩٥٧ ، القسم الثاني ، ٣٤٨
(٤٨) ياقوت : معجم البلدان ، ٥/٧٥
(٤٩) نفس المصدر : ٥/٢٠٤

الباب فيه نظر الى الآن لم يتحقق فيه شيء »(٤٠) ، كما ذكر مثل ذلك عن مدينة « جوسف » من أعمال قوهستان عندما قال : « لم أحقق ضبطها ، ووجدته في بعض الكتب هكذا »(٤١) . ويقول عن دير الوليد « بالشام لا ادري أين هو »(٤٢) ، وعن الصين يقول ياقوت « وهذا شيء من اخبار الصين ، ذكرته كما وجدته ، لا أضمن صحته ، فان كان صحيحا فقد ظفرت بالغرض ، وان كان كذبا فتعرف ما يقول الناس »(٤٣) .

بل لقد بلغت الروح العلمية الحقيقية عند ياقوت درجة جعلته يطلب من قارئه ان يتحقق من ضبط بعض الأسماء التي يخالجه شك فيها ، أو عجز هو نفسه عن تحقيقها ، وأجاز للباحث أن يضبط ما يحتاج الى ذلك على عادة بعض مشاهير العلماء المسلمين . وأشار ياقوت الى مثل ذلك اكثر من مرة في معجم البلدان ، وبمناسبة عند ذكره التقسيمات الادارية البيزنطية ، إذ قال : « وفي اخبار الروم اسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها فليحذر الناظر في كتابي هذا ، ومن كان عنده أهلية ومعرفة وتأمل شيئا منها بحثا ، فقد اذنت له في اصلاحه مأجورا »(٤٤) وكرر مثل هذا القول في اسم موقع « الفزاري » حيث قال : « وأنا متشك فيه ، هل أوله فاء أم قاف ، ولعله منسوب الى رجل من بني فزارة وقد أذنت لمن حققه أن يصلحه ويقره »(٤٥) . وقال في تحقيقه اسم « عزور » : « انا اخشى ان يكون صحف بالذي قبله (اي عازورا) فتبحث عنه »(٤٦) . ومثل ذلك قال في « قاشره » من أقاليم لبله في الأندلس « ووجدت في نسخة اخرى من كتاب خطط الأندلس قاشرة فتحقق »(٤٧) . وفي ذلك اكثر من دليل على دقة ياقوت العلمية وتواضعه .

رابعا : التحفظ عند ذكر الأساطير التي نقلها من مصادره ، وقد أعرض عن ذكر الكثير منها خوف التهمة ، ولكونها تخالف المألوف من العادة ، وقد استبعد ياقوت وقوعها ، وتبرأ من عهدتها وقد معظمها مؤكدا « أن الملة الاسلامية تجل عن مثل هذه الخرافات » وكان الورع منعه لايرادها حتى يعرف القارىء « ما قيل في ذلك حقا كان او باطلا »(٤٨) .

ويضيق المجال هنا عن ذكر امثال تلك الاساطير التي تصلح لبحث مستقل . ويمكن للباحث في هذا المجال الرجوع الى المواد العديدة في معجم البلدان وردت فيها أساطير ، وكان لياقوت موقفه المذكور منها ، ومن بين تلك المواد : بغداد ، بلط ، الشحر ، مدينة النحاس ، النيل ، وأزوار وهمذان . وتشكل هذه الأساطير وما فيها من خيال واهداف ومعان ، مصدرا غنيا لمواد البحث في الميثولوجيا عند العرب والمسلمين(٤٩) .

---

(٤٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٢/ ٢٤٩ .
(٤١) نفس المصدر : ٢/ ١٨٨ .
(٤٢) نفس المصدر : ٢/ ٥٤٠ .
(٤٣) نفس المصدر : ٣/ ٤٤٠ ، الوعي ، الفكر العلمي عند ياقوت ، مجلة مجمع دمشق ٦٠/ ٣١٤ .
(٤٤) نفس المصدر : ٣/ ٩٨ .
(٤٥) نفس المصدر : ٤/ ٣١٦ .
(٤٦) نفس المصدر : ٤/ ١١٩ .
(٤٧) نفس المصدر : ٤/ ٢٩٧ .
(٤٨) نفس المصدر : ٤/ ٢٤ ، ٤٦٠ .
(٤٩) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٤٦٠ ، ٢/ ٤٥٤ ، ٣/ ٣٣٢ ، ٥/ ٨٠ ، ٣٣٩ ، ٣٢٧ ، ٤١٣ .

الدقة تغلب على معلومات معجم البلدان :

أدى اتباع ياقوت هذا المنهج العلمي في تأليف معجمه الى الحصول على معلومات دقيقة كثيرة عن العالم المعروف الى زمانه وبخاصة العالم الاسلامي ، وكانت هذه المعلومات أكثر دقة بالنسبة للاقطار التي زارها وتردد عليها ، كمصر وبلاد الشام والعراق ومنطقة الخليج العربي وبلدان المشرق الاسلامي . وأمثال تلك المعلومات تضيق عن الحصر ، نذكر منها على سبيل المثال ، وصفه الدقيق لشبه جزيرة العرب ، وبحر الروم (المتوسط) وبحر الهند (المحيط الهندي) والخليج العربي ، وبحر الخزر ، وتتبعه لمجرى كل من دجلة والنيل ، وظاهرة قصر الليل صيفا في بلاد البلغار التي ذكرها المسعودي بقوله : « والليل في بلادهم في غاية القصر في الصيف ، حتى ان احدهم لا يفرغ من طبخه حتى يأتيه الصبح » وأشار ضمنا الى تأثير ارتفاع الجبال على التنفس ، وذلك حين روى ان « بالتبت جبل يقال له جبل السم ، اذا مر به احد تضيق نفسه ، فمنهم من يموت ، ومنهم من يثقل لسانه » وغير ذلك من المواد التي تزخر بالمعلومات والفوائد[٦٠] .

على ان دقة ياقوت في معجم البلدان لم تكن كاملة تامة في جميع المواضع والأماكن التي تحدث عنها ، وقد أشار هو الى ذلك ونبه عليه كما ذكرنا ، وقد حاول عبد المؤمن بن عبدالحق البغدادي (ت٧٣٩هـ /١٣٣٨م) حين اختصر معجم البلدان في كتابه « مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع » حاول ان يصحح ما يحتاج الى تصحيح في بعض مواد المعجم . يقول ابن عبد الحق البغدادي في ذلك : « وربما زدته بيانا في بعض المواضع ، أو أصلحت ما تنبهت عليه من خلل وجدته في ذكره لبعض الاماكن ، اما لأنه (ياقوت) نقله عن غيره على ذلك الوجه وهو خطأ او ظنه كذلك ، وقد عرفته انا وحققته وسألت عنه اهل المعرفة من سكانه ومجاوريه والمسافرين الى جهته ، وقد يكون مما رأيته في سفري واجتزت به ، وخاصة في أعمال بغداد ، فانه كثير الخطأ فيها ، ولم أقبل منه شرطه الذي شرطه ، ولا التزمت حظره الذي حظره في اختصاره وتغييره فان ذلك شرط لا يلزم ، ومظنة الفائدة تقدم »[٦١] . لكن الاخير لا يشير في كتابه صراحة الى المواد والمواضع التي اصلحها ، مما جعل محقق مراصد الاطلاع على محمد البجاوي يشير الى ذلك في العديد من الهوامش ، وذلك في اي حال لا ينقص من قيمة معجم البلدان وأمانة صاحبه العلمية وبذله غاية جهده في الضبط والتحقيق .

ويكفي ياقوت فضلا انه استطاع بخبرته والمعيه وثقافته الموسوعية ، ان يعطي من خلال معجم البلدان صورة صادقة الى حد كبير عن حضارة عالم الاسلام في عصره ، وان يصف بطريق غير مباشر جانبا من أحوال ذلك العالم السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وهذا امر يستحق التوقف عنده والتأمل فيه ، لما له من اهمية في التعرف على حضارة العالم الاسلامي قبيل الغزو المغولي المدمر لاقاليم المشرق الاسلامية التي لم تكد تسير في طريقها الطويل للتخلص من الصليبيين حتى دهمها الغزو المغولي الذي كان ياقوت احد الضحايا الذين شردوا وأوذوا بسببه .

الملامح السياسية في معجم البلدان :

تتمثل أول الملامح التي تواجه من يقرأ معجم البلدان

---

(٦٠) نفس المصدر : (١/٢٠٢٨٥/١١ ، المسعودي : مروج الذهب ، ١٩٦٤ ، ١/٢٠٣

(٦١) ابن عبد الحق البغدادي : مراصد الاطلاع ، ١/ج

قراءة متأنية ، في الاحساس الواقعي الذي يحسه بوحدة العالم الاسلامي الكبيرة وذلك برغم وجود الكيانات السياسية المتعددة التي كانت قائمة فيه ، والأخطار الداخلية والخارجية التي تهدده فترة من الزمن ، وهنا يعتبر ياقوت الحموي شاهد عيان واعيا لآثار المرحلة الاخيرة من الغزوة الصليبية الطارئة ، التي استهدفت قلب العالم الاسلامي ، وبخاصة مصر وبلاد الشام . وهذا الوصف السياسي الذي قدمه ياقوت عرضا وهو يتحدث عن الأماكن والبلدان يرقى الى مرتبة الوثائق والمذكرات الشخصية المعاصرة لتلك الأحوال ، مما يجعلها تمثل أهمية بالغة لدى المؤرخين للأسباب التالية :

أولا : لأن المعلومات التي ذكرها ياقوت في معجم البلدان يعتبر جانب منها وثائق معاصرة كتبها عالم مسلم مستنير شاهد الاحداث السياسية وانفعل بها وسجل ملاحظاته عنها . من ذلك مثلا ان ياقوت يحمل خوارزم شاه محمد ابن تكش بن ارسلان (ت٦١٧هـ / ١٢٢٠م) المسئولية المباشرة في اضعاف قوة المسلمين في مقاطعات ما وراء النهر ، وذلك عن طريق قضائه على مملكة الخطا المتاخمة للتتار في الشرق . وكان عدد كبير من سلاطين تلك المقاطعات المسلمين يحتفظون في ظل مملكة الخطا بمراكزهم وقوتهم النسبية التي تحفظ حدودهم مع التتار . وقد ادى قضاء خوارزم شاه على تلك الدولة وهؤلاء السلاطين الى حدوث فراغ عسكري وسياسي وسكاني لم يملأ بقوة عسكرية منظمة ودائمة . مما أدى الى انهيار الخطوط الدفاعية الأولى من ديار المسلمين في تلك المناطق التي وقعت فريسة سهلة بأيدي التتار الذين ما لبثوا ان اجتاحوها وأهلكوا الحرث والنسل في ربوعها ، فكانت اولى المناطق الاسلامية التي هب عليها اعصار التتار المدمر . وقد اشار ياقوت الى هذه الحقيقة بجلاء وبصيرة نافذة كما يتمثل ذلك في قوله : « وأتت على تلك النواحي حوادث الدهر وصروف الزمان ، أولا من خوارزم شاه محمد بن تكش بن ألب أرسلان . . . فانه لما ملك ما وراء النهر واباد ملك الخانية ، وكانوا جماعة قد حفظ كل واحد منهم طرفه ، فلما لم يبق منهم احد ، عجز عن حفظ تلك البلاد بسعة مملكتها ، فخرب بيده اكثر تلك الثغور وانهبها عساكره . فجلا اهلها عنها وفارقوها . . . فبقيت تلك الجنان خاوية على عروشها . . ثم تبع ذلك حوادث سنة ٦١٦هـ التي لم يجر منذ قامت السماوات والأرض مثلها ، وهو ورود التتر خذلهم الله من أرض الصين ، فأهلكوا من بقي هنالك متماسكا فيمن اهلكوا من غيرهم ، فلم يبق من تلك الجنان النضرة والقصور المشرفة غير حيطان مهدومة وآثار من أمم معدومة » . ويذكر ياقوت ان اجتياح خوارزم شاه لمناطق ما وراء النهر تم في حدود سنة ٦٠٠هـ « فطرد عنها الخطا وقتل ملوك ما وراء النهر المعروفين بالخانية (اي الخانات) »[٦٢] . ويصف النكبة التي حلت بالمسلمين هناك وصفا صادقا مؤثرا رثى فيه حالهم بقوله : « وقد كان اهل تلك البلاد اهل دين متين وصلاح مبين ، ونسك وعبادة ، والاسلام فيهم غض المجنى حلو المنى ، يحفظون حدوده ويلتزمون شروطه ، ولم تظهر فيهم بدعة استحقوا بها العذاب والجلاء ولكن الله يفعل بعباده ما يشاء »[٦٣] . وياقوت هنا يحمل خوارزم شاه كل المسئولية في هذه الاحداث التي انتهت بتقدم التتار نحو بلاد المشرق الاسلامي ، ولا يشير الى الدافع الذي

(٦٢) ياقوت : معجم البلدان ، ١٣٩/١ ، ٤٢/٢٠
(٦٣) نفس المصدر : ١٣٩/١

جعله يقدم على محاربة الخطا وهو ما ذكره بعض المؤرخين من ان سلطان سمرقند وبخارى المسلم هو الذي حرضه على ذلك لتخليص المسلمين في تلك المناطق من التبعية لزعماء مملكة الخطا الكفار[٦٤] .

ثانيا : رسم ياقوت أمثال هذه الصورة المؤثرة بروحه الاسلامية الصادقة ، كلما ذكر مكانا وقعت فيه احداث مماثلة ، وبذلك ربط ربطا متلازما بين المكان والانسان وحوادث الزمان ، مما يجعل مؤلَّف معجم البلدان يدخل ايضا في نطاق التصانيف الخاصة بالجغرافية التاريخية . وكثرت اشارات ياقوت المماثلة في اثناء تعريفه ببلدان الاندلس وما سقط منها في أيدي الاسبان ، وما كانوا يفعلونه بأسرى المسلمين[٦٥] . كما أورد تفاصيل أوفى عن الغزوات التي كان الروم يشنونها على الثغور الاسلامية في شمال بلاد الشام ، وسقوط طرسوس وحلب في أيديهم . وانتقد ياقوت موقف الامراء المسلمين المتخاذل في تلك الوقت ، وعدم توحيد جهودهم لجهاد الروم ووقف غاراتهم على ديار المسلمين التي وقعت كما يقول « وسيف الدولة ـ الحمداني ـ حي يرزق بميافارقين ، والملوك كل واحد مشغول بمحاربة جاره من المسلمين ، وعطلوا هذا الفرض (الجهاد) ، ونعوذ بالله من الخيبة والخذلان ، ونسأله الكفاية من عنده »[٦٦] .

ثالثا : وياقوت حين يتحدث عن الثغور والرباطات والمسالح في البلدان الواقعة على الحدود الشمالية للدولة الاسلامية ، يقدم معلومات قيمة عن نظام الدفاع عن تلك الحدود زمن الدولة العباسية ، وما بذله خلفاء تلك الدولة من جهود لتعزيز تلك الحدود ، وهو امر يتمشى مع السياسة الدفاعية التي تبنتها دولة بني العباس وعدم اخذها بسياسة الفتوح الأموية ، التي كانت ترى في الفتوح (الهجوم) خير وسيلة للدفاع عن حدود الدولة وهيبتها . ويزودنا ياقوت بأرقام عن عدد المسالح والحصون الدفاعية المنتشرة من خراسان الى الديلم ، والتي بلغت احدى وثلاثين مسلحة ، ترابط في كل منها حامية يتراوح عدد افراد كل منها ما بين مائتين الى الفي مقاتل »[٦٧] .

ولا ينسى ياقوت ان يذكر الرباطات التي كانت منتشرة على طول حدود العالم الاسلامي البرية والبحرية ، وبخاصة في مناطق ما وراء النهر . فكان في منطقة بيكند بين جيحون وبخارى « من الرباطات ما لا اعلم بلدمن البلدان مما وراء النهر اكثر منها ، بلغني ان عددها نحو الف رباط » . وكذلك الحال بالنسبة لبذخشان في شمال اقليم طخارستان المتاخم لبلاد الترك ، وباب الأبواب شمال ارمينية على بحر الخزر ، ودمياط وطرابلس (الغرب) ومنستير على الساحل الشرقي لتونس . ونقل ياقوت عن البكري وصفا لبلدة المنستير يفيد بأن هذه البلدة كانت تضم رباطات وحصونا للرجال والنساء ، اهمها القصر الكبير الذي يقال ان الذي بناه بالمنستير هرثمة ابن اعين القائد العباسي عام ١٨٠هـ /٧٩٦م . ويصف ياقوت هذا القصر بقوله : « وهو حصن كبير عال متقن العمل ، وفي الطبقة الثانية مسجد لا يخلو من شيخ خير فاضل يكون مدار القوم عليه ، وفيه جماعة من الصالحين

(٦٤) ابن الاثير : الكامل ، ١٩٦٦، ١٢/ ٢٥٩ ، سعيد السروري : قيل البستان الجامع لجميع تواريخ اهل الزمان ، مخطوطة سراي احمد الثالث ، ٢٩٥٩/ ٤٠١ب
(٦٥) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٢٧٠
(٦٦) نفس المصدر : ٤/ ٢٩
(٦٧) نفس المصدر : ١/ ٣٠-٣١ ، ٤/ ٤٣ ، ٥٥ ، ٣٥٨

المرابطين ، وقد حبسوا أنفسهم فيه منفردين عن الأهل والوطن ، وفي قبلته حصن فسيح مزار للنساء المرابطات . . . واهل القيروان يتبرعون بحمل الاموال اليهم والصدقات ، وكانت هذه الرباطات تقوم في المدن الاسلامية الواقعة في الثغور الممتدة على طول حدود بلاد المسلمين ، مثل فرغانة واسفيجاب وفاراب وبيكند وطرسوس والمواني، الاسلامية المطلة على بحر الروم (المتوسط) . ويشير ياقوت الى ان الثغور الهامة كمدينة اسفيجاب والبلدان المجاورة لها ، كانت معفاة من ضريبة الخراج ، « وذلك ليصرف اهلها خراجها في ثمن السلاح والمعونة على المقام بتلك الارض ، وكذلك كان ما يصاقبها من المدن »[٦٨] .

وفي هذا الميدان ، اي نظام الدفاع عن الدولة الاسلامية ، يمدنا ياقوت بمعلومات قيمة اخرى عن المراقب والمناظر والمنارات التي كانت منتشرة على طول الخطوط الامامية للحدود من جهة ، وبين هذه الخطوط ومركز القيادة من جهة اخرى ، كما كان الحال في باب الأبواب وقزوين ، حيث يذكر ان المناظر كانت تصل بين قزوين وواسط مقر اقامة الحجاج بن يوسف الثقفي والي بني امية على العراق والمشرق في اواخر القرن الأول الهجري « فاذا دهم اهل قزوين دخنت المناظر ان كان نهاراً ، وان كان ليلاً اشعلوا نيراناً فتجرد الخيل اليهم » . فكانت تلك المناظر والمنارات بمثابة وسائل انذار مبكر وسريع للمسلمين من الأخطار التي قد تدهمهم[٦٩] .

رابعا : اشاد ياقوت في اثناء حديثه عن البلدان بالعدل واعتبره سببا في عمرانها وخصبها وازدهارها ، كما ندد بالظلم لكونه يؤذن بخراب البلاد وجلاء أهلها عنها . فهو على سبيل المثال يصف العدل والاستقرار والرخاء الاقتصادي في مناطق ما وراء النهر قبل اجتياح التتار لها ، اذ كان في منطقة خرشنان كما يقول : « عدل حقيقي وبقية من عدل العمرين ، واهلها صالحون وعلى الخير مجبولون » . وكان فيها مياه كثيرة وبساتين وارز وزبيب يحمل الى البلدان . ومثل ذلك يقول عن اسفيجاب والطالقان ومرو وساوه التي كانت من اعمر بلاد الله وانزهها واوسعها خصبا وشجرا ومياها ورياضا مزدهرة ، كما كانت المياه الجارية في بيوت بعضها والمكتبات كثيرة فيها . وكان ياقوت في هذا الوصف شاهد عيان لأنه أمضى بضع سنوات يتنقل في ربوعها[٧٠] .

وفي المقابل يصف ياقوت الخراب الذي حل في بعض البلاد الاسلامية الأخرى ، نتيجة لتكالب العمال والولاة على جمع المال من الرعية ، وعدم انفاقه على شؤون الولاية ، اضافة الى غياب السلطان العادل ، وكثرة الحروب والجيوش التي كانت تعيث في تلك البلاد فسادا . وقد اشار ياقوت الى خراب كرمان وعزا ذلك « الى اختلاف الأيدي عليها وجور السلطان بها ، لأنها منذ زمن طويل خلت من سلطان يقيم بها ، انما يتولاها الولاة فيجمعون اموالها ويحملونها الى خراسان . وكل ناحية انفقت اموالها في غيرها خربت ، انما تعمر البلدان بسكنى السلطان » وتحدث ياقوت ايضا عن خراب عدد من قرى العراق ، وارجع السبب في ذلك الى « مداومة العساكر السلجوقية ومرورهم عليها وتنزولهم فيها ، علاوة على « اختلاف السلاطين وقتال بعضهم بعضا ،

---

(٦٨) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ١٣٩، ٣٠٣، ٣١٠، ٤٣٣، ٢/ ٤٧٣، ٥/ ٢٠٩، ٢١٠.
(٦٩) نفس المصدر : ١/ ٢٨١ ، ٣٠٣ ، ٥/ ٣٥٠ .
(٧٠) نفس المصدر : ١/ ١٧٩ ، ٤/ ٣ ، ٥/ ١١٤ .

اذ كان كل من ملك لا يحتفل بالعمارة ، اذ كان قصده ان يحصل ويسطير ، فجلا عنه اهله واستمر خرابه »[٧١] .

وهذا تعليل واقعي ودقيق يدل على نفاذ بصيرة ياقوت ، وصدق وصفه والمامه بأصول قيام الدول وزوال العمران . وقد خطا هذا التفكير العلمي في تعليل الظواهر التاريخية خطوات اوسع فيما بعد على يد ابن خلدون في مقدمته الشهيرة ، والمقريزي في كتابه المعروف باغاثة الامة بكشف الغمة . بل ان هذا الموقف هو الذي جعل ياقوت يورد نقدا لظلم بني العباس في عهد ابي جعفر المنصور وخيبة الناس في آمالهم التي كانت معقودة على العباسيين لدى تسلمهم الحكم بعد بني امية[٧٢] .

خامسا : يتضمن معجم البلدان عدة اشارات تاريخية تلقي الضوء على بعض الأحداث السياسية التي شهدتها الدولة الاسلامية خلال القرون الستة الأولى من الهجرة ، ومن بينها احداث ادت الى توتر العلاقات بين المسلمين والروم في عهد الرسول ﷺ ، اذ اقدم الروم على قتل فروة بن عمرو الجذامي احد عمال الروم العرب في جنوب بلاد الشام بسبب اسلامه[٧٣] . فاذا اضفنا الى هذه الحادثة ما ذكره الواقدي من اقدام شرحبيل بن عمرو الغساني على قتل مبعوث الرسول الكريم الى ملك بصري[٧٤] ، ادركنا السبب المباشر في غزوتي مؤتة وتبوك اللتين مهدتا لفتح بلاد الشام بهدف ازالة الحواجز المادية التي كانت تحول دون الانتشار السلمي لدعوة الاسلام في تلك الربوع . وقد سلك ابو بكر نفس الاسلوب قبل ان يوجه الجيوش الى بلاد الشام ، فذكر ياقوت ان ابا بكر اوفد عبادة بن الصامت الى ملك الروم يدعوه الى الاسلام او الحرب[٧٥] . وهناك اشارات اوردها ياقوت توضح الطريق الذي سلكه خالد بن الوليد في مسيره من العراق الى الشام لنجدة المسلمين في اليرموك . وتدلنا هذه الاشارات بما لا يدع مجالا للشك على ان خالدا سلك الطريق الشمالي الغربي من عين التمر الى دومة القريبة منها ، والتي سميت دومة الجندل . ومنها الى النقيرة فقراقر وفسوى بهراء فالكواثل . ومن هذا المكان اتجه خالد بن الوليد جنوبا بغرب الى حاضر طيء جنوب حلب فأرك فتدمر فالقريتين (حوارين) فمرج راهط فبصري فاليرموك . ويمكن الرجوع بسهولة الى هذه المواد في معجم البلدان للوقوف على هذه الاشارات التي استقاها ياقوت من كتاب الفتوح لاسحاق بن بشر[٧٦] .

واذا كان معجم البلدان يضم الكثير من الاخبار عن التتار كما ذكرنا ، فان الكتاب يشتمل ايضا على معلومات قيمة عن الصليبيين الفرنجة وتصدي المسلمين لهم في بلاد الشام ومصر ، ويمكن للباحث ان يجد هذه المعلومات في اثناء تعريف ياقوت بالعديد من مدن الشام ومصر ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر ، بيت

(٧١) ياقوت : معجم البلدان ، ١/٤٩٦ ، ١/١٤٤ ، ٥/٣٢٥
(٧٢) نفس المصدر : ١/٣٢١
(٧٣) ابن هشام : السيرة ، ٤/ ياقوت : معجم البلدان ، ٤/١٣١ ، ١٣٢
(٧٤) الواقدي : المغازي ، ٢/٧٥٥
(٧٥) ياقوت : معجم البلدان ، ٣/٩١
(٧٦) ياقوت : معجم البلدان ، [illegible] ، احمد كمال : الطريق الى دمشق ٢٤٠ ـ ٢٦٢

المقدس ، وحطين ، والرملة ، وعسقلان وعكة ، وبيروت ، وصور ، وانطاكية ، وحصن الاكراد ، ودمياط ، والمنصورة(٧٧) . وكانت هذه المعلومات هي الاساس الذي استقى منه هارتفيج ديرنبورغ (Hartwig Derenbourg) مادة بحثه « الصليبيون في معجم ياقوت » المنشور في الكتاب الصادر في باريس ١٨٩٥ بمناسبة الذكرى المئوية لمدرسة اللغات الشرقية الحية(٧٨) .

Les Croisades d'apres le dictionnaire de Yakout

الملامح الاقتصادية :

الاقطاعات : ويتضمن معجم البلدان كذلك اشارات اقتصادية كثيرة وقيمة من بينها اقطاعات الارضين العديدة التي منحت لبعض الاشخاص من قبل الرسول ﷺ والخلفاء من بعده ، سواء في عهد الخلفاء الراشدين او دولة بني امية او دولة بني العباس . ويمكن تتبع هذه الاقطاعات ومعرفة الاشخاص الذين منحوها في مواضع متعددة من المعجم . فبالنسبة للاقطاعات في عهد الرسول ﷺ نجدها في معجم البلدان في ثنايا المواد : حبرون ، الشقراء ، ظبية ، عقيق ، الغميم ، الغورة ، فخ ، قبالس ، القبلية ، قطيعة ، مدينة ، ينبع . ونجد الاقطاعات التي منحت في عهد الخلفاء الراشدين وبخاصة في حكم عثمان بن عفان في المواد التالية في المعجم : سبيبيا ، شاطيء عثمان ، شط ، عرصة ، نشاستج نهر الاساورة ، نهر ام حبيب ، نهر ام عبدالله . كما نتعرف على بعض الاقطاعات التي منحت في الدولة الاموية في المواد : سلوقية ، عرب ، مرقية ، نهر العلاء ، مدينة ، مرغاب ، نهر بن عمير . واقطاعات بعض الخلفاء العباسيين في المواد : بغداد راوذ ، سوق العطش ، سويقة خالد ، صف ، قطيعة اسحاق ، قطيعة ام جعفر ، مرعش ، نهر ابي الخصيب .

ويوضح ياقوت المفهوم الاسلامي لهذه القطائع التي كانت تتم في الصوافي والاراضي البور التي لا مالك لها ، ويقول في ذلك ان « القطائع من السلطان انما تجوز في عفو البلاد التي لا ملك لأحد عليها ، ولا عمارة توجب ملكا لاحد »(٧٩) . وهذه ناحية اقتصادية هامة لان الخلفاء والولاة كانوا بوجه عام لا يتصرفون بممتلكات الغير ، واذا ارادوا امتلاك ارض مملوكة لاجل المنفعة العامة كبناء مسجد او مدينة ، عمدوا الى شراء الاراضي من اصحابها ، كما فعل الحجاج بن يوسف الثقفي في واسط ، والمهدي في المحمدية بالري ، والمعتصم في سر من رأى .(٨٠) وهذه على كل حال قاعدة اسلامية سنها الرسول ﷺ لأول مرة عندما ابتاع ارض مسجده في المدينة ورفض امتلاك الارض دون التعويض على اصحابها .(٨١) وهنا يعتبر معجم بلدان ياقوت مصدرا هاما ورئيسيا في دراسة تطور الاقطاعات في الدولة الاسلامية .

وفي اثناء حديث ياقوت عن البلدان والارضين يذكر شيئا عن عمارتها واستصلاحها ويورد احيانا بعض

---

(٧٧) نفس المصدر : ١/٢٦٩ ، ٥٢٥ ، ٢/٢٦٣ ، ٣٧١ ، ٤٢٣ ، ٤٩٨ ، ٣/١٦ ، ٣٠ ، ٤٢٢ ، ٤/١٣٢ ، ١٤١ ، ٥/١٧١ ، ٢١٤ .

(٧٨) Centenaire de L'Ecole des Langues Orientales Vivantes, 1795 — 1895, Paris PP. 71 — 92

(٧٩) ياقوت : معجم البلدان ، ٤/٣٧٩ .

(٨٠) نفس المصدر : ٣/٧٧١ ، ٥/١٦٨ ، ٣٤٨ .

(٨١) البلاذري : فتوح البلدان ، ٥ ، السمهوري : وفاء الوفا ، ١/٣٢٩-٣٢٠ .

المعلومات القيمة عن الثروات الزراعية والحيوانية والمعدنية فيها ، اضافة الى ذكر بعض الصناعات مما يدخل في التاريخ الاقتصادي للدولة الاسلامية . فقد كان في مدينة شيراز مثلا شجرة تفاح نصفها حلو ونصفها الاخر حامض ، كما كان في بلدة شنتره بالاندلس تفاح محيط الواحدة منه ثلاثة اشبار . واشتهرت تاهرت بالسفرجل ، وتبريز بالمشمش ، وغزة ورفح بالجميز ، وفلسطين وتونس بالزيتون .[82] وفي مصر كمثال آخر ، يشير ياقوت الى اهمية مياه النيل ، وقياس مستوى ارتفاعها للزراعة ، ويورد كشفا بأسماء مائة وستة وثلاثين نوعا من الطيور كانت توجد في منطقة بحيرة تنيس ، بالاضافة الى ثمانين نوعا من الاسماك فيها[83] . وكان في بلدة البشمور قرب دمياط خراف ممتازة وصفها ياقوت بانها « ليس في الدنيا مثلها عظما وحسنا وعظم اليّات »[84] .

المعادن : اما المعادن فاهمها الذهب في غانة وما وراء النهر . واشار الى معادن اخرى مثل الفضة والحديد والنحاس والزئبق والتوتياء والنوشادر والفيروزج ، والبلازورد ومعدن البلخش المقاوم للياقوت ، والنفط والفحم الحجري وحجر المس والملح . ويلاحظ ان معظم هذه المعادن كان موجودا بكثرة في الاقاليم الشرقية من الدولة الاسلامية ، مثل كرمان وخراسان واقصى بلاد الشام[85] . وكان بعض سكان شمال العراق يستخدمون القار في رصف الارض (الاسفلت) حيث كان القير « يطرح في القدور ويحل له ، ويطرح عليه بمقدار يعرفونه ويوقد تحته حتى يذوب ويختلط بالرمل ، وهم يحركونه تحريكا ، فاذا بلغ حد استحكامه صب على وجه الارض »[86] . وذكر ياقوت ايضا التضخم المالي في بلدة بنجهير بنواحي بلخ نتيجة لكثرة وجود الفضة فيها ، ويصف بدقة طريقة استخراج هذا المعدن من جبل الفضة القريب منها والتنافس الشديد على استخراجه فيقول : « والدراهم بها واسعة كثيرة ، لا يكاد احدهم يشتري شيئا ولو جزرة بأقل من درهم صحيح ، والفضة في اعلى جبل مشرف على البلدة والسوق ، والجبل كالغربال من كثرة الحفر ، وانما يتبعون عروقها يجدونها تدلهم على انها تفضي الى الجواهر ، وهم اذا وجدوا عرقا حفروا ابدا الى ان يصيروا الى الفضة ، فيتفق ان لرجل منهم في الحفر ثلاثمائة الف درهم او زائدا او ناقصا ، فربما صادف ما يستغني به هو وعقبه ، وربما حصل له مقدار نفقته ، وربما افتقر واقصر لغلبة الماء وغير ذلك وربما يتبع الرجل عرقا ويتبع آخر شعبة اخرى منه بعينه ، فيأخذان جميعا في الحفر ، والعادة عندهم ان من سبق فاعترض صاحبه فقد استحق ذلك العرق وما يفضي اليه ، فهم يعملون عند هذه السابقة عملا لا تعمله الشياطين ، فاذا سبق احد الرجلين ذهبت نفقة الآخر هدرا ، وان استويا اشتركا ، وهم يحفرون ابدا ما حييت السرج واتقدت المصابيح ، فاذا صاروا في البعد الى موضع لا يحيى السراج لم يتقدموا ، ومن تقدم مات في اسرع وقت ، فالرجل منهم يصبح غنيا ويمسي فقيرا ، او يصبح فقيرا ويمسي غنيا »[87] . وفي هذا النص الطريف وصف

(82) ياقوت : معجم البلدان ، ٢/٨ ، ١٣ ، ٥٨ ، ٢١٣ ، ٣٠٢ ، ٣/٣٢ ، ٥٥ ، ٣٦٩ ، ٣٨١ ، ٤/١٢٣
(83) نفس المصدر : ٢/٥٢ - ٥٤
(84) نفس المصدر : ١/٤٢٨
(85) نفس المصدر : ١/١٧٢ ، ٣٢٨ ، ٤٩٨ ، ٢/١٢ ، ٤١٩ ، ٤٧١ ، ٣/٥١ ، ٤/٥٩٤
(86) ياقوت : معجم البلدان ، ١/٥٢٩
(87) نفس المصدر : ١/٤٩٨ ، ٤٩٩

دقيق للعمل في مناجم الفضة في تلك المنطقة ، والظروف الصعبة والخطرة التي تكتنف هذا العمل ، وبخاصة عندما يوغل العمال في الحفر وتقل نسبة الاوكسجين اللازم للتنفس مما تتعذر معه الاضاءة او الحياة . وهنا ايضا تفسير اقتصادي لغلبة العملة الفضية في المناطق الشرقية للدولة الاسلامية ، ومن قبل عرفت هذه الظاهرة ايضا في الدولة الساسانية[٨٨] .

الصناعة : اما الصناعات التي اشتهرت بها بعض البلدان فقد اشار ياقوت الى الكثير منها في معجمه . وذكر على سبيل المثال صناعة المنسوجات في تنيس والحرير في قابس ، والفخار والسمك المملح في تونس ، كما نوه بما كانت تلقاه صناعة الكاغد اي ورق الكتابة من اهتمام بسبب انتشار العلم والحاجة الى تدوينه . ويحدثنا ياقوت عن وجود دور لصناعة الكاغد في بغداد والحربا بأذربيجان وشاطبة بالاندلس واشتهرت المناطق الشرقية للجزيرة العربية المطلة على الخليج العربي بالبرود القطرية والرماح الخطية والنبل الفائقة الصنعة[٨٩] .

التجارة : وهناك اشارات بالغة الأهمية بالنسبة للتجارة الداخلية بين أقطار الدولة الاسلامية ، حيث كانت القوافل التجارية تعبر البلاد في طرق معروفة مطورة تنتشر عليها المدن والقرى والمراكز التجارية والخانات[٩٠] . ويُلاحظ ان مصلحة هذه المدن والقرى الواقعة على الطريق البرية كانت تقتضي توفير الأمن لقوافل التجارة ، فاذا لم يتوفر الأمن عند احداها لسبب أو لآخر تحولت القوافل عنها الى غيرها ، وفقدت تلك المراكز التجارية اهميتها وازدهارها وربما خربت كما حدث لبلدة برقعيد من أعمال الموصل . وكانت هذه البلدة ممراً للقوافل بين الموصل ونصيبين ، فلما زاد تعرض لصوصها للقوافل التجارية بعد القرن الرابع الهجري ، « وكثرت منهم هذه الأفاعيل تجنبتهم القوافل ، وجعلوا طريقهم على باشزي وانتقلت الأسواق الى باشزي » وأصبحت برقعيد بلدة « خراباً صغيرة حقيرة » على حد وصف ياقوت[٩١] . وكان أعراب بادية الشام يتقاضون من تجار منطقة الجزيرة الفراتية مالا مقابل خفارتهم القوافل التجارية ، اذ كان في الرصافة كما يقول ياقوت نقلاً عن الأصمعي « جماعة من أهل الثروة ، لأنهم بين تاجر يسافر الى أقطار البلاد ، وبين مقيم فيها يعامل العرب[٩٢] » . وقد وصف ابن بطوطة في رحلته بعض الطرق التجارية التي كانت قوافل الحجاج تسلكها أيضاً . ونوه بالمحطات والمراكز التجارية التي كانت تقوم على تلك الطرق داخل جزيرة العرب ، وكيف كان بعض امراء العرب يشتركون مع رجال قبائلهم في المحافظة على هذه القوافل التي كانت تحمل التجارات اضافة الى الحجاج ، فكان عرب تلك المراكز « يتعيشون مع الحاج في البيع والتجارة[٩٣] » . وياقوت وهو يشير الى التجارة الداخلية لا يغفل عن ذكر المراحل والمسافات بين البلدان ، وحجارة الأميال المنصوبة عليها لمعرفة تلك المسافات ، والتي كان العابرون يكتبون على بعضها أحياناً أبياتاً من شعر الحنين الى الأوطان[٩٤] .

---

(٨٨) نفس المصدر : ٣٥٤/١
(٨٩) نفس المصدر : ٤١/٩ ، ٦١ ، ٢٢ ، ٣٥٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٧ ، ٤٢٢ ، ٣٠٩/٣ ، ٣٢٣/٤ ، ٣٨٦
(٩٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٥٤/٣ ، ٧١
(٩١) نفس المصدر : ٣٨٧/١
(٩٢) نفس المصدر : ٤٧/٣ ، ٤٨
(٩٣) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ١٩٦٠ ، ٢٢٧
(٩٤) ياقوت : معجم البلدان ، ١٦٦/١ ، ١٥٥/٥

أما التجارة الخارجية فكانت تتم بطريقين بري وبحري ، يتصل تجار المسلمين بواسطتها بغيرهم من تجار الأمم والشعوب ، ومن بينها الخزر فكان التجار من أراضي المسلمين يجتازون بمراكبهم بحر قزوين الى ارض الخزر ويجلبون من هناك الوبر الكثير (٩٥) . وقد ذكر ابن فضلان في رسالته ان التجار المسلمين استطاعوا ان يكوّنوا جالية كبيرة في مدينة اتل عاصمة الخزر حيث كان « على المسلمين رجل من غلمان الملك ، يقال له خز ، وهو مسلم ، واحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين اليهم في التجارات مردودة الى ذلك الغلام المسلم ، لا ينظر في أمورهم ، ولا يقضي بينهم غيره (٩٦) » . كما تردد التجار المسلمون على بلاد الصقالبة القريبة من بلاد الخزر ، وكانوا يقصدون تلك البلاد بانواع التجارات (٩٧) . أما التجارة مع الروس فكانت تتم على نهر اتل حيث كان الروسية يوافون بتجاراتهم هناك ، ومنها الجواري والسمور والجلود ، ويلتقون مع التجار المسلمين لتبادل العروض التجارية (٩٨) .

كما يشير ياقوت الى التجارة البحرية بين الموانىء الاسلامية في بحر الروم (المتوسط) كنقل الأخشاب من شمال بلاد الشام الى مصر (٩٩) . ويورد تفصيلات وافية عن التجارة البحرية المزدهرة في موانيء وجزر الخليج العربي ، والدور الذي كانت تقوم به هذه المراكز في نقل تجارة الهند الى البلدان المجاورة . وقد لعب البصرة وسيراف ولار وصحار وهرمز وجزيرة قيس والبحرين دوراً هاماً في هذه التجارة ، التي شارك فيها ياقوت نفسه فزار البصرة من أجل ذلك ثماني مرات ، وتردد على موانيء وجزر الخليج « عدة نوب » على حد تعبيره (١٠٠) . وعبر الخليج كانت المراكب التجارية تتوجه الى السند والهند وسيلان والصين ، كما وصلت تجارة المسلمين البحرية الى موانيء ظفار وحضرموت واليمن والبحر الأحمر وسواحل أفريقيا الشرقية حتى سفاله وجزيرة القمر وهي مدغشقر حسب رأي ياقوت (١٠١) . وتطلق التسمية اليوم على أربع جزر بين مدغشقر والساحل الشرقي لأفريقيا بما يعرف بدولة جزر القمر . ويعتبر معجم البلدان مصدراً أساسياً لمن أراد التوسع في البحث عن النشاط التجاري لهذه المنطقة حتى القرن السابع الهجري ، القرن الثالث عشر الميلادي .

وياقوت وهو يورد هذه الاشارات التجارية يذكر ان بعض الجواسيس كانوا ينتحلون صفة التجار للوقوف على الأخبار (١٠٢) ، كما يقدم الينا فكرة عن اسعار بعض المواد الغذائية في بغداد زمن المنصور ، وفي واسط في عهد ياقوت نفسه ، وبذلك يعطي معلومات مفيدة عن تطور الأسعار خلال فترة تصل الى حوالي خمسة قرون (١٠٣) . ويشير عرضاً كذلك الى ضريبة الحوانيت

(٩٥) نفس المصدر : ١/ ٨٨ ، ٢٤٢
(٩٦) رسالة ابن فضلان : ١٩٧٨ ، ١٤٤
(٩٧) ياقوت : معجم البلدان ، ٣/ ١١٦
(٩٨) نفس المصدر : ٣/ ٧٩ ، ٨٠ ، ٤/ ٥٨٨
(٩٩) نفس المصدر : ٢/ ٦٨
(١٠٠) نفس المصدر : ١/ ٥٣٩ ، ٥/ ٨
(١٠١) نفس المصدر : ١/ ٣٤٣ ، ٥٩١ ، ٣/ ٤٤٠
(١٠٢) نفس المصدر : ٤/ ٤٤٤
(١٠٣) نفس المصدر : ١/ ٥٤٩ ، ٥/ ٣٧٠

التي فرضت في بغداد زمن المهدي ، ومقدار خراج عدد من الأقاليم والولايات . ويبدو أن الأرقام التي أوردها ياقوت قريبة من الصحة ، من ذلك ما ذكره عن جملة خراج فارس مع الأهواز في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي وهو ثمانية عشر ألف درهم . والراجح ان هذا الرقم هو الذي وهم فيه معظم المؤرخين وسحبوه على خراج العراق كله زمن الحجاج متهمين اياه بكسر خراج هذا الأقليم (١٠٤) .

الملامح الاجتماعية :

وتصادفنا في معجم البلدان عدة ملامح اجتماعية هامة منها :

أولاً : ظاهرة الهجرة السكانية من جزيرة العرب ، على اعتبار ان هذه المنطقة كانت في معظم الحقب التاريخية منطقة طرد بشرى الى المناطق الأكثر خصباً . وتعود هذه الظاهرة الى ما قبل الاسلام ، فيذكر ياقوت نقلاً عن رسالة ابي دلف مسعر بن مهلهل ان الأخير صادف وهو في طريقه الى الصين بموضع القليب « بوادي عرب ممن تخلف من تبع لما غزا بلاد الصين ، لهم مصايف ومشات في مياه ورمال ، يتكلمون بالعربية القديمة لا يعرفون غيرها ويكتبون بالحميرية ولا يعرفون قلمنا ، يعبدون الأصنام ، وملكهم من أهل بيت منهم (١٠٥) . ويتحدث ياقوت أيضاً عن هجرة أخرى لبني معد من تهامة الى اليمن ومشارف بلاد الشام قائلاً : « وكان بنو معد نزولاً بتهامة وما والاها من البلاد ففرقتهم حروب وقعت بينهم ، فخرجوا يطلبون المتسع والريف مما يليهم من بلاد اليمن ومشارف أرض الشام (١٠٦) » . وكان ابو سفيان زعيم قريش يملك قرية تقتس من قرى البلقاء بأرض الشام ثم انتقلت الى ولده بعده (١٠٧) . وكانت القبائل العربية في شمال الجزيرة تغتنم فرصة حروب ملوك الطوائف في فارس وتغير على السواد مما جعل الفرس يحفرون خندق سابور الممتد من هيت الى كاظمة والخليج لصد تلك الغارات (١٠٨) .

وفي هذا المجال يورد ياقوت معلومات قيمة عن تحرك القبائل العربية داخل الجزيرة العربية وخارجها قبل الاسلام ، ويعدد مواطن عدد بارز منها فقد ذكر تفرق قضاعة والازد ومواطن بني سعد وبني اسد وطيء وكلب وتغلب وبكر وربيعة ومضر . واستشهد بأبيات شعر للاخنس بن شهاب التغلبي تعتبر بمثابة وثيقة تاريخية حول منازل بعض قبائل العرب وهي لكيز وبكر وتميم وغسان وبهراء وإياد وتغلب . يقول الشاعر :

لكل أناس من معد عمارة
عروض اليها يلجأون وجانب
لكيز لها البحران والسيف دونها
وان يأتها بأس من الهند كارب
تطاير عن اعجاز حوش كأنها
جهام هراق ماءه فهو آيب

(١٠٤) ياقوت : معجم البلدان ، ٢٢٧/٤ ، ٤٤٨ ، احسان العمد : الحجاج ، ٤٦٠ ، ٤٦٨ .
(١٠٥) ياقوت : معجم البلدان ، ٤٤٣/٣ ، ٤٤٤ .
(١٠٦) نفس المصدر : ٣٦٩/٢ ، ٣١/٥ .
(١٠٧) نفس المصدر : ٣٠٠/٥ .
(١٠٨) نفس المصدر : ٣٣٠/٢ ، ٣٩٢ .

ويكسر لها بين العراق وان تخف
يحل دونها من في اليمامة حاجب
وصارت تميم بين قف ورملة
لها من جبال منتأى ومذاهب
وكلب لها خبت فرملة عالج
الى الحرة الرجلاء حيث تحارب
وغسان جن غيرهم في بيوتهم
تجالد عنها حسر وكتائب
وبهراء حي قد علمنا مكانهم
لهم شرك حول الرصافة لا حب
وغارت اياد في السواد ووطنها
بزاريق عجم تبتغي من تضارب
أرى كل قوم قاربوا قيد فحلهم
ونحن خلعنا قيده فهو سارب[١٠٩]

وهكذا جاء الاسلام وتكونت نواة دولته في المدينة اتخذت ظاهرة الهجرة السكانية من الجزيرة العربية ابعاداً أوسع . فقد أدى ذلك داخل الجزيرة نفسها الى حدوث تركز سكاني في منطقة المدينة مركز الدولة الجديدة ، وتدفق الأعراب على المدينة للافادة من العطاء[١١٠] ، ولم تلبث اعداد غفيرة من القبائل العربية ان خرجت ضمن جيوش الفتح خارج الجزيرة العربية حيث فتحت الأقطار وأقامت في الأمصار والثغور وفي بيوت المدن المفتوحة كما حدث في خراسان[١١١] . ولقد أسهم عرب الفتوح في نشر الاسلام والعربية في البلاد المفتوحة . ويحدثنا ياقوت نقلاً عن نصر الاسكندري صاحب كتاب فيما ائتلف واختلف من اسماء البقاع عن وجود بقايا أولئك العرب الأوائل حتى القرن السادس الهجري في بلدة ألبان بين غزنة وكابل ، حيث كانوا ما يزالون على مذهب الخوارج « الا انهم مذعنون للسلطان ، وفيهم تجار ومياسير وعلماء وادباء يخالطون ملوك الهند والسند الذين يقربون منهم ، ولكل واحد من رؤسائهم اسم بالعربية واسم بالهندية[١١٢] » . وامثال هؤلاء كما يقول ابن خلدون « التقتهم الدولة الاسلامية العربية ، فنيا منهم الثغور القصية ، واكلتهم الأقطار المتباعدة ، واستلحمتهم الوقائع المذكورة ، فلم يبق منهم ... الا سمع من ذكر اسمائهم في انساب اعقاب متفرقين في الامصار ... فتقطّعوا في البلاد[١١٣] » .

وفي أخبار البعثة الاستطلاعية التي ارسلها الخليفة العباسي الواثق بالله لاستطلاع أحوال السد الذي بناه ذو القرنين ليحول دون تقدم يأجوج ومأجوج ، ذكر ياقوت ان البعثة اجتازت حصوناً فيها « قوم يتكلمون بالعربية والفارسية هم مسلمون يقرأون القرآن ولهم مساجد وكتاتيب ، الا انهم كانوا منقطعين عن العالم الاسلامي ولا يعرفون شيئاً من أخباره[١١٤] » .

ثانياً : وكان العرب لدى انتقالهم الى الامصار والأقاليم يسمون بعض مدنها باسماء المدن والمواطن التي قدموا منها حنها تذكرهم بمواطنهم الأولى وتهدىء من شوقهم وحنينهم اليها ، وهي ظاهرة انسانية مألوفة ومعروفة . فقد بنى أهل دومة الجندل بلدة أخرى بهذا

(١١٠) نفس المصدر : ٤/٣٥١

(١١١) نفس المصدر : ١/٣٨٨ ، ٣/٣٠٥

(١١٢) نفس المصدر : ١/٢٤٤

(١١٣) ابن خلدون : العبر ، ١٩٥٩ ، ٦/٦

(١١٤) ياقوت : معجم البلدان ، ٣/١٩٩

الاسم قرب عين التمر في العراق ، وشهدت الاندلس بالأندلس وملكوها سموا عدة مدن بها بأسماء مدن الشام ، مثل حمص وتدمر (١١٥) » .

ثالثاً : وياقوت حين يتحدث عن بعض المدن كالبصرة والكوفة يورد بيانات عمرانية هامة عن مساحتها وسكانها . فالبصرة كانت تضم في عهد زياد بن ابيه ثمانين الف مقاتل من العرب وعيالاتهم مائة وعشرون الفاً ، اي ان عدد سكانها حوالي منتصف القرن الأول الهجري مائتا الف نسمة . واضيف الى هؤلاء في زمن عبد الله بن زياد الفان من البخارية المقاتلين الذين نقلهم من بخاري وفرض لهم العطاء وبنى لهم سكة في البصرة عرفت بالبخارية نسبة لهم . فقد تطورت البصرة زمن خالد ابن عبد الله القسري في اوائل القرن الثاني للهجرة فاصبح طولها فرسخين وعرضها فرسخين الا انقا (١١٦) . وشهدت الكوفة تطوراً مماثلاً ، فبعد ان كانت تضم على عهد زياد بن ابيه حوالي مائة واربعين الف نسمة بينهم ستون الفاً مقاتل من العرب ، أصبحت حوالي عام ٢٦٤هـ/٨٧٧م تمتد ستة عشر ميلاً وثلثي ميل . وكان فيها ذلك الوقت خمسون الف دار للعرب من ربيعة ومضر ، واربعة وعشرون الف دار لسائر العرب ، وستة آلاف دار لليمن . فاذا قدرنا ان كل دار يسكنها ستة اشخاص في المتوسط ، وجدنا ان سكان الكوفة في القرن الثالث الهجري كانوا يبلغون حوالي نصف مليون نسمة (١١٧) . ولم يُغفل ياقوت وهو

يذكر عَرَضاً اخبار العرب المهاجرة الى الامصار ، اخبار الشعوب والفئات الاخرى التي كانت تعيش داخل الدولة الاسلامية ، او تلك التي تقيم على تخومها كالنبط والاساورة والبخارية والأكراد والديلم والجراجمة والترك والصقالبة والخزر والروس والبلغار والزنج واهل الصين ، فاورد وصفاً لجانب من عاداتهم وتقاليدهم . واعتمد في هذه الأخبار على رسائل الرحالة والمبعوثين كما هو الحال بالنسبة لرسالة ابن فضلان في وصف الرحلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة ، التي وضعها اوائل القرن الرابع الهجري ، ورسالة ابي دلف في ذكر ما شاهده وراه في بلاد الترك والصين والهند (١١٨) .

رابعاً : ظاهرة الحنين الى الأوطان :

وطبيعي ان يواكب هجرة العرب الى الأقاليم والامصار حنين قوي الى مواطنها ومرابعها الأولى . وقد وجدت هذه الظاهرة الانسانية بين جميع المهاجرين العرب ابتداء من المسلمين الاوائل الذين هاجروا من مكة الى المدينة ، وانتهاء باولئك الذين رابطوا في الامصار والثغور . ويزخر معجم البلدان بالاشعار الرقيقة المرهفة التي تعبر بصدق عن هذه المشاعر . ويبدو ان ياقوت اقتبس هذه الأشعار من كتاب الحنين الى الأوطان للقاضي الشريف ابي طاهر الحلبي (١١٩) .

ونورد فيما يلي طائفة من هذه الأشعار على سبيل المثال لا الحصر نظراً للاهمية الاجتماعية لها ، وباعتبارها وثائق تدل على هذه الظاهرة بوضوح .

---

(١١٥) نفس المصدر : ١١٤/١ ، ٣٠٤/٢ ، ١٠٧/٥

(١١٦) نفس المصدر : ٣٩٦/١ ، ٤٣١

(١١٧) نفس المصدر : ٤٣٤/١ ، ٤٩٢/٤

(١١٨) ياقوت : معجم البلدان : ٣٦٩/١ ، ٣٣٣ ، [illegible] ، ٤٣٦/٢ ، [illegible] ، ٩/٥ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٤١ ، ١٤٨ ، ٣٦٣ ، ٤٣٩ .

(١١٩) نفس المصدر : ٢٢٤/١ ، ٣٦٦ ، [illegible] ، ٩٦/٥ ، ١٩٢ .

قال بلال مؤذن الرسول يتشوق الى مكة (١٢٠) :

الا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بفخ وعندي اذخر وجليل

وهل اردن يوماً مياه مجنة
وهل يبدوَنْ لي شامة وطفيل

وقال مصعب بن عبد الله الزبيري يتشوق الى المدينة ومنازلها (١٢١) :

اقول لثابت والعين تهمى
دموعاً ما انهنها انحدارا

اعرني نظرة بقرى دجيل
تخايلها ظلاماً او نهارا

فقال ارى بروضة الابلخ
منازلها معطلة قفارا

وانشد اعرابي حنيناً الى الحجاز (١٢٢) :

تطاول ليلي بالعراق ولم يكن
على باكناف الحجاز يطول

فهل لي الى ارض الحجاز ومن به
بعاقبة قبل الفوات سبيل

اذا لم يكن بيني وبينك مرسل
فريح الصبا مني اليك رسول

ومن شعر اعرابي في الامصار يتشوق الى نجد (١٢٣) :

اكرر طرفي نحو نجد وانني
اليه وان لم يدرك الطرف انظر

حنيناً الى ارض كأن ترابها
اذا مطرت عود ومسك وعنبر

متى يستريح القلب اما مجاور
بحرب واما نازح يتذكر

وقال آخر يتمنى القفول الى نجد (١٢٤) :

سمعت رحيل القافلين فشاقني
فقلت اقرأوا مني السلام على دعد

احن الى نجد واني لآيس
طوال الليالي من قفول الى نجد

تمرّ فلا نجد ولا دعد فاعترف
بهجر الى يوم القيامة والوعد

ويصف اعرابي مرابط في الثغور الرومية حنينه الى نجد بقوله (١٢٥) :

تبدلت من نجد وممن يحله
محلة جند ، ما الأعاريب والجند ؟

واصبحت في أرض البنود وقد أرى
زماناً بارض لا يقال لها بند

---

(١٢٠) نفس المصدر : ٥/ ١٨٣ .
(١٢١) نفس المصدر : ١/ ٣٠٠ .
(١٢٢) نفس المصدر : ٢/ ٢٢٠ .
(١٢٣) ياقوت : معجم البلدان ، ٥/ ٢٦٢ .
(١٢٤) نفس المصدر : ٥/ ٢٦٤ .
(١٢٥) نفس المصدر : ٥/ ٢٦٤ .

وقال عبد الرحمن بن داره ممن كان يقيم بحمص بالشام [١٢٦] :

خليلي ان حالت بحمص منيتي
فلا تدفناني وارفعاني الى نجد

ومرا على أهل الجناب بأعظمي
وان لم يكن أهل الجناب على القصد

وان انتما لم ترفعاني فسلماً
على صارة فالقور فالابلق الفرد

وينسب الى الشاعر العماني محمد بن زوزان مما يتشوق به الى بلدته صحار [١٢٧] :

حيى الله دهرا شوقني صروفه
عن الأهل حتى صرت مغتربا فردا

الا ايها الركب الميممون بلغوا
تحية نائي الدار لقيتم رشدا

اذا ما حللتم في صحار فاطلبوا
مسجد بشار وجوزوا به قصدا

فعوجوا الى داري هناك وسلموا
على والدي زوزان وقيتم جهدا

وقال شاعر يمني مغترب يحن الى اليمن [١٢٨] :

خليلي اني قد ارقت ونمتما
كبرق يمان فاقعدا عللانيا

خليلي طال الليل والتبس النهى
بعيني واستأنست برقا يمانيا

وقال مالك بن الريب يتشوق الى مواطنه بجزيرة العرب [١٢٩] :

لعمري لئن غالت خراسان هامتي
لقد كنت عن بابي خراسان نائيا

الا ليت شعري هل ابيتن ليلة
بجنب الغضا ازجي القلوص النواجيا

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضا ماشى الركاب لياليا

الم ترني بعت الضلالة بالهدى
واصبحت في جيش ابن عفان غازيا

وهذا العباس بن الأحنف يقول في هذا المعنى [١٣٠] :

قالوا خراسان ادنى ما يراد بكم
ثم القفول فها جئنا خراسانا

حين الزمان اصابتنا فلا نظرت
وصليت بفشون الهجر الوانا

---

(١٢٦) نفس المصدر : ٢/٣٠٢ .

(١٢٧) نفس المصدر : ٣/٣٩٥ .

(١٢٨) نفس المصدر : ٥/٤٤٨ .

(١٢٩) نفس المصدر : ٢/٣٥٣ .

(١٣٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٢/٣٥٣ .

خامساً : وهناك اشارات متفرقة وكثيرة عن الترف الاجتماعي والعمراني الذي شهدته بعض المدن الاسلامية ، واوردها ياقوت عند حديثه عن تلك المدن ، والثروات الطائلة التي انفقت في بناء القصور العباسية ، وبخاصة في عهدي المتوكل والمقتدر . ومن ذلك وصف قصر دار الشجرة الذي بناه المقتدر « وانما سميت بذلك لشجرة هناك من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة مدورة ، امام ايوانها وبين شجر بستانها ، ولها من الذهب والفضة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن منها فروع كبيرة مكللة بأنواع الجواهر على شكل الثمار ، وعلى اغصانها انواع الطيور من الذهب والفضة ، اذا مر الهواء عليها ابانت عن عجائب من انواع الصفير والهدير ، وفي جانب الدار عن يمين البركة تمثال خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ، ومثله عن يسار البركة ، وقد البسوا انواع الحرير المدبج مقلدين بالسيوف ، وفي أيديهم المطارد ، يتحركون على خط واحد ، فيظن ان كل واحد منهم الى صاحبه قاصد [١٣١] » . ويمكن للباحث ان يطلع على مقدار ثروة علي بن احمد الراسبي ، وهو واحد من العمال المتنفذين زمن المقتدر ، كما اوردها ياقوت ، ليكون فكرة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي كان يتمتع بها أفراد هذه الطبقة من الناس [١٣٢] واورد ياقوت أيضاً معلومات لا تقل أهمية عن تلك ، حول بعض رسوم الخلافة في بغداد ، مثل دار الخيل التي كانت « من دور الخلافة المعظمة في بغداد ، وكانت داراً عظيمة الارجاء ، عادية البناء (أي ضخمة البناء) ، لها صحن عظيم الف ذراع في الف ذراع ، كان يوقف فيها في الأعياد ، وعند ورود الرسل من البلاد ، في كل جانب منها خمسمائة فرس بالمراكب الذهب والفضة كل فرس فيها على يد شاكري ، ومنظرة الحلبة التي « جعلت ليجلس فيها الخليفة ويستعرض الجيوش في أيام الأعياد [١٣٣] » .

وكان بعض الناس يقصدون القصور والمباني الأثرية وأحياناً الديارات الواقعة خارج المدن لقضاء وقت من الراحة والاستجمام ، ويشهدون هناك في أحيان أخرى سباقات الخيل . وقد شهد مثل هذه السباقات الرسول ﷺ والحجاج بن يوسف والمأمون وغيرهم [١٣٤] . ويحدثنا ياقوت ان المأمون اقتطع جملة من البرية جعلها ميداناً لركض الخيل واللعب بالصوالجة ، وحيراً لجميع الوحوش ، وفتح له باباً شرقياً الى جانب البرية ، واجرى فيه نهراً ساقه من نهر المعلى ، وابتنى . . منازل لخاصته واصحابه سميت المأمونية [١٣٥] » . اما البعض الآخر من طلاب اللهو والعبث والمتع والتهتك ، فكانوا يقصدون أماكن معروفة لهذا الغرض في الجانب الشرقي من بغداد ، وفي باري ، وقطربل في العراق ، ودالان وذموران قرب ذمار من أرض اليمن ، حيث كانوا يمارسون بعض الانحرافات والعادات الخلقية السيئة ، وهو أمر لا يخلو منه عصر من العصور ولا حضارة من الحضارات [١٣٦] . ويلاحظ

---

(١٣١) نفس المصدر : ٢/٤٦١ .
(١٣٢) نفس المصدر : ٢/٤٨٩ .
(١٣٣) نفس المصدر : ٢/٥١٩ ، ٥/٣١٢ .
(١٣٤) نفس المصدر : ٢/٤ ، ٣٢٦ ، ٥/٣١٨ .
(١٣٥) ياقوت : معجم البلدان ، ٢/٤ .
(١٣٦) نفس المصدر : ١/٣٤١ ، ٢/٣٠ ، ١٦٠ ، ٥٩٥ ، ٤/٢٧١ ، ٣٢٤ ، ٥/٢٢٤ .

هنا ان ياقوت أثبت في أثناء تعريفه بالمدن والأقاليم ما كان قد رآه او روي له او نقله من مصادره من صفات حسنة واخرى سيئة نسبت الى بعض المدن والبلاد وسكانها ، مثل ما ذكره عن أهل حمص والموصل ومرو ومرباط وصقلية والبربر والنبط . وياقوت في ذلك لم يقصد ذم هؤلاء او أولئك وانما قدم لنا جانباً آخر عما كان يقال او يكتب [137] .

الملامح الثقافيـــة :

وسجل ياقوت في معجم البلدان بطريق غير مباشر عدة ملامح ثقافية في الدولة الاسلامية . وقد استوقفته هذه الملامح لانه كان أديباً شارك في ثقافة عصره عن طريق نسخ الكتب والمتاجرة بها ، الى جانب جهوده المشكورة في التأليف ، فضلاً عن ان رصد ياقوت لجوانب من الحياة الثقافية سبقه تبل اجتياح المغول للمشرق الاسلامي وتدميرهم لمعظم المراكز الثقافية فيه . ويمكن تلمس هذه الملامح تحت الموضوعات التالية :

أولاً : المساجد : وكانت المساجد الاسلامية مؤسسات دينية ثقافية واجتماعية هامة منتشرة في جميع انحاء الدولة . كما كان يلحق بمعظمها مكتبات تضم صنوف العلم والمعرفة [138] .

ثانياً : المكتبات : اذ كان هناك العديد من دور الكتب العامة والخاصة في معظم المدن الاسلامية ، وقد شاهد ياقوت نفسه بعضها وافاد منها فائدة مباشرة . ففي مدينة ساوة بين الري وهمذان كانت توجد دار كتب كبيرة وصفها ياقوت بانه « لم يكن في الدنيا أعظم منها ، بلغني ان التتر احرقوها » وذلك عام ٦١٧هـ/١٢٢٠م [139] . وفي مدينة مرو الشاهجان وحدها بخراسان ، كان يوجد عشر دور كبيرة للكتب قبل تدمير المغول لها . ويقول ياقوت في هذا الشأن انه أقام بمرو ثلاثة أعوام وانه « لولا ما عرا من ورود التتر الى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها الى الممات ، لما في اهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة ، وكثرة كتب الأصول المتقنة بها ، فاني فارقتها ٦١٦هـ وفيها عشر خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة ، منها خزانتان في الجامع احداهما يقال لها العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز الدين ابو بكر عتيق الزنجاني او عتيق بن ابي بكر ..... وكان فيها اثنا عشر الف مجلد او ما يقاربها ، والأخرى يقال لها الكمالية ، لا ادري الى من تنسب وبها خزانة شرف الملك المستوفي ابي سعد محمد بن منصور في مدرسته ، ومات المستوفي هذا في سنة ٤٩٤هـ ، وكان حنفي المذهب ، وخزانة نظام الملك الحسن بن اسحاق في مدرسته ، وخزانتان للسمعانيين ، وخزانة اخرى في المدرسة العميدية ، وخزانة لمجد الملك احد الوزراء المتأخرين بها ، والخزائن الخاتونية في مدرستها والضميرية في خانكاه هناك . وكانت سهلة التناول ، لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار ، فكنت ارتع فيها واقتبس من فوائدها وانساني حبها كل بلد والهاني عن الأهل والولد . وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن [140] » .

---

(١٣٧) نفس المصدر : ١/٣٦٩ ، ٤٥٣ ، ١٨٥ ، ٥/٩٧ ، ٢٢٤ ، القوصي ، الفكر الشعبي عند ياقوت ، مجلة مجمع دمشق ، ١٦/٣٧٢ - ٣٧٦ .

(١٣٨) نفس المصدر : ٥/١١٤ ، ٢١٠ .

(١٣٩) نفس المصدر : ٣/١٧٩ .

(١٤٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٥/١١٤ .

وهذا النص الفريد من نوعه لا يحتاج الى تعليق بقدر ما يحتاج الى وقفة تأمل واعجاب بالحضارة الاسلامية وعظمتها . ويلاحظ هنا ان دور الكتب كانت تلحق بالمدارس والمساجد التي ما زالت تعتبر من أهم مراكز الثقافة في عالم الاسلام . والمعروف ان نواة المساجد والمدارس قد نشأت في وقت مبكر من تاريخ الدولة الاسلامية ، حتى ان ياقوت يذكر عن ابن عساكر ان المدينة المنورة كان فيها زمن ابي بكر الصديق مكتب لتعليم القراءة والكتابة (١٤١) .

وكان هناك أيضاً في العالم الاسلامي مكتبات خاصة يمتلكها العلماء والنابهون والراغبون في العلم . ومن بينهم على سبيل المثال لا الحصر أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ) المحدث الشهير وصاحب التصانيف العديدة ، التي كان طلاب العلم يبادرون للاطلاع عليها ، وكان ابو حاتم قد سبل كتبه ووقفها وجمعها في دار رسمها لها ، فكان السبب في ذهابها مع تطاول الزمان ، ضعف السلطان ، واستيلاء ذوي العبث والفساد على أهل تلك البلاد » . وقد تألم الخطيب البغدادي من ضياع بعض كتب ابي حاتم البستي ، فقال : « ومثل هذه الكتب الجليلة كان يجب ان يكثر بها النسخ ، فيتنافس فيها أهل العلم يكتبونها ويجلدونها احرازاً لها (١٤٢) » ، وابو القاسم بن عباد بن العباس الطالقاني (ت ٣٨٥هـ) ، وابو المعالي عبد السلام بن محمود ابن احمد الفقيه الحكيم (ت ٥٢٦هـ) الذي كان يستصحب جميع أمواله وكتبه اينما توجه ، وخزانة كتب ابي نصر سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة التي وقفها صاحبها على طلاب العلم في كرخ بغداد ، ويقول ياقوت عنها انه « لم يكن في الدنيا أحسن كتب منها ، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة واصولهم المحررة ، واحترقت فيما أحرق من محال الكرخ عند ورود طغرل بك أول ملوك السلجوقية الى بغداد سنة ٤٤٧هـ » . وكان بعض العلماء يوقفون كتبهم على طلبة العلم كما فعل العالم الأندلسي محمد بن عتيق بن فرج الطليطلي (ت ٤٨٥هـ) . وياقوت نفسه ، الذي أوصى بان توقف مكتبته بعد موته على مسجد الزيدي في بغداد ، وعهد الى المؤرخ عز الدين بن الأثير لتنفيذ وصيته (١٤٣) .

ولئن دلت ظاهرة وقف الكتب على شيء فانما تدل على حب المسلمين للعلم وتشجيعهم طلابه ، وقد بلغ من محبة احد الطلاب للعلم وحرصه على سماع العلم وتقييده ، حداً جعل هذا الطالب وهو الحسين بن أحمد بن علي البيهقي من أهل خسروجرد (ت ٥٣٦هـ) ، لا يكف عن الكتابة رغم تقدمه بالسن وفقده لأصابع يده . ويقول ياقوت عن هذا الرجل انه قد « أصابته علة في يده فقطع اصابعه ، فكان يمسك بيده ويضع الكاغد على الأرض ويمسك برجله ويكتب خطاً مقروءاً وينسخ (١٤٤) » .

ومع ذلك فان صنعة الوراقة التي كانت تشمل بيع الكتب ونسخها لم تكن حرفة مربحة كثيراً لأصحابها الذين احترفوها حباً في الكتاب ونشره ، ومنهم ياقوت الحموي نفسه الذي اشتكى من سوء بخته وقلة حظه في

(١٤١) نفس المصدر : ٢/٢١٧ .
(١٤٢) ياقوت معجم البلدان ، ١/٤١٨ ـ ٤١٩ ، الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، ٣/٩٢٠ .
(١٤٣) ياقوت : معجم البلدان ، ١/٥٣٤ ، ٢/٥٣٤ ، ٦٨ ، ٦٦ ، ٤/٧ ، ٥/١٦١ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ١٩٤٩ ، ٥/١٨٩ .
(١٤٤) ياقوت : معجم البلدان ، ١/٥٣٤ .

هذه الصناعة على ما ذكرناه . كما اورد شعراً لزميله ابي حاتم الوراق يقول فيه (١٤٥) :

ان الــوراقــة حــرفــة مــلعــونــة
محــرومــة ، عــيــشــي بهــا زمــن

ان عشت ، عشت وليس لي أكــل
او مــت ، مــت ولــيــس لي كــفــن

ثالثاً : العلماء : وهؤلاء كانت تزخر بهم المدن والأقاليم الاسلامية وقد اشتمل معجم البلدان على أسماء فئات من العلماء التابيين الذين ذكرهم ياقوت بعد تعريفه باسم البلد او القطر الذي ينتسبون اليه . ويلاحظ ان ياقوتاً اهتم بصفة رئيسية بتراجم أولئك العلماء الذين عاصروه ، او سبقوا عصره بقليل مما يجعل لتراجمه الموجزة اهمية خاصة . وكان بعض هؤلاء العلماء يتنقلون في البلاد الاسلامية استكمالاً لعلمهم من جهة ولنشر علمهم بين الناس من جهة أخرى . وفي هذا الصدد ذكر ياقوت اسماء العديد من علماء المغرب والأندلس الذين ارتحلوا الى المشرق للاستزادة من العلم . وكان الطلب شديداً على العلماء التابيين يسعى الكثيرون اليهم ويتمنون سماعهم . ويذكر ياقوت ان أبا حفص عمر ابن محمد بن المعمر بن أحمد المؤدب الدارقزي المنسوب الى دار القز وكانت محلة كبيرة في بغداد (ت ٦٠٧هـ) « سمع الكثير . . . وطلبه الناس ، ورحل الى دمشق بالقصد الى السماع عليه ، حمله الملك المحسّن احمد بن الملك الناصر من بغداد ، فسمع عليه هو وخلق كثير من أهل دمشق ، وكان قد انفرد بكثير من الكتب (١٤٦) » ، ومنهم سعد الخير بن محمد بن سهل البلنسي (ت ٥٤١هـ) فقيه صالح ومحدث مكثر ، سافر الكثير وركب البحر حتى وصل الى الصين ، وانتسب لذلك صينياً ، وعاد الى بغداد واقام بها وتعلم الكتابة الصينية (١٤٧) ، وابو القاسم منصور بن أحمد بن الفضل الاسفزاري (ت ٥٠٢هـ) « وكان وحيد عصره في حفظ شعائر الاسلام واهله ، متبعاً للآثار ، واعظا حسن الكلام حلو النطق بعيد الاشارة في كلام الصوفية . . . يدخل على السلاطين والجبابرة يذكرهم الله ويحثهم على طاعته ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، لا يخاف سطوتهم ، ولا يبالي بهم فيقبلون منه أمره (١٤٨) » ، ومن هؤلاء أيضاً العالم الرحالة ابو بكر عتيق السّمنطاري الصقلي (ت ٤٦٤هـ) البلدي « سافر الى الحجاز وحج وساح في البلدان من أرض اليمن والشام الى أرض فارس وخراسان ، ولقي بها من العباد وأصحاب الحديث والزهاد فيكتب عنهم جميع ما سمع ، وصنف كل ما جمع ، وله في دخول البلدان ولقاء العلماء كتاب بناه على حروف المعجم في غاية الفصاحة (١٤٩) » ، والرحالة الشاعر ابراهيم بن عثمان الأشهبي الغزي الذي « سافر الدنيا ومات بخراسان عام ٥٢٤هـ (١٥٠) » . والمحدثة المشهورة أمة الله بنت محمد بن أحمد البناني (١٥١) .

---

(١٤٥) نفس المصدر : ٤/ ٦٧٣ .
(١٤٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٢/ ٤٢٢ .
(١٤٧) نفس المصدر : ١/ ٤٩١ ، ٣/ ٤٤٠ .
(١٤٨) نفس المصدر : ١/ ٢٧٨ .
(١٤٩) نفس المصدر : ٢/ ٦٧٣ ، ٢٥٤ .
(١٥٠) نفس المصدر : ٤/ ٩٠٣ .
(١٥١) ياقوت : معجم البلدان ، ٥/ ٢٧٦ .

ولم يغفل ياقوت وهو يورد هذه الاشارات عن الحياة الثقافية في عصره ، ان يذكر ظاهرة انتحال الكتب الجيدة من قبل النخاس يستحسنونها فينسبونها الى انفسهم بعد ان يزيدوا عليها وينقصوا منها ، وقد حذر ياقوت من أمثال هؤلاء العلماء الأدعياء وكشف عن بعضهم ، كما حرص نفسه على ان لا تنسب كتبه الى غيره[١٣٢] .

رابعاً : مصادر ياقوت الثقافية في معجم البلدان :

وطبيعي ان يفيد ياقوت من المصادر العلمية والأدبية التي انتجتها الثقافة الاسلامية حتى عصره . وكان ياقوت أميناً في ذكر معظم المصادر التي استقى منها مادة كتابه . ونص على ذلك في مقدمة الكتاب وثناياه ، وقد اشرنا في مستهل هذا البحث الى بعضها وبخاصة رسالتي ابن فضلان وابي دلف ونورد هنا عدداً آخر من تلك المؤلفات كما ذكرها ياقوت ، وقسم كبير منها لم يصل الينا ، وهي على وجه العموم تتعلق بتاريخ البلدان والامصار والمدن التي توافق موضوع الكتاب . ومن هذه المصادر كتاب المبدأ والمآل لياقوت نفسه ، وكتاب افتراق العرب ، وكتاب انساب البلدان ، وكتاب اوراق العرب لابن الكلبي ، وكتاب جزيرة العرب للأصمعي ، وكتاب أخبار العرب ، وكتاب ابي محمد الأسود (في مواضع البلدان) وكتاب فتوح البلدان للبلاذري ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وتاريخ الجزيرة لعلي بن الحسين بن حلي الحراني ، وتاريخ البصرة للساجي ، وكتاب الكوفة لابن النجار ، وتاريخ الرقة لأبي علي ، وتاريخ بلخ لابي اسحاق الشملي ، وكتاب البستان في مناقب نسف لأبي الحارث اسد بن حمدويه النسفي ، وكتاب تاريخ حمص للقاضي عبد الصمد بن سعيد ، وتاريخ اصبهان لابن منده ، وكتاب مكة لمحمد بن اسحاق الفاكهي ، وتاريخ الرقة لأبي العرب ، وتاريخ ابي غالب همام بن الفضل بن مهذب المعري ، وتاريخ ابي سعد الأبي ، وكتاب طبقات محدثي اهل الموصل ، وكتاب اخبار زفر بن الحارث للمدائني ، وكتاب الجنان لابن الزبير ، وكتاب تمام الفصيح لابن فارس ، وكتاب بغداد وذكر خرابها لهلال بن المحسّن الصابي ، وكتاب موالي أهل مصر ، وكتاب جيب العروس وريحان النفوس في الطب لمحمد بن احمد بن سعيد التميمي ، وكتاب النوادر الممتعة لأبي الفتح بن جني ، وكتاب اللصوص ، وكتاب الحنين الى الأوطان للقاضي الشريف ابي طاهر الحلبي ، وغيرها[١٣٣] .

الملامح الأثرية :

وخلال وصف ياقوت للبلدان ذكر عدة معلومات أثرية هامة سواء بالنسبة للمساجد والآثار الاسلامية ، او الآثار القديمة التي خلفتها الدول والشعوب في العالم الاسلامي الذي تعاقبت عليه الحضارات . وهناك أمثلة كثيرة على هذه الآثار نجدها في وصف المسجد الحرام والكعبة الشريفة في مكة المكرمة ، ومسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة ، والمسجد الأقصى والصخرة المشرفة في القدس ، والجامع الأموي في دمشق ، وجامع عمرو بن العاص ، وجامع ابن طولون في الفسطاط ، اضافة الى تحديد المساجد التي اقامها الرسول الكريم بين المدينة وتبوك ، وذكر معلومات أخرى تتعلق بتصميم المدن الاسلامية وطريقة بنائها ، ووصف مواقعها واسوارها

---

(١٣٢) نفس المصدر : ١١/١ ، ١٢٠/٣ ، معجم الأدباء : ١١/١ .

(١٣٣) ياقوت : معجم البلدان ، ٤١٨/١ ، ٤٣٣ ، ٤٩٤ ، ١٢٦/٢ ، ٢١٩ ، ٢٨١ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٣٦ ، ٣٨٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٩ ، ٤١/٣ ، ١١٥/٤ ، [illegible]

وقصورها ، وخططها كما هو الحال بالنسبة للبصرة وواسط وبغداد وسر من رأى والفسطاط والقيروان (١٣٤) .

وهناك اشارة في معجم البلدان الى استخدام التصوير في تزيين المباني منذ منتصف القرن الأول الهجري ، كما تم ذلك في دار عبيد الله بن زياد المعروفة « بالبيضاء » . يقول ياقوت عن البيضاء : « دار عمّرها عبيد الله بن زياد بن ابيه بالبصرة ، ولما تم بناؤها أمر وكلاءه ان لا يمنعوا احداً من دخولها ، وان يحفظوا كلاماً ان تكلم به أحد ، فدخل اعرابي وكان فيها تصاوير ، ثم قال : « لا ينتفع بها صاحبها ولا يلبث فيها الا قليلاً ، فأتي به ابن زياد وأخبر بمقالته ، فقال له : لم هذا ؟ قال : لأني رأيت فيها أسداً كالحا وكلباً نابحاً وكبشاً ناطحاً (١٣٥) » .

اما آثار الأمم الغابرة فقد ذكر ياقوت منها الكثير في المواقع الأثرية في العراق كالحيرة والمدائن ، اضافة الى آثار ورسوم دراسة في دستجرد وبمرو ونهاوند وطبرستان وارمينية . واشار الى معالم أثرية عديدة في بلاد الشام كدمشق وحمص وتدمر ومعرة النعمان وبعلبك وقورس قرب حلب والخليل ، كما وصف آثاراً يمنية قديمة في صنعاء ومأرب بالاضافة الى الآثار المصرية القديمة في منف وعين شمس والصعيد ، وتحدث عن الأهرام وأبي الهول والمسلات والمومياء وذكر آثاراً اخرى في قرطاجنة بشمال افريقية . أما آثار بلاد الروم فيتحدث ياقوت عن معالم أصحاب الكهف في بلدة افسس ، ذاكراً شيئاً من التقرير الذي كتبه محمد بن موسى المنجم مبعوث الخليفة العباسي الواثق للوقوف على أمر أصحاب الكهف والرقيم . وينوه بوجود جماعة مقتولين في لحف جبل بموضع ببلاد الروم يقال له الابيروق . ويستدل من وصف تلك الجماعة على انهم مسلمون ، اذ كانوا سمر الترد وعليهم عمائم ، « ويقول المسلمون انهم من الغزاة في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ماتوا هناك صبراً » ويقال بل الروم الى انهم منهم ، وقد اقيم الى جانب موضعهم مسجد وكنيسة ، اذ يزور ذلك الموضع المسلمون والنصارى من الآفاق (١٣٦) .

وقد لاحظ ياقوت استغراب الناس من ضخامة هذه الآثار فكانوا ينسبون بناءها الى النبي سليمان بن داود والجن ، كما هو الحال بالنسبة لمدينة زندورد وتدمر وقصر صندل (١٣٧) . وقد علق ياقوت على ذلك بقوله : « ولكن الناس اذا رأوا بناء عجيباً جهلوا بانيه اضافوه الى سليمان والى الجن (١٣٨) » . كما لاحظ ان الناس كانوا يرتادون الأماكن الأثرية للمشاهدة والتنزه ، وكان بعضهم يكتب العبارات والأبيات الشعرية على جدرانها للموعظة والاعتبار (١٣٩) .

اما الملاحظة الثالثة التي ذكرها ياقوت ، فهي اقدام الخلفاء والولاة وبعض الناس على استخدام حجارة

---

(١٣٤) نفس المصدر : [illegible] ، ٣٩٠ .

(١٣٥) نفس المصدر : ١/٥٣٠ .

(١٣٦) ياقوت : معجم البلدان ، [illegible] .

(١٣٧) نفس المصدر : [illegible] .

(١٣٨) نفس المصدر : ٢/٢٧ .

(١٣٩) نفس المصدر : [illegible] ، ٣٩٠ .

المباني الأثرية وابوابها واعمدتها في بناء قصورهم وبيوتهم ، كما هو الحال بالنسبة لبقايا مدينة زنشورة وايوان كسرى ، وعين شمس ، وقرطاجنة ، ومعرة النعمان ، وسامراء ، والغريب ان خراب الأخيرة كان سريعاً ، اذ كانت في القرن الثالث الهجري تحمل انقاضها الى بغداد ويعمر بها . فقال ابن المعتز في ذلك :

قد اقفرت سر من را
وما لشيء دوام
فالنقض يحمل منها
كأنها آجام
ماتت كما مات فيل
تسل منه العظام

وكان البعض ينتقد هدم الآثار ، وازالة معالمها ، ويرى فيها قيمة تاريخية ، واداة للتفكر والاعتبار ، ومن هؤلاء القاضي ابويعلى عبد الباقي بن أبي حصين المعري الذي يقول :

مررت برسم في سيات فراعني
به زجل الاحجار تحت المعاول
تناولها عبد الذراع كأنما
رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل
أتتلفها ؟ شلت يمينك خلها
لمعتبر او زائر او سائل
منازل قوم حدثنا حديثهم
ولم أر أحلى من حديث المنازل[160]

دراسات رائدة لمعجم البلدان :

أشرنا فيما سبق الى ان صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م) كان أول من اختصر هذا المعجم في كتاب اسماه « مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع » ، وبعد ذلك بحوالي قرنين قام جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) باختصاره ثانية في كتاب عرف باسم « مختصر معجم البلدان » . ويستفاد من ذيل تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ان هناك نسخة من المختصر الأخير في مكتبة آصفية بحيدر آباد[161] .

الا ان أول دراسة في مادة معجم البلدان قام بها ياقوت الحموي نفسه وضمنها كتابه المطبوع « المشترك وضعاً والمفترق صقعاً » اذ يقول في مادة تلك الدراسة : « هذه طرفة ظريفة ، وملحة مليحة تشرئب اليها النفوس . . . انتخلتها من كتابي الكبير المسمى بمعجم البلدان ، واقترحتها من رياض حدائقه الكثيرة الافنان ، فيما اتفق من اسماء البقاع لفظاً وخطاً ، ووافق شكلاً ونقطاً ، وافترق مكاناً ومحلاً ، واختلف صقعاً ومحلاً . . . ليخف على الحامل نقله ويتيسر على الناقل نقله[162] » .

وفي القرن التاسع عشر تنبه عدد من المستشرقين الى أهمية معجم البلدان لياقوت مدفوعين الى ذلك بالحاجة الى جمع أكبر قدر من المعلومات عن الأقطار الاسلامية . ونورد فيما يلي جانباً من العرض القيم للدراسات الاستشراقية للمعجم ، والذي ضمنه وديع جويده

(١٦٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٣٩٨/١ ، ٣١٢ ، ٤٩٠ ، ٥/٢ ، ١٣ ، ١٢٠ ، ١٥٤/٣ ، ١٧٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٥/٤ .

(١٦١) Brockelmann, Geschichte der arabischen Litteratur Supplement band, (G.A.L.S.), Leyden, 1937—42, I, 880 .

(١٦٢) ياقوت : المشترك ، ١٨٤٦ ، ٣ ، ٤ .

(١٦٣) Jwaideh : The Introductory Chapters of Yaqut's Mujam Al—Buldan, Leiden, 1959, pp. IX—XI.

مقدمة ترجمته للفصول التمهيدية لمعجم البلدان لياقوت (١٦٤) . فقد قام عدد من كبار المستشرقين في النصف الثاني من القرن الماضي بدراسات علمية تتعلق بموضوعات معينة في المعجم . ففي عام ١٨٢٣ نشر المستشرق الروسي فرين (C. M. J. Fraehn) في بطرسبورغ اول دراسة استشراقية من معجم البلدان تحت عنوان « رسالة ابن فضلان وتقارير عربية مختلفة اخرى عن الروس الأقدمين والشعوب المجاورة لهم » (Ibn Foszlan's und anderer Araber Berichte Uber die Russen alterer Zeit und ihr Nachbarn.) فكان فرين بهذه الدراسة أول من نشر معلومات عن الروس والسلاف والبلغار القاطنين ضفاف نهر الفولغا ، وعن الشعوب المجاورة له ، معتمداً في الدرجة الأولى على رسالة ابن فضلان المثبتة في معجم البلدان لياقوت . وقد نشرها متنا مع ترجمة لاتينية ، مضيفاً اليها ما عثر عليه من كتب العرب عن قبائل روسيا القديمة . كما يعتبر فرين أيضاً أول من كتب عن ياقوت وعرف به ، وقد احتفظ بحثه بقيمته الى اوائل القرن العشرين (١٦٥) .

وكانت دراسة فرين فاتحة لأبحاث ودراسات مماثلة ، فقد نشر المستشرق الألماني كورد دي شولتسير (Kurd de Schloezer) الرسالة الأولى لابي دلف متنا وترجمة لاتينية ، وهي رسالته للدكتوراه ، (برلين ١٨٤٥) ، وذلك بعنوان : « ابو دلف ، مسعر بن مهلهل ، ورسالته عن رحلته الأسيوية » (Abu Dolef Misaris ben Mohalhal de itenere asiatico Commentarius.) وكان بحثه دراسة لمقتطفات من رسالة ابي دلف موجودة في معجم البلدان .

وبعد ذلك نشر المستشرق الايطالي المعروف ميشيل اماري (Michele Amari) في ليبزج ١٨٥٧ كتابه المشهور « المكتبة العربية الصقلية » (Bibiioteca Arabo—Sicula) ، وهو عن تاريخ جزيرة صقلية ، وقد ضمنه عدة نصوص عربية بدءاً بالمسعودي وانتهاء بحاجي خليفة . واشتمل الباب الحادي عشر من الكتاب على المقتطفات التي أوردها ياقوت في معجم البلدان عن جزيرة صقلية ومدنها وقراها (١٦٦) .

وفي عام ١٨٦١ ظهرت في باريس دراسة للمستشرق الفرنسي باربييه دي مينار (C. Barbier de Meynard) بعنوان « معجم جغرافي تاريخي في أدب فارس والأقطار المجاورة لها ، مستخرج من معجم البلدان لياقوت » (Dictionnaire Geographique, Historique et Litteraiare de la Perse et des Contrees Adjacentes, Extrait du Modjem El—Bouldan de Yaqout.)

أما النصوص التي اوردها ياقوت في معجم البلدان عن العرب قبل الاسلام ، فكانت موضع دراسة قام بها المستشرق الألماني لودولف كريل (Ludolf Krehl) بعنوان « حول ديانة العرب قبل الاسلام » (Uber die Religion der Vorislamischen Araber.) وقد نشرت هذه الدراسة في

(١٦٤) جويدة : الفصول المقدمة لمعجم البلدان ، ص ٥ .
كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ٣٣٦ ، العقيقي : المستشرقون ، ج٣ / ٩٣١ .
(١٦٦) اماري : المكتبة العربية الصقلية ، ١٨٥٧ ، ١٠٤ - ١٣٦ .

ليبزج عام ١٨٦٣ ، والمعروف ان هذه النصوص اقتبسها ياقوت من كتاب الأصنام لابن الكلبي ، كما ان للمستشرق الألماني يوليوس فلهوزن (J. Wellhausen) ضمن كتابه القيم « بقايا الوثنية العربية » (Reste arabischen Heidentums) جمع المقتطفات التي اوردها ياقوت من كتاب الأصنام المذكور ، واتبع ترجمتها بالتعليق والتحليل ، ورجع الى مصادر كثيرة أخرى مكنته من جمع مادة غزيرة حول الموضوع الذي يدور عليه كتابه (١٦٦) .

وكانت اراضي الحرار في جزيرة العرب موضوع دراسة اخرى قام بها المستشرق الألماني اوتو لوث (Otto Loth) معتمداً على ما ذكره ياقوت عن تلك الحرات في معجمه . وقد نشرت هذه الدراسة في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٦٨ ، بعنوان « حرار بلاد العرب عند ياقوت » (Die Vulkanregionen—Harra's—Von Arabien nach Jakut, ZDMG. 1868. XXII, 365—382.)

أما الاشارات المتنوعة التي اوردها ياقوت عرضاً عن الصليبيين فكانت محور دراسة ثانية عملها المستشرق الفرنسي هرتفيج ديرنبورج (Hartwig Derenbourg) بعنوان « الصليبيون في معجم ياقوت » (Les Croisades d'apres le dictionnaire de yakout.) ونشرت في كتاب الذكرى المئوية لمدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس عام ١٨٩٥ . (Centenaire de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes. 1795—1895. Paris, 1895, pp. 71—92)

وفي عام ١٩٢٩ نشر المستشرق ايرنست دامان (Ernest Dammann) بحثاً بعنوان « اسهام المصادر العربية في التعريف بافريقيا السوداء » (Beitrage aus arabischen Quellen Zur Kenntis des negrischen Afrika, Kiel, 1929.) ويكاد هذا البحث الذي ضم دراسة للمصادر العربية المتعلقة بالأفريقيين السود ، ان يكون اعتماده الأساسي قائماً على المعلومات الواردة في معجم البلدان لياقوت ، وآثار البلاد وأخبار العباد للقزويني .

وخلال الفترة الواقعة بين ١٨٦٦ و ١٨٧٣ تمكن المستشرق الألماني فستنفلد (F. Wustenfeld) من نشر معجم البلدان لأول مرة في ستة مجلدات خصص المجلد الأخير منها للفهارس ، وقدمت الملاحظات والفهارس المختلفة التي وضعها أساساً لدراسة منهجية لمعجم ياقوت البلداني ومصادره ، كما كتب في اثناء عكوفه على نشر المعجم مقالتين عن اسفار ياقوت وعلاقتها بمعجم البلدان ، وتناولت المقالة الأولى « تجوال ياقوت كما صوره في معجم البلدان » . ونشرت في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٦٤ (Jacut's Reisen, aus seinem geographischen Worterbuche beschrieben, ZDMG, 1864, XVIII, 397—493.) في حين كانت المقالة الثانية بعنوان « ياقوت رحالة كما هو أديب وعالم » ، وصدرت عن نشرة الجمعية العلمية الملكية في جوتنجن عام ١٨٦٥ (Der Reisende Jacut als Schriftsteller und Gelehrter, Nachrichten Von der Konigl. Gesellschaft der Wissems-

(١٦٦) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، ١٩٦٨ ، مقدمة ابوريدة ، د .

chaften, Gottingen, 1865, No. 9, pp. 233—243.)

وفي أواخر القرن الماضي (١٨٩٨) نشر المستشرق الألماني يوستوس هير (F. Justus Heer) دراسة عن مصادر ياقوت تحت عنوان « المصادر التاريخية والجغرافية لمعجم البلدان لياقوت » (Die historischen und geographischen Quellen in Jacut's geographischem Worterbuch, Strassburg, 1898.) وقد وصف وديع جويدة هذا الكتاب بأنه ما يزال أفضل وأشمل دراسة وضعت عن معجم البلدان ومصادره [١٦٧] .

وقدم المستشرق الروسي كراتشكوفسكي (Krachkovski) عدة دراسات حول معجم البلدان بينها « تحليل الاستشهادات الشعرية في معجم البلدان لياقوت » . اذ المعروف أن هذا المعجم يضم حوالي خمسة آلاف بيت من الشعر بينها عدد من الأبيات لياقوت نفسه . والكثير من هذه الأشعار جاءت شواهد تؤيد النص وتكمله ، كما أن القصائد التي قيلت في النزوح والحنين الى الأوطان وغيرها من المواضيع تعتبر وثائق على جانب كبير من الأهمية ، في ضوء ندرة الوثائق التي ترجع الى القرون الهجرية الأولى . ويمكن للباحثين ان يجدوا في هذا الشعر مادة خصبة ومفيدة ، وبخاصة في القرن الأول الهجري . وكان كراتشكوفسكي من اوائل الذين تنبهوا الى هذه الحقيقة . كما وضع هذا المستشرق الكبير دراسة اخرى حول الرسالة الثانية لأبي دلف في معجم البلدان ، وشهرزور في معجم ياقوت [١٦٨] .

وبالرغم من مرور أكثر من قرن على طبعة فستنفلد لمعجم البلدان فان هذه الطبعة كما يقول كراتشكوفسكي ما تزال من أهم المراجع لجميع المشتغلين بالدراسات العربية ، وقد اعيد نشر هذه الطبعة بالاوفست في طهران عام ١٩٦٥ . اما طبعة القاهرة التي جاءت في عشرة أجزاء واشرف عليها محمد أمين الخانجي الكتبي (١٩٠٦) فلم تأت بجديد ، وان كانت أحياناً تقدم قراءات افضل للاسماء . واضاف اليها الخانجي مجلدين استدرك فيهما على معجم ياقوت البلداني وسماه « منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان » . وقد لاحظ كراتشكوفسكي ان « هذه الاستدراكات قد تمس أحياناً نقاطاً عالجها ياقوت فيورد الناشر المعلومات المتأخرة عن ذلك ، ولكنه في أغلب الأحيان يقتصر كلامه على بلاد ومدن العالم الحديث في أوروبا وأمريكا واستراليا ، وهذه الاضافة وان لم تكن قيمة ما من وجهة النظر العلمية ، الا انها برهان طريف على استمرار الأنماط القديمة للمعاجم الجغرافية التقليدية بين الأوساط العربية المثقفة الى بداية القرن العشرين [١٦٩] .

وقد استمرت العناية بمعجم البلدان وصاحبه بعد ذلك من قبل كثير من الباحثين والأدباء العرب أمثال محمد كرد علي ، واسعاف النشاشيبي ، وعباس العزاوي ، وعبد الوهاب عزام ، وعلي أدهم ، وعبد الله مخلص ، وابو الفتوح التواتسي ، وعبد المعين الملوحي [١٧٠] . وليس من شك في ان كثرة الدراسات التي افردت لياقوت ومصنفاته ، تعتبر خير شاهد ودليل على علو كعب هذا الرجل ومكانته العلمية في التراث

(١٦٧) جويدة : الأصول المنهجية لمعجم البلدان ، ٨١ .
(١٦٨) الطيفي : المستطرف ، ٢/١٥٥ .
(١٦٩) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ٣٣٧/١ .
(١٧٠) المرعشي : الفكر الشعبي عند ياقوت الحموي ، مجلة مجمع دمشق ، ٣٥٢/٤٦ ، ٣٥٣ .

العربي الاسلامي ، الذي يمثل فيه معجم البلدان مكانة بارزة .

والحق ان ياقوت الحموي نفسه كان يدرك أهمية العمل العلمي العظيم الذي قام به ، فوصف كتابه الضخم بانه « اوحد في بابه ، مؤمر على جميع اضرابه واترابه ، لا يقوم بمثله الا من أيد بالتوفيق ، وركب في طلب فوائده كل طريق ، فغار وانجد ، وطوّح بنفسه فابعد ، وتفرغ له في عصر الشبيبة وحرارته ، وساعده العمر بامتداده وكفايته ، وظهرت منه امارات الحرص وحركته » وياقوت وهو يشير هنا الى المعاناة الكبيرة التي عايشها وهو يجمع مادة كتابه القيم حباً في العلم والمعرفة وانتفاع الناس بها ، كان كل أمله ومبتغاه ، امنية في ان لا ينسب هذا الجهد الى سواه ، ودعاء توجه به الى الله عز وجل « ان لا يحرمه ثواب التعب فيه ، وان تكون جائزته على ما اوضع اليه ركاب خاطره ، واسهر في تحصيله بدنه وناظره ، دعاء المستفيدين وذكر زكي من المؤمنين بان يحشر في زمرة الصالحين »(١٧٦) . رحم الله ياقوت الحموي رحمة واسعة وجزاه عن عمله وجهده ونصبه أحسن الجزاء .

***

(١٧٦) ياقوت : معجم البلدان ، ١٣/١ .

المصادر والمراجع :

اعتمد البحث على طبعة بيروت لمعجم البلدان ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٥٥ ، وذلك لتيسر هذه الطبعة وتداولها في أيدي الباحثين . وأشار الباحث في مواضع قليلة أخرى نقلها البحث إلى طبعة لايبزغ القديمة ١٨٦٦ .

مصادر مخطوطة :

السروري : علم الدين الصابوني (ت ٦٨١هـ)
ذيل السلالة الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان استانبول ، مكتبة سراي أحمد الثالث ، خ/ ٢٩٥٩ .

ابن الشعار : المبارك بن أبي بكر بن حمدان الموصلي (ت ٦٥٤هـ) عقود الجمان في شعراء هذا الزمان .
استانبول ، مكتبة أسعد أفندي ، خ/ ٢٣٢٣ ـ ٢٣٣٠ .

مصادر ومراجع مطبوعة :

ابن الأثير : علي بن محمد الشيباني ، أبو الحسن ، عز الدين (ت ٦٣٠هـ) .
الكامل في التاريخ .
ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٦ .

أرنولد : توماس (ت ١٩٣٠) .
تراث الإسلام (ط ١ ، ترجمة ، جرجيس فتح الله) .
ط بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٢ .

البغدادي : أحمد بن علي الخطيب ، أبو بكر (ت ٤٦٣هـ) .
تاريخ بغداد (أو مدينة السلام) .
ط بيروت ، دار الكتاب العربي ، (بدون تاريخ) .

ابن بطوطة : محمد بن إبراهيم اللواتي ، أبو عبد الله (ت ٧٧٩هـ) .
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .
ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٠ .

البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) .
فتوح البلدان (تحقيق صلاح الدين المنجد) .
ط القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٥٦ .

ابن تغري بردي : يوسف ، أبو المحاسن ، جمال الدين (ت ٨٧٤هـ) .
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
ط القاهرة ، عن طبعة دار الكتب ، (بدون تاريخ) .

حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله (١٠٦٧هـ) .
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون .
ط مكتبة المثنى بغداد ، عن طبعة ١٩٤١ .

حميدة : عبد الرحمن .
أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم .
ط بيروت ، دار الفكر ، ١٩٧٠ .
ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ، أبو زيد (ت ٨٠٨هـ) .
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .
ط بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٩ .

ابن خلكان : أحمد بن محمد ، أبو العباس ، شمس الدين (ت ٦٨١هـ) .
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .
ط القاهرة ، دار السعادة ، ١٩٤٨ - ١٩٤٩ .

الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان ، أبو عبد الله ، شمس الدين (ت ٧٤٨هـ) .
العبر في خبر من غبر .
ط الكويت ، مطبعة الحكومة ، ١٩٦٠ - ١٩٦٦ .
تذكرة الحفاظ .
ط بيروت ، عن طبعة حيدر آباد الدكن ، (بدون تاريخ) .

زيدان : جرجي بن حبيب (ت ١٩١٤م) .
تاريخ آداب اللغة العربية .
ط بيروت ، دار الهلال ، ١٩٦٧ .

السمهودي : علي بن أحمد نور الدين (ت ٩١١هـ) .
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى .
ط بيروت ، عن طبعة القاهرة ، دار إحياء التراث العربي (بدون تاريخ) .

الطبري : محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) .
تاريخ الرسل والملوك .
ط القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٠ .

ابن عبد الحق البغدادي : عبد المؤمن ، صفي الدين (ت ٧٣٩هـ) .
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع .
ط القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٤ .

العقيقي : نجيب .
المستشرقون .
ط القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٥ .

العمـد : إحسان صدقي .
الحجاج بن يوسف الثقفي .
ط بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٣ .

الغنيم : عبد الله يوسف .
مصادر البكري ومنهجه الجغرافي .
ط الكويت ، مطبعة ذات السلاسل ، ١٩٧٤ .

ابن فضلان : أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد (ت ق ٤ هـ) .
رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة .
ط دمشق ، مطبعة وزارة الثقافة ، ١٩٦٠ .

فلهوزن : يوليوس (ت ١٩١٨م) .
تاريخ الدولة العربية (ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة) .
ط القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٨ .

القزويني : زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ) .
آثار البلاد وأخبار العباد .
ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٠ .

كحالة : عمر رضا .
التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية .
ط دمشق ، المطبعة التعاونية ، ١٩٧٢ .

كراتشكوفسكي : اغناطيوس يوليانوفتش (ت ١٩٥١م) .
تاريخ الأدب الجغرافي العربي (ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم) .
ط القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣ .

كمـال : أحمد عادل .
الطريق إلى دمشق .
ط بيروت ، دار النفائس ، ١٩٨٠ .

ابن المستوفي : المبارك بن أحمد اللخمي ، أبو البركات ، شرف الدين (ت ٦٣٧هـ) .
تاريخ اربل (نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل) .
ط بغداد ، دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٠ .

المنجـد : صلاح الدين .
أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب .
ط بيروت ، مؤسسة دار الرائد العربي ، ١٩٥٩ .

نفيس أحمد : الفكر الجغرافي في التراث الاسلامي (ترجمة فتحي عثمان) .
ط الكويت ، دار القلم ، ١٩٧٨ .

ابن هشام : عبد الملك ابو محمد (ت ٢١٣هـ) .
سيرة النبي ﷺ (السيرة النبوية) .
ط القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٣٦ .

الواقدي : محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ) .
كتاب المغازي .
ط طهران ، عن طبعة دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٦٦ .

ياقوت بن عبد الله الحموي : (ت ٦٢٦هـ) .
ـ معجم البلدان ط ليبزج ١٨٦٦ .
ـ معجم البلدان ط القاهرة ، مطبعة دار السعادة ، ١٩٠٦ .
ـ معجم البلدان ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٥٥ .
ـ معجم الأدباء ط بيروت ، دار احياء التراث العربي ، عن طبعة دار المأمون بالقاهرة .
ـ المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ، ط جوتنجن ١٨٤٦ .

Brockelmann : Geschichte der arabischen Litteratur Supplementband, (G. A. L. Supp.), Leyden, 1937—42.

Jwaideh. W : The Introductory Chapters of yaqut's Mujam Al—Buldan, Leiden, 1959.

مجلات ودوريات :

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد السادس والأربعون ، دمشق ١٩٧١ .

مجلة المقتبس ، القاهرة ، المجلد الأول ، ١٣٢٤هـ .

مجلة الجمعية الشرقية الألمانية .

Z. D. M. G : Zeitschrift des Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft.

***

صَدر حَديثًا

الصراع من أجل أن تكون إنسانا
"الجريمة وعلم الاجرام والفوضوية"

تأليف : ل. تيفت ود. سوليفان
عرض وتحليل : عدنان الدوري
استاذ بجامعة الكويت

(١)

هذا كتاب غزير بأفكاره المتحررة ومواقفه المتطرفة واتجاهاته المتصلبة . وقد جاء بأسلوب مركز بشكل لا يتيح لقارئه تخطي أي سطر من سطوره دونما وقفة متبصرة لكل ما يبطنه من فحوى او يظهره من معنى . وربما كان الأجدر بادارة مجلة « عالم الفكر » ان تطلب ترجمة هذا الكتاب ترجمة كاملة دون الاكتفاء بعرض موجز لأهم افكاره واتجاهاته .

والكتاب يتناول موضوعات معاصرة على درجة كبيرة من الاهمية لانها تشكل أرضية عريضة واسعة للجدل العلمي والفلسفي والفقهي والقانوني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي او غير ذلك من ميادين المعرفة العلمية المنظمة .

وسنحاول جهدنا في عرض ما تضمنه من فكر وتحليل وعسى ان نكون قد أفلحنا في إبراز أهم افكاره وفرضياته .

والكتاب مطبوع حديثا (١٩٨٠) يحمل عنواناً مثيراً ولكنه يمثل اتجاهاً ليبرالياً معاصراً يتناول تحليل مفهومي الجريمة والعقاب من زاوية فلسفية جدلية وأخرى اجتماعية علمية جديدة . فهو يدعو الى ربط الجريمة وربط العقاب بعملية المعاناة البشرية من أجل تحرير الذات . اذ يرى أن علماء الاجتماع ، الأكاديميين منهم والماركسيين على السواء ، قد عجزوا حتى الآن عن رسم طريق أمام الانسان المعاصر الى حياة اجتماعية آمنة مستقرة . ذلك ان العنف والمظاهر السلطوية التي تمارسها الدولة وكل ما يتفرع عنها من مؤسسات سلطوية لا يمكن ان تحقق بحال من الاحوال بعض ما يطمع به أفراد المجتمع من استقرار اجتماعي وسلامة فكرية .

وان بناء حياة اجتماعية متكاملة متوافقة ، من وجهة نظر مؤلفي هذا الكتاب ، ينبغي أن تعتمد على كفاءة الانسان ذاته وعلى مدى جدواه الوظيفية في المجتمع الذي يعيش فيه . كما أن تطور الحياة الاجتماعية وتقدمها يخضعان بالدرجة الأولى لما يقدمه الأفراد انفسهم من عون متبادل بنّاء ومن خلال تعاون جماعي ايجابي ملموس .

ويوضح الكتاب كيف اننا لا نزال نعيش حياة أقل ما يقال فيها انها تقوم على الاتكالية المطلقة والاعتماد الكامل على الآخرين ، ولذلك فليس من الصواب الاصرار على الاعتقاد باستقلالية ظاهرتي الجريمة والعقاب عن حقل الاقتصاد او عن الدولة او حتى استقلاليتهما عن الحياة ذاتها . ان غالبية علماء الاجتماع وعلماء الجريمة الأكاديميين يخفقون في ادراك أهمية الظروف الأساسية التي تحيط بحياة الانسان المعاشية لأنهم لا يزالون يدورون في فلك الدولة وحول محور القانون والخضوع لسلطان كل منهما . ان ظروف الانسان المعاشية تستدعي التعاون الكبير بين الأفراد وهذا التعاون هو الذي يطبع عجلة الحياة في نمطها المعاصر .

حتى أنصار الفكر الراديكالي أنفسهم ، ممن ينضوون تحت مظلة الفكر الاشتراكي في علم الاجرام المعاصر لا يستطيعون الافلات من فكرة مركزية الدولة وقوة سلطانها في توجيه دفة الحياة الاجتماعية نحو التقدم والحركة والتطور . ان مثل هؤلاء لا يستطيعون ان يتجاوزوا في تحليلاتهم الايديولوجية امكانية العيش خارج اسوار مركزية الدولة لأنهم لا يزالون يربطون بين عملية التنظيم الاجتماعي ذاته وبين قوة فاعلية السلطة المركزية للدولة .

وإذا كانت أهمية علم الاجرام ، كمعرفة علمية متخصصة ، لا زالت اليوم بعيدة المنال في وعي مجتمعاتنا المعاصرة فان هذا العلم وحده لاشك يستطيع أن يكون الدرع الدفاعي المنيع الذي يمكن أن يحمي الأفراد ضد تسلط الدولة ، ولذلك ينبغي انقاذ هذا العلم من السقوط في جاذبية الدولة أو الخضوع لسلطانها وتبعيتها . ان مهمة علم الاجرام ، او عالم الاجرام الجديد ، أن يحرر نفسه من سلطان الدولة باثبات عدم جدوى النظرة العقابية التقليدية نحو الجريمة والتي لا تزال تربط الجريمة بقوانين الدولة الجزائية ربطاً عضوياً مباشراً . ان غياب علم اجرام جديد بهذا المعنى يتركنا نتطلع دوماً الى الدولة في كل ما يتصل بشؤون الجريمة والعقاب الأمر الذي يجعلنا نسير في مدار الدولة ونخضع لسلطانها .

(٢)

ويتضمن هذا الكتاب مقدمة طويلة اعقبها فصول أربعة جاوز بعضها الخمسين صفحة . ولعل ابرز ما في مقدمة الكتاب تلك الفكرة التي تناولت صراع الانسان الطويل نحو تحقيق انسانيته ، وذلك من خلال تبني فلسفة علم اجرام حديث من علوم الانسان المعاصرة . وقد استطاع المؤلفان وهما من علماء الاجتماع الأميركيين ، ان يبلورا فلسفة هذا الكتاب حول موضوع الجريمة وعلم الاجرام الجديد .

يقول المؤلفان اننا بدأنا نسمع اليوم بعض أصوات علماء الجريمة الرافضين لبعض التعريفات القانونية التقليدية التي التصقت بفكرة الجريمة وفكرة العقاب او حتى بمفهوم معاملة المذنبين ان مثل هذه التعريفات لا شك تحجب وراءها تلك المعاني الإنسانية لمفهوم العدالة الاجتماعية ، فمعاناة الانسان المسجون خلف قضبان

السجون لا تختلف عن معاناة أخيه الانسان الآخر الذي يموت جوعاً في أفريقيا الشرقية ، أو أولئك الأطفال الذين يحرقون أحياء بقنابل حرب فيتنام . إن المعاناة الانسانية واحدة مهما اختلفت أسبابها وتباينت صورها وأشكالها . اننا في الواقع لا نستطيع أن نفسر جريمة الايذاء التي يرتكبها شخص ضد آخر وفقاً لمنطق ذلك القانون العلمي الأحادي الذي يقوم على السبب والنتيجة . ان هذا القانون لا يأبه للمعاناة الانسانية الذاتية التي يعانيها الانسان في سبيل تحقيق المساواة الاقتصادية والاجتماعية . ان مفهوم العقاب المعاصر ، مهما اختلفت أشكاله وصوره ، لم يعد له ثمة معنى مقبول وذلك من خلال ما يمارس فيه من جراحة طبية وايلام بدني وتعذيب نفسي وعزل مادي يقيد حرية الانسان بصورة قاسية بحيث لا يرى ضوءاً ولا يسمع صوتاً ولا يقابل بشراً .

اننا لا نستطيع ان ندرك معنى الحرية قاتها الا اذا خرجنا عن مجال الدولة المغناطيسي الجاذب ، كما كان عالم الفلك « كوبرنيك » لا يستطيع ان يتصور حركة الأرض الا حين يتاح له الخروج منها بعيداً عنها والنظر اليها من على سطح الشمس . ويظهران صاحبي هذا الكتاب لا يدعوان الى تصحيح مسيرة علم الاجرام الحالي كفرع من فروع المعرفة العلمية اووضع هذا العلم في اطار فكري انساني جديد . انها في الحقيقة يدعوان الى اقامة مجتمع بديل لمجتمعنا الراهن حيث لا يكون هناك حاجة الى علم إجرام او الى عقاب ينبعث عن سلطان الدولة . ان العلاج هو في الغاء الدولة والغاء الرأسمالية معاً والغاء كل ما يتفرع عنها من مؤسسات سلطوية وهذا لا شك يلغي حاجتنا الى علم اجرام يقوم على سلطة الدولة . ومع ذلك فان المؤلفين لا يقدمان الحل الماركسي بديلاً لمواجهة الحالة . انهم يعتقدان بان الماركسيين انفسهم يرسخون سلطان الدولة بعد نجاح محاولاتهم في قلب النظام القائم .

فالبديل المطلوب هو نظرة انسانية متفتحة نحو العالم بحيث يسود التوافق بدل التغيير والذوبان بدل الالغاء والتناغم بين الانسان وبين كل ما هو طبيعي .

اننا لا نزال نعيش في عالم يتميز بألوان العنف والعدوانية ، سواء كان ذلك في مجتمعاتنا الكبيرة او المحلية ، او في بيوتنا او في مدارسنا او في دوائر عملنا او مصانعنا وحقولنا الزراعية . ان جميع هذه المؤسسات تصطبغ بصبغة القهر والتسلط والقمع والعدوانية وطلب الطاعة العمياء ، ونحن لا نزال نترعرع من خلال مفاهيم اجتماعية محدودة لا تخرج عن دائرة الطاعة او حدود الواجب او الخوف من العقاب . ولذلك فنحن لم تعد نشعر بوجود العنف من حولنا لأننا غير منفصلين عنه بل صار جزءاً من حياتنا . كما أنه ليس بوسعنا ادراك لا مشروعية العنف الذي نعانيه ، ولا يمكننا تقويم لا أخلاقياته ، لأننا نعجز في الواقع عن ادانة مصدر هذا العنف وهو الدولة . ان الدولة بوصفها صاحبة السلطة المطلقة تستطيع ان تمارس اعمال القتل والايذاء والحبس ومصادرة المال وانتهاك حرمة البيوت ومصادرة الحريات الفردية ، ومع ذلك فان مثل هذه الأعمال تكتسب التسميات الاجرامية التقليدية حين يقوم بها فرد من الأفراد حيث يصبح هذا الفرد قاتلاً او سارقاً او مغتصباً او منتهك حرمات . اما العنف المشروع الذي يصدر عن سلطة شرعية كالدولة فهو الذي لا يمكن ادانته لأنه يستند الى شرعية تقوم على سيادة الدولة على الافراد . وموجز ما يراه مؤلفا هذا الكتاب ان معاناتنا لا تنبعث عن تلك الأفعال اللاجتماعية التي يعاقب عليها القانون كجرائم ، بل عن تلك الأفعال المشروعة التي لا توصم

بوصمة الجريمة والاجرام . ان مثل هذه الأفعال المشروعة قد تشيع الكثير من العوز والتعاسة والدمار والصراع ، ومع ذلك فهي تعاسة تظل غير منظورة لأنها بعيدة عن الاشارة والتنويه .

(٣)

ان التعريف القانوني للجريمة ، الذي لا يزال يقوم على فكرة الضرر بالمصلحة الاجتماعية لا يربط بالضرورة بين مخالفة القانون وبين حدوث بعض الضرر بالمصلحة الاجتماعية او حتى انتهاك بعض المعايير الاجتماعية او القيم الأخلاقية . ذلك ان هناك جرائم كثيرة لا ينشأ عنها ضرر ما لأحد من الأفراد سوى صاحبها كجريمة التسكع وجريمة السكر او حتى تغيب حدث صغير عن بيته او عن مدرسته . وهناك من الناحية الأخرى أفعال ضارة مؤلمة لا يغطيها التعريف القانوني للجريمة كعقوبة الاعدام ذاتها وعقوبة الحبس والحرب وتلوث البيئة والتعصب العنصري والاباحية الجنسية والمعاملة القاسية التي يلقاها الصغار من قبل ذويهم .

ان الجريمة من الناحية القانونية لا تعدو كل فعل او امتناع يرد بنص في القانون الجزائي ، وهذا يفيد بأن الجريمة كل نمط سلوكي معين يخرج على معيار قانوني معين وكل ما عدا ذلك لا يشكل جريمة . وهذا يفيد ببساطة ان غياب نص القانون الجزائي ذاته يؤدي الى انعدام الجريمة ذاتها .

وكذلك شأن العقوبة كجزاء رسمي فهي تمثل ذلك الضرر او الايلام المتعمد الذي تلحقه سلطة ذات صلاحية شرعية بفرد معين وذلك عن فعل تعتبره ضاراً بها . واذا كانت الدولة قد نشأت في أول مراحلها لحماية مصالح طبقة التجار وذوي اليسار فقد استخدم مفهوم الجريمة لحماية هذه المصالح . ان القانون الجنائي لا يهدف لحماية تلك الاعراف والمعايير الاجتماعية السائدة في المجتمع بل هو قد جاء لحماية مصالح الدولة . فالدولة غالباً ما تنتهك بعض الأعراف والمعايير الاجتماعية تحت بعض المبررات الاقتصادية والسياسية . لقد كانت انظمة الرق ، التي سادت لدى مجتمعات كثيرة ، بعض جهود أولئك الذين يملكون السلطة الكافية لتقرير مشروعية الرق . وحين انحسر النظام الاقطاعي وضعفت فعالية مؤسساته انيطت السلطة المركزية للدولة تحت أشكال مختلفة تحت مظلة سيادة الدولة متبنية حماية الأفراد . وهكذا بدأت الدولة أو (الصفوة) تضع تعريف الجريمة المناسب وتفرض لها العقاب المناسب ، وصارت الجريمة مفهوماً رسمياً يرتبط بمخالفة القانون ، والخروج على النظام القائم ، وهذا بذاته عمل موجه ضد سلطة الدولة . ان تاريخ تطور القانون الجنائي وما تضمن من ممارسات رسمية لمواجهة ظاهرة الجريمة تمكس تلك الانماط المناسبة التي تتضمن مطلب الضبط والطاعة .

وهذه لا شك ترتبط ببعض الخلفيات الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية السائدة في كل عصر من العصور .

وكذلك كان شأن العقوبة ذاتها كجزاء رسمي يصدر عن سلطة رسمية هي الدولة . لقد صار العقاب ذلك الضرر المتعمد الذي يصدر عن سلطة ذات شرعية لمعاقبة فرد من الأفراد عن فعل معين ضار بمصلحة الدولة . ومن هنا فان فكرة قبول القانون ذاته تعتبر تبريراً للدولة مهما اتخذت هذه الدولة من اجراءات لمواجهة المشكلات او التعاسة التي تخلقها بنفسها . ان

فكرة قبول القانون تعني ان الأطفال الذين تساء معاملتهم او الجياع الذين يتضورون جوعاً وضحايا العنف البدني وضحايا عنف الدولة لم تعد اليوم مشكلات ينبغي ان نهتم بها بصورة مباشرة او نتحمل مسئولياتها . لقد صار القانون ذاته وما يفرزه من علاقات تبعية هي الأمور التي تجاوزت الآن درجة معاناتنا . ان الأفعال الضارة التي تقع بيننا اليوم كالاغتصاب الجنسي والقتل والحرب وقسوة العقاب والاستغلال الاقتصادي والايذاء البدني يمكن تقليصها وتخفيف آثارها وأضرارها فيما لو تركنا القانون جانباً وأقمنا بدله مجتمعات انسانية تقوم على المساواة والحرية والتعاون المشترك . ولعل هذا يتيح لنا الطريق الى ايجاد حلول اجتماعية عادلة لكل ما نعانيه من صراعات وتناقضات تعاني منها مجتمعاتنا .

ان الشعور بمسئولية الفرد نحو الجماعة يمكن ان يكون البديل الصالح لكل المسئوليات المتعددة التي تضطلع بها تلك اللجان الكثيرة التي تشكلها لايجاد الحلول البيروقراطية لمشكلاتنا الراهنة . ان الشعور بالعدالة في حياتنا اليومية والطرق التي نستجيب بها لمواجهة صراعاتنا وتعاستنا يمكن ان تكون بادراكنا الكبير لمدى شعورنا بالحاجة الى الآخرين .

(٤)

ولا شك ان فحوى الكتاب تتلخص في ان جذور مشكلاتنا الراهنة تنحصر في اننا لا زلنا نركز على دراسة الجريمة من الناحية العلمية بمعزل عن مطلبين اساسيين هما مطلب دراسة الدولة ذاتها التي تنشيء القانون الجنائي ومطلب دراسة العدالة الانسانية من أجل تحرير انفسنا . ان اغفالنا لأهمية المطلب الأخير هو المسئول عن مضاعفة تعاستنا ومعاناتنا في سبيل تحقيق مجتمع انساني صالح سليم . وان الضرر الرسمي الذي يصدر عن سلطة شرعية يشيع في مجتمعنا التعاسة والعناء والتناقض والدمار والحاجة . ورغم هذا فان الضرر الذي قد يلحق بالفرد من جراء سرقة لا قانونية او من قبل سلطة تختفي وراء القانون يظل يسير في دورته المعتادة دون توقف . واذا كانت الكرة الأرضية عاجزة اليوم عن حماية مواردها الطبيعية من النفاد العاجل فان الضمير الانساني عاجز اليوم عن حماية نفسه من الاندثار والضياع ، واذا كان لا بد من العيش بدون سلطة اوبدون قهر سلطوي فعلينا التركيز على حياة مجتمعية جديدة قائمة على التعاون المتبادل .

وفي اطار بيئة محددة باقتصاديات طبيعية معينة فان صراع الانسان لكي يكون انساناً يصبح امتداداً حيوياً للحياة ذاتها . فاذا كان الانسان لا يزال يسعى الى تطوير موارد الطبيعة بما ييسر له حياته الطبيعية فان من الأولى ان يبدأ الانسان بتطوير ذاته بما يكفل بعث الحياة الى الجنس الانساني عامة وذلك من خلال ما يتمتع من ذكاء وحب وحيوية وما يحس به من تعاون نحو الآخرين . ان حرصنا اليوم على المشاركة الجماعية في ما نملكه من خيرات الطبيعة ينبغي أن يمتد الى مشاركة انسانية اخرى في خدمة اهداف الجنس الانساني الذي ننتمي اليه .

ولعل هذا لا يقف عند حدود تحقيق مطلب العدالة والمساواة فحسب بل ينبغي أن يمتد الى ذلك المصدر الداخلي الذاتي الذي يقودنا الى التعامل مع الآخرين كما نرغب ان نعامل نحن به في ظروف مماثلة . واذا كنا لا نريد ان نكون محكومين لأحد فان علينا أن لا نحكم الآخرين .

ولعل هذا لا يعني انضمام الجياع من البشر وفق احساسنا الأعمى بآلام الجوع بل يمتد الى تلك المشاركة الوجدانية من خلال التعاون الكامل مع الآخرين وتطوير علاقاتنا بهم على نحو يملأ ذلك الفراغ الانساني الفسيح الذي يفصل بيننا .

ان الحرية التي ننشدها لنا وللآخرين ينبغي أن تكون حرية خلاقة تعمل بدون سلطة أو تسلط على الآخرين أو تقييد اراداتهم . انها قوة متحررة تعمل من خلال ما تملكه من مهارات خاصة لتكون ذات تأثير معين على الآخرين . وفي اطار بيئة تتميز بتنظيم اجتماعي يقوم على مثل هذه الحرية فانه لا مكان للتخوف من تسلط فردي أو عدوان على الآخرين .

ان تحقيق مثل هذه المطالب الكبيرة يستلزم مواصلة الصراع نحو تحقيق انسانيتنا .

***